

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية و آدابها

نثر عبدالحميد الكاتب
دراسة أسلوبية

رسالة مقدمة من الباحث/ كريم فاروق أحمد عبدالدايم الخولي
لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية و آدابها

إشراف

الأستاذ الدكتور/ محمد يونس عبد العال
أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب جامعة عين شمس

الدكتور/ طارق سعد شلبي
أستاذ النقد والبلاغة المساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس

كلية الآداب- جامعة عين شمس
٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

"نرفع درجات من نشاء^{قلى}
و فوق كل ذي علم عليم"
يوسف ٧٦

شكر و تقدير

إلى كل أساتذتي الأجلاء بقسم اللغة العربية - كلية
الآداب جامعة عين شمس الذين تعلمت على أيديهم أن اللغة
العربية رسالة يتشرف بها حاملها .

شكر للأستاذ الدكتور/ محمد يونس عبدا لعال
على رعايته لي بالنصيحة والتوجيه منذ الالتحاق
بالقسم للدراسة و امتداد تلك الرعاية حتى الحاضر و
المستقبل إن شاء الله.

وشكر للدكتور/ طارق سعد شلبي
الذي أعجز عن رد جميله و عطائه الفياض فجزاه الله
عني وعن كل باحث خير الجزاء.

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية و آدابها

اسم الباحث: كريم فاروق أحمد عبدالدايم الخولي
الدرجة العلمية: درجة الماجستير
القسم التابع له: قسم اللغة العربية و آدابها
اسم الكلية: كلية الآداب
اسم الجامعة: جامعة عين شمس
سنة التخرج: ١٩٩٦ م
سنة التسجيل: ٢٠٠٣ م
سنة المنح: ٢٠٠٨ م

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية و آدابها

رسالة ماجستير

اسم الباحث : كريم فاروق أحمد عبد الدايم الخولي
عنوان الرسالة: نثر عبد الحميد الكاتب – دراسة أسلوبية
اسم الدرجة: الماجستير

لجنة الإشراف

- أ د/ محمد يونس عبد العال أستاذ الأدب العربي بكلية
الآداب-جامعة عين شمس
- د/ طارق سعد شلبي أستاذ النقد و البلاغة المساعد
بكلية الآداب -جامعة عين شمس

-

-

تاريخ البحث / / ٢٠٠٨م

الدراسات العليا

ختم الإجازة: أجازت الرسالة بتاريخ / / ٢٠٠٨م

موافقة مجلس الجامعة
/

موافقة مجلس الكلية
/ / ٢٠٠٨م

٢٠٠٨م

المقدمة

تتاول الكثير من الدارسين دواوين الشعر العربي بمناهج مختلفة و كان من أهم هذه المناهج المنهج الأسلوبى الذى أسهم فى إثراء هذا الشعر، و لكن فى المقابل نجد قلة تتاول هذا المنهج للنصوص النثرية بالرغم من ثراء تلك النصوص بالظواهر الأسلوبية التى لا تقل أهمية عن مثيلاتها فى الشعر.

و من النصوص المهمة فى فترة من فترات تاريخنا – العصر الأموي- و عند كاتب بعينه – هو عبد الحميد الكاتب- نجد أهمية تتاول الدرس الأسلوبى لنثره من حيث تأثيره فى العديد من كتاب عصره و من يليهم فى عصور لاحقة من ناحية ، و تأثيره فى عصره من ناحية أخرى و كانه أول من ابتكر فن من فنون النثر- و إن لم يكن كذلك- و نعني الرسائل الديوانية.

و لأهمية الرسائل الديوانية لما تكشفه من جوانب الحياة السياسية و الاجتماعية فى العصر الأموي و ما أرساه عبد الحميد الكاتب فيها من ملامح و أصول التزم بها الكتاب من بعده ، علاوة على ثقافته العربية و الفارسية و اليونانية فقد أثرنا أن تكون الدراسة فى إطار لغوي يعتمد على تكرار العناصر اللغوية و ولادتها فى نثر عبد الحميد و إحصائها فى إطار تطبيقي يؤكد ما نذهب إليه من هذه الدراسة فتكون الأدوات تحت منهج يفيد من الأدوات النقدية للمناهج المختلفة دون التقيد بواحد منها.

و تتاول نثر عبد الحميد الكاتب بالأدوات اللغوية لا يكشف عن الحياة السياسية و الاجتماعية فحسب ، بل و عن شخصية الكاتب و حياته.و لا تحدد لنا ملامح أسلوب الكاتب فحسب ، بل و تلقي بعض الضوء على شخصية متلقي الرسالة و ربما ثقافته.

فهذا الجنس الأدبي يتوفر له من الميزات ما قد لا يتوفر لجنس أدبي آخر و من هذه الميزات معرفة موجه الرسالة لمتلقيها معرفة جيدة فيساعده ذلك على اختيار الأدوات اللغوية التى يضمن بها التأثير فى المتلقي. و على ضوء ذلك فإن الدرس الأسلوبى لنثر عبد الحميد الكاتب يكشف عن الملامح الأسلوبية لنثره من ناحية ، و من ناحية أخرى عن بعض الملامح الشخصية و الثقافية للمتلقي.

و يهتم البحث برصد تأثير الحياة السياسية و الاجتماعية و ثقافة الكاتب و احتكاكه بالثقافات الأخرى غير العربية على نثره مع رصد مستويات الأسلوب من مستوي صوتي و تركيبى و تصويري و ارتباط تلك المستويات بالدلالة فى نثره .

و لتحقيق هذا الهدف فقد قسمنا الرسالة إلى مقدمة، و تمهيد و ثلاثة أبواب يتناول التمهيد بعض من حياة عبد الحميد الكاتب، و عصره، و ثقافته، ثم رسائله في سياقها التاريخي و أبرز موضوعات نثره، ثم عرض قصير للدراسات القديمة و الحديثة التي تناولت عبد الحميد أو نثره.

أما الباب الأول بعنوان "المستوي الصوتي" فيدرس في فصله الأول الصوت المفرد من حيث إسهاماته الموسيقية في النص و إنتاج الدلالة عن طريق التقابل الصوتي للأصوات المفردة، و تتأفر الأصوات وتجانسها، والحركات المؤثرة في بطء الإيقاع أو سرعته. كما يدرس إسهامات الصوت المفرد و تكراره في تجلية المعنى في ذهن المتلقي، وتكوين الدلالة داخل النص. و يدرس أيضا الدلالة الذاتية لبعض الأصوات و علاقاتها بالسياق الواردة فيه و مدي تأثيرها في دلالة النص. و يدرس في فصله الثاني بعض ظواهر البديع الصوتي في نثر الكاتب و مدي ارتباطها بالدلالة من ناحية، وتأثيرها في المتلقي من ناحية أخرى مثل الجنس و السجع و الترصيع والموازنة و المماثلة.

أما الباب الثاني بعنوان "المستوي التركيبي" و يدرس العلاقات النحوية و المعجمية بين الكلمات و الجمل مع رصد الأبنية النحوية المتكررة و مدلولاتها لدي الكاتب ويرصد في فصله الأول بعض قوالب التركيب مثل: العطف، و الشرط، و التركيب الوصفي. و في فصله الثاني: بعض ظواهر العدول مثل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، و الالتفات. و ارتباط هذه الظواهر بالدلالة في نثر الكاتب.

أما الباب الثالث بعنوان "المستوي التصويري" و يدرس التكرار الذي يخضع فيه الكاتب لتقاليد النثر و لغته في التصوير مع التجديد في بعضه فيميل في فصله الأول إلى رصد الصور الجزئية من تشبيه و استعارة و كناية وقد عينا برصد ما كان في النثر من تكرار النماذج التراثية مع إبراز طابع الكاتب الخاص و قدراته في تكوين تصويراته التي تميزه عن أي كاتب آخر من جانب و تقاليد التجديد في عصره من جانب آخر وفي فصله الثاني الصورة الكلية كما تظهر في نثره.

أما الخاتمة فنتناول فيها تلخيصا للأبواب السابقة و النتائج التي توصلنا إليها من دراستنا اللغوية لنثر الكاتب.

ثم تأتي المصادر و المراجع لتختتم هذه الدراسة.

و قد راعينا الاقتصاد في المقدمات النظرية لإفساح أكبر قدر ممكن للدراسة التطبيقية لينصب الدرس علي النص علي حساب الأدوات، فمهدنا لكل فصل بما يعرف بشكل عام وصورة مختصرة بما يتناوله من أدوات

والله ولي التوفيق

تمهيد

عبد الحميد: حياته. ثقافته. عصره.
رسائله وأبرز موضوعات نشره وفتراتهما التاريخية.
الدراسات السابقة.

حياته

"عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، أشهر كتاب العصر الأموي وهو فارسي الأصل من الأنبار ثم سكن الرقة. عمل أول حياته معلماً للصبيان في الكتاتيب وتنقل في البلدان، ثم التحق بديوان هشام بن عبد الملك - تولى الخلافة من ١٠٥ هـ إلى ١٢٥ هـ - وكان يتولى ديوان الرسائل فيه مولاة سالم أبو العلاء، ثم عمل عبد الحميد كاتباً لمروان بن محمد أيام ولايته على أرمينية، فلما تولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ، صار رئيساً لديوانه، ولما هزم مروان فرّ معه إلى مصر حيث قتلها العباسيون سنة ١٣٢ هـ"^(١).

وما من شك أن سالماً هذا - وكان صهر عبد الحميد - من الحق عبد الحميد بالعمل في ديوان الرسائل، وربما كانت الصلة بينهما ارتفاع عبد الحميد بتعليم وتأديب صبيان الأمراء والملوك، أو أظهر بلاغة في الكتابة أهله للعمل بديوان الرسائل.

وذكرت المصادر - التي ترجمت عبد الحميد - الحكايات التي تظهر جوانب من صفات عبد الحميد كالوفاء والمروءة وحسن التدبير وغير ذلك. ثقافته

تأثر عبد الحميد بثقافات عدة أولها - وأهمها - الثقافة العربية الإسلامية بكل جوانبها، ولعل التأثير بالقرآن الكريم قد ظهر في نثره أيما ظهور "كما ظهر أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية فيما كتبه عبد الحميد من التحميدات التي افتتح بها رسائله، ففيها تظهر ثقافته الدينية واضحة، أما ما كتبه في وصف الصيد أو فيما وصف به الخيل والأسلحة في رسالته إلى ولي العهد، فيظهر فيه التأثير بشعر الجاهليين من مثل أوس بن حجر وزهير والنابغة وغيرهم"^(٢).

فبعد الحميد مثال للمثقف في عصره الذي يأخذ من كل ألوان المعرفة والاطلاع فقد أفاد من خطب الإمام علي وحفظها، والحسن البصري وأسلوبه في كتابة خطبه، وغيلان الدمشقي في مواعظه. فثقافته العربية الإسلامية لها روافد متعددة أثرت في عبد الحميد وظهرت في رسائله بصورة واضحة.

ولكون عبد الحميد فارسي الأصل - كما أشارت أغلب المصادر - فقد كان يعلم الفارسية، وترجم بعض الكتابات إلى العربية. وقد ظهر في رسائله بعض الحكم والجوانب الأخلاقية التي اشتهر بها الساسانيون، وقد أورد د/ إحسان عباس بعض ما تشابه بين نثر عبد الحميد وكتابات الفرس^(٣).

وليس من شك أن الدواوين في بدايتها كانت تكتب باللغة الفارسية في العراق، وباليونانية في الشام، وكانت الرسائل تترجم إلى العربية عند وصولها إلى

(١) محاضرات في الأدب العربي د/ محمد يونس عبد العال، ص ٨٣.

(٢) السابق، ص ٨٤.

(٣) راجع كتاب د/ إحسان عباس، عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبو العلاء، دار الشروق، عمان، ١٩٨٨م.

الخليفة – في عهد الأمويين – حتى عربت الدواوين شيئاً فشيئاً، ولهذا فقد وجد في الدواوين – بعد تعريبها – من الكتاب من يجيد اللغة الفارسية وأساليبها مع إجادته اللغة العربية بطبيعة الحال.

وبالرغم من معرفة عبد الحميد بالفارسية وترجمة بعض نصوصها "من الواضح أن نقل عبد الحميد عن الفرس لم يكن حرفياً، وإنما كان يحاكي ويقلد، وهو في ذلك يتأثر ويأخذ ما يلائمه، ليبدع ويبتكر ويختط لنفسه أسلوبه المتميز"^(٤).

وبجانب العربية الإسلامية والفارسية تأثر عبد الحميد باليونانية، ولكن ليس بدرجة ما ذكرناه.

وقد شغلت قضية تأثر عبد الحميد باليونانية جانباً من الدرس النثري في العصر الحديث؛ فقد ذهب طه حسين إلى تأثر عبد الحميد الشديد باليونانية "ولعبد الحميد خاصة لغوية أو فنية، وهي التي تحملني على أن أرجح أنه كان شديد الاتصال باليونانية. فهو إذا كتب أسرف في استعمال الحال، والحال معروفة في العربية، وهو لا يقتصر في استعمال الحال وإنما هو يعتمد عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها، وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى"^(٥).

وقد أورد أيضاً أسباباً أخرى وهي التي جعلته يعتقد بل ويؤكد بأن عبد الحميد كان متأثراً باليونان في كتاباته ألا من أهمها ما ذكره عبد الحميد في رسالة مروان لولي العهد من تقسيم الجيش إلى وحدات تتكون كل وحدة من مائة رجل، واستند أيضاً على تقسيم عبد الحميد كلامه إلى فصول وأجزاء.

والحق أن استخدام عبد الحميد للحال كان مفراطاً بعض الشيء؛ ولكنه استخدم بعض الأساليب – كحروف العطف – والمشتقات استخداماً مفراطاً أيضاً، فلا يعني – في رأينا – أن استخدام عبد الحميد للحال متأثراً بالكتابة اليونانية شيئاً ذا أهمية.

والاستناد على تأثر عبد الحميد باليونانية في تقسيم وحدات الجيش إلى مائة رجل، فلا نرجح أن يكون هذا التقسيم وطرق الحراسة والقتال والتخطيط الحربي في رسالته عن مروان لولي العهد من عبد الحميد نفسه ولكن خبرة مروان الحربية واسعة وأغلب الظن أنها من مروان ولكن بصياغة عبد الحميد. فلا يعقل أن يترك الخليفة جيش ولي عهده – وابنه – في حربه للثوار والخوارج على الدولة. لأهميتها – ليرسم له عبد الحميد تلك الخطط والتعليمات الحربية.

"وقد نجد عبد الحميد يقول: ثم ولّ على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك، ونجد سابور يقول لابنه هرمز: اجعل على كل مائة رئيساً، ثم لا يكون هذا

(٤) محاضرات في الأدب العربي، ص ٨٥.

(٥) من حديث الشعر والنثر، طه حسين، ص ٥٩٤، دار المعارف، ١٩٦٥م.

التشابه إلا تعبيراً عن قاعدة حربية أصبحت عامة لا يتميز فيها الفرس عن العرب ولا يستقل فيها هؤلاء دون اليونان"^(٦).

ومما سبق نجد أن تقسيم وحدات الجيش ليست لليونان فقط ولكن للفرس أيضاً – كما فهمنا من قول ملك الفرس لابنه – وعلى هذا فلا يعني تأثر عبد الحميد باليونانية ولكن بثقافة عامة في عصره.

وليس معنى ذلك أننا ننكر تأثره باليونانية أو الفارسية "ولكن الحقيقة وراء ذلك كله أن عبد الحميد عرف مترجمات يونانية عن طريق سالم، ومترجمات فارسية عن طريق ابن المقفع، وليس ثمة ما يثبت أنه كان مطلعاً على الثقافتين في لغيتهما"^(٧).

عصره:

الحياة السياسية

عاش عبد الحميد في عصر من عصور الإسلام المهمة والخطيرة، فقد شهد هذا العصر الحروب والفتن المتوالية منذ أواخر عهد الخلفاء الراشدين وأوائل عهد الأمويين حتى قتل آخر خليفة أموي ومعه عبد الحميد.

ولعل عبد الحميد قد عاش ما بين الثلث الأخير من القرن الأول الهجري والثلث الأول من القرن الثاني – فلم تذكر المصادر تاريخ مولده – وقد عمل في ديوان الرسائل في عهد هشام بن عبد الملك وكتب له عدة رسائل، ثم لزم مروان بن محمد – عندما كان والياً على أرمينية ثم خليفة للمسلمين – وكتب له رسائله.

وشهد العالم الإسلامي في هذا العصر وجود الفرق السياسية^(٨) المختلفة الملل والآراء – مع اختلاف ظروف نشأة كل فرقة – فكانت هناك فرق الخوارج وتشعباتهم – من أزارقة، وصفرية، وإباضية، ونجدات، والزبيريين – على قصر مدتهم –، والشيعية، والزنج، مع بعض من ثار من الأمويين – أنفسهم – على نظام الدولة. وقد تجددت مع هذه الفرق عداوات قديمة – كانت بين القبائل العربية في الجاهلية – كان الخلفاء الأمويون السبب في إشعالها إذا " لم تكن الحياة السياسية في عصر بن أمية حياة هادئة، بل كانت حياة ثائرة"^(٩).

ففي عهد هشام بن عبد الملك توجه مروان – وكان والياً على أرمينية آن ذاك – لحرب الترك وصد هجماتهم على ثغور المسلمين، ثم محاربة الخارجين على نظام الدولة من الخوارج والشيعية وكلما قضى على ثورة ظهرت أخرى حتى قتل الخليفة الوليد بن يزيد على يد بعض فئات الأمويين واتسعت نطاق الحرب – وكان مروان خليفة للمسلمين – وكانت الجيوش المروانية تحارب ثورات الخارجين من

(٦) ملامح يونانية في الأدب العربي، د/ إحسان عباس، ص ١٢٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٧) عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله...، ص ٥٦.

(٨) راجع العصر الإسلامي، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٢٠، ٢٠٠٢م.

(٩) التطور والتجديد في الشعر الأموي، د/ شوقي ضيف، ص ٨٥، دار المعارف، ط ٨، ١٩٨٧م.

بني أمية على الخلافة وثورات الشيعة وأهمها ثورة أبي مسلم الخراساني حتى هُزم مروان وقتل وانتقل الأمر للعباسيين.

"ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جرّت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنعكس صورتين من الانتكاس: صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تشغل بها لفتحت أكثر العالم ولتغير وجه التاريخ"^(١٠).
الحياة الدينية

انتشرت في العصر الأموي موجة من التفرق السياسي ولكل فريق راية، وقد أطلق الأمويون على أنفسهم آل البيت، وكذلك فعل الشيعة، وكان لهذا التفرق أثر كبير في مختلف الأقاليم والمدن الإسلامية من انتشار حالة من الزهد والتسك في الحجاز والعراق وغيرها من الأقاليم، وكان لكل أسبابه في الزهد فمنها ما نتج عن العزل السياسي - كمدن الحجاز - أو التعسف السياسي كالعراق " وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التي استمرت هناك طوال عصر بني أمية هي التي أعدت لذلك، فإن بعض من خسروا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها"^(١١).

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

كانت الحياة السياسية في عصر بني أمية لها أكبر الأثر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ فقد نشأت حالة من الزهد والتسك من ناحية - كما سبق - وحالة أخرى من الترف والانصراف إلى ملذات الدنيا من ناحية أخرى و"لعل أول ما نلاحظه في هذا الصدد أن الحجاز والشام تميزتا في هذا العصر بضروب من اللهو لم تكن بها البيئات الأخرى عنايتهما، وكان على رأس هذه الضروب فن الغناء"^(١٢).

وكما كان العزل السياسي للحجاز وأهله سبباً في حالة الزهد فكان أيضاً سبباً في انتشار اللهو والغناء، وقد ساعد هذا كثرة ما كان يغدق به الأمويون على أهل الحجاز من أموال، مع ما كان موجوداً بالفعل - من أثر الفتوحات الإسلامية - من أموال قبل بني أمية.

ومما سبق نخرج بأن خلفاء بني أمية قد أثروا في حياة المسلمين الدينية والاجتماعية والاقتصادية بما انتهجوا من سياسات.

رسائله وأبرز موضوعات نثره

نقل غير مصدر من المصادر العربية القديمة بعض رسائل عبد الحميد مع بعض الاختلاف البسيط والتفاوت في حجم الرسائل المنقولة ولعل من أهمها، اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور، وصبح الأعشى للقلقشندي، والصناعات للعسكري، والفهرست لابن النديم، ومقدمة ابن خلدون، وسرح العيون لابن نباتة،

(10) العصر الإسلامي، ص ١٩٢.

(11) التطور والتجديد، ص ٥٩.

(12) السابق، ص ١٠١.

والوزراء والكتاب للجهشياري ويطالعنا حديثاً أمراء البيان (محمد كرد علي في جزئه الأول، وجمهرة رسائل العرب لـ أحمد زكي صفوت في جزئه الثاني. والدكتور إحسان عباس الفضل في زيادة ما وصل إلينا من رسائل عبد الحميد بإضافته رسائل مكتشفة حديثاً في كتاب العطاء الجزيل للبلوى لم تكن موجودة قبل ذلك.

وقد جمع كل ما أثر من رسائل لعبد الحميد مع إضافة بعض الرسائل التي رجح أن تكون له ونذهب معه – كما ذهب بعض الأساتذة^(١٣) – في صواب ترجيح نسبة تلك الرسائل لعبد الحميد.

ولهذا فإن كتاب "عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء" لـ د/ إحسان عباس هو مصدرنا الأول في نقل رسائل عبد الحميد ودراساتها.

أما هذه الرسائل فقد تميزت بطابع سياسي وديني واجتماعي وشخصي وإداري، ومن أكبر رسائله التي بعث بها إلى ولي العهد عن مروان بن محمد في محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصفري سنة ١٢٨ هـ، وبدأت بما يجب أن يكون عليه ولي العهد من أخلاق وسياسته من أعوانه وقواده وعماله ورعيته، وكيفية تعبئة الجند وتجهيزهم في معسكرهم والاستعداد للحرب، مع تخلل النصائح التي يجب اتباعها والأمور المستخدمة في تصريف حاله وحال عسكره.

ويندرج تحت الطابع السياسي أيضاً عدة رسائل تحدثت عن الفتنة والمعصية والطاعة ومحاربة الخارجين ومنها رسالته عن مروان إلى نصر بن سيار – والي خراسان – في فتنة أبي مسلم الخراساني.

أما الطابع الاجتماعي فيظهر في عدة رسائل منها عن مروان لابن هبيرة في الوصايا لقربائه، وأخرى في شكوى من عائشة بنت هشام زوج عبيد الله بن مروان، وبعض رسائل في التعزية أو التهنية، ورسائل في وصف الإخاء والصيد وطلب حاجة لما يظهر فيها من سمات اجتماعية.

أما الطابع الديني فيظهر في رسالة في الشطرنج – مع وجود سمات اجتماعية أيضاً – وبعض أجزاء من رسالته لولي العهد – رسالة الجند – لما فيها من نصائح دينية وأخلاقية يحث فيها ولي العهد على التمسك بها، وله التحميدات الطويلة في مفتتح رسائله التي يعظم فيها انتصارات المسلمين وفتوحاتهم، وله رسائل عن هشام في موسم الحج ودخول شهر رمضان، وفي السلامة، أما الطابع الإداري فخير مثال له رسالته للكتاب – ويتخللها طابع اجتماعي في وجود شبه رابطة للكتاب – ورسائل أخرى في ابتياع جوار للخليفة وبعض الحكم والأقوال البليغة التي لا تتعدى السطرين أو ثلاثة مع بعض الردود السريعة على رسائل عمال الدولة وذوي الحاجات ومن اللافت للنظر أن طابعاً شخصياً تخلل بعض رسائل عبد الحميد التي يصف فيها الغربية وطول الرحلة وحاله فيها، ورسالة في مولود له يصف فرحته به، ورسالته لأهله واصفاً مدى ضيقة من تقلبات الدنيا وذل الغربية.

(١٣) راجع كتاب د/ سعيد منصور، النشر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ١٣٤.

فترات رسائله التاريخية وأهميتها:

ضمن د/ إحسان عباس كتابه "عبد الحميد بن يحيى ... ثلاث وستون رسالة منها رسالة أثبتت لسالم أو لعبد الله ابنه، وثلاث رسائل رُجحت نسبتها لعبد الحميد فيكون مجموع ما ندرسه اثنتين وستون رسالة. قسمت^(١٤) هذه الرسائل على فترات ثلاثة:

أولها: مساعدًا لصاحب ديوان الرسائل "سالم" في عهد هشام بن عبد الملك وتضمنت عدة رسائل تحدثت عن موسم الحج ودخول شهر رمضان وسلامة أمير المؤمنين وشراء جوار ورحلة صيد.

ثانيها: كاتبًا لمروان بن محمد وكان واليًا على أرمينية وأذربيجان وصدرت في هذه الفترة رسائل عن مروان في تعزية هشام ورسالة في الإخاء، وشيوع مذهب القدرية في جيش مروان، وبعض الرسائل والتحميدات التي تتحدث عن الانتصارات والفتوحات، وثلاث رسائل مرجحة لعبد الحميد عن مروان في تهنة الوليد بالخلافة، والثورة على الوليد من قبل بعض أفراد البيت الأموي، ورسالة إلى الغمر بن زيد في مقتل أخيه الوليد.

ثالثها: كاتبًا لمروان بن محمد – عندما أصبح خليفة –

وتميزت رسائل تلك الفترة بكون أغلبها عن الفتنة أو حرب الخارجين على الخلافة ونظام الدولة، ورسالة عبد الحميد لأهله بعد هزيمة مروان أما باقي الرسائل التي لم يتم حسم فتراتهما التاريخية بدقة فقد تحدثت عن الكتاب، وعتاب صديق أو شكوى، وفي الشطرنج، وفي وصف طغيان الفرات.

ومن التقسيم السابق يظهر أن العصر الذي عاش فيه عبد الحميد قد أثر أيما تأثير في رسائله؛ فنجد أغلبها في الخروج على نظام الدولة أو الفتنة أو السلامة أو حرب الخارجين وتحميدات الانتصارات وكل ذلك نعزوه للتأثر بالحياة السياسية وأغلبها كان في خلافة مروان، أما الترف الاجتماعي فنجد في رسائله في وصف الصيد وشراء جوار، أما دخول شهر رمضان ورسالته في الشطرنج، والقدرية فناتج عن التأثير الديني.

ولنثر عبد الحميد أهمية تاريخية كبيرة فقد تناولت رسائله العديد من الأحداث المهمة في آخر عصر بني أمية – وهي فترة حرجة – من تناول لشئون الأسرة المروانية من الفتن فيما بينهم – مما ساعد على سقوط الخلافة الأموية – والشئون السياسية في الدولة عامة من حروب الخارجين على نظام الخلافة الأموية من الخوارج والشيعة وغيرهم^(١٥).

(١٤) راجع كتاب د/ إحسان عباس، عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى ...، ص ٦٧ وما بعدها.

(١٥) راجع، عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى ...، ص ٧١، وما بعدها.

الدراسات السابقة في عبد الحميد

• في كتب الأقدمين

تناول غير مصدر عبد الحميد وحياته ونثره وقد نقلت بعض هذه المصادر عن بعضها الآخر وقد تخللها بعض الأحكام السريعة على نثره مع الترجمة له في بعضها.

ومنها "سرح العيون"^(١٦) لابن نباتة المصري وتناول بعض سمات الكتابة عند عبد الحميد من اتخاذ التحميدات في فصول الكتب واستعمال الإيجاز البليغ "أو الإسهاب المفرط، على ما اقتضاه الحال"^(١٧). ومضى ينقل من رسائله ما يثبت به ذلك.

أما الجاحظ فقد ذكر بلاغة عبد الحميد – وكان يسميه عبد الحميد الأكبر – "وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله"^(١٨).

وقد بين ابن عبد ربه بعبارة صغيرة بعض ما يميز عبد الحميد فهو "أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر"^(١٩). أما ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان يرى أن عبد الحميد يضرب به المثل في البلاغة وعنه أخذ المترسلون ولزموا طريقته.

• في كتب المحدثين

ظفر عبد الحميد بمساحة واسعة من الدراسة في العصر الحديث فلا يخلو مؤلف في الأدب العربي خاصة النثر ولا سيما في العصر الأموي إلا وذكر فيه عبد الحميد أو درست رسائله.

فقد جمع د/ أحمد زكي صفوت الكثير من رسائله في جمهرة رسائل العرب، والأستاذ محمد كرد على في أمراء البيان.

وكان طه حسين من الدارسين الأول لنثر عبد الحميد وتناوله بالتحليل لبعض رسائله، وحاول إضفاء تأثر عبد الحميد بالثقافة اليونانية فيها، وقد ساق الأدلة – التي اتفق أو اختلف معه فيها بعض الدارسين – واستند على سرد بعض أجزاء من رسالة عبد الحميد عن مروان لولي العهد في إثبات ما يذهب إليه وذلك من رصد للحال وتكراره، وتقسيم الجيش، وتقسيم كلامه إلى فصول وبعد ذلك نجده يحكم ببلاغة عبد الحميد – كما يفعل الأقدمون – ومعه ابن المقفع "هذان هما الكاتبان اللذان نستطيع أن نعتبرهما عنواناً للكتابة الفنية، أما عبد الحميد فلا غبار على لغته، وربما لو يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ وبلاغة معنى

(١٦) ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ١٩٦٤م.

(١٧) سرح العيون، ص ٢٣٨.

(١٨) البيان والتبيين للجاحظ، ج ١، ص ٢٠٨، ت وشرح عبد السلام هارون، دار الفكر.

(١٩) العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٥، شرح أحمد أمين وزملاؤه، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

واستقامة أسلوب. فهو أحسن من كتب العربية ومرنها، وأقدرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤديها. وربما كان عبد الحميد الأستاذ المباشر للكتاب المترسلين وبنوع خاص الجاحظ^(٢٠).

وقد تعرض د/ شوقي ضيف لعبد الحميد في غير موضع من مؤلفاته، فقد أورد بعض الفقرات ورصد ما فيها من مظاهر بلاغية قد استشرت في نثر العصر الأموي من الازدواج والترادف الصوتي وتوشية أسلوبه مجلية التصوير والطباق والمقابلة وغيرها من النواحي البلاغية وقد وقف موقفاً وسطاً بين طه حسين في تأثر عبد الحميد باليونانية، ومن أنكر ذلك ببيان تأثر عبد الحميد باليونانية عن طريق سالم الذي أقتها.

وقد جمع كل ما استخرجه من ألوان البلاغة أثناء تعرضه لبعض رسالة عبد الحميد إلى أهله وهو منهزم مع مروان "وخصائص عبد الحميد جميعها واضحة في هذه الرسالة القصيرة، ففيها لازمة الحال، وفيها جودة التقسيم ودقة المنطق، وفيها الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة، وفيها الازدواج والترادف الموسيقي الذي يتيح لعباراته فنوناً مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية. وبذلك كنت تقرأه فيلذ عقلك لدقة معانيه، ويلذ شعورك لجمال تصويره وجمال موسيقاه"^(٢١).

وقد أورد الثقافات التي تأثر بها عبد الحميد مبيئاً وضوح تأثره بالفارسية عن اليونانية، ثم ما تأثر به من الثقافة العربية من شعر الجاهليين "وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية. وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربي، وهي تتضح في رسالة ولي العهد السالفة حين نراه يقف ليفصل له ما ينبغي أن تكون عليه أسلحته وخيله من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً"^(٢٢). أما تأثره بما كان في عصره من كبار الخطباء والوعاظ وطريقتهم في كتابة آثارهم فقد أوضح تأثره بالحسن البصري وواصل بن عطاء وغيلان الدمشقي فصياغته تشبه صياغتهم "وهي صياغة لا تكاد تفرق في شيء عن صياغة الحسن البصري وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألنوا اللغة ومرنوها لأداء معانيهم، وكأنما تحول لعبد الحميد أسلوبهم"^(٢٣).

وكان لـ د/ إحسان عباس الفضل في تحقيق أربع عشرة رسالة لم تكن معروفة من قبل بعد اطلاعه على مخطوطة "العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسل" للبلوى وقد ضمنها مع باقي رسائل عبد الحميد وأقواله في المصادر كتابه "عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء"

(20) من حديث الشعر والنثر، ص ٦٠٠.

(21) الفن ومذاهبه في النثر العربي، د/ شوقي ضيف، ص ١٢٠، دار المعارف، ط ١٢، ١٩٩٥ م.

(22) العصر الإسلامي، ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

(23) السابق، ص ٤٧٧.

وقد أفدنا كثيراً من هذا الكتاب فقد جمع كل ما أثر من كتابات لعبد الحميد وصلت حتى الآن.

هذا وقد رجح ثلاث رسائل أن تكون لعبد الحميد وهذا ما أثبتته دراسة البحث الأولية.

وقد قسم كتابه قسمين كبيرين الأول منها دراسة في عبد الحميد وترسله والآخر ما تبقى من رسائل عبد الحميد ومعها ما تبقى من رسائل سالم وتناول في القسم الأول: سيرة عبد الحميد وشخصيته وثقافته في الفصل الأول، وترجمته وتصحيح أو ترجيح ما نقلته المصادر عن حياة عبد الحميد، مع وصف خلافة مروان بن محمد" بل كانت فترة عاصفة بالتقلبات والفتن، فالثائرون في كل مكان، وما يكاد مروان يقضي على أحد المنتزعين حتى تشق الأرض عن ثائر آخر: ثار عليه عبد الله بن معاوية، وثابت بن نعيم، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، ومن الخوارج الضحاك بن قيس الشيباني، وبسطام البيهسي، والخبيري، وأبو حمزة، وشيبان اليشكري، وعبد الله بن يحيى طالب الحق، وختمت تلك الثورات بقاصمة الظهر والطامة الكبرى بظهور أبي مسلم وأعوانه"⁽²⁴⁾.

وقد بين تأثر عبد الحميد بثقافات عدة أولها العربية من قرآن وشعر جاهلي وأقوال الخطباء والأئمة، ثم الثقافة الفارسية الفاليونانية "ولكن الحقيقة وراء ذلك كله أن عبد الحميد عرف مترجمات يونانية عن طريق سالم، ومترجمات فارسية عن طريق ابن المقفع، وليس ثمة ما يثبت أنه كان مطلعاً على الثقافتين في لغتيهما"⁽²⁵⁾.

ثم أعقبه فصل ثان بعنوان: ترسل عبد الحميد، وقد أوضح رسائل عبد الحميد في سياقها التاريخي وقد قسمها ثلاث مراحل: عندما كان كاتباً لهشام بن عبد الملك وسالماً رئيساً للديوان، وكاتباً لمروان بن محمد وهو وال على أرمينية، وكاتباً ورئيساً لديوان الخليفة مروان بن محمد، وأعقب ذلك استخراج قضايا العصر الأموي من رسائل عبد الحميد من شئون الأسرة المروانية، والشئون السياسية والعسكرية، وأورد فيه أيضاً نصوصاً مشابهة في الكتب العسكرية لرسالة الجند التي كتبها عبد الحميد عن مروان لولي العهد وعزا ذلك إلى تأثر المصادر العسكرية بعده بهذه الرسالة، وأخيراً رصد للشئون الاجتماعية للعصر الأموي في رسائل عبد الحميد.

وتلا ذلك كله دراسة فنية لبعض نثر عبد الحميد مبتدئاً بصورة النثر قبل عبد الحميد، مورداً أربع شخصيات عزا إليهم تحويل النثر المكتوب حتى بلغ مستوى فنياً وهم غيلان الدمشقي وسالم كاتب هشام وعبد الحميد وابن المقفع. ثم المسافة بيننا وبين نثر عبد الحميد مصدراً بما قاله الأقدمون عنه من أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات وأول من فتق أكماس البلاغة وغير ذلك مما ورد في كتبهم ولم يكتف د/ إحسان عباس بتلك الأحكام بل مضى مظهرًا ما

(24) عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى ... ، ص ٣٤.

(25) السابق، ص ٥٦.

لاحظه في رسائل عبد الحميد. فأوضح أنه يتعامل مع المجردات كالفتنة والطاعة والتقوى والإخاء والعمد إلى تجسيد هذه المجردات.

ولعل ما أفدنا منه المميزات الفنية في نثر عبد الحميد وقد بلغ بها غاية الدقة في رصد تأثير عبد الحميد بأسلوب القرآن الكريم، وكيفية توظيفه معاني القرآن في رسائله، ثم تأثر أسلوبه بنزعة تنظيمية نابغة من عمله في الدولة مع استخدام "الأسلوب القائم على الازدواج"^(٢٦). وبيان ما حققه الازدواج في نثره من التوكيد، والتوكيد المبالغ فيه بالتكثيف، مع تحقيق المفارقة من البدء بأسلوب غير مزدوج إلى الأسلوب المزدوج "والتلوين الموسيقي المتأرجح بين الشدة والضعف وذلك بالانتقال من مجموعة من المزدوجات إلى مجموعة ثانية، إلى مجموعة ثالثة، ولكل مجموعة محور موسيقي مختلف عن محور الأخرى"^(٢٧) وتعميق المنطقة القائمة بين الترغيب والترهيب. ولم ينس ما لاحظته طه حسين في نثر عبد الحميد من كثرة الحال وأضاف عليها ضروب المفعولات والتميز مستشهداً ببعض أجزاء من رسائله.

أما الجانب التصويري فقد لاقى أيضاً جانباً من دراسة المؤلف فصدره بإيراد عبد الحميد ألفاظاً ذات دلالة تصويرية بصوتها "وهناك مجال آخر للتصوير باللفظ ولكن ليس عن طريق الإيحاءات الصوتية، وإنما عن طريق تتابع الاستعارات الجزئية التي إذا اجتمعت في تتابعها معاً كونت صورة كبرى"^(٢٨) مع استعمال التمثيل والتشبيه وكل ذلك معزز بالشواهد من نثر عبد الحميد. وقد ختم القسم الأول وفصله الثاني بدراسة سريعة لرسالة عبد الحميد إلى الكتاب.

أما القسم الثاني من الكتاب فيتضمن ثلاث وستون رسالة لعبد الحميد منها أربع وعشرون رسالة لا تتعدى أسطر ثلاثة، وثلاث رسائل رجحت نسبتها لعبد الحميد، ورسالة أثبتتها المصادر لسالم أو عبد الله ابنه. ولم يكن كتاب "عبد الحميد..." السابق وحيداً للدكتور/ إحسان عباس في تناول عبد الحميد بل ذكر في كتابه "ملاحم يونانية في الأدب العربي" تأثر عبد الحميد باليونانية، وقد أورد أجزاء لرسائل لأرسطاطاليس إلى الاسكندر ومدى الشبه بينها وبين رسالة الجند التي كتبها عبد الحميد عن مروان لولي العهد ولاحظ أيضاً ورودها في رسائل منحولة لأفلاطون.

وقد تناول د/ أنيس المقدسي في الجزء الأول من كتابه "تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي" عبد الحميد ونثره.

فبعد ترجمته لعبد الحميد وبيان منزلته الأدبية قد أورد بعض القطع من نثره ونثر ابن المقفع لتوضيح مدى تأثرهما بالفارسية مع تميز نثر عبد الحميد "وأما الذي نقله عن الفارسية مما لم يكن شائعاً في الترسل العربي سابقاً فهو التحميدات

(26) السابق، ص ١٦٤.

(27) السابق، ص ١٦٥.

(28) السابق، ص ١٧٥.

الطويلة والتبسط في عرض الفكر^(٢٩). وقد أورد بعض المزايا التي لاحظها في نثر عبد الحميد في عبارات موجزة ثم سرد الشواهد من رسالته للكتاب ورسالته لعبد الله ولي العهد، ومن هذه المزايا – التوازن – ويقترن التوازن في رسائله عموماً بما يلي:

- ١ - الإطناب والتبسط
 - ٢ - كثرة العطف والترادف
 - ٣ - رشاقة الألفاظ
 - ٤ - عدم تكلف السجع والبديع^(٣٠).
- وقد تبين إمكانية تلخيص قطع من رسالة الجند فيما لا يتعدى ثلاثة أو أربعة سطور "وإذا تساوت الأسباب فالإيجاز أبلغ"^(٣١).
- ولأستاذنا الدكتور محمد يونس عبد العال دراسة قيمة عن عبد الحميد ونثره ضمن ما ألقاه من محاضرات في الأدب العربي على تلامذته. وقد بين الثقافات التي أثرت في عبد الحميد ونثره مع غلبة تأثير الثقافة العربية والإسلامية في نثره "أما ما كتبه في وصف الصيد أو فيما وصف به الخيل والأسلحة في رسالته إلى ولي العهد، فيظهر فيه التأثير بشعر الجاهليين من مثل أوس بن حجر وزهير والنابعة"^(٣٢)، وقد أظهر اندفاع طه حسين المتأثر بحماسة للثقافة اليونانية في شدة اتصال عبد الحميد بها "ويمكن أن نتلمس مظاهر هذه الثقافات الأجنبية عند هذا الكاتب أو ذاك ولكنها مع ذلك تظل ثقافات مساعدة، يحتاج ما نكتشفه من مظاهرها – أو بمعنى أصح – ما نفترضه إلى أدلة أكثر استناداً إلى البراهين الواضحة والوثائق المؤكدة، حتى لا تصير الأحكام ضرباً من الظن، ونوعاً من الاعتساف"^(٣٣).

وقد لاحظ أستاذنا عند تناوله لرسالة الجند كثرة "استعمال صيغة التفضيل أو التمييز أو تقديم المفعول به على الفعل والفاعل والميل – أحياناً – إلى التوازن بين العبارات مما يؤدي إلى الترادف والتكرار"^(٣٤) وهي من الظواهر الأسلوبية التي اعتمدنا عليها كثيراً في دراسة نثر عبد الحميد.

وعند تناوله لرسالة عبد الحميد إلى الكتاب دوّن بعض الملحوظات من عناية عبد الحميد في أساليبه بانتخاب الألفاظ ودقة المعاني والحرص على الصياغة و"تحقيق لون من التوازن الصوتي بين العبارات والألفاظ، يستعين على ذلك بعدة وسائل منها الترادف، والتقابل، ولكنه لا يلتزم السجع، ولا يحفل به"^(٣٥).

(29) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، ج ١، ص ١٥٨، بيروت.

(30) السابق، ص ١٦١.

(31) السابق، ص ١٧٣.

(32) محاضرات في الأدب العربي، ص ٨٤.

(33) السابق، ص ٨٦.

(34) السابق، ص ٨٩.

(35) السابق، ص ٩٧.

وقد تناول د/ سعيد منصور عبد الحميد ونثره في كتابيه "النثر العربي في القرن الثاني الهجري"، "الفن الشعري في نثر عبد الحميد - فكر ونغم". ويدرس أولهما أدب ابن المقفع، وتناول عبد الحميد ونثره في جزء يسير من فصله الرابع بعنوان المرحلة الفنية، محاولاً ربط نثره وتطوره بباقي ألوان النثر في القرن الثاني الهجري.

وقد حاول إثبات الرسائل الثلاثة - التي رجحها د/ إحسان عباس - أن تكون لعبد الحميد عن طريق مقارنة سريعة بين الأفكار والألفاظ المتكررة في رسائل أخرى لعبد الحميد، ثم يشرح بعض أجزاء من نثره شرحاً مختصراً مع توضيح إتقان عبد الحميد استخدام المزدوجات دون عرقلة السجع لها "وإنما تنساب به اندفاعات النبرات الموسيقية المنبعثة من انسيابها والتحاق الأحوال بها حتى تحقق المتعة الفنية مصاحبة للمتعة العقلية أيضاً، حين يلجأ الكاتب إلى التوزيع والتفريع في المعاني ليولد الازدواج المعنى بعد الآخر فضلاً عما تحققه من الإنصات إلى النغمة النثرية إذا صح التعبير..

وبذلك تستطيع الرسالة في منثورها الرفيع أن تقف جنباً إلى جنب مع القصيدة في منظومها البديع" (٣٦).

أما كتابه الثاني فقد ضمنه ترجمة لعبد الحميد ثم الفكرة الموسيقية ثم النغمة الدينية، ثم النغمة السياسية، فالنغمة الملحمية وأعقبها فصلاً عن الخيال والملكة التصويرية والعاطفة والنزعة الوجدانية مع دراسة رسالته في الصيد والإخاء ورسالته الأخيرة إلى أهله.

وقد تناول د/ حسين نصار في كتابه "نشأة الكتابة الفنية" عبد الحميد ملخصاً مميزاً لعبد الحميد في نثره من تسلسل الأفكار وانتظام الخطوات معزياً هذا إلى تقسيمه رسائله إلى فقرات "تتألف كل واحدة منها من فكرة خاصة لا تتعداها إلى الفقرة الأخرى، ثم هناك ميله إلى الواقعية في التصوير، وهذا ما يتضح لنا في رسالته في الصيد، التي نعرف منها أيضاً حبه في تصوير المناظر الطبيعية، وكذلك في رسائله الإخوانية، ثم هناك دقته في عباراته وتوضيح ما يقصده من معان، فأدى به ذلك إلى الإكثار من استعمال الحال كثرة ملحوظة ثم مراعاته للموسيقى والتأنق في ألفاظه" (٣٧) وقد أوضح ميله إلى السجع أحياناً أو التزامه به خاصة في رسائله إلى الخارجين والتأثرين على دولة بني أمية.

ومن الدارسين لعبد الحميد ونثره د/ محمد جمعة عبد الصمد عابد في رسالة دكتوراة بعنوان "عبد الحميد بن يحيى الكاتب وأثره في الكتابة" (٣٨). وقد قسم دراسته أربعة أبواب الأول منهم عن عبد الحميد وعصره والثاني عن النثر الفني عموماً عند العرب، والثالث عن الكتابة الأدبية قبل عصر عبد الحميد، أما الرابع والأخير بعنوان عبد الحميد الكاتب أستاذ الكتابة وواضع أصولها، وقد أدرج تحت

(٣٦) النثر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ١٤٧.

(٣٧) نشأة الكتابة الفنية د/ حسين نصار، ص ١٦٣.

(٣٨) رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالأزهر - القاهرة، ١٩٧٨م.

هذا العنوان خمسة فصول الأول منهم عن منهج عبد الحميد الفني – كما رآه الدارس – وقام فيه بشرح عدة أجزاء من رسائله إلى الكتاب، وولي العهد، وفي وصف الصيد، وفي الشطرنج، وإلى أهله. وما لاحظته البحث في هذا الفصل إيراد الدارس عبارات وأحكام على ما شرحه في كل رسالة دون التعرض لبنية النص التحتية، ولكنها أحكام ظاهرية عامة قد تنطبق على نثر عبد الحميد أو غيره. ومنها "عنايته الفائقة بالأفاظه، واحتفائه باختيار كلماته"^(٣٩).

ومنها هذه العبارة الموسيقية "وهذا كله مما أضفى على الألفاظ موسيقية في الأسلوب، وجمالاً في التعبير، وروعة في التحبير"^(٤٠).

وتمتد هذه الأحكام أيضاً في مواضع أخرى "ومهما يكن من أمر فإن هذه الرسالة تشهد حقاً ببراعة عبد الحميد في أدبه، وطول نفسه، ودقة تصويره، وجمال تعبيره، وسعة معانيه، وعمق أفكاره، وجودة منطقته، وسلامة ذوقه، وامتداد أفقه، واتساع ثقافته، كما تشهد بأن الرجل كان ذا أخلاق عالية، ونفس سامية، تعرف المعاني الكريمة، والخلال الفاضلة طريقها إلى نفسه، وسبيلها إلى حسه، ثم هو معتر بصناعة الكتابة، فخور بها..."^(٤١).

هذا ويوجه الدارس الانتباه إلى اتجاه عبد الحميد إلى العناية باللفظ والمعنى "وبذا بدا أدبه جزلاً قوياً رصيناً، محبوبك السبك، متين البناء"^(٤٢) مع ملاحظته استعمال بعض الصيغ النحوية وتكرارها في مواضع معينة كالمفعول لأجله وصيغة أفعل التفضيل يتلوها التمييز، أما الفصول الأخرى فعن منزلة عبد الحميد بين الكتاب، وأثره في الكتاب بعده، ثم عبد الحميد وكتاب العصر من أمثال أديب إسحاق، وعبد الله فكري، وحفني ناصف، ومحمد عبده، وعبد العزيز جاويش، والمنفلوطي، ثم ختم ذلك كله بفصل أخير عنوانه بين عبد الحميد وابن العميد وما قيل فيهما.

ومن الدارسين د/ عبد المجيد إبراهيم هندي في رسالة دكتوراة بعنوان^(٤٣) "النثر الفني وأطواره في القرن الثاني الهجري" وقد تناول عبد الحميد ونثره بالشرح لأجزاء من رسائله، ثم تناول تحت عنوان "الخصائص الفنية لأسلوب عبد الحميد" ما يميزه عن غيره من الكتاب من مثل التنغيمات الصوتية وتقسيم الكلام إلى فصول وترتيب الأفكار "وعناية عبد الحميد بألفاظه وموسيقاه لم تصرفه عن العناية بالمعاني وترتيبها وبسطها وتحليلها"^(٤٤). ويذهب الدارس إلى تأثير عبد الحميد فيمن عاصره أو تلاه من الكتاب والأدباء من أمثال سهل بن هارون وأحمد بن يوسف والجاحظ. أو بمعنى آخر احتفاء هؤلاء لمنهج وضعه عبد الحميد مثل

(39) السابق، ص ٤١١.

(40) السابق، ص ٤١١.

(41) السابق، ص ٤١٢.

(42) السابق، ص ٤١٢.

(43) رسالة دكتوراة، ١٩٧٢، مخطوطة بكلية اللغة العربية بالأزهر، القاهرة.

(44) السابق، ص ١٧٣.

تجنب التعقيد وتباعد الأفكار، وتعدد التحميدات والإطناب والتوازن "والاعتماد على الحال والتفخيم والترادف وتنسيق الأفكار وترتيب المعاني وبيان الأهداف والأغراض وغيرها من السلامة والعذوبة وحسن الإيقاع، وقل استعمال الغريب والحوشي من الألفاظ"^(٤٥).

ثم تناول العاطفة والأفكار في رسائل عبد الحميد وما يميزهما وأتبعها - بما سماه الدارس - الأسلوب "فهذه المجازات والتشبيهات أضفت على أسلوبه جمالاً وبهاء، وأكسبته جدة وابتكاراً ورسمًا بديعاً وتأثيراً قوياً"^(٤٦).

وقد ظفر عبد الحميد باهتمام الدارسة "عقلة سليمان العقيل في رسالتها لدرجة الماجستير بعنوان "تطور"^(٤٧) النثر العربي حتى القرن الثاني الهجري" واللافت للنظر أن الدارسة قد ذكرت عبد الحميد في رسائل القرن الأول الهجري، وقد رجحت له تاريخ مولد في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ - ٩٦ هـ في دمشق.

وقد قسمت فصلها الثالث عن الرسائل في القرن الأول الهجري إلى رسائل سياسية، وشخصية واجتماعية، ودينية أو وعظية، وفنية وتعليمية، إدارية وتنظيمية وتناولت بعض أجزاء من رسائل عبد الحميد مستخرجة - بعد الشرح - بعض الجوانب الفنية في نثره بعبارات مختصرة كظهور "السجع، والألفاظ، والتراكيب المعقدة، والصور البيانية المتقنة"^(٤٨). وقد عزت تطويل الرسائل وتحميداتها إلى عبد الحميد، كما لاحظت - كباقي الدارسين - كثرة الجمل المترادفة، والقدرة على التشخيص والتصوير، وجودة التقسيم، ودقة المنطق، والطباق، والمقابلة، والاستعارة، والازدواج والترادف الموسيقي، واستعمال الحال وصيغة التفضيل، واسم الفاعل، والتميز مع العناية باختيار الألفاظ.

(٤٥) السابق، ص ١٧٣.

(٤٦) السابق، ص ١٨٣.

(٤٧) رسالة ماجستير سنة ١٩٧٥، مخطوطة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية.

(٤٨) السابق، ص ٢٩٠.

الباب الأول المستوى الصوتي

الفصل الأول الصوت المفرد

● نظرة كلية

خصصنا هذا الفصل لدراسة الأصوات المفردة من زاوية إسهاماتها الإيقاعية ودورها الدلالي في تكوين المعنى داخل النص من ناحية، وتجليته للمتلقى حال تواصله مع هذا النص من ناحية أخرى. وتنصب هذه الدراسة على الصوت وحده وما له من إسهامات تصويرية تابعة من مميزات الصوتية، وتلك الإسهامات لا تقل في أهميتها عن ظواهر التصوير البلاغية، ويتناول هذا الفصل كذلك الصوت المفرد مجتمعاً مع غيره من الأصوات بتشكيل ظواهر صوتية لافتة تؤثر في أذن المتلقي فيتنبه إلى ما وراء الظواهر الصوتية من دلالات.

وبالرغم من أنه "لا يمكن أن تنطلق العلامة من حدود الحرف المفرد، إذ لا دور له في الدلالة على إطلاقها"^(٤٩).

فالصوت المفرد يوجه المتلقي عن طريق استيقافه سمعياً فيكون بمثابة المنبه - لخاصية ما في ذاته إما بتكراره أو بوقوعه في علاقة مع غيره من الأصوات - إلى الدلالة ذاتها، أو ترجيح جانب منها على آخر، أو يكون بمثابة المؤكد لها والعلاقات الدلالية بين الألفاظ.

فلأهمية الصوت المفرد وإسهاماته الدلالية أجرى بعض علماء النفس تجارب عملية لإثبات الأثر الدلالي للأصوات على الإنسان "وتبين أن هناك سمات مشتركة حيث تدل بعض الأصوات على دلالات معينة في أغلب الأحوال"^(٥٠).

ولهذه الأهمية نجد الدعوة بالاهتمام والدراسة "وأنه قد آن الأوان لأن يأخذ اللغويون العرب المحدثون في محاولة الكشف عن هذا النظام وغيره من الأصول الصوتية للغة العربية عن هذين الطريقتين اللذين لا ثالث لهما: التحليلات المعملية والمقارنات الصوتية"^(٥١).

وتلك الأصوات تجعل للغة إمكانات وطاقت مستهلكة في النص لفهم مغزاه "من خلال إدراكنا لتلك الاستخدامات الفنية، وإدراكنا لرموز البناء ومنظومته، وأيضاً من خلال رصد الوظائف الجمالية للأصوات وللألفاظ"^(٥٢) والارتباط بين الصوت المفرد والدلالة ليس ارتباطاً اعتباطياً لا يقصده الأديب، بل هو اختيار واع يعمد إليه ليكون مساعداً للعناصر اللغوية الأخرى في إنتاج الدلالة، أو يكون موجهاً للمتلقى ومنبهاً له لكشف أبعادها، وتجميع خيوطها التي تذهب في النص طويلاً وعرضاً. وعلى هذا النحو تكون عملية الاختيار كلية "إذ لا يمكن تصور إيقاع الاختيار على جزء من البنية، ثم شغل الفكر بعنصر آخر، ثم العودة إلى البنية

(49) العلامة والعلامية: د. محمد عبد المطلب، ص ١٦، الوطن العربي للنشر والتوزيع، القاهرة،

١٩٨٨م.

(50) الأسلوبية الصوتية: د/ محمد صالح الضالع، ص ٢٤، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(51) مناهج نقد الشعر: د/ إبراهيم عبد الرحمن، ص ٣٤٣، المصرية العالمية، القاهرة، ١٩٩٧م.

(52) الأسلوبية الصوتية، ص ٢٠.

الأولى لإكمالها مرة ثانية، ومن ثم يكون القول بالاختيار الكلي أقرب إلى الواقع النظري والتطبيقي في إفراز الصيغة الشعرية الإيقاعية^(٥٣). وفيما يلي نتناول الصوت المفرد في نثر عبد الحميد من ثلاثة أوجه يمثل كل وجه مبحثاً، يبدأ الأول باتجاهات التشكيل الموسيقي بهذه الأصوات من خلال العلاقات الصوتية بين الأصوات بعضها البعض كالتقابل والتنافر والتجانس، ثم تأثير بعض منها في سرعة موسيقى القواصل. يليه مبحث في تشكيل الدلالة النابعة من تكرار الصوت وله مظهران، أولهما من حيث تجليته للمعنى في ذهن المتلقي، وآخرهما دوره في تكوين الدلالة داخل نثر عبد الحميد. ثم مبحث عن دلالة الصوت الذاتية ومحاكاته للمعنى.

(٥٣) بناء الأسلوب في شعر الحداثة: د/ محمد عبد المطلب، ص ٣٦٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣ م.

المبحث الأول اتجاهات التشكيل الموسيقي بالأصوات المفردة

إن النص الذي نتناوله بالدراسة وإن كان ثرياً إلا إنه ينطوي على ظواهر البديع الصوتي والتألق في صوغ العبارة ما يضيف أهمية على أي ظاهرة صوتية. ونتناول في هذا المبحث عدة ظواهر تشكل الموسيقى داخل النص وقد رددناها إلى ثلاثة تيارات رئيسة هي: التقابل الصوتي، تنافر الأصوات وتجانسها، توزيع الحركات الطويلة.

أولاً: التقابل الصوتي

يقصد بالتقابل الصوتي تشابه أصوات في كل صفاتها وتخالفها في صفة واحدة وهذا (*) التخالف يعدّ تقابلاً صوتياً بينها "وعلاقة الصوتين المتقابلين تتسم بالتشابه والتخالف معاً، فالصوت يشبه الصوت الآخر في كل صفاته ويتخالف معه في صفة واحدة، ومثل هذه العلاقة من شأنها أن تزيد ثراء الإيقاع، لقيامه على هذه العلاقة الجدلية المتشابهة، وهو ثراء من شأنه أن يلفت انتباه المتلقي" (٥٤).
وبين التشابه والتخالف آفاق دلالية واسعة. وتنقسم الأصوات في صفاتها إلى أصوات مجهورة تقابلها أخرى مهموسة من ناحية، وأصوات شديدة تقابلها أخرى رخوة، وهو ما يسمى بالنظائر في الجهر والهمس، أو في الشدة والرخاوة. وفيما يلي تناول التقابل الصوتي في صفة الجهر والهمس في نثر عبد الحميد.

١ - النظائر في الجهر والهمس

تختلف الصلات الدلالية بين الكلمات، ومع وقوع التقابل الصوتي في كلمتين ترتبطان دلاليًا فإنه يرتبط بهذه الصلة الدلالية بعلاقات متنوعة فقد ينطوي التقابل الصوتي على تقابل دلالي بين كلمتين أو تخالف دلالي أو تواؤم دلالي وكان لاختلاف الحروف المتقابلة صوتيًا داخل كلمات متقابلة دلاليًا أثرٌ في إضفاء دلالات أخرى، فدلالة تلك الأصوات الذاتية تضيء هذا التعدد الدلالي داخل النص. ففي قول عبد الحميد ناصحاً ولي العهد بإتزال طاعة الخارجين على الدولة ولو باستمالتهم. "والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عهدك قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة، مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابة" (٥٥).

فقد أضفى صوتاً الضاد والطاء المطبقتين وقعاً غليظاً على الأذان لتنبيه المتلقي إلى البحث عن الصلات الجامعة بين الكلمات، فالتقابل الصوتي بين الضاد المجهورة والطاء المهموسة من (الضلالة - الطاعة) وامتداد هذا التقابل الصوتي إلى التقابل الدلالي بين المفردتين قد أظهر موقفاً مهماً لعبد الحميد من الضلالة والطاعة ألا وهو رفض الضلالة وضرورة القضاء عليها بشتى الوسائل سواء بقتال أصحابها أو باستمالتهم للدخول في طاعة الخليفة التي تعتبر السبيل الوحيد إلى النجاة من الهلاك من ناحية والحفاظ على وحدة الدولة من ناحية أخرى، وإظهار هذا الموقف يستتبع توجيه المتلقي إلى اتخاذ موقف منهما أيضاً يكون

(*) انظر المقصود من التقابل ما شرحه د/ إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية، ص ٢٢ وما بعدها.

(54) الصوت والصورة، ص ٣٠، ٣١.

(55) عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء: د/ إحسان عباس، ص ٢٣٨، دار الشروق، عمان، ١٩٨٨م.

نفس موقف الكاتب الذي أثر في المتلقي عن طريق التقابل الصوتي بين الضاد والطاء من ناحية، ووقعهما الغليظ على الأذان من ناحية أخرى.

وقد أدى تكرار الضاد والطاء دوراً مهماً في إثراء الدلالة ففي سياق النصائح الموجهة لولي العهد ليحقق له هيبة تليق به يقول عبد الحميد "واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله؛ فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل، وخروج من انتحال اسم الفضل، وليكن ضحكك تبسماً أو كشرًا في أحيان ذلك وأوقاته ... وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك" (٥٦).

(الانبساط في الضحك يقابله القطوب بإظهار الغضب) والضحك يقابله القطوب دلاليًا، والطاء المهموسة تقابل صوتيًا الضاد المجهورة. ولأهمية توجيه عبد الحميد لولي العهد حتى يؤهله لخلافة المسلمين فقد كرر الضاد والطاء المقلقتين للأذن لتأكيد تلك الأهمية.

وما وجدناه في رسائل عبد الحميد قد بيّن لنا أن هذه الظاهرة لم تأت معضدة للصلات الدلالية فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى كشف جانب كبير من عصر عبد الحميد وشخصيته. ففي قوله لولي العهد عندما شكته زوجته إلي الخليفة "وكان قد احتاج إليك المسلمون، وأنت قد ضعفت عن أمر نفسك أن تستصلح منها تقويم امرأتك ومداراتها" (٥٧).

فقد جاء التقابل الصوتي بين الحاء المهموسة والعين المجهورة في (احتاج، ضعفت، تستصلح) مؤكداً لجانب من جوانب التقابل الدلالي بين حاجة المسلمين لولي العهد في تسيير شئونهم، وبين ضعف الأمر في استصلاح ومدارة زوجه. فساعد التقابل الصوتي الدلالي على لفت انتباه ولي العهد وتوجيهه إلى سرعة مدارة زوجه حتى يكون مؤهلاً لقيادة المسلمين وهذا نابع من قوة الأصوات الحلقية التي لفتت انتباه المتلقي فهذا عبد الحميد يبدو موجّهاً ومدرّباً للأمراء حتى يرتقوا إلى خلافة المسلمين.

وقد استخدم عبد الحميد التقابل الصوتي الدلالي في أخطر التوجيهات لولي العهد - في حربه ضد الخارجين على الدولة - المتمثلة في التمحص من الجواسيس وأقوالهم "واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه" (٥٨).

فالتقابل الدلالي الواقع بين نصح ولي العهد وغش العدو، أو نصح العدو وغش ولي العهد قد قابله تقابل صوتي بين الحاء المهموسة من (فنصحوا لك) والعين المجهورة من (غشوا عدوك).

(٥٦) السابق، ص ٢٢٩.

(٥٧) السابق، ص ١٩٣.

(٥٨) السابق، ص ٢٤١.

ونخلص من هذه الثنائية إلى توجيه ولي العهد إلى بذل كل الجهد للتحقق من عيونه وجواسيسه وولائهم له أولاً، ثم تمحيص أخبارهم عن العدو، وذلك الجهد مماثل لجهد النطق بالعين والحاء.

وقد فطن عبد الحميد إلى تأثير التقابل الصوتي الدلالي على المتلقي خاصة الأصوات الحلقية التي لها دلالة خاصة لارتباطها بالمشقة الصوتية والتأثير السلبي على اللسان والأذن، فقد وردت متقابلة صوتياً ودلالياً لتضفي جواً من الحزن والضيق، أو للدلالة على تقلب أحوال الدنيا ولتأكيد قيام الدنيا على المتناقضات مما عكس أثر الدنيا على نفسه - أثناء هروبه مع مروان - وكشف عن حال الضيق والحزن والشوق إلى الأوطان. كما في قوله "وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درها أفويق استحليناها، ثم شمس متنا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة، ورمحتنا جامحة، فملح عذبتها، وأمر حلوها، وخشن لينها"⁽⁵⁹⁾.

التقابل الصوتي بين الحاء المهموسة - فضلاً عن تكرارها - والعين المجهورة في (ملح، عذبتها) المتقابلتين دلالياً قد أكد تلك الحال، وقد ساهمت صورة الناقه - المعبرة عن الدنيا - بتناقض أحوالها في إبراز وتأکید مدى الضيق والشوق إلى الأوطان، فالناقه هنا وسيلة الهروب من بني العباس والرجوع للوطن في آن واحد.

وقد ورد الشوق إلى الأوطان والضيق أيضاً في "فإن لنا منهم حظاً، وأصبنا من دنياهم حظاً نكره طول السفر الممل لنا من عقد الرحال وحلها"⁽⁶⁰⁾.

(عقد وحل الرحال) بينهما تقابل دلالي، وصوتي بين العين المجهورة والحاء المهموسة وقد ساهمت العين والحاء بتأثيرهما السلبي على اللسان والأذن في إضفاء شدة على الضيق الذي عكس بالطبع شدة شوق عبد الحميد إلى الوطن. ولأن عصر عبد الحميد قد شابه الكثير من الفتن والخروج على الدولة - وكان نتيجة ذلك سقوط الخلافة الأموية - فكان من البدهي أن يحارب عبد الحميد هذه الفتن بقلمه وأدواته اللغوية، فالأصوات الحلقية تتطلب جهداً ومشقة في النطق قد يكون مناظراً للجهد والمشقة الحربية في قمع تلك الفتن، ويضاف إليه البنية التقابلية التي وقعت فيها.

وقد يزاوج بين الأصوات الحلقية وأخرى من ذوات الصغير كما في قوله "وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكته الحق"⁽⁶¹⁾.

التقابل الدلالي بين (نطق، سكتة)، (الباطل، الحق) قد صاحبه تقابل صوتي بين العين والزاي المجهورتين من جهة، والحاء والسين المهموستين من جهة أخرى.

فنطق زعيم الباطل وسكوت الحق من المواقف المتناقضة التي أراد عبد الحميد أن يوجه بها المتلقي إلى نبذ الباطل وصولاً إلى نطق لسان الحق، وكان

(59) عبد الحميد بن يحيى، ص ٢٧٩.

(60) السابق، ص ٢٠٤.

(61) السابق، ص ٢٦٥.

لأصوات الصفير الواضحة لنبرتها العالية وتأثيرها على الأذن وقوة الأصوات الحلقية أبلغ التأثير على المتلقي لترجيح الحق على الباطل ويعكس قوة الوقوف ضد الباطل.

وكان لتشخيص الباطل والحق وظهورهما في موقف الضد – الناتج عن التقابل الصوتي والدلالي – أثرٌ على المتلقي يعكس الرغبة في القضاء على الفتن التي تهدد استقرار الدولة، ولكن ذلك كله لم يتحقق فقد سقطت الدولة الأموية وكان عبد الحميد من أواخر كتابها.

وقد تكون الأصوات الواضحة(*) هي المساعدة للأصوات الحلقية كقوله "...ما أراد الله أن يهين به أهل الكفر لنعمته، و الجحود لحقه"(٦٢).

فالتقابل الصوتي بين العين والبدال المجهورتين، وبين الحاء والتاء المهموستين قد قابله تقابل دلالي بين (لنعمته، الجحود).

أو الأصوات المطبقة كقوله "... وراغب إلى الله فيما جعل في ذلك من تضعيف الحسنات، وحط السيئات"(٦٣).

فالعين والضاد المجهورتان تقابلان الحاء والطاء المهموستين في كلمات متقابلة دلاليًا (تضعيف، حط).

التقابل الصوتي الممتد لصلة التخالف والتغاير الدلالي:

وفي هذا الأسلوب لا يكتمل التقابل بين المفردات صوتيًا ودلاليًا، بل يقع التقابل الصوتي بين مفردات تتسم العلاقة بينها بالتعارض أو التخالف الدلالي وقد برز هذا الأسلوب في سياق النصح وتوجيه ولي العهد، ويبدو أن عبد الحميد كان يعتمد على الأصوات الحلقية ليبرز التعارض الدلالي بين المفردات الوارد فيها التقابل الصوتي كما اعتمد عليها في إبراز التقابل الدلالي بين المفردات الوارد فيها التقابل الصوتي.

فقد ساهم تكرار ثنائية العين والحاء في إثراء الدلالة بشكل واضح بإبراز صلة التعارض في قوله ناصحًا ولي العهد لنبذ مجالس المضاحك والفكاهات في قوله "ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعب يذيعونه، وطعناً في حق يجحدونه"(٦٤) فلأهمية توجيه ولي العهد إلى نبذ مجالس المضاحك والفكاهات والتشديد على ذلك – لأن خطرهما قد يبدو أبسط مما هي عليه – لم يكتف الكاتب بالتقابل بين العين والحاء ذات التأثير السلبي على اللسان والأذن ليبرز التعارض بين عيب وحق، بل كرر التقابل في (يذيعونه، ويجحدونه) ليكون هذا التكرار بمثابة التأكيد على نبذ تلك المجالس، ويوحي بتأثيرها السلبي على العقل كما تؤثر الأصوات الحلقية سلباً على الأذن.

(*) أي الأصوات ذات الوضوح السمعي.

(62) السابق، ص ١٩٨.

(63) السابق، ص ٢٠٥.

(64) السابق، ص ٢٢٣.

وما نذهب إليه أن عبد الحميد يلائم بين استعماله لأدوات اللغة وما أراده من تأثير على المتلقي بدرجات تتفاوت بتفاوت أدواته اللغوية ونتيجة لذلك وجدنا تكرار الأصوات الحلقية المتقابلة ليضمن عدم استهانة ولي العهد بتلك المجالس لأنها من الأشياء التي يتفاوت الناس في إدراك أضرارها أو حتى العلم بضررها على الإنسان من عدمه.

وقد يكتف الكاتب من الأصوات الحلقية المتقابلة لإبراز صلة التخالف الدلالي كما في قوله مبرزاً أضرار معصية الناس للخليفة "فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يهراق بغير حقه"^(٦٥).

التقابل الصوتي بين العين والغين المجهورتين من جهة وبين الحاء والخاء المهموستين من جهة أخرى من (المعصية، الاختلاف) ، (بغير حقه). والمعصية والاختلاف يتعارضان دلاليًا مع الحق.

وللأصوات المتقابلة أثر كبير في إثراء الدلالة داخل النص فتصبع دلالة هذه الأصوات الذاتية دلالة النص بصبغتها وبجانب ذلك فإن هذا التقابل الواقع بين المفردات المتخالفة دلاليًا يضيف دلالة الشمول ففي قوله واصفًا ضواري الصيد وجوارحه "وإني أخبر أمير المؤمنين: أننا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح وأثقف الضواري، أكرمها أجناسًا، وأعظمها أجسامًا وأحسنها ألوانًا، وأحدها أطرافًا، وأطولها أعضاء"^(٦٦).

فالتقابل الصوتي بين الطاء المهموسة والضاد المجهورة في (أطرافًا، أعضاء) اللتين تتخالفان دلاليًا لأن الأطراف مخالفة للأعضاء قد جعل قوة أطراف الضواري وأعضائها وغلظتها مستقي من غلظة الضاد و الطاء المطبقتين و هذه الغلظة مطلوبة في الضواري لتحقيق المبتغى منها في عملية الصيد ، كما أضفى التقابل الصوتي بين (الأطراف والأعضاء) شمولاً على قوة الضواري وغلظتها. ويظهر ذلك أيضاً في قوله في فتنة بعض العمال "إن الشيطان إنما استدعاهم بصغار الأمور ليرفعهم إلى كبارها، وإنما رغبهم ليوقع بهم ثم يقع بهم ويتخلى عنهم"^(٦٧).

فالغين المجهورة تقابل صوتياً الخاء المهموسة من (رغبهم، يتخلى عنهم) فالترغيب مخالف ومغاير للتخلي ونستقي من شدة وقع الغين والحاء على الأذن فظاعة ترغيب الشيطان للإنسان في الفتنة والخروج على الدولة مع النتيجة المؤسفة لتخلي الشيطان عنهم وهي تبصرة لمن أراد أن ينهج نهجهم بمعرفة العواقب المحتومة قبل الاتباع. ونفهم من ذلك أيضاً شمول ضرر اتباع الشيطان. التقابل الصوتي الممتد لصلة التماثل والتواؤم الدلالي:

ومزية هذا الشكل هي جدلية العلاقة بين التماثل الدلالي والتقابل الصوتي ونجد العلاقة بين التقابل الصوتي والتماثل الدلالي تكتسب بعداً تشترك فيه الأصوات

(٦٥) السابق، ص ٢٠٩.

(٦٦) السابق، ص ٢٦٨.

(٦٧) السابق، ص ٢٠٧.

المتقابلة نفسها في تحقيق ثراء دلالي، أو بمعنى آخر تضيف إلى الدلالة دلالات أخرى.

فتقابل الطاء والضاد في قوله في سياق توجيه ولي العهد إلى اختيار من يجالسه محذراً من إهمال ذوي الفضل منهم "فاعتمد عليهم مستدخلاً لهم في أمرك... وإياك وتضييعهم مفرطاً، وإهمالهم مضيئاً" (٦٨).
التقابل أضفى دلالة أخرى مستقاة من غلظة وقوة الطاء والضاد المطبقتين في التحذير من التضييع والتفريط.

وهو ما نراه أيضاً في قوله في سياق تشديد الحراسة على أموال المعسكر وخزائنه "... والشدة على من دنا منها في مسير، أو ضامها في منزل، أو خالطها في منهل" (٦٩).

فتقابل الضاد والطاء في (ضامها، خالطها) في صفة الجهر والهمس وبينهما تماثل دلالي، أوضح قوة الضم والمخالطة وغلظتهما، وهي تبصرة لولي العهد ليعاقب من اقترب من الخزائن والدواوين من الجند خاصة من كان شديد القرب منها.

ولعل موضوع الفتنة من الموضوعات التي شغلت عبد الحميد كثيراً بصفته كاتب الدولة الأول فقد استقى الغلظة والقوة من الضاد المجهورة والطاء المهموسة عند تناوله موضوع الفتنة مما أضفى ثراءً دلاليًا بجانب التماثل الدلالي ففي قوله "وجعل من خالفه وعزب عنه، وابتغى سبيل غيره، أعداءه الأقلين، وأولياء الشيطان الأخسرين وأهل الضلالة الأسفلين" (٧٠).

أولياء الشيطان وأهل الضلالة تربطهما علاقة التماثل الدلالي وزاد التقابل الصوتي بين الطاء والضاد هذا الترابط قوة ليظهر عبد الحميد للمتلقى دلالة قوة الصلة بين الضلالة والشيطان مما يعكس بالفعل طابعاً دينياً خلعه على الخليفة لأن الخروج عليه ضلالة من الشيطان. وهذا الطابع الديني للخليفة يسهل لعبد الحميد التأثير على المتلقين بطاعته ولو دون إبداء الأسباب، والطاعة تتطلب مقاومة الفتن بقوة وغلظة شبيهة بقوة وغلظة الضاد والطاء على الأذن.

● وقد أدت الأصوات الحلقية المتقابلة في صفة الجهر والهمس دوراً دلاليًا مهماً في الكلمات التي تربطها علاقة التماثل الدلالي، ويظهر ذلك الدور في حديثه عن أهمية الطلائع "واعلم أنهم في أهم الأماكن لك، وأعظمها غناءً عنك وعمن معك، وأقمعها كبتاً لمحاذك، وأشجاها غيظاً لعدوك" (٧١).

فالمحاذ والعدو متماثلان دلاليًا تخلصهما التقابل الصوتي بين الحاء المهموسة والعين المجهورة فأضفى على الدلالة القوة في العداء مما يستدعي

(68) السابق، ص ٢٣٤.

(69) السابق، ص ٢٦٢.

(70) السابق، ص ٢٧٤.

(71) السابق، ص ٢٤٨.

الجهد الأكبر لمواجهة الأعداء وهذا الجهد مناظر لجهد النطق بالأصوات الحلقية القوية.

والدعوة إلى القوة نجدها أيضًا في قوله محذرًا ولي العهد "وإياك أن يدخل حزمك وهن، أو يشوب عزمك إيثار أو يخلط رأيك ضياع" (٧٢).

فالحزم والعزم بينهما تواؤم دلالي وتقابل صوتي بين صوتي الحاء والعين اللذين أضفيا بدالتهما الذاتية القوة في الحزم والعزم.

وقريب من ذلك نجده في قوله موضحًا لولي العهد كيفية التعامل مع من يتستر على جنود الدولة الفارين من المعسكر "... وهدم العقار لمن آوى منهم أحدًا، أو ستر موضعه وأخفى محله، وحذره عقوبتك" (٧٣).

ستر الموضع يوائم دلاليًا إخفاء المحل، وبرز التقابل بين العين المجهورة والحاء المهموسة للدلالة على الأخذ بقوة على من يتخلف من الجند ومن يتستر عليهم.

– وقد ينهض التقابل الصوتي مع التواؤم الدلالي بدور المؤكد لأمر ما، كوقت الرحيل بالجند في قوله "ليكن رحيلك إبانًا واحدًا، ووقتًا معلومًا لتخف المؤونة بذلك على جندك، ويعلموا أوان رحيلهم" (٧٤).

– وتنهض الأصوات الحلقية بدور المساعد للدلالة بتقابلها صوتيًا – جهراً وهمساً – في كلمات متوامة دلاليًا كإضفاء الشدة في الاستعداد لقتل الأعداء كما في قوله "لما ألفوكم عليه من التشمير والجد قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسر من أماني ضلالتهم" (٧٥).

فالعقر والجرح يربطهما علاقة التواؤم الدلالي وزاد ذلك الرباط قوة دور التقابل الصوتي بين العين والحاء.

وقريب من ذلك نجده في قوله على لسان مروان مهددًا بأخذ الثأر ممن قتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد "... وإن لم أشمر للقدرية إزاري، وأضربهم بسيفي جارحًا وطاعنًا يرمي قضاء الله في ذلك حيث أخذ" (٧٦).

فالجرح يوائم الطعن وزاد عليه التقابل بين العين المجهورة والحاء المهموسة فأضفى القوة وشدة الاستعداد للقتال والثبات على موقفه منهم علاوة على التصميم على الأخذ بالثأر.

ويظهر ذلك من شدة الصفح والمنع في قول الكاتب موضحًا لولي العهد كيفية التعامل مع من يطلب منه شيئًا في حال كون ولي العهد غير راغب في تلبية

(72) السابق، ص ٢٥١.

(73) السابق، ص ٢٥٤.

(74) السابق، ص ٢٥٥.

(75) السابق، ص ٢٥٩.

(76) السابق، ص ٣٠١.

مطلبه " وإن كرهت قضاء حاجته أمرت كاتبك فصفحه عنها، ومنعه من مواجهتك بها" (٧٧).

• وقد حظيت الغين المجهورة والخاء المهموسة بنصيب من التقابل الصوتي وأضفتا دلالة النفور والقوة والشدة كما في قوله في سياق الحديث عن طغيان نهر الفرات "وموار الفرات يجيش بأرجائه، مظلخة أمواجه، متزايلًا في حجراته، آذيه صخب، وغطامطه لجب" (٧٨).

صوت الغين المجهور يقابل صوت الخاء المهموس في (صخب، غطامطه) اللتين تتواءمان وتتماثلان دلاليًا. ووقع الصوتين الشديد على الأذن قد يعكس شدة موار الفرات وأثره في تدمير ما على جانبيه من منازل، مع شدة وقع التدمير وما أصاب الناس على الخليفة عند استقبال الخبر.

وأورد عبد الحميد التقابل بين الغين والخاء وما لهما من وقع شديد ومنفر على الأذن في كلمات تربطها علاقة التواؤم الدلالي في حديثه عن الفتنة وأثرها على المسلمين " وجعل المعصية شقاءً وخساراً وتباراً وسبباً لكل نقص وأزل وهوان وحسرة، فمن اعتصم بها، وأقام عليها، ودعا إليها كان من إخوانها والغواة فيها" (٧٩).

فإخوان الفتنة وغواتها مصيرهم معروف يوحى به وقع الغين والخاء على الأذن.

ولأهمية توجيه ولي العهد، وإعداده للخلافة قد وجدنا الصوتين بصورة أقرب مما سبق كقوله " ... ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروا منك إصغاءً إليها، وقبولاً لها، وترخيصاً لهم في الإفاضة بها" (٨٠).

توجيه ولي العهد إلى عدم الإصغاء أو حتى الترخيص لخدمه ومن يجالسه لعب الكلام ومحاولة الإيقاع بين الناس يبلغ من الأهمية قدرًا كبيرًا لاستهانة البعض بضرر عيب الكلام مما يستدعي حشد الأدوات اللغوية لتأكيد خطر هذا السلوك. فلم يكن أوقع من الغين والخاء وشدتهم على الأذن شيء كمساعد دلالي لإبراز العلاقة بين التقابل الصوتي والتماثل الدلالي.

يرد التقابل الصوتي بأكثر من زوج من الأصوات لتأكيد منحى دلالي معين، وتتفاوت الدلالة النابعة من التقابل بتفاوت الأصوات في كثرتها وتأثيرها على الأذن. ففي قوله ناصحاً ولي العهد "ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات، ومفتاح السيئات، وخضم العقل" (٨١).

التواؤم الدلالي بين (مفتاح السيئات، مغلاق الحسنات وخضم العقل) قد صاحبه تقابل صوتي بين الغين والعين المجهورتين والخاء والخاء المهموستين.

(٧٧) السابق، ص ٢٢٧.

(٧٨) السابق، ص ١٩٦.

(٧٩) السابق، ص ٢١٢.

(٨٠) السابق، ص ٢٢٣.

(٨١) السابق، ص ٢١٩.

وأضفى ذلك طابعًا خاصًا في مجاهدة الهوى وحشد العناصر والأدوات القوية الشديدة في المجاهدة ونبع ذلك من دلالة الأصوات الحلقية المحتشدة التي تتميز بالجهد الشاق أثناء عملية النطق بها.

ولتضافر الأصوات الحلقية والمطبقة لتشكّل معًا بنية قوية من التقابل الصوتي أثر دلالي لا يقل عن التواؤم الدلالي في شيء، بل يضيف تأكيدًا لدلالات مختلفة كالثقة في بعض الأعوان في قوله "إن كان أحد من أعوانك وحشمك تثق منه بغيب ضمير، وتعرف منه لين طاعة" (٨٢).

(الأعوان والحشم)، (الضمير والطاعة) تتماثل دلاليًا، مع وجود التقابل الصوتي بين العين والضاد المجهورتين والحاء والطاء المهموستين. أو للتأكيد والتشديد على متابعة الجند بنفسه والإشراف على العقوبات الشديدة "فأما عقوبة تبلغ تلف المهجة، وإقامة الحد في قطع، أو إفراط في ضرب ... فلا يلين ذلك من جندك أحد غيرك" (٨٣).

وقع التقابل بين العين المجهورة والحاء المهموسة في (إقامة الحد في قطع)، والتقابل الآخر بين الضاد المجهورة والطاء المهموسة من (إفراط في ضرب)، والتعبيران يربطهما رباط التواؤم الدلالي.

أو لتأكيد رفع درجة الاستعداد في قوله "... قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته، وحماة فتنته فتأهب أهبة المناجزة، وأعدّ إعداد الحذر" (٨٤).

فالعين المجهورة من (طلائعك) تقابل الحاء المهموسة من (حماة فتنته)، والطاء المهموسة من (طلائعك) تقابل الضاد المجهورة من (مقدمات ضلالته)، طلائع ومقدمات ترتبط برابط التواؤم الدلالي، ونتج عن ذلك وقوع (طلائعك) وحدها في مقابل (مقدمات ضلالته، حماة فتنته) مما يستدعي بالطبع تأكيد رفع درجة استعداد الطلائع لمواجهة الكم الكثيف من الكلمات الدالة على العدو التي تعكس كثافة أعداده.

ولتضافر الأصوات الحلقية وأصوات الصفير المشكلة لظاهرة التقابل الصوتي أثر في وقوعه في كلمات تتواءم دلاليًا فتضفي وضوحًا سمعيًا على المفردات المتوائمة كقوله موضحًا لولي العهد كيفية إصدار أحكام العقاب وتنفيذها "فإن رأيت عليه سبيلًا لمحبس أو مجازًا لعقوبة أمرته فتولى ذلك من غير إدخال له عليك" (٨٥).

تقابل الحاء والسين المهموستين من (لمحبس) للعين والزاي المجهورتين من (مجازًا لعقوبة)، وارتبطا دلاليًا بصلة التواؤم، وقد أفاد الوضوح السمعي لصوت الزاي وقوع العقوبة لوضوح الجرم الذي ارتكبه المعاقب، ووقع العين الشديد على الأذن ملائم لشدة وقوع العقوبة ليكون المعاقب عبرة لغيره.

(82) السابق، ص ٢٣٠.

(83) السابق، ص ٢٥١.

(84) السابق، ص ٢٥٢.

(85) السابق، ص ٢٢٦.

وهو ما نجده أيضًا في "فابتع لأمير المؤمنين جارية ... تقعدها الرزانة، ويسكتها الحلم" (٨٦).

فتقابل العين والزاي المجهورتين للحاء والسين المهموستين من (تقعدها الرزانة، ويسكتها الحلم) ويربطهما التواؤم الدلالي أضفى الوضوح على الرزانة والحلم ليتحرى المتلقي الدقة في اختيار جارية تظهر عليها الرزانة والحلم بشكل واضح حتى تكون مؤهلة لأن تكون جارية للخليفة فتلك الصفات مطلوبة في بيوت الخلفاء والأمراء لتكون من تحملها واجهة للبيت أمام زائريه.

ولوقوع أكثر من زوج من الأصوات في تقابل صوتي أثر كبير في إثراء الدلالة ففي معرض القول عن الفتنة يقول عبد الحميد "فإن كان ظهورهم استدراجاً من الله لهم حتى يستوقروا من الآثام، فإن ذنوبهم ستسلمهم إلى مصارع الخزي وإن كان الله ابتعثهم لتمام البلية، وقتل الحرية، وضياع الذرية؛ فستهوى عليهم مشدّدات البلايا بتتابع المنايا" (٨٧).

تقابل الثاء المهموسة للذال المجهورة من (الآثام والذنوب) المتماثلتين دلاليًا، وتقابل الحاء المهموسة للعين المجهورة من (قتل الحرية وضياع الذرية) المتماثلتين دلاليًا، والذال المجهورة تقابل الثاء المهموسة من (مشدّدات البلايا تتابع المنايا)، وكل ذلك أعطى المتلقي نوعاً من اليقين بهزيمة الخارجين على الدولة.

وقد تتضافر بعض الأصوات الواضحة للأصوات الحلقية في تقابل صوتي يضيف دلالة الإحكام كقوله ناصحاً ولي العهد بالحفاظ على سرية جواسيسه حتى أثناء وجودهم في معسكره كنوع من أنواع المكائد الحربية "واعلم أن لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة، وجواسيس كامنة وأن رأيته في مكيدتك مثل ما تكايد به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويعدّ لك كإعدادك له" (٨٨).

الاحتتيال يقترب معناه من الإعداد، وقد ظهر تقابل صوتي بين الحاء والثاء المهموستين والعين والذال المجهورتين مما أضفى على الدلالة نوع من الإحكام في الإعداد للحرب.

وللأصوات المفخمة حضور متضافر مع بعض أصوات الصفيير التي تمثل زوجاً من المتقابلات صوتياً والعلاقة الجامعة بين مفرداتها التماثل الدلالي فقوله في معرض الحديث عن طاعة الخليفة " ... فمن أثر دينه على دنياه؛ تمسك بطاعة ولاته وتحرز بالدخول إلى مرضاته في الجماعة" (٨٩).

التمسك بطاعة الولاة يماثل دلاليًا تحرز رضا الله، وتقابل فيها السين و الطاء المهموستان، الزاي و الضاد المجهورتين، ونستقي من ذلك شدة احترام

(86) السابق، ص ١٩٧.

(87) السابق، ص ١٩٩.

(88) السابق، ص ٢٤٢.

(89) السابق، ص ٢١٣.

الولاء وإضفاء طابع ديني على الخليفة وآخر دنيوي لمن يدعو إلى الفتنة، ولعلّ ما نذهب إليه نابع من الطاء والضاد المطبقتين في (الطاعة، والرضا).
التقابل الصوتي في صفة الجهر والهمس الواقع في كلمات متصلة نحويًا:
من المؤكد أن النحو يقيم صلات ترابطية بين المفردات فتتشكل هذه المفردات داخل إطار جامع تختلف فيه الصلات الدلالية باختلاف تلك الروابط.
والتقابل الصوتي المتواجد بين المفردات التي ترتبط نحويًا يزيد هذا الارتباط قوة، أو يكون بمثابة تأكيد لهذا الارتباط، وفي بعض الأحيان يلفتنا إلى دلالات بعينها قد لا تتم إلا مع وقوع التقابل الصوتي، ومن كل هذا تخرج لنا دلالات عدّة على سطح النص.

ففي الجملة الاسمية المنسوخة بحرف أو فعل ناقص نجد التقابل الصوتي يزيد من قوة الارتباط بين اسم الناسخ – حرف أو فعل – وخبره خاصة إذا تأخر الخبر عن اسمه، وكان الفاصل العديد من المفردات كقوله في سياق عتاب أحد الولاة الذي استهان بأحد أفراد الأسرة الأموية "فإن الحال التي يعاتبك عليها أمير المؤمنين حالّ يخاف أن يكون ذلك منك عامًا لغيره من نظراء شباب قريش" (٩٠).
تكررت الحاء المهموسة في اسم إن وخبرها (الحال، حال) مع الحاء المهموسة من (يخاف) وموقعها نعت لخبر إن وتقابلتا صوتيًا مع العين والغين المجهورتين الواردتين في خبر الفعل الناسخ (يكون) وشبه جملة متعلقة (عامًا لغيره)، فتكون المحصلة (فإن الحال المعاتب عليها حالّ يخاف أن يكون عامًا لغيره)، وثمة دلالة تلوح من وراء ذلك كله وهي أن حال الخوف من الاستهانة بشباب آخرين من قريش كانت نتيجة لاستهانة الوالي بالفعل بأحد أفراد قريش، وقد ولد هذا الخوف معاتبة الخليفة للوالي، ومن كل هذا نجد الدور المهم الذي قام به التقابل الصوتي في تقوية الروابط النحوية بين المفردات مع تأكيد ربط السبب بالنتيجة التي ترتبت عليه.

وقد يكون التقابل الصوتي واردًا في الفعل الناسخ وخبره كما في قوله في سياق طغيان نهر الفرات مظهرًا تأثر الخليفة بما أصاب الناس من أذى "وقد أصبح أمير المؤمنين مرتاعًا وجلًا لما أصبح بأهل حجرات الفرات من الإشفاء على الغرق" (٩١).

التقابل الصوتي بين الحاء المهموسة من (أصبح) والعين المجهورة من (مرتاعًا) قد زاد من قوة الروابط النحوية بين الفعل الناسخ وخبره، ونبعت نتيجة لذلك دلالة تأكيد شدة ارتياح الخليفة من غرق رعيته كنوع من ربط الخليفة برعيته وتأثره بما يتأثرون به.

(٩٠) السابق، ص ١٩١.

(٩١) السابق، ص ١٩٧.

والجملة الفعلية النصيب الأكبر من التقابل الصوتي فقد يرد لزيادة قوة الرابطة النحوية بين الفعل وفاعله كما في قوله معبراً عن الضيق والحزن من طول السفر والبعد عن الأهل "... ثم تستأنفه مفاوز الطلب بتحريك المضطرب" (٩٢).
فالسین المهموسة من الفعل (تستأنف) تقابل الزاي المجهورة من فاعله (مفاوز).

أو لتقوية الرابطة بين الفعل المبني للمجهول ونائب فاعله كما في قوله ناصحاً ولي العهد بالتمسك بتقوى الله "... والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه فإنه أبلغ ما طلب به رضى الله" (٩٣).

الطاء المهموسة من (طلب) تقابل الضاد المجهورة من (رضا) وزيادة الرابطة قوة ربما يعكس التصميم على طلب رضا الله.

أو بين الفعل - أو ما ينوب عنه - ومفعوله كقوله في معرض حديثه عن آثار الفتنة "ويصير خساراً أمره غير رادّ الجزع عليه فانت أمر مما مضى" (٩٤) تقابل الدال المجهورة من (رادّ) التاء المهموسة من مفعوله (فانت).

وقوله موجهاً ولي العهد إلى الاستعداد الدائم للعدو والانتظام في معرفة أحواله "كأنك في مسيرك كله، ومنازلك أجمع مواقف لعدوك رأي عين، تنظر حملاتهم وتتخوف غاراتهم، معداً أقوى مكيدتك" (٩٥).

تقابل الخاء المهموسة من (تتخوف) الغين المجهورة من مفعوله (غاراتهم)، وقوة الارتباط بينهما تضيف شيئاً من التلازم بين الغارات والخوف ليكون ولي العهد على استعداد دائم للغارات.

وقد تتكرر الأصوات المتقابلة في أكثر من صلة نحوية لتقوية أكبر عدد من الروابط كقوله لولي العهد "وقد تلقّتك أخلاق الحكمة ... ثم شمّرت إلى لباب مصاصها، وأحرزت منفس ذخائرها. فافتعد ما أحرزت، ونافس فيما أصبت" (٩٦).

فالزاي المجهورة تقابل السین المهموسة في الفعل ومفعوله (أحرزت منفس)، وفي المعطوف والمعطوف عليه (أحرزت ونافس) ليوحي بقوة التلازم بين النفيس وإحراز ولي العهد له دون إحراز غيره بل إحراز للنفيس لا بد له من منافسة ملازمة.

وظفر النعت ومنعوته بالتقابل الصوتي كما في قوله عن صفة خيل الحرب "واياك أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرساً قوياً أو برذوناً وثيجاً" (٩٧).

(٩٢) السابق، ص ٢٠٤.

(٩٣) السابق، ص ٢١٨.

(٩٤) السابق، ص ١٩٥.

(٩٥) السابق، ص ٢٣٩.

(٩٦) السابق، ص ٢١٨.

(٩٧) السابق، ص ٢٥٤.

فالذال المجهورة من المنعوت (برذوئاً) تقابل الثاء المهموسة من النعت (وثيجاً) وقد أكد التقابل بجانب تقوية الرابطة بين النعت ومنعوته صفة الوثاجة للبرذون وعضد هذا التأكيد القصر النابع من الاستثناء.

ولاحت لنا في الشرط ظاهرة التقابل الصوتي التي نهضت بدور الرابط، أو تقوية الرابط بين أجزاء أسلوب الشرط، وإظهار ترتب النتيجة على السبب. ففي قوله عن مساوئ الجواري "فإن أدین ما استودعن؛ نزع بهن سوء مشابه الخؤولة، وفسولة الأصول، وإن تخسرت نعمة راجعة لم تنزع بهن عروق في صالح وراثة يسكن إليه ولد وينزل به أحد" (٩٨).

السين المهموسة من فعلي الشرط (استودعن، تخسرت) تقابل الزاي المجهورة من جوابيهما (نزع، لم تنزع) ويلفت التقابل هنا المتلقي إلى النتائج المترتبة من الإنجاب من الجواري دون الحرائر، وتأكيد حصول هذه النتائج، وكان لتكرار الفعل (نزع) إحياء منفر من الجواري.

ولتكرار الثنائية التقابلية – السين والزاي – بين المعطوف عليه (يسكن) ومعطوفه (ينزل) أكبر الأثر في لفت انتباه المتلقي واستيقافه إزاء المفردات التي تتضمن الصوتين السابقين والبحث عن الدلالة التي يرمي إليها الكاتب فيكون مفتاح هذه الدلالة هو صوت الزاي بما له من صفير عال وأزيز قد تنفر منه الأذن ليؤثر في المتلقي حتى ينفر من الجواري والإنجاب منهن.

ونجد التكرار أيضاً في قوله مبدئياً لأخ له مدى سعادة الإنسان إذا لم يغادر وطنه وأقام فيه "وإن عرض لك عارض من سقم، تكنفك الكفاة، وأحرق بك الحفدة" (٩٩).

وقع التقابل بين العين المجهورة المتكررة في فعل الشرط وفاعله (عرض- عارض) والحاء المهموسة المتكررة في معطوف على جواب الشرط وفاعله (أحرق- الحفدة) مع تكرار بعض الأصوات الأخرى فيهما أيضاً كالضاد والذال – وبينهما تقابل صوتي في الإطباق والترقيق – ونهض التقابل الصوتي بربط فعل الشرط بجوابه – معطوف جوابه – وهو ما يضمن للمتلقي أنه ليس وحده في كل الأحوال. بل يحيط به الأحباب في الصحة أو المرض.

وقد يقع التقابل الصوتي داخل جملة جواب الشرط لتأكيد الدلالة كما في قوله ناصحاً ولي العهد بتوزيع نظراته على جميع المجالسين له وما يستتبع ذلك من تصرفات "فإن وجّه أحد منهم نظره محدّقاً، أو رماك ببصره ملحّاً؛ فاخفض عنه إطراقاً جميلاً باتداع وسكون" (١٠٠).

الضاد المجهورة من فعل جواب الشرط (فاخفض) تقابل الطاء المهموسة من الحال (إطراقاً)، وهو ما أكد الإطراق الجميل للهروب من إلحاح الناظرين، دون أي رد فعل آخر.

(٩٨) السابق، ص ١٩٣.

(٩٩) السابق، ص ٢٠٣.

(١٠٠) السابق، ص ٢٣٠.

وقد يلجأ الكاتب إلى التقابل الصوتي بين العامل وما يتعلق به لتقوية الروابط النحوية بينهما ومنه قوله لولي العهد "فليكن من توليه القضاء... ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للنهزة"^(١٠١).

السين المهموسة من الفعل (يستعد) تقابل صوتيًا الزاي المجهورة من شبه الجملة (للنهزة)، ونستقي دلالة تأكيد الاستعداد من صفير الزاي والسين الملانم للإنذار.

وقد يرد أكثر من زوج لتشكيل التقابل الصوتي بين العامل وما يتعلق به لتأكيد النتيجة المضمونة من منع البطانة والخدم من استغلال قريبهم من ولي العهد لتحقيق مصالحهم على حساب الناس الذين لا يستطيعون مجالسة ولي العهد كما في قوله "فإن ذلك أبلغ بك سموًا إلى منازل الشرف، وأعون لك على محمود الذكر، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي، وشرف الهمة، وقوة التدبير"^(١٠٢). الأزواج المتقابلة (س، ز) من (سموًا، إلى منازل) (ع، ح) من (أعون، على محمود)، (ط، ض) من (أطلق، لعنان الفضل).

والعطف خاصة بالواو آخر ما رصدناه من صلات الترابط النحوي التي تخللها التقابل الصوتي في صفة الجهر والهمس، وللعطف بالواو دلالة الجمع بين المتعاطفين، فوقع التقابل الصوتي بين المتعاطفين يضيف التوازن الصوتي بينهما فلا ثقل المهموسات ولا خفة المجهورات، ولكن ثقل مخفف، أو خفة مثقلة وخير مثال لذلك قوله ناصحًا ولي العهد بتحديد موعد الرحيل بالجيش و عدم تغييره حتى لا يقلق الجنود "لا يئلق ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف، وينزلون بالتوهم؛ حتى لا ينتفع ذوو رأي بنوم ولا طمأنينة"^(١٠٣).

فأصوات (س، ف، هـ) وكلها مهموسات تكوّن (السفه) توازنت مع (ن، ز) المجهورات من (النزق)، والتقابل الصوتي بين (السين والزاي) ساعد على هذا التوازن الذي يلائم النظام في تحديد موعد الرحيل أو حتى الرحيل نفسه. وقوله أيضًا مهددًا أحد الخارجين على الدولة بما سيلقاه من جنود أقوياء "ليسوا بذوي هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف"^(١٠٤).

. (ض، س) من (يقضون بالسيوف) تقابل صوتيًا (ط، ز) من (يخالطون الزحوف) وجمعت بين الجملتين الواو العاطفة وهذا التوازن يلائم النظام الذي عليه هؤلاء الجنود في حربهم ضد المتلقي وجنوده.

التقابل الصوتي وإحكام التصوير

يقوم التقابل الصوتي بدور لا يقل أهمية عند ذلك الذي تقوم به الصورة البلاغية في رسائل عبد الحميد، فقد يكون التقابل مساعدًا للصورة يظهر بعض

(101) السابق، ص ٢٤٥.

(102) السابق، ص ٢٢٩.

(103) السابق، ص ٢٥٥.

(104) السابق، ص ٢١٤.

جوانبها المستترة عن المتلقي، أو يقوم بدور الرابط لأطراف الصورة، وقد تطلّغى الدلالة الذاتية للأصوات المتقابلة على دلالة الصورة نفسها.

ولوجود التقابل الصوتي داخل المفردات المكوّنة للصورة – بإضافة دلالة الأصوات المتقابلة – تكثيف يثري الدلالة ويكشف بعض الجوانب المهمة لأسلوب عبد الحميد.

ونستعرض الاستعارة المكنية التي تخلل أطرافها التقابل الصوتي كما في قوله على لسان الخليفة مهذّباً ولي العهد بالعقاب إذا لم يعامل زوجه معاملة تليق بكونها ابنة عمه "فإن أنت غفلت أو أمّلت غفلتي عنها وعنك، لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك يسلب منك جميع ما في يدك بقولها" (١٠٥).

ثمة تقابل صوتي بين أطراف الاستعارة المكنية التي تشخّص الغضب (نازل من غضبي يسلب) بين الزاي المجهورة والسين المهموسة، ومن الواضح أن الزاي والسين لم يظهرهما حركة النزول والسلب فقط، بل إن أزيز الزاي صور قوة النزول وشدته لصغيرها العالي وكذلك فعلت السين في السلب.

وقوله حامداً النعمة لأخيه في ظل الوطن دون الاغتراب "وقد أصبحت عندي ذا غبطة... بقطعك حبال الأمل، وردك نفسك عن جماعها إذا نازعتك متطلعة إلى شيء من الدنيا" (١٠٦).

ثمة أكثر من زوج من الأصوات المتقابلة، فاستعارة قطع حبال الأمل نجد العين المجهورة والحاء المهموسة وأيضاً في استعارة ردّ جماع النفس من (جماعها ونازعتك) وتقابل الزاي المجهورة السين المهموسة في الاستعارة نفسها من (نفسك، نازعتك).

ويضفي أزيز الزاي كشفاً أوضح لقوة وشدة حركة النزاع بين الإنسان والنفس مما يؤكد صعوبة رد جماع النفس وبالرغم من ذلك فقد استطاع وأصبح (ذا غبطة) عند عبد الحميد.

ولا تقل الخاء والغين أهمية عن الزاي والسين، فللحاء المنفرة للأذن أحياناً دور في إظهار النفور من الغربة وتبيّن آثارها السلبية على نفس عبد الحميد مما يعكس الشوق والحنين إلى الوطن والصحاب في قوله "حتى تخيم بنا الأسفار على حلول كل دار بكربة الغربة، وخشونة الجفوة" (١٠٧).

أو النفور من الغفلة مما يستدعي شدة الحرص منها في الخلوات "وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة" (١٠٨).

(105) السابق، ص ١٩٤.

(106) السابق، ص ٢٠٣.

(107) السابق، ص ٢٠٤.

(108) السابق، ص ٢٢١.

ويقوم التقابل بين الضاد المجهورة والطاء المهموسة بدور معضد ومساعد للاستعارة في معرض حديثه عن الدنيا "ومن قرصته بأظفارها، وعصته بأنيابها وتوطأته بثقلها، قلاها نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها"^(١٠٩).

أضفى التقابل الصوتي بينهما في (عصته وتوطأته) دلالة القوة في العضّ والشدة في وطأتها على الإنسان وساعد ذلك شدة وقع الضاد والطاء المطبقتين وغلظتهما على الأذن، وبوجه آخر أكد عبد الحميد عن طريق التقابل الصوتي المواقف المتقابلة والمتناقضة للدنيا في تعاملها مع الإنسان، وأظهر من جانب آخر مدى الضيق والحزن والشوق للوطن الذي أصاب عبد الحميد أثناء هروبه بعد هزيمة (مروان بن محمد) وسقوط الدولة الأموية ومعها عبد الحميد.

ويربط التقابل الصوتي بين أطراف الصورة كما في قوله "وحملني من شكره فيه ما قد أدنى بثقل حمل النعم المساقاة إلى به"^(١١٠).

وقوله "فحاول بلوغ غاياتها محرزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنا أعمالك من العجب فاتة رأس الهوى"^(١١١).

فتقابل الحاء المهموسة والعين المجهورة في استعارة (حمل النعم) في الأول ربط بين النعم وحمل عبد الحميد لها مما يعني الاستفادة الفعلية منها وتأكيد وصولها ليده.

وفي الثاني (محصنا أعمالك من العجب) فقد ربط بين العجب والتحسين ضده حتى يتنبه المتلقي إلى كل جوانب الصورة، فتحسين الأعمال استعارة والتحسين ضد العجب استعارة أخرى أسهمت الأصوات المتقابلة في إظهارها.

وبالوصول إلى الكناية وجدنا التقابل الصوتي يؤدي أيضا دور الرابط كما في قوله عن صفات جارية طلب الخليفة من المتلقي شراءها "قد جُللَ ظهرها كثرتة حتى ستر بسواده مشتمل القلب"^(١١٢).

تقابل التاء المهموسة للـدال المجهورة من (ستر بسواده) قد زاد من وضوح طول الشعر وكثافته المستقى من وضوح التاء والدال، وربط التقابل بين سواد الشعر وستره لجسد الجارية.

وقوله في صفات فرسان الدولة "كأثما أشرب وجهه نقيع الحناء، قد رئم الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها"^(١١٣).

ثمة تقابل صوتي بين العين المجهورة والحاء المهموسة من كناية (نقيع الحناء) التي تعكس الدم ولونه، وساهم التقابل في الربط بين النقيع والحناء ليربط في المستوى التحتي للنص بين الدم المهدر من جنود العدو وبين لونه الأحمر على

(109) السابق، ص ٢٧٩.

(110) السابق، ص ٢٠١.

(111) السابق، ص ٢٢٠.

(112) السابق، ص ١٩٧.

(113) السابق، ص ٢١٤.

وجه فرسان الدولة وهو ملائم لسياق التهديد الذي صيغت فيه هذه الكناية، إذ غدا دم قتلى العدو زينة على وجه فرسان الدولة دالة على شجاعتهم.

وهذا ما نجده أيضاً في صعوبة تقبل استخلاف الإنسان للفرجة بديلاً عن الوطن والصحاب في قوله "إذ الضيعة لمن اغترب، والفرجة لمن اشتملت عليه الهموم وتشعبته الرغبة؛ ففارق الأحبة، واستخلف منهم الفرجة، وكادح الأسفار، وأتعب البدن، وأقلق الشخص" (١١٤).

وما نذهب إليه بوضع عبد الحميد مكان (من اغترب) استشعار مدى حزن عبد الحميد وضيقة وما اعتمل داخله من شوق كبير للوطن، وذلك الانكسار النفسي الذي عبر عنه بصورة متتابعة.

ثانياً: التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة التقابل الصوتي الدلالي

من أشكال التقابل الصوتي التقابل في صفة الشدة والرخاوة، وينهض التقابل الصوتي بدور المؤكد لتقابل دلالي آخر تقع فيه الأصوات المتقابلة داخل كلمات تتقابل دلاليًا فيكون تقابلاً صوتياً دلاليًا في أن واحد، وكل ذلك تأكيد لصلة التقابل بين المقدرات، واختلاف الأصوات واختلاف الدلالة الذاتية لكل صوت، فإتينا نضيف دلالة كل صوت إلى الدلالة المستقاة من التقابل الصوتي الدلالي.

أول ما يصادفنا من تقابل في قوله محرّضاً الناس على مناهضة الخارجين على الدولة ".. والله للموت فاقدين لهم خير من الحياة معهم" (١١٥).

ثنائية الموت والحياة تخللها تقابل صوتي في الشدة والرخاوة بين القاف والخاء من (للموت فاقدين، خير من الحياة)، وقد لاحظنا القاف والخاء المطبقتين بما لهما من وقع غليظ على الأذان، ويدعو الكاتب بهذا التقابل إلى تأكيد موقف الضد بين أهل المعصية – الخارجين على الدولة – وأهل الطاعة – رجال الخليفة – وما يجب أن يكون عليه هذا الموقف الأخير من القوة والشدة والغلظة على الخارجين وهو ما نفهمه من صوتي القاف والخاء اللذين صبغا الدلالة بصبغتها الذاتية.

وقريب من ذلك في قوله في نفس السياق "فلا تحمّلوا أبدانكم ذلّ سلطانهم عليكم، واختاروا فراقهم معه الموت على البقاء معهم" (١١٦).

ثنائية الفراق والبقاء المتقابلتين دلاليًا قد تضمنت تقابلاً صوتياً أكد التقابل الدلالي بينهما، فالقاف الشديدة تقابل الخاء الرخوة من (اختاروا، البقاء) من جهة، والباء الشديدة تقابل الفاء الرخوة من (فراقهم، البقاء) مما وضع (البقاء) في تقابل مع (اختاروا فراقهم)، وما نفهمه هنا التكثيف في (اختيار الفراق معه الموت بإزاء البقاء معهم) لتأكيد الشدة والقوة في مواقفهم ضد أهل المعصية – الخارجين على الدولة – ولو لم تتكافأ قوتهم مع قوة هؤلاء الخارجين.

(114) السابق، ص ٢٠٣.

(115) السابق، ص ٢٠٠.

(116) السابق، ص ٢٠٠.

وقد يضع التقابل الصوتي المفردتين في وضع التقابل الدلالي دون ظهور هذا التقابل على سطح النص، ولكنه يظهر بالتأمل المتعمق في باطن النص ففي قوله في غربته "فالأبدان خاشعة لطول الدأب، تتوقل في وعور المسالك وتتدرّع هول تلك المخاوف، حتى تخيم بنا الأسفار على حلول كل دار بكربة الغربية، وخشونة الجفوة"^(١١٧). التقابل الصوتي بين القاف الشديدة والخاء الرخوة من (تتوقل تخيم) قد كشف عن تقابل بين حركة الصعود والسكون على الأرض.

ولتأكيد التقابل السابق – كما فهمناه – تضمنت العبارة أكثر من زوج من المتقابلات صوتيًا في صفة الشدة والرخاوة مثل الكاف والشين من (كربة، خشونة) والفاء والباء من (الغربة، الجفوة) فتكون المحصلة (كربة الغربية) مقابل (خشونة الجفوة) وكأن عبد الحميد يبعث إشارات للمتلقى توضح له أن العامل الأساسي في الكربة هو خشونة من يتعامل معهم.

ولا يخفى على المتلقى أثر القاف والخاء – ذواتي الوقع الغليظ والشديد على الأذن – على جو العبارة النفسي الذي كشف لنا مدى الضيق والحزن من الغربة مما يعكس حب عبد الحميد للوطن وحبه وشوقه للأهل.

وقد ورد التقابل الصوتي بين القاف والخاء في سياق الحرب لتأكيد الالتزام بالجماعة في الجيش دون التقدم أو التأخر عنه في قوله "ومره فليول عليهم رجالاً ركباً مجرباً... ولا مشق للناس في التنحي إلى الرفاهية والسعة، وتقدم العسكر أو التأخر عنه"^(١١٨).

وقد شاركت الصاد الرخوة والطاء الشديدة في تأكيد التقابل الدلالي بين الخطأ والصواب خلال نصائحه للكُتّاب "والكاتب بفضل رأيه... أولى بالرفق بصاحبه ومداراته، وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً، ولا تعرف خطأ ولا صواباً"^(١١٩).

وفي معرض النصيحة لولي العهد "فإن كان صواباً نالتك خيرته، وإن كان خطأ أقدم به جاهلاً، أو فرطاً سعى بها كاذب؛ فنالت الباغي منهما أو المظلوم عقوبة أو بدر من واليك إليه عقوبة نكال؛ لم يعصب ذلك الخطأ بك"^(١٢٠).

ولعل التقابل الصوتي بين الصاد والطاء لم يؤكد التقابل الدلالي بين الصواب والخطأ فحسب، بل أكد التقابل بين موقفين، الأول إذا كان واليه صائباً في حكمه بتخية سبيل المظلوم، والثاني يتطلب الحكم على الباغي فالأولى أن يتولى من ينوب عنه الحكم في الموقف الثاني حتى لا يلومه أحد، مع إمكانية أن يتولى ولي العهد إخلاء سبيل الأول بنفسه حتى ينال رضا الناس وشكرهم.

(117) السابق، ص ٢٠٤.

(118) السابق، ص ٢٤٤.

(119) السابق، ص ٢٨٦.

(120) السابق، ص ٢٢٦.

وقد ورد الخطأ بشيء من التفصيل وطول أفقي مقارنة بالصواب مما أعاد التقابل الصوتي مرة أخرى في نهاية العبارة (لم يعصب ذلك الخطأ بك) ليقوم بدوره المؤكد للتقابل الدلالي كما أوضحنا.

وعن المشورة سرّاً يقول عبد الحميد "فابغها محرراً لها، ورمها طالباً لنيلها، وإياك والقصور عن غايتها أو الإفراط في طلبها" (١٢١).

وضع التقابل الصوتي بين الصاد الرخوة والطاء الشديدة المفردتين (القصور والإفراط) في وضع التقابل الدلالي الواضح.

وقد ورد تقابل الصاد والطاء أيضاً في أهم موضوعات الكاتب، ألا وهي الفتنة التي نعتبرها من المحاور الأساسية في معظم رسائل عبد الحميد وتعكس صورة العصر الذي عاشه، وقد عجلت الفتنة فيه بسقوط الدولة الأموية ومعها عبد الحميد.

فأثر أن يكون التقابل بين صوتين مطبقين لهما وقع غليظ قوى على الآذان يعكس الموقف المتشدد إزاء من خرجوا على الدولة – المتمثلة في الخليفة الأموي – وقوة الخارجين و غلظتهم، ففي معرض القول عن الطاعة والمعصية "...الذي لم يجمع بين حق وباطل وأهل طاعة ومعصية إلا جعل النصر والفلج والعاقبة لأهل حقه وطاعته" (١٢٢).

ويزيد من حدة التوتر وشدته بين طرفي النزاع على السلطة الجمع بالواو بين (الطاعة، المعصية) اللتين تضمنتا تقابلاً صوتياً دلاليًا معاً.

وللأصوات المتقابلة الأخرى في الشدة والرخاوة نصيب في تأكيد التقابل الدلالي كالدال والزاي في قوله مغبطاً أخاه لبقائه في الوطن "... وردك نفسك عن جماعها إذا نازعتك متطلعة إلى شيء من الدنيا؛ حتى اعتلقت خفض الدعة والوداعة" (١٢٣).

فثمة تقابل بين الردّ والمنازعة أسهمت فيه الدال الشديدة بوضوحها السمعي، والزاي الرخوة صاحبة الأزيز العالي ببيان حركة الردّ والمنازعة ومن ثم وضوح الصراع وشدته بين النفس والإنسان.

أما عن الفاء والباء من قوله معبراً عن فرحته بمولود له "فإن يدفع الله عن حوبائه بالتباسى العافية فيه، ويصرف جوالب الأقدار، ومكاره السوء عنه؛ فنعمة رادفة تشاكل البادية الموصولة بالتالية" (١٢٤).

فثمة تقابل دلالي بين (الرادفة، البادية) تخلله التقابل الصوتي بين الفاء الرخوة والباء الشديدة ويؤكد وصول نعم الله لعبد الحميد عبر الزمن ماضٍ أو حاضر أو مستقبل.

(121) السابق، ص ٢٣١.

(122) السابق، ص ٢٧١.

(123) السابق، ص ٢٠٣.

(124) السابق، ص ٢٠٢.

ويتضح أثر التقابل في الشدة والرخاوة بين الكاف والشين من قوله موصيًا ولي العهد برجل القضاء في عسكره " ... فأنتك قد عرضته لهلكة الدنيا، وبوار الآخرة، أو شرف العاجلة، وحظوة الآجلة" (١٢٥).

في وضع التقابل الدلالي بين (هلكة الدنيا، شرف العاجلة) في صورة واضحة للمتلقى بجانب الدنيا والآخرة، العاجلة والآجلة. التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة الممتد لصلة التخالف والتغاير الدلالي بين المفردات:

والشكل التالي للدلالة التي تضمنت تقابلًا صوتيًا في صفة الشدة والرخاوة هو صلة التخالف بين المفردات وهو ما نجده في قول الكاتب في سياق الفتنة وأحوال أصحابها "وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباءً، ازداد الحق إليهم ازدلافًا، وعليهم عكوفًا، وفيهم إقامة" (١٢٦).

الإباء مغاير للازدلاف وتخللهما تقابل صوتي بين الإباء الشديدة والفاء الرخوة، وقد وضع التقابل الصوتي المفردتين في دائرة اهتمام المتلقى علاوة على تناظرهما لبعضهما في الموقع من الفاصلة.

وفي قوله عن أهمية الكتاب في الدولة وعند الخلفاء والأمراء " ... فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون" (١٢٧).

البصر مخالف للنطق وتخللهما التقابل في الشدة والرخاوة بين الصاد والطاء.

ولعل ما نستقيه من دلالة الصاد والطاء المطبقتين وما لهما من وقع غليظ هنا هو ما يرمي إليه عبد الحميد من توجيه للكتاب بطاعة صاحب العمل وشدة التمسك بهذه الطاعة في مختلف المواقف المتغيرة والمتخالفة.

ولتكرار الأصوات المتقابلة وتكثيفها تكثيف دلالي مناظر يلفتنا فيه عبد الحميد إلى صفات معينة كالشجاعة المعجزة للأعداء، التي تنتهي برسالة للعدو مفادها سننتصر لأن لدينا جنودًا لا يفوقهم أحد في القوة والشجاعة والخبرة الحربية كالتي بعثها لمن خرج عن طاعة الخليفة يقول فيها "ليس فيهم إلا شك محتنك، في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء" (١٢٨).

تقابل الكاف الشديدة للشين الرخوة من (شرب- أكل) المتغايرتين، وامتد إلى (شقشقة وكلكل) المتغايرتين أيضًا، ولعل خروج الكاف والقاف من مخرج قريب قد جعلهما في وضع التقابل في صفة الترقيق والإطباق من (شقشقة وكلكل) وهو ما أضفى ثراءً صوتيًا أكد عبره عبد الحميد قوة جنود الخليفة وشجاعتهم مما نفهمه

(125) السابق، ص ٢٤٥.

(126) السابق، ص ٢٧٣.

(127) السابق، ص ٢٨١.

(128) السابق، ص ٢١٤.

لتفتيت قوة المعارض السياسي والعسكري للخليفة وزرع الخوف في قلوب مناصريه وجنوده، ولعل عبد الحميد قد انتصر بقلمه وأسلوبه للخليفة، ولكن الخليفة انهزم بجيشه الذي لم يكن بمستوى بلاغة عبد الحميد.

التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة والممتد لصلة التواؤم والتماثل الدلالي: أدى التقابل بين الأصوات الشديدة والرخاوة في المفردات المتماثلة أو المتوائمة دلاليًا دور المؤكّد لصلة التواؤم، لاتحاد الأصوات المتقابلة في كل الصفات الصوتية عدا صفة واحدة، فتضفي توازنًا بين التقابل الصوتي والتواؤم الدلالي، وكان لدلالة الأصوات الذاتية إسهام كبير في توجيه المتلقي لدلالة معينة تتبع من صفات تلك الأصوات كالقوة المستوحاة من القاف والخاء المطبقتين في قوله محاولاً إقناع ولي العهد بتلقي النصيحة "ولو كان المؤدّبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، أو لقتوه إلهامًا من تلقائهم، ولم نصبهم تعلموا شيئًا من غيرهم لنحلناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة خالفهم" (١٢٩).

فقد أكّد التقابل الصوتي بين القاف الشديدة والخاء الرخوة من (أخذوا، لقتوه) قوة الأخذ والتلقين وتمكن المؤدّبين من العلم مما يخدم ما أراد عبد الحميد إبرازه للمتلقى - ولي العهد - من ضرورة تعليم المتعلم ولو كان متمكنًا من علمه. ونجد أيضًا في قوله ناصحًا ولي العهد بتشديد الحراسة "واعلم أن مواضع الأحرار من موضعك... والكلاءة لمن بغتهم طارقًا، وأرادهم مختلًا" (١٣٠).

الطارق والمختل لفظان متماثلان دلاليًا تخللهما تقابل صوتي بين القاف الشديدة والخاء الرخوة، وقد أضفتا قوة على الطارق والمختل مما يستدعي توجيه المتلقي إلى تقوية مواضع الأحرار لمناسبة قوة الطارق والمختل وتأكيد ذلك. وفي معرض حديثه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تشريع أمور المسلمين "... موعزًا إليهم في التقدم، ضاربًا لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون" (١٣١).

نجد تواؤم التقوى والخشية (يتقون ويخشون) قد تتخللهما تقابل القاف الشديدة والخاء الرخوة صوتيًا الذي أبرز من خلالهما قوة الاتقاء والخشية والتأكيد عليها.

ووجدنا التأكيد أيضًا في ثنائية الشقاء والخسار من قوله عن آثار المعصية "وجعل المعصية شقاء وخسارًا وتبارًا..." (١٣٢).

وقد يضيف عبد الحميد ثراء صوتيًا إلى القاف والخاء بزواج آخر من الأصوات المتقابلة كالدال والزاي في قوله في الغربة "... وإنك بحيث انعطف عليك أنسة القريب، وراحة السكون إلى الطمأنينة في دار الخفض، ومنزل القرار" (١٣٣).

(129) السابق، ص ٢١٦.

(130) السابق، ص ٢٤٤.

(131) السابق، ص ٢٦٦.

(132) السابق، ص ٢١٢.

(133) السابق، ص ٢٠٣.

فدار الخفض ومنزل القرار تربطهما علاقة التواؤم الدلالي الذي تخلله التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة بين (د، ز)، و(ق، خ) وأضفى التقابل تأكيداً للطمأنينة والراحة في الوطن ووضوح النعم داخله مما يعكس ما حرم منه عبد الحميد في غربته.

وللتقابل الصوتي دور في إبراز دلالة التواؤم بين المفردات، كثنائية الكاف والشين في قوله عن أحد الخارجين على الدولة "... حتى إذا غلظ أمره، واستحفل شأنه، واستجمعت له مكايده، وقويت مناشطه، وتمددت في القبيح أطرافه؛ بهت الكتاب..."^(١٣٤).

أبرز لنا التقابل الصوتي بين الكاف الشديدة والشين الرخوة من (مكايده، مناشطه) دلالة التواؤم بينهما وبجانب ذلك قد أضفى التقابل دلالة انتشار المناشط، وكثرة المكاييد المستقاة من صوتي الشين والكاف.

وقريب من ذلك قوله "ما أسرنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول، فإني لا تكثف جمعاً، ولا تشرب خيلاً إلا وثقنا أن سيمدنا الله من ملائكته، ويؤيدنا من نصره"^(١٣٥).

فالإكثار والحشد، والتكثيف والتشريب تربط كل زوج منهما علاقة التواؤم الدلالي، ونهضت الكاف والشين بدلالة الكثرة والانتشار للجنود ولتأكيد هذه الدلالة برز لنا زوج آخر من المتقابلات صوتياً في الشدة والرخاوة (إلا وهو (الفاء والباء) من (تكثف، تشرب) بجانب الكاف والشين فيهما، فيخرج المتلقي من تكثيف التقابل الصوتي بتكثيف دلالي مناظر تتضح منه رسالة خفية مفادها أن الله وملائكته بجانب الخليفة، وسيحقق له النصر بالرغم من كثرة وانتشار جنود المعارض السياسي والعسكري - من وجهة نظر عبد الحميد -

ويظهر لنا التكثيف في المتقابلات صوتياً في حديثه عن الغربة فيقول "لا تدخلك مشقة البعد، ولا ذلة السفر، ولا كآبة الغربة، ولا اغتراب الدار، ولا سوء تجهم الأذن، ولا ضجر الطلب، ولا تعب شره النفس"^(١٣٦).

المتقابلات (ش، ك) من (مشقة، كآبة) (ب، ف) من (البعد، السفر)، وما نستقيه من تفصيل النعم التي يعيشها صاحبه وما تخللها من متقابلات صوتية أخرى نفهم منها مدى تأثير عبد الحميد بالغربة والبعد عن الوطن وما اعتمل في داخله من أحاسيس ومشاعر متزاحمة ومتناقضة ككثرة الأصوات المتقابلة، وقد أدت الكاف والشين الدور الرئيس في هذه الدلالة لما تضيفاه من تعبير عن الكثرة والانتشار.

وللتقابل الصاد والطاء دور في إثراء الدلالة، فقد يضفي معاني القوة لتؤكد بدورها على التماثل والتواؤم الدلالي بين المفردات المتضمنة لهما كما في

(134) السابق، ص ١٩٩.

(135) السابق، ص ٢١٤.

(136) السابق، ص ٢٠٣.

معرض القول عن التمسك بالأخلاق "... وتوقّ عليها الآفة التي تقطعك عن بلوغها، وتقصر بك عن ساميها" (١٣٧).

(تقطعك، تقصر بك) تربطهما علاقة التواؤم الدلالي وقد قابلت الطاء الشديدة الصاد الرخوة، وأضفى تقابلها صوتيًا نوع من القوة في القطع والتقصير. وقريب منه بين الصرف والقطع من قوله "... ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقطعك دون الفكر" (١٣٨).

ويتكرر نفس الزوج في مشهد الصيد "... إلا ما كان من محاولة الطلب، وشدة النصب لنافر الصيد وفائتة الطريدة التي أمعنا في الطلب لها" (١٣٩).

فتنائية الصاد الرخوة والطاء الشديدة قد تخللت - (الصيد، الطريدة) وهما لفظان متماثلان، ولا يخفى على المتلقي تلك القوة في الطلب للصيد، والنصب من شدة المطاردة، وهو ما يعكس المتعة الحقيقية من الصيد.

ولكثرة الأزواج المتقابلة صوتيًا في الشدة والرخاوة تكثيف دلالي مناظر ويظهر ذلك في قوله عن الدنيا أثناء هروبه من العباسيين "فمن درت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها؛ سكن إليها، ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، وتوطأت به بقلها؛ قلاها نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيرًا منها" (١٤٠).

لنتأمل الموقفين المتقابلين للدنيا فنجد أن الموقف الأخير الممثل لوجه الدنيا القبيح وقد مثل طولاً كمياً مقارنة بالأول وتكثيفاً كيفياً للأصوات المتقابلة مثل (الصاد، الطاء) من (قرصته، توطأتها) المتوائمتين، (ق، خ) من (قلاها نافرًا، ذمها ساخطًا)، (ظ، ض) من (قرصته بأظفارها، عضته بأنيابها)، (ف، ب) من (أظفارها، أنيابها). ومن الملاحظ أن غالبية المتقابلات في الشدة والرخاوة من الأصوات المطبقة التي تنفر منها الأذن لغلظتها وقوتها وحدتها السمعية، وهذا يعكس تأكيد مدى ما عاناه عبد الحميد أثناء هروبه بعد هزيمة مروان وسقوط الدولة الأموية.

وقد يقوم التقابل الصوتي بدور الرابط الصوتي بين المفردات المتوائمة دلاليًا كقوله في سياق تعزية أحد أفراد البيت الأموي "... ولكل ذي هلع أرمضه حادثها، وأبهظه ما جرت به القضايا المكروهة - عند حلولها فتنة يمحق فيها أجره" (١٤١).

فقد ربط التقابل الصوتي بين الضاد الشديدة والطاء الرخوة صوتيًا بين (أرمضه، أبهظه) المتوائمتين دلاليًا.

(137) السابق، ص ٢٢٠.

(138) السابق، ص ٢٢٢.

(139) السابق، ص ٢٦٨.

(140) السابق، ص ٢٧٨.

(141) السابق، ص ١٩٥.

وقوله ناصحا ولي العهد "... ومرت صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ويسير علم دفينه، ويستبطن علم أموره..." (١٤٢).

ربط التقابل الصوتي بين الفاء الرخوة والباء الشديدة صوتيًا بين (يعرف، يسير) المتماثلين دلاليًا.

وبين (فاجأك، بيّتك) من قوله في السياق نفسه "... واجعلهم عُدّة لأمر إن فاجأك، أو طارق بيّتك..." (١٤٣).

وقد يرد التقابل الصوتي بين المتماثلين دلاليًا مع تكرار صوت منهما فيشي ذلك بدلالة مرادة كقوله عن أفضل الرسول الكريم على الناس "... قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطعات الذنوب ومبهظات الأوزار، وظلم الشبهات..." (١٤٤).

فتكرار الباء الشديدة يقابل فاءً واحدة رخوة من (موبقات، مفطعات). وشدة الباء توحى بضرورة الشدة في البعد عن الذنوب والأوزار والشبهات والموبقات.

وقد حظيت الدال الشديدة والذال والزاي الرخوتان بنصيب من التقابل الصوتي بين المتماثلات فتضفي تأكيدًا ووضوحًا للدلالة كما في قوله محاولاً منع اللعب بالشطرنج "فأذن بذلك فيهم، وأشدّه في أسواقهم وجميع أديتهم، وأوعز إليهم فيه..." (١٤٥).

(أذن، أشده، أوعز) تتماثل دلاليًا وقد تخللتها الدال الشديدة التي تقابل صوتيًا الذال والزاي الرخوتين. والمطلوب وضوح توصيل الرسالة للناس لمنع اللعب بالشطرنج وتأكيد تلقي الرسالة الملائم لصوتي الذال والزاي ذواتي الصوت والأزيز العالي المناسب للإعلان.

ولتكرار الأصوات المتقابلة أثرٌ في إبراز وعورة أرض الصيد كما في قوله "فأجهدنا الركض في طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وخناذيد..." (١٤٦).

(الدكادك والخناذيد) تتماثل دلاليًا وتكررت فيهما الدال الشديدة والذال الرخوة لإضفاء نوع من الصعوبة في الركض لوعورة أرض الصيد.

التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة في مفردات متصلة نحويًا: كما نهض التقابل الصوتي في صفة الجهر والهمس بدور الرابط المساعد للروابط النحوية – الموجودة بالفعل – بين المفردات، فإن التقابل يزيد هذا الترابط قوة، أو بمعنى آخر تأكيد قوة هذا الترابط، وقد تظهر دلالات بعينها على سطح النص، التي قد لا تتضح إلا في وقوع التقابل الصوتي.

(142) السابق، ص ٢٥٥.

(143) السابق، ص ٢٦١.

(144) السابق، ص ٢٦٦.

(145) السابق، ص ٢٦٧.

(146) السابق، ص ٢٧١.

التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة ورد في العديد من المفردات التي ارتبطت نحويًا كالجملة الاسمية في قوله معبرًا عن تنعم أخيه في ظل الوطن دون الاغتراب "إن مشيت رقة وجهك ناضر لونها، وأوصالك مستريحة أطرافها"^(١٤٧).

الصاد الرخوة تقابل الطاء الشديدة من (أوصالك مستريحة أطرافها) وهو تأكيد لراحة المتلقي في ظل الوطن وتأكيد تلازم أطراف المتلقي للراحة.

وقد يرد التقابل الصوتي في أكثر من جملة بأكثر من زوج صوتي متقابل شدة ورخاوة كقوله عن شراء جارية "... وإن تكلمت تآقت إليها قلوب السامعين، منطقتها رхим، واسعة الصدر، دقيقة الخصر، قامتها مديدة وأطرافها سباط"^(١٤٨).

القاف الشديدة تقابل الخاء الرخوة من (منطقتها رхим) والفاء الرخوة تقابل الباء الشديدة من (أطرافها سباط) مع تكرار صوت الطاء، وهو تأكيد لتلازم الرخامة والسبابة لمنطق الجارية وأطرافها وهذا التلازم من شأنه حث المتلقي على تحري الدقة في وجود هذه الصفات في الجارية تلازمها ولا تفارقها.

وعندما تتبادل المفردات مواقعها الأفقية، وتفصل بينها مفردات أخرى نجد أهمية التقابل الصوتي في تأكيد الرابط النحوي بين المبتدأ وخبره، مع لفت نظر المتلقي إلى التقديم والتأخير واستبدال المفردات لمواقعها الأفقية كما في قوله ناصحًا ولي العهد باعتماد وسائل أخرى غير القتال لتحقيق النصر على عدوه "وإن ساعدك الظفر ونالك مزيد السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب، وعضاض السيوف، وألم الجراح وقصاص الحروب وسجالها بمعاورة أبطالها"^(١٤٩).

الطاء الشديدة تقابل الصاد الرخوة في (ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب)، التي تقدم فيها الخبر شبه الجملة (في مخاطرة) على المبتدأ (مكروه المصائب) وفصل بينهما بمضاف إليه (التلف)، وقد ساعد التقابل في وضع (مخاطرة، المصائب) في دائرة اهتمام المتلقي من ناحية، ومن ناحية أخرى أكد تلازم المخاطرة والمصائب حتى يضع صوب أعين المتلقي نتيجة المخاطرة في القتال وهي حدوث المصائب، وهذا التلازم من شأنه توجيه المتلقي إلى إعادة النظر أو إمعان الفكر في خطته القتالية حتى تكون نتائجها مضمونة بأقل الخسائر مع تحقيق النصر.

وقد يرد التقابل الصوتي في جملة فعلية بعد اسمية حتى يتضح للمتلقي أن التقابل مقصود وقوعه كما في قوله عن طغيان الفرات "... فسكوره واهية، وبثوقه متداعية، قد أجفل أهل جنبتيه هربًا، وأمسكوا اللقاء بأيديهم عن معالجة سكوره"^(١٥٠).

(147) السابق، ص ٢٠٤.

(148) السابق، ص ١٩٧.

(149) السابق، ص ٢٣٧.

(150) السابق، ص ١٩٦.

الجملة الاسمية (بثوقه متداعية) تقابل فيها الثاء الرخوة التاء الشديدة، وقد تلتها (أجفل أهل جنبتيه هرباً) وتقابل فيها الفاء الرخوة الباء الشديدة بين الفعل أجفل والحال هرباً، وقد ربط التقابل بين دلالة الجملتين على الحال من ناحية، ومن ناحية أخرى تأكيد حال الضعف الذي أصاب السدود والناس معاً، وهذا التأكيد تضمن مفارقة بين حاجة السدود إلى الترميم وبين هروب الناس بدلاً من القيام بالترميم، وقد يلفتنا هذا التأكيد للمفارقة بين الحالين اللتين أدى التقابل الصوتي إلى إبرازهما - إلى جانب سياسي خطير في هذا العصر قد يظهر لنا تخلي الدولة عن مسؤولياتها تجاه مرافق الدولة والأفراد، وربما كان هذا التخلي سبباً في تناقص ولاء الأفراد لحكام الدولة.

ويرد التقابل الصوتي في الجملة الفعلية، ولكن بعيداً عن الفاعل كالفعل والمفعول به كما في نصائحه للكتاب "وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم، ويجتمع فيهم، وتعمر بلادهم" (١٥١).

الصاد الرخوة من الفعل (يصلح) تقابل الطاء الشديدة من المفعول به (سلطان)، وهو ما أكد الترابط بين الفعل ومفعوله، وبالتالي أكد تلازم إصلاح السلطان والكتاب فيكاد يكون الإصلاح مقصوراً عليهم وهو إبراز لأهميتهم في الدولة.

وقوله في سياق طغيان نهر الفرات معبراً عن رقة الخليفة لشعبه بالدعاء لرفع البلاء عنهم "... والله يقي المخوف الهائل، والمفطع النازل" (١٥٢). القاف الشديدة من الفعل (يقي) تقابل الخاء الرخوة من مفعوله (المخوف). وهو لتقوية الرابطة بينهما.

وقد يرد التقابل الصوتي بين الفعل والمفعول به مع الفصل ليلفت المتلقي إلى المفعول به وموقعه الأفقي ليكون في دائرة اهتمام المتلقي، يستشف منه حال الكاتب كما في قوله معبراً عن ضياع كل ما يكتسبه في غربته حتى ولو كان قليلاً "فإن نلنا منهم حظاً، وأصبنا من دنياهم حطاماً نكره طول السفر الممل لنا من عقد الرحال وحلها" (١٥٣).

الصاد الرخوة من الفعل (أصبنا) تقابل الطاء الشديدة من المفعول به (حطاماً) وفصل بينهما بشبه الجملة والمضاف إليه (من دنياهم)، فالحطام يبقى في ذهن المتلقي يفتحه بمدى ضيق الكاتب لأنه اغترب دون أدنى فائدة، ولعل الفاصل بين الفعل ومفعوله (من دنياهم) يلفتنا إلى ذلك الضيق الذي جعل الكاتب ينسب الدنيا لجمع الغائبين (هم) العائد على المضيفين له ليوحى بابتعاد الدنيا عنه لأنها ربما لم تعطه إلا الحطام.

وقريب منه، ولكن بأكثر من زوج من المتقابلات صوتياً، مع زيادة الفاصل كما في قوله في تحذير أحد عمال الخليفة من غضب الخليفة "... ولو ناهضناه

(151) السابق، ص ٢٨١.

(152) السابق، ص ١٩٧.

(153) السابق، ص ٢٠٤.

بالطلب إليه في سورة موجدته؛ تخوَّفنا عليك من سطواته نازل عقوبة ينفذ بها أمره الذي تقصر أيدينا عن رده" (١٥٤).

تقابل الخاء والفاء الرخوتان من الفعل (تخوَّفنا) القاف والباء الشديديتين من (عقوبة). ولا يخفى على المتلقي شدة العقوبة وقوتها المستوحاة من شدة القاف والباء، ولطول الفاصل بين الفعل ومفعوله وجدنا زوجين من المتقابلات صوتياً للفت المتلقي للوصول إلى مفعول الفعل (عقوبة) لتبقى في ذهنه ويسترجع الأسباب التي أغضبت الخليفة منه وستؤدي به إلى العقاب حتى يحاول إزالة تلك الأسباب أو حتى عدم تكرارها ثانية حتى لا يقع تحت طائلة غضب الخليفة من ناحية، ومن ناحية أخرى تبرز دور عبد الحميد الذي توسَّط للمتلقي عند الخليفة ليغفر له ما ارتكبه من أخطاء.

ويعمد عبد الحميد إلى تواتر المتقابلات صوتياً بتواتر الجمل لتأكيد قوة الروابط النحوية بين الفعل ومفعوله كقوله عن غربته "إذ الضيعة لمن اغترب والغربة لمن اشتمل عليه الهموم، وتشعبته الرغبة، ففارق الأحبة، واستخلف منهم الغربة وكادح الأسفار، وأتعب البدن، وأقلق الشخص ونابذ الدعة، واعتاض النصب" (١٥٥).

نرى مجموعة من الأصوات المتقابلة في صفة الشدة والرخاوة، وردت كلها في جمل فعلية بين الفعل ومفعوله خاصة، وهي (الفاء والباء) من (فارق الأحبة)، (استخلف منهم الغربة)، (القاف والحاء) من (أقلق الشخص)، (الذال والdal) من (نابذ الدعة) ولعل هذا الحشد للأصوات المتقابلة في الجملة الفعلية يلفتنا للقصد الواعي في اختيار عبد الحميد للمفردات التي تتقابل فيها الأصوات دون غيرها، وكأن عبد الحميد يستوقف المتلقي بهذه الظاهرة ليتعرف مدى فعل الغربة والهزيمة في نفس عبد الحميد.

ولم يقتصر التقابل الصوتي على تقوية الرابطة النحوية بين الفعل ومفعوله فقط، بل امتد للحال كما في قوله معاتباً ولي العهد "وقد تقدم أمير المؤمنين إليك آخذاً بالحجة عليك" (١٥٦).

القاف والdal الشديديتان من الفعل (تقدم) تقابلان الخاء والذال الرخوتين من الحال (آخذاً)، لتبرز حال الخليفة عند القيام بتوجيه اللوم مستنداً إلى حجة قوية تجعل الحق معه دون المتلقي.

والتمييز في قوله عن صفات الفارس "... ولا أسكرته غرة الحداثة جهلاً، ولا أبطرته نجدة الأغمار صلفاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مقدماً على ادراع الموت" (١٥٧).

(154) السابق، ص ٢٠٨.

(155) السابق، ص ٢٠٣.

(156) السابق، ص ٢١٧.

(157) السابق، ص ٢٦٠.

التمييز (صلقاً) قد تقابل الصاد والفاء الرخوتان فيه الطاء والباء الشديديتين من الفعل (أبطرته) لينفي الضعف والبطر عن فرسان الدولة.

ويؤدي التقابل الصوتي بين أطراف أسلوب الشرط دوراً مهماً في تقوية الرابط بينها كما في قوله مهتئاً المتلقي بإحاطة الأولاد والأحفاد به في جميع أحواله "إن صح بدئك؛ طاب لك رغد عيشك بمعينة الزوج السار لك قريبها، والولد المضموم إليك شخصه" (١٥٨).

الصاد الرخوة من فعل الشرط (صح) تقابل الطاء الشديدة من فعل جواب الشرط (طاب)، ليضفي التلازم بينهما صدق رؤية الكاتب في تنعم المتلقي في ظل الوطن في جميع أحواله.

ويزداد هذا الدور أهمية مع طول جملة فعل الشرط كما في قوله "فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سألت منها؛ أذنت له في طلبها، باسطاً له كنفك" (١٥٩).

الذال الشديدة من (أردت) تقابل الذال الرخوة من (أذنت)، وهو تأكيد لضرورة ثقة ولي العهد فيما يوجهه إليه الكاتب، وتلك الثقة تجعله مسرعاً بالجواب عند احتمال وقوع الشرط، وتهبه استحقاقاً ليكون ولياً للعهد أمام رعيته.

ويربط التقابل الصوتي بين النعت ومنعوتيه صوتياً ويؤكد بذلك الرابطة النحوية بينهما كما في قوله عن أدوات الفارس "... أو أن يكون مع أحد منهم بغلّ نقل، أو فضل من الظهر، أو ثقل فادح فتشتد عليهم مؤونة أنفسهم" (١٦٠).

الباء الشديدة تقابل صوتياً الفاء الرخوة من (بغلّ نقل)، وهو تأكيد تلازم النعت ومنعوته مما يوجه ولي العهد إلى عدم قبول هذه الصفة في حيوانات الحرب.

وتزداد أهمية التقابل الصوتي ودوره في تقوية الرابط النحوي بين النعت ومنعوته إذا فصل بينهما كما في قوله في سياق العزاء "ويصير خساراً أمره، غير رادّ الجزع عليه فانت أمر مما مضى، ولا موجب له ذخيرة فضل تقتنى" (١٦١).

الخاء الرخوة من (ذخيرة) تقابل القاف الشديدة من جملة النعت (تقتنى) وفصل بين النعت ومنعوته بمضاف إليه (فضل)، وهو تأكيد لنفي أن يكون الحزن الشديد على المتوفى ذا فائدة لأن الصبر أولى في تلك الأحوال.

التقابل الصوتي ودوره في إحكام التصوير

لم يرد التقابل الصوتي في صفة الشدة والرخاوة إلا في القليل من الصور البلاغية مقارنة بما سبقه في صفة الجهر والهمس.

ويقوم التقابل – كما سبق – بالربط بين أطراف الصورة، أو إظهار دلالات قد لا تظهر إلا بالتأمل المتأن للصورة البلاغية، أو تغطي دلالة الأصوات المتقابلة على دلالة الصورة نفسها.

(158) السابق، ص ٢٠٣.

(159) السابق، ص ٢٢٧.

(160) السابق، ص ٢٤٩.

(161) السابق، ص ١٩٥.

وأول ما نصادفه الاستعارة المكنية من قوله ناصحاً ولي العهد باعتماد طاعة الله له ولجنوده "حصن جندك، واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه" (١٦٢).

ربط التقابل الصوتي بين الصاد الرخوة من (حصن) والطاء الشديدة من (طاعة) بين التحصين والطاعة وأضفت الطاء بشدتها وقوتها، والصاد بصفيها وتفخيمها قوة التحصين والتشديد عليه، ولكن الحصن هنا أدوات الطاعة وليست أدوات بناء حربية.

وقد تتواتر الاستعارات وتؤدي ثنائية الصاد والطاء نفس الدور من خلال التقابل الصوتي شدة ورخاوة كما في حديثه عن مشهد الصيد "فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعوراً، وجدوباً وققرأ، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصب" (١٦٣).

ربط التقابل بين (قصر، الطلب)، (قطع الطمع، النصب) بقوة الطلب للصيد والطمع في المزيد منه يقابله التقصير والقطع عن الصيد، وهذا الربط من شأنه إظهار صدق الكاتب في اليأس الذي انتابهم أول مشهد الصيد. وربط التقابل الصوتي أيضاً بين أطراف الاستعارة التصريحية كما في قوله عن تحصين الجند "فإذا راموا ذلك منك كنت قد أحكمت ذلك ... ورتقت مخوف الفتق منه" (١٦٤).

فاستعارة رتق الفتق للأمان قد تضمنت تقابلاً صوتياً بين القاف الشديدة والخاء الرخوة، وأضفت دلالة النفور من الخوف مما يستدعي شدة التجهيز والتحصين لتحقيق الأمان.

وفي معرض الكناية عن شدة القتال في بداية الحرب يقول عبد الحميد "حين يشتد الوغى، وتخطر القتا وتقلص الشفاه، وتسفر الكمامة، فعند ذلك تسلمك المرد، وتكشف عن الجرد" (١٦٥).

يقابلنا أكثر من زوج من الأصوات المتقابلة منها (الخاء، الصاد، الشين) الرخوة، (القاف، الطاء، الكاف) الشديدة.

وقد أسهمت دلالات الأصوات المتقابلة في صبغ الكناية عن شدة الحرب بقوة الأصوات المتقابلة وصفاتها كالانتشار أو النفور من وقع بعضها الغليظ على الأذن بإظهار صوت المعركة المستوحى من صفيير الصاد، وكثرة الجنود وانتشارهم المستوحى من الكاف والشين، الشدة وقوة البطش المستوحى من شدة الطاء والقاف ووقعهما الغليظ على الأذن، والنفور من الحرب المستوحى من الخاء.

(162) السابق، ص ٢٣٦.

(163) السابق، ص ٢٧١.

(164) السابق، ص ٢٥٧.

(165) السابق، ص ٢١٤.

ثانيًا: تجانس الأصوات وتنافرها

١ - تجانس الأصوات

ربط القدماء من النقاد بين الألفاظ وحسن تأليفها من الحروف، فهناك ألفاظ يستحسنها ذوق الإنسان وتطيب الأذن لسماعها، وأخرى عكس ذلك، واختلف هؤلاء النقاد في الأسباب التي تجعل اللفظة حسنة.

فمنهم من عدّ ذلك من السبك الجيد لحروفها أو لسهولة مخارجها والاعتدال بين قرب وبعد المخارج أو حسب تقبل الأذن لها^(١٦٦).

"وهذه الاتجاهات وإن لم تهمنا في ذاتها إلا أنها تدلنا على انتباه القدماء إلى أهمية المستوى الصوتي المسموع من مستويات النص الشعري من ناحية وأثارة على عملية التلقي من ناحية أخرى"^(١٦٧).

وما يهمنا في آراء القدماء هو ما نراه في ربط الاختيار الحسن للألفاظ وأصواتها بوضوح المعنى أو الدلالة وهو ما نجده عند الجاحظ بحسن البيان "والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا، ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان"^(١٦٨).

وقد عدّ لنا المحدثون من علماء اللغة أصواتًا سهلة في نطقها واضحة في السمع عن غيرها من الأصوات، وهي ما نعتها متجانسة وهي (و، ل، ن، م، د، ب) مع إضافة أصوات اللين إليها، فعّد الدكتور رمضان عبد التواب* هذه الأصوات واضحة سمعيًا وأعلاها وضوحًا الحركات وأصوات اللين تليها الأصوات التكرارية والجانبية (ر، ل) والأصوات الأنفية (م، ن)، والمجهورة الانفجارية أي الشديدة (ب، د).

وللأصوات المتجانسة دور مهم في إثراء الدلالة في رسائل عبد الحميد، ينبع هذا الدور من الدلالات الذاتية لهذه الأصوات، فهي واضحة للسمع، سلسلة على اللسان، لا تتبو منها الأذان، ولا تجهد التنفس لأنها من الأصوات المجهورة^(١٦٩).

وقد تزيد أصوات المد هذا الوضوح وهذه السلسلة عندما تشترك مع الأصوات المتجانسة (ر، ل، ن، ا، د، م، ب) في قالب تركيب واحد.

(166) انظر جدلية الأفراد والتركيب، د/ محمد عبد المطلب، ص ٨٩ وما بعدها.

(167) الصوت والصورة، ص ٣٩.

* انظر ما كتبه د رمضان عبد التواب في المدخل الي علم اللغة ص ٩٩ - ١٠٠

(168) البيان والتبيين: الجاحظ، ج ١، ص ٧٩، ت عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة.

(169) انظر جهر الصوت وهمسه الأصوات اللغوية، ص ٢٠ وما بعدها.

ونخرج من اجتماع الأصوات المتجانسة وأصوات المد في رسائل عبد الحميد بدلالات عدة، منها لفت انتباه المتلقي إلى ضرورة النظام والتناسق كما في قوله عن طلب شراء بعض الجواري "إن نهضت أثقلتها أردافها، وإن تكلمت تآقت إليها قلوب السامعين"^(١٧٠). فتناسق الأعضاء وانسيابيتها مع الوضوح نابع من كثرة الأصوات المتجانسة.

ونجد قريب من ذلك أيضاً في قوله "إن طاب ولدها كانت من أمهات أولاد الخلافة، وإن أوتمنت على حمل أسرارها استقلت منها بما اشتملت عليه"^(١٧١). والتناسق هنا بين الأعضاء والصفات، كوجود الباء في (طاب) لتضفي مع المد سهولة في تقبل الجارية أو ولدها وصوت الدال من (ولدها، أولاد) يضيف مع المد أيضاً سلاسة في إنجاب الأولاد، وصوت الراء واللام (حمل أسرارها، واستقلت، اشتملت) لتوحي بضرورة وضوح تلك الصفات في الجارية من الائتمان على السر والاستقلال بما تريد من الخليفة.

وقد يقصد بالأصوات المتجانسة إضفاء نوع من السهولة في الحياة، وإظهار السرور كما في قوله مغبطاً المتلقي على راحته في ظل الوطن "... وأنت مقيم بدار أمنك، قد أظلك السرور، وحالفك الأمل، وطاب لك المقام، وأمنت ترفيع الرحل"^(١٧٢).

فسهولة الإقامة مستوحاة من الميم والمد من (مقيم، المقام) ووضوح السرور والأمل من وضوح اللام والراء من (أظلك السرور، حالفك الأمل) مع انتشار الأصوات السلسة عموماً.

وقوله عن سهولة التعامل مع الأصدقاء داخل الوطن "يعودونك وينتابونك في الليل والنهار"^(١٧٣).

وتلك السهولة مستوحاة من سهولة نطق الدال والنون والباء والميم واللام مع أصوات المد المنتشرة علاوة على وضوحها للسمع وهذا الوضوح قد يعكس وضوح النعم في الوطن وانتشارها.

وقد يأتي التجانس الصوتي بين الأصوات للدلالة على التناسب بين موقفين بمناسبة الجزاء للفعل كما في قوله منوهاً عن مصير الخارجين على الدولة المناسب لأفعالهم المضرة بالأمة "وإن كان الله ابتعثهم لتمام البلية وقتل الحرية، وضياح الذرية؛ فستهوى عليهم مشدّات البلايا بتتابع المنايا"^(١٧٤).

فتركيز الأصوات المتجانسة في جواب الشرط (فستهوى ...) أضفى دلالة مناسبة جزائهم من الموت بفعلهم قتل الأبرياء وتضييع حرية الناس. ليكون

(170) عبد الحميد بن يحيى، ص ١٩٧.

(171) السابق، ص ١٩٨.

(172) السابق، ص ٢٠٤.

(173) السابق، ص ٢٠٣.

(174) السابق، ص ١٩٩.

الجزء من جنس العمل، ولعل وضوح الأصوات في جواب الشرط يلفت الخارجين إلى وضوح مصيرهم ولا يختلف أحد على هذا المصير، وهذا الوضوح ربما يستميل به الكاتب الخارجين ليهربوا من هذا المصير بالدخول في طاعة الخليفة ووحدة الجماعة المتمثلة في الدولة، وهو ما نظنه غاية الكاتب في إنشاء هذه الرسالة "إلى ما أعد الله لهم من أليم العقاب، وسوء الحساب، وشديد العذاب لا يفتر عنهم، ولا هم مبلسون" (١٧٥).

وقوله أيضاً "ومن أراد الله به غير ذلك، لما يعلم من ضميره ودفينه؛ تخلى منه، وأسلمه إلى قرينه وما يسوّل له من غروره، ويمثيه من أباطيله" (١٧٦).

٢ - تنافر الأصوات

مع اهتمام القدماء من النقاد بالألفاظ السهلة والبحث عن أسباب السهولة نجد في المقابل الألفاظ التي حكم عليها بعدم الفصاحة أو القبح، وقد اختلفت آراؤهم حول أسباب القبح فمنهم من يعزو ذلك إلى قرب مخارج الأصوات أو بعدها، أي اجتماع أصوات متباعدة أو متقاربة في لفظة واحدة وسمي ذلك بتنافر الأصوات، ومنهم من خرج على الربط بين التنافر والمخرج وأرجع هذا الجانب إلى الذوق والاستحسان "لأن الألفاظ داخلية في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها، ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح" (١٧٧).

وقد ارتبط تنافر الأصوات بالثقل على اللسان "فتكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان، وعسر النطق بها" (١٧٨).

ويأخذ التنافر شكلاً آخر عند بعض القدماء فيكون السبب فيه "هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم فيثقل حينئذ النطق به" (١٧٩).

والمقام يضيق عن حصر آراء القدماء جميعها في ذلك ولكن ما نراه "إن النبو وتنافر الحروف أمر لا شك وأنه يستوقف الأذان، ومن ثم يكون هذا التنافر كفيلاً بجذب انتباه المتلقي للنص...، وقد يكون لهذا التنافر جرس له القدرة على الكشف عن جانب من جوانب الدلالة فيما يعرف عند علماء اللغة باسم المناسبة أو الدلالة الذاتية" (١٨٠).

(175) السابق، ص ٢١٢.

(176) السابق، ص ٢١٢.

(177) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ج ١، ص ٨١، ت محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٠م.

(178) الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، ص ٢٤، ت عبد القادر حسين، الآداب القاهرة ١٩٩٦م.

(179) المثل السائر، ج ١، ص ٢٨٨.

(180) الصوت والصورة، ص ٤١.

ولتكرار الصوت أيضًا منحى دلالي فضلاً عن الإيقاع – بصرف النظر عن تأثير الإيقاع الإيجابي أو السلبي – "يحدث تكرار الصوت أو مشابهة إيقاعاً معيناً يرسم به الشاعر صورة أو يساعد به في تكوينها" (١٨١).

ولأن الأصوات اللغوية تنتمي فيما بينها إلى مجموعات (*) تمتاز كل مجموعة منها بسميزات تختلف في صفاتها عن المجموعات الأخرى، فإن ذلك الاختلاف في رأينا في الصفات يحقق التوازن في الكلام المقروء أو المسموع ولانتشار مجموعة معينة من الأصوات التي تتميز بصفات واحدة أو متقاربة فيها، أو تقاربها في النص أثر كبير في تحقيق الخلل في توازن الكلام لأن هذا الانتشار يكون على حساب مجموعات أخرى من الأصوات، ولأننا على اقتناع بأن الخلل في توازن الكلام يكون بقصد الكاتب – لأن عملية الاختيار تتم عن وعي – فلا بد أن يصاحب هذا الخلل دلالات بعينها أراد الكاتب أن تصل للمتلقى ويتأثر بها، أو على الأقل يفهم قصد الكاتب منها، وبرصد تلك المجموعات التي يؤدي انتشارها على حساب غيرها بتحقيق ظاهرة التناظر بين الأصوات لاشتراكها في صفات واحدة – قد تتفاوت فيها – وجدنا دلالات مختلفة تظهر للمتلقى على سطح النص يمكن اكتشافها دون عناء.

وأول ما يصادفنا الأصوات المهموسة التي تتميز بالثقل في نطقها – لأنها تحتاج إلى مدة أطول وقدر أكبر من الهواء – وهي مجهدة لعملية التنفس، وبالرغم من هذا الثقل فهي أقل وضوحاً من غيرها من الأصوات فتتناسب صفات الأصوات المهموسة مع ما يظهر لنا من دلالات.

في حديث عبد الحميد عن النساء وضعفهن مما يستدعي العطف عليهن وشدة المداراة يقول "وهن النساء ورقتهن وضعف نحائزن، وقلة صبرهن، وشدة غلبة الشيطان عليهن، ثم هن بعد ذلك معوجات يميل بهن بعض نقص الآراء وسوء المداراة ودهى العقول" (١٨٢).

فتكرار الهاء مع أصوات (س، ص، ق، ت، ح، ف، ط، ث) وكلها من المهموسات أضفى صعوبة في النطق، وأثرت في توجيه المتلقي – بقلة وضوحها السمعي – إلى العطف على النساء لضعفهن ورقتهن المماثلة لضعف سماع الهاء والمهموسات.

وقريب من ذلك نجده في رقة مشاعر عبد الحميد تجاه مولود له "فإني ما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بمزيتها، وأصفيت بخصيصاتها كانت أسرى من هبة الله لي ولذا سميته فلاناً" (١٨٣).

(181) الأسلوبية الصوتية: ص ٣١.

(*) انظر تقسيم الأصوات من حيث المخارج والصفات: الأصوات اللغوية ص ٤٣، وما بعدها،

والمدخل إلى علم اللغة ص ٤٢ وما بعدها.

(182) عبد الحميد بن يحيى .. ص ١٩٣.

(183) السابق، ص ٢٠١.

فانتشار صوت الصاد مع أصوات (ف، ت، هـ، خ، ك، س) خاصة الهاء المشعرة بامتداد المشاعر الرقيقة داخل عبد الحميد تجاه المولود، أضفت تلك الرقة على قول عبد الحميد، والهدوء المماثل لقلة وضوح المهموسات. وتتناسب المهموسات مع دلالة الكثرة في قوله "ثم وإياك وأن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك" (١٨٤).

فتكرار الكاف المشعرة بكثرة الفكاهات مع أصوات (ف، ش، هـ، ت، ح) بجانب ربطه للفكاهات والحكايات والمضاحك أضفى وجوب صعوبة تقبل الفكاهات وفصيلتها ولو كثرت وأحاطت بولي العهد من كل جانب.

ولتكرار عناصر من مجموعات الأصوات الأخرى مع انتشار المهموسات أثر في ثراء الدلالة داخل النص، كصوت الضاد المجهور من قوله "وأنتك في شعبة من سخط أمير المؤمنين ما سخطت عليك مقروناً رضاها عنك برضاي إذا رضيت" (١٨٥).

فالضاد المطبقة تكررت مع أصوات (ك، ف، ش، خ، ط، ت، ق، هـ) وقد أسهمت في تهويل السخط وصعوبته على ولي العهد، فالجهد العضلي المطلوب للنطق بتلك المهموسات يجعل المتلقي ينفر منها وبإضافة دلالة الضاد إليها نستوحي مدى ضجر الخليفة وسخطه على المتلقي، وربما توحى بتقبل الخليفة لأخطاء المتلقي بصعوبة إذ من الممكن أنه لم يتوقع منه ذلك.

وقد يكون الصوت المشارك للمهموسات هو الجيم المجهور كقوله في طغيان الفرات "وإني كتابك أمير المؤمنين وموآر الفرات يجيش بأرجائه مطلقاً أمواجه، متزايلاً في حجراته، آذيه صخب وغطامطه لجب، وعلوه متوال يساور الجبال ويدك عقتل التلاع" (١٨٦).

انتشرت المهموسات (ف، ك، ت، ش، ط، خ، ح، ص، س) مع الجيم، وقد عبرت المهموسات عن صعوبة وهول الموقف على الخليفة المستوحي من صعوبة النطق بها لما تحتاجه من جهد عضلي خلال عملية النطق بها، والجيم بشدتها ووضوحها صورت جيشان النهر أمام عين المتلقي، ومن اللافت للنظر ذلك النبو الذي أدت فيه المهموسات دوراً كبيراً، ولا تقل عنها الجيم والشين المتقاربتان في المخرج في (يجيش) وهذا التنافر أضفى على الجيشان خشونة وغلظة مدمرة علاوة على انتشار الدمار، وقد أدى تكرار أصوات الطاء في (غطامطه) والقاف في (عقتل) مع مجاورة الغين في الأولى والعين في الثانية إلى نبو الكلمتين لتوحي بقوة الغطامط في تدميرها للتلاع القوية أيضاً ومع هذا فلم تصمد أمام غطامط النهر، وقد أدت الصيغ الصرفية إلى التنافر فتميزت بالطول النسبي والتعقيد مثل (مطلقاً، متزايلاً، حجراته، غطامطه، متوال، عقتل)، علاوة على وجود الأصوات المضعفة (مطلقاً، موآر، علوه، آذيه، يدك) ولا يخفى علينا الجهد

(184) السابق، ص ٢٢٣.

(185) السابق، ص ١٩٤.

(186) السابق، ص ١٩٦.

العضلي المبذول لنطق الكاف المضعفة في (يدك)، وربما يوحى التنافر بشدة وقع التدمير على الكاتب بحيث لا يستطيع استعمال ألفاظ سلسلة. وقد تقوم الباء المجهورة مقام الجيم في بيان شدة طغيان النهر في قوله "...ولا يتحدّر منصّباً إلا أبقى به أخقيق، ومستنّ رقرق، فسكوره واهية، وبثوقه متداعية" (١٨٧).

انتشرت المهموسات محدثة تنافرًا ملحوظًا وتطلب النطق بها جهدًا عضليًا موحياً بهول التدمير ولا يخفى علينا تكرار صوت القاف المجاور للخاء في (أخقيق) وهما متقاربان في المخرج وأدى هذا القرب إلى النفور من تلك الأخقيق التي أحدثها النهر. وتكرار القاف مع الراء في (رقرق)، وقد انتشرت الأصوات المضعفة كالدال في (يتحدّر) موحية بتكرار الفعل، والباء في (منصّباً)، والنون في (مستنّ) وبرغم من سهولة النطق بهذه الأصوات إلا أن تكرارها يجهد الإنسان نوعاً ما، وقد ساعدت الصيغ الصرفية الطويلة (يتحدّر، أخقيق، متداعية) على الدلالة على شدة وقع التدمير على الكاتب.

و في قوله في السياق نفسه "قد أبار أبيات بني سعد، وكانوا حلولاً بواهر العمرى، وصبح آل فلاق بذى الرمث فططخ منازلهم، وأسأل عراصهم" (١٨٨).

تكررت الباء في العبارة مع المهموسات (ت، ح، ص، ق، خ، س، ك، هـ، ث، ف، ط) وقد أضفت نوعاً من الشدة على طغيان النهر وملاءمة للتدمير ولعل وقوع الباء المتكررة و مجاورتها للمهموسات من شأنه ظهور الباء وطغيانها على الدلالة فتكون هي المحرك لآلية الدلالة، وليس أوقع من تكرار صوتي الطاء والخاء المهموسين في (ططخ) لينفر منه المتلقي، والباء المضعف في (صبح) الذي يوحى بشدته وتضعيفه مع مجاورة المهموسات والرخوة (ص، ح) بشدة وخشونة دخول النهر الطاغى على الناس في منازلهم في الصباح، ولعل البعد الزمني للفعل (صبح)، قد أظهر غفلة الناس عما سيحدث لهم إذ كانوا في منازلهم وربما كانوا نائمين وأيقظهم النهر.

وقوع الهاء المهموسة وتكرارها وسط المجهورات يخلع على الدلالة نوعاً من الامتداد والطول مع الوضوح كامتداد الحزن في قوله في الرثاء "ولكل ذي هلع أرمضه حادثها وأبهظه ما جرت به القضايا المكروهة عند حلولها فتنة يحق فيها أجره" (١٨٩).

و لأصوات الصفير المشعرة بالنبرة العالية المناسبة للإنذار دور في الدلالة، فتكون بمثابة المنبه الصوتي للمتلقى وتفاعله مع دلالة المفردات وأصواتها أو

(187) السابق، ص ١٩٦.

(188) السابق، ص ١٩٦.

(189) السابق، ص ١٩٥.

كالمنبهات التي تنذر المتلقي بوصول الدلالة كالتنبيه من الفتنة وآثارها في قوله "فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بألق منظر وأزين ملبس" (١٩٠).

فحشد أصوات الصفير (*) (ف، س، ش، ظ، ز) كان منذرًا لخطر الفتنة التي تظهر بصورة جميلة، ولكن صوت الفاء المتكرر المشعر بصوت الأفعى الضعيف بهمسه أو خفائه على الناس قد خلع تلك الصورة على الفتنة حتى يحذرها الناس. وربما تناسب أصوات الطبيعة كما في مشهد الصيد "فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسفّ الأرض سفاً كاشفةً عن آثارها، طالبةً لخيارها، حارشةً بأظفارها" (١٩١).

فأصوات الصفير (ف، س، ش، ث، ظ) قد ناسبت صوت الريح والبحث عن الآثار، وتكرار الفاء ناسب صوت الريح. وهو نفس ما نجده في قوله "ولا اقتنصهن قانص؛ فحقق لها بطبول، وصفر بنفير الحنف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها" (١٩٢).

أصوات الصفير (ص، ف، ث)، فضلاً عن تكرارها ناسبت الأصوات العالية واختلاطها فكانت بمثابة الإنذار في الاستعداد لقتل الصيد والسرعة فيه. وفي الصفير ما يلفت الأذان وفي حروف المد من التمهّل ما يدعو إلى التأمل في الدلالات التي ساقها عبد الحميد وصولاً إلى الاقتناع بها كما في قوله في الفتنة "وجعل المعصية شقاءً وخساراً وتباراً، وسبباً لكل نقص وأزل وهوان وحسرة" (١٩٣).

تحقق حروف المد بطناً يستوقف المتلقي ويضعه بإزاء الإنذار من المعصية والشقاء والخسار ومعها النقص والأزل والحسرة كلها وردت بها أصوات الصفير - مما يستدعي توجيه المتلقي إلى طاعة الخليفة، لا شيء إلا لما خلعه عليه عبد الحميد من طابع ديني.

وقد تؤدي أصوات الصفير - بنبرتها العالية - إلى تصوير المعركة بأصواتها، وبالاشتراك مع الأصوات الحلقية تضفي القوة على الفرسان وشدة القتال كما في قوله "ليسوا بذوي هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود" (١٩٤).

(190) السابق، ص ٢١٣.

(*) المقصود بأصوات الصفير الأصوات التي يضيق مجراها عند المخرج فيحدث نوعاً من الصفير - انظر الأصوات اللغوية، ص ٢٤ وما بعدها.

(191) السابق، ص ٢٧٠.

(192) السابق، ص ٢٧٠.

(193) السابق، ص ٢١٢.

(194) السابق، ص ٢١٤.

وتقوم الأصوات الحلقية مع الصفير بملاءمة أصوات الطبيعة القوية كما في قوله "وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً؛ فربت منه الأرض، وزهر البقل وسكن القتام من مثار السنايك، ومتشعبات الأعاصير" (١٩٥).

والأصوات الحلقية تؤثر سلباً على اللسان لأنها تؤدي إلى المشقة في نطقها لخروجها من أقصى المخارج، ولارتباطها بهذه المشقة تشعر بالقوة والشدة، وتصبغ الدلالة بصبغتها القوية.

وتعبر عن قوة الجند كما في قوله مهدداً أحد الخارجين بقوة جنود الدولة وشجاعتهم "ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول تخوض الوحول" (١٩٦).

أصوات الحلق (ع، ح، هـ، ع، خ) أضفت القوة على جنود الخليفة، وتشعرنا الواو – كمساعد – بصوت التأوهات الناتجة عن جنود العدو وخوفهم من ملاقاته جنود الخليفة.

وفي قوله أيضاً في السياق ذاته "لا يروعه ما يروع الهدان، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان، حين يشتدّ الوغى..." (١٩٧).

فتلك القوة تمنح الجنود الثقة بالنفس عند خوض المعارك، ولعل انتشار صوت الغين- المنفر للأذن لخلع الشراسة على الجنود لزرع الخوف في نفوس الأعداء- له أكبر الأثر في المتلقي.

وتشكل الأصوات الحلقية مع صوت الكاف الأقصى حنكى دلالة القوة والشدة ولو مع كثرة الأعداء، ولكن الأعداء هنا أهواء النفس كما في قوله ناصحا ولي العهد "واعلم أن كل أهوائك لك عدوّ يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك لأنها خدع إبليس، وخواتل مكره، ومصايد مكيدته" (١٩٨).

كثرة أعداء النفس وتمثلها الأهواء نستشفها من الكاف وتكرارها يؤكد ذلك، والقوة والشدة المطلوبة ضد الأهواء نستشفها من الأصوات الحلقية (ع، هـ، ع، ح، غ، خ).

متناظرات الموقع

وللأصوات المتنافرة شكل آخر قد رصدناه في رسائل عبد الحميد، وقد أثرنا أن نسميه بين متناظرات الموقع، ونعني بالتناظر هنا الموقع المكاني من الفواصل، كالمفردة أول الفاصلة أو آخرها وما وجدناه تكرار مجموعة من الأصوات التي تشترك في معظم صفاتها ولها مميزات الخاصة في مفردات تتواتر كلها أول كل فاصلة أو آخرها أو بهما معاً – فضلاً عن تكرارها في النص بغير المتناظرات عموماً – بما يحقق ظاهرة التنافر الصوتي، وتختلف الدلالة باختلاف مجموعات الأصوات، وهيئة تواترها داخل الفواصل. وأكثر هذه المجموعات انتشاراً – كثرة

(195) السابق، ص ٢٦٩.

(196) السابق، ص ٢١٤.

(197) السابق، ص ٢١٤.

(198) السابق، ص ٢١٩.

تكاد تكون عامّة وشاملة لكل رسائله – أصوات الصغير، وتليها الأصوات الحلقية في الكم.

وقد يتخذ الكاتب هذه الظاهرة وسيلة للربط بين الفواصل، ومن ثم ربط الدلالات الجزئية فيما بينها مع إضفاء نوع من الجرس الموسيقي، وتنظيم الإيقاع بين الفواصل بما يخدم الدلالة داخل النص.

وأول ما يصادفنا من أصوات الصغير التي وردت في أفعال تقع أول الفاصلة، عطفت بحرف عطف كما في قوله في رسالته لولي العهد "... بل تأثلت منها أكرم معانيها، واستخلصت منها أعتق جواهرها، ثم شمّرت إلى لباب مصاصها، وأحرزت منفس ذخائرها"^(١٩٩).

وبالتأمل نجد أصوات الصغير (ث، س، ص، ش، ز) في الأفعال أول كل فاصلة (تأثلت، استخلصت، شمّرت، أحرزت)، مع انتشار أصوات الصغير (ث، ص، س، ذ، ف) في غيرها عمومًا، وفضلاً عن ربطها للجمل وإضفاء جرس موسيقي، نجد دلالة انتشار الصيت لأسرة ولي العهد وتأکید هذا الانتشار بتكرار أصوات الصغير التي ربطت بين أكثر من فعل بتكرارها في هذه الأفعال وهذا الربط يوحى بكثرة الأخلاق الكريمة لأسرة ولي العهد وبالتالي انتشار صيتها، أما عن ورود الأفعال أول كل فاصلة فربما يوحى لولي العهد أن استخلاص الأخلاق الكريمة من أسرته العريقة يجب أن يكون أول شيء يفعله ولي العهد ليكون مؤهلاً لقيادة شعبه. وقريب منه قوله في السياق نفسه "فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم؛ فاجعل دعامتك... تقوى الله"^(٢٠٠).

أصوات الصغير (ف، ز، ذ) من الأفعال أول كل فاصلة أفضيت، اعتزمت، أخذت)، مع انتشار أصوات الصغير عمومًا (ف، ذ) ونستشف تأكيد عقد النية في قتال العدو دون اختيار موقف آخر وهذا التأكيد منبعه ربط أصوات الصغير للأفعال (أفضيت، اعتزمت، أخذت) وتقترب في دلالتها فيما بينها معجميًا فكان ورودها بمثابة تكرار دلالة معجمية واحدة وهذا التكرار في رأينا يوجه الدلالة على عقد النية...

وقد تأتي بهذه الكيفية بالدلالة على صوت الحرب النابع من الجرس الموسيقي لها كما في قوله "فانتخب لها من كلّ قادة وصحابة رجالاً ذوي نجدة وبأس، وصرامة، وخبرة، حماة كفأة، قد صلوا الحرب، وتذاوقوا سجالها، وشربوا من مرارة كوؤوسها"^(٢٠١).

أصوات الصغير (ص، ذ، ش) من الأفعال المتناظرة الموقع – أول كل فاصلة – (صلوا، تذاوقوا، شربوا)، مع انتشار أصوات الصغير (ف، ص، ذ، س) عمومًا، وقد لاءمت بصغيرها المعركة وما بها من أصوات.

(199) السابق، ص ٢١٨.

(200) السابق، ص ٢٣٤.

(201) السابق، ص ٢٤٦.

أو للدلالة على الانتشار كإذاعة الأخبار في قوله موجهًا أحد الولاة إلى معاقبة كل من يجاهر بلعب الشطرنج وإعلان ذلك على الملأ حتى يستطيع الحد من انتشارها "فأذن بذلك فيهم، وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز إليهم" (٢٠٢).

أصوات الصفير (ذ، ش، ز) في متناظرات الموقع – أول الفاصلة – (أذن، أشده، أوعز)، مع انتشار أصوات الصفير (ف، ذ، س) عمومًا. فمشكلة الشطرنج مؤرقة للدولة لأنها قد تبرر اجتماع الناس معًا وتناول مناهضة الخليفة فتطلب إلغاء هذه الاجتماعات عن طريق فضّ مجالس الشطرنج مما يتطلب إذاعة هذا الخبر بأصوات عالية متكررة لا يقوم بها إلا أصوات الصفير ذات النبرة العالية.

أو لربط دلالات جزئية لتجتمع في دلالة كلية كما في قوله ناصحًا الكتاب بمراعاة من أقعده الكبر عن مهنة الكتابة "وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه، ولقاء إخوانه فزوروه، وعظموه، وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته" (٢٠٣).

أصوات الصفير (ز، ظ، ش، س، ظ) من الأفعال المتناظرة الموقع (زوروه، عظموه، شاوروه، استظهروا)، مع انتشارها عمومًا (س، ف) قد ربطت بين الزيارة والتعظيم والمشاورة والاستظهار بفضل الرأي لتتطوي تحت ضرورة احترام من أقعده الكبر من الكتاب عن عمله، وربما كان ربط أصوات الصفير لهذه هو تأديتها مجتمعة غير ناقصة بمعنى عدم الاقتصار على الزيارة دون المشاورة وهكذا ولكن زيارته وتعظيمه ومشاورته وإظهار رأيه.

أما الأسماء أول الفواصل ففي قوله موجهًا ولي العهد إلى رصد الجوائز لمن انضم إليه من فرسان عدوه "متعطفًا عليهم برأفتك، مترفقا بهم في دعائك، مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم" (٢٠٤).

صوت الفاء من الأحوال المتناظرة الموقع (متعطفًا، مترفقا، مشفقًا) مع انتشارها عمومًا، وقد ربط بين هذه الأحوال ليوحي لولي العهد باعتماد أكثر من وسيلة لمكافأة من انضم إليه من فرسان العدو وأعلن الولاء له.

وفي قوله عن الأسس التي عن طريقها يختار قائدًا للساقة من الجنود "ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكري في نفسك صرامة ونفاذاً، ورضى في العامة، وإنصافاً من نفسه للرعية، وأخذاً بالحق في المعدلة مستشعراً تقوى الله وطاعته، أخذاً بهديك وأدبك، واقفاً عند أمرك ونهيك، معتزماً على مناصحتك وتزيينك، نظيراً لك في الحال، وشبيهاً بك في الشرف" (٢٠٥).

(202) السابق، ص ٢٦٧.

(203) السابق، ص ٢٨٣.

(204) السابق، ص ٢٣٨.

(205) السابق، ص ٢٥٣.

فلنتأمل (صرامة ونفاذاً، إنصافاً، أخذاً، مستشعراً، أخذاً، واقفاً، معتزماً، نظيراً، شبيهاً) فقد جاءت أول كل فاصلة وورد في كل منها صوت من أصوات الصغير فضلاً عن الرابط النحوي – تمييز بعده أحوال – وانتشار أصوات الصغير عموماً يلفت انتباه المتلقي إلى أساس الاختيار لقائد الساقّة، وهو أن يكون ذائع الصيت.

وقد تلفت أصوات الصغير انتباه المتلقي للخطر كما في قوله محذراً ولي العهد من مفاجأة العدو له بالهجوم عليه وانتهاز انشغاله بشيء آخر وحتى غفلته "إذا ابتليت ببيات عدوك، أو طرقك رائعاً في ليك؛ فليأفك حذراً، مشمراً عن سافك حاسراً عن ذراعك، متشزناً لحربك" (٢٠٦).

فنستقي من (حذراً، مشمراً، حاسراً، متشزناً) انتشار الخطر مما أوجب الحذر منه، وخير ما يمثل ذلك تجاور الشين والزاي القريبتين في المخرج – فضلاً عن أنهما من أصوات الصغير – مما أعطى ثقلًا على اللسان وتثقيراً للأذن وتوتراً للأعصاب ومن شأن كل ذلك انتباه ولي العهد لما قد يلقاه من عدوه، وربما تعكس تلك الأصوات ما قد يكون عليه ولي العهد من النفور إذا فاجأه العدو وكان غير مستعد له.

وقد ترد أصوات الصغير بهذا الشكل للربط بين عدّة فواصل تحتل مساحة أفقية لا بأس بها كما في قوله في نصح ولي العهد "وجاهدها إذا تناصرت عليك، بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مثوية لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاعة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها" (٢٠٧).

وترد أصوات الصغير في متناظرات الموقع آخر الفاصلة فتبقى في أذن المتلقي لتضفي جرساً موسيقياً يلفته إلى الدلالة، وقد ترد آخر الفاصلة وقبل آخر الفاصلة معاً فمنها ما جاء تمييزاً كقوله "فول شرطتك ... أوثق قوادك عندك، وآمنهم نصيحة، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفاً" (٢٠٨).

أصوات (ص، ص، ش، ص، ف) من (نصيحة، بصيرة، شكيمة، صريمة، عفاً)، مع انتشار أصوات الصغير (ف، ث، ص، ذ) عموماً. ومن اللافت اتحاد أربعة المتناظرات الأولى في الصيغة الصرفية (فعيلة)، مما يؤكد لدينا رغبة عبد الحميد في التأثير في المتلقي بهذا الجرس الموسيقي للمتناظرات الذي يعتبر بمثابة المنبه للمتلقي ليتحرى الدقة في اختيار هذا القائد. وقد ترد في آخر مفردتين من الفاصلة كالمضاف والمضاف إليه كقوله "فتلقّ ما وصفت لك بقلب فهم عقول ذي مرّه يقظان، وذهن جامع حافظ ذي ثقافة

(206) السابق، ص ٢٥٨.

(207) السابق، ص ٢١٩.

(208) السابق، ص ٢٤٣.

واع، أحضرك الله عصمة التوفيق، وسدّدك الله لإصابة الرشد، ومكّن لك صدق العزيمة" (٢٠٩).

أصوات الصفير (ص ف، ص ش، ص ز) من المفردات (عصمة التوفيق، إصابة الرشد، صدق العزيمة) مع انتشار أصوات الصفير (ف، ص، ظ، ذ، ث، س) قد أضفت تلازمًا بين تلك المفردات ليحقق للمتلقّي أكبر قدر من معية الله له . وقد يمتد انتشار أصوات الصفير - خاصة - أول الفواصل و آخرها معًا كنوع من التنظيم الإيقاعي كما في قوله "ثم ختم بنبيه p وحيه، وقفى به رسله وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له، على حين انطمست الأعلام مختفية، وتشتت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهج الفتن" (٢١٠).

أصوات الصفير (ف س، ث س، س ف، ش س ف، ف ث س، س ف) من (قفى رسله، ابتعثه الدارس، انطمست مختفية، تشتت السبل متفرقة، عفت آثار دارسة، سطع الفتن)، وكانت أصوات الصفير في كلمات متناظرة الموقع خير رابط لهذه المتناظرات ومن ثم رابط للفواصل، ومن شأن هذه البنية الإيقاعية المنتظمة أن تضيف على أعمال الرسول في هداية الناس نظامًا يؤكد راحة عقله وصدق نزول الرسالة عليه من الله عز وجل، ومن الملاحظ أن وقوع أصوات الصفير في الأحوال (مختفية، متفرقة، دارسة) علاوة على احتلالها أواخر الفواصل قد وضعها في دائرة اهتمام المتلقّي من ناحية، وتوحي بدوام اطراد بعث الله للرسول إلى الناس عند ما يشركون معه أحدًا وهذا حالهم دائمًا، فهي عملية أشبه بالمنظمة فالناس منذ بداية الخلق يشركون والله يرسل إليهم الرسل ليعودوا إلى الفطرة التي فطرهم الله عليها وهي الإيمان بالله والعمل في الدنيا لدخول الجنة في الآخرة.

ومنها ما جاء مع اتحاد الموقع النحوي كالفعل أول الفاصلة والحال آخرها كما في قوله "وأخلصته المقة منعطفة وسكنت له القلوب أنيسة، وسمت من مواصلته الهمم مستعلية" (٢١١).

ومنها ما جاء في الفعل وما بعده لتأكيد التلازم بينهما كقوله "ثم لم تلبث أن علتنا ضيابة تقصر طرف الناظر، وتخفي سبل السلام" (٢١٢).

ومنها ما جاء في المضاف والمضاف إليه وهما كل الفاصلة كقوله "قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطعات الذنوب، ومبهظات الأوزار، وظلم الشبهات" (٢١٣). أصوات الصفير (ف ظ، ظ ز، ظ س) من (مفطعات الذنوب، مبهظات الأوزار، ظلم الشبهات).

ولا يخفى على المتلقّي وقع الظاء الثقيل على الأذن مع الصفير العالي، مما ينفر المتلقّي من الذنوب والأوزار والشبهات مجتمعة بفضل التنافر الصوتي الناتج

(209) السابق، ص ٢٧٨.

(210) السابق، ص ٢٦٥.

(211) السابق، ص ٢٧٦.

(212) السابق، ص ٢٦٩.

(213) السابق، ص ٢٦٦.

عن انتشار أصوات الصفير – خاصة الظاء – وكان انتشار الصفير في متناظرات الموقع الجامع لها والرابط بينها.

وقد يزاوج عبد الحميد بين أول الفاصلة ثم ينتقل إلى آخرها لإظهار مدى تمكنه من الأدوات التي تبعث الجرس الموسيقي داخل النص كما في قوله عن فوائد الإخاء "فكان أكهف لجأ، وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة، وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنعة، وأنق منظر، وأينع زهرة، أكثر الأشياء ريعاً، وأتماها وصلاً، وأمدّها سبباً، وأقواها أيّداً، وأحلاها ذوقاً، وأدعمها ثباتاً وأرساها ركناً" (٢١٤).

وقد يستخدم عبد الحميد متناظرات الموقع للربط الصوتي بين اسم الحرف الناسخ وفعله كما في قوله "... وليكن على الضعيف رفيقاً، والمظلوم منصفاً" (٢١٥).

وقد تجتمع الأصوات الحلقية مع أصوات الصفير وتحدث التناظر الصوتي بانتشارها عموماً كما في قوله "وأمر المؤمنين يرجو أن ينزّهك الله عن كل قبيح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خلق" (٢١٦).

الأفعال المتناظرة (ينزّهك، يعصمك، يحصنك) بها الأصوات الحلقية والصفير (ز هـ، ع ص، ح ص) لتضفي على دعاء الخليفة نبرة عالية تجعل الدعاء أشبه بالتضرع إلى الله لحاجة ملحة هي حفظ ولي العهد من أي سوء. وللأصوات الحلقية نصيب من متناظرات الموقع وتقوم بالربط بين الفواصل مع إضفاء جرس موسيقي ومثال لأول الفاصلة مع اتحاد المتناظرات في الإعراب والصيغة الصرفية قوله مفصلاً أنواع النصر مع ترجيح نوع منه يقتضي إنزال طاعة العدو بوسائل غير حربية مثل المال أو حتى التلويح بالمناصب "اعلم أن الظفر ظفران: أحدهما – وهو أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قاله، وأحوطه سلامة ... وأعوذه عاقبة، وأحسنه في الأمور مورداً، وأعلاه في الفضل شرقاً، وأصحّه في الروية حزمًا ... ما نيل بسلامة الجنود" (٢١٧).

المتناظرات أول كل فاصلة (أعم، أبلغ، أحوطه، أعوده، أحسنه، أعلاه، أصحه) كلها عطف على الخبر الأول واتحدت في صيغة أفعّل، ونضيف إليها الأصوات الحلقية (ع، غ، ح، ع، ح، ع، ح) فتجتمع في إضفاء القوة على الجرس الموسيقي مع الربط بين الفواصل، لتوحي تلك القوة بأفضلية هذا النوع من النصر عن غيره، ومن شأن هذا التشابه في الصيغة الصرفية مع الجرس الموسيقي النابع عن أصوات الصفير المتكررة في تلك الصيغ أن تؤثر في درجة تجاوب المتلقي مع هذا النوع من النصر لاعتماده دون غيره.

(214) السابق، ص ٢٧٧.

(215) السابق، ص ٢٨٤.

(216) السابق، ص ٢١٧.

(217) السابق، ص ٢٣٧.

ومنها قوله أيضاً "أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتعا بالنعمة"^{٢١٨}.

أصوات الحلق (ع، خ، ع) من الأحوال المتناظرة أول الفاصلة (مؤيداً، مخصوصاً، ممتعا).

ثالثاً: الحركات الطويلة

يقصد بالحركات الطويلة الأصوات التي تتكوّن من امتداد الحركات القصيرة – الفتحة، والضمة، والكسرة – وهي ما تسمى بأصوات اللين أو الصوائت عند البعض.

وهذه الحركات الطويلة هي ألف المد، واو المد، ياء المد، وهي من أوضح الأصوات في اللغة العربية وغيرها من اللغات، وتمتاز بطول المدة الزمنية أثناء النطق بها^{٢١٩}.

ولطول المدة الزمنية في نطق أصوات اللين – الحركات الطويلة – خاصة الألف يتحقق للكلام المقروء والمسموع خاصية بطء إيقاعي "ولاشك أن هذا البطء الإيقاعي له آثاره الدلالية لما لهذه الحركات الطويلة من قدرة على إشعار المتلقي أن هذه الحركة الطويلة ما امتد الصوت فيها إلا تفرغاً لشحنة عاطفية ملحة وعميقة ومسيطرّة، إضافة إلى ما تحدثه هذه الحركات الطويلة من إمكانيات تنويع الأداء وتلوينه بما يلائم الموقف النفسي"^{٢٢٠} وعلى العكس من ذلك فإن قلة أو انعدام هذه الحركات في النص تضيي سرعة إيقاعية ملحوظة عند تلقيه.

ولأهمية أصوات اللين وتأثيرها في سرعة الإيقاع – بالسلب أو الإيجاب – وجدنا بعض فحول الشعراء في العصر الجاهلي يفيد منها باستخدامها استخداماً فنياً و"أن الأعشى كان يقيم صلة صوتية بين معاني شعره وموسيقاه، وأن هذه الصلة قد أثمرت كما تدل أشعاره نوعين من الموسيقى: بطيئة وسريعة كان يوظف كل نوع منهما في موضوعات ومواقف معينة"^{٢٢١}.

فكان الأعشى إذن "يطيل في أصوات اللين ويمطها مطاً يحقق له بطناً خاصاً في موسيقى قصائده"^(٢٢٢).

فالحركات الطويلة ترتبط بالثراء الصوتي داخل النص ارتباطاً وثيقاً، فهي تؤثر في سرعة إيقاع النص بالإيجاب أو السلب – كما أوضحنا – تأثيراً يستوقف المتلقي فيستمع بتنويع الأداء الموسيقي من ناحية، ويعمل ذهنه ليصل إلى مقاصد المبدع من وراء استبطائه أثناء تلقي النص من ناحية أخرى فتكون الحركات الطويلة إذن بمثابة الشفقات التي تقطع الغطاء عن وجه الدلالة ومن ثم تتكشف للمتلقي.

²¹⁸ السابق ص ٢٦٨.

²¹⁹ انظر في تفصيل الحركات: الأصوات اللغوية ص ٢٦ وما بعدها.

²²⁰ الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات، د/طارق سعد شليبي ص ٩٨ زهرة المدائن، القاهرة ٢٠٠٣.

²²¹ مناهج نقد الشعر ص ٣٠٣.

(222) السابق، ص ٣٥٤.

ومن خلال قراءتنا لرسائل عبد الحميد وجدنا انتشاراً واسعاً للحركات الطويلة - خاصة الألف - ينتج عنه ثراءً صوتياً ودلالياً بالطبع، وقد يضيف المد بالألف دلالات الكثرة والاتساع ككثرة ما يميل بالنساء في قوله "ثم هنّ بعد ذلك معوجّات يميل بهن بعض نقص الآراء، وسوء المداراة، ودهي العقول" (٢٢٣).

وتدل على اتساع دائرة الحزن على موت أحد الأمويين في قوله "أما بعد، فإن كلوم الدنيا وآفاتهما، ومصائبها وفجائعها تجري في قضايا جمّة، وأقدار محتومة عزمة إلى منتهى أمر موقوت، وحاتم علم من الله نافذ غير منقوص" (٢٢٤).

لعل دلالة الاتساع الناتجة عن شيوع المد بالألف ملائم للجو النفسي للرسالة من الحزن على موت الحكم بن مروان، والبطء الإيقاعي للفواصل الناتج عن أصوات المد عموماً ملائم للدعوة إلى الصبر على المصيبة فيه.

والبطء الإيقاعي الناتج عن الحركات الطويلة يستوقف المتلقي للتأمل في النص لاستخراج الدلالة المرادة كالدلالة على شدة الدمار وما أنتجه من كثرة وانتشار الأموال والخيام السابحة على نهر الفرات أثناء طغيانه "ولقد أتى على أموالهم السابحة، وخيامهم الزاهرة، وعقدهم النفيسة" (٢٢٥).

أو لبيان طول عذاب الله وشدة لأصحاب الفتنة المناسب لطول النطق بألف المد كما في قوله "... إلى ما أعدّ الله لهم من أليم العقاب، وسوء الحساب وشديد العذاب" (٢٢٦).

وقد انتشر المد في سياقات بعينها كسياق النصح الأخلاقي وجاء المد لتأكيد ضرورة مجاهدة الأهواء في قوله "ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات، وخضم العقل" (٢٢٧).

فالمجاهدة تتطلب وقتاً طويلاً وصبراً ملائماً لأصوات المد ومدتها في النطق

وفي سياق النصائح الموجهة لولي العهد خاصة النصائح التي يضع له فيها الكاتب شروط اختيار القواد أو صفات من يجالسهم عموماً. وأضفى المد في هذا السياق تأكيد ضرورة اختيار ذوي الخبرة لمجالسته "ثم لتكن بطانتك، وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في سرّك أهل الفقه والورع من خاصّة أهل بيتك، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور، وخبطته فصالها بين فراسن البزل، وقلبته الأمور في فنونها، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور، ومواضع الرأي، وعين المشورة مأمون النصيحة، مطوّى الضمير على الطاعة" (٢٢٨).

(223) عبد الحميد بن يحيى ... ص ١٩٣.

(224) السابق، ص ١٩٥.

(225) السابق، ص ١٩٦.

(226) السابق، ص ٢١٢.

(227) السابق، ص ٢١٩.

(228) السابق، ص ٢٢٢.

ومن خلال طول العبارة، وما تضمنته من شيوع المد عن غيرها دعوة خفية إلى الصبر في اختيار الجلساء وطول المدة الزمنية في اختيارهم. ونفهم أهمية اختيار الجلساء والبطانة والقواد عند عبد الحميد، وربما يعكس ملمحاً من ملامح العصر الذي عاش فيه من انتشار جلساء السوء، وانتشار أصحاب المصالح الخبيثة، فأثر توجيه ولي العهد لضرورة الاختيار بين الجلساء والبطانة والقواد حتى يأمن مكائد العدو أو المعارض العسكري والسياسي.

ولأهمية الفترة الزمنية التي عاش فيها عبد الحميد وتأثيرها في تاريخ المسلمين عمومًا، فقد شغلت الحرب قسمًا كبيرًا من رسائل عبد الحميد، وما وجدناه أن الحركات الطويلة قد شاعت في الرسائل الخاصة بالحرب أو الفتن المؤدية إليها، وأضفت على الدلالة ثراءً كبيراً.

وفي سياق كيفية اختيار القواد نجد هذا الاختيار مبناه التائي والتمهل مما قد تعبر عنه ألف المد بما فيها من بطء كما في قوله لولي العهد "ثم انتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبيه الذكر، له في العدو وقعات معروفة، وأيام طوال، وصولات متقدّمة" (٢٢٩).

وفي نظرة متمهلة يعرض للمتلقى ما يعود عليه من اختياره ثم يكمل باقي صفاته، ليكون في هذا التمهّل - الذي أحدثه المد بالطبع - إقناع المتلقى بأن الاختيار الجيد المتائي للقواد يعود عليه بالنفع كقوله "قد بلوت منه ما يسكتك إلى ناحيته من لين الطاعة، وخالص المودة، ونكاية الصرامة وغلوب الشهامة، واستجماع القوة، وحصافة التدبير" (٢٣٠).

ويضفي المد التائي أيضاً في اختيار المحاربين ليلاً كما في قوله "ثم ليشهبوا السلاح، وينتضوا السيوف فإن لها هيبة رائعة، وبديهة مخوفة، لا يقوم لها في بهمة الليل، وحنده إلا البطل المحارب، ذو البصيرة المحامي، والمستमित المقاتل" (٢٣١).

وقد ناسب المد طول الأسلحة وخبرة الفارس الواسعة في القتال. والتائي في اختيار وكيل خزائن صاحب صفات معينة كما في قوله "وكل بخزائنك، ودواوينك رجلاً أميناً صالحاً ذا ورع حاجز، ودين فاضل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة" (٢٣٢).

أو التائي في اختيار خيول وأدوات الحرب كقوله "... ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيول، وأسلحتهم سوابغ الدروع، وكمال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجواهر، وصافي الحديد" (٢٣٣).

(229) السابق، ص ٢٤٨.

(230) السابق، ص ٢٤٨.

(231) السابق، ص ٢٦٠.

(232) السابق، ص ٢٦٢.

(233) السابق، ص ٢٦١.

وارتبط المد أيضًا في رسائل الكاتب بسياقات الحث ومنها حث الجنود على القتال في قوله "وليكن في عسكري المكبرون بالليل والنهار قبل الواقعة وقوم موقوفون يحضونهم على القتال، ويحرضونهم على عدوهم، ويصفون لهم منازل الشهداء، وثوابهم، ويذكرونهم الجنة، ودرجاتها، ونعيم أهلها وسكاتها"^(٢٣٤).

ويرتبط المد في سياق الفتنة ببعض الدلالات منها الدلالة على التهويل من فعل الخارجين على الدولة كقوله "ونفخ الشيطان في سحره من ريح الكبر، مضادة لله تعالى بالمناسبة، ومبارزة لأمير المؤمنين بالمحاربة، ومجاهرة للمسلمين بالمخالفة"^(٢٣٥).

ويشيع المد في مشاهد الصيد خاصة الألف الذي يوحى بالاتساع المناسب لطول أجسام حيوانات الصيد فيضفي عليها القوة والصلابة كما في قوله عن الجوارح والضواري "واني أخبر أمير المؤمنين: أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري أكرمها أجناسًا، وأعظمها أجسامًا، وأحسنها ألوانًا وأحدها أطرافًا، وأطولها أعضاء"^(٢٣٦).

وقوله أيضًا "ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة من الشهرية الموصوفة بالنجاسة، والجري والصلابة"^(٢٣٧).

ويشيع المد في الموضوعات ذات الطابع الديني فيضفي تأكيد دلالة تعدد الأفضال كأفضال القرآن من قوله "فإن فيه شفاء القلوب من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه، وضياء معالم النور، تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون"^(٢٣٨).

أو تأكيد تعدد أفضال الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أمته "قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطعات الذنوب، ومبهظات الأوزار، وظلم الشبهات وما يدعو إليه نقصان الأديان، وتستهوهم به الغوايات"^(٢٣٩).

أو في ذكر جهاد الأولين لتأكيد الشدة في معارضة الخارجين كما في قوله "فأنتم بمعرفتكم به أولى بالذنب عنه، والغضب له، أنتم وآباؤكم المصدقون بتتزيله، والمضاربون على تأويله، وهم الجاحدون لجملته، والمحرفون لما أقروا به"^(٢٤٠).

وشيوع المد للدلالة على تأكيد تعدد الأفضال لا تقتصر على الموضوعات ذات الطابع الديني، بل يمتد إلى الكتاب، وإظهار أفضالهم على الولاة كقوله "فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون،

(234) السابق، ص ٢٦٤.

(235) السابق، ص ٢٨٠.

(236) السابق، ص ٢٦٨.

(237) السابق، ص ٢٦٩.

(238) السابق، ص ٢١٩.

(239) السابق، ص ٢٦٦.

(240) السابق، ص ٢٠٠.

والسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون، أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلهما، وصارت إلى محاصلها؛ ثقاتهم دون أهليهم، وأولادهم، وقراباتهم، ونصحائهم" (٢٤١).

وأظهار أفضال الكتاب سيق لهدف ما في نفس عبد الحميد، ألا وهو توجيه الكتاب إلى التفاني والإخلاص في العمل في كل الأحوال "فابذلوا - وفقكم الله - ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة، والإحسان والإساءة، والغضب والرضى، والسراء والضراء" (٢٤٢).

وللحركات الطويلة شكل آخر ترد فيه داخل الفواصل بوضع شيئين أو موقفين بإزاء بعضهما البعض - بزيادة الحركات الطويلة في جانب عن آخر - فترجح المقابلة بهذا الشكل واحدا من الطرفين.

كوضع عائشة بنت هشام - زوج ولي العهد - في موقف متقابل مع الجواري كما في قوله "وكانت ابنة عمك أنجب ولداً، وأشد تحنناً، وأولى بك، غالبية عليك، أو ذاهبة بك عن علق إماء غير مأمولات ولا مأمونات، قد ولدتهن أمهات غير منجبات ولا مسلمات، فإن أدّين ما استودعن، نزع بهن سوء مشابه الخوولة، وفسولة الأصول" (٢٤٣).

وبالتأمل نجد شيوع المد في الجزء الخاص بالجواري وقتله لعائشة، مما أوحى بكثرة الجواري وكثرة مساوئهم معاً، ويتضح ذلك أكثر من طول فاعل (نزع) - سوء مشابه الخوولة وفسولة الأصول - الأفقي، والبطء الإيقاعي الناتج من شيوع المد فيه، في مقابل خلو فعل الجواب (نزع) من المد، وكثرة مساوئ الجواري رجحت تارة عائشة وحدها مقابل الجواري الكثيرات.

أو وضع الغربة والشقاء بإزاء المكوث في الوطن والتنعم كما في قوله "وجلس بك التوكل عن نصب بدنك، وأنت عندنا مغبوط، إذ نحن على أنفسنا أهل إزراء في طول التطواف في مهاوي الفياضي، وذرى قلل الجبال" (٢٤٤).

كثرت الحركات الطويلة في غربة عبد الحميد عن وطنه - أثناء هروبه - فأثرت في بطء الإيقاع مما لفت انتباه المتلقي إلى ما وراء البطء من اتساع للأماكن وامتدادها وطول السفر مما يعكس حال الشوق العارم للوطن، وقلة الحركات على الجانب الأول - الخاص براحة الوطن - أثرت في سرعة الإيقاع، فوضعت الاستقرار في الوطن بإزاء الغربة، وقد رجحت الغربة ببطئها وطولها الكمي من الكلمات فأضفت دلالة الحزن والشقاء الناتج عن شدة الشوق إلى الوطن.

أو وضع الخليفة - وحده - بإزاء أعداد الحجيج الكثيرة كما في قوله "إلى أن قدم حرم الله وأمنه؛ فألفى هنالك من حجيج الآفاق، والأمصار جماعات لم ير

(241) السابق، ص ٢٨٢.

(242) السابق، ص ٢٨٤.

(243) السابق، ص ١٩٣.

(244) السابق، ص ٢٠٤.

مثلها في الكثرة والعدد، ثم في الاجتهاد، والاحتشاد لما شخصوا له من كل فجٍّ" (٢٤٥).

أو وضع الغفلة بإزاء الحراسة منها كقوله "... حارسًا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ الألقاب وذميم تنابزها من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضياع" (٢٤٦).

فشيوع المد أول العبارة – الخاص بالحراسة ضد الآفات – وقتله بعدها، وضع الحراسة بإزاء الغفلة إرهابًا لتثديد الحراسة لسرعة الغفلة.

أو وضع نصر القتال بإزاء نصر السلامة إذا لم تكن هناك حاجة للقتال كما في قوله "وإن ساعدك الظفر، ونالك مزيد السعادة في الشرف ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب، وعضاض السيوف وألم الجراح، وقصاص الحروب وسجالها بمعاورة أبطالها" (٢٤٧). وقد رجح عبد الحميد الظفر دون القتال بإظهار آثار القتال التي احتلت كمًّا من الكلمات تميّزت بالبطء لكثرة المد خلالها مما أوحى أيضًا بطول المدة الزمنية لتحقيق نصر القتال، وقصرها بدون القتال.

ومن النماذج المهمة في رسائل عبد الحميد التي انتشرت فيها الحركات الطويلة فوضعت الدنيا في وضع الحاوي لجانبين متناقضين ورجحت الحركات الطويلة أحدهما لتأمل قوله "وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درّها أفوايق استحليناها، ثم شمسنا منا نافرة، وأعرضت عنا متكررة، ورمحتنا جامحة" (٢٤٨).

وبالتأمل في العبارة نجد شيوع المد بعد الفعل الناقص (كانت) المستغرق في الماضي مما جسد حال عبد الحميد في الماضي من الحلاوة التي استقاها من الجانب أو الوجه الأول للدنيا، وقد انتهت بالفعل (استحليناها) الذي استغرق مدّة زمنية وأوحى بطول الحياة الهائلة التي عاشها الكاتب وطول المدّة ملائم لطول الفعل الخطي، ثم ننتقل إلى الجانب الآخر – الوجه – للدنيا فنجد قلة مفرطة للحركات الطويلة – بالمقارنة بالجانب الأول – مما أضفى سرعة في الإيقاع ونفهم من خلاله سرعة تقلب الدنيا من الحلاوة إلى الإعراض وكل ذلك أضفى دلالة الصدمة من الدنيا فكلما زادت الفترة الأولى صعب على الكاتب تقبل الثانية ومن اللافت للنظر أن الصياغة قد عبرت عن ذلك أيضًا، فالكاتب وقع في موضع المفعول به والدنيا موضع الفاعل في الوجه الحلو لها، ولكن وقع في موضع المجرور بحرف جر، وبقيت الدنيا في موضع الفاعل كما هي في الوجه الثاني.

مما ساعدنا في فهم تقلب الدنيا بعبد الحميد من الراحة إلى الشقاء.

(245) السابق، ص ٢٠٥.

(246) السابق، ص ٢٢٠.

(247) السابق، ص ٢٣٧.

(248) السابق، ص ٢٧٩.

• وقد تتضافر الحركات الطويلة مع الإطار النحوي فنستقي منهما معاً دلالات عدة، فالاستبطاء الذي يحققه المد إذا اقترن بأسلوب الشرط أو أحد أجزائه يضع الأسلوب في دائرة التأمل للخروج بالدلالة.

كالتأمل فيما يفعل المتمرّدون على الدولة – في نظر الكاتب – في الإسلام وأهله في قوله "فهو ومن معه ينعي إليكم الإسلام وشرائعه بتجريد هم السيف وإظهارهم الحيف، وإدخالهم على الناس الخوف، من أقرّ لهم؛ استذلّوه، ومن أنكر عليهم؛ قتلّوه" (٢٤٩).

قد خلا فعل الشرط من المدّ (من أقر، من أنكر)، واقترن بالجواب (استذلّوه، قتلّوه) مع طول الكلمتين خطياً للتركيز على الجواب، والتأمل في نتيجة الإقرار لهم، أو الإنكار عليهم من الذل أو القتل، فلا يسع المتلقي إلا محاربة المتمردين وهذا ما أراده عبد الحميد منه.

أو للتأمل في النهاية المحتومة للمتمردين كما في قوله "وإن كان الله ابتعثهم لتمام البلية، وقتل الحرية، وضياح الذرية؛ فستهوى عليهم مشدّدات البلاء بتتابع المنايا" (٢٥٠).

فكثرة المدّ في جملة جواب الشرط (فستهوى) وما بعدها عن جملة فعل الشرط (إن كان الله ..) قد جعل المتلقي يصرف الاهتمام الأكبر للجواب لما فيه من بطء إيقاعي فيتأمل النتيجة المحتومة للمتمردين.

أو التأمل في فظاعة التسليم لهم كما في قوله "فإنهم لولا اجتراحهم الناس، وتسكينهم إليه، وطمعهم فيه لأظهروا من صنوف الكفر، وعظيم الفراء، وسوء الأثرة، وتناول الفواحش ما يتمنى الأحياء أنهم كانوا أمواتاً" (٢٥١).

وقد يكون شيوع المدّ في الجواب عن الشرط لتوجيه المتلقي للتأني وعدم التسرع فجواب الشرط هو المتوج للأسلوب كله، ويرد وقد ارتبط بالفعل ارتباطاً تلازمياً – ارتباط السبب بالنتيجة – وشيوع أصوات المد قد يضمن أن يحتل الجواب بما له من أهمية دلالية لافتة مساحة أرحب من اهتمام المتلقي وتأمله وهذا التأمل ربما يصبغ أفعاله بالتمهل وعدم التسرع في اتخاذ القرار كما في قوله "فإن وجّه أحدّ منهم نظره محدّقاً، أو رماك ببصره ملحّاً؛ فاخفض عنه إطراقاً جميلاً باتّباع وسكون" (٢٥٢).

تركيز المد في الجواب (فاخفض ...) يستوقف المتلقي حتى لا يتسرع في رد الفعل فيمن ألحّ عليه النظر.

(249) السابق، ص ١٩٩.

(250) السابق، ص ١٩٩.

(251) السابق، ص ١٩٩.

(252) السابق، ص ٢٣٠.

ويدعو للتأمل في نتيجة كشف العدو لجواسيسه في قوله "فإن ظفر به، وأظهر عقوبته؛ كسر ذلك ثقات عيونك وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعذاب اجتثاثها من يناييعها"^(٢٥٣).

فكشف جاسوس واحد يؤدي إلى نتائج أكبر من تأذي الجاسوس وحده، بل يتعدى ذلك إلى خوف باقي الجواسيس أن يلقوا نفس مصير الجاسوس الأول وهذا الخوف ربما يؤثر في صدق الأخبار الخاصة بالعدو وتحركاته عند وصول تلك الأخبار للمتلقي.

واستيقاف المتلقي الناتج عن الحركات الطويلة في جملة الجواب قد يؤدي إلى توجيه المتلقي إلى كشف دلالات أخرى كالتفاني في العمل في قوله "فإن عرضت في العمل محمداً فليضفها إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة؛ فليحملها من دونه"^(٢٥٤).

أو التنويه عن كثرة التردد على المقعدين من الكتاب مع طول فترات التردد عليهم كما في قوله "وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه، ولقاء إخوانه؛ فزوروه وعظموه، وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته"^(٢٥٥).

ويعمد عبد الحميد إلى تركيز الحركات الطويلة في فعل الشرط عن الجواب فتقترن بالتفصيل كتفصيل الخطأ في الحكم في قوله "وإن كان خطأ أقدم به جاهل، أو فرطه سعي بها كاذب، فنالت الباغي منهما، أو المظلوم عقوبة، أو بدر من واليك إليه عقوبة نكال؛ لم يُعصب ذلك الخطأ بك ولم تنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذم فيه"^(٢٥٦). فطول فعل الشرط وتركيز المد في مفرداته أضفى أهمية في تفصيل الخطأ على المحكوم عليه.

وقد يكون التركيز على فعل الشرط لكشف بعد نفسي يتناقض بتغيير الأحوال كالرضا بالدنيا أو السخط عليها كما في قوله "فمن درت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها؛ سكن إليها، ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعصته بأنيابها، وتوطأته بثقلها؛ قلاها نافراً عنها، وذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً منها"^(٢٥٧).

وللحركات الطويلة دور في إبراز معالم الصورة أو كشف جوانبها بفضل البطء الإيقاعي الذي يفرضه شيوخ الحركات الطويلة، كالكشف عن الصورة الحركية للنهر في قوله "وافى كتابك أمير المؤمنين وموار الفرات يجيش بأرجائه، مطلخمة أمواجه متزايلاً في حجراته، آذيه صخب، وغطامطه لجب، وعلوه متوال يساور الجبال"^(٢٥٨).

(253) السابق، ص ٢٤٢.

(254) السابق، ص ٢٨٤.

(255) السابق، ص ٢٨٣.

(256) السابق، ص ٢٢٦.

(257) السابق، ص ٢٧٨.

(258) السابق، ص ١٩٦.

فالمفردات (موّار، يجيش، متزايلاً، متوال، يساور) تخللها المد وتعبر كلها عن حركة النهر وأضفى المد عليها بطناً يستوقف المتلقي ليتأمل الصورة الحركية للنهر ليضع صوب عينه صورة النهر المتحرك وهو يدمر المنازل.

وقد ينتشر المد فيشمل رسالة كاملة تخدم صورة كلية مرسومة كصورة الجنود في قوتهم وأصواتهم وحركاتهم وأدواتهم القتالية وخيولهم كما في قوله "أما بعد، بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله المقربون وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال، رجال هم الرجال، بين رام وناشب، ليس معهم إلا كلب محارب، لا يهابون الضراب، ولا ينكلون عن الأصحاب قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام ليسوا بذوي هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود"^(٢٥٩).

فالأهمية الرسالة والمراد منها من تفتيت عزيمة جنود المتمردين بإظهار صورة لجنود الدولة غير مسبوقة، فآثر انتشار المد ليقف المتلقي بإزاء الصور الجزئية، ويجمعها في صورة واحدة يعجز أمامها، فأصوات الجنود تظهر من (يزأرون زئير الأسود) ووجود المد بها يضيف استطالة أصواتهم في المعركة مما يوحي بتصميمهم على القتال، واقترن المد أيضاً بتحركاتهم (تخوض الوحول، يقضون بالسيوف، يخالطون الزحوف، يثبون وثوب الفهود) وربما استوقف المد المتلقي ليتأمل هذه التحركات فيرى صورة متحركة للجنود وكأنهم يتحركون بالفعل للقضاء عليه، أما انتشار المد في المفردات التي تعبر عن صفاتهم الجسمانية في (طوال السبال، الكهول، الوعول) فيضيف على الفرسان قوة جسمانية تنبع من طول المد واتساع النطق به، ويقترن المد بصفاتهم النفسية (لا يهابون الضراب) والأخلاقية (لا ينكلون عن الأصحاب) والحربية (قد ضروا بضرب الهام، اعتادوا الكر والإقدام) وجاء هذا الاقتران ليستوقف المتلقي ليتأمل تلك الصفات المتعددة والمعجزة له بحيث لا يستطيع الصمود أمامهم في معركة حربية.

وساهمت أيضاً في رسم صورة للحكمة من خلال الدلالة على اتساع الصحراء، وامتداد الخطر كما في قوله "اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها وأمن سرحها، وشرف عزّها"^(٢٦٠).

وفي رسم صورة للصيد بجوارحه وضواريه وطبيعة الأرض والرياح وحركة الطريدة وأصوات الحيوانات في قوله "ثم مدّت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاودها؛ فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسفّ الأرض سقاً، كاشفة عن

(259) السابق، ص ٢١٤.

(260) السابق، ص ٢١٧.

آثارها، طالبة لخيارها، حارشة بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق^(٢٦١).

والبطء الإيقاعي النابع من انتشار الحركات الطويلة ودلالاتها على الاتساع أوضح طول فترات الصيد مع طول الإعداد له والانتظار والبحث عن الطريدة، وأضفى الاتساع على أرض الصيد، وساهم البطء في استيقاف المتلقي بإزاء الأصوات في (حفيف الريح، صائح، ناعر، هاتف، ناعق)، وحركة الحيوانات من (كاشفة، حارشة، مزقتها تمزيق) لتكون صورة كاملة عن الصيد تتجسد أمام عينه وكأنه مشارك في عملية الصيد.

أو للوقوف بإزاء صورة الإخاء في قوله "... ومخوف عارض، يخترم مسكة الإخاء، ويحتز مربوب المقة ضناً بما استعذبوا من محمود وثائقه، وازدياداً فيما تمطقوا به من حلاوة جناه"^(٢٦٢).

أو ذكر حوادث الزمان وتأثيرها لخدمة الإخاء وإظهار قدرته كما في قوله "لا يدخل مستحقها سامة ملال ولا كلال مهنة، ولا تثبيط ونية، ولا ضعف خور لنزول بانقة، أو طروق طارقة من عوارض الأقدار، وحوادث الزمان، بل مواسياً في إزمها، متورطاً غمرات قحمها، متدرعاً هائل بوائقها، مستلحماً نواظر مقاطعها حتى تصير به الأقدار إلى تناهيها، ويبلغ به القضاء مقداره"^(٢٦٣).

أو رسم صورة للبهيمة لتوجيه المتلقي إلى معرفة كيفية معاملة الغير، كمعاملة الكاتب لرب عمله في قوله "فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها؛ التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً؛ اتقاها من قبل رجلها، وإن كانت جموحاً؛ لم يهجمها إذا ركبها، وإذا كانت شמושاً؛ توقاها من ناحية يدها، وإن خاف منها عضاضاً، توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً؛ لم يلاحها، وتتبع هواها في طريقها، وإن استمرت؛ عطفها فيسلس له قيادها"^(٢٦٤).

وما للحركات الطويلة من الدلالة على الاتساع والطول فتضفي على الدعاء خشوعاً وتضرعاً، كدعاء عبد الحميد لله ليحفظ ولده من المكاره في قوله "فإن يدفع الله عن حوبائه بالتباسى العافية فيه، ويصرف جوالب الأقدار، ومكاره السوء عنه؛ فنعمة رادفة تشاكل البادية الموصولة بالتالية"^(٢٦٥).

وفي قوله أيضاً "وأن يجعل ما وهب لنا من سلامته، والمدة في عمره موصولاً بالزيادة، مقروناً بالعافية، محوطاً من المكروه، فإنه المنان بالمواهب، والواهب للمنى لا شريك له"^(٢٦٦).

(261) السابق، ص ٢٧٠.

(262) السابق، ص ٢٧٦.

(263) السابق، ص ٢٧٧.

(264) السابق، ص ٢٨٥.

(265) السابق، ص ٢٠٢.

(266) السابق، ص ٢٠٢.

أو الدعاء بشكر الله على النصر أول قوله "الحمد لله العلي مكانه، المنير برهائه، العزيز سلطانه الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه الصادق وعده" (٢٦٧).

والدعاء بتقبل الصيام في قوله "وأمر المؤمنين يسأل الله الذي بلغه هذا الشهر المبارك، وأدخله عليه بالعافية والسلامة، أن يعينه على صيامه ويرزقه من تقبل عمله، واستجابة دعائه، وتكفير سيئاته، ومغفرة ذنوبه وخطاياهم فيه" (٢٦٨).

وقد تساهم الحركات الطويلة في تجلية الدلالة أمام المتلقي أو تشارك في تكوينها ففي قوله "ثم أذك عيونك على عدوك، متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدّوا أعناقهم نحوها، وأي الأمور أدعى لهم إلى الصلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لاستئصال طاعتهم، ومن أي الوجوه مأتاهم: أمن قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة، والإرهاب والإيعاد، أو الترغيب والإطماع" (٢٦٩).

فعل الأمر (أذك) بخلوه من المد أضفى السرعة في إذكاء العيون والجواسيس ووضعهم في حال استعداد لنقل الأخبار، أما شيوع المد بعدها فيوجه المتلقي إلى التمهّل في معرفة أخبار العدو، والتمهّل في الحرب لغرض تحقيق الصلح، والصبر على تحديد كيفية إنزال طاعة العدو، ولكن ذلك كله مع إذكاء العيون.

وفي قوله "فتلقّ ما وصفت لك بقلب فهم عقول ذي مرة يقظان، وذهن جامع حافظ ذي ثقافة واع" (٢٧٠).

الموصوفان (قلب، ذهن) بخلوهما من المد وصفاً بصفات تخللها المد كلها – إلا فهم – فساعد المتلقي على التأمل في صفات القلب والذهن واحدة بعد أخرى. قلة أو انعدام الحركات الطويلة

لقلة الحركات الطويلة أو انعدامها في النص تأثير في إيقاع الفواصل فتؤدي إلى السرعة الملحوظة والسرعة هنا لا تقصد لذاتها فقط، بل لخدمة ما يرمي إليه الكاتب.

فقد تتفق سرعة الإيقاع مع بيان تعدد المراحل وسرعة الانتقال من مرحلة إلى أخرى. كمراحل صداقة عبد الحميد لأحد الأشخاص في قوله "أما بعد، فقد عاقتي الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني باللطف عن غير خبرة، ثم أعقبه منك جفاءً بغير ذنب، فأطمعني أولك في إخالك، وأياسني آخرك من وفائك" (٢٧١). قلة المد توحى بتتابع مراحل الصداقة بسرعة لحاجة في نفس عبد

(267) السابق، ص ٢٧٢.

(268) السابق، ص ٢٠٦.

(269) السابق، ص ٢٣٩.

(270) السابق، ص ٢٧٨.

(271) السابق، ص ١٩٢.

الحميد قد تكون مبرراً لقطع صلة الصداقة لأنه أخطأ في تقدير الشخص الذي صادقه ولم يمهل الوقت لذلك وكأنه فرض عليه.

والمراحل ابتداء الصديق باللطف أولاً ابتدأتني باللطف (عن غير خبرة) وقلة المد في هذه المرحلة توحى بسرعة التعرف على الصديق في بداية الصداقة ثم الجفاء (أعقبه منك جفاء بغير ذنب) ويكاد تخلو هذه المرحلة من المد أيضاً وتوحى بسرعة تغير أحوال الصديق في تعامله مع عبد الحميد بغير ما توقع منه. فأدى إلى طمع عبد الحميد في صداقته ثم اليأس من الوفاء كرد فعل على كل مرحلة من المراحل السابقة وتكاد تخلو ردود الفعل أيضاً من المد (أطمعني أولك في إخائك، أياسني آخرك من وفائك) وتضفي طيبة الكاتب لأنه يستجيب لكل فعل من الصديق برد فعل سريع في اتجاهه، وحتى مع جفاء الصديق لم يسع الكاتب إلا اليأس فقط دون رد فعل يضر به بالصديق كما أضره هو. وسرعة تلك المراحل أوحى بشك عبد الحميد في صحة صداقته له.

أو سرعة تبدل الحال من الرخاء إلى الذل والفقر كما في قوله "إن أقررتم لهم؛ أقمتهم في ذلة الدار، قد أوطئتم الخسف، ومنعتم النصف، واستأسرتم للبلى" (٢٧٢). فسرعة الإقرار لأصحاب الفتنة ونفهمه من خلو فعل الشرط (أقررتم) من المد يستدعي سرعة التبدل إلى الذل والفقر ونفهمه من خلو جواب الشرط (أقمتهم) من المد مما يشعرنا بتوجيه المتلقي إلى نبذ الفتنة وأصحابها والاتفاق حول الدولة - حسب رأي الكاتب - لأن الإقرار للفتنة وأصحابها يؤدي إلى تبدل الحال إلى الفقر في سرعة ربما تكون آنية.

أو توجيه المتلقي إلى سرعة اتخاذ القرار، وتكوين الرأي، كإصدار الرأي بعد سرعة جمع المعلومات عمّن فجأه من ضيوفه وزائريه كما في قوله "وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طراً عليك من الوفود وأتاك من الرسل: فلا يصلنّ إليك أحدٌ منهم إلا بعد وصول علمه إليك، وعلم ما قدم له عليك وجهة ما هو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك؛ فأصدرت رأيك في حوائجه، وأجلت فكرك في أمره" (٢٧٣).

أو توجيه المتلقي إلى سرعة الهجوم إذا كان مستعداً له وأظهر العدو ضعفاً في قوله "فإن ألفيت عدوك كليل الحدّ، وقم الحزم، نضيض الوفّر؛ لم يضررك ما أعددت له من قوة، وأخذت به من حزم ولم يزدك ذلك إلا جرأة عليه، وتسرعاً إلى لقائه" (٢٧٤).

(272) السابق، ص ٢٠٠.

(273) السابق، ص ٢٢٧.

(274) السابق، ص ٢٣٩.

المبحث الثاني تكرار الصوت وتشكيل الدلالة

إن للتكرار^(٢٧٥) داخل النص إيقاع يؤدي إلى الثراء الموسيقي للنص "وذلك بإحداث أصوات بعينها تتكرر ... فتخلق في داخله جناساً صوتياً"^(٢٧٦).

وفضلاً عن الثراء الموسيقي النابع من التكرار فإن هذا الإيقاع الصوتي يلفت المتلقي إلى نواح دلالية عدة فقد "يحدث تكرار الصوت أو مشابهة إيقاعاً معيناً" وهذا الإيقاع يمكن المبدع من رسم "صورة أو يساعد به في تكوينها"^(٢٧٧).

ولأن النحو يقيم صلات ترابطية بين المفردات، فإن تكرار الصوت في هذه المفردات يقوي من هذه الصلات من ناحية، ويلفت انتباه المتلقي إلى الدلالة من ناحية أخرى، وقد يساهم في إنتاج دلالات عدة.

أول هذه الصلات النحوية الإسناد الذي يرتبط فيه المسند إليه بالمسند ارتباطاً وثيقاً، ويساهم تكرار الصوت فيهما إلى لفت انتباه المتلقي إلى الدلالة لما يحدثه من جرس موسيقي يؤثر في أذن المتلقي فيستوقفه إزاء هذه الدلالة.

ومن خلال رصد الصوت المتكرر في الجملة الاسمية وجدنا تأكيد الارتباط النحوي بين المبتدأ وخبره لتوضيح الدلالة في ذهن المتلقي.

ففي قول الكاتب مبيئاً مدى تأثر الخليفة من استهانة أحد ولاته بأحد أفراد الأسرة الأموية "وهذا جرح أمره رحيب رغب، وعليث عقده عظيم، له محل عند أمير المؤمنين"^(٢٧٨).

تكرار صوت الراء في الجملة الاسمية (أمره رحيب) والعين في (عقده عظيم) أدى إلى قوة الارتباط بين المبتدأ وخبره، وأوضح شدة الجرح واتساعه في ذهن المتلقي مما يعكس فظاعة الجرم الذي ارتكبه المتلقي في حق الخليفة، ولعل تكرار الراء في الخبر (جرح) وما بعده من نعت جملة (أمره رحيب) المتعدد الخبر (رغب) قد زاد من قوة الترابط النحوي بين الخبر وما تعلق به من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن امتداد الخبر (جرح) عن طريق متعلقاته التي تميزت بالتعقيد التركيبي قد يوحى للمتلقي بمدى التعقيد في محاولة الكاتب إزالة آثار الخطأ – الذي ارتكبه المتلقي – من نفس الخليفة، وهذا التعقيد يتطلب جهداً متكرراً – قد نفهمه من دلالة صوت الراء على التكرار – من الكاتب أو على الأقل تكرار المحاولة، وهذا الجهد من شأنه أن يزيد من المعروف أو الجميل الذي يتوق به الكاتب رقبة المتلقي.

أو تأكيد ترابط اسم الفعل الناسخ وخبره كما في قوله ناصحاً ولي العهد بالتأني في أعماله حتى في تناول الطعام والشراب "وليكن مطعمك متدعاً، وشربك أنفاساً"^(٢٧٩).

(275) عولنا في هذا المبحث كثيراً في إجراءات المنهج على الصوت والصورة، ص ٥٦ وما بعدها.

(276) مناهج نقد الشعر، ص ٣٥٠.

(277) الأسلوبية الصوتية، ص ٣١.

(278) عبد الحميد بن يحيى، ص ١٩٢.

(279) السابق، ص ٢٣٢.

تكرار العين من (مطعمك متدعًا) أكد الترابط النحوي وأفاد ضرورة الاتداع في الطعام، ولعل تلك الضرورة أن نستوحيها من دلالة الفعل الناسخ الذي صاغه الكاتب في ثوب الأمر ولا يجعل لولي العهد اختيار طريقة أخرى في الطعام، بل لا يسعه إلا الاتداع فيه، ويستتبع تناول الشراب ما ينبغي عليه أن يفعله خلال الطعام، ولعل هذا الشاهد يلفتنا إلى ملمح من ملامح تأديب الأمراء في ذلك العصر وقد اكتسب فيه الكاتب خبرة أهله إلى إعداد ولي العهد ليكون كفئاً في مكانه من الخلافة من ناحية، ومن ناحية أخرى ينفي عن ولي العهد أي عادات سيئة قد تكون منتشرة في هذا العصر.

وقد امتد هذا النوع من تأهيل ولي العهد إلى الخلافة ونفي العادات السيئة التي ربما قد تكون منتشرة في هذا العصر إلى كيفية التعبير عن سعادته أو ضجره بوسيلة لا تخل من هيئته لدى الناس. كما في قوله "وليكن ضحكك تبسماً أو كسراً...، وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك وأحواله" (٢٨٠).

تكرار (ق، ط) من (قطوبك إطراقاً) لتقوية الرابطة النحوية وتأكيد خفة القطوب عند الاستماع إلى محدثه وضرورة الالتزام بعدم إصدار صوت عند التعبير عن سعادته.

وتزداد أهمية تكرار الصوت مع تأخير خبر الفعل الناسخ في تقوية الترابط بين اسم الفعل الناسخ وخبره كما في قوله ناصحاً ولي العهد باتخاذ المشورة والرأي - من ذوي الخبرة العملية- في الأمور التي لا يستطيع تكوين رأي فيها وحده "فإن احتجت إلى مادة من عقلك، وروية من فكرك، أو انبساط من منطقك؛ كان انحيازك إلى ظهريك مزداداً مما أحببت الامتياح منه والامتيار" (٢٨١).

تكرار صوت الزاي من (كان انحيازك مزداداً) مع الفصل بـ (إلى ظهريك) لتأكيد زيادة الانحياز إلى الظهري عند الحاجة، ولعل أهمية هذا الانحياز تكمن في لفت انتباه المتلقي بأكثر من وسيلة منها تكرار صوت الزاي ذي الصفير الملفت للآذن وتأخير الخبر (مزداداً)، فتعدد تلك الوسائل في لفت انتباه المتلقي يمثل إلحاحاً عليه ليقوم بالعمل بنصيحة الكاتب.

وقوله أيضاً ناصحاً ولي العهد بتوضيح المهام الموكلة لقائد المشاة من الجنود لهذا القائد خاصة عند إنزال الجنود موضع المعسكر "وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم، مستديراً بهم، جامعاً لهم، ولا يكون منتشراً متبدداً" (٢٨٢).

تكرار صوت الضاد من (ليكن موضع ... ضاماً) مع الفصل بـ (إنزاله إياهم) لتأكيد أخذ أمر الضم بجدية ولعل طول صوت الضاد في (ضاماً) لتشديد صوت الميم بعد المد، علاوة على تأخير الخبر (ضاماً) يستوقف المتلقي بإزائها وتكون في دائرة اهتمامه ليكون ضم الجنود من أهم الأمور التي يجب على ولي العهد تنبيه قائد المشاة عليها، ولهذه الأهمية وجدنا تكرار معنى الضم في الفواصل التالية

(280) السابق، ص ٢٢٩.

(281) السابق، ص ٢٢٨.

(282) السابق، ص ٢٤٤.

(جامعاً، لا يكون منتشرًا متبدداً)، وصياغة النصيحة في ثوب الأمر (ليكن موضع)، ليكون كل ذلك بمثابة الإلحاح على ضم الجنود حتى لا يستغل العدو تفرقهم وانتشارهم.

وتزداد أهمية تكرار الصوت في زيادة الترابط بين الاسم والخبر، إذا تقدم الخبر دون سبب نحوي كما في قوله "وليكن في عسكري المكبرون بالليل والنهار قبل الواقعة، وقومٌ موقوفون يحضونهم على القتال، ويحرضونهم على عدوهم" (٢٨٣).

لفت الكاتب انتباه المتلقي بوسيلتين الأولى صوتية عن طريق تكرار صوتي الكاف والراء في خبر يكن (عسكري) واسمه المتأخر دون سبب نحوي (المكبرون)، والثانية تركيبية عن طريق استبدال اسم يكن وخبره لموقعيهما الأفقيين، وفي هذا تنبيه لولي العهد للاهتمام بوجود المكبرين قبل الواقعة ليكون الطابع الديني هو السائد على حرب الدولة ضد الخارجين عليها.

ويتكرر الصوت في أطراف الجملة الاسمية المنسوخة بحرف مع تقديم نحوي للخبر بغرض تقوية الترابط بين اسم الحرف الناسخ وخبره ولتأكيد الصلة الدلالية ولفت السامع إلى أطراف الإسناد. كما في قوله موجهاً ولي العهد إلى الحفاظ على سرية جواسيسه حتى عند استقباله لهم في المعسكر "واعلم أن لعدوك في عسكري عيوناً راصدة، وجواسيس كامنة" (٢٨٤).

تكرار صوت العين في (..أن لعدوك عيوناً) وتكرارها في الفاصل (في عسكري)، للانتباه من العيون والجواسيس وضرورة اتخاذ الحيطة عند استقبال جواسيسه هو.

وفي الجملة الفعلية بتكرار الصوت المفرد في المسند إليه والمسند يزيد الترابط النحوي قوة ويؤكد الصلة الدلالية ويلفت السامع إلى أطراف الإسناد كما في قوله ناصحاً ولي العهد باعتماد الحكمة في أموره "اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها، وأمن سرحها، وشرف عزها، وأنها لا تعار بسخف الخفة، ولا تنشأ بتفريط الغفلة" (٢٨٥).

تكرار صوت الضاد في الفعل وفاعله (تفضي مضايق) ليؤكد جدية الوصول للحكمة، ولم يكتف الكاتب بذلك، بل تكرر صوت الراء في المضاف والمضاف إليه (ركب أخطارها)، العين في المضاف والمضاف إليه (سعة عاقبتها)، الخاء والفاء في المضاف والمضاف إليه (سخف الخفة)، الفاء في المضاف والمضاف إليه (تفريط الغفلة) لتقوية أكبر عدد من الروابط النحوية بين المفردات كالفعل ومفعوله، والمضاف والمضاف إليه كما سبق، مع لفت انتباه المتلقي بتكرار أكثر من صوت ليزيد من التلازم بين المفردات المرتبطة نحويًا فيؤكد بذلك قوة الصلة بين الحكمة وسعة العاقبة وينفي ارتباطها بالخفة والغفلة. وفي قوله محددًا لولي

(283) السابق، ص ٢٦٤.

(284) السابق، ص ٢٤٢.

(285) السابق، ص ٢١٧.

العهد الصفات التي يجب أن يتميز بها الفارس ليلاحق جنود العدو ليلاً بعد الفر من الهجوم على معسكره " ... لم تمهنه الحنكة ضعفاً، ولا بلغت به السن كلاً، ولا أسكرته غرة الحداة جهلاً ولا أبطرتة نجدة الأغمار صلقاً، جريئاً على مخاطرة التلّف، مقدماً على ادّراع الموت، مكابراً لمرهوب الهول، متقحماً مخشى الحتوف، خائضاً غمرات المهالك" (٢٨٦).

تكرار صوت النون في الفعل (تمهنه) وفاعله (الحنكة) لتأكيد قوة وخبرة الفارس، ولتقوية أكبر عدد من الروابط، تكررت الراء في الفعل (أسكرته) وفاعله (غرة)، الفعل (أبطرتة) والمضاف إلى فاعله (الأغمار) من (نجدة الأغمار)، ومتعلقات الفعل كالحال والاسم المجرور من (جريئاً على مخاطرة)، (مكابراً لمرهوب الهول)، الدال من (مقدماً على ادّراع)، التاء والحاء في الحال والمضاف إلى معمولها من (متقحماً مخشى الحتوف)، والراء - بدلالتها على التكرار - توحى بتكرار تجربة الفارس مما يؤكد خبرته الطويلة في القتال بالضرورة، وقد تلفت التاء والحاء المتلقى إلى قاعدة الاقتحام الحربية التي تتم في الخفاء المماثل لقلة وضوح صوتي التاء والحاء في السمع.

ومن أوجه أهمية تكرار الأصوات أنه يزيد الروابط النحوية قوة، خاصة مع وجود تقديم وتأخير في بعض التراكيب كقوله موضحاً للمتلقى صفات جارية مطلوب شراؤها للخليفة "إن نهضت، أثقلتها أردافها، وإن تكلمت؛ تافت إليها قلوب السامعين" (٢٨٧). تكرار صوت القاف في الفعل (تافت) وفاعله (قلوب) وفصل بينهما بشبه الجملة (إليها)، وهو تأكيد لتحري الصفات المطلوبة في الجارية المزمع اشتراؤها، ويقوم تقديم شبه الجملة (إليها) بقصر توق السامع على كلام الجارية فقط دون غيرها.

وفي قوله مغبطاً أخ له لأنه يتمتع بوجود الناس حوله في ظل الوطن "وإن عرض لك عارض من سقم تكنفك الكفاة، وأحدق بك الحفدة، وساعدك اللطف من أهل التعطف عليك" (٢٨٨).

تكرار صوتي الحاء والدال في الفعل (أحدق) وفاعله (الحفدة)، وفصل بينهما بشبه الجملة (بك)، لتأكيد الراحة داخل الوطن، مما يعكس شوق عبد الحميد للوطن وهو في غربته، ومنبع هذا التأكيد قوة التلازم التي أضفاها الصوت المتكرر بين الفعل وفاعله من ناحية، وقصر إحداق الحفدة على المتلقى وحده من ناحية أخرى، وقد ألح الكاتب على تأكيد الراحة بتكرار عدة أصوات أخرى منها صوتي الكاف والفاء بين الفعل وفاعله (تكنفك الكفاة)، الطاء والفاء بين الفاعل والمضاف إلى شبه الجملة المتعلقة بالفعل (اللطف، التعطف).

وفي قوله ناصحاً ولي العهد بعدم إظهار شعوره الحقيقي تجاه من يجالسه "وإياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك، وتضجر ممن حضرك" (٢٨٩).

(286) السابق، ص ٢٦٠.

(287) السابق، ص ١٩٧.

(288) السابق، ص ٢٠٣.

تكرار الراء في الفعل (يظهر) وفاعله (تبرم)، وفصل بينهما بـ(منك)، لتأكيد البشاشة في مجالسه.

وقد ينتشر الصوت ويتعدى الفعل وفاعله إلى مضاف إليه ومفعول به كما في قوله "واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، ومما لأتهم عدوك" (٢٩٠).

تكرر صوت العين في (يعرف بعض عيونك بعضاً) وهذا الامتداد يؤكد – عن طريق إلحاح الكاتب على تكراره – قوة الترابط النحوي بين المفردات وشدة الحذر من العيون والجواسيس، وضرورة عدم معرفة كل واحد منهم للآخر.

وفي قوله أيضاً في سياق توجيه أحد الولاة لتشديد العقوبة على كل من يمارس لعبة الشطرنج "ولا يجدن أحدٌ عندك هوادة في التقصير في حق الله – عز وجل –" (٢٩١).

تكرار الدال في (لا يجدن أحد عندك هوادة) لتأكيد الشدة في حق الله الذي عبّر عنه الكاتب بالهاء الشطرنج للناس عن الصلاة، ولم يكتف الكاتب بتكرار صوت الدال الشديد الذي ربما يلفت المتلقي بشدته إلى ضرورة استعمال الشدة مع القائمين على لعب الشطرنج، فحسب بل امتدّ إلى الأسلوب المؤكد بنون التوكيد الثقيلة (لا يجدن)، ليعكس إلحاح الكاتب على المتلقي بضرورة التصميم على منع اجتماعات الشطرنج، وإذا وظفنا هذا الإلحاح بإضافة الطابع الديني الذي خلعه الكاتب على منع اللعب بالشطرنج ربما أمكننا أن نستشعر مدى قوة الفتن المسلحة في هذا العصر وكيفية محاربة الدولة لها سواء بجيش الدولة أو بقلم الكاتب فإننا نرى أن الاجتماعات في حد ذاتها هي المقصودة بالمنع وما الشطرنج إلا سبباً لهذه الاجتماعات خاصة أن لعب الشطرنج كان في المناطق التي خرجت منها الفتن المسلحة، أو بمعنى آخر ربما أحس الكاتب أن الشطرنج حجة للاجتماع والتخطيط لمناهضة الدولة (٢٩٢).

وقد يتعدى الفعل والفاعل مع الفصل أيضاً كما في قوله على لسان مروان عندما كان والياً في رسالة وجهها إلى الخليفة الوليد بن يزيد معلناً فيها بيعته

(289) السابق، ص ٢٣١.

(290) السابق، ص ٢٤٢.

(291) السابق، ص ٢٦٨.

(292) انظر ما كتبه الدكتور إحسان عباس عن أسباب منع الشطرنج في هذا العصر، عبد الحميد بن يحيى ... ص ١١٧ وما بعدها إذ نص على أن "انتشار اللعبة وزيادة عدد المقبلين عليها كان يعني خلق فرص جديدة من مجالس ومنتديات لنقد الدولة والتذاكر للحقوق المهضومة... كما كانت تلك المجالس والمنتديات مجالاً لإيجاد تكتلات جديدة، ظاهرها لعب الشطرنج، وباطنها إشاعة النعمة على الدولة وسياستها" ص ١٢٠.

للوليد "ولولا ما أحاول من سدّ الثغر الذي أنا به؛ لخفت أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين... فإنها لا يعد لها عندي عادل نعمة، وإن عظمت" (٢٩٣).
تكرار صوت العين في (لا يعدلها عندي عادل نعمة)، لتأكيد اعترافه بالنعمة وشوقه إلى الخليفة، مما يستتبع تصميمه على الموافقة على بيعة الوليد.
وقد يتكرر الصوت في الفعل المبني للمجهول ونائب فاعله في قوله "... وينلك سوء القالة في المنع وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها بريء الساحة" (٢٩٤).

تكرار الميم واللام من الفعل (حمل) ونائب فاعله (لائمة) وطول الفاصل (على كاتبك في ذلك) بينهما يؤكد دور الصوت المتكرر في تقوية الرابطة النحوية بينهما ويؤكد ضمان النتيجة في ابتعاد شبهة اللوم عنه، وربما يوحي اختفاء الفاعل من (حمل) بعدم ظهور ولي العهد في موقف اللوم مما لا يؤثر في شعبيته لدى الناس.

وترتبط المفردات في الجملة الفعلية بروابط فيما بينها تكون في الغالب بين الفعل أو فاعله ولتكرار صوت ما في الفعل وما يتعلق به في الجملة الفعلية تأكيد للدلالة، وتقوية للرابطة النحوي بينهما، وإضفاء ثراء صوتي قد ينتج عنه دلالة موازية ربما يعمل الصوت المتكرر على كشفها، وتقريبها إلى ذهن المتلقي عن طريق لفت انتباهه.

وتتعدد الروابط النحوية بين الفعل ومفردات الجملة الفعلية، كالفعل والمفعول به في قوله موجهاً ولي العهد إلى تقوية إيمانه بتلاوة القرآن والتدبر في آياته "وأن تقرأ من كتاب الله - عز وجل جزءاً تردد رأيك في أدبه" (٢٩٥).
تكرار الراء في الفعل (تردد) والمفعول به (رأيك) لتقوية الرابطة النحوية، وتأكيد أعمال الفكر خلال قراءة القرآن الذي نفهمه من صوت الراء ذي الدلالة التكرارية التي توحى بتكرار ترديد الرأي للوقوف على مراد الله في كتابه العزيز.
وقد تمتد تقوية الروابط إلى المفعول به والمضاف إليه كما في قوله موضحاً لولي العهد نتيجة تقوية الأحراس ومراعاة نشاطها دائماً "فإذا راموا ذلك منك كنت قد أحكمت ذلك، وأخذت بالجد فيه، وتقدمت في الإعداد له، ورتقت مخوف الفتق منه" (٢٩٦).

فقد تأكد الترابط بين الفعل والمفعول به (المضاف) والمضاف إليه بتكرار الفاء والقاف في المضاف إليه (الفتق)، أحدهما في الفعل (رتقت)، الآخر في المفعول به (المضاف)، (مخوف)، وهذا التكرار يلفت انتباه المتلقي إلى أهمية تقوية الأحراس عن طريق استيقافه إزاء تلك المفردات التي أثرت الأصوات المتكررة فيها في أذنه.

(293) السابق، ص ٢٩٩.

(294) السابق، ص ٢٢٧.

(295) السابق، ص ٢١٩.

(296) السابق، ص ٢٥٧.

وقد يتكرر الصوت بين الفعل ومفعوله محدثاً جرساً موسيقياً كما في قوله ناصحاً ولي العهد باعتماد بعض القيم الأخلاقية في حياته ليكون مؤهلاً لمنصبه في الدولة "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرّك بالكتمان، وتداري جندك بالإحسان، وتداوى حقدك بالإنصاف" (٢٩٧).

تكرار صوت الدال في الفطين (تداري، تداوى)، ومفعوليهما (جندك، حقدك) أحدث جرساً لا يقل عن جرس الجناس، مع تأكيد الروابط النحوية. إضافة إلى الجرس الموسيقي الذي أحدثه تكرار صوتي الكاف والميم في (تملك أمورك، الكتمان)، وتكرار صوت النون في (جندك، الإحسان، الكتمان). وهذا الجرس الموسيقي النابع من تكرار الأصوات ربما يلفتنا إلى تهيئة الكاتب لولي العهد لقبول تلك النصائح عن طريق ألفة أذنه للجرس الموسيقي النابع من تكرار الأصوات.

وقد يمتد الصوت من الفعل ومفعوله إلى الاسم بين هذه المكونات التركيبية كما في قوله في سياق عتاب صديق له "وأعلقت قلبي من مقتك ما ولهت له نفسي، وصبت إليه" (٢٩٨).

تكرار صوت القاف في (أعلقت قلبي من مقتك) لفت انتباه المتلقي لشدة تعلق القلب بمحبة صديقه، مما يؤكد دلالة عدم الاستغناء عن صاحبه ويكون الجرس الموسيقي النابع من تكرار صوت القاف إرهاباً لإزالة ما قد يحدثه العتاب في نفس المتلقي.

وفي قوله موضحاً لولي العهد كيفية استمالة فرسان العدو إلى جانبه في الحرب "... وضع عنهم الإحن، واقطع أعناقهم بالمطامع، واستدعهم بالمشاوب، واملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر" (٢٩٩).

تكرار صوت العين في (اقطع أعناقهم بالمطامع)، مع الطاء من (اقطع بالمطامع)، والقاف من (اقطع أعناقهم) زاد من قوة الترابط بين الفعل والمفعول وشبه الجملة وولفت الانتباه إلى أهمية المطامع كسلاح في إنزال طاعة الخارجين على الدولة.

وتزداد أهمية تكرار الصوت مع تأخير المفعول به كما في قوله مبرزاً لولي العهد نتائج الإشراف على تجهيز الجنود للقتال بنفسه، ومنها إعدادهم للمحافظة على المعسكر من هجوم الأعداء عن طريق تشديد الحراسة "ومن يكن في البأس والثقة ... حيث وصفت لك وأمرت بك به، يضع عنك مؤونة الهم، ويرخ من خناقك روع الخوف، وتلتجئ إلى أمر متين" (٣٠٠).

تكرار صوت الخاء في (يرخ من خناقك روع الخوف) أكد الترابط بين الفعل ومفعوله وشبه الجملة ويضفي الأهمية على تشديد الحراسة، ويربط بين توفير الأمان له وهذا التشديد ويجعل العلاقة بينهما تلازمية لا يمكن الفصل بينهما.

(297) السابق، ص ٢٢١.

(298) السابق، ص ١٩٢.

(299) السابق، ص ٢٦٣.

(300) السابق، ص ٢٤٩.

وقد يمتد الصوت المتكرر فيتجاوز المفعول به وشبه الجملة المتعلقة إلى مضاف إليه والمفعول به هو المضاف كما في قوله محددًا لولي العهد كيفية معرفة مكان العدو في معسكره عندما يهجم عليه ليلاً "... وليكبّروا ثلاث تكبيرات متواليات، وسائر الجند هادون؛ لتعرف موضع عدوك من معسكرك" (٣٠١).

تكرار صوت العين في (لتعرف موضع عدوك من معسكرك) زاد من قوة الترابط النحوي بين المفردات ولفت انتباه المتلقي إلى مغزى الإشارة بالتكبيرات الثلاث، فكما اعتمد الكاتب في الإشارة إلى مكان العدو على وسيلة صوتية هي إصدار التكبيرات، اعتمد أيضًا على تنبيه المتلقي على الاهتمام بها بوسيلة صوتية هي تكرار صوت العين الذي أحدث جرسًا موسيقيًا تستشعره الأذن وتستوقف المتلقي ليتنبه لمغزى الاعتماد على الوسيلة الصوتية المتمثلة في التكبير لأن الوسيلة البصرية لا تصلح في الليل زمن هجوم العدو على معسكره.

وتزداد أهمية الصوت المتكرر في الفعل والمفعول به في تقوية الرابطة النحوية القائمة بين هذه المكونات التركيبية، إذا فصل بينها بشبه جملة - على الأقل - كما في قوله ناصحًا ولي العهد بجمع المعلومات عن الزائر قبل أن يدخل عليه مجلسه "فلا يصلنّ إليك أحدٌ منهم إلا بعد وصول علمه إليك ... فرفعت عنك مؤونة البديهة، وأرخيت عن نفسك خناق الروية، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر، وإجالة الفكر فيه" (٣٠٢).

تكرار صوت الخاء في الفعل (أرخيت)، والمفعول به (خناق الروية) وفصل بينهما بشبه جملة ومضاف إليه (عن نفسك)، فضلاً عن تكرار الراء في (أرخيت الروية)، وتتجلى في ذهن المتلقي دلالة ضمان الرأي الصائب في إجابة الوافدين. وفي قوله أيضًا شارحًا لولي العهد كيفية اختلاف أخبار كل جاسوس له عن غيره من الجواسيس حتى لا يسيء الظن بأحدهم "... أو خرج جاسوسك الأول متقدمًا قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمرًا، وحاولوا لك مكيدة، وأرادوا منك غرة؛ فاز دلفوا إليك في الأهبة، ثم انتقض بهم رأيهم" (٣٠٣).

تكرار الراء والميم في (أبرموا لك أمرًا)، وفصل بينهما بجار ومجرور، وتكرار الراء في (أرادوا منك غرة) وفصل بينهما بجار ومجرور، وهو تأكيد لعقد العدو النية في الحرب والمكيدة، وهذا التأكيد ربما يعطي لولي العهد مبررًا لقبول رواية الجاسوس التي اعتبرها ولي العهد غير صحيحة.

وقوله أيضًا عن طغيان نهر الفرات وما أحدثه من دمار "ولا يتحدّر منصبًا إلاّ أبقى به أخاقيق ومستنّ رقراق" (٣٠٤).

تكرار صوت القاف في (أبقى به أخاقيق)، وفصل بينهما بجار ومجرور، وقد ألحّ الكاتب على تكرار صوت القاف فكرره في نعت المعطوف على المفعول به

(301) السابق، ص ٢٥٨.

(302) السابق، ص ٢٢٧.

(303) السابق، ص ٢٤٠.

(304) السابق، ص ١٩٦.

(رقرق)، ليؤثر في أذن السامع بشدته ليوحي للمتلقى بشدة الدمار الذي أحدثه النهر.

وقد يمتد الصوت عبر المضاف والمفعول به كما في قوله موضحاً لولي العهد نتائج مراعاته واهتمامه بقواد الجيش "... قد بلوت منه أمانة تسكنك إليه وصرامة تؤمنك مهانتة، ونفاذاً في أمرك يرخي عنك خناق الخوف" (٣٠٥). تكرار صوت الخاء في الفعل والمفعول به (مضاف) والمضاف إليه، وفصل بين الفعل والمفعول به بجار ومجرور (يرخي عنك خناق الخوف)، وهو ما يؤكد النتيجة المضمونة للأمان الذي ينشده نتيجة المعاملة الحسنة لقواد الجيش فيجهدوا أنفسهم في توفير الأمان له.

ويمتد الصوت المتكرر في الفعل وشبه الجملة المتعلقة به دون فصل لتقوية الرابطة ولفت انتباه المتلقى إلى الدلالة كما في قوله مصوراً طغيان النهر "وافى كتابك أمير المؤمنين وموار الفرات يجيش بأرجائه، مطلخمة أمواجه، متزايلاً في حجراته، أذيه صخب، وغطامطه لجب وعلوه متوال يساور الجبال" (٣٠٦).

تكرار صوت الجيم في (يجيش بأرجائه) جعله مساهماً في توضيح وتجسيد حركة النهر في ذهن المتلقى، وانتشار صوت الجيم عموماً. لما له من دلالة على القوة والشدة - يساهم في تصوير شدة الدمار، ولعل لفت انتباه المتلقى كان محولاً للتأثير في الأذن بصوت الجيم المتكرر إلى التأثير على العين لتمثل صورة النهر. وتزداد أهمية تقوية الرابطة النحوية بين الفعل وشبه الجملة المتعلقة به عندما تتقدم شبه الجملة على الفعل المتعلقة به كما في قوله في سياق حديثه للكتاب "ويسأل الله الذي بقدرته حتم إنشاء خلقه، وعزة سلطانه، وبعده جعل العاقبة للمؤمنين، أن يحسن لكم وإيكم" (٣٠٧).

تكرار العين في (بعده جعل العاقبة) لتقوية الرابطة النحوية، ويقرب أهمية العدل في أذهان المتلقين ويضعه التقديم في دائرة اهتمامهم ليكون العدل نهجهم في الحياة، وجاء التكرار الصوتي فضلاً عن تقوية الروابط ليلفت انتباه المتلقى ويستوقفه بإزاء (بعده) الذي احتلّ موقعاً مهماً في الفاصلة وهو أولها.

وقد يتكرر الصوت المفرد بين الفعل والحال ويقوى الرابطة النحوية بينهما كما في قوله في سياق حث المتلقين على مناهضة الخارجين على الدولة "فاستعينوا بالصبر مستوجبين له بصحة نياتكم" (٣٠٨).

تكرار صوت السين في الفعل والحال من الفاعلين (استعينوا مستوجبين)، وقد أكد التكرار الاستعانة بالصبر بصحة نية.

وقوله في نفس السياق "فإن الفتنة تستشرف بأهلها... فإذا لزمهم عضاضها، ونفر بهم شماسها؛ تخلت عنهم خاذلة، وتبرأت منهم معرضة" (٣٠٩).

(305) السابق، ص ٢٥٣.

(306) السابق، ص ١٩٦.

(307) السابق، ص ٢٠١.

(308) السابق، ص ٢٠٠.

تكرار الخاء واللام في الفعل والحال من الفاعل (تخلت خاذلة) والراء في الفعل والحال من الفاعل (تبرأت معرضة) مما زاد من قوة الروابط النحوية، وأوضح للمتلقى هيئة الفتنة الخادعة، وربما كان تكرار الأصوات مساعداً في قيام الحاليين (خاذلة، معرضة) بتوكيد تخلي الفتنة عن الخارجين على الدولة وتبرأها منهم.

وقريب من ذلك في قوله في سياق الإخاء "ثم أنهد البناء حريز التواصل، وشيّد مستعذب العشرة؛ فادّعم قوياً وصفاً مونقاً، وأخلصته المقّة منعطفة، وسكنت له القلوب أنيسة، وسمت من مواصلته الهمم مستعلية عن كل زائغ معتاق" (٣١٠).

تكرار السين والنون في الفعل والحال من الفاعل (سكنت أنيسة)، والسين في (سمت مستعلية) لفت انتباه المتلقى إلى الدلالة، فيخرج بهيئة واضحة للقلوب والهمم في سعادتها وراحتها من الإخاء، فدلالة توفير الإخاء للراحة والسعادة يكتسبها المتلقى بالتأني عندما تتأثر أذنه بصفير السين الضعيف وصوت النون الواضح.

وفي قوله ناصحاً ولي العهد باعتماد بعض التصرفات الأخلاقية والتخلي عن البعض الآخر "وإياك والتسرع في الإطراق والخفة في تصاريف النظر، والإلاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقاً بنظره" (٣١١).

تكرار صوت القاف في الفعل والحال من الفاعل المستتر (قصد رامقاً)، ولطول الفاصل بينهما تأكد دور القاف المتكررة في تقوية الروابط النحوية بين الفعل والحال وخرج المتلقى بهيئة واضحة لمن يرمق ولي العهد بنظره ملحاً. ويربط الصوت المفرد بين ما يقوم مقام الفعل وشبه الجملة المتعلقة به فيزيد من تلازمهما في النص ويعبر عن ذلك العين والزاي المتكرران في اسم الفاعل وشبه الجملة في قوله عن توضيح واجبات قائد الشرطة لولي العهد "وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترتحل عنه ... والتتبع لمن تخلف عنك به، مشتداً في أهل المنزل، وساكنه بالتقدم موعزاً إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم" (٣١٢).

الأصوات المتكررة قوت الرابطة بين (موعزاً، إزعاج)، وأوضحت هيئة الإيعاز في إخراج من تخلف من الجند عن الجيش، ولعل أزيز الزاي المرتفع يقلق الأذن فتناسب الدلالة المعجمية للإزعاج.

ويقوى الصوت المفرد المتكرر في اسم الفاعل ومفعوله الترابط بينهما، وقد يوضح هيئة الحدث كقوله "فأنفها عن نفسك خائفاً لاعتلاقها ذكرك واحجبها عن رويتك، قاطعاً أطماع أوليائك عن مثلها" (٣١٣).

(309) السابق، ص ٢١٣.

(310) السابق، ص ٢٧٦.

(311) السابق، ص ٢٣٠.

(312) السابق، ص ٢٥٤.

(313) السابق، ص ٢٣١.

فتكرار الطاء والعين في (قاطعاً أطماع) يوضح هيئة قطع الأطماع، وقوة القطع أمام نظر المتلقي الذي يتحول عن تأثير تكرار الأصوات في أذن المتلقي. وتزداد أهمية الصوت المفرد المتكرر في تقوية الترابط النحوي بين اسم الفاعل وما ينصبه من مفعول به إذا فصل بينهما بفصل، وتزداد أهمية بطول الفاصل كما في قوله موضحاً أعمال الخارجين على الدولة المضرة بالناس "يدعو إلى المعصية والفرقة، والمروق من الدين إلى الفتنة، مخترعاً بهواه للأديان المنتحلة، والبدع المتفرقة خساراً وتخسيراً، وضلالاً وتضليلاً بغير هدى من الله ولا بيان" (٣١٤).

تكرار الخاء والراء في (مخترعاً، خساراً وتخسيراً) وفصل بينهما بجار ومجرور ومضاف إليه (بهواه)، ثم جار ومجرور ونعت (للأديان المنتحلة)، ثم معطوف ونعت (البدع المتفرقة) فقام التكرار بتقوية الترابط بينهما، ولفت انتباه المتلقي إلى ضرورة فاعلية مقاومة الخارجين على الدولة المنعكسة عن اسم الفاعل (مخترعاً) لتكون هذه الفاعلية مقابلة لفاعلية زعيم الخارجين، وكل هذا لردع الخارجين على الدولة عن طريق توضيح ما ارتكبه من آثام.

• الشكل التالي من أشكال الصلات النحوية بين المفردات التي تكرر الصوت فيها ليقوى الترابط النحوي هو العطف.

ويرتبط المتعاطفان بصلات دلالية تظهر بشكل أوضح للمتلقي بفضل الصوت المتكرر في المتعاطفين، ففي سياق العطف بين متجاورين تربطهما صلة التقابل الدلالي يأتي الصوت المفرد المتكرر لتأكيد صلة التقابل وينشأ عن هذا الشكل جدلية الاجتماع والافتراق فتجاور المتعاطفين وجمعت الواو بينهما علاوة على تكرار الصوت في المتعاطفين يعد اجتماعاً، أما تقابل المتعاطفين دلاليًا فيعد افتراقاً، وتلك الجدلية تكسب النص ثراءً صوتياً ودلاليًا كما في قوله محذراً ولي العهد من سيطرة العوامل الخارجية على أعماله "احذر تضييع رأيك وإهمال أدبك في مسالك الرضى والغضب، واعتوارهما إياك" (٣١٥).

تكرر صوت الضاد في المعطوف عليه والمعطوف (الرضا والغضب) المتقابلين دلاليًا، وأكد التكرار دلالة التقابل بينهما من ناحية، ومن ناحية أخرى وجدنا مساهمة الصوت المتكرر في تعميق جدلية الاجتماع والافتراق بين الرضا والغضب الذي كان الفضل للواو الجامعة بينهما بالرغم من التقابل الدلالي بينهما، وهذا التعميق نشأ عن رفع درجة المشابهة بينهما صوتياً عن طريق تكرار صوت الضاد، ونتج عن ذلك كله دلالة الحذر من سيطرة أي عامل خارجي عليه في كل الأحوال.

وتكرار الصوت المفرد في رسائل عبد الحميد ينبع من وعي وقصد من الكاتب فيمثل بتكراره وسيلة صوتية يلفت بها المتلقي إلى الدلالة كدلالة الشمول، ليس هذا فحسب بل ويؤكد لنا عن طريق كثرة المتعاطفات المتقابلة التي يتخللها

(314) السابق، ص ٢٣٦.

(315) السابق، ص ٢٢٨.

أصوات متكررة كما في نصائح لفئة الكتاب. "فابذلوا - وفقكم الله - ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة، والإحسان والإساءة، والغضب والرضى، والسراء والضراء" (٣١٦).

تكررت أصوات (م، س، ض، ر) على التوالي في أربع أزواج من المتعاطفات، تربط كل زوج صلة التقابل الدلالي، فيخرج المتلقي مقتنعا يتمكن عبد الحميد من أدوات اللغوية من جهة، ومن جهة أخرى يلفت الصوت المتكرر في كل زوج من المتعاطفات المتقابلة المتلقى إلى دلالة الشمول التي يؤكد بها بكثرة المتعاطفات التي تخللها صوت متكرر في كل زوج والشمول هنا للعمل بإخلاص في الأحوال المختلفة، فلا يكون الإخلاص في حال دون أخرى.

وتتجلى حركة الرفع والوضع أمام المتلقي في قوله على لسان مروان مهتئا الوليد بن يزيد بالخلافة دون غيره من الطامعين فيها "فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته، ووثائق عرى دينه، وذبا له عما كاده فيه الظالمون فرفعه، ووضعهم" (٣١٧).

تكرار صوت العين في الفعلين المتعاطفين المتقابلين (رفع، وضع)، ولأن الخليفة وضع وحده بإزاء جمع الظالمين كانت حاجة الكاتب للتكرار ليؤكد قدرة الله في نصر الخليفة على الظالمين، مع حركة الرفع القوية له، والوضع لهم، التي ساعدت العين بقوتها في صبغ الدلالة بذلك، ولعل تكرارها إشارة إلى كون الفعلان تجليا لمظهر واحد هو قدرة الله الذي يرفع من يشاء ويضع من يشاء.

• ويلفت الصوت المتكرر بين المتعاطفين المتلقى إلى الصلة الدلالة بينهما عن طريق التأثير في الأذن في تلقيها للصوت أكثر من مرة في مفردات متجاورة ويجمعها العطف، كصلة التخالف الدلالي في قوله في آخر رسائله يرثي حاله "أما بعد، فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها" (٣١٨).

صوت الراء في (الكره والسرور) ذو الطبيعة التكرارية يلفت المتلقي ويستوقفه ليتأمل العلاقة بين الكره والسرور ومن ثم تتأكد لديه صلة التخالف بينهما ويقتنع بصدق رؤية الكاتب تجاه خلق الله للدنيا حاوية للمتخالفات والمتناقضات ويفكر في حكمة الله بهذا الخلق، ولعل تلك الرؤية تكشف عن مدى الضيق النفسي الذي أصاب الكاتب من تبدل أحوال الدنيا من النعيم والسلطة إلى الهروب والفقر وذل الاغتراب.

وقد يلفت تكرار الصوت في المتعاطفين المتخالفين دلالياً المتلقى إلى دلالة الشمول والعموم كما في قوله معبرا عن سلامة كل الحجيج وصدق نيتهم خلال حج

(316) السابق، ص ٢٨٤.

(317) السابق، ص ٢٩٨.

(318) السابق، ص ٢٧٨.

الخليفة هشام بن عبد الملك الأخير "ولم يسمع أمير المؤمنين، ومن رزقه الله حضوره بحج قط كان أسلم ركباً وراجلاً وأشدّ اجتهاداً منه" (٣١٩).

تكرار الراء في المتعاطفين المتخالفين (راكباً وراجلاً)، وتكرار الشين والذال في المتعاطفين بعدهما (أحشد وأشد) وهو تأكيد نية الكاتب في تكرار الصوت في المتعاطفين من ناحية، ومن ناحية أخرى يلفت المتلقي عن طريق الجرس الموسيقى إلى شمول سلامة كل الحجيج وعموم الاجتهاد لنيل رضا الله، وربما يعكس هذا الشمول إظهار الكاتب للخليفة بطابع ديني تحل بركته على الحجيج.

وقد يلفت الصوت المتكرر بين المتعاطفين المتلقي إلى صلة التواؤم وتجليتها في ذهن المتلقي، كتكرار الشين في المشاهد والمشاعر من قوله في السياق ذاته "أما بعد فإن الله بحمده ونعمته لم يزل يهدي أمير المؤمنين فيما توجه له من حج بيته، وحضور مشاهده ومشاعره" (٣٢٠).

والكاف في المساكين والحوكة من قوله مهدداً زعيم الخارجين على الدولة "فتأهب لذلك أهبتك، واخطب له خطبتك من المساكين والحوكة ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون" (٣٢١).

وفي لفت انتباه المتلقي إلى التواؤم الدلالي بين المساكين والحوكة الذين يمثلون جنوده وفرسانه إظهار لدلالة المشابهة بينهم إذ قد توحى المشابهة باجتماع كل جنوده على صفة واحدة ألا وهي المسكنة والضعف العام وقد ألح الكاتب على هذا التشابه بالتمثيل الدلالي والتجاور والجمع بين المتعاطفين وآخرهم التشابه الصوتي بتكرار الكاف فيهما وفي هذا الإلحاح إبراز لثقة الكاتب والدولة في قوة جنودهما وضعف جنود المتلقي مما يغذي نبرة التهديد التي قد تؤثر فيه.

• ولتكرار الصوت في سياق العطف بين غير المتجاورين أهمية في تقوية الرابط النحوي بين المتعاطفين تزيد على تلك بين المتجاورين.

فالصوت المتكرر في المعطوف يلفت انتباه المتلقي إلى تبعيته النحوية والدلالية للمعطوف عليه، ولو كان مع الفصل بينهما؛ إذ يفضي التجاور من حيث هو إلى تأكيد صلة العطف وإبرازها، أما إذا تباعد طرفا العطف ففي التكرار ما يبرز هذه الصلة ويلفت انتباه المتلقي إليها. كلفت انتباه المتلقي إلى صلة التقابل الدلالي بين المتعاطفين، علاوة على ما يحدثه من تعميق لجذلية التشابه والتخالف، إذ يفضي تكرار الصوت بين المتعاطفين إلى رفع درجة التشابه بينهما علاوة على الجمع بالواو بينهما، ويمثل الفصل بين المتعاطفين مع التقابل الدلالي بينهما إلى رفع درجة المخالفة بينهما، وفي هذا التعميق الذي قام فيه الصوت المتكرر بدور رئيس ربط من خلاله بين المتناقضين ثراءً دلالي يستشعره المتلقي. ففي قوله ناصحاً ولي العهد بعدم إظهار الشعور الحقيقي في كل الأحوال حتى في أبسط

(319) السابق، ص ٢٠٦.

(320) السابق، ص ٢٠٥.

(321) السابق، ص ٢١٤.

الأمور التي قد يستهين بها البعض "واملك نفسك عن الانبساط في الضحك، والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتتخله" (٣٢٢).

تكرار أصوات الطاء والضاد والباء في (انبساط الضحك، قطوب الغضب)، مع الفصل بين الانبساط والقطوب، وهي من الأصوات الشديدة، وقد أوجدت تلك الأصوات رابطاً صوتياً بتكرارها رفع من درجة التشابه بين الانبساط والقطوب، والضحك والغضب برغم التقابل الدلالي بين كل زوج، ولعله يلفت المتلقي إلى هذا التشابه من حيث ضرر إظهار كل منهما على المتلقي إذ فيه ضياع لهيبته أمام العامة أو الخاصة من الناس. ولأهمية ما يوجه الكاتب إليه ولي العهد فقد كثف الأصوات المتكررة لتكون منبهات صوتية تساعد صياغة النصيحة في قالب الأمر (املك) الذي يوجب عليه تقبل النصيحة وتنفيذها حتى لا يفقد هييبته ويكون كفوًا لمنصبه في الدولة أما التقابل الدلالي فيضفي دلالة الشمول في ملك النفس تجاه الأشياء للحفاظ على هييبته.

وقد تكون الصلة الدلالية بين المتعاطفين التخالف وقد تكرر الصوت فيهما مع الانفصال كما في قوله مظهرًا أهمية المتلقي عند الخليفة بعد معاتبة الخليفة له ليذيل آثار العتاب "وأنت عين أمير المؤمنين وجفته، والناظر له، والجار إليه" (٣٢٣). تكرار صوت النون في (عين، جفن)، والعين مخالف للجفن رغم تلازمهما في ذهن المتلقي وفصل بينهما زوج من المضاف إليه (أمير المؤمنين) وتكرار صوت الراء في (الناظر، الجار)، وفصل بينهما بجار ومجرور (له)، وتتجلى للمتلقي دلالة أهمية الوالي للخليفة، وتأكيد حاجته إليه رغم ما فعله بأحد أفراد البيت الأموي من سوء، ولعل تلك الأهمية تلوح لنا من تلازم العين للجفن، ذلك التلازم الذي قد يوحي بضرورة ملازمة الوالي (المتلقي) للخليفة، وشكل العلاقة بينهما كضرورة الجفن الحارس للعين من الأذى.

ويتكرر الصوت في المتعاطفين غير المتجاورين ليلفت انتباه المتلقي مبرزًا صلة التواؤم الدلالي بينهما. ففي نصائحه لولي العهد يوجهه الكاتب إلى السيطرة على نفسه ضد الأهواء التي عبر عنها بالعدو لأنها قد تضر بمكانته في الدولة أو تقلص من شعبيته يقول عبد الحميد "واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك؛ لأنها خدع إبليس، وخواتل مكره ومسايد مكيدته" (٣٢٤).

تكرار صوت الخاء في المتماثلين دلاليًا (خدع وخواتل) وفصل بينهما بمضاف إليه (إبليس)، أوضح شدة ضرر اتباع الأهواء، وتمائلها لخدع إبليس وخواتله، وقد تكررت أصوات الكاف والميم في (مكره، مكيدته)، والبدال والميم في (مسايد مكيدته)، ونرى في هذا التكرار إلحاح على تشابه أفعال إبليس مما يوحي بقوة تلازم هذه الأفعال، وهذا الإيحاء بقوة تلازمها يدعو ولي العهد إلى التصميم على مجاهدتها بقوة مماثلة.

(322) السابق، ص ٢٢٩.

(323) السابق، ص ١٩١.

(324) السابق، ص ٢١٩.

وقوله مبرزاً دور جامعي الجند الفارين أو المتخلفين من الجنود "اجعل خلف ساقئك رجلاً... يحشر إليك جندك ويلحق بك من يتخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم والنهك لهم، والتتكيل بهم"^(٣٢٥).

النهك متمثل دلاليًا مع التتكيل، وتكرر فيهما صوتا النون والكاف، وفصل بين المتعاطفين بجار ومجرور (لهم)، يلفت الصوت المتكرر في المتعاطفين غير المتجاورين المتمثلين دلاليًا، انتباه المتلقي إلى أهمية جامعي الجند في معاقبة المتخلفين عن الجيش.

ويمثل لفت انتباه ولي العهد بالأصوات المتكررة ليس أهمية جامعي الجند فحسب بل لفتاً له إلى اقتصار دور هؤلاء الجند على جمع المتخلفين من الجند ونفهمه من شبه الجملة التي فصلت بين النهك والتتكيل (لهم)، أي دورهم مقتصر على الجمع دون أي عمل آخر في المعسكر حتى يتفرغوا لجمع المتخلفين من الجند، وفي هذا القصر إبراز لأهمية جمع المتخلفين ربما لتعظيم الضرر من تخلفهم للتأثير في عدد الجيش، أو ربما الانضمام للعدو وإفشاء أسرار ولي العهد له.

ويتكرر الصوت المفرد في الأفعال القائمة بينها علاقة العطف فيقوى صلة العطف بينهما، ويلفت المتلقي إلى الصلة الدلالية القائمة بينهما وإلى الدلالة أيضاً حتى تتوضح في ذهنه كصلة التماثل الدلالي في قوله في رسالته لأخ له معبراً عن فرحته بمولود له "أما بعد، فإني ما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بمزيتها، وأصفيت بخصيصاها كانت أسرى من هبة الله لي ولداً سميته فلاناً"^(٣٢٦).

تكرار صوت الصاد في (خصصت، أصفيت) وامتدّ لـ (بخصيصاها)، وفصل بينهما بجار ومجرور ومضاف إليه (بمزيتها)، فزادت أهمية الصوت المتكرر في تقوية الرابطة النحوية (العطف)، والرابطة الدلالية (التماثل)، وانكشف للمتلقي مدى فرحة عبد الحميد بمولود له عبر الإلحاح على دلالة الخص والاصطفاء وقد كان الصوت المتكرر من عوامل هذا الإلحاح.

ومثله قوله معبراً عن همومه وشقائه في الغربة مقابل راحة أخيه في الوطن لأنه لم يطعم في أكثر من ذلك "أما بعد، فإن من صغرت رغبته، وقصرت حاجته؛ أراح بدنه، ولازم أحبابه، وصان وجهه"^(٣٢٧).

تكرار صوتي الصاد والراء في الفعلين المتعاطفين المتمثلين دلاليًا (صغرت وقصرت)، وفصل بينهما بمفعول به ومضاف إليه (رغبته)، وقد كان التكرار بمثابة المؤكد لرؤية الكاتب إذ رفع التكرار من درجة تشابه الفعلين بجانب الجمع بالواو والاتحاد الصرفي والتواؤم الدلالي وتتمثل رؤية الكاتب في راحة كل من لازم الوطن ولم يغترب عنه مهما كانت الظروف، وهذا التأكيد لرؤية الكاتب ربما يكون تنبيهاً للمتلقي بعدم الاغتراب عن الوطن طمعاً في المزيد من ناحية، ومن ناحية أخرى يعكس مدى الضيق الذي لحق بالكاتب في اغترابه ولهذا فقد صاغ الكاتب

(325) السابق، ص ٢٥٤.

(326) السابق، ص ٢٠١.

(327) السابق، ص ٢٠٣.

رؤيته في قالب مؤكد بـ (إن) ودلالة الشرط على تلازم الجواب لفعل الشرط، وقد كان الفاصل (رغبته) ملفتاً لانتباه المتلقي إلى أن الرغبة هي المحرك للإنسان ليغترب عن وطنه وإذا قصرت الرغبة مكث في الوطن ليصون نفسه من مذلة الغربة.

وقوله في آخر رسائله معبراً عن تبدل أحوال الدنيا به من راحة ونعيم في ظل الوطن إلى شقاء وفقر في الغربة خلال هروبه من العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية "وقد كانت الدنيا أذاقتنا... فمَرَقَتْنَا عن الأوطان وقطعتنا عن الأخوان، فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة" (٣٢٨).

تكرار صوت القاف في الفعلين المتعاطفين المتوائمين (مَرَقَتْنَا، قَطَعَتْنَا) غير المتجاورين يوضح للمتلقي دور الدنيا في شقاء عبد الحميد، مع توضيح شدة هذا الشقاء ومن اللافت تكرار الكاتب لصوت بعينه هو صوت الراء في (مَرَقَتْنَا، دارنا، طيرنا بارحة) وقد ارتبط هذا التكرار بالشؤم مما يعكس حال الكاتب من الشؤم واليأس من رجوع أحوال الدنيا إلى ما كانت عليه من نعيم وراحة وأمان قبل سقوط الدولة الأموية.

ويتكرر الصوت المفرد في سياق النعت فيقوى الترابط بين المنعوت ونعته، ويلفت الجرس الموسيقي النابع من تكرار الصوت انتباه المتلقي فيكون الصوت المتكرر منبهاً للصلة الدلالية بين المنعوت ونعته مما يجعل المتلقي يتمثل الدلالة على نحو أعمق كما في قوله عن الأخذ بالرأي عند الحاجة "فإياك والإقبال عليه في كل حادث ... أو أن تريه، أو أحداً من أهل مجلسك أن بك إليه حاجة موحشة" (٣٢٩).

تكرار صوت الحاء في النعت ومنعوته (حاجة موحشة) زاد من قوة الارتباط بينهما، واستوقف المتلقي ليعمل فكره في النص، فتتجلى له أهمية الأخذ بالرأي سرّاً، مع التشديد على ذلك، ولعل الحاء المهموسة بصوتها الخافت ملائمة للكلام سرّاً، ولم يكن الصوت المتكرر الملفت الوحيد لانتباه المتلقي، بل بتأخير اسم إن ونعته (حاجة موحشة) ليضعهما في دائرة اهتمام المتلقي، وفي هذا تكثيف للمنبهات الأسلوبية يلائم صياغة النصيحة في أسلوب التحذير (فإياك) ليكون على المتلقي الأخذ بالنصيحة كاملة ويتحرى الدقة في الأخذ برأي الآخرين دون تأثر هيئته لدى الناس وحدد الكاتب ذلك بالإسرار في الأخذ بالرأي.

وفي قوله في النهي عن لعب الشطرنج "وعلم أن الشيطان عندما ينس من بلوغ إرادته في معاصي الله - عز وجل - بمصر المسلمين، ومجمعهم صراحاً وجهاراً أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزين لهم ورطة موبقة" (٣٣٠).

تكرار صوت الهاء في (شبهة مهلكة)، زاد من قوة الاتصال بينهما، وأوضح للمتلقي مدى ضرر الشطرنج - تصل لحد الهلاك - على المسلمين،

(328) السابق، ص ٢٧٩.

(329) السابق، ص ٢٣٠.

(330) السابق، ص ٢٦٧.

وساعدت الهاء – المشعرة بالامتداد – بالإيحاء بامتداد الضرر في جوانب حياتهم المختلفة، التي ذكرت بعد ذلك، وبجانب هذا الامتداد فإن الهاء صوت حلقي مهموس مشعر بجرسه ببعد سلبي لافت يلائم غاية تحذير المتلقي من مغبة لعب الشطرنج.

وقد يتكرر الصوت المفرد في أكثر من نعت؛ فيقوى دلالة التلازم والترابط كما في قوله موضحاً لولي العهد الصفات الواجب توافرها في قائد المشاة من الجند "ومره فليولّ عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جريء الإقدام، ذاكى الصرامة، جلد الجوارح بصيراً بموضع أحراسه"⁽³³¹⁾.

تكرر صوت الراء في (رجلاً ركيناً مجرباً، جريء الإقدام، بصيراً) مع تكرار الجيم في (رجلاً مجرباً، جريء الإقدام، جلد الجوارح) فتلازم الصفات المتعددة بهذه الوسيلة يؤكد للمتلقي وجود هذه الصفات مجتمعة في قائد الجند ولا يمكن الاستغناء عن واحدة منها، أو بمعنى آخر أوجد تكرار الأصوات رابطاً جامعاً يدعم اتحاد هذه النعوت وإحالتها إلى منعوت واحد (رجلاً) صار مجمعا لهذه الفضائل الكثيرة.

وفي قوله عن جامع الجند المتخلفين عن الجيش "وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترتحل عنه ... وإيعاد العقوبة الموجهة والنكال المبسل في الأشعار والأبشار، واستصفاء الأموال، وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً"⁽³³²⁾.

تكرر صوت العين في (العقوبة الموجهة)، وصوت اللام في (النكال المبسل)، ويخرج المتلقي بضرورة شدة التهديد حتى لا يتخلف الجند، وقد أضفى التكرار تلازماً بين النعت ومنعوته إذ صاراً كشيء واحد وجب على المتلقي تحري الدقة في ملازمة الوجد للعقوبة، والإبسال للنكال مما جعلنا نذهب إلى دلالة الشدة في التعامل مع المتخلفين من الجند حتى لا يتخلفوا ثانية من ناحية، وليكونوا عبرة لغيرهم من الجنود حتى لا يتخلفوا مثلهم من ناحية أخرى.

وتزداد أهمية الصوت المفرد المتكرر في تقوية الرابط النحوي بين المنعوت ونعته إذا كان النعت جملة كما في قوله محذراً ولي العهد من مجالس الضحك والفكاهات والحكايات "ثم وإياك وأن يفاض عندك بشيء من الفكاهات ... ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعب يذيعونه، وطعناً في حق يجحدونه"⁽³³³⁾.

تكرر العين في (عيب يذيعونه)، والحاء في (حق يجحدونه) قد أكد اتصال النعت (جملة فعلية) بمنعوته، وارتداد جملة كاملة للمنعوت، وقد تجلت لنا دلالة تأكيد نبذ الفكاهات ومجالسها أو بمعنى آخر يعوض الصوت المتكرر هنا ما قد يصادفه المتلقي من مشقة تحري الدلالة في هذا البعد التركيبي الممتد عبر جملة كاملة.

(331) السابق، ص ٢٤٤.

(332) السابق، ص ٢٥٤.

(333) السابق، ص ٢٢٣.

وتكرار صوت الغين في (غبطة يسوغك) من قوله "وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها" (٣٣٤).

• ومع الفصل بين النعت ومنعوته تزداد أهمية الصوت المفرد المتكرر فيهما في تقوية الاتصال بينهما، ففي قوله "اجعل خلف ساقك رجلاً من وجوه قوادك، جليداً ماضياً عقيفاً صارماً، شهم الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة، غير مداهن في عقوبة، ولا مهين في قوة" (٣٣٥).

تكرار صوت الشين في النعت (شهم الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة)، مع الفصل بمضاف إليه، أوجد تلازماً بين الصفات يجمعها في قائد الجند، وجب على ولي العهد تحري تكامل تلك الصفات في قائد الجند حتى يكون كفاً لمنصبه.

وقوله أيضاً محذراً ولي العهد على لسان الخليفة مما قد يصيبه من غضب الخليفة جراء إساءة معاملة زوجه عائشة ابنة هشام بتفضيل الجواري عليها "فإن أنت غفلت أو أملت غفلتي عنها وعنك؛ لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك يسلب منك جميع ما في يدك بقولها" (٣٣٦).

تكرار صوت اللام في (نازل، يسلب)، وفصل بينهما بـ جار ومجرور (بك)، وجار ومجرور ومضاف إليه (من غضبي)، وجار ومجرور (عليك)، فبرز دور صوت اللام المتكرر في تقوية الاتصال بين النعت ومنعوته وتأكد للمتلقى فاعلية التهديد إذا غفل عن معاملة زوجه بلطف أو أمن غفلة الخليفة عنه وعن زوجه، هذا وقد وظف الكاتب الفاصل بين النعت (يسلب) ومنعوته (نازل) دلاليًا فأوضح دلالة القصر من (بك، عليك) التي تقصر غضب الخليفة على ولي العهد فقط دون زوجه مما يحمله المسؤولية كاملة تجاه ما حدث بينه وبين عائشة بسبب ميله للجواري دونها.

• وفي سياق الإضافة يبرز دور الصوت المفرد المتكرر؛ ليقوى الترابط بين المضاف والمضاف إليه، ويضفي جرساً موسيقياً يلفت المتلقي إلى استكشاف الصلة بين المضاف والمضاف إليه.

كإقامة صلة منطقية بينهما كذلك بين الغربة وما ينتج عنها من كآبة بتكرار صوت الباء في قوله "لا تدخلك مشقة البعد، ولا ذلة السفر، ولا كآبة الغربة" (٣٣٧). وأوجد التكرار تلازماً بين الغربة والكآبة مما يوحي للمتلقى بأن الغربة لا تمنح المقرب شيئاً ذا فائدة، بل لا يكتسب فيها إلا الكآبة والمذلة والشقاء، وفي هذا دعوة صريحة إلى عدم الاغتراب في الوطن إلا في الضرورة كالتى أجبرت الكاتب على الهروب من الوطن لملاحقة العباسيين له بعد سقوط الدولة الأموية.

(334) السابق، ص ٢٣٤.

(335) السابق، ص ٢٥٤.

(336) السابق، ص ١٩٤.

(337) السابق، ص ٢٠٣.

أو الغربة وما ينتج عنها من كربات في قوله "فالأبدان خاشعة لطول الدأب تتوقل في وعور المسالك، وتتدرّع هول تلك المخاوف؛ حتى تخيم بنا الأسفار على حلول كل دار بكربة الغربة، وخشونة الجفوة" (٣٣٨).

أو الهلكة الناتجة عن السقوط في المهاوي بتكرار صوت الهاء في قوله "فإن أمير المؤمنين - عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوي الهلكة" (٣٣٩).

• وآخر الصلوات النحوية تلك التي تربط فعل الشرط بفعل جواب الشرط، ويأتي الصوت المفرد المتكرر لتقوية تلك الرابطة، مع تقوية الصلة الدالية بينهما، ويبرز الصوت المتكرر دلالة التلازم بين فعلي الشرط. كربط السبب بالنتيجة في قوله مبصراً المتلقين إلى ضرورة مناهضة الخارجين على الدولة "إن أقررتم لهم؛ أقمتم في ذلة الدار" (٣٤٠).

تكرار صوت القاف في فعل أسلوب الشرط (أقررتم؛ أقمتم) لتقوية الرابطة بين السبب والنتيجة، فالإقرار للخارجين على الدولة سبب في الإقامة مذلولين ويلفتنا الصوت المتكرر إلى قوة تلازم إقامة الذل والإقرار لما يفعله الخارجون مما يبعد أي جواب آخر للإقرار لهم عن أذهان المتلقين فليس في الإقرار إلا الذل وحده وفي هذا تبصرة للمتلقين لتغيير موقفهم تجاه الخارجين على الدولة، إذ أكد التلازم بين فعلي الشرط خطأ موقفهم من الخارجين ووجب عليهم تصحيح هذا الخطأ باتخاذ موقف مناهض للخارجين على الدولة. وقد نفهم من هذا أهمية دور عبد الحميد في الدولة ومدى مسئوليته في الحفاظ على وحدتها مما سيأتي بالتحليل والشرح في مباحث تالية.

وقوله على لسان مروان داعياً إلى الدخول في الجماعة ونبذ الفتنة خاصة فتنة بعض أفراد البيت الأموي "فمن أقام على تلك الخسيصة من الأمور أوبق نفسه وأسخط ربّه، ومن عدّله التوبة نازعاً عن الباطل إلى الحق؛ وجد الله تواباً رحيماً" (٣٤١).

تكرر صوت القاف في فعل جواب الشرط (أقام؛ أوبق) وصوت الدال في فعل وجواب الشرط (عدّله؛ وجد) وقد تأكّدت الصلة بين السبب والنتيجة، فايباق النفس نتيجة الإقامة على الخسة، ووجود التوبة نتيجة العدول عن الباطل إلى الحق. وقوله عن الدنيا خلال هروبه من العباسيين "ومن قرصته بأظفارها، وعضّته بأنيابها، وتوطّأته بثقلها؛ قلاها نافرّاً عنها، وذمّها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً منها" (٣٤٢).

(338) السابق، ص ٢٠٤.

(339) السابق، ص ٢١٥.

(340) السابق، ص ٢٠٠.

(341) السابق، ص ٢٩٨.

(342) السابق، ص ٢٧٩.

تكرر صوت القاف أيضاً في فعل الشرط وجوابه (قرصته قلاها)، لتقوية الاتصال النحوي من ناحية، وتأكيد ربط السبب بالنتيجة من ناحية أخرى، فتكرار الصوت أوجد تلازماً بين الفعل (قرصته) ورد الفعل (قلاها)، فلا يسع الكاتب إلا نبذ الدنيا وذمّها، وهو ربما يلفتنا إلى مدى يأس الكاتب من النجاة من العباسيين إذ نرى - من رد فعله تجاه الدنيا التي قلبت أحواله إلى الذل والشقاء والخطر بالذم فقط دون اتخاذ موقف عملي قد ينجيه من العباسيين - يأساً مسيطرًا على الكاتب وكأنه ينتظر الموت.

وتكرار صوت الحاء في (قدح؛ لاح) من قوله ناصحاً ولي العهد باعتماد السلوك الحسن في حياته. وتبديل طباعه السيئة إن وجدت بتصميم يلائم قوة تمكنها من الإنسان "... وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد، فإذا قدح؛ لاح شرره، وتلهب وميضه، و وقد تضرمه" (٣٤٣).

أوجد الصوت المتكرر الملفت لأذن المتلقي رابطاً صوتياً بين فعل الشرط وجوابه بجانب الرابط النحوي بينهما، والرابط الدلالي من ترتب الجواب على فعل الشرط، ليكثف الكاتب من الروابط بين (قدح؛ لاح)، وليبرز بهذا التكثيف دلالة تأكيد تلازم ظهور النار الحارقة لطباع السوء، وهذا التأكيد من شأنه استرعاء انتباه ولي العهد إلى ضرورة تغيير هذه العادات السيئة - إن وجدت فيه - حتى يكون كفوًا لمنصبه في الدولة.

للصوت المفرد إسهامات في لفت انتباه المتلقي إلى بيان درجات المعنى داخل النص، فعن طريق وجود أصوات تشترك في صفات واحدة، وتتفاوت هذه الصفات من قلة إلى كثرة، أو من ضعف إلى قوة، فإن الصوت المتكرر يلفتنا إلى تلك الأصوات فتتوضح للمتلقي درجات للمعنى داخل النص ناتج عن تدرج الأصوات في صفة واحدة.

ففي قوله "فإياك واستصغار أحد من ذوي لحمته وأهل بيته، ولا سيما من حسنت نيته، وصحت بصيرته فيهم" (٣٤٤).

تكرار صوت الحاء في (حسنت وصحت) المتعاطفين والسين والصاد من أصوات الصغير، وتمتاز الصاد بصغير أعلى من السين، فكان التدرج: حسن النية أولاً ثم صحة البصيرة، وترتب على ذلك أن صحة البصيرة في مرتبة أعلى من حسن النية أو مرحلة تالية لها، ولعل الفضل في ذلك التأمل في الدلالة راجع إلى لفت انتباه المتلقي عن طريق الصوت المتكرر.

(343) السابق، ص ٢٢٣.

(344) السابق، ص ١٩٣.

• تكرار الصوت في المفردات غير المرتبطة نحويًا

مما سبق وجدنا إسهامات الصوت المفرد المتكرر في تجلية المعنى في ذهن المتلقي إذا ارتبطت المفردات نحويًا.

ويؤدي الصوت دورًا مهمًا في الربط بين المفردات إذا لم تكن على اتصال نحوي فيؤدي الربط بهذه الطريقة إلى تكوين دلالات داخل النص غير مرتبطة بالبعد التركيبي كدلالة بدهية الارتباط بين السبب والنتيجة كما في قوله معبرًا عن حزن الخليفة على رعيته مما ألمّ بهم من دمار الحق بهم طغيان نهر الفرات "وقد أصبح أمير المؤمنين مرتاعًا وجلًا لما أصبح بأهل حجرات الفرات من الإشفاء على الغرق، على الذي أهدقت بهم أوديته المخوفة" (٣٤٥).

تكرار صوت القاف في (الغرق)، (أهدقت)، يلفتنا إلى العلاقة بينهما، فالغرق نتيجة إحداق مياه النهر بالأودية وهي علاقة بدهية.

وفي قوله مبصرًا المتلقين بما فعله الخارجون على الدولة من أضرار قد تؤدي بالامة إلى التفرق "فقام بذلك شرير استجاب له أشرار عندما رأى من تشاغل العرب بينها، اقترص اشتغالهم بعداوة بعضهم لبعض، قد أغفلوا بذحول الضغائن برّد معالجة المعنى من الأمور لهم، حتى إذا غلظ أمره، واستحقق شأنه، واستجمعت له مكايده، وقويت مناشطه، وتمددت في القبيح أطرافه؛ بهت الكتاب بالفرية عليه" (٣٤٦).

تكرار صوت الشين في (شرير، أشرار، تشاغل، اشتغالهم، مناشطه)، لفتنا إلى العلاقة السببية بين الشر، وقوة مناشطه، وكثرة الأشرار حوله، وبين تشاغل العرب واقتراص الاشتغال. فاشتغال العرب كان سببًا في قوة الشر وكثرة الأشرار أما تكرار صوت الغين في (أغفلوا، غلظ)، يلفتنا أيضًا إلى العلاقة السببية بينهما، فغلظ أمر الخراساني كان نتيجة لغفلة العرب عنه. وتكرار صوت القاف في (قويت، القبيح) تلفتنا أيضًا إلى أن قوة الخراساني كانت بغير الحق لأنها قوة غير مستحبة، وبهذا نرى أن تكرار الصوت المفرد في مفردات لا تربطها صلة نحوية يقوم بدور الرابط الصوتي، ويساهم في تكوين الدلالة داخل النص.

ويؤدي الصوت المتكرر نفس الدور مع طول الفاصل بين المفردات كما في قوله ناصحًا ولي العهد بإطراق النظر لمن يحدثه أثناء سيره في موكبه ويحذره من التقلقل في السير أو الالتفات الكثير للعامة "ثم تعهد نفسك لطيف عيب لازم لكثير من أهل السلطان والقدرة: من إبطار الذرع... فإنها تسرع بهم إلى فساد رأيهم، وتهجين عقولهم في مواطن جمّة منها: قلة اقتدارهم على ضبط أنفسهم في مواكبهم، ومسايرتهم العامة، فمن مقلقل شخصه يكثر الالتفات عن يمينه وشماله ... ومن مقلقل في موكبه على مداعبة مسائره بالمفاكهة والتضاحك إليه" (٣٤٧).

(345) السابق، ص ١٩٧.

(346) السابق، ص ١٩٨.

(347) السابق، ص ٢٢٤.

فصوت القاف يربط بين نتيجتين متقابلتين وسببين متقابلين، فقلة الاقتدار سبب في التقلقل والإقبال على المداعبة، والقدرة سبب في إطراق النظر وعدم التقلقل أو الإقبال على المداعبة أثناء السير ويظهر من قوله بعدها "وليقلّ على مسابيرك إقبالك إلا وأنت مطرق النظر غير ملتفت إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحدثته، ولا مخف في السير تقلقل جوارحك بالتحريك"^(٣٤٨). والدلالة التقابلية بين القدرة وقلة القدرة، الإقبال في السير، وعدم الإقبال قد تكونت بفضل لفت انتباه المتلقي عن طريق تكرار صوت القاف في مفردات لم تربطها صلة نحوية.

وفي قوله موضحاً لولي العهد أثر تشديد الحراسة "... وذلك من فعلك رادّ عدوك بغیظه لم يستغل منك ظفراً، ولم يبلغ من نكايتك سروراً"^(٣٤٩). تكرار صوتي الغين والظاء في (غیظه، يستغل ظفراً) يلفت المتلقي إلى ترتب غیظ العدو على عدم استغلال الظفر من ولي العهد، فيخرج بدلالة ضرورة تشديد الحراسة.

وقد يضيف الصوت المفرد المتكرر بعداً مرئياً على الدلالة فتتأكد صورتها في ذهن المتلقي. كارتباط الغضب بالوميض الحارق في قوله في سياق عتاب أحد الولاة "فإن لغضب السلطان سورة ثائرة لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه من تعرض له أو دنا منه دمره"^(٣٥٠).

فتكرار صوت الضاد المطبق في (غضب السلطان، يحرق وميضه)، قد وضع الغضب في منطقة المرئيات عن طريق ارتباطه بالوميض بفضل تكرار الضاد.

أو يضيف بعداً نفسياً، كارتباط قرب الأتراب بمتاوق النفس في قوله "...وساعدك قرب أترابك الذين متاوق نفسك إليهم؛ فهناك الله النعمة، ووهبها لك"^(٣٥١).

وساهم تكرار صوت القاف في (قرب، متاوق) في إضفاء هذا البعد النفسي من الراحة لقرب الأتراب.

أو بعداً تصويرياً، كمدّ الأعناق إلى المطاعم في قوله "ثم أذك عيونك على عدوك، متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدّوا أعناقهم نحوها"^(٣٥٢). وربط صوت العين بين (المطامع والأعناق). وفي هذا الربط لفتاً لانتباه المتلقي إلى هذا البعد التصويري

(348) السابق، ص ٢٢٤.

(349) السابق، ص ٢٥٩.

(350) السابق، ص ٢٠٨.

(351) السابق، ص ٢٠٤.

(352) السابق، ص ٢٣٩.

المبحث الثالث الدلالة الذاتية والمحاكاة

يكتسب النص ملامحه الصوتية من مصادر عدة؛ من بينها ما يتضمنه من أصوات مفردة وهذه الملامح من العوامل التي توجه المتلقي للوقوف على دلالة النص.

فالأديب الفطن يستعمل خصائص الصوت المفرد في توجيه الدلالة إلى منحي معين، أو ليحاكي الدلالة نفسها فيؤكددها، وقد يجتمع أكثر من صوت فيضفي كل صبغته على الدلالة فتنتج لنا دلالات تجتمع بدورها في دلالة كلية جامعة. وقد تعددت الآراء حول دلالة الصوت على المعنى⁽³⁵³⁾ "والفهم الأقرب إلى الصواب في ظننا إنما يكون بمراعاة أثر السياق، وذلك على أساس أن العلاقة بين السياق والقدرة الدلالية للحرف المفرد علاقة تبادلية، فالسياق يهب الصوت المفرد قدرة على أداء الدلالة، ومن ثم يشكل الصوت المفرد جزءاً من الدلالة الكلية لهذا السياق"⁽³⁵⁴⁾.

فالسباق هو الفيصل في دلالة الصوت، فقد يكون محاكياً بدلالاته الذاتية لدلالة سياق، وتختلف محاكاته للدلالة في سياق آخر "وهناك كلمات لا تنطبق عليها الخاصية الصوتية، أي أنها لا تحاكي، ولا حتى توحى بدلالة تصويرية عندما تكون منفردة منعزلة عن أي سياق"⁽³⁵⁵⁾.

وللصوت المفرد – بدلالاته الذاتية – مناسبة أو محاكاة لدلالة الكلمات داخل النص على المستوى الفردي – الجزئي – أو الكلي الممتد. وبدراستنا لرسائل عبد الحميد وجدنا توظيف الصوت المفرد على المستوى الجزئي كما يلي:

للأصوات المطبقة (المفخمة) دلالات تتبع من خصائصها الذاتية التي لها وقع غليظ على الأذان، فتضفي على الدلالة القوة أو التهويل المؤدى إلى الاحترام أو النفور بحسب السياق الواردة فيه.

والدلالة على القوة، كقوة التعلق النابعة من تكرار صوت القاف في قوله في سياق عتاب أحد الأصحاب معبراً عن تعلقه بصاحبه ليزيل آثار العتاب "وأعلقت قلبي من مقتك ما ولهت له نفسي، وصبت إليه"⁽³⁵⁶⁾.

تكرار القاف أشعر المتلقي بقوة تعلق عبد الحميد بصاحبه مما عكس التجاوز عن الأخطاء التي تسببت في العتاب.

ودلالة التهويل، كالتهويل من أمر النقم ومفارقة الحق كما في قوله في سياق الفتنة يحث المتلقين على طاعة الخليفة "فمن أراد الله إبعاده وتوفيجه وتبصيره حظه؛ لزم الطاعة ... ولم يكن متخوفاً للغير في دنياه، متوقعاً للنقم،

(353) انظر هذه الآراء، الصوت والصورة في الشعر الجاهلي، ص ٧٣، وما بعدها.

(354) السابق، ص ٧٦.

(355) الأسلوبية الصوتية، ص ٣٣.

(356) عبد الحميد بن يحيى ... ص ١٩٢.

متوَكِّفاً للقوارع أحلت بأهل المعصية والخلاف والمفارقة للحق وأهله، وكان من ذلك في أمن ونجاة وسلامة وعافية^(٣٥٧).

فتكرار صوت القاف في (متوقعاً للنقم، متوَكِّفاً للقوارع، المفارقة للحق) أشعر بالتهويل من أمر الفتنة والمعصية والخروج على الخليفة، وهذا التهويل لتحقيق نفور المتلقي من الفتنة، وبالطبع ضمان طاعة الخليفة فيعيش في (أمن وسلامة ونجاة وعافية) وهي أصوات سهلة سلسة بالمقارنة بصوت القاف.

وفي قوله ناصحاً ولي العهد باختيار مكان المعسكر بعناية اختياراً يحقق له حاجته من الماء والأعلاف ووسائل الأمان من هجمات العدو "فإن ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك، ولم تجد إلى المحاربة والإخطار سبيلاً، وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر، وفي أزل وضيق"^(٣٥٨).

صوت القاف في (أقمت، أقمت، مشقة، ضيق) ربط بين الإقامة، وبين المشقة والضيق، ونقر المتلقي من الإقامة على هذه الحال نتيجة دلالة القاف على التهويل، مما يعكس ضرورة اختيار المكان بعناية.

والدلالة على التهويل قد تعكس ضرورة الاحترام كالتهويل من أمر غضب الخليفة في قوله معاتباً أحد عمال الدولة لأنه أخطأ في حق الخليفة "فإن لغضب السلطان سورة ثائرة لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه من تعرض له، أو دنا منه دمره"^(٣٥٩).

صوت الضاد في (غضب، وميضه، تعرض) جسّد الغضب في صورة الوميض المرئية التي تحرق من يتعرض له، فالهدف من التهويل هنا هو ضرورة احترام غضب الخليفة والمهابة منه.

ولصوت الطاء وقع غليظ على الأذن يعكس التهويل والشدة كما في قوله عن حال الجاهليين قبل الرسول وبعده "وابتغته لإحياء دينه الدارس، مرتضياً له على حين انطمست الأعلام مختفية، وتشتت السبل متفرقة وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهج الفتن، واعتلى ققام الظلم، واستنهد الشرك، وأسدف الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكته الحق، واستطرق الجور، واستنكح الصدوف عن الحق، واقمطر سلهب الفتنة، واستضرم لقاحها وطبقت الأرض ظلمة كفر، وغياية فساد"^(٣٦٠).

ولنرى صوت الطاء – رغم قلة استعماله^(٣٦١) اللغوي مقارنة بالأصوات الأخرى – في (انطماس الأعلام، سطوع الفتن وظهور الشيطان لطموس الأعلام، ونطق الباطل، واستطراق الجور، واقمطرار سلهب الفتنة، وتطبيق الأرض) كل ما سبق من المعاني يضيف التهويل من أمر الحياة الجاهلية قبل بعث الرسول – صلى

(357) السابق، ص ٢١٢.

(358) السابق، ص ٢٥٦.

(359) السابق، ص ٢٠٨.

(360) السابق، ص ٢٦٥.

(361) انظر الأصوات اللغوية، ص ١٩٠، وما بعدها عن قلة استعمال صوت الطاء في اللغة العربية.

الله عليه وسلم - لتنفير المتلقي من تلك الحياة، وقد نهضت الطاء بهذا الدور في المساهمة في رسم صورة كاملة لحياة الجاهليين عن طريق الاستعارات الجزئية، وتمثلت مساهمة الطاء في إضفاء دلالة التهويل على الصورة.

وقد تتضافر بعض الأصوات المطبقة فتضفي دلالة القوة أو التهويل لتحقيق الاحترام والتعظيم كالتهويل من خوف الخليفة لضرورة احترام شباب قريش وتعظيمهم وذلك في قوله معاتباً أحد الولاة لأنه استخف بأحد أفراد قريش "فإن الحال التي يعاتبك عليها أمير المؤمنين حال يخاف أن يكون ذلك منك عاملاً لغيره من نظراء شباب قريش؛ فتعظم به المصيبة في طول الغفلة منك" (٣٦٢).

والتهويل من أمر محاربة الخارجين لاحترام أمر الجهاد وتعظيمه كما في قوله "لأن يد الله على الحق، والحق بكم أولى، وأنتم إليه أقرب، والله عليهم أغضب فصولوا عليهم بشدة غضب الله، ومحاولة لتعظيم ما صغروا" (٣٦٣).

أو تعظيم أمر الطاعة كما في قوله "ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم، والتسليم لما أمروا به، مهم كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية متخللة، وسلامة ظاهرة وباطنة وقوة بإذن الله مانعة" (٣٦٤).

وللأصوات الحلقية دلالات القوة والشدة النابعة من ارتباطها بالمشقة الصوتية والتأثير السلبي على اللسان. كدلالة صوت العين على الفظاعة والفداحة في الحديث عن الفتنة في قوله "أما بعد، فإن الشيطان لم يبتعث أهل فتنة قط هم أحب إليه أن يستنهض إليها من أهل المشرق والمغرب: إفريقية والأندلس، وما دناها من الشام وأرضه، فله في كل حين نعمة بأهل جماعة يستخفهم بالأمان" (٣٦٥).

لنتأمل العبارة وقد خلت من العين من (أهل) حتى نصل إلى (نمرة)، التي تلقت المتلقي لأنها نكرة منونة تأخرت عن موقعها وأيضاً لوجود صوت العين الذي خلت منه المفردات قبلها، وفي لفت انتباه المتلقي - بصوت العين الذي تصادفه الأذن بعد كم من الكلمات - استيقاف له ليتأمل (نمرة) ويستكنه ما تعكسه من شدة أثر الشيطان على الأماكن المذكورة في النص، ولهذا فقد ساهم تنكير (نمرة) في دخولهم عالم المجهول الذي يتسم بالقوة وضرورة الاحتراس منه لغموضه، وقد ساهم تأخيرها في لفت انتباه المتلقي إليها. وبهذا التكثيف الأسلوبي فإن (نمرة) تعتبر مركزاً للثقل الدلالي في النص. إذ تعدّ من أهم الأدوات التي يستعملها الشيطان في السيطرة على الناس ليخرجوا على الخليفة. وصبغ كلمة (نمرة) بالقوة التي ربما ساهمت العين في ذلك يدعو المتلقين إلى الاحتراس منها بقوة مناسبة.

وقد تناسب العين الدلالة المطلوبة من المتلقي الوصول إليها كما قوله موجهاً ولي العهد إلى استمالة العدو إلى الاستسلام أو فرض الطاعة عليه دون

(362) السابق، ص ١٩١.

(363) السابق، ص ١٩٩.

(364) السابق، ص ٢٠٩.

(365) السابق، ص ١٩٨.

قتال "وابدأ بالإعذار إلى عدوك والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة، وأمر الجماعة وعري الألفة" (٣٦٦).

فالمطلوب من المتلقي - ولي العهد - أن يبذل جهداً كبيراً حتى يدخل الخارجون في طاعة الخليفة وجماعة المسلمين وهذا الجهد لعله يناسب الجهد العضلي المطلوب في نطق العين التي تكررت في (الإعذار، عدوك، الدعاء مراجعة الطاعة، الجماعة، عري).

والشدة والقوة لا تستقي من الأصوات الحلقية وحدها، ولكن لبعض الأصوات دلالة ذاتية على الشدة والقوة. كصوت الجيم في قوله في مقدمة رسالته لولي العهد موضحاً أسباب توجيه الخليفة له لمحاربة الضحاك بين قيس الشيباني "أما بعد، فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي، المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة" (٣٦٧).

فتكرار صوت الجيم في (الجلف الجافي، الجهالة) أشعر المتلقي بشدة بداوة الضحاك وجهله، مما يستدعي شدة مناظرة نفهمها من (توجيهك) الخاصة بتوجيه الخليفة لولي العهد لمحاربة الضحاك، فتضفي الشدة في محاربة الخارجين على الدولة ومجابهتهم، والدولة متمثلة في الخليفة.

أو الدلالة على شدة الاستعداد، كالاستعداد المحكم للصيد في قوله "ثم مدت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاورها" (٣٦٨).

أما صوت الشين بدلالاته على التفشي والانتشار يضيف نوعاً من السيطرة والتمكن، كسيطرة الغربية على المغترب نتيجة لإحاطتها له كما في قوله في سياق الغربية عن الوطن والأهل "إذ الضيعة لمن اغترب، والغربة لمن اشتملت عليه الهموم وتشعبته الرغبة؛ ففارق الأحبة، واستخلف منهم الغربية" (٣٦٩).

تكرار الشين في (اشتملت، تشعبته) من الجرس المرير للعين المضعفة أوحى بانتشار آثار الغربية حول المغترب، والضيق النفسي النابع من العين المضعفة يضيف دلالة سيطرة وتمكن الغربية من المغترب الناتج عن إحاطتها به تلك الإحاطة التي ربما نفهمها من دلالة صوت الشين على التفشي والانتشار.

وعندما يحتاج عبد الحميد إلى بيان سيطرة الفتنة على المفتونين يعمد للصوت نفسه كما في قوله "فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بأنق منظر، وأزين ملبس، تجرّر لهم أذيالها، وتعدّهم تتابع لذاتها" (٣٧٠).

فتكرار صوت الشين يوجه المتلقي إلى انتشار الفتنة وآثارها على الناس، وإحاطتها بهم حتى حدّ السيطرة ولكن السيطرة الخادعة لأنها مازالت (متشوفة) يمكن أن يراها الناس على حقيقتها.

(366) السابق، ص ٢٣٨.

(367) السابق، ص ٢١٥.

(368) السابق، ص ٢٧٠.

(369) السابق، ص ٢٠٣.

(370) السابق، ص ٢١٣.

وقريب من هذا قوله على لسان مروان مبصراً الأسرة الأموية بخطر التفريق "... وأنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم، وأن كلمتهم إذا تشوشت طمع فيهم عدوهم" (٣٧١).

توحي الشين في (تشوشت) بانتشار التشوش وتفشييه ومن ثم استعلائه على عقول الناس، والسيطرة عليهم حتى تشتت كلمتهم، وتختلف مذاهبهم فيطمع فيهم الأعداء، وهو الخطر الذي أدركه الكاتب فحذر منه الناس بهذه الطريقة.

وصوت السين له حضور دلالي - مستقى من صفاتها(*) فالسين صوت مهموس رخو يتميز بالصفير العالي بعض الشيء - كالدلالة على الفرحة التي يرغب الكاتب في إذاعتها على الملأ وقد تناسب السين بصفيرها هذه الإذاعة كالفرحة بالمولود في قوله "فأنا به جذلٌ في مغيبى ومشهدي، أحاول مسّ جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه" (٣٧٢).

محاولة مسّ جسد المولود في سكون الليل لعله مناسب لصوت السين المضعف في (مسّ) بدلالته على الصفير الذي قد يلائم إذاعة الكاتب لفرحته على الملأ.

وصوت الراء يناسب دلالة التكرار والاستدامة كتكرار التجربة، لتحقيق الخبرة السياسية كما في قوله ناصحاً ولي العهد باختيار بطانته وجلسائه "ثم لتكن بطانتك وجلسائك في خلواتك ودخلاؤك في سرّك، أهل الفقه والورع ... ممن قد حنّكته السنّ بتصاريف الأمور، وخبّطته فصالها بين فراسن البذل، وقلّبتة الأمور في فنونها، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور، ومواضع الرأي، وعين المشورة" (٣٧٣).

جلساء ولي العهد وبطانته يجب أن يكونوا على درجة عالية من الخبرة التي تتحقق بتكرار التجربة التي ربما نستقيها من تكرار الراء في (تصاريف الأمور، ركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور، مواضع الرأي، عين المشورة) وطول فترات الممارسة العملية لعلها تستقي من الفترة الزمنية الطويلة لنطق الراء.

والدلالة نفسها نجدّها في قوله محدّداً لولي العهد كيفية اختيار جنوده "...وشربوا من مرارة كؤوسها وتجرّعوا غصص درّتها، وزبنتهم بتكرارها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذللّتهم بثقاف أودها" (٣٧٤).

فخبرة الجند أساس الاختيار لتحقيق النصر، والخبرة هنا تتطلب تكراراً لتجربة خوض المعارك التي تناسب دلالة الراء على التكرار والاستدامة فتضفي تكرار التجربة مع طول الفترات الزمنية التي خاضوا فيها المعارك وربما تتناسب مع طول الفترة الزمنية لنطق الراء خاصّة المشدّدة في (تجرّعوا، درّتها).

(371) السابق، ص ٣٠٠.

(*) انظر صفات السين، الأصوات اللغوية، ص ٦٧.

(372) السابق، ص ٢٠١.

(373) السابق، ص ٢٢٢.

(374) السابق، ص ٢٤٦.

وقد نستقي دلالة الإنذار من الخطر من صوت الزاي في قوله محدداً لولي العهد صفات ذوي النصيحة "... مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حكتهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب متشزناً في حربك، آخذاً بالحزم في سوء الظن، معداً للحذر، محترساً من الغرة" (٣٧٥).

صوت الزاي المضعف في (متشزناً) وما له من صفيح عال (*) ألقى موضع الكلمة مما يلفت المتلقي إلى استشعار الخطر ربما المناسب لصفيح الزاي، فيوجه عبد الحميد المتلقي إلى رفع شدة الاستعداد المناسب لشدة الخطر، ومن اللافت للنظر انتشار أصوات الصفيح.

● التصوير الكلي الممتد :

تتضافر الأصوات المفردة مع بعضها البعض لتنتج دلالة كلية تتكون من الدلالات الجزئية المستقاة من كل صوت على حدة، فكل صوت مفرد دلالة جزئية قد تلتقي بصوت آخر له دلالة أخرى وهكذا، وعندما تجتمع هذه الدلالات الجزئية تنتج دلالة كلية تمتد عبر النص.

وقد تساهم هذه الدلالات الجزئية في بيان صورة تتشكل عبر كشف الأصوات عن جزئياتها أو لقطات منها.

ومثل ذلك قوله في رسالة لأخ له يقابل فيها بين سعادة أخيه وأمنه في ظل الوطن وبين شقاء عبد الحميد وشعوره بالخطر في الغربة "وإنك بحيث انعطف عليك أنسة القريب، وراحة السكون إلى الطمأنينة في دار الخفض، ومنزل القرار، ونحن في تعب الدنيا: توجف بنا مطايا الشقاء، نباكر دلجها بغم النصب ومبهظ التعب، واحتمال الجفوة، وذلّ التجهم" (٣٧٦).

تتشكل دلالة كلية في مظهرين من الدلالات الجزئية المتقابلة، الأولى تبدأ مع (إنك) بصيغة المفرد صورت حال الأخ السهلة في وطنه ونبتت السهولة من الأصوات الواضحة والمجهورة السلسلة النطق، وغير المجهدة للسان خاصة (م، ن، ب، ر) وغيرها ك (ل، د).

والأخرى تبدأ مع (ونحن) الدالة على الجمع، صورت حال عبد الحميد في غربته وهروبه ومدى الضيق والحزن النابع من الشقاء وشدة الحال الذي ربما يعكسه صوت الجيم الشديد ذو الوقع المرير على الأذن وقد تكرر مجاوراً لأصوات مهموسة مجهدة للنطق كالفاء (توجف، الجفوة) والهاء (دلجها، التجهم) ساهمت في تصوير حال الشقاء، وقد انتشرت الأصوات المطبقة الدالة على التهويل في اللقطتين المتقابلتين لتجمع بينهما وتضفي تهويلاً قد ينتج عنه تعظيم حال الرخاء لأخيه في الوطن في اللقطة الأولى، والتهويل الذي ينتج عنه النفور من الغربة في اللقطة الأخرى، وتشكلت من هذه الدلالات الجزئية صورة كلية تظهر الدنيا بمتناقضاتها وتقلباتها وتحكمها في الناس أفراداً كانوا أو جماعات، اختصرها عبد

(375) السابق، ص ٢٣٩.

(*) انظر صفات صوت الزاي، الأصوات اللغوية، ص ٦٧، وما بعدها.

(376) السابق، ص ٢٠٣.

الحميد في (توقف بنا مطايا الشقاء) مقابل (الطمأنينة في دار الخفض ومنزل القرار).

وفي قوله موضحاً لولي العهد كيفية اختيار قائد المشاة من الجند "ومره فليولّ عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جريء الإقدام، ذاكي الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بمواضع أحراسه"^(٣٧٧).

يوجّه عبد الحميد المتلقي إلى معرفة ضوابط اختيار قائد الجند حتى يقوم بمهمته على خير وجه، فيحدّد مجموعة من الصفات المتأصلة في القائد، أول ما يظهر منها نستقيه من دلالة صوت الجيم في (رجلاً، مجرباً، جريء، جلد الجوارح) على الشدة والقوة والخشونة، التي قد تناسب ما عليه القائد من شدة وقوة على جنده حتى يستطيع قيادتهم واكتساب طاعتهم، ثم يظهر وجه آخر نستقيه من صوت الراء في (مره، رجلاً ركيناً مجرباً جريء، الصرامة، الجوارح، بصيراً أحراسه) ليدل على التكرار والاستدامة، فيضفي تكرار تجربة قيادة الجند قبل ذلك، مع طول الفترات الزمنية التي بقى فيها قائداً، التي تتناسب مع طول الفترة الزمنية لنطق الراء خاصة المشددة في (مجرباً) وترسم الدالتان صورة كاملة لقائد الجند في قوته وشدته من ناحية، وخبرته الحربية الطويلة في تعامله مع جنوده وقيادتهم حتى النصر.

وفي مشهد من مشاهد الصيد، يصوّر لنا عبد الحميد يأسه في قوله "فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعوراً وجدوباً وققرّاً؛ حتى قصر بنا اليأس عن الطلب وقطع بنا عن الطمع النصب، فبيننا نحن كذلك إذ بدا لنا جأب ..."^(٣٧٨).

أراد عبد الحميد أن يهوّل من أمر اليأس من الصيد فانتشرت الأصوات المطبقة (ق، ص، ط) في (قصر، الطلب، قطع، الطمع، النصب) مشعرة بالتهويل لتعظيم أمر اليأس، مما يعكس الموقف النفسي الصعب في تقبل اليأس، كتقبل الأذن لغلظة الأصوات المطبقة، ولكن اليأس سرعان ما يزول وهذه السرعة مناسبة لقلّة المد مع انتشار الأصوات المجهورة السهلة في نطقها عن غيرها فتتضح لنا صورة الصيد باليأس أولاً، ثم زوال اليأس وظهور الصيد، وعبر عنه بـ(فبيننا نحن كذلك إذ بدا لنا جأب).

وفي عتاب الخليفة لأحد ولاته قال عبد الحميد "وهذا جرح أمره رحيب رغيب، وعليث عقده عظيم، له محل عند أمير المؤمنين"^(٣٧٩).

يعاتب عبد الحميد أحد الولاة الذي أساء معاملته أحد أقارب الخليفة مما سبّب استياء الخليفة من الوالي فصعوبة الجرح من الوالي تتناسب مع صعوبة نطق الأصوات المهموسة (ه، ح، ث) في (صرح، رحيب، عليث، عقده، له، محل)، ولكن انتشرت مجموعة من الأصوات المجهورة (د، ج، ر، م، غ، ل، ذ، ظ، ب، ع، ن) وأكثرها واضحة، فأضفت سلاسة وسهولة في النطق تتناسب مع مرونة

(377) السابق، ص ٢٤٤.

(378) السابق، ص ٢٧١.

(379) السابق، ص ١٩٢.

ال خليفة المطلوبة في التعامل مع الوالي، أو مرونة الوالي المطلوبة في تعامله مع أقارب الخليفة، ويؤكد ذلك قوله قبلها "وأنت عين أمير المؤمنين وجفنه، والناظر له والجار إليه، والمستميل لقلوب رعيته"^(٣٨٠). فخرج بدلالة شدة وصعوبة إساءة الوالي للخليفة، فتستدعي العتاب، ولكنه عتاب مرن لأن للوالي منزلة خاصة عند الخليفة، وهو ما أشرنا إليه بالقول السابق.

(380) السابق، ص ١٩١.

الفصل الثاني من ظواهر البديع الصوتي

خصصنا هذا الفصل لدراسة بعض ظواهر البديع التي تمتاز بخصائص صوتية تشكّل إيقاع الفواصل داخل رسائل عبد الحميد، ولظواهر البديع أهمية صوتية لما تنطوي عليه من تشابه في الأصوات وهذه الخاصية تؤثر في أذن المتلقي وتلفته إلى الدلالة.

أولاً: الجنس

وبداية قد أثرنا الجنس بالدراسة دون غيره من ظواهر البديع الصوتي المشكّلة للإيقاع الداخلي لما له من آثار دلالية واضحة في رسائل عبد الحميد والجناس لا يشكّل جزءاً من البديع المحدث للإيقاع الداخلي فحسب، بل في الخارجي في بعض الأحيان. فالجناس من الظواهر⁽³⁸¹⁾ التي تعتمد في أساسها على التشابه الصوتي بين المفردات، ويختلف نوع الجنس باختلاف عدد الأصوات المتشابهة وهيئتها في المفردات.

وما للجناس من أثر صوتي يستوقف المتلقي حتى يتأمل المفردات التي يربطها الجنس، فيكتشف التشابه في الظاهر بين المفردات، ولكن يخرج بدلالات أراد الكاتب أن يوصلها للمتلقي عن طريقه، أو بمعنى آخر يكتشف تعارضاً دلالياً بين المفردات المتشابهة صوتياً "وفي الجنس تتضح جدلية العلاقة بين التشابه الصوتي والتعارض الدلالي، فالجناس ينطوي دائماً على قدر من مفاجأة المتلقين إذ يفتنون إلى أن التشابه الصوتي كان خادعاً إذ لا ثمة تشابه دلالي مواز"⁽³⁸²⁾.

والجناس مساهم قوي في تحقيق أكبر قدر من الحيوية في عملية تلقي النص إذ يؤدي التأثير الصوتي له إلى استيقاف المتلقي، ومن ثم الارتداد عبر كلمات النص في حركة تراجعية، وهذا الارتداد يضع المفردات التي مرّ عليها المتلقي في دائرة الاهتمام فضلاً عن المفردات التي تخللها الجنس.

وهذا الارتداد يضفي حيوية على التلقي، وتجاوباً مع النص، ويظهر التعارض في القول المأثور لعبد الحميد "العقل للسانه عاقل"⁽³⁸³⁾.

والجناس أشكال عدّة في ورودها في نثر عبد الحميد، منها ما كان بين مفردتين في فاصلة واحدة أو فاصلتين، ويرد أول الفاصلة أو آخرها.

والجناس بين مفردتين في الفاصلة الواحدة دور في تكثيف الأثر الصوتي إذا تجاوزت المفردتان دون فاصل، ولهذا التكثيف – فضلاً عن إضفاء طابع إيقاعي على الكلمات – أثر في إبداع الدلالة حتى يدركها المتلقي بعد الانتباه إليها، كشدة الجرح وقوته في قوله معبراً عن صعوبة تقبّل تقصير صديق له في معاملته ووصف هذا التقصير بالجرح "وهذا جرح أمره رحيب رغب"⁽³⁸⁴⁾.

أو شدة آثار الغربة على نفس عبد الحميد كما في قوله "حتى تخيم بنا الأسفار على حلول كل دار بكربة الغربة، وخشونة الجفوة، وجوار

(381) انظر، شرح الجنس الإيضاح للقزويني، المثل السائر لابن الأثير، وغيرها.

(382) الصوت والصورة، ص ١٠٢.

(383) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢٩١.

(384) السابق، ص ١٩٢.

المتكبرين" (٣٨٥). التكثيف الصوتي الناتج عن وقوع الجناس في (كربة الغربية) المتجاورتين يستوقف المتلقي ليتأمل شدة الارتباط بين الغربية والكربة، فيتأكد له مدى تأثيرها في نفس عبد الحميد.

أو الثبات على موقف مخالف كما في قوله ممتدحاً أهل الشام لوقوفهم بجانب الدولة في حربها ضد المرتدين "وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة، وأذبه عن حرمه، وأوفاه بعهد، وأشدّه نكايه في مأزق مخالف ناكث ناكب عن الحق" (٣٨٦).

أثمر الجناس بين (ناكث، ناكب) المتجاورتين عن تكثيف صوتي يلفت المتلقي إلى مدى مخالفة المرتدين للجماعة بخروجهم عن الحق واتباعهم الباطل. ولهذا المظهر من مظاهر الجناس أثرٌ في إضفاء الحيوية على الدلالة، تقع فيه الصلات الدلالية بين المفردات في دائرة الضوء.

ومن أمثلة هذه الحيوية الجمع بالواو بين مفردتين تخللهما الجناس، وتربطهما صلة التقابل الدلالي كما في قوله داعياً الله ليحفظ ولي العهد "وقصد بك لأسهل الرأي، وأعوذه نفعاً في العاجل والآجل" (٣٨٧).

التشابه الصوتي الناتج عن الجناس في (العاجل، الآجل) والتقابل الدلالي بينهما يضيفي الحيوية النابعة من التشابه والتقابل معاً، ويحاول المتلقي بذنه فهم مغزى ذلك حتى يصل إلى الرأي الصائب في الحرب.

وفي قوله عن صبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أعباء الرسالة "صابراً نفسه على الأذى والتكذيب، داعياً لهم بالترغيب والترهيب" (٣٨٨).

التشابه الصوتي - الجناس - والتقابل الدلالي بين (الترغيب والترهيب) يضيفي الحيوية على الدلالة، ويظهر مدى أمانة الرسول في تبليغ الرسالة بشتى الوسائل المتاحة، فالتأثير في أذن المتلقي بالتشابه الصوتي بين الترغيب والترهيب يستوقف المتلقي ليتأمل الصلة الدلالية بينهما، ويفاجأ عندما يكتشف أن الصلة الدلالية بينهما هي التقابل الذي يعكس شمول وسائل الرسول الكريم في تبليغ الرسالة، وتنشأ عن جدلية التشابه الصوتي والتقابل الدلالي حيوية تثري النص وربما تعكس حيوية الرسول في تبليغ رسالة ربه عز وجل.

وفي قوله لفئة الكتاب ينصحهم بالقناعة بالقليل "وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيها ودنيها ومساوي الأمور ومحارها" (٣٨٩).

الجناس بين المتقابلين (سنيها ودنيها)، وهو تأكيد للقناعة والترفع عن جميع أشكال الطمع، ولعل منبع هذا التأكيد لدلالة الشمول الناتجة عن الجمع بين المتقابلين (سنيها ودنيها) فعل الأمر (ارغبوا) الذي نهض بدور رئيس فيه، ولا

(385) السابق، ص ٢٠٤.

(386) السابق، ص ٣٠١.

(387) السابق، ص ٢٤٩.

(388) السابق، ص ٢٦٦.

(389) السابق، ص ٢٨٣.

ننكر تأثير التشابه الصوتي في أذن المتلقي واستيقافه ليستكشف العلاقات الدلالية بين الكلمات.

وفي قوله للكتاب أيضًا "يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه والوالي في القدر السني والدني من ولايته" (٣٩٠).

الجناس بين (السني والدني) المتقابلين دلاليًا يلفت انتباه المتلقي إلى العلاقة الدلالية بينهما لتكشف له عن دلالة أخرى هي الشمول الذي يضيف على الكتاب أهمية في مساعدة الولاة في صغائر الأمور وكبائرها.

وبين السراء والضراء في قوله لهم أيضًا "فابذلوا وفقكم الله ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة ... والسراء والضراء" (٣٩١).

نشتم دعوة الكتاب للتفاني في العمل في جميع الظروف والأحوال ونبع هذا الشمول من الجمع بالواو بين المتقابلين (السراء والضراء) الذي نهض التشابه الصوتي بينهما بدور رئيس في لفت انتباه المتلقي إليه.

وقد ينطوي الجناس على مفارقة دلالية، فالتشابه الصوتي بين المفردات لا يتضمن تشابهاً دلاليًا بل تفارقاً، ويضيف ذلك التشابه والتفارق حيوية في تلقي النص، ففي قوله موضحاً لولي العهد كيفية التعامل مع الفارين من الجنود ومن يؤويهم " ... وإيعاد العقوبة الموجهة والنكال المبسل في الأشعار والأبشار، واستصفاء الأموال" (٣٩٢).

(الأشعار والأبشار) وجمعت الواو بينهما تشابهًا صوتيًا بفضل الجناس – ولكن الأشعار تفارق الأبشار دلاليًا وهذه المفارقة تحقق للنص حيوية في التلقي ربما تؤثر في حيوية المتلقي في القيام بالأعمال الموكلة إليه من تحري الدقة في البحث عن الفارين ومعاقبتهم.

ولورود الجناس في مفردتين داخل الفاصلة الواحدة مع الفصل بينهما تكثيف دلالي لا يقل في أهميته عن ذلك بين مفردتين متجاورتين دون الفصل، وإن قل التكثيف بعض الشيء، ولكننا نرى فيه من الثراء والحيوية لما يرتد بالمتلقي ارتداداً أفقيًا عبر المفردات إلى الخلف في حركة تراجعية.

ومن أمثلة ذلك قوله معبراً عن فرحته بمولود له " ... وإشراكه إياي في دعائه شافعاً لي إلى ربه عند خلواته في صلواته، وحجّه وكل موطن من مواطن طاعته" (٣٩٣).

يمر المتلقي على (خلواته)، ثم يستوقفه الجناس عند (صلواته)، فيرتد أفقيًا عبر حرف الجر إلى (خلواته) ثانية ليتحقق من الجرس الموسيقي الناتج عن الجناس بينهما، ويولد هذا الارتداد حيوية للتلقي، تجعل من المتلقي مدركاً لفرحة الكاتب بالمولود بصورة أوضح.

(390) السابق، ص ٢٨١.

(391) السابق، ص ٢٨٤.

(392) السابق، ص ٢٥٤.

(393) السابق، ص ٢٠١.

وفي قوله في السياق نفسه "وذلك أملنا منه في بلوغ متاوق الأنفس من طول المدة مقرون تواليها بمواضى خواليها"⁽³⁹⁴⁾.

ارتداد المتلقي من (خواليها) – ذات الطول الخطي – إلى (تواليها) – ذات الطول الخطي أيضاً – عبر شبه جملة (بمواضى)، يحقق الحيوية في تلقي النص، ويعبر عن رغبة الكاتب في التأثير الصوتي في أذن المتلقي ليشاركه فرحته بالمولود.

ومنه الارتداد من الجرد إلى المرد عبر حرف الجر (على) في قوله مهدداً الخراساني زعيم الخارجين على الدولة "بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون"⁽³⁹⁵⁾.

وربما تكون الحركة التراجعية توحى للمتلقي بمراجعة موقفه من محاربة الدولة أو حتى تغذي التهديد بزعة ثقة الخراساني في جنوده وخيوله وتوهمه بمراجعة صحة الاعتماد على قوتهم لأن الكاتب وضع جنود الخراساني في موقف مواجه مع جنود الدولة في تلك الرسالة أظهر فيه ضعف هؤلاء الجنود بالمقارنة بقوة جنود الدولة وشجاعتهم.

ولوقوع الجنس في فاصلتين أثر في إضفاء الحيوية في عملية التلقي لما يتضمنه من حركة ناتجة عن ارتداد المتلقي من فاصلة إلى السابقة عليها، ويكون الجنس بهذا الارتداد مساعداً في تقوية الرابطة بين الفاصلتين.

ولهذا النوع أشكال منها ما يرد أول الفاصلة كما في قوله موضحاً لولي العهد كيفية السير بالجيش "واياك والمسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة، قد شهروا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام"⁽³⁹⁶⁾.

يرتد المتلقي بفضل الجرس الموسيقي للجناس من (نشروا) إلى (شهروا)، وهو ما يمثل تعضيداً للربط بين الفاصلتين وإضفاء الحيوية على عملية التلقي، وربما يوحى بضرورة قوة الارتباط بين أفعال الجنود خلال السير.

والارتداد من (خبرت) إلى (سبرت) في قوله "قد ثققت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم"⁽³⁹⁷⁾.

ومنه ما يقع وسط الفاصلة وينظر نفس الموقع في فاصلة أخرى، كقوله موجهاً الكتاب إلى ضرورة حسن التصرف مع صاحب العمل مع اختلاف أحواله وعبر عن ذلك في صورة سائس البهيمة الذي يحسن قيادتها في مختلف أحوالها "فقد عرفت أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها؛ التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحاً، اتقاها من قبل رجلها، وإن كانت جموحاً؛ لم يهجمها إذا ركبها"⁽³⁹⁸⁾.

(394) السابق، ص ٢٠٢.

(395) السابق، ص ٢١٤.

(396) السابق، ص ٢٥٢.

(397) السابق، ص ٢٦٩.

(398) السابق، ص ٢٨٥.

يرتد المتلقي من (جموحًا) في فعل الشرط الثاني إلى (رموحًا) الواقعة في فعل الشرط الأول، وتتعمق الرابطة بين جملتي الشرط بفضل الجناس، ويضع الكاتب أمام المتلقي صورة كاملة للبهيمة وسائسها لا ينفصل أجزاؤها عن بعضها البعض، بل تجمع بين جملتين متقابلتين، وهذا الجمع يوحي بشمول التصرف مع البهيمة مع اختلاف أصولها.

ومنه ما يحتل آخر الفاصلة فيكون آخر ما يبقى في الأذان فتزداد أهميته لوقوعه في ختام الفاصلة.

كما في قوله ناصحًا ولي العهد بالتزام الأخلاق الحسنة "استكثر من فوائد الخير، فإنها تنشر المحمودة، وتقلل العثرة، واصطبر على كظم الغيظ؛ فإنه يورث الراحة، ويؤمن الساحة"^(٣٩٩).

ولارتباط الجناس بسياق النصائح والتوجيهات أثر في التأثير على المتلقي بالجرس الموسيقي للجناس لتقبل تلك التوجيهات والنصائح من ناحية، والجمع بين أكثر من نصيحة في بوتقة واحدة تصل للمتلقي بفضل الارتداد عبر الفواصل.

كما في نصائحه للكاتب "والكاتب بفضل رأيه... أولى بالرفق بصاحبه ومداراته، وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابًا، ولا تعرف خطأ ولا صوابًا"^(٤٠٠).

الجناس بين (جوابًا وصوابًا) يؤثر في درجة تقبل المتلقي لمداراة صاحب العمل والرفق به.

وفي قوله أيضًا لهم "وأنا أقول في آخر كتابي ما سبق به المثل: من يلزم النصيحة يلزمه العمل"^(٤٠١).

الجناس بين (المثل والعمل) يؤثر في تقبل المتلقي للعمل بشرط نصيحة عبد الحميد واتباع الكتاب لنصيحته.

وفي قوله "واحدروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف"^(٤٠٢).

وقوله "طالب الدنيا عليل، ليس يروى له غليل"^(٤٠٣).

• وفي سياق الحرب يأتي الجناس للتأثير بالسلب على المتلقي كالتهديد والوعيد في قوله لزعيم الخارجين على الدولة "حين يشتد الوغى وتخطر القتا، وتقلص الشفاة، وتسفر الكماة، فعند ذلك تسلمك المرد، وتكشف عن الجرد"^(٤٠٤).

جناس (المرد والجرد) آخر ما يصادف المتلقي، ويبقى في أذنه، وهي أدواته – من فرسان وخيل – الحربية التي يعتمد عليها فلا يجد لها القوة المطلوبة التي تحقق له النصر.

(399) السابق، ص ٢٣٣.

(400) السابق، ص ٢٨٦.

(401) السابق، ص ٢٨٨.

(402) السابق، ص ٢٨٦.

(403) السابق، ص ٢٩١.

(404) السابق، ص ٢١٤.

وقوله عن فرسان الدولة وخبرتهم وقوتهم في المقابل "ويرد عليك مع ذلك حربه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول" (٤٠٥).

جناس (الفحول، الوحول)، (الوعول، الوحول) آخر ما يبقى في ذهن المتلقي وأذنه فتكون بمثابة الإشارة إلى القوة الحربية لفرسان الدولة مما يعكس التهديد والوعيد بما سيلقاه منهم خلال المعركة.

وقوله عن صفات فرسانه وشغلهم الشاغل "فهو بطلبها أرب"، وعلى أهلها حرب" (٤٠٦).

فرسان عبد الحميد - الدولة - لا يفكرون إلا في الحرب.

وقوله عن مصير الخارجين على الدولة "حتى أعنقوا في حنادس ظلم جهالته، ومهاوي سبل ضلالته ذلاً عن سياقه، وسلساً في قياده، إلى نزل من حميم، وتصلية جحيم... إلى أن أصبح بفلاة قفر، وتيه صفر، بعيدة المناط، يقطع دونها النياط" (٤٠٧).

الجناس بين (حميم، جحيم)، (قفر، صفر)، (المناط، النياط) يضع في ذهن المتلقي المصير المحتوم الناتج عن شدة وقع موسيقى الجناس على أذن المتلقي.

والتهديد بالحرب واقترب أجلها كما في قوله "والله لكائي أنظر إلى شؤبوبها وقد همع، وإلى عارضها وقد لمع" (٤٠٨).

ولوقوع الجناس في مفردتين تمثل كل منهما آخر كلمة في فاصلتها أثر في إضفاء الحيوية على تلقي النص، وتزداد هذه الحيوية إذا كان الرابط بينهما علاقة التقابل الدلالي، فينتطوي التشابه الصوتي - الناتج عن الجناس - على تقابل معجمي يتأكد في ذهن المتلقي عن طريق الحركة التراجعية من نهاية فاصلة إلى السابقة عليها وهذا التراجع يتحقق بفضل الجناس الذي يلفت المتلقي عن طريق تأثيره في الأذن ومن ذلك قول عبد الحميد لولي العهد في إنزال طاعة الخارجين على الدولة "... وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً وأنجى له من العقاب آجلاً" (٤٠٩).

وعن القائم بالقضاء "فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة، أو شرف العاجلة، وحظوة الآجلة" (٤١٠).

وما يؤكد ما نذهب إليه وجود التقابل بين (الدنيا والآخرة) ولكنه ليس كتأثير (العاجلة والآجلة) الذي يؤثر في أذن المتلقي فيحقق الحركة التراجعية التي تنتج تأكيد البنية التقابلية.

(405) السابق، ص ٢١٤.

(406) السابق، ص ٢١٤.

(407) السابق، ص ٢٨٠.

(408) السابق، ص ٢٩٣.

(409) السابق، ص ٢٣٨.

(410) السابق، ص ٢٤٥.

وفي مشاهد الصيد قد يميل الكاتب إلى الجناس لإظهار المهارة في استخدام مفردات اللغة في التأثير على أذن المتلقي كما في قوله "ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب"^(٤١١).

وقوله أيضاً "قد أوفى بنا على حائل دلّ على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأمنّاها، فلما تطرّفنا مشياً وتقريباً إلى عاتاته توالى نهيقه، وكثر شهيقه"^(٤١٢).

ثانياً: السجع:

لعبد الحميد الكاتب خصائصه الأسلوبية التي تميزه عن غيره من الكتاب، ومن هذه الخصائص استخدام السجع في القليل من الفواصل "ولم يكن يحتفل بالسجع ويلتزمه، ولكنه كان ممن يميلون إلى التوازن بين العبارات والألفاظ"^(٤١٣).

ولا يعمد عبد الحميد إلى السجع لذاته، بل لخدمة النص وتوصيل المعنى المراد إلى المتلقي بأقرب الطرق، ولهذا السبب نجد قلة السجع عموماً في رسائل عبد الحميد. والسجع من وسائل البديع^(٤١٤) التي تكسب النص جرساً موسيقياً يلفت المتلقي إلى جوانب دلالية فضلاً عن كونه رابطاً صوتياً لطائفة من الفواصل "في صعيد واحد في ذهن المتلقي بما يدفعه للبحث عن وجود رابط دلالي مواز"^(٤١٥).

والسجع لا يضيف الحيوية في عملية تلقي النص فحسب "بل يؤثر كثيراً في تشكيل الدلالات ويشحنها بأنفعالات غير عادية، تجعل لها في عرف الأسلوبيين خصوصية تجاوز الانطباع الذي تحدثه اللغة في سياقها الموضوعي الصارم"^(٤١٦).

أما رسائل عبد الحميد فلم تلتزم السجع إلا رسالة واحدة جاءت كاملة ملتزمة السجع، وهي رسالته إلى أحد الخارجين على الدولة - الضحاك بن قيس - وكان الهدف منها إظهار جنود الدولة بمظهر معجز للخارجين مما يفتت من عضدهم والنيل من قوتهم النفسية قبل القتال، وجاء فيها "أما بعد، بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون .."^(٤١٧).

(411) السابق، ص ٢٦٨.

(412) السابق، ص ٢٧١.

(413) في النثر العربي: د/ محمد يونس، ص ٢١٧، أبو الهول للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.

(414) انظر في تفصيل السجع: الإيضاح للقزويني، المثل السائر لابن الأثير وغيرهما.

(415) أساليب النداء في القرآن الكريم: محمد سمير، ص ١٢٠، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية

الآداب جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

(416) قضية السجع بين القدماء والمحدثين: د/ محمد يونس، ص ٩، القاهرة، ١٩٨٦.

(417) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢١٤.

وبالتأمل في الفواصل المسجوعة في رسائل عبد الحميد نجد ميل الكاتب إلى السجع القصير، وهو ما يجعل الألفاظ المسجوعة "مسبوكة في قالب أسلوبى حاد النهايات بحيث لا يسمح للمعنى أن يفيض خارج تلك الأطر المحددة" (٤١٨). ويكاد يكون السجع كله قصيراً في رسائله، وهذا القصد إن دل على شيء، فعلى تمكن عبد الحميد من الأدوات اللغوية والبلاغية، وهذا النوع من السجع هو أشرف الأنواع (٤١٩) فله أثر موسيقي واضح لقرب المفردات المسجوعة من بعضها البعض. وللسجع أنواع من حيث الوزن فمنه المتوازي والمطرّف، والمرصع (*). وقد توزعت في رسائل عبد الحميد على النحو التالي

السجع من حيث النوع	عدد الفواصل المسجوعة	النسبة
القصير متوازي	٥٤٧	% ٧٥
القصير غير المتوازي	١٨٢	% ٢٥
المجموع	٧٢٩	% ١٠٠

المتوازي هو اتحاد المفردات المسجوعة في الوزن وهو يقارب ثلاثة الأرباع، ولاستخدام عبد الحميد لهذا النوع أثر في كشف الأبعاد النفسية للكاتب من ميل إلى النظام والترتيب، ويضفي رغبته في التأثير الموسيقي على أذن المتلقي، ولكنه تأثير نقي متوازي، كالتأثير المتوازي لأهل البطالة وذوي الجهالة على الأذن للتوازي الدلالي بينهما في ضررهما على ولي العهد في قوله "ثم وإياك وأن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة" (٤٢٠).

والتوازن بين زئير الأسود، ووثوب الفهود لإضفاء التناسق بين قوة الصوت وقوة الوثب لجنود الدولة كما في قوله "يزأرون زئير الأسود، ويثبون ووثوب الفهود" (٤٢١).

فهؤلاء جنود أقوياء تتوازن فيهم قوة الصوت وقوة الوثب وقوة الضرب والقتال كتوازي (الأسود، الفهود) الصوتي وتأثيرهما المتوازي على أذن المتلقي. وتأثير الفتنة المتوازي مع تأثير الشبهة على ولي العهد يلائم السجع المتوازي (مغشية، مردية) وتأثيره الصوتي على الأذن في قوله "فإن طاعتك إياه فيهم... وكالك عند كل فتنة مغشية، وحافظك من كل شبهة مردية" (٤٢٢).

(418) دراسات في لغة النص: د/ طارق سعد شلبي، ص ٣٤٣، زهرة المدائن للتوزيع والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(419) انظر، المثل السائر ج ١، ص ٢٣٥، وما بعدها.

(*) انظر في تفصيل أنواع السجع والتعريفات، بغية الإيضاح، ص ٨١ - ٩٣.

(420) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢٢٣.

(421) السابق، ص ٢١٤.

(422) السابق، ص ٢٣٦.

وتوازن الصفات في قائد الجيش، فلا تطغى واحدة على الأخرى كتوازن الصرامة والشهامة من قوله "قد بلوت منه ما يسكنك إلى ناحيته من لين الطاعة، وخالص المودة، ونكاية الصرامة، وغلوب الشهامة" (٤٢٣).

وتوازن مقدار التعب والنصب مع الطلب للصيد، فكلما زاد الطلب للفريسة زاد النصب من الجري وراءها ومحاولة اللحاق بها في قوله "حتى قصر بنا اليأس عن الطلب وقطع بنا عن الطمع النصب" (٤٢٤).

وتوازن الطبول الخافقة لأصوات الصياد الشاهقة فكلما ارتفعت الأصوات ارتفع معها صوت الطبول كما في قوله "ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها، ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة" (٤٢٥).

وتوازي صوت الموج المرتفع (صخب) مع آثار الدمار (لجب) الملازمة لهذا الصوت في قوله "وافى كتابك أمير المؤمنين، وموار الفرات يجيش بأرجائه، مطلقاً أمواجه، متزايلاً في حجراته، آذيه صخب، وغطامطه لجب" (٤٢٦).

• أما السجع غير المتوازي فعلى قلته في نثر عبد الحميد إلا أنه قد ربط بين الفواصل من ناحية، ومن ناحية أخرى كان السجع بمثابة الرابط الصوتي للمفردات المسجوعة، وبهذا الربط الصوتي يلتفت المتلقي إلى العلاقات الجامعة بين المفردات المسجوعة، كلفت انتباه المتلقي إلى العلاقة المنطقية بين المسجوعتين، كما في قوله في آخر رسائله يرثي حاله في الغربة من الشوق والخطر المحقق به من ملاحقة العباسيين له "وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداً" (٤٢٧).

أقام الكاتب السجع بين (بعداً، وجداً) ليلفت المتلقي بالتشابه الصوتي بينهما إلى علاقة السببية بينهما فوجد الكاتب واشتياقه لأهله نتيجة لبعده عنهم وقد يلفتنا صوت الدال الذي انطوى عليه السجع إلى وضوح الوجد على الكاتب الذي ربما نفهمه من صفات صوت الدال من وضوحه للسمع، وقد اختار الكاتب اتباع صوت الدال بالمد الذي وهبه طولاً في الفترة الزمنية المستغرقة في النطق به، وربما يضيف هذا الاختيار من الكاتب طولاً لفترات الوجد التي تسيطر على الكاتب من ناحية، وطولاً للمسافة الفاصلة بينه وبين أهله من ناحية أخرى، وكلما زادت تلك المسافة طولاً كلما زاد وجد الكاتب واشتياقه لأهله.

- وقوله في الغربة رابطاً بينها وبين الرغبة في المزيد من الدنيا "إذ الضيعة لمن اغترب، والغربة لمن اشتملت عليه الهموم، وتشعبته الرغبة، ففارق الأحبة، واستخلف منهم الغربة" (٤٢٨).

(423) السابق، ص ٢٤٨.

(424) السابق، ص ٢٧١.

(425) السابق، ص ٢٧١.

(426) السابق، ص ١٩٦.

(427) السابق، ص ٢٧٩.

(428) السابق، ص ٢٠٤.

أقام الكاتب السجع بين (الرغبة، الأحبة، الغربية) ليلفت المتلقي بالجرس الموسيقي النابع من التشابه الصوتي بينهم إلى علاقة السببية بينهم فالرغبة كانت المحرك الرئيس للكاتب ليقترب عن أهله ومن ثم كانت سبباً في فراقه لمن يحب، وكأن الكاتب بإظهار هذه العلاقة المنطقية يلوم نفسه فطمعه في المزيد من الدنيا غير حياته من الأمان والراحة في الوطن إلى الخطر والشقاء والضيعة واشتغال الهموم عليه في الغربية، ولعل إثارة الكاتب بصوت الباء لينطوي عليه السجع يلفتنا إلى اقتناعه بالعلاقة بين الرغبة والغربة وفراق الأحبة ومن ثم لوم نفسه، وذلك الاقتناع ربما نفهمه من وضوح صوت الباء للسمع الذي يعكس وضوح العلاقة بين المسجوعات السابقة.

● البناء الصوتي للسجع

تميزت الأصوات التي يتواطأ عليها السجع في الفواصل المسجوعة بانتشار الأصوات المجهورة على حساب المهموسة، وهذا الانتشار طبيعي^(٤٢٩) بالنسبة للواقع العملي في استعمال الأصوات المجهورة والمهموسة في الكلام، وكثرة تواطؤ السجع على الأصوات المجهورة يعكس رغبة عبد الحميد في وضوح تلك الأصوات حتى تصل إلى أذن المتلقي فيربط بين الفواصل المسجوعة ويستكنه العلاقات بينها، أو تجلية ما أراده الكاتب من المتلقي أثناء عملية التلقي، وتوضح نسبة تلك الأصوات المجهورة إلى المهموسة من الجدول التالي، ولا يساوي مجموعه عدد الفواصل المسجوعة لأننا اعتبرنا انطواء عدد من الفواصل على صوت واحد بمثابة صوت واحد فقط في عدد الفواصل ولم نحسبه بعدد الفواصل أي لم نحسبه مكرراً، فعدد الفواصل المسجوعة في نثر عبد الحميد بلغت ٧٢٩ أما الأصوات التي انطوت عليها الفواصل المسجوعة دون تكرارها في تلك الفواصل بلغت ٢٩٢ صوتاً.

صفات الأصوات المتواطئ عليها السجع	العدد مرة واحدة في أكثر من فاصلة	النسبة	عدد الفواصل التي ورد فيها الصوت	نسبة الفواصل
الجهر	١٩١	% ٦٦	٤٦١	% ٦٣
الهمس	١٠١	% ٣٤	٢٦٨	% ٣٧
المجموع	٢٩٢	% ١٠٠	٧٢٩	% ١٠٠

جدول رقم (١) السجع من حيث النوع

للصوت المتواطأ عليه السجع – المجهور استخدام لكشف أو توضيح الدلالة مما يعكسه من وضوح سمعي في أذن المتلقي كوضوح موقف الخارجين على الدولة وأصحاب الفتنة مما يتطلب وضوحاً مماثلاً في موقف المتلقي تجاههم كما في قوله عن نتائج الخلاف على الأئمة ومعصية ولاية الأمر أي الخليفة "وفي

(429) انظر، الأصوات اللغوية، ص ٢٢، وما بعدها.

الخلاف عليهم والمعصية لهم ذهاب كل نعمة ... ومقارفة كل ضلالة، واتباع كل جهالة" (٤٣٠).

الوضوح السمعي لصوت اللام في الأذن يعكس وضوح موقف الخارجين من الضلال البين والجهالة الواضحة ويظهر ذلك فيما ينتظرهم من عذاب يتضح بوضوح صوت الباء السمعي في الأذن كما في قوله "إلى ما أعد الله لهم من أليم العقاب، وسوء الحساب، وشديد العذاب" (٤٣١).

أو وضوح دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأهل مكة والجهنم بها، مع موقفهم الجلي من الدعوة ومقابلتها بالتكذيب الصريح مما استدعى ترغيب الرسول - p - وترهيبة لهم في صراحة مقابلة كما في قوله "... صابراً نفسه على الأذى والتكذيب، داعياً لهم بالترغيب والترهيب" (٤٣٢).

ووضوح أعضاء الجوارى - مما يعبر عن الجمال الحقيقي الظاهر - عند الشراء المناسب لوضوح الرأء سمعياً في قوله "منطقها رخيم، واسعة الصدر، دقيقة الخصر" (٤٣٣).

ووضوح النون للسمع في قوله أيضاً "ضخمة الركبة، بلجاء ما بين العينين بعيدة ما بين المنكبين، ... معروفة الأبوين، طويلة الخدين" (٤٣٤).

ووضوح آثار طغيان النهر المدمر على السدود والأراضي حوله مما يعكس شدة طغيان النهر وشدة ما خلقه من تدمير من وضوح صوت الياء في قوله "ولا يتحدر منصباً إلا أبقى به أخافيق، ومستنّ رقراق، فسكوره(*) واهية، وبثوقه متداعية" (٤٣٥).

• وقد توزعت الأصوات المجهورة المتواطأ عليها السجع في الفواصل على أصوات دون أخرى، وزيادة في استعمال صوت عن آخر، والجدول التالي يوضح تلك الأصوات.

(430) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢٠٩.

(431) السابق، ص ٢١٢.

(432) السابق، ص ٢٦٦.

(433) السابق، ص ١٩٧.

(434) السابق، ص ١٩٨.

(*) المقصود سدوده.

(435) السابق، ص ١٩٦.

الصوت	العدد	نسبته	عدد الفواصل	مقيد	نسبته	مطلق	نسبته
م	٥٨	%٣٠,٥	١٦٤	٥١	%٨٨	٧	%١٢
ن	٣٢	%١٦,٥	٧٨	٢٦	%٨١	٦	%١٩
ب	٢٨	%١٥	٥٩	٢١	%٧٥	٧	%٢٥
ل	٢٢	%١٢	٤٨	١٤	%٦٤	٨	%٣٦
ر	٢١	%١١,٥	٤٩	١٠	%٤٨	١١	%٥٢
د	١٠	%٥	٢٠	٤	%٤٠	٦	%٦٠
ي	٩	%٥	٢٠	١	%١١	٨	%٨٩
ء	٦	%٣	١٣	٤	%٦٧	٢	%٣٣
ع	٣	%١,٥	٦	٢	%٦٧	١	%٣٣
ج	١	%٠,٥	٢	-	%٠٠	١	%١٠٠
و	١	%٠,٥	٢	-	%٠٠	١	%١٠٠
	١٩١	%١٠٠	٤٦١	١٣٣		٥٨	
	~~٢٩٢~~		~~٧٢٩~~	%٧٠		%٣٠	

(٣) توزيع الأصوات المجهورة التي انطوى عليها السجع نسبة (م) ٢٠% من الأصوات ٢٣% من إجمالي الفواصل

وبالتأمل في الجدول السابق نجد نصيب صوت الميم في انطواء السجع عليه في الفواصل، فهو يقارب الثلث، ولصوت الميم وضوح سمعي، ولهذا فهو منتشر في عملية الكلام عامة، ومن الملاحظ أن غالبية الأصوات المتواطأ عليها في السجع تنتمي إلى المخارج الأمامية(*) فتشكّل وحدها ما يزيد على تسعة أعشار الأصوات المجهورة وهذه الأصوات على الترتيب (م، ن، ب، ل، ر، د) وهذه الأصوات لها من الوضوح السمعي ما يفوق غيرها وهو ما أراده عبد الحميد من لفت الانتباه إلى أواخر الفواصل، والربط بينها في حركة تراجعية تحقق له كشف أبعاد الدلالة فتشمل التأمل في مفردات كل الفواصل.

- وانتشار الأصوات التي تنتمي إلى المخارج الأمامية يضيف السلسلة على الكلمات، مما ينعكس بالطبع على سلسلة تقبل المتلقي للنص ومن ثم وضوح الدلالة في ذهنه.

وقد فطن عبد الحميد إلى خصائص هذه الأصوات (م، ن، ب، ل، ر، د) فأورد أغلبها في رسالة واحدة تنطوي على السجع في غالبية الفواصل وكانت من أهم رسائله فجاء فيها "أما بعد، بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال تختضب بالجريال، رجال هم الرجال، بين راح وناشب ليس معهم إلا كلب محارب، لا يهابون الضراب، ولا ياكلون عن الأصحاب، قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا

(*) انظر تفصيل أصوات المخارج الأمامية، الأصوات اللغوية، ص ٤٣، وما بعدها.

الكرّ والإقدام، ليسوا بذوي هيبة، ولا إحجام يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعتهم الحتوف، يزارون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شكّ محتك، في الحرب مجرّب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأما أشرب وجهه نقيع الحناء، قد رئم الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمّه وهو ابنها، يسكن إليها، ويأنس بقربها، فهو بطلبها أربّ، وعلى أهلها حرب، لا يروعه ما يروع الهدان، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان، حين يشتد الوغى، وتخطر القتا، وتقلص الشفاه، وتسفر الكماة، فعند ذلك تسلمك المرد وتكشف عن الجرد، فتأهب لذلك أهبتك، وأخطب له خطبتك، من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون. فما أسرنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول، فإنك لا تكثف جمعاً، ولا تشرب خيلاً إلا وثقنا أن سيمدنا الله من ملائكته، ويؤيدنا من نصره، بما جرت به سنته، وسلفت به عادته، ونحن نجري من ذلك على نجمات من الله ونكال وسطوات مهلكة فرأيتم ذلك في المنازل، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل، فأبشر منا بما ساءك ضجرًا، ومشاك ثقاد كما يقاد الجمل المخشوش" (٤٣٦).

فأهمية الرسالة السابقة ترجع إلى الغاية من إرسالها، فهي رسالة إلى أحد الخارجين على الدولة ويظهر له عبد الحميد فيها قوة جنود الدولة وتجهيزهم حتى يتمكن الخوف، ومن ثم الهزيمة بعد المعركة، أو الاستسلام قبلها، فهي إذن وسيلة للتأثير على الروح الداخلية للعدو فتتال من قدرتهم القتالية، أو يطغى عليهم اليأس حتى يستسلموا للدولة.

ولهذه الأهمية أثر عبد الحميد أن تبنى الفواصل على السجع والانتواء على هذه الأصوات السلسلة في النطق والواضحة في السمع حتى تصل الرسالة جلية واضحة فيضمّن لها عبد الحميد النتيجة المأمولة من إرسالها فبدأ الكاتب رسالته بإقامة السجع على صوت النون أول فاصلتين (المقربون، الغالبون)، ثم صوت اللام في سبع فواصل (الكهول إلى الرجال) ثم صوت الباء في أربع فواصل (ناشب إلى الأصحاب)، ثم صوت الميم في ثلاث فواصل (الهام إلى إحجام)، ثم صوت الفاء في ثلاثة فواصل (السيوف إلى الحتوف)، ثم صوت الدال في فاصلتين (الأسود، الفهود)، ثم صوت اللام ثانية في فاصلتين (أكل، كلكل)، ثم صوت الباء ثانية في فاصلتين (أرب، حرب)، ثم صوت النون ثانية في فاصلتين (الهدان، الجبان). وبهذا فإن صوت النون قد ورد مرتين في أربع فواصل مسجوعة منطوية عليه، وصوت اللام ورد مرتين في تسع فواصل مسجوعة منطوية عليه، وصوت الميم ورد مرة واحدة في ثلاث فواصل مسجوعة منطوية عليه وصوت الفاء مرة واحدة في ثلاث فواصل مسجوعة منطوية عليه، وصوت الدال مرة واحدة في فاصلتين مسجوعتين منطويتين عليه. وبهذا يكون عدد الأصوات التي انطوى عليها السجع تسعة أصوات هي (ن مرتين، ل مرتين، ب مرتين، م مرة واحدة، د مرة واحدة، ف مرة واحدة) وردت في سبع وعشرين فاصلة مسجوعة.

(436) السابق، ص ٢١٤.

- أما الأصوات المهموسة التي انطوى عليها السجع في الفواصل المسجوعة احتلت ما يقارب ثلث الأصوات توزعت كالتالي

الصوت	عدد منطوياً عليه السجع	نسبته	عدد الفواصل	مقيد	نسبته	مطلق	نسبته
ك	٤٦	% ٤٥,٥	١٤٣	٤٦	% ١٠٠	-	% ٠٠
ت	٣٥	% ٣٤,٥	٨٣	١١	% ٣١	٢٤	% ٦٩
ق	٨	% ٨	١٧	٢	% ٢٥	٦	% ٧٥
ف	٦	% ٦	١٣	٤	% ٦٧	٢	% ٣٣
ح	٣	% ٣	٦	-	% ٠٠	٣	% ١٠٠
ط	٢	% ٢	٤	١	% ٥٠	١	% ٥٠
س	١	% ١	٢	١	% ١٠٠	-	% ٠٠
المجموع	١٠١	% ١٠٠	٢٦٨	٦٥		٣٦	
	~~٢٩٢~~		~~٧٢٩~~	٦٤		% ٣٦	
				%			

(٤) توزيع الأصوات المهموسة التي انطوى عليها السجع في الفواصل نسبة ك = ١٦% من إجمالي الأصوات ٢٠% من إجمالي الفواصل وبالتأمل نجد تواتر صوت الكاف فيقترب من نصف الأصوات المهموسة، ويليه التاء فالقاف والفاء.

ولأن نثر عبد الحميد يندرج تحت الرسائل الديوانية - في غالبه - فهو ما يتطلب إرسال المعلومات أو الأوامر من ديوان الخليفة إلى رعيته في أرجاء الدولة، وهو ما يتطلب توجيه الخطاب من الكاتب إلى أحد الرعية والحرف المسئول عن الخطاب هو (الكاف)، وهو ما يفسر هذه الزيادة في تواتره منطوية عليه الفواصل المسجوعة وهذه الزيادة وصلت به إلى بلوغ ما يقرب من خمس الأصوات التي انطوى عليها السجع في الفواصل المسجوعة كلها في رسائل عبد الحميد، تركزت خاصة في رسالته إلى ولي العهد - رسالة الجند - وهي من أكبر أعمال عبد الحميد وأهمها.

فجاءت الفواصل المسجوعة متفقة على صوت الكاف في توجيه الخطاب لولي العهد كما في قوله " ... أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك، وعوام شؤونك ودخائل أحوالك، ومصطرف تنقلك" (٤٣٧).

وقد ارتبطت الأصوات المهموسة التي انطوى عليها السجع بالدلالة ارتباطاً وثيقاً كصوت الفاء الذي ورد مرتبطاً بالحرب والخشونة وشدة الحال كما في قوله

(437) السابق، ص ٢١٦.

"فهو ومن معه ينعي إليكم الإسلام وشرائعه بتجريدكم السيف، وإظهارهم الحيف، وإدخالهم على الناس الخوف" (٤٣٨).

ولعل ارتباط صوت الفاء بالخشونة وشدة الحال نابع من الجهد العضلي المبذول في نطقها كما في قوله "يقضون بالسيف، ويخالطون الزحوف في أعنتهم الحتوف" (٤٣٩).

أما الفقر والذل وشدة الحال نتيجة التسليم للخارجين على الدولة ففي قوله "إن أقررتم لهم؛ أقمتم في ذلة الدار، قد أوطئتم الخسف، ومنعتم النصف، واستأسرتم للبلى" (٤٤٠).

وهذا الارتباط مناسب للجهد العضلي الشاق في نطق الأصوات المهموسة عامة، فهي تستغرق وقتاً أطول من المجهورة في عملية النطق، ولا تتميز بالوضوح السمعي مثلها.

ولعل ارتباط صوت الفاء بالحرب وشدة الحال نابع من إجهاده في عملية النطق من ناحية، ومن الحفيف الخافت الذي يشبه فحيح الأفعى المنذر بالخطر والموجب للحذر من ناحية أخرى.

● البناء الصوتي للسجع

المتأمل في الفواصل المسجوعة في رسائل عبد الحميد يخرج بنتيجة ألا وهي أن الكاتب يفضل تواطؤ الفواصل على الأصوات المجهورة كما سبق، والأصوات الشديدة كما يتضح من الجدول التالي

الأصوات المتواطأ عليها السجع من حيث	عدد الأصوات	نسبته	عدد الفواصل
الشدة	١٣٦	٤٦,٥ %	٣٤١
الرخاوة	٢٣	٨ %	٤٩
بين الشدة والرخاوة	١٣٣	٤٥,٥ %	٣٣٩
المجموع	٢٩٢	١٠٠ %	٧٢٩

(٥) السجع من حيث شدة ورخاوة الأصوات التي انطوى عليها في الفواصل المسجوعة

ويظهر من الجدول السابق القلة المفرطة للأصوات الرخوة المنطوي عليها سجع الفواصل فلم تتعد عشر الأصوات كلها.

وقلة الأصوات الرخوة تقابلها زيادة في تواتر الأصوات الشديدة الانفجارية، التي تكاد تقترب في عدد انطواء السجع عليها من عدد انطوائه على الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة.

وللأصوات الشديدة خصائصها التي تميزها فهي أسرع نطقاً، ولها وضوح نسبي في السمع، وتتميز بالقوة. وقد وردت الأصوات الشديدة منطوياً عليها السجع

(438) السابق، ص ١٩٩.

(439) السابق، ص ٢١٤.

(440) السابق، ص ٢٠٠.

مقترنة بالحدة والقوة والثبات في المواقف، فهي ملائمة لغضب الله على الخارجين في قوله "لأن يد الله على الحق، والحق بكم أولى، وأنتم إليه أقرب، والله عليهم أغضب" (٤٤١).

وشدة التعب وحدته من آثار الغربة والترحال كما في قوله "... ونحن في تعب الدنيا: توجف بنا مطايا الشقاء نباكر دلجها بغم النصب، ومبهظ التعب، واحتمال الجفوة وذلّ التجهم فالأبدان خاشعة لطول الدأب" (٤٤٢).

ختمت الفواصل في الشاهد الأول بـ (أقرب، أغضب) وفي الشاهد الثاني بـ (غم النصب، مبهظ التعب، طول الدأب) وهو ما ناسب شدة وحدة صوت الباء.

وملائمة الشدة آثار الغربة على نفس عبد الحميد فختم الفواصل بالأصوات الشديدة كما في قوله "إذ الضيعة لمن اغترب، والغربة لمن اشتهت عليه الهموم، وتشعبته الرغبة؛ ففارق الأحبة واستخلف منهم الغربة، وكادح الأسفار، وأتعب البدن وأقلق الشخص ونابذ الدعة، واعتاض النصب" (٤٤٣).

انطوى السجع في الفاصلة الأولى (اغترب) وفي نهاية الفاصلة الأخيرة (النصب) ذات الطول الملحوظ على صوت الباء الذي ربما لاعم بشدته شدة آثار الغربة على عبد الحميد.

وشدة الوجدان والحنين لمولود له كما في قوله "... وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوجد، فأنا به جذلّ في مغربي ومشهدي" (٤٤٤). انطوى السجع في أول فاصلتين (الولد، الوجد) على صوت الدال الذي لاعم بشدته شدة حنين الكاتب ووجده لمولود له.

وقريب من ذلك قوله عن مصير أصحاب الفتنة "... حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم إلى الإيجاف في التعب، وسوء المنقلب" (٤٤٥).

انطوى السجع في الفاصلتين (التعب، المنقلب) على صوت الباء الذي ناسب شدة تعب المفتونين بالدنيا وشدة ما سيلقونه من مصير أليم.

وقد توزعت الأصوات الشديدة المنطوي عليه سجع الفواصل على أصوات دون أخرى فتواطأت الفواصل على أصوات شديدة تتفاوت في تواترها، ويتضح ذلك من الجدول التالي:

(441) السابق، ص ١٩٩.

(442) السابق، ص ٢٠٣.

(443) السابق، ص ٢٠٣.

(444) السابق، ص ٢٠١.

(445) السابق، ص ٢١٣.

الصوت	عدد وروده منطويًا عليه السجع في الفواصل	نسبته	عدد الفواصل	مقيد	نسبته	مطلق	نسبته
ك	٤٦	٣٤%	١٤٣	٤٦	١٠٠	-	٠٠%
ت	٣٥	٢٦%	٨٣	١١	%	٢٤	٦٩%
ب	٢٨	٢٠,٥	٥٩	٢١	٣١%	٧	٢٥%
د	١٠	%	٢٠	٤	٧٥%	٦	٦٠%
ق	٨	٧,٥%	١٧	٢	٤٠%	٦	٧٥%
ع	٦	٦%	١٣	٤	٢٥%	٢	٣٣%
ط	٢	٤%	٤	١	٦٧%	١	٥٠%
ج	١	١,٥	٢	-	٥٠%	١	١٠٠%
		%			٠٠%		%
المجموع	١٣٦	٤٦,٥	٣٤١	٨٩	٦٥%	٤٧	٣٥%
	٢٩٣	%	٧٢٩				
		%	٤٧%				

(٦) الأصوات الشديدة التي انطوى عليها سجع الفواصل

ونلاحظ كثرة الفواصل التي اتفقت على صوت الكاف – وقد فسرنا سبب ذلك(*) – يليها صوت التاء ثم الباء فالدال .. إلخ.

ومما سبق اتضح ملاءمة الأصوات الشديدة المتواترة في الفواصل المسجوعة للسياق الواردة فيه، فصبغت تلك الأصوات دلالة الفواصل بصبغتها التابعة من خصائصها الصوتية خاصة صوت الباء الذي ناسب بشدته الدلالة على الشدة في الشواهد السابقة.

• وقد احتلت الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة جزءًا كبيرًا من استعمال عبد الحميد لها في انطواء السجع عليها في الفواصل، فقد قاربت نصف تلك الأصوات. والأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة هي (م، ن، ل، ر)(**)

(*) انظر التعليق على جدول رقم (٤).

(**) انظر صفات الأصوات المتوسطة، المدخل إلى علم اللغة، د/ رمضان عبد التواب، ص ٤٢ وما بعدها.

فالميم والنون صوتان أنفيان واللام صوت جانبي والراء صوت تكراري وتلك الأصوات جميعها مجهورة. وتتميّز تلك الأصوات بطول المدّة الزمنية المستغرقة للنطق بها، فأصوات اللين هي أطول الأصوات مدّة في النطق "ويُلي أصوات اللين في الطول الطبيعي الأصوات الأنفية: وهي النون والميم فهما من أطول الأصوات الساكنة، ثم الأصوات الجانبيّة كاللام، ثم المكررة، كالراء" (٤٤٦).

وبجانب طول المدّة الزمنية المستغرقة للنطق بالأصوات المتوسطة فهي من الأصوات التي تتميز بالوضوح للسمع، إذ تعد من أوضح الأصوات بعد الحركات (*). وقد توزعت منطويًا عليها سجع الفواصل في نثر عبد الحميد حسب الجدول التالي

جدول رقم (٧)

الصوت	عدد وروده منطويًا عليه السجع	نسبة الورد	عدد الفواصل المسجوعة التي انطوت عليه	مقيد	نسبته	مطلق	نسبته
م	٥٨	٤٣,٥%	١٦٤	٥١	٨٨%	٧	١٢%
ن	٣٢	٢٤%	٧٨	٢٦	٨١%	٦	١٩%
ل	٢٢	١٦,٥%	٤٨	١٤	٦٤%	٨	٣٦%
ر	٢١	١٦%	٤٩	١٠	٤٨%	١١	٥٢%
الإجمالي	١٣٣	٤٥,٥%	٣٣٩	١٠١	٧٦%	٣٢	٢٤%
	٢٩٢		٧٢٩				

ومن الجدول السابق نتبين كثرة انطواء سجع الفواصل على صوتي الميم والنون يليهما اللام فالراء ومن الجدير بالذكر أن صوت الميم وحده قد ورد منطويًا عليه سجع الفواصل في نثر عبد الحميد بنسبة الخمس تقريبًا من تلك الأصوات، ولعل تلك النسبة طبيعية لكثرة استعمالها في الكلام المنطوق ضميرًا ملحقًا بالأسماء والأفعال، ولعل ذلك يفسر كثرة صوت النون أيضًا في انطواء السجع عليه في نثر عبد الحميد لارتباطه بصيغتي جمع المذكر السالم والمثنى.

وقد ارتبطت الأصوات المتوسطة المنطوي عليها سجع الفواصل في نثر عبد الحميد بعدة سياقات منها سياق الوصف وسياق التهديد وسياق النصائح، ولعل الرابط بين هذه السياقات وانطواء السجع على الأصوات المتوسطة هي رغبة الكاتب في الوضوح لوصول دلالة هذه السياقات واضحة في ذهن المتلقي من ناحية، والحاجة إلى استيقاف المتلقي أطول مدّة زمنية بإزاء الفواصل في تلك

(446) الأصوات اللغوية، ص ١٢٧.

(*) انظر في تفصيل الوضوح السمعي للأصوات، المدخل إلى علم اللغة، ص ١٠٠.

السياقات ليستوعب دلالاتها من ناحية أخرى، وذلك الوضوح والطول في المدة الزمنية المستغرقة في نطق الأصوات المتوسطة من صفات تلك الأصوات التي ربما ناسبت السياقات السابقة.

ففي سياق الوصف نجد استعمال الكاتب لصوت الراء منطويًا عليه سجع الفواصل ليكون الوصف متضاحًا للمتلقى ليشارك الكاتب ما يراه من الطبيعة خلال عملية الصيد كما في قوله "ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من السحاب مسفرة؛ فتلألأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار"^(٤٤٧). انطوت الفواصل (الأشجار، النوار، الأبصار) على صوت الراء الذي ربما أضفى بوضوحه للسمع على الفواصل وضوحًا يجعل المتلقي متلقيًا وصف الكاتب بوضوح ليس هذا فحسب، بل ويستوقف المتلقي بطول المدة الزمنية المستغرقة في نطقه بإزاء صور الطبيعة ليتمثلها في ذهنه ويشارك الكاتب ما يراه في أرض الصيد، وقد دعم الكاتب هذا الاستيقاف بالمد قبل صوت الراء ليوفر للمتلقي أطول مدة ممكنة في تمثيل صور الطبيعة من الأشجار والأزهار.

وفي وصف جارية يطلب الكاتب على لسان الخليفة شراءها ويوكل المتلقي بشرائها بعد تحري الصفات المذكورة قد أثر الكاتب انطواء سجع الفواصل على صوت النون ليضفي وضوحًا على وصفه للجارية كما في قوله "... بلجاء ما بين العينين، بعيدة ما بين المنكبين ... معروفة الأبوين، طويلة الخدين"^(٤٤٨).

وفي سياق التهديد يتخذ الكاتب من وصف جنود الدولة وفرسانها وسيلة للنيل من ثقة المتلقي في نفسه وفي جنوده، وفي هذا السياق يستعمل الكاتب الأصوات المتوسطة منطوية عليها الفواصل المسجوعة لتضفي بوضوحها وضوحًا على وصف قوة فرسان الدولة وخبرتهم وشجاعتهم، وتستوقف بطول المدة الزمنية المستغرقة في نطقها المتلقي ليبقى أطول مدة ممكنة بإزاء الوصف ويتمثل فرسان الدولة في قوتهم وشجاعتهم وتبقى صورتهم في ذهنه ليزداد خوفه ويفقد ثقته في فرسانه، كما في قوله مهددًا المتلقي مستخدمًا أصوات الميم والنون واللام منطويًا عليها سجع الفواصل "ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال رجال هم الرجال ... قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكرّ والإقدام، ليسوا بذوي هيئة ولا إحجام"^(٤٤٩).

وعن الفارس "لا يروعه ما يروع الهدان، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان"^(٤٥٠).

ومن اللافت أن الفواصل المسجوعة انطوت على الأصوات المتوسطة لتحقق بطنًا في تلقي الوصف وقد ألحّ الكاتب على هذا البطء بإيراد المد قبل

(447) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢٦٩.

(448) السابق، ص ١٧٨.

(449) السابق، ص ٢١٤.

(450) السابق، ص ٢١٤.

الأصوات المتوسطة، كالمَد بالواو قبل صوت اللام في (الكهول، الفحول، الوعول، الوحول) الواردة آخر الفواصل المسجوعة، والمَد بالألف قبل صوت اللام أيضاً في (السبال، الجريال، الرجال) الواردة آخر الفواصل المسجوعة التالية للسابقة، والمَد بالألف أيضاً بعد صوت الميم في (الهام، الإقدام، إحجام) الواردة آخر الفواصل المسجوعة التالية للسابقتين، والمَد بالألف أيضاً قبل صوت النون في (الهدان، الجبان) الواردتين آخر الفاصلتين المسجوعتين الأخيرتين.

وبهذا الإلحاح على تحقيق البطء في تلقي النص يكون الكاتب قد أبقى المتلقي أطول مدة ممكنة ليؤثر فيه بصورة فرسان الدولة المعجزة له.

وفي سياق النصح يلائم وضوح الأصوات المتوسطة وضوح النصيحة للمتلقي، وربما يهيبه البطء تأملاً في النصائح الموجهة من الكاتب حتى يستوعبها المتلقي. فينطوي السجع على صوت الميم خلال نصائحه لفئة الكتاب ليضفي بوضوحه السمعي على النصائح وضوحاً يضمن به الكاتب وصول النصيحة جلية واضحة للكتاب كما في قوله "فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره إلى أن يكون حليماً في موضع الحلم فقيهاً في موضع الحكم، مقدماً في موضع الإقدام، ومحجماً في موضع الإحجام"^(٤٥١).

وبالرغم من قلة انطواء الفواصل المسجوعة على الأصوات الرخوة، فقد ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالدلالة التي تصل من عبد الحميد إلى المتلقي عبر رسائله وسيأتي توضيح هذا الارتباط في الصفحات التالية وقد توزعت الأصوات الرخوة المنطوية عليها سجع الفواصل كما في الجدول التالي:

عدد وروده منطوي عليه السجع	نسبته	عدد الفواصل	مقيد	نسبته	مطلق	نسبته	الصوت
٩	% ٣٩	٢٠	١	% ١١	٨	% ٨٩	ي
٦	% ٢٦	١٣	٤	% ٦٧	٢	% ٣٣	ف
٣	% ١٣	٦	٢	% ٦٧	١	% ٣٣	ع
٣	% ١٣	٦	-	% ٠٠	٣	% ١٠٠	ح
١	٤,٥ %	٢	-	% ٠٠	١	% ١٠٠	و
١	% ٤,٥ %	٢	١	% ١٠٠	-	% ٠٠	س
٢٣	% ٨	٤٩ - % ٧	٨	% ٣٥	١٥	% ٦٥	الإجمالي

جدول رقم (٨) توزيع الأصوات الرخوة التي انطوي عليها السجع

(451) السابق، ص ٢٨٢.

ومن الجدول نلاحظ كثرة صوت الياء في وروده منظويا عليه السجع، يليه صوت الفاء(*) ثم العين، فالحاء ... إلخ.

وقد ارتبط صوت الياء المنطوي عليه سجع الفواصل في نثر عبد الحميد بالسياقات التي تتميز فيها الدلالة بالانكسار والانحدار، ولعل هذا الارتباط نابع من تراجع اللسان عند النطق بصوت الياء الذي يوحي بالتراجع عن موقف ما كتراجع الخارجين على الدولة عن تقدمهم في القوة، ومن ثم الانحدار كما في قوله "وإن كان الله ابتعثهم لتمام البليّة، وقتل الحرية، وضياح الذرية، فستهوى عليهم مشدّدات البلياء بتتابع المنيا" (٤٥٢).

ومن اللافت للنظر أن صوت الياء – الصامت – صبغ الدلالة بالانكسار والانحدار النابع من تراجع اللسان عند النطق به، كاندحار الخارجين المحتوم آخر الفواصل السابقة.

وتلائم دلالة الصبر والثبات عند الغضب في مواجهة انكسار الجهالة وخفة العقل كما في نصائحه لولي العهد "وعليك بالتثبت عند سورة الغضب، وحمية الأنف، وملال الصبر في الأمر تستعجل به، والعمل تأمر بإنفاذه، فإن ذلك سخف شائن، وخفة مردية، وجهالة بادية" (٤٥٣).

وارتبطت بعض الأصوات الرخوة بالشؤم وصعوبة الحال، كصوت الحاء في قوله عن الدنيا وأثرها في نفسه أثناء هروبه "فمرفقتنا عن الأوطان وقطعتنا عن الأخوان، فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة" (٤٥٤).

– وأصبح الآن من المؤكد استخدام عبد الحميد لأدوات اللغة وتطويعها لإرادته الأدبية، فهو يلائم في السجع – وهو آخر ما يبقى في ذهن المتلقي – بين اختيار الأصوات التي انطوى عليها سجع الفواصل، وبين ما أراد توصيله للمتلقي حتى تتناسق تلك الأصوات مع الدلالة المستقاة منها، فيسهل التأثير على أذن المتلقي للالتفات إلى الدلالة.

● الصوت المنطوي عليه السجع من حيث الإطلاق والتقييد

نسبته	العدد	الصوت المنطوي عليه السجع من حيث
٦٨ %	١٩٨	التقييد
٣٢ %	٩٤	الإطلاق
١٠٠ %	٢٩٢	

(٩) الصوت المنطوي عليه السجع من حيث الإطلاق والتقييد

من الملاحظ أن الصوت المنطوي عليه السجع غلب عليه التقييد أو سكون الآخر فيبلغ ما يقارب ثلثي الأصوات مقابل الصوت المطلق وهذه الزيادة طبيعية، فقد وضع البلاغيون شرطاً "أن تكون فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون

(*) سبق الإشارة إليه عند دراسة الأصوات المهموسة التي انطوى عليها السجع.

(452) السابق، ص ١٩٩.

(453) السابق، ص ٢٣٢.

(454) السابق، ص ٢٧٩.

ساكنة الأعجاز موقوفا عليها بالسكون في حال الوقوف والدرج لأن الغرض معه هو التناسب بين القرائن أو المزاجية بين النثر، وذلك لا يتم إلا بالوقف والسكون^(٤٥٥).

وقد ارتبطت الفواصل المسجوعة المقيدة في رسائل عبد الحميد بالإحكام والنظام والتحديد، كتحديد صفات الجواري عند الانتقاء مع إحكام الأعضاء دون الشطط عن الصفات المطلوبة كما في قوله "منطقها رخيم، واسعة الصدر، دقيقة الخصر"^(٤٥٦).

أو تحديد صفات المحاربين وإحكام الضرب أثناء القتال فهم "قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكرّ والإقدام، ليسوا بذوي هيئة ولا إحجام"^(٤٥٧). وهم أيضاً "رجال هم الرجال، بين رامح وناشب، ليس معهم إلا كلب محارب، لا يهابون الضراب، ولا ينكلون عن الأصحاب"^(٤٥٨). فلا يخفى علينا الترتيب والنظام من رامح وناشب فكل يعرف وظيفته في الجيش، ولهم صفات محددة فهم من الشجاعة بحيث لا يخافون القتال والضراب ولا يتخلون عن أصحابهم.

وتلائم ضبط النفس كما في قوله ناصحا ولي العهد "فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل، وخروج عن انتحال اسم الفضل"^(٤٥٩).

وتلائم إحكام المراسد من قوله لولي العهد "فاحذر أن يشهر رجل من جواسيسك في عسكريك، فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه، فيعدّ له المراسد، ويحتال له بالمكايد"^(٤٦٠).

وتلائم النتيجة المضمونة في استمالة جنود العدو بالمال كما في قوله "فإن بسط يده بقتلهم وأولغ سيفه في دمائهم، وأسرع الوثوب بهم؛ أشعرهم جميعاً الخوف، وشملهم الرعب، ودعاهم إليك الهرب، فتهافتوا نحوك بالنصيحة، وأمّوك بالطلب"^(٤٦١).

وتناسب إحكام الرأي والثبات على المواقف المختلفة بما يتناسب معها كما في قوله ناصحاً فئة الكتاب "فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه... مقدماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام"^(٤٦٢).

(455) البلاغة والأسلوبية: د/ محمد عبد المطالب، ص ٢٩٢، لونجمان، القاهرة، ١٩٩٤م.

(456) عبد الحميد بن يحيى ... ص ١٩٧.

(457) السابق، ص ٢١٤.

(458) السابق، ص ٢١٤.

(459) السابق، ص ٢٢٩.

(460) السابق، ص ٢٤٢.

(461) السابق، ص ٢٦٣.

(462) السابق، ص ٢٨٢.

• أما الصوت المنطوي عليه السجع المتميز بالإطلاق فله توظيف دلالي في رسائل عبد الحميد، يتلاءم هذا التوظيف مع خصائص هذا الصوت المطلق ولألف المد بعد هذا الصوت دلالة الاتساع والخروج به إلى الامتداد في النطق^(*).

وهذا الاتساع يضيف الإجلال والتعظيم على الخليفة والمهابة من غضبه كما في قوله في سياق التهديد "فإنه قد كان من متحرك غضب أمير المؤمنين عليك، ما لم يقم به جلنا، ولم يبلغه جاهنا ومقدرتنا"^(٤٦٣).

فرسالة عبد الحميد للمتلقى تهدف إلى احترام غضب الخليفة الذي يعكس مدى الجرم الذي ارتكبه المتلقى ليصل غضب الخليفة لهذا القدر من الاتساع والانتشار.

ويناسب اتساع الأرض أمام خيل الحرب، مما يوحي بقوة هذه الخيل أثناء عملية القتال، وسرعة انتشارها واجتيازها الأرض كما في قوله محذراً ولي العهد "وياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيول مهلوبة؛ فإنها أسرع طلباً، وأنجى مهرباً"^(٤٦٤).

ويناسب طول فترات التحذير والصبر عليه حتى لا يركن القواد إلى الغفلة عن الجنود إذا أرادوا الهروب من الحرب كما في قوله لولي العهد "ثم تقدم إليه محذراً ومره زاجراً، وأنه مغلظاً بالشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكر من جندك بغير جوازك"^(٤٦٥).

ويناسب اتساع المسافة بين عبد الحميد ومن يحب مما استدعى زيادة الشوق والوجد إليهم كما في قوله "وكتبت إليكم، والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداً"^(٤٦٦).

ويناسب اتساع الصفات كصفة الكرم والجود بغرض استجداء الخليفة كما في قوله "فأثبهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي آتاك فإنك أجودهم جوداً، وأبسطهم يداً"^(٤٦٧).

• ثالثاً اللزوم

قد تلتزم الفواصل صوتاً آخر قبل الصوت المنطوي عليه السجع فتتواطأ الفواصل المسجوعة على صوتين، وهو ما يسمى اللزوم وقد حدده ابن الأثير بقوله "فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي

(*) انظر صفات أصوات اللين، الأصوات اللغوية، ص ٣٦ وما بعدها، ص ١٢٧، وما بعدها.

(463) السابق، ص ٢٠٧.

(464) السابق، ص ٢٤٦.

(465) السابق، ص ٢٥٣.

(466) السابق، ص ٢٧٩.

(467) السابق، ص ٢٩٩.

أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها، وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً^(٤٦٨).

وعلى قلة اللزوم في رسائل عبد الحميد إلا أنه وظف صوتياً ودلالياً أيضاً، فلا يعدم المتلقي الجرس الموسيقي التابع من تكرار أكثر من صوت في كلمة الفاصلة مما يلفت المتلقي إلى العلاقات بين الفواصل والجوانب الدلالية لهذا التكرار، كاتطواء التشابه الصوتي على المخالفة الدلالية كما في قوله مهدداً المتلقي بقوة جنود الدولة وخبرتهم الحربية "ليس فيهم إلا شاك محتك، في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل"^(٤٦٩).

بين (أكل وكلكل) تشابه صوتي لتكرار صوتي (كل)، ولكنه انطوى على تخالف بين الأكل والصدر، فنتج عنه حيوية في التلقي لأعمال ذهن المتلقي في اكتشاف التخالف وراء التشابه، ومن الملاحظ أن صوت الكاف المهموس الشديد قد مهد للصوت المنطوي عليه سجع الفواصل، وهو اللام المجهور المتوسط بين الشدة والرخاوة فزاد اللام وضوحاً صوتياً بفضل تجاورها للكاف الأقل وضوحاً في السمع، فانتقال المتلقي من صوت الكاف المهموس الأقل وضوحاً إلى صوت اللام المجهور الأكثر وضوحاً في السمع يهب السجع تلويحاً صوتياً يؤثر في أذن المتلقي. ومنه ما جاء في معرض نصائح عبد الحميد لكتاب الدولة كما في قوله "ثم ليكن بالحق حاكماً، ولأشراف مكرماً ومدارياً، وللفيء موفراً، وللبلاد عامراً، وللرعية متألّفاً، وعن أذاهم متخلفاً"^(٤٧٠).

انطواء الفاصلتين الأخيرتين على صوت اللام قبل الفاء المطلقة أوجد تشابهاً صوتياً بين (متألّفاً، متخلفاً) عندما يتأمله المتلقي يصل إلى التخالف بينهما فيضفي الحيوية على عملية التلقي، ومن ناحية أخرى فقد كان صوت اللام المجهور، الواضح في السمع الأقصر في مدته الزمنية للنطق، مقارنة بطول الفاء والمد بعدها كصوت واحد طويل بضمهما معاً. معوضاً عن طول المدة الزمنية لنطق الفاء الأقل وضوحاً في السمع، التي وهبها الإطلاق طولاً يزيد على طول اللام، ويكون الحاصل لهما في كلمة الفاصلة تعادل النطق بمزج الطويل بالأقصر، والواضح بالأقل منه وضوحاً.

ومنه ما جاء في معرض نصائح عبد الحميد لولي العهد "وعليك بالتثبت عند سورة الغضب، وحمية الأنف، وملال الصبر في الأمر تستعجل به، والعمل تأمر بإنفاذه، فإن ذلك سخف شائن، وخفة مردية، وجهالة بادية"^(٤٧١).

التشابه الصوتي من تكرار صوتي الدال والياء الصامت انطوى على تخالف دلالي بين (مردية، بادية) فالمميت مخالف للظاهر، وهو ما يضيف الحيوية على

(468) المثل السائر، ج ١، ص ٢٦١.

(469) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢١٤.

(470) السابق، ص ٢٨٥.

(471) السابق، ص ٢٣٢.

تلقى النص، ولتميز صوتي الياء والذال بالجهر^(*) الذي يهب الصوت وضوحاً في أذن المتلقي نجد هذا التميز بالوضوح في سياق النصح مؤثراً في وضوح آثار الجهالة والخفة على تدني شعبية ولي العهد مما يضمن للكاتب تلقي ولي العهد للنصح والعمل على نبذ الخفة والجهالة لوضوح آثارهما في عدم السيطرة على النفس.

● رابعاً الترصيع

ولا يكتفي الكاتب بإسجاع كلمة الفاصلة فقط، بل يمتد إلى كل الفاصلة فيما يسمى بالترصيع^(٤٧٢) وفيه يمهد الكاتب لكلمة الفاصلة ويضفي جرساً موسيقياً على الفواصل، وقد عثرنا على شاهد واحد للترصيع في نثر الكاتب ففي سياق عتاب أحد الأصدقاء يقول عبد الحميد "عافتي الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ابتدأتني باللفظ عن غير خبرة، ثم أعقبه منك جفاءً بغير ذنب، فأطمعني أولك في إخائك، وأياسني آخرك من وفائك"^(٤٧٣).

التشابه الصوتي بين مفردات الفاصلتين الأخيرتين انطوى على تقابل دلالي، فعبد الحميد في حيرة من مواقف صاحبه تجاهه، أطمع في إخائه لأنه بدأ باللفظ أم يئأس من إخائه لأنه جافاه بغير ذنب من عبد الحميد، كان التشابه خدمة لإظهار كلمتي الفاصلتين (إخائك، وفائك) فهما مبتغى عبد الحميد يظهر من خلالهما نهجه في الحياة من الرغبة في الإخاء والارتباط بالناس بهذه الرابطة، والوفاء الذي يهب رابطة الإخاء امتداداً عبر الزمان دون انفصام.

الموازنة (الازدواج)

تختلف الموازنة عن السجع في توافق كلمة الفاصلة مع نظيرتها في فاصلة أخرى. تسبقها أو تليها – في الصيغة الصرفية دون تكرار صوت واحد في كلمات الفواصل، فالموازنة كما حددها ابن الأثير "أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن ... فيقال إذا: كل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً"^{(٤٧٤)(*)}.

وحدها القزويني بـ "أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية"^(٤٧٥). ويعني بالفاصلتين الكلمتين الأخيرتين من الفقرتين^(*).

(*) انظر خصائص صوت الياء الصامت والذال، المدخل إلى علم اللغة، ص ٦١.

(472) انظر: المثل السائر لابن الأثير، الإيضاح للقزويني.

(473) عبد الحميد بن يحيى ... ص ١٩٢.

(474) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٧٢.

(*) الظاهر من تعريف ابن الأثير أن الموازنة تختص بألفاظ الفاصلة كلها ولكن ابن الأثير يقصد بألفاظ الفواصل، الكلمة الأخيرة في كل فاصلة ويظهر ذلك من الفواصل التي تناولها بالدراسة في الصفحات التالية للصفحة السابق ذكرها.

(475) بغية الإيضاح، ج ٤، ص ٨٧.

ولأن نثر عبد الحميد يندرج – في معظمه – تحت الرسائل الديوانية، فجلّ ما يهدف إليه الكاتب هو وصول رسالته كاملة للمتلقي، وتأثره بانفعالات الكاتب حتى يصل إلى نهاية الرسالة خلال قراءته لها دون الملل أو الاستئصال، وبذلك يتحقق الغرض من الرسالة.

ومن المؤكد أن درجة إجادة الكاتب تكمن في تطويع اللغة وأدواتها لخدمة النص خدمة تؤدي إلى استيعاب المتلقي للرسالة بصورة واضحة سلسلة فيؤدي المطلوب منه براحة وطيب نفس. وهذه الراحة تتبع من الانتظام بين الفواصل، الذي قامت الموازنة بقدر كبير منه.

وقد انطوت الفواصل في رسائل عبد الحميد على الكثير من الموازنة، منها ما كان في السجع، ومنها ما لم يكن فيه وهو ما نتناوله فيما يأتي: وأول صيغ الموازنة صيغة (فعل)، والتي وردت في سياق الدعاء لولي العهد كما في قوله "وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعودده، ويريه من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف ومتبجحة بك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر معالي الأدب" (٤٧٦).

ومن أصحاب الفتنة في قوله "حتى أعنقوا في حنادس ظلم جهالتهم، ومهاوي سبل ضلالتهم ذلاً عن سياقه وسلساً في قيادته... سوى ما ألحقت الحفيظة في نفسه من عوائد الحسك، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب" (٤٧٧). وفي السباق نجد أن الموازنة بين (الشرف، الكرم، الأدب)، و(الحسك، الغضب) قد انسحبت إلى الدلالة، فأضفت توازناً في تلقي الصفات دون طغيان واحدة على الأخرى أو غياب إحداها.

وتوازن صيغة (فعل) كما في قوله عن الاستعداد لجميع المواقف في الحرب "فإن ألفت عدوك قليل الحد، وقم الحزم، نضيض الوفر، لم يضررك ما أعددت له من قوة، وأخذت به من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جرأة عليه، وتسرعاً إلى لقائه. وإن ألفت متوقد الجمر مستكثف الجمع، قوي التبع مستعلي سورة الجهل" (٤٧٨).

توازن الصفات (الحد، الحزم، الوفر) ثم (الجمر، الجمع، التبع، الجهل) انسحبت على التوازن الدلالي بينها، فكلالة الحد ووقامة الحزم، ونضاضة الوفر يجب أن تكون شائعة في العدو كلها حتى يضمن النصر، أي متوازنة في الوجود وتوقد الجمر، واستكشاف الجمع، وقوة التبع والجهل تتوازن كلها دلاليًا فيتخذ ولي العهد موقفاً مخالفاً للأول ومناسباً للثاني.

(*) وقد علق د/ عبد المتعال الصعيدي على تعريف القزويني في هامش الصفحة ذاتها عن "الفاصلتان" الواردة في التعريف بقوله "يعني بهما الكلمتين الأخيرتين من الفقرتين".

(476) السابق، ص ٢١٧.

(477) السابق، ص ٢٨٠.

(478) السابق، ص ٢٣٩.

وتوازن الأزل والزنك في قوله "ولا يكونن منه إفراط في التضيق عليهم،
والحصر لهم، فيعمهم أزلهم، ويشملهم ضنكهم" (٤٧٩).

ومنها ما جاء على صيغة (فاعل وفاعلة) كما في قوله "وكل بخزائنك،
ودواوينك رجلاً أميناً صالحاً ذا ورع حاجز، ودين فاضل، وطاعة خالصة، وأمانة
صادقة" (٤٨٠).

فهو توجيه لولي العهد إلى اختيار وكيل الخزائن بمجموعة من الصفات
تتوازن فيه، لا تنعدم أو تقل صفة عن الأخرى، بل تتوازن جميعها دلاليًا، كتوازنها
صوتيًا، فهو صاحب ورع حاجز، ودين فاضل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة في
آن واحد.

ومنها قوله "واعلم أن لعدوك في عسكريك عيوناً راصدة، وجواسيس
كامنة" (٤٨١).

ومع صيغ الفاعل ورد التوازن في صيغة (مفعّل) كما في قوله "واياك
وتضييعهم مفرطاً، وإهمالهم مضيّعاً" (٤٨٢).

الموازنة بين (مفرطاً، مضيّعاً) انسحبت إلى التوازن الدلالي، فالتحذير
ينطوي على الوسطية بين أمور رعيته وجنوده، فلا ينشغل عنهم كل
الانشغال ولا يراعي أمور الشخصية كل المراعاة دون جنوده.

وترد بصيغة المفعول في سياق تقسيم العمل على الجنود كما في قوله
"واجعل ذلك بين قوادك، وأهل عسكريك نوباً معروفة، وحصصاً مفروضة" (٤٨٣).

ما أراده عبد الحميد هو التساوي في توزيع أعمال المعسكر بين الجنود، فلا
يثقل على أحد، أو يميز أحد بالعمل القليل فينقلب الباكون عليه، وخير ما يوصل تلك
الرسالة لولي العهد الموازنة بين (المعروف، المفروض) من الأمور، فتقسيم العمل
ونوبات الحراسة يجب أن تكون متوازنة، كالتوازن الصوتي الذي يبقي آخر ما
يسمعه المتلقي.

وفي قوله "فإن كلوم الدنيا وآفاتهما ومصائبها وفجائعها تجري في قضايا
جمّة، وأقدار محتومة، عزمة إلى منتهى أمر موقوت، وحاتم علم من الله نافذ غير
منقوص" (٤٨٤). الموازنة بين (موقوت، منقوص) أضفت النظام على الدلالة، فعلم
الله منظم وبقدر محكوم، وهو ما يؤدي إلى الصبر على موت الأشخاص النابع من
الإيمان بقضاء الله.

(479) السابق، ص ٢٤٤.

(480) السابق، ص ٢٦٢.

(481) السابق، ص ٢٤٢.

(482) السابق، ص ٢٣٤.

(483) السابق، ص ٢٥٠.

(484) السابق، ص ١٩٥.

وورد التوازن على صيغة (فعل) كما في قوله "فما أسرنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول"^(٤٨٥). التوازن الصوتي بين الجموع والخيول ينسحب إلى توازن الدلالة، فإكثار جموع الجنود يستدعي إكثار الخيول لهؤلاء الجنود. وترد في نصائح عبد الحميد للكتاب "يكاد يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره"^(٤٨٦). يدعو عبد الحميد الكتاب إلى التوازن في التعامل مع الأمور والاستعداد لها بوسطية تظهر من توازن (ورود، صدور) المتقابلتين، التي تؤدي إلى تساوي معرفة الكاتب ما سيرده من أمور مع ما يصدر عنه منها، وحساب عاقبة كليهما في نظام مسبق يعتمد على خبرة الكاتب.

وتوازن صوتي بين (الخيول، الدروع) ينسحب إلى التوازن بين أسلحة الجنود، وأدوات الحرب من خيول وغيرها، كما في قوله "ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيول، وأسلحتهم سوابغ الدروع"^(٤٨٧).

الجندي هو العنصر الأول في الحرب، وعليه تعتمد سياسة الخليفة، فلزم أن تتوازن أسلحته مع قوته وقوة الخيل التي تحمله في الحرب، فلا تتكامل الأسلحة دون الخيل أو العكس لضمان نتيجة إيجابية عند قتال الخارجين على الدولة.

وترد صيغة الجمع (مفاعل) بالموازنة كما في قوله "واقطع أعناقهم بالمطامع، واستدعهم بالمشاوب، وأملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع"^(٤٨٨).

فولي العهد غاية ما يريده إنزال طاعة جنود الخارجين على الدولة، وهذه الطاعة لها مظهران: إما الترغيب بالمطامع، أو الترهيب بفضح أمرهم أمام قائدهم بعد حياكة مؤامرة تثبت خيانتهم له عن طريق دس خطابات منهم لولي العهد، ثم إرسالها لقائدهم، وعلى هذا النحو نجد عبد الحميد يوجه ولي العهد إلى الموازنة بين الترغيب والترغيب، فلا إفراط في أحدهم على حساب الآخر، وهذه الموازنة تتضح من الموازنة الصوتية بين (المطامع، المشاوب) (الدوائر، الرواجع).

وأثناء الهروب تجتمع على قلب عبد الحميد المصائب في آن واحد، فيقع بين شقاء السفر وتعب الطريق وبين الخوف والفرع من أن يلحق به أحد فيقتله، وشدة التأثير بكل ذلك يكمن في التوازن بين الفواصل في قوله "فالأبدان خاشعة لطول الدأب، تتوقل في وعور المسالك، وتتدرّع هول تلك المخاوف"^(٤٨٩).

توازن (المسالك، المخاوف) يوضح توازن التعب المادي من السفر، واجتياز المسالك، والتعب المعنوي الذي اعتل في قلبه وتجسده (المخاوف)، والتوازن بين المادي والمعنوي يوضح قمة الشقاء لعبد الحميد وصعوبة الخروج

(485) السابق، ص ٢١٤.

(486) السابق، ص ٢٨٢.

(487) السابق، ص ٢٦١.

(488) السابق، ص ٢٦٣.

(489) السابق، ص ٢٠٣.

منه، فتوازن القوى السالبة – كلها في اتجاه شقائه – يصعب معها التخلص من إحداها أو بمعنى آخر، لا يملك الجسد القوي – لأنه خار من تعب السفر – لمواجهة المخاوف من القتل، ولا يملك روحاً قوية تخلصه من الخوف، وتقويه على تعب السفر.

ولأن حيوانات الصيد من جوارح وضواري عليها الاعتماد الأكبر في الصيد، فيجب أن تظهر فيها صفات ومواصفات خاصة تتوازن لتحقيق صورة مثالية لضواري الصيد، ففي قوله "... قد ثققت بحسن الأدب وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف وخبرت المجاثم" (٤٩٠).

فهذه الضواري حسنة الأدب، تنفذ ما يطلب منها من ناحية، ودربت على الرجوع بالصيد فهي شديدة في طلبه، وتعلم أماكن الصيد من ناحية أخرى، وتلك المواصفات تتوازن في الضواري كتوازن (الأدب، الطلب)، (المواقف، المجاثم)، فلا يطغى الأدب فلن تصلح للصيد، ولا هي بالشديدة الشراسة فتضر الصياد وينفر منها، ولكنها مؤدبة ومدرّبة.

• المماثلة :

إذا كانت الموازنة تقع بين آخر كلمات الفاصلة، فإن المماثلة تمتد إلى كل الفاصلة فكل كلمة توازن أخرى مناظرة لها في فاصلة أخرى. ولا تتفصل عن الموازنة عند البلاغيين "فإن كان إحدى القرينتين من الألفاظ، أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن خص باسم المماثلة" (٤٩١).

وبهذا تكون المماثلة نظام صرفي يتكرر من فاصلة لأخرى، وهذا النظام يضيف طابعاً صوتياً بين الفواصل ويلقي استحساناً من المتلقي يجعله يتقبل الدلالة بذهن نقي.

وللمماثلة في رسائل عبد الحميد دلالة على التناسق والنظام كما في قوله "حسنة الثغر، لمياء الشفه، وطفاء الأشفار، جهمة المستقبل، فعمة المستدير" (٤٩٢). فتلك الجارية التي حدد الخليفة الصفات التي يجب أن تكون عليها، وتحكم عملية اختيارها اختزلت رغم – كثرة الصفات المطلوبة – في (جهمة المستقبل، فعمة المستدير) على وزن فعلة المستفعل، التي توحى بتمثلها الصوتي بتناسق أعضاء الجارية.

ولأهمية ضواري الصيد، فتخضع لنظام عند اختيارها حتى تتحقق المتعة الكاملة من عملية الصيد، فهي كما يقول عبد الحميد "وإني أخبر أمير المؤمنين: أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء" (٤٩٣).

(490) السابق، ص ٢٦٩.

(491) بغية الإيضاح، ج ٤، ص ٨٧.

(492) عبد الحميد بن يحيى ...، ص ١٩٧.

(493) السابق، ص ٢٦٨.

النظام الذي يحكم عملية اختيار الخيل الضارية والطيور الجارحة يختزله الكاتب في صيغة (أفعل الفواعل) من (أعدى الجوارح وأثقف الضواري) التي تضيف بجانب تماثلها صوتيًا وتشابهها تركيبياً أفضلية مطلقة لتلك الضواري والجوارح عن مثيلاتها. وبهذا فإن النظام الذي يحكم عملية الاختيار عند الكاتب هو منطق أقوى الأقوياء، الذي كرره في الشاهد نفسه في صيغة (أفعلها أفعالا) من (أكرمها أجناساً، أعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، أحدها أطرافاً، أطولها أعضاء) ليؤكد هذا النظام، مع تماثل تلك الخيول في القوة أو تشابهها في الصفات الذي ربما يضيفه التشابه التركيبي والصوتي بين ألفاظ الفواصل.

ولأن الفتنة من الموضوعات التي نالت حيزاً كبيراً في الكم والكيف عند عبد الحميد لظروف العصر الذي عاشه، فكان من المهم في كل ذكر لها أن يتبعه تحذير من عواقبها، أو مناهضة لمن يدعو إليها بكل الوسائل وأوقع تحذير من الفتنة عندما ينخدع الناس فيها لتناسق مظهرها الخارجي كما في قوله "فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بآثق منظر، وأزين ملبس"^(٤٩٤).

أناقة المنظر وزينة الملبس قشرة لكائن مخيف يجب الحذر منه وعدم الانخداع بمظهره المنظم المتناسق.

ويظهر النظام أكثر ما يظهر فيما يجب أن يكون عليه ولي العهد من اتباع نظام معين لتسيير أموره، اختزل هذا النظام في (بالقصد) من قوله "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرّك بالكتمان، وتدارى جندك، بالإحسان، وتداوى حقدك بالإنصاف"^(٤٩٥).

فالقصد في كل الأمور مطلوب من مداراة الجند بالإحسان ومداواة الحقد بالإنصاف. هذا ولأهمية توجيه الكاتب لولي العهد لإعمال النظام في حياته نجد أن الكاتب قد كثّف من الوسائل التي تخضع للنظام كالتشابه التركيبي الذي يبدأ بالفعل المضارع والفاعل المستتر العائد على ولي العهد ثم مفعول به ومضاف إليه عائد على ولي العهد ثم جار ومجرور كالتالي

تملك	/	أمورك	/	بالقصد
تصون	/	سرّك	/	بالكتمان
تدارى	/	جندك	/	بالإحسان
تداوى	/	حقدك	/	بالإنصاف

والتشابه الصرفي (تدارى، تداوى)، (جندك، حقدك)، (الإحسان، الإنصاف)، والتشابه الصوتي (تدارى وتداوى) (جندك وحقدك)، (أمورك وسرّك)، (الكتمان والإحسان) وبهذا التكثيف نستشف إلحاحاً على ولي العهد لإعمال النظام في حياته

(494) السابق، ص ٢١٣.

(495) السابق، ص ٢٢١.

وتتلاءم دلالة المماثلة على التناسق والنظام مع حشد الخيول، وجمع الجند من قوله "فما أسرنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول، فإنك لا تكثف جمعاً، ولا تشرب خيلاً، إلا وثقتا أن سيمدنا الله من ملائكته" (٤٩٦).

فجمع الجند وحشد الخيول يتبع حتماً نظاماً للجمع والحشد، وخير ما يدل عليه المماثلة بين الفواصل.

وللنظام والتناسق الكثير من الفوائد خاصة إذا كان في العمل، فتكون ثمرات النظام في العمل الخير الكثير، والدعاء غفران عظيم للذنوب، ولكون الجزاء للعمل والدعاء من الله - غفرانه - وحده كما في قوله "إن الله يعطي الكثير من الخير باليسير من العمل، ويعفو عن العظيم من الذنب بالصغير من الطلب" (٤٩٧).

فلكل عمل منظم جزاء يظهر من صيغة المماثلة إن الله يعطي (الكثير من الخير)، (باليسير من العمل)، ويعفو عن (العظيم من الذنب)، (بالصغير من الطلب)، فتكون الفاصلتان، إن الله (يعطي أو يعفو عن) الفعيل من الفعل بالفعيل من الفعل.

(496) السابق، ص ٢١٤.

(497) السابق، ص ٢٩٠.

الباب الثاني المستوى التركيبي

إن افتناعنا بحرية الكاتب في اختيار المفردات من متعدد، وحرية في صهرها في قوالب ترتبط فيها تلك المفردات بعلاقات نحوية، جعلنا ندرك أن صهر الكاتب للمفردات يتم عن تفرد وتميز في استخدام اللغة عن غيره من الكتاب، وبهذه المقولة يتوجب علينا التأمل في كيفية صهره لمادته اللغوية وإعادة تشكيلها في تركيب يتناسب مع مقاصده وأهدافه من عملية الإبداع.

إن خروج الكاتب على النظام اللغوي المؤلف بانتهاك الرتب النحوية المعروفة ينأى به إلى الخصوصية والتفرد عن باقي الكتاب وهو ما يجعلنا من الوهلة الأولى نميز طرق استعماله للأدوات اللغوية عن غيره ومن هذه الطرق كيفية تكوين القوالب أو التراكيب اللغوية.

وبدراسة القوالب التركيبية في نثر عبد الحميد نستطيع أن نكشف بوضوح السمات الأسلوبية له التي يتفرد فيها عن غيره من المبدعين من ناحية، وتوجهنا صوب الدلالة من ناحية أخرى وتنصب الدراسة في هذا الباب على القوالب التركيبية في نثر عبد الحميد كالعطف والشرط والوصف ومدى ارتباط كل تركيب منها بالدلالة، وتنصب أيضاً على رصد العدول التركيبي في نثر عبد الحميد كالنقد والحذف والتعريف والالتفات ومدى تأثير هذا العدول في الدلالة.

الفصل الأول من قوالب التركيب

-العطف

إن طبيعة تركيب العطف من معطوف عليه ومعطوف وأداة عطف، يرجع فيها المعطوف على المعطوف عليه عبر أداة العطف تنشأ عنه حركة تراجعية ينجم عنها تعديل الحركة اللغوية ولا تتحقق هذه الحركة على مستوى اللفظ فقط ولكن تتحقق "على نطاق اللفظ والدلالة معاً، فالردة المصاحبة للعطف لا تحدث أثرها على اللفظ وحده بل تشمل المعنى والدلالة أيضاً، فثمة فائدة نحوية يتبعها بالضرورة ناتج دلالي"^(٤٩٨).

للعطف في نثر عبد الحميد دور بالغ الأهمية في إثراء الدلالة إثراءً حقيقياً، فرجعة المعطوف على المعطوف عليه عبر العاطف له أكثر من مظهر دلالي كتأكيد العلاقات الدلالية بين المتعاطفين أو تنمية المعنى، أو يأتي معضداً للصورة البلاغية وفي كل ذلك فالعطف يؤدي إلى ترابط وتماسك الفواصل لتكون نسيجاً واحداً ترتبط دلالاته بدلالة السياق.

- دلالة العطف على تأكيد المعنى

يؤدي العطف بجانب ربط المفردات والفواصل ببعضها البعض دوراً مهماً في تأكيد المعنى، بالرغم من اختلاف العلاقات الدلالية التي تربط المتعاطفين كعلاقة التواؤم في قوله عن القرآن الكريم "فإن فيه شفاء القلوب من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه وضياء معالم النور"^(٤٩٩).

عطف الواء سفاسف الشيطان على وساوسه - وهما متوائمان - ليؤكد دور القرآن الكريم في نزع الوساوس من قلب ولي العهد.

وقد ساهم تكرار أصوات (السين، الفاء، الواو) في وساوس وسفاسف الشيطان في تأكيد علاقة التواؤم بينهما، فالمصدر واحد وهو الشيطان. وشمل هذا التأكيد عطف (ضياء وجلاء) على (شفاء) وهو ما أدى إلى رجعتها إلى (شفاء) عبر حركة رأسية تؤكد فاعلية القرآن الكريم العملية في المحو التام لوساوس الشيطان وسفاسفه، وأوضح بعض الجوانب الفاعلة للقرآن المتمثلة في حركة الشفاء بعد سكون المرض، والمظهر المعنوي للشفاء وهو جلاء الوساوس، والمظهر العملي الحسي وهو الضياء.

ويكون العطف خير معين للكاتب في تأكيد شدة التعلق بالصديق كما في قوله "وأعلقت قلبي من مقتك ما ولهت له نفسي، وصبت إليه"^(٥٠٠).

الجمع بين المتعاطفين المتلائمين دلالياً (ولهت وصبت) بالواو وأكد شدة التعلق بصديقه لإفادة عدم الرغبة في التخلي عنه، وقد كانت (نفسى) التي توسطت المتعاطفين مركزاً للثقل الدلالي، إذ هذا الحب والتعلق داخلي حقيقي نابع من النفس وليس خارجياً زائفاً نابعاً عن اللسان.

(498) الصوت والصورة، ص ١٠.

(499) عبد الحميد بن يحيى الكاتب ... ص ٢١٩.

(500) السابق، ص ١٩٢.

ويؤكد الكاتب حبه لصديقه، وشدة تعلقه به عن طريق الدعاء بعد ذلك "وقانا الله وإياك فتنة الخلّة، وعصمنا وإياك بوفاء أهل الدين" (٥٠١).

فقد ورد الشاهدان في سياق العتاب وهو ما حدا بالكاتب إلى العطف ليؤكد به تعلقه بصديقه، حتى لا يفهم من العتاب رغبة الكاتب في التخلي عنه من ناحية، وأكد الرغبة في صداقته بالواقع العملي وهو الدعاء لصديقه بـ (وقانا وعصمنا) المتلائمين من ناحية أخرى.

ولإزالة الالتباس من الفهم الخاطئ لمقصد الكاتب في التخلي عن صديقه أثر عطف (إياك) على ضمير المفعول من (وقانا)، وكرره بنفس الكيفية مع (عصمنا) إذ لا داعي للتصريح به إلا لحاجة عبد الحميد في إزالة هذا الالتباس وتأكيد شدة محبته له وتعلقه به بالقول والفعل مستعيناً بأدواته اللغوية الخاصة به كما أوضحنا. ويقوم العطف بتأكيد دلالة جواب الشرط في قوله لولي العهد "إذا كنت من عدوك على مسافة دانية...؛ فتأهب أهبة المناجزة، وأعدّ إعداد الحذر، وكُتِبْ خيولك، وعبّ جنودك" (٥٠٢).

جُلّ ما أراده الكاتب من ولي العهد رفع درجة الاستعداد القصوى عند الاقتراب من العدو، وهو ما نهض به الشرط، وقد استخدم بعض المؤكدات كالمفعول المطلق (أهبة، إعداد). ولأهمية الاستعداد عند القرب من العدو فقد أثر الكاتب أن يكتف من أدواته اللغوية المؤكدة لهذه الدلالة، فجمع بالواو بين (تأهب، أعد) المتلائمين، و(كُتِبْ وعبّ) المتلائمين أيضاً، وجاءت جميعها بصيغة الأمر المؤكدة أيضاً للقيام بالأفعال السابقة في سرعة بدأت مع الفاء المقترنة بالمعطوف عليه الواقع في جملة جواب الشرط (فتأهب) ولا يستشف المتلقي دور العطف في تأكيد سرعة الإعداد فقط، بل بدوره في جمع المؤكدات الأخرى في بوتقة واحدة – نعتي المفعول المطلق وفعل الأمر – توجه المتلقي إلى سرعة جهوزيته في الإعداد للحرب وتزيد من تأكيد تلك الجهوزية.

وفي سياق النصائح ينهض العطف بين المتلائمين دلاليّاً بإقناع ولي العهد بتقبل النصيحة كما في قوله "ولو كان المؤدّبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، أو لقتوه إلهاماً من تلقائهم...، لنحلّناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة خالقهم" (٥٠٣). لما كان مبتغى الكاتب التمهيد لنصيحة ولي العهد، فكان عليه أولاً إقناعه بتقبل النصيحة قبل سردها، وكانت وسيلة الإقناع هي حاجة من ينصح إلى النصيحة أيضاً لأنه ليس مستأثراً بعلم الله.

وقد نهض العطف بـ (أو) بين (لقتوه، أخذوا) المتوائمين بتأكيد عدم استثناء أحد بعلم الله، ولو كان المؤدّبون أنفسهم، وليس هذا فحسب، بل ولو حوى أحدهم جميع أنواع تلقي العلم (الأخذ، الإلهام) وهذا التأكيد يفتح المتلقي بتقبل النصيحة.

● تأكيد علاقة الترابط والتلازم بين المتعاطفين:

(501) السابق، ص ١٩٣.

(502) السابق، ص ٢٥٢.

(503) السابق، ص ٢١٦.

يؤدي العطف بين المتلازمين في الواقع إلى ردّة المعطوف على المعطوف عليه لتدعيم هذا التلازم، وتأكيد الترابط بينهما، وتلوح لنا دلالات أخرى من وراء هذا التأكيد ففي قوله "... رجال هم الرجال، بين راحم وناشب" (٥٠٤).

عندما اضطر عبد الحميد إلى حيلة التهديد وبث الخوف في قلوب الخارجين على الدولة، أرسل لهم برسالة تظهر مدى قوة وبراعة وشجاعة جنود الخليفة الذين سوف يرسلهم لمحاربتهم. وقد ساهم عطف (ناشب) على (راحم)، وهما متلازمان في الحرب، فحامل الرمح ملازم لحامل النشاب، في تأكيد قوة الترابط والتلازم بينهما، وهذا التأكيد على الترابط يظهر صعوبة هزيمة هذا الجيش المترابط.

ومن جانب آخر أفاد العطف بالواو إظهار أنواع متعددة للجند يتضح من خلالها القيام بمهام مختلفة تستدعي تكامل الجند خلال الحرب. والدور نفسه نجده في قوله "... وإنه قد ظهر منهم من النية والقول منازعة لله في رزقه" (٥٠٥).

كانت حاجة الكاتب إلى إقناع الخليفة بخروج بعض الجنود عن طاعة الله وأمير الجيش، أسماهم بالقدرية مما استدعى معاقبتهم وطردهم من الجيش. وإقناع الخليفة استدعى الجمع بالواو بين النية التي محلها قلوب القدرية وخروج ما يضمرون للعلن وجسده القول. فأكد العطف قوة الترابط والتلازم بين النية والقول، وهذا الترابط يؤكد للمتلقى منازعة القدرية لله بالفعل.

ويؤكد العطف قوة الترابط والتلازم بين الأصل والفرع في قوله "... هم لك أهل لوم على التقصير بعائشة ابنة هشام التي محتدها شريف، فرعها فرعك وأصلها أصلك" (٥٠٦).

أراد الكاتب أن يوجه ولي العهد إلى نبذ الجواري والاهتمام بزوجه عائشة عن طريق سلسلة من المقارنات التي ترجح في النهاية كفة عائشة وقد استثمر الكاتب العطف بالواو بين المتلازمين (الفرع، الأصل) لتأكيد هذا التلازم ليكمل ترجيحه لكفة زوجه على كافة الجواري، فارتباط ولي العهد وزوجه بفرع واحد وأصل واحد يعزز من مكانتها عنده.

وفي الصياغة دعوة ذكية لولي العهد ليتذكر عمه (والد عائشة) فكان هشام بن عبد الملك خليفة المسلمين، وهذه دعوة ناتجة عن التذكير بالفروع والأصول. وليس أبلغ من صياغة كل ذلك في قالب الجملة الاسمية الدالة على الثبات، فلن يتغير أصله ولا أصلها وكان الفضل في تأكيد هذا الثبات للواو العاطفة بين الجملتين.

وفي حديث عبد الحميد إلى الكتاب يدعوه إلى التفاني في العمل وحفظ الأسرار والعمل على قدر منزلتهم التي هم فيها فيصوغ ذلك في قالب يظهر

(504) السابق، ص ٢١٤.

(505) السابق، ص ٢٠٧.

(506) السابق، ص ١٩٤.

أفضالهم فيها في قوله "فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون" (٥٠٧).

الأسماع والأبصار والألسنة والأيدي كلها تتلازم وتتربط في جسم الإنسان، ولكن الأعضاء السابقة لأصحاب العمل، وليست للكتاب، وهو ما يضيفي التلازم بين الكاتب ورب عمله، ويأتي العطف ليؤكد هذا التلازم.

ويظهر ذلك في قالب منظم شبيه بالنظام الذي يجب أن يكون عليه الكتاب في عملهم، وهو الترصيع بين الفاصلتين الأولتين (أفعالهم التي بها يفعلون) والترصيع بين الفاصلتين الأخيرتين (أفعلتهم التي بها يفعلون) وكأنها دعوة للنظام والعمل به.

● تأكيد علاقة الضد بين المتعاطفين

ومن البني التأكيدية للعطف الجمع بين النقيضين فيضيفي تأكيداً لدلالة العموم والشمول، وهذا التأكيد إنما يوظف لجعل المتلقي أكثر تجاوباً مع الرسالة التي أراد عبد الحميد إرسالها إليه عن طريق الإجادة في استعمال أدواته اللغوية.

ففي نصائحه إلى الكتاب يفضل عبد الحميد الجمع بين النقيضين ليؤكد دلالة الشمول كما في قوله "فابدلوا وفقكم الله ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة والحرمان والمواساة، والإحسان والإساءة، الغضب والرضى، السرء والضراء، فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة" (٥٠٨).

العطف بالواو والجمع بين خمسة أزواج من المتناقضات المتجاورة يؤكد الدعوة إلى التفاني في العمل والإخلاص- إلى أبعد الحدود- لصاحب العمل مهما كلف الأمر واختلفت الظروف، وهو ما فعله عبد الحميد نفسه خلال بقاءه مع مروان بن محمد حتى قتل معه حسب بعض الروايات.

وفي ذكاء يلمح عبد الحميد للكتاب إلى كيفية تنفيذ دعوته عن طريق بعض الوقائع العملية التي اكتسبها فيقول "... إلى أن يكون حليماً في موضع الحلم، فقيهاً في موضع الحكم، مقدماً في موضع الإقدام، ومحجماً في موضع الإحجام" (٥٠٩).

عطف الواو (محجماً) على (مقدماً) لتؤكد دلالة العموم والشمول من اختيار ما يناسب كل موقف والعمل على هذا الأساس في مختلف الظروف.

ولأن كل كاتب يجب أن يتبع نظاماً في حياته حتى يكون مخلصاً لعمله، فقد صاغ عبد الحميد البنية التقابلية السابقة في إطار موسيقي يخضع لبنية صرفية واحدة ألا وهي (مفعلاً في موضع الإفعال) حتى يدرك الكتاب أن لكل موقف نظاماً يتبع.

وفي مقارنة بين حال عبد الحميد في غربته، وما يعانيه من شقاء من الحل والترحال، واشتياق للأهل والوطن وبين حال أخيه في الوطن من راحة وسعادة بمجاورة الأهل والأصحاب يستخدم عبد الحميد العطف لتأكيد الحالين في قوله "...

(507) السابق، ص ٢٨١.

(508) السابق، ص ٢٨٤.

(509) السابق، ص ٢٨٢.

وساعدك اللطف من أهل التعطف عليك بالرقّة المتحركة، يعودونك وينتابونك في الليل والنهار" (٥١٠).

عطف (النهار) على نقيضه (الليل) ليؤكد عموم الراحة في الوطن في ظل الأهل والأصحاب الذين يحيطون به في جميع أحواله وأوقاته في سلامة أو مرض ولا يشعر بتلك الراحة إلا من حُرِمَ منها كعبد الحميد الذي يقول عن نفسه "فإن نلنا منهم حظاً، وأصبنا من دنياهم حظاً؛ نكره طول السفر الممل لنا من عقد الرحال وحلها" (٥١١).

الجمع بالواو بين عقد وحل الرحال فيه تأكيد ديمومة السفر دون الرجوع إلى الوطن، ويعكس حال التعب البدني من الحل والترحال، والتعب النفسي من الاشتياق للوطن والأهل، وصعوبة ذلك أن المقابل بعض الحطام فلزم طلب الدعاء من أخيه جامعاً النقيضين (الليل والنهار) بالعطف، لعل الدعاء له يكون السبيل إلى الراحة البدنية والنفسية فيقول "ولا تنس الدعاء لنا ولك في تارات الليل والنهار، فإن العواري من المنعم مبلغة دولها بين الطالبين لها والخالين عنها" (٥١٢).

تأكيد الدعاء ليشمل اليوم كله يعكس مدى الضيق والحزن اللذين يشعر به عبد الحميد ولا يملك شيئاً إلا طلب الدعاء.

● ارتباط المتعاطفين بعلاقة منطقية

من البنى التأكيدية للعطف، الجمع بين متعاطفين تقوم بينهما علاقة منطقية كالسبب والنتيجة، ولا يقوم العطف بوصل المسببات بالنتائج فحسب، بل بتأكيد هذه العلاقة وتقويتها.

كالتأكيد على نشوء الشين في الدنيا عن الغواية بملذاتها في قوله "ما يرجع بك الرشد إليه غالباً لك على الغواية المردية، والشين في الدنيا" (٥١٣).

يرتد المتلقي بالشين (المعطوف) على الغواية (المعطوف عليه) عبر النعت (المردية) ليستكنه العلاقة المنطقية بينهما، وهي علاقة سببية، فالغواية بملذات الدنيا سبب في كل سوء يحدث للإنسان وهو ما أكّده العطف بالواو، وهذا التأكيد أعطى دوراً فاعلاً للرشد في هزيمة الغواية التي وقعت مجروراً ووصفت بأخطر الصفات (المردية) حتى لا يستهين بها ولي العهد، وتبصر المتلقي بخطر الغواية عموماً لتكون هذه التبصرة مساعداً في إقناعه بتجنب الغواية التي تأكدت نتائجها من شين في الدنيا عن طريق العطف.

ولتأكيد العلاقة السببية بين المتعاطفين دور في خدمة السياق الكلي ففي قوله عن طغيان الفرات "... متزايلاً في حجراته، آذيه صخب، وغطامطه لجب، وعلوه متوال يساور الجبال، ويدك عقتل التلاع" (٥١٤).

(510) السابق، ص ٢٠٣.

(511) السابق، ص ٢٠٤.

(512) السابق، ص ٢٠٤.

(513) السابق، ص ١٩٣.

جمعت الواو بين (آذيه) الموج، وبين الصوت الناتج عنه (غظامطه) لتأكيد العلاقة السببية بينهما وهذا التأكيد ينسحب إلى التهويل من أمر طغيان النهر وبيان آثاره المدمرة.

ولم تجمع الواو بين السبب والنتيجة فقط، بل جمعت بين المحسوسات من ألوان وأصوات وحركات صادرة عن الموج.

وبالطريقة ذاتها يتصل عبد الحميد من مسئولية الدولة تجاه ما حدث من دمار ويلصقه بساكني ضفتي النهر في قوله "قد أجفل أهل جنبتيه هرباً، وأمسكوا اللفاء بأيديهم عن معالجة سكوره"^(٥١٥).

فالدمار كان سبباً في هرب الناس، ولكن هذا الدمار ارتبط ببخل من حوله من سكان في معالجة السدود، فهي علاقة سببية بطريق غير مباشر بين (أجفل هرباً، أمسكوا اللفاء)، فيشير الكاتب بخفاء بأن ما حدث لهم كان ناتجاً عنهم وهم الذين شردوا ووقع عليهم الخراب والدمار.

وفي مشهد من مشاهد الصيد يلجأ عبد الحميد أيضاً إلى الجمع بين المسببات والنتائج لتأكيد هذه العلاقة في قوله "فرجع بنا العود على البدء، وقد انجلت الضبابية، وامتدّ البصر، وأمكن النظر"^(٥١٦).

امتداد البصر والتمكن من النظر كان نتيجة لانجلاء الضبابية، وأكدت الواو هذه العلاقة البديهية لتتقل المتلقي من مكانه إلى أرض الصيد ليشارك عبد الحميد والصيادين سعادتهم بانجلاء الضبابية وهذه النقلة نتجت عن الارتداد الرأسي عبر الواو العاطفة وتُمثل صورة طبيعية للضبابية عند انجلائها وكشف ما كانت تخفيه عنهم.

• وقد يرتبط المتعاطفان بعلاقة منطقية من نوع آخر تتمثل في العام بالمحدد، ويأتي العطف مؤكّداً لهذه العلاقة وإبرازها لخدمة السياق.

ففي قوله "... مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابة إلى ما دعوته إليه، وبصرته إياه من حقك وطاعتك"^(٥١٧).

طاعة ولي العهد جزء من حقه على الناس، فهذا الحق تدرج تحته الكثير من الأمور العامة حددها الكاتب في الطاعة لأنها كل ما يحتاجه من الخارجين.

وجمعت الواو بينهما (حقك وطاعتك) لتأكيد تحديد نوع الحق المطلوب من الخارجين على الدولة، وهذا التأكيد يعكس ضرورة إنزال الطاعة بشتى الوسائل أهمها رصد الجوائز (مرصداً إجابة) والإيفاء بها. وإنزال الطاعة يتطلب جهداً من ولي العهد لأنه خصص بولاية المسلمين دون غيره "بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مخصصاً لك بذلك دون لحمتك وبني أبيك"^(٥١٨).

(514) السابق، ص ١٩٦.

(515) السابق، ص ١٩٦.

(516) السابق، ص ٢٦٩.

(517) السابق، ص ٢٣٨.

(518) السابق، ص ٢١٦.

وهذا التخصيص أكدّه عطف (بني أبيك) المحدد على (لحمك) الأكثر عمومًا، فبقى على ولي العهد أن يكون أهلاً لهذه المنزلة والحفاظ عليها، ولن يكون كذلك حتى يستطيع إنزال طاعة الخارجين على الدولة.

ولنثر عبد الحميد خصوصية تمييزه عن غيره من الكُتاب فالتأمل لرسائله "يمكن أن يلحظ بسهولة أن فيها بعض السمات النحوية أو اللغوية أو المعنوية الأخرى، مثل استعمال صيغ التفضيل مع التمييز في مواضع" (٥١٩).

ولأن استعمال عبد الحميد لبعض الصيغ كان ميلاً خاصاً لإشباع حاجة لغوية، فقد جمع بالواو بين صيغ أفعل التفضيل والتمييز في قوله "وإني أخبر أمير المؤمنين: أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء" (٥٢٠).

فذلك السيل من صيغ أفعل التفضيل والتمييز تحدد صفات خاصة للخيل والطيور الجارحة أجملت في المعطوف عليه (أعدى الجوارح وأثقف الضواري) وربطت الواو بين كل الصيغ المتتابعة (المعطوفات) فيما بينها، ثم بينها وبين المعطوف عليه، لتأكيد أفضلية ما يملكه من خيل وطيور جارحة. فكان العطف مؤكداً لعلاقة منطقية، وعاملاً مهماً في امتداد الصياغة، ومساعداً لعبد الحميد في الجمع بين المعطوفات.

• دور العطف في نمو المعنى:

للعطف دور في توجيه المعنى وإبراز ما استتر منه لما يصحبه من ردّة من المعطوف إلى المعطوف عليه وهذه الردّة تجعل المتلقي أكثر تجاوباً مع النص وأكثر شفافية في استيعاب ما يتضمنه من دلالات.

ففي قول عبد الحميد "وأنت – أمير المؤمنين – من الله بمكان من حق عليه النكير عليهم، والعقوبة لهم" (٥٢١).

عندما نتأمل عطف العقوبة على النكير تلوح لنا إضافة لمعنى النكير، فالنكير يتطلب موقفاً يرفض ما يفعله القدرية في جيش مروان، وهذا الرفض والإنكار قد يكون بقول أو فعل يتمثل في طردهم من الجيش، ولكن العطف أوجد طلباً محدداً يجب أن يصاحب الإنكار ألا وهو العقوبة التي تمثل التطبيق العملي بعد الإنكار والفعل الحقيقي له، فالعطف إذا ساهم في نمو المعنى من القول إلى الفعل.

وفي قوله "وليكن عالماً بمرآكز الجنود، بصيراً بتقدم المنازل، مجرباً ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة" (٥٢٢).

(519) في النثر العربي، ص ٢٢٠.

(520) عبد الحميد بن يحيى، ص ٢٦٨.

(521) السابق، ص ٢٠٧.

(522) السابق، ص ٢٤٣.

عطفت الواو الحزم والتجربة على الرأي، وفي هذا الجمع إضافة للمعنى، فالرأي يمثل الجانب النظري فقط أما العملي فيتمثل في التجربة، وعندما يجتمع الرأي والتجربة معاً وجب إضافة الحزم والقوة في تنفيذ الرأي الصائب الذي عضدته التجربة.

وقوله عن جنود الدولة "في أعنتهم الحتوف، ويزارون زئير الأسود، ويشبون وثوب الفهود"^(٥٢٣).

جمعت الواو بين الزئير والوثب لإفادة المعنى، فالزئير يمثل الصوت فقط، ولكن الوثب هو الفعل الحقيقي للقتال فهي صورة تكاد تكون كاملة للجنود من قوة الصوت الذي يعكس بالطبع قوة جسمانية وتصميم على القتال والسرعة والاحتكاك الحقيقي بالعدو والمتمثل في الوثب عليه.

• وللعطف دور بارز في تجلية المعنى في ذهن المتلقي بشيء من التفصيل والاستقصاء يوفر للمتلقى الجهد خلال البحث عنه في ثنايا النص، فعن استقبال الوفود يضع عبد الحميد لولي العهد نظاماً مفصلاً يتبعه قبل إصدار الرأي فيقول " ... فلا يصلنّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك، وعلم ما قدم له عليك، وجهة ما هو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك فأصدرت رأيك في حوائجه"^(٥٢٤).

النهى المؤكد (فلا يصلن) يوجه المتلقي إلى جمع المنهي عنه واستيعابه، وقام العطف بالواو بهذا الجمع بشيء من التفصيل والاستقصاء المجهز فلا حاجة لولي العهد سوى العمل بهذا النظام المفصل فقط، والمرور عليه عبر الفواصل التي جمعت الواو بينها فوجب عليه جمع المعلومات عن الوافد - قبل وصوله - من موعد وصوله والجهة التي انطلق منها وأسباب الوفاة عليه، وأهمية ما يطلب وتبعات ذلك عليه، وبعد هذا الاستقصاء يمكن لولي العهد إعداد رأي مسبق قبل وصوله، وعند الوصول الفعلي يمكنه أن يصدر رأيه في سرعة مناسبة للقاء في (فأصدرت).

وفي تفصيل مشابه يستخدم عبد الحميد العطف أيضاً في توجيه ولي العهد إلى كيفية الاستعداد لحرب فيقول "تنظر حملاتهم، وتتخوف غاراتهم، معداً أقوى مكيدتك وأجد تشميرك، وأرهب عتادك"^(٥٢٥).

فالإعداد للحرب عام وشامل يلزمه تفصيل واستقصاء لجوانبه وهو الدور الذي نهض به العطف فجمع بين المكيدة التي تمثل خطة الحرب وبين التشمير الممثل لاستعداده هو وبالطبع يستتبعه استعداد الجنود، وبين العتاد وهي آلات الحرب من خيل وأسلحة وغيرها، وبهذا الإعداد المفصل لا يسع ولي العهد إلا اتباعه دون البحث عن كيفية الاستعداد.

(523) السابق، ص ٢١٤.

(524) السابق، ص ٢٢٧.

(525) السابق، ص ٢٣٩.

وفي مشهد من مشاهد الصيد يصف الكاتب ما عناه من مشقة البحث عن الصيد فيقول "فأجهدنا الركض في طلبهن نتبع آثارهن، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وخناذيد"^(٥٢٦).

لا شك أن عبد الحميد عانى كثيراً من جراء الركض وراء الصيد وجسد هذه المعاناة بـ (فأجهدنا)، ولأن هذا الإجهاد كان ناتجاً في أرض وعرة، فإن تفصيل الوعورة ذاتها قد أضفى تأكيداً على ما عناه من جهد والفضل يرجع إلى الواو العاطفة التي جمعت بين الأحفار والدكادك والخناذيد، وقد تميزت أطراف العطف بصيغة الجمع الدال على الكثرة، وتعكس شدة التعب والإجهاد، علاوة على تكرار أصوات (د، ك) في (الدكادك) وصوت (ذ) في (خناذيد) ويضفي هذا التكرار كثرة في الدكادك والخناذيد وتكرارها مما يؤكد المشقة والجهد الذي أصاب الكاتب خلال بحثه عن الصيد.

وقد يصاحب التفصيل شيء من الترتيب، فيستشف المتلقي الأولوية في التفصيل من خلال هذا الترتيب كما في قوله عن تفصيل العقوبة "فأما عقوبة تبلغ تلف المهجة، وإقامة الحد في قطع، أو إفراط في ضرب، أو أخذ مال، أو عقوبة في شعر"^(٥٢٧).

تفصيل العقوبة عن طريق أداتي العطف (الواو) و(أو) صاحبه ترتيب من العقوبة الأشد إلى الأقل شدة فتبدأ من القتل وتنتهي بالشعر مروراً بقطع أحد الأعضاء أو الضرب المفرط، وهذا التفصيل والترتيب يجعل المتلقي - ولي العهد - عالماً بأولويات العقوبة التي يجب أن ينفذها بنفسه دون وسيط، وعدا ذلك من العقوبات فيإمكاناته إسناد التنفيذ لوالي العسكر.

• تنويع أدوات العطف

من الوسائل اللغوية التي استخدمها عبد الحميد لتنويع المعنى أو جوانبه تنويع أدوات العطف، فعندما ينصح ولي العهد ينوع في العواطف لمناسبة ما يتطلبه السياق فيقول "فإن دخل عليك أحد منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك، وطوى عنه حاجته قبلك؛ دفعته عنك دفعاً جميلاً، ومنعته جوابك منعاً وديعاً، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له، والغلظة عليه"^(٥٢٨).

تنوعت أدوات العطف بين الفواصل بين الفاء والواو وثم، ولكل أداة توظيفها الدلالي ولتوالي هذه الأدوات دلالة نستشفها من النص، فدخل الوافد المفاجئ على ولي العهد له من الأهمية بحيث إصدار الرأي الصائب فوجدنا الفاء المشعرة بالمفاجأة في (فكلمك)، والواو التي جمعت بين الكلام بخلاف ما قال الوافد لكاتب ولي العهد أو حاجبه، وبين طي الحاجة الأساسية عنه فيتطلب هذا الموقف جمعاً بين الدفع الجميل والمنع الوديع، وهذا الدفع له مدة زمنية طويلة نستشف منها ضرورة التفكير المتأن في كيفية منع الجواب حتى يخرج من عنده، وهذه

(526) السابق، ص ٢٧١.

(527) السابق، ص ٢٥١.

(528) السابق، ص ٢٢٧.

المدة ناتجة عن (ثم) التي تمثل المرحلة الأخيرة بإصدار الأوامر للحاجب بالغلظة على هذا الوافد وتتابع أدوات العطف بهذه الطريقة يرسم لولي العهد خطة لكيفية التعامل مع الوفود المفاجئة أو مع من يخفي مقصده عن حاجبه. وعن أصحاب الفتنة يقول عبد الحميد "... وإنما رغبهم ليوقع بهم، ثم يقع بهم، ويتخلى عنهم" (٥٢٩).

يتحدث عبد الحميد عن سيطرة الشيطان على أصحاب الفتنة، ولما كان ترغيب الشيطان لهم في الفتنة بمثابة الإيقاع بهم وفي مرحلة تالية يقع معهم فيتخلى عنهم.

فالمرحلة الأولى تتمثل في الإيقاع بالمفتونين في الدنيا وتتميز بالاستغراق في الزمن، وهو ما نفهمه من العاطف (ثم)، أما المرحلة الثانية هي في الآخرة عندما يقع معهم في جهنم وفي هذه المرحلة يتخلى عنهم، وكان العاطف (الواو) للجمع بين الوقوع في النار والتخلي عن المفتونين في الحياة الآخرة، ومن ثم فإن العاطف (ثم) قد فصل بين مرحلتين الدنيا والآخرة تمثل الشيطان بفعل واحد موجب في الدنيا (يوقع)، وفعلين سالبين (يقع، يتخلى) في الآخرة، وهو تكثيف للسالب يظهر الشيطان - رغم أنه الفاعل في الصياغة - بلا حول ولا قوة، وهذا الموقف تبصرة لأصحاب الفتنة لما سينال الشيطان وهم معه، أو دعوة للاستفاقة بالتخلي عن سيتخلى عنهم.

وفي مشهد من مشاهد الصيد يرسم الكاتب صورة جميلة للطبيعة كخلفية للصيد يقول فيها "وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً؛ فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنايك ومتشعبات الأعاصير مهلة أن سرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من السحاب مسفرة؛ فتلألأت الأشجار، وضحك النوار وانجلت الأبصار" (٥٣٠).

يرسم عبد الحميد مرحلتين عن طريق العاطف (ثم)، تبدأ الأولى مع المطر الذي نتج عنه عدة مظاهر جمعها العاطف (الواو) من ربت الأرض وزهر البقل وسكن القتام، وهذه المرحلة التي رتبها (ثم) وشكلت الواو الجامع لعدة مظاهر جعلت من المطر المتدارك وسيلة لتسهيل عملية الصيد بدلاً عن إعاقتها فقد اختفى الغبار وتمهدت الأرض وفوق ذلك تحسن المشهد بألوان الزهور، أما المرحلة الثانية يمثلها طلوع الشمس وجمعت (الواو) بين مظاهر هذه المرحلة من ازدهار الأشجار وانتشار الأزهار والتمكن من رؤية الطبيعة وأرض الصيد، وفي هذه المرحلة أيضاً نجد الكاتب يهيئ هذه المرحلة إلى تسهيل عملية الصيد، فبروز الشمس كان سبباً في التمكن من النظر، واستحسان المنظر من حوله من شجر وأزهار يشجع على استئناف عملية الصيد، وأضاف إلى متعة الصيد متعة النظر إلى الطبيعة الجميلة.

(529) السابق، ص ٢٠٧.

(530) السابق، ص ٢٦٩.

وقد أعطت العواطف استغراقاً زمنياً لكل مرحلة (ثم) بدلالاتها على الترتيب البطيء، و(الواو) التي أعطت امتداداً للمرحلتين بالجمع بين أكثر من معطوف مثلت عدة جمل شغلت كمّاً طويلاً وتجمعت في بؤرة رأسية تمثلت في الواو.

● العطف والتصوير

للعطف دور مهم في إبراز الصورة وتوضيحها، وهذا الإبراز له عدة وسائل يلجأ إليها الكاتب ليحقق الغرض من توصيل الرسالة، فمن هذه الوسائل التركيز على أحد طرفي الصورة كوسيلة لإبرازها حتى تؤثر في المتلقي وفي درجة تجاوبه مع النص، وقصد التأثير في المتلقي يعكس من زاوية أخرى أهمية المكتوب عند الكاتب.

ففي نصائح لولي العهد يتجه عبد الحميد إلى التنبيه الشديد على الحذر من الأمور التي قد تبدو من اللمم بالنسبة للبعض، ولكن لها الأثر العظيم في حياته وحياته من حوله خاصة إذا كان كولي العهد يقول عبد الحميد "واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك"⁽⁵³¹⁾.

تشبيه الأهواء بالعدو فيه تشخيص لها، ومن خلال الصياغة نجد العطف قد وضع (عدو) في بؤرة الاهتمام من خلال الجمع بين (يحاول هلكتك، يعترض غفلتك) فالعدو هو الفاعل الحقيقي لـ (يحاول، يعترض) وهو تأكيد لفاعلية المشبه به (عدو) مما يزيد من دخول المعقولات (الأهواء) داخل عالم المحسوسات ويخلع عليها قوة حقيقية فاعلة تبدأ من الفعل (يحاول) وتتأكد مع الفعل (يعترض) وهو ما وصلته الواو بالمعطوف عليه.

وهذا التأكيد على الفاعلية يبرز الأهواء في صورة محسوسة واضحة ويبرز قدرتها على الاستمرار في محاولة إهلاك ولي العهد أو على الأقل اعتراض غفلته ومن اللافت للنظر أن اختلاف صيغ الأفراد والجمع بين المشبه والمشبه به قد ساعد أيضاً في التركيز على (عدو)، فالأهواء جمع شكل في مفرد (عدو) وكأن الأهواء كلها اجتمعت في واحد، وهذا الاجتماع يزيد من تكثيفها وقوتها، ويوجه المتلقي إلى الحذر الشديد منها.

ونتوقف عند صورة مهمة تتضمن عدة صور في رسالة عبد الحميد إلى أحد الخارجين لينال من ثقته بنفسه وثقته بجيشه، فكانت أشبه بتهديد ينقل الرسالة من عصر عبد الحميد إلى العصر الجاهلي الذي تميز بإشعال الحماس عن طريق الرجز والشعر قبل المنازلة، والنيل من العدو بالشعر الذي يؤثر في شجاعته وقوته قبل النيل منه بالسيف فيقول عبد الحميد واصفاً جنود الدولة "فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها، ويأنس بقربها"⁽⁵³²⁾.

تتحرك خيوط الصياغة بالمزج بين الجندي والحرب إلى أعلى درجة، فمن جانبها فهي أمه، ومن جانبها هو ابنها، وقد جعلت الواو هذه العلاقة متكاملة فمنزلة

(531) السابق، ص ٢١٩.

(532) السابق، ص ٢١٤.

الحرب عند الجندي تتعادل مع منزلته عندها ولكن التركيز هنا على جانب واحد وليس على الجانبين (الجندي والحرب) وذلك عبر خطوط الصياغة، فالعطف قد وهب الجندي الجانب الأكبر من الاهتمام ودليل ذلك فاعليته (يسكن) وتأکید الفاعلية عبر عطف (يأنس) على (يسكن) والجمع بينهما.

وبتأكيد فاعلية الجندي في مقابل الحرب المجرورة بحرف (إليها)، وبالإضافة (بقربها) قد جعلت من الحرب – بالرغم من قوة العلاقة بينهما – تابعاً للجندي يتحكم بها حيث يشاء، وهو ما يزيد من قوة الجندي المستعلية على الحرب ذاتها مما يساعد في زعزعة قوة الخارجين والنيل من شجاعتهم وإدحاضها قبل الحرب.

فالعطف إذا قد ساهم في إبراز الصورة بمعالمها قد لا تظهر إلا مع وجود العطف خاصة الواو التي وضعت الجندي والحرب في وضع متساو في منزلة كل منهما بالنسبة للآخر أولاً، ثم رجحت الجندي وحققته له استعلاءً على الحرب ثانية، ونفذت ما وضعت من أجله في خدمة السياق الكلي للرسالة التي تهدف من إبراز قوة جنود الدولة إلى النيل من شجاعة الخارجين.

وقد يضيف العطف على التصوير إحكاماً، ويتولد هذا الإحكام من استكشاف بعض الجوانب الدالة التي قد تكون مستترة عن المتلقي، فعن المشورة سرّاً يقول عبد الحميد "كان انحيازك إلى ظهريك مزداداً مما أحببت الامتياح منه والامتيار"^(٥٣٣).

فقد وضع عبد الحميد المشورة والأخذ بالرأي في صورة طلب الفضل وتجهيز الطعام للسفر، وقد جمعت الواو بين الفضل (الامتياح) والزاد (الامتيار) عن طريق العطف، ولكن بهذا العطف تظهر للمتلقي صورة دقيقة تتمثل في إعداد الرأي في كل شيء مسبقاً كتجهيز الطعام وإعداده قبل السفر، فعلى ولي العهد أخذ أفضل الآراء مع الاستعداد التام قبل أن يصدر رأيه في أمر من الأمور، وهذا الاستعداد نفهمه من عطف (الامتيار) الموحى بالإعداد والتجهيز على (الامتياح) الموحى بأخذ الفضل، وهو ما يضيف الإحكام على الصورة من عدم الاكتفاء في الأخذ بأفضل الرأي، بل بالاستعداد به أيضاً عند الاحتياج إليه.

وفي سياق عتاب أحد ولاة الخليفة يرسم عبد الحميد صورة محكمة تبرز منزلة الوالي الخاصة من الخليفة للتخفيف من حدة العتاب وضمان طاعة الوالي للخليفة فيقول الكاتب "... وأنت عين أمير المؤمنين وجفته"^(٥٣٤).

تشبيه الوالي بعين الخليفة ينطوي على بعض المظاهر، الأول يعبر عن عضو البصر عند الخليفة ويعكس محبة الخليفة له، والثاني عينه على الناس والأخبار أو ناقل الأخبار له، والأخير أن الخليفة يرى كل شيء من خلال رؤية الوالي، وعبر عطف (جفته) على (عين) فقد أحكم العطف الصورة بترجيح مظهر

(533) السابق، ص ٢٢٨.

(534) السابق، ص ١٩١.

من عدّة مظاهر قد يفهمها المتلقي وهذا المظهر هو عضو البصر للخليفة الذي يعكس محبة الخليفة له وعدم الاستغناء عنه.

وتزداد أهمية العطف أكثر بالجمع بين العين والجفن في زيادة الإحكام من خلال بيان جانب مهم، ألا وهو أن يكون الوالي عين الخليفة لا يكفي فإن العين في حاجة إلى من يحميها ويحرسها من الأذى، وهذا الحامي هو الجفن الذي يتلاقى في بؤرة رأسية مع العين عند نقطة محددة هي الواو العاطفة.

وبهذا الفهم فإن الوالي في منزلة عالية من الخليفة تساعد في تقبل العتاب دون إضرار الضغينة وتؤهله هذه المنزلة إلى خدمة الخليفة وإزالة أسباب العتاب مستقبلاً عند الوقوع في وضع مشابه، وتوجب عليه احترام أهل بيت الخلافة بقدر منزلته من الخليفة.

ويقوم العطف بتقوية معالم الصورة لتظهر جلية واضحة أمام المتلقي تزيد من اقتناعه بها، وتؤهله لتنفيذ النصيحة ففي قول الكاتب "ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلق الحسنان، ومفتاح السيئات، وخصم العقل" (٥٣٥).

شخص الكاتب (الهوى) ووضع في صورة عدو يجب الاستمرار في مجاهدته، ولما كان الهوى ضامراً في نفس الإنسان فتصعب مواجهته كانت حاجة الكاتب بعرض الأسباب التي توضح وتبرز أضرار الهوى على الإنسان حتى يزداد المتلقي اقتناعاً وتصميماً على المواجهة.

هذه الأسباب أو الأخطار هي غلق باب الحسنات وفتح باب السيئات ومخاصمة العقل، وقد جمعت الواو العاطفة بين هذه الأخطار في بؤرة تزيد من بشاعة اتباع أهواء النفس، وتؤهل المتلقي على مجاهدتها.

وفي صورة مشابهة يقول عبد الحميد "...حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ الألقاب وذميمة تنابزها من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضياع، ودخل الوهن" (٥٣٦).

جسد الكاتب الأخلاق في صورة مادية ملموسة ككنز وجبت حراسته، وشخص الآفات المختلفة في صورة عدو متربص بولي العهد لسرقة الأخلاق أو تضيقها، ولما كانت هذه الآفات خافية عن ولي العهد، كانت حاجة الكاتب في عرض مظاهرها المختلفة في صورة جمعت الواو بينها في بوتقة واحدة تهدف إلى وضوحها وبروزها أمام المتلقي فيستطيع مواجهتها وحراسة أخلاقه منها، وبهذا الوضوح يضفي العطف إحكاماً على الصورة من خلال توضيح هذه الجوانب المتمثلة في حضور الغفلة وانتشار الضياع ودخول الوهن.

وعندما يحذر عبد الحميد الكتاب من السرف والترف يعمد إلى العطف في توضيح الآثار المترتبة على الإفراط في الترف عن طريق الجمع بين هذه الآثار

(535) السابق، ص ٢١٩.

(536) السابق، ص ٢٢٠.

فيقول "واحدروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب لأسيما الكتاب" (٥٣٧).

تشخيص السرف والترف في صورة عدو يسبب الفقر للكتاب ويذلهم قد عضدته الواو التي جمعت الفقر والذل وهما من الآثار المترتبة على السرف والترف في بؤرة رأسية تظهر للمتلقي في صورة واضحة هذه النتائج التي ترتبت على الإفراط في السرف والترف وهذا الوضوح يحكم من صورة السرف والترف فيوجه المتلقي إلى ضرورة احترام النصيحة والعمل بها حتى لا يقع تحت طائلة الفقر أو يذله الترف والسرف.

● كثرة المعطوفات

إن الإفراط في العطف لا يأتي في رسائل عبد الحميد لذاته ولكن لخدمة النص وإنتاج دلالات تسهم في إنتاج الدلالة الكلية للنص، ومن اللافت للنظر أن الواو العاطفة قد شكلت القسم الأكبر من أدوات العطف في الاستنثار بعطف أكثر من معطوف في سياق واحد.

وقد استخدمها الكاتب لعدة أوجه دلالية كالامتداد في الصياغة لإظهار جوانب أخرى من المعنى، أو إضافة بعض المعاني إلى المعنى الأصلي. وقد يصاحب هذا الامتداد تكرار لبعض الصيغ والقوالب النحوية، ولكن مع اختلاف المعنى وعدم تكراره.

ولا نبخس الواو حقها في الربط بين أكبر عدد من الجمل والجمع بين العديد من المفردات التي تحوي معان مختلفة.

ومن الأمثلة التي توضح استخدام عبد الحميد الواو في الجمع بين أكبر عدد من الصفات في تتابع سلس في قوله "فليكن من توليه القضاء بين أهل العسكر من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع والبصر بوجوه القضايا ومواقعها، قد حنكته السن، وأيدته التجربة، وأحكمته الأمور" (٥٣٨).

من ذوي الخير عام في حاجة إلى تعداد الصفات الأخرى وإضافتها إليه وهو ما استخدمت الواو لأجله، فجمعت بين أكثر من معطوف، تبدأ بالقناعة وتنتهي بالبصر بوجوه القضايا، ثم يجدد العطف مع الجمع بين الجمل الفعلية التي تسرد باقي الصفات وتبدأ بـ (حنكته السن) ... إلخ

وبهذا يكون العطف قد حقق امتداداً أفقيًا، وجمع بين معطوفات (مفردات وجمل) تمثل صفات عدة في عدة بؤر رأسية أضافت إلى المعطوف عليه (ذوي الخير) دون التطويل من غير هدف.

وفي تفصيل بعض الأمور التي يجب ألا يفرط فيها الكتاب في قوله "ولا يجوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدر صناعته" (٥٣٩).

(537) السابق، ٢٨٦.

(538) السابق، ص ٢٤٥.

(539) السابق، ص ٢٨٦.

إن العطف قد أعطى عبد الحميد الفرصة في الامتداد والاسترسال الذي تميز بإضافة العديد من المعطوفات إلى المعطوف عليه، وهذه الإضافة صاحبها إضافات للمعنى الأول، ووجهت الكتاب في العبارة الأولى إلى استكشاف الأخلاق التي يتحلون بها، فتمنحهم الثقة المطلوبة لإتمام العمل على أكمل وجه، وهذا التعداد للصفات يقوي مكانته لدى الكتاب وتوجب عليهم احترام نصائحه.

وفي الثانية إلى عموم عدم الإفراط في أمور الدنيا ومظاهرها بقدر التمكن من صناعة الكتابة ذاتها. وهذا الامتداد يعكس للمتلقي مدى أهمية الكتاب في هذا العصر ومنزلتهم لدى الدولة، وتنعمهم في الثراء الذي قد يبطر بعضهم فكانت الحاجة إلى التنبيه على عدم الإفراط في مظاهر هذا الثراء.

ولقدرة الواو على التفصيل، فإن هذه القدرة تزداد بزيادة المعطوفات، وهذا التفصيل يمنح المتلقي وضوحاً أكبر يساعد على القيام بما يتوجب عليه ويولد تجاوباً وانسجاماً مع آراء عبد الحميد تجاه بعض القضايا الخاصة أو العامة.

كتفصيل مظاهر قوة بعض الخارجين، وما يفعلوه من ضرر للدولة وساكنيها في قوله "حتى إذا غلظ أمره واستفحل شأنه، واستجمعت له مكائده، وقويت مناسطه، وتمددت في القبيح أطرافه؛ بهت الكتاب بالفرية عليه، والرسول بالدعاء لولده ... يعتق الأرقاء، ويدعو الأشرار، ويكرم أهل الخمول، ويحرّف ولاية الدين جارحاً له، وينتحل ولاية الصالحين مفارقاً لهم"⁽⁵⁴⁰⁾.

شمل التفصيل مظهرين، الأول بعطف عدّة جمل تصدرها (فعل ماض) (غلظ) دال على التحقق والثبات وجسد عدّة مراحل في الماضي جمعها العطف وأوضحت في مجموعها القوة التي وصل إليها الخارجون على الدولة وكان نتيجتها الافتراء على الكتاب والسنة.

والمظهر الثاني بعطف عدّة جمل تصدرها (فعل مضارع) (يعتق) دال على الاستمرار والتجدد يجسد عدّة أفعال في الحاضر جمعتها الواو، وتوضح ما يفعله الآن لزيادة قوة الماضي، تبدأ بجمع الأشرار للحرب وتنتهي بإعلان الولاية لأحد الخارجين من (بني العباس) دون الخليفة الأموي.

وقد حقق العطف بكثرة المعطوفات امتداداً صاحبها تفصيل يزيد من تجاوب المتلقين مع النص، ومن ثم الاقتناع بقضية وجوب مواجهة الخارجين لاستفحال أمرهم قبل الدخول في مرحلة ثالثة – تمثل المستقبل – قد لا يكون هناك وجود للدولة الأموية فيها، وصدق حدس عبد الحميد في ذلك.

ويلجأ لتعداد المعطوفات أيضاً في طول خطي يعدد فيه آثار الفتنة على الدولة والناس في قوله "فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يهراق بغير حقه وطفل من أبناء المسلمين قد يئثم من أبيه، ومذلة قد دخلت عليه، ونعمة قد زالت عنه، ووحشة حدثت وضغائن في القلوب قد نشبت، وشحناء قد ظهرت وأوتار قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت وخوف قد ظهر، وسبيل قد قطعت، وامرأة قد أرملت وصبية قد يئمت، وبلاد عامرة قد خربت، وعدد قد نقص، وبلايا قد عمّت وشملت، وعدو قد شمت ومنافق قد رفع إلى ما كان يؤمل رأسه، وعدو من

(540) السابق، ص ١٩٩.

المشركين قد طمع، وقوي بعد ضعف، وعزّ بعد مذلة، ورعية قد ضاعت، وناعية قد ولولت وحميم قد قتل حميمه، ومودة قد صارت عداوة⁽⁵⁴¹⁾.

يبين الكاتب الكثير من آثار وأضرار الفتنة التي حدثت بالفعل وأكدها بعدة مظاهر منها، (الفعل الماضي) و(قد)، والتقديم والتأخير في أكثر الجمل المعطوفة وبجانب الامتداد والاسترسال في تعداد ورسم آثار الفتنة، فإن طول الامتداد يضيف تهويلاً من أمر الفتنة ومعصية الخليفة، وهذا التهويل نابغ بالدرجة الأولى من كثرة الآثار المترتبة على الفتنة وجمعت الواو بينها لتعطي المتلقي أكبر قدر من التفصيل الذي يزيد من تجاوبه مع النص، وبالتالي أكبر قدر من الطاعة للخليفة، والتصميم على محاربة الفتنة، وهذا التصميم يعكس الاقتناع التام بما فصله الكاتب من آثار الفتنة عن طريق كثرة المعطوفات عن طريق الواو.

وكثرة المعطوفات حققت امتداداً أضاف إلى المعنى الكثير من المعاني الفرعية دون تكرار المعنى، فالرجل الذي قتل في سبيل الدفاع عن الدولة خلف وراءه طفلاً يتيمًا، وأرملة وغير ذلك مما استتبعه نقص في العدد والذل والفقر وانتشار الكراهية.. إلخ

وهذا التفصيل من ذكر كل الأشخاص الذين تأثروا بموت الرجال بمثابة التعبير عن كثرة المتأثرين وتوجيه المتلقي إلى التفكير في أحوال كل متأثر منهم على حده.

ولم يكن التأثير على الأفراد فقط، بل التأثير يعم الدولة كلها كهرم قاعدته الأفراد وقمته الدولة.

وكل ذلك يخرج بالمتلقي من النظرة الضيقة لموت الرجال إلى نظرة أعم تؤثر في جميع أفراد الدولة من طمع العدو الخارجي فيهم فيزداد الدمار والخراب وتوجيه المتلقي بهذه الطريقة تجعل منه فرداً يعيش للمجتمع وليس لنفسه، يدافع عن دولته ضد الفتن الداخلية أولاً حتى لا يضطر إلى الدفاع عنها ضد العدو الخارجي الذي يتربص بالدولة الدوائر نتيجة الصراعات الداخلية التي كانت الفتنة بطلها الأول.

ومن اللافت للنظر أن كثرة المعطوفات ساعدت الكاتب في تناول آثار الفتنة من عدة جوانب بدأت بالجانب الاجتماعي المتمثل في الأيتام والأرامل وجانب اقتصادي تمثل في زوال النعم وخراب البلاد وقطع الطرق، وجانب نفسي تمثل في الخوف والوحشة والذل، وجانب سياسي تمثل في طمع العدو الخارجي في بلاد المسلمين، وجانب ديني مثله إهراق الدم بغير حقه وطمع المشركين في الدولة الإسلامية. وهذه الجوانب المتنوعة تجعل الكاتب موجهًا رسالته إلى مختلف طوائف الشعب، ويبين لكل منهم آثار الفتنة بحسب ما يهتم به من هذه الجوانب، وهو ما أراده الكاتب من تعبئة أكبر عدد من الناس لمحاربة الخارجين على الدولة والدخول في طاعة الخليفة.

وقد يستغل عبد الحميد كثرة المعطوفات لإلقاء أكبر عدد من الأوامر التي تحت المتلقي على الاستجابة لها فيقول واصفًا اقتراب الخارجين من أحد ثغور

(541) السابق، ص ٢٠٩.

الدولة "وأقبلوا وراء رقعتمكم ليجالدوكم عليها ويزحزحوكم عنها بجيشي التمويه والسيف، فاتقوا الله في حمايتكم عن دينكم، واحذروا العار في أخذ دنياكم من أيديكم، وكونوا عند الوفاء لمن اعتد بكم، ولا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية واثبتوا ريثما تتجلي هذه الغمرة" (٥٤٢).

ساعد العطف بالواو بين عدة معطوفات الكاتب على الجمع بين عدة جمل تبدأ بـ (فعل الأمر فاتقوا) الدال على الحث والتشجيع على الثبات في الدفاع عن حدود الدولة، وأعطى تكتيكا لأوامر عبد الحميد يعكس أهمية الدفاع عنده لاقتراب الخطر من الدولة برمتها ويزيد من تجاوب المتلقين مع طلب عبد الحميد لما مثله التكثيف من إلحاح في الطلب يستدعي تصميمًا على الدفاع من قبل المتلقين.

ويلجأ الكاتب إلى الواو لتجمع أكبر عدد ممكن من النصائح التي يوجهها لولي العهد، وتفصل له العديد من الأمور فكانت بمثابة مرجع من أهم المراجع التي يتطرق إليها كل من أراد المناصب العليا فيقول فيها "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرّك بالكتمان، وتداري جنّدك بالإحسان وتداوي حقّدك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل وتحصّن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردي، وأتاك فوقها الملل وفوت العمل، ومضاعتك قدرّها روية النظر، واكنفها بأناة الحلم، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فاتف عنه عيّ اللفظ، وخف فيه سوء القالة واستماعك فأرعه حسن التفهم، وقوّه بإشهاد الفكر، وعطاءك فامهّد له بيوتات الشرف، وذوي الحسب، وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر، وحلمك فزرعه عن التهاون، وأحضره قوة الشكيمة، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط وتعمد بها أهل الاستحقاق وعفوك فلا تُدخله تعطيل الحقوق وخذ به واجب المفترض وأقم به أود الدين، واستئناسك فامنعه منه البذاءة وسوء المنافاة، وتعهدك أمورك فحدّه أوقاّتا وقدره ساعات لا يستفرغ قوتك ويستدعي سامتك، وعزماتك فاتف عنها عجلة الرأي ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكمها عن البطر وقيدها عن الزهو وروعاتك فحطها من دهش الرأي واستسلام الخضوع وحذارتك فامنعه عن الجبن واعمد بها للحزم ورجاءك فقيّده بخوف الفاتت وامنعه من أمن الطلب. هذه جوامع خلال دخال النقص منها واصل إلى العقل بطائف أبته" (٥٤٣).

أوردنا النص السابق كاملاً لأنه يشكل أكبر قدر من المعطوفات تتابعت في سلاسة واسترسال يكشف عن بعض المميزات لأسلوب عبد الحميد.

وبالتأمل نجد الكاتب قد عطف ثلاث وعشرين جملة عن طريق الواو لأفعال تنوعت بين المضارع الدال على الأمر وينسحب في دلالاته إلى المستقبل وبين الأمر، وتميزت كل جملة بطول خطي ملحوظ، وعطف اثنين وعشرين معطوفاً داخل الجمل السابقة كلها بالواو وحدها منها ثلاثة عشر فعلاً.

(542) السابق، ص ٢٨٩.

(543) السابق، ص ٢٢١.

وتشير الأعداد السابقة إلى مقارنة عدد المعطوفات في الجمل للمعطوفات بداخلها وكأن الكاتب يباهي بملكته اللغوية وقدرته على استطالة الجمل دون تكرار الألفاظ أو حتى معانيها فطول وكثرة المعطوفات لا يصحبه تكرار للمعاني المتناولة، بل يضيف معنى مع كل معطوف.

إن الامتداد الذي حققه العطف قد شهد تكراراً لبعض القوالب صاغ فيها الكاتب نصائحه تبدأ بـ (فعل مضارع الغرض منه الأمر + فاعل مستتر (ولي العهد) + مفعول به + (ك) مضاف إليه + حرف جر واسم مجرور) وهي الجمل الخمس الأول، ثم (مفعول به حذف فعله وفاعله + (ك) مضاف إليه + (ف) + فعل أمر وفاعله مستتر (ولي العهد) متبوع بمفعول به أو حرف جر) لباقي الجمل.

ومن القوالب السابقة لا نجد للتطويل هدفاً ودليل ذلك هذا الكم من المحذوفات، ويبقى لدينا امتداد يجمع فيه عبد الحميد أكبر عدد من النصائح التي تعين ولي العهد في تسيير أمور الدولة.

ولضمان تأمل المتلقي في تلك النصائح وتجاوبه معها فقد لجأ عبد الحميد إلى كثرة المد والسكون الذي يستوقف المتلقي إزاء النصائح ويزيد من تأمله فيها. وهذا الامتداد اللافت للنظر يمثل تفصيلاً بفضل الواو للنصائح وتكثيفاً لها يعكس إلحاحاً شديداً في توجيه النصائح، وهذا الإلحاح يوجه المتلقي إلى ضرورة العمل بها وجمعها في بوتقة واحدة. وهذا الكم من النصائح يعكس خبرة عملية في تعليم وتأديب الأمراء، وهو ما جعلنا نرجح عمل عبد الحميد في تعليم وتأديب الصبيان قبل الكتابة للدولة.

تميز أسلوب عبد الحميد بتكرار بعض الوحدات الصرفية تظهر بوضوح في نشره(*) عامة كأفعل التفضيل مع التمييز، وصيغ المصدر، وصيغ اسم الفاعل، والأهم في ملاحظة تكرار هذه الوحدات هو كيفية تكرارها، وهذه الكيفية تمثلت في الواو العاطفة لكثير من المعطوفات التي تعطي امتداداً للوحدات المتكررة تشبع ولع عبد الحميد بها، وتساعد في تجهيز بعض القوالب المسبقة التي تسهل عليه عملية الاسترسال.

فأمثلة التفضيل مع التمييز قوله في صفات قائد الشرطة "فول شرطتك وأمر عسكري أوثق قوادك عندك، وأمنهم نصيحة، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في أمرك وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفاً، وأجزأهم غناءً، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على جماعتهم رافة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدهم في دين الله وحقه صلابة ثم فوض إليه مقولاً له" (٥٤٤).

(*) انظر ما كتبه د/ محمد يونس، في النشر العربي، ص ٢٢٠، و د/ إحسان عباس، في عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله، ص ١٦٦، وما بعدها، عن تكرار عبد الحميد للوحدات الصرفية.

(544) السابق، ص ٢٤٣.

فكل ما يجب أن يفعله ولي العهد هو اختيار الأفضل ليكون قائداً للشرطة وهذه الأفضلية تتطلب تفصيلاً للصفات التي تمكنه من الأفضلية على غيره عموماً وقد منحت الواو العاطفة هذا التفصيل وأضفت شمولاً على الأفضلية عن طريق الجمع بين أكثر من معطوف مثل تكراراً لصيغة التفضيل دون تكرار المعنى، فالسياق لا يستغنى عن الصفات المذكورة في النص بل في أمس الحاجة إليها لوضع معيار يتبعه ولي العهد ليختار القائد بسهولة وفقاً لهذا المعيار.

وفي صفات الصديق يلجأ الكاتب إلى كثرة المعطوفات التي اتحدت في صيغة التفضيل في قوله "... فكان أكهف لجأ، وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة، وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنعة، وأنق منظر، وأينع زهرة أكثر الأشياء ريعاً، وأنماها وصلاً، وأمدّها سبباً وأقواها أيّداً، وأحلاها ذوقاً، وأدعمها ثباتاً، وأرساها ركناً" (٥٤٥).

وتظهر ملكة الكاتب اللغوية في تنويع صيغ التفضيل فبدأ بـ (أفعل + تمييز مجرور بالإضافة) (أكهف لجأ) ثم أتبعه بـ (أفعل + المفضل + تمييز منصوب) (أكثر الأشياء ريعاً) وهذا التنويع جمع كله بالواو العاطفة التي عبّرت بصيغة التفضيل أكبر عدد ممكن من الفواصل تضمنت الكثير من صفات الصديق المفترض التي تقع في أعلى مرتبة من الأفضلية وهذه المرتبة مع كثرة المعطوفات تعكس شدة احتياج المتلقي لهذا الصديق المفترض الذي يكاد يظهر في ثوب متكامل لا ينقصه شيء بالإضافة إلى أهمية هذا الصديق في نفس عبد الحميد.

وقد تكون كثرة المعطوفات متحدة في كونها كلها صيغ المصدر بأنواعها المختلفة، وكثرة المعطوفات تمثل امتداداً في حقيقته لصيغ المصدر كما في قوله في سياق النصائح "وعليك بثبوت المنطق ووقار المجلس وسكون الريح، والرفض لحشو الكلام، والترك لفضوله والإغرام بالزيادات في منطقك والترديد للفظك" (٥٤٦).

جمعت الواو بين العديد من المصادر الثلاثية والرباعية التي تنوعت في صيغها كتنوع المطلوب من ولي العهد القيام به، وقد أضفى العطف وكثرة المعطوفات امتداداً لصيغ المصدر التي تتضمن الحدث دون الزمن أو الزمن المطلق مما يوجه ولي العهد إلى ضرورة الالتزام بهذه النصائح ما بقي حياً أو على الإطلاق.

وقد تكثرت المعطوفات الممثلة لصيغ التفضيل والمصدر معاً كما في قوله عن أنواع النصر "اعلم أن الظفر ظفران: أحدهما - وهو أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة، وأحسنه في الأمور مورداً، وأعلاه في الفضل شرقاً - ما نيل بسلامة الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة، ويمن النقية، واستئزال طاعة ذوي الصدوف" (٥٤٧).

(545) السابق، ص ٢٧٧.

(546) السابق، ص ٢٣٢.

(547) السابق، ص ٢٣٧.

حققت المعطوفات بكثرتها امتداداً ملموساً ساعد في تكرار صيغ التفضيل + التمييز أولاً من (أعم منفعة) إلى (أسلمه مصدراً)، ثم تبدأ صيغ المصدر الثلاثي والسداسي من (سلامة إلى استتزال) وما من شك أن كثرة المعطوفات الممثلة للحركة الرأسية المركبة قد أسهمت في الحركة الأفقية للتقديم والتأخير، فطول كم المعطوفات أعطى فاصلاً كبيراً بين المبتدأ (أحدهما) وخبره (ما نيل..). وهذا الفاصل إنما دلّ على أفضلية الظفر مع سلامة الجند مع تفصيل منافع هذا الظفر. وردة المتلقي إلى الخلف لربط الخبر بمبتدئه يعطي للفاصل أهمية، وللمتلقي تجاوباً مع النص، والتأمل في المعطوفات، واكتشاف كثرة منافع الظفر بسلامة الجنود. وكثرة المعطوفات في تفصيل نوع الظفر المطلوب من سلامة الجنود والمكيدة وغيرها ترسم للمتلقي خطة هذا الظفر بالتفصيل لضمان الأفضلية السابقة.

وتتحد المعطوفات في صيغ اسم الفاعل، وكثرتها تعطي امتداداً وتفصيلاً لمنافع طاعة الله في قوله ناصحاً ولي العهد بتقوى الله "فإن طاعتك إياه فيهم، ومراقبتك له، ورجاءك نصره مسهل لك وعوره، وعاصمك من كل سبة ومنجيك من كل هوة، وناعشك من كل صرعة، ومقيلك من كل كبوة، ودارئ عنك كل شبهة، ومذهب عنك لطفة كل شك، ومقويك بكل أيد ومكيدة، ومعزك في كل معترك قتال، ومؤيدك في كل مجمع لقاء، وكالك عند كل فتنة مغشية، وحافظك من كل شبهة مردية، والله وليك، وولي أمير المؤمنين فيك" (٥٤٨).

(لنتأمل المعطوفات (مسهل لك، عاصمك، منجيك، ناعشك، مقيلك، دارئ، مذهب، مقويك معزك، مؤيدك، كالك، حافظك) وكلها من صيغ اسم الفاعل جمع العطف بينها في بؤر رأسية تعطي في مجموعها شمولية وعموم فاعلية التمسك بطاعة الله.

وهذا الإلحاح على التفصيل وتكرار القوالب من (اسم فاعل + ك ولي العهد + مفعول به أو مجرور بحرف + من كل + مضاف إليه ...) دون تكراراً لمعنى يؤكد فاعلية طاعة الله وبالتالي العمل بالنصيحة المقدمة.

• وإن الامتداد الناتج عن كثرة المعطوفات يساهم في رسم الصورة بإظهار جوانبها وتحقيق الامتداد للصورة كامتداد آثار الحياة الهائلة في قوله "حتى اعتلقت خفض الدعة والوداعة، وتمددت في فسح ساحات منازل الراحة، واستقرعت أبواب السلامة، وتمهدت وثارة الأمن، وتوسطت رباع العز، واستخففت بذلك معاشك فصار قليل ما أنت فيه كثيراً لمساعدة السلامة إياك، لا تدخلك مشقة البعد، ولا ذلة السفر، ولا كآبة الغربة، ولا اغتراب الدار، ولا سوء تجهم الأذن، ولا ضجر الطلب، ولا تعب شره النفس" (٥٤٩).

(548) السابق، ص ٢٣٦.

(549) السابق، ص ٢٠٣.

ويقول بعدها أيضًا "إذ الضيعة لمن اغترب، والغربة لمن اشتملت عليه الهموم، وتشعبته الرغبة ففارق الأحبة، واستخلف منهم الغربة، وكادح الأسفار وأتعب البدن، وأقلق الشخص، ونابذ الدعة، واعتاض النصب" (٥٥٠).

ساهمت المعطوفات بكثرتها على اتساع الصورة وإظهار أدق تفاصيل الحياة الهائلة في ظل الوطن والأصحاب في مقابل إظهار أدق تفاصيل حياة الشقاء في الغربة بعيدًا عن الأصحاب، وفي هذه وتلك ساهمت الواو في تفصيل جوانب الصورتين، وهذا التفصيل يعطي وضوحًا أكبر للصورة يخفي وراءه انفعالات وجدانية تعلن للمتلقي شوق عبد الحميد العارم والحنين الشديد إلى الوطن ومن فيه، وتكشف عن المعاناة الشديدة من الغربة.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الواو العاطفة للجمل المتتابعة في الصورتين قد جمعت بين جوانب مختلفة تكونت منها الصورة من أماكن (ساحات منازل الراحة) والحركة الهادئة الناعمة (تمهدت وثارة الأمن، تمددت) في الوطن.

وبين أماكن (البعد، الغربة، الدار) والحركة الدائبة الشاقة (كادح، أقلق، اعتاض) في الغربة مع اتحاد الزمن في الصورتين، وعكست الجانب الانفعالي الوجداني (استخفاف المعاش) في مقابل (أقلق الشخص، نابذ الدعة)، وهو ما زاد الصورتين وضوحًا وتفصيلًا لجوانبهما، وأكد المفارقة الكبيرة بين الصورتين.

ويرسم عبد الحميد صورتين للحياة الجاهلية تقوم الواو العاطفة فيهما بوضع التفصيلات المختلفة لهذه الحياة عن طريق الامتداد الناتج عن كثرة المعطوفات فيقول في الأولى "... وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له على حين انطمست الأعلام مختفية، وتشئت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهج الفتن، واعتلى ققام الظلم، واستنهد الشرك، وأسدف الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق، واستطرق الجور واستنكح الصدوف عن الحق، واقمطر سلهب الفتنة واستضرم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغياية فساد؛ فصدع بالحق مأمورًا ... " (٥٥١).

ويرسم في الثانية صورة مشوقة توضح قيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأعباء الرسالة وأفضاله على المسلمين تعمل الواو على وضع تفصيلاتها المختلفة عن طريق الامتداد الناتج عن كثرة المعطوفات أيضًا فيقول فيها "قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطعات الذنوب، ومبهظات الأوزار، وظلم الشبهات، وما يدعو إليه نقصان الأديان، وتستهوهم به الغوايات، وأوضح لهم أعلام الحق ومنازل المراشد وطرق الهدى وأبواب النجاة ومعالق العصمة، غير مدخر لهم نصحاء ولا مبتغ في إرشادهم غنمًا" (٥٥٢).

مثل كل معطوف في الصورتين لقطة توضح جانب من جوانب الحياة الجاهلية، وبالتقاء المعطوفات في بؤر رأسية تلتقي تلك اللقطات عن طريق الواو

(550) السابق، ص ٢٠٣.

(551) السابق، ص ٢٦٥.

(552) السابق، ص ٢٦٦.

الجامعة لها لتبني صورة كاملة لتلك الحياة في الأولى ولأفضل الرسول الكريم عليهم في الثانية.

ليس هذا فحسب، بل جمعت الواو بين عدة مظاهر حسية تلتقي في صورة واضحة للمتلقى من ألوان (الأعلام، قنّام، رهج، استضرم، سلهب، ظلمة) وأصوات (نطق، سكتة)، وأماكن (الدارس، السبل، الأرض)، وحركات (تشئت، عفت، سطع، اعتلى، أسدّف، ظهر، استكح، اقمطر، استضرم، طبقت) مع اتحاد الزمن، والدوام في الماضي المستوحى من انتشار (الحال). وكل ذلك في الصورة الأولى.

وفي الصورة الثانية جمعت الواو أيضاً بين عدة مظاهر حسية تلتقي في صورة واضحة كاملة، من ألوان (أعلام، ظلم) وأماكن (منازل، طرق، أبواب) وحركة (أبان، يدعو، تستهويهم، أوضح) مع اتحاد الزمن لأعمال الرسول واستمراره للغوايات.

وقد خلقت الواو ومعطوفاتها المتعددة امتداداً واتساعاً لصورة الحياة الجاهلية بوضوح أبرز سيطرة الشيطان على تلك الحياة، وعموم الفساد فيها مما أضفى تهويلاً على تلك الحياة ناتجاً عن الإلحاح بكثرة المعطوفات وهذا التهويل يوجه المتلقى إلى مظهرين، الأول التحقير من شأن الجاهليين، والثاني التعظيم من أفضل الرسول – صلى الله عليه وسلم – على كل مسلم عموماً.

وفي النهاية فإن الواو ومعطوفاتها الكثيرة ساهمت في توضيح الصورة للتأثير الإيجابي على المتلقى الذي يهيئه لاستقبال دعوة الكاتب لتنفيذ أمر من أوامر الرسول سيقّت هذه الصورة كتمهيد لاستيعاب هذا الأمر الذي يظهر من قوله "فكان مما تقدم إليهم في نهيه، وأعلمهم سوء عاقبته، وحذرهم إصره، وأوعز إليهم ناهياً، وواعظاً وزاجراً، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها" (٥٥٣).

• كثرة المعطوفات مع تنوع العاطف:

فيما سبق أوضحنا أثر كثرة المعطوفات – خاصة الواو – في خدمة النص وإبراز الدلالة والمساهمة في إنتاجها، ولتنوع أداة العطف مع تعدد المعطوفات أثر في الامتداد واتساع الدلالة، وينضاف إلى ذلك تنوع في المعنى ناتج بطبيعة الحال من تنوع العاطف واختلاف دلالة كل عاطف عن غيره.

ولاجتماع أدوات العطف في تفصيل جوانب الدلالة يحمل المتلقى على التجاوب مع النص، ففي سياق النصائح الحربية لولي العهد يقول عبد الحميد "أو خرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك مكيدة، وأرادوا منك غرة، فازدلفوا إليك في الأهبة، ثم انتقض بهم رأيهم، واختلف عنه جماعتهم فأوردوا رأياً، وأحدثوا مكيدة، وأظهروا قوة،

(553) السابق، ص ٢٦٦.

وضربوا موعداً، وأموا مسلماً لمدد أتاهاهم أو قوة حدثت لهم أو بصيرة في ضلالة شغلتههم^(٥٥٤).

يشرح الكاتب لولي العهد أسباب اختلاف الأخبار عن العدو فيتناول الأسباب عن طريق تحريك العواطف فمرحلة الإعداد تبدأ بوضع الخطة وقد جمعت الواو بين مظاهرها من (إبرام الأمر والمكيدة واقتراض الانشغال) ويعقبها معطوف بالفاء يختم هذه المرحلة بسرعة التحرك إليه (فازدلفوا) بعد الاستعداد ولكنه ليس استعداداً كاملاً لقصور في وضع الخطة وقد وهب العاطف (ثم) هذه المرحلة استغراقاً في الزمن ملائماً لوضع الخطة وينتهي بالتحرك السريع للحرب.

وتبدأ مع (ثم) مرحلة أخرى توضح اكتشاف القصور في الخطة الأولى فصلت الواو نتيجة هذا الاكتشاف فتتطلب الأمر سرعة في وضع خطة بديلة مثلها العاطف (الفاء) في (فأوردوا رأياً)، وهذه المرحلة تتطلب تحري عدم الوقوع في أخطاء الخطة الأولى فجاءت كاملة خالية من القصور بفضل (الواو) التي فصلت أركان الخطة من التفكير أولاً (أوردوا رأياً) والشروع في التنفيذ (أحدثوا مكيدة)، وجمع القوة (وأظهروا قوة)، وتحديد زمان المعركة والتنفيذ (ضربوا موعداً)، وتحديد المكان والتحرك إليه (أموا مسلماً)، ثم يأتي دور العاطف (أو) في تفصيل أسباب تبديل الخطة الأولى بالثانية أو ترجيح أحد الاحتمالات التي أدت إلى تبديل الخطة من زيادة المدد (لمدد أتاهاهم، أو زيادة القوة أو لقوة حدثت لهم)، أو اكتشاف قصور عند انشغالهم بشي آخر (أو بصيرة في ضلالة شغلتههم).

وتتابع المعطوفات وتنوع أدوات العطف بهذه الطريقة يوجه المتلقي إلى شيئين: الأول إمكانية صدق الجاسوس رغم كذب الأخبار التي يأتي بها لولي العهد، فتعطي له مبرراً للعفو عنه، والثاني توضيح كيفية وضع الخطة المتكاملة دون اختراق العدو لها قبل الشروع في القتال ومن هذا وذاك تلوح لنا بعض ثقافة عبد الحميد العسكرية وخبرته في التخطيط العسكري، وتنم عن ذكاء قد لا نجده عند البعض من الكتاب.

وعن أسباب تشريع الله للدين وإرسال الرسل إلى الناس يقول عبد الحميد "أما بعد، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبيله وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه وبعض رسله إلى خلقه دلالة على ربوبيته واحتجاجاً عليهم برسالاته، وتقدماً إليهم بإنذاره ووعداً ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه، وفقى به رسله وابتعثه لإحياء دينه الدارس"^(٥٥٥).

كثرة المعطوفات قد حققت امتداداً للكلمات قابله اتساع في الدلالة، وقد أدت أدوات العطف (الواو، ثم) دوراً في تنويع الدلالة. فالعطف (ثم) قد فصل بين مرحلتين: الأولى إرسال الله للرسل منذ بدء الخلق، والثانية إرسال الله للرسل الكريم وختام الرسالات.

(554) السابق، ص ٢٤٠.

(555) السابق، ص ٢٦٥.

وقد أعطت (ثم) المرحلة الأولى استغراقاً زمنياً مناسباً لامتداد الخلق وكثرة الرسل قبل الرسول - عليه الصلاة والسلام - وساهمت الواو بكثرة معطوفاتها في تحقيق طول كمي ملحوظ في هذه المرحلة مع تفصيل أسباب إرسال الله للرسول، وهذا الطول ساعد (ثم) في إضفاء طول الفترة الزمنية لهذه المرحلة. وجمعت الواو بين عدة معطوفات تتلاقى رأسياً لتوضح أسباب إرسال الرسل لختام الرسالات واستكمال الدعوة إلى الله.

• اتساع مدى المعطوف

ونعني به زيادة كم الكلمات في المعطوف عن المعطوف عليه، وهذه الزيادة في الكم لابد وأن تقابلها دلالة مناظرة، إلى جانب أن طول المعطوف يحقق بطناً يدفع بالمتلقي إلى التأمل في المعطوف، ومحاولة فهم مغزى الكاتب من هذا الطول، علاوة على الحيوية النابعة من ردة هذا المعطوف الطويل على المعطوف عليه عبر العاطف.

وقد يكون للكاتب غرض من طول المعطوف كتفسير ما قد يخفى على المتلقي كما في قوله عن أصحاب الفتنة "يدعو إلى المعصية والفرقة والمروق من الدين إلى الفتنة مخترعاً بهواه للأديان المنتحلة والبدع المتفرقة خساراً وتخسيراً وضللاً وتضليلاً بغير هدى من الله ولا بيان" (٥٥٦).

فطول المعطوف (المروق من الدين ... ولا بيان) واتساع مداه يحقق البطء اللازم ليقف المتلقي على آثار الفتنة وبطلان دعوة أصحابها. هذا ولما كانت (المعصية والفرقة) ألفاظ عامة كانت حاجة الكاتب إلى التفسير والتوضيح وقد ساعده اتساع مدى المعطوف (والمروق من ...) في هذا التفسير المطلوب لتزداد قناعة المتلقي في بطلان ما يدعو إليه الخارجون على الدولة وبالتالي اتخاذ موقف عملي ضدهم. وقريب من ذلك في قوله "فإن المؤونة إنما اشتدت مستصعبة، وفدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المنتحلين سمو القدر بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومحمودها" (٥٥٧).

تميزت جملة المعطوف (فدحت باهظة أهل ..) بطول كمي ملحوظ، وشمل هذا الاتساع تفسيراً للمتلقى عمى عليه عند المرور على المعطوف، فاشتداد المؤونة في حاجة إلى توضيح لأسباب اشتدادها، وعلى من اشتدت وهو ما نجده في جملة المعطوف، فالمقصود من يطلب الأخلاق الكريمة، وسبب الاشتداد الجهل بالأخلاق الذميمة والمحمودة، وهذا التفسير يزيل خفاء المعنى الأول في المعطوف عليه، ومن ثم يوجه المتلقي إلى ضرورة مهمة ألا وهي معرفة الأخلاق الذميمة والمحمودة والتفريق بينهما حتى يستطيع الاستحواذ على الأخلاق المحمودة.

وقد يلجأ الكاتب إلى اتساع مدى المعطوف للتفسير ليس لإزالة ما خفي على المتلقي، بل للتذكير بأمر قد ينساه كما في قوله "فإنه ليس أحد أسرع إليه سوء

(556) السابق، ص ٢٣٦.

(557) السابق، ص ٢٢٠.

القالة ولغظ العامة بخير أو شر ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت به من دين الله، والأمل المرجو المنتظر فيك" (٥٥٨).

اتساع مدى المعطوف (مكانك الذي أصبحت ...) ليس من ورائه طائل إلا حاجة في نفس الكاتب، إذ لا يتغير المعنى إذا حذفت جملة الصلة (الذي أصبحت) والاكتفاء بـ (ممن كان في مثل حالك ومكانك)، ولكن جملة الصلة اشتملت على تذكير المتلقي - ولي العهد - بأنه الخليفة المستقبلي، وبما تنتظره الدولة منه، وبالتالي العمل على أساس هذه المكائنة، وهذا التذكير يزيد من تجاوب المتلقي مع نصائح الكاتب والعمل على أن يكون أهلاً للمسئولية.

وقد يكون الغرض من اتساع مدى المعطوف ليس مقصوداً لذاته، ولكن لإبراز حركة أخرى كالحركة الأفقية الناتجة عن التقديم والتأخير في قوله "...كنت لأخذك بالحزم واستعدادك بالقوة غير مهين الجند ولا مفرط في الرأي، ولا متلهف على إضاعة تدبير ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك وخوفاً يقلقك" (٥٥٩).

جملة المعطوف (ولا محتاج إلى ... مبادرة ..) شهدت اتساعاً أفقياً عما سبقها من معطوفات، وقد تخللتها حركة أفقية نتجت عن تأخير المفعول به (مبادرة) عن عامله (محتاج) فكان اهتمام المتلقي بالفاصل (إلى الإعداد وعجلة التأهب) أكبر، وقد منحه المعطوف باتساعه بطناً يحثه على التأمل في المفردات واكتشاف الغرض من وراء التقديم والتأخير، وهذا البطء قصده الكاتب وألح عليه بوسيلتين، الأولى رجعة المعطوف الطويل على المعطوف عليه، والثانية رجعة المفعول به المتأخر عن عامله إلى عامله. وهاتان الرجعتان لم تحثا المتلقي على التأمل في الدلالة فحسب، بل حققنا حيوية في عملية تلقي النص تجعل من المتلقي متيقظاً لا يصيبه نعاس الملل بطول جملة المعطوف.

• ويوظف عبد الحميد المعطوف مستغلاً اتساعه في خدمة الصورة، فيحقق الاتساع بطناً يستوقف المتلقي ليستكشف معالم هذه الصورة كما في قوله "... مع ما في ذلك من نقص الرأي ودرن العرض وهدم الشرف وتأثيل الغفلة وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد؛ فإذا قدح؛ لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه" (٥٦٠).

اتساع مدى المعطوف (وقوة طباع السوء ... ووقد تضرمه) وقد تضمن صورة ممتدة للطباع السيئة وشدة تعلقها بالنفس تجسدت في النار الكامنة في الحجر، ثم تتبعها صورة متحركة للحجر وهو يقدح فيدخل في مراحل متتابعة تبدأ بالشرر الذي يزداد تلهبه حتى يصبح ناراً مشتعلة. وقد منح الاتساع هذه الصورة الممتدة البطء المطلوب حتى تتضح معالمها أمام المتلقي ويزيد من تأثير الصورة فيه أو على الأقل يستوعبها بشكل أفضل.

(558) السابق، ص ٢٢٣.

(559) السابق، ص ٢٤٠.

(560) السابق، ص ٢٢٣.

● اتساع مدى المعطوف عليه

ونعني به زيادة كم الكلمات في المعطوف عليه عن المعطوف، وهذه الزيادة تُساق لهدف ما قد يوجه المتلقي إلى استكشاف الدلالة، إلى جانب الحيوية النابعة من ردة المعطوف عبر العاطف إلى كم كبير من الكلمات حتى الوصول إلى المعطوف عليه، وخلال هذه الردة يمر المتلقي مرة ثانية على مفردات جملة المعطوف عليه أو المفردات التي تعلقت به فتوضح هذه المفردات في دائرة اهتمام المتلقي. وأول ما يصادفنا من اتساع مدى المعطوف عليه الدلالة على التدرج في الأهمية والألوية كما في قوله موجهاً ولي العهد إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني "فإن أمير المؤمنين - عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة، ورعاه الذين عاثوا في الأرض فساداً" (٥٦١).

عظفت الواو (رعاعه) على عدو الله، ومن الملحوظ طول الجملة بعد المعطوف عليه (عدو الله) ويقصد به الضحاك، وقد ارتبط المعطوف عليه والمعطوف (رعاعه) بتوجيه الخليفة لولي العهد إلى الضحاك ورعاعه، وما نفهمه من طول المعطوف عليه وضع مرتبتين للتوجيه، الأولى وتمثل الأولوية إلى الضحاك لخطره على الدولة وسيطرته على من معه، وقد يندحر الخارجون باندحار الضحاك وحده وزوال سيطرته على رعاعه. ثم تليها الثانية في التوجيه إلى رعاعه الذين عاثوا الفساد في الأرض.

وهذه الزيادة المفرطة في المعطوف عليه عن المعطوف أضفت تلك الأولوية في التوجيه إلى الضحاك أولاً ثم رعاعه بعد ذلك.

وفي استمالة الخارجين على الدولة يقول عبد الحميد "منفذاً رسلك إليهم بعد الإنذار، تعدهم إعطاء كل رغبة يهش إليها طمعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه..." (٥٦٢).

المطلوب من ولي العهد استمالة الخارجين بالوعد في تحقيق ما يرغبون فيه، ثم الوعد بتأمينهم، وعبر خطوط الصياغة نجد أن المعطوف عليه (إعطاء) قد ارتبط به كم من الكلمات عن المعطوف (بسط)، وهذا الطول في المعطوف عليه يمثل أولوية وإلحاحاً على ضرورة تحقيق رغباتهم في كل شيء أولاً، ثم يأتي الأمان بعد ذلك، لأن تحقيق الأمان قد لا يكفي الخارجين للانضمام إلى معسكر الدولة، ولكن تحقيق الرغبات من أموال ومناصب وغيرها من أمور الدنيا أكثر تأثيراً وبهذه الوسيلة فأولوية الاستمالة بالرغبات قبل الأمان هو المطلوب لأنه الأقرب والأسرع في التأثير عليهم.

وفي نصائح لولي العهد يوجهه فيها إلى ضرورة الحذر من بعض الأمور قبل الشروع في العمل فيقول "احذر الإغرام بكثرة السؤال عن حديث إما أعجبك أو أمر مما ازدهاك، والقطع لحديث من أرادك بحديثه حتى تنقضه عليه بالأخذ في

(561) السابق، ص ٢١٥.

(562) السابق، ص ٢٣٨.

غيره، أو المسألة عما ليس منه، فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساوئها، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك^(٥٦٣).

شهدت جملة المعطوف عليه (احذر الإغرام ...) طولاً كمياً ملحوظاً في مقابل المعطوف (ولكن أنصت لمحدثك) وهذا المعطوف يتضمن أمراً مباشراً لولي العهد بالإنصات للمحدث، ولكن طول المعطوف عليه أعطى اهتماماً للمتلقي بالتأمل في المعطوف عليه وتفصيل ما فيه واستيعابه الناتج عن ردة الأمر بالإنصات على هذا الكم من الكلمات حتى يصل للأمر بالحد من بعض الأمور قبل الإنصات، فالأولوية بعدم كثرة السؤال أو السؤال في غير موضعه وغير ذلك من الأمور، لأن الحد من هذه الأمور سيحقق لولي العهد إنصتاً جيداً، ولا قيمة للإنصات (المعطوف) دون حدوث الأمور السابقة (المعطوف عليه).

• قد تتشابه الحركة الرأسية مع الحركة الأفقية فتكون إحداها في خدمة الأخرى، أو لتحقيق ثراء دلالي يوازي تكثيف الحركات التركيبية.

ففي قول الكاتب "فإن الله جل وعز جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين سَوْقاً، وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم"^(٥٦٤).

نلاحظ طول جملة المعطوف عليه (جعل الناس ...) في مقابل المعطوف (وصرفهم ...)، وقد تخلل هذا الاتساع حركة أفقية تمثلت في تأخير المفعول الثاني (سوقاً) عن فعله (جعل)، وكان الفاصل بينهما طويلاً مما أضفى على المعطوف عليه طولاً كمياً ملحوظاً وأدى هذا الطول إلى حدوث رجعتين، الأولى الرجعة الرأسية للمعطوف على المعطوف عليه، والثانية رجعة (سوقاً) إلى (جعل) الأفقية، وهاتان الرجعتان أثرتا في حيوية المتلقي ونشطت من حركته الذهنية في استيعاب الفاصل الذي ذكر فيه الأنبياء وانتهى بالملوك ومنحه العطف باتساعه البطء اللازم لاستكشاف التقديم والتأخير، ومن المرجح أن تكون طائفة الكتاب مرتبة تالية للأنبياء والملوك وهو تشريف لهم.

• قد لا يكون الاتساع في مدى المعطوف عليه مقصوداً في ذاته، ولكن لخدمة صورة، فالبطء الناتج عن الاتساع يمهل المتلقي ليستعلم جوانب الصورة ومعالمها علاوة على ضمان وضع الصورة في إطار رحب يخرج فيه كل ما تطلبه الدلالة، ويقوي من تأثير الصورة على المتلقي.

فعن اختيار البطانة والجلساء يقول الكاتب ناصحاً ولي العهد "لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤك في شرك أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور، وخبطته فصالحها بين فراسن البزل، وقلبتة الأمور في فنونها، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور ومواقع

(563) السابق، ص ٢٣١.

(564) السابق، ص ٢٨١.

الرأي وعين المشورة ،مأمون النصيحة، مطوي الضمير على الطاعة، ثم أحضرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة^(٥٦٥).

عطفت (ثم) جملة (أحضرهم من نفسك ...) على (لتكن بطانتك.) ذات الطول الكمي الواضح، وهذا الطول تخلله صور متتابعة (حنكته السن، خبطته فصالها، فراسن البزل، قلبته الأمور، ركب أطورها، مواضع الرأي، عين المشورة، مطوي الضمير على الطاعة) فكانت بمثابة اللقطات التي تمثل صورة متكاملة للقائد الخبير المحنك المتكامل الصفات، وإفراد هذه المساحة الواسعة للصورة عن طريق العطف قد وهبها امتداداً ملائماً لطول الخبرة المطلوبة من القواد ومثل إلحاحاً على ضرورة اختيار المشاركين في مجلسه.

وفي نصائح مشابهة يستخدم عبد الحميد الأسلوب ذاته فيقول "ثم تقدم في طلائعك، فإنها أول مكيدتك، ورأس حربك، ودعامة أمرك، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالاً ذوي نجدة وبأس وصرامة وخبرة حمأة كفاءة، قد صلوا الحرب وتذاوقوا سجالها، وشربوا من مرارة كؤوسها، وتجرعوا غصص درتها، وزبنتهم بتكرارها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذلتهم بثقاف أودها، ثم انتقمهم على عينك، واعرض كراعهم بنفسك، وتوخ في انتقامهم ظهور الجلد وسجاجة الخلق وجمال الآلة"^(٥٦٦).

تميزت جملة المعطوف عليه (فانتخب لها...) بطول كمي كبير وقد منح هذا الطول الصورة المعبرة عن طول خبرة الطلائع في الحرب وفنون القتال، امتداداً ساعد الكاتب في إفراغ جانب من خبرته العسكرية والبلاغية معاً، وهذا الإفراغ ضُمن له اهتمام وتجاوب من المتلقي، أولاً باتساع المساحة المتضمنة للصورة، وثانياً بردة المتلقي بالمعطوف (قد صلوا الحرب ...) إلى المعطوف عليه الطويل الذي يهبه حيوية وتأملاً في اللقطات المكونة للصورة الكلية، وتلك الحيوية وهذا التأمل يزيدان من درجة تأثر المتلقي بالنص، وقد ساهمت كثرة المعطوفات في الإلحاح على المتلقي بضرورة اختيار الطلائع بنفسه والتأكد من الصفات المطلوبة. وفي النهاية فإن المتلقي لا يسعه إلا القبول بنصائح الكاتب المصاغة في صورة ممتدة مثلت خير مؤثر لرفع درجة الاقتناع.

● تكثيف العطف

ونعني بالتكثيف تضافر كل ما سبق من كثرة المعطوفات واتساع مدى المعطوف والمعطوف عليه في إثراء الدلالة، وهذا التكثيف يهب النص امتداداً يقابله ثراء دلالي، ويضمن أعلى درجة من تجاوب المتلقي مع النص، ويكون وسيلة من وسائل الكاتب في الاسترسال الذي اشتهر به. وخير ما يمثل الالتقاء بين مسببات الحركة الرأسية المركبة للعطف قول الكاتب في الطاعة والمعصية "ففي طاعة الأئمة في الإسلام ومناصحتهم على أمورهم، والتسليم لما أمروا به، مهم كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية متخللة، وسلامة ظاهرة وباطنة، وقوة بإذن

(565) السابق، ص ٢٢٢.

(566) السابق، ص ٢٤٦.

الله مائعة. وفي الخلاف عليهم والمعصية لهم ذهاب كل نعمة وتفرق كل كرامة، ومحق كل غنية، وهلاك كل سلامة وألفة، وموت كل عز وقوة، والدعاء لكل بلية، ومفارقة كل ضلالة، واتباع كل جهالة، وإحياء كل بدعة وإماتة كل سنة، واجتلاب كل ضرر على الأمة وإدبار كل منفعة، والعمل بكل جور وباطل، وفناء كل حق.

وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي في يديه سيف أخيه الذي كان يعتمد عليه، ويوهن عضده، ويهدم حصنه ويقل عدده، ويهلك بدوته، ويعطب من يدعو ويفزع إليه، ويكثر بمكانه، ويحرسه في غفلته عن الأعداء إذا غفل^(٥٦٧).

تضمنت القطعة السابقة ثلاث عبارات طويلة عطف الواو بينها مثلت (في طاعة الأئمة...، وفي الخلاف عليهم...، وبمعصية...) وقد تميزت جملة المعطوف عليه بطول كمي، وكذلك جملتي المعطوف بعدها، وهاتان الجملتان قد مثلتا الضد (الخلاف والمعصية) لجملة المعطوف عليه (طاعة). وقد كثرت المعطوفات داخل كل جملة من الجمل الثلاث المذكورة.

وهذا التكثيف للحركة الرأسية المركبة للعطف قد وهب النص أهمية لا مثيل لها، وحقق ثراءً دلاليًا يستكشفه المتلقي عبر هذا المدى الواسع من المعطوفات. فكثرة المعطوفات شملت تفصيلاً لآثار الطاعة والمعصية، وهذا التفصيل يزيد من اقتناع المتلقي في الدخول في الطاعة والحذر من المعصية والعمل على القضاء عليها.

وقد عضد هذا الاقتناع الامتداد في جملة المعطوف (في الخلاف) الذي منح الصورة امتداداً مماثلاً يستوقف المتلقي عبر لقطاتها فيتأثر بها ويتجاوب مع الكاتب.

وقد منح تكثيف العطف المركب وامتداده الكاتب فرصة للمقابلة بين الطاعة والمعصية في رحابة ساعدته على إبراز الجوانب الدقيقة لكل منهما، علاوة على شمول المقابلة لكل جوانبهما وهذا الإصرار على الامتداد والتركيب يعكس أهم القضايا في نهاية الدولة الأموية ألا وهي انتشار معصية الخليفة الأموي وظهور الفتن وشدتها وبروز الصراعات الداخلية على السلطة.

ويستعمل الكاتب هذا التكثيف لحركة العطف المركبة في بنية تقابلية بين جملتي العطف لإظهار الجانب الإيجابي على الجانب السلبي فيقول في مفتتح رسالة "فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه ديناً لملائكته، وأهل طاعته من عباده، وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هُدي به من خلقه، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم به أولياءه المقربين، وحزبه الغالبين، وجنده المنصورين، وتوكل لهم بالظهور والفلج، وقضى لهم بالعلو والتمكين وجعل من خالفه، وعزب عنه، وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين، وأولياء الشيطان الأخسرين، وأهل الضلالة الأسفلين"^(٥٦٨).

(567) السابق، ص ٢٠٩.

(568) السابق، ص ٢٧٤.

جملة المعطوف عليه (وجعله رحمة ...) تميزت بطول واتساع مناسب لقدر الإسلام ومن تمسك به، وجملة المعطوف (وجعل من خالفه ...) تميزت أيضاً بطول مناسب لشقائهم ومصيرهم المحتوم. وكثرت المعطوفات في الجملتين لتفصيل المنافع والأضرار كل على حدة، وهذا التفصيل يمنح المتلقي تأملاً حتى يحدد موقفه من الانضمام إلى الأولياء المقربين أو الأولياء الأخسرين، والإلحاح الناتج عن المقابلة بين الفريقين يوجه المتلقي إلى التجاوب مع السياق من الانضمام إلى الشق الإيجابي من الجملتين والحذر من الشق السلبي ومحاولة القضاء عليه لأنه من سيطرة الشيطان، والأول هداية من الله.

وهذه البنية التقابلية التي صيغت في قالب العطف تكتسب اهتماماً أكبر من المتلقي، وتمنحه الحيوية المطلوبة في الميل إلى ما يوجهه إليه الكاتب، والافتناع بالجانب الإيجابي في عملية المقابلة، ذلك الاهتمام وتلك الحيوية نابعان من ردة المعطوف الطويل على المعطوف عليه الطويل أيضاً، علاوة على الحركات الارتدادية الصغيرة للمعطوفات الكثيرة على المعطوفات عليها.

وختاماً فقد تعرفنا على ملمح مهم من الملامح الأسلوبية التركيبية التي تميز بها عبد الحميد الكاتب، ووهبه القدرة على الاسترسال مع ضمان أعلى درجة تفاعل من قبل المتلقي.

● الشرط

المتأمل في الشرط "يجد أداة الشرط وقد غدت مركزاً تتمحور فيه دلالة جملة جواب الشرط بعد رجعتها لتتضاف إلى دلالة فعل الشرط والأداة نفسها"⁽⁵⁶⁹⁾. ولأن الشرط ينطوي على احتمال الحدوث، فإن الاحتمال عندما يقع بالفعل يصاحبه وقوع جواب الشرط، وهو نوع من حاجة الشرط لجوابه، وهذه الحاجة تجعل من أسلوب الشرط مترابطاً ومتلازماً تغدو فيه أداة الشرط العامل الأساسي في ربط أطراف الشرط بعضها البعض، وهذا الترابط يعد وسيلة من وسائل إحكام النص.

ولاجتماع أدوات الشرط في إضفاء صفة التلازم والترابط على أسلوب الشرط، فإن لاختلاف دلالة كل أداة واستقلال كل منها بدلالاتها الذاتية تنوعاً في دلالة أساليب الشرط تبعاً لدلالة الأداة نفسها. فبجانب ربط (إن الشرطية) لأطراف الشرط، فإنها تصبغ الأسلوب بدلالاتها على تأكيد وجوب حدوث الجواب عند وقوع فعل الشرط، ففي قول عبد الحميد عن شراء جارية "إن نهضت؛ أثقلتها أردافها، وإن تكلمت؛ تآقت إليها قلوب السامعين"⁽⁵⁷⁰⁾.

يعدد الكاتب الصفات المطلوبة في الجارية المزعم شراؤها، ثم يضع صفات تدل على حيوية الجارية مع بعض الصفات الجسدية من امتلاء الأرداف وصفات ثقافية تتمثل في معرفة ألوان من الأدب وقد شدد الكاتب على احتواء الجارية لهذه الصفات عن طريق اختيار (إن الشرطية) التي تعطي في مضمونها تأكيداً للدلالة، والإلحاح على الشرط النابع من التكرار، وهذا التأكيد يعكس الحاجة الملحة للجارية

(569) في النص الشعري، ص ٦٣.

(570) عبد الحميد بن يحيى وما تبقى من ... ص ١٩٧.

لأنها "إن طاب ولدها، كانت من أمهات أولاد الخلافة، وإن أوتمنت على حمل أسرارها؛ استقلت منها بما اشتملت عليه" (٥٧١).

وقد ارتبطت (إذا) أيضاً في رسائل عبد الحميد بالتأكيد كما في قوله مؤكداً لولي العهد أهمية تشديد الحراسة "فإذا غربت الشمس ووجب نورها؛ أخرج إليهم صاحب تعبنتك أبدالهم عسناً بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار" (٥٧٢).
لأهمية الحراسة، وللحفاظ على حيوية الحراس اضطر الكاتب إلى صياغة عملية الحراسة في قالب شرطي مؤكد بـ (إذا) التي عمقت الخط الزمني للدلالة، وأكدت ربط تبديل الحراس بهذا الخط الذي تمثل عند غروب الشمس تماماً.
وهو ما نجده أيضاً في قوله "إذا ابتليت ببيات عدوك أو طرقك رائعا في ليالك؛ فليفك حذراً مشمراً عن سافك" (٥٧٣).

أوحى إذا بالمفاجأة فتطلب الجواب سرعة مستقاة من الفاء، وتأكيداً من اللام من (فليفك) في جواب الشرط فاحتمال هجوم العدو فجأة في أخطر الأوقات (ليلاً) أعطى ضرورة تأكيد الاستعداد في جميع الأوقات، في أقل زمن ممكن نفهمه من سرعة الجواب المقترن بالفاء.

وتتطوي (لو) على قدر من السلبية وعدم الاقتدار، فتعبر عن العجز عن تحقيق بعض الآمال في قوله على لسان مروان يطلب من أحد الأمويين تهديد بعض من خرج عن الطاعة من الأمويين لبعد المسافة بين مروان والخارجين عن الطاعة "ولو جمعتي وإياهم، لرممت فساد أمرهم بيدي ولساني" (٥٧٤).

إصلاح الفساد بأي وسيلة يتطلب الالتقاء أولاً بالمفسدين، وهو ما نفت حدوثه (لو)، وصبغت السياق بالعجز في الوصول إليهم مما حدا به بطلب الالتقاء بهم أو اللجوء إلى الآخرين لتحقيق ما عجز عنه.

وتنسحب هذه السلبية إلى (لولا) كما في قوله على لسان مروان معبراً عن شوقه لرؤية الخليفة وعدم قدرته على الذهاب إليه في الوقت ذاته لانشغاله بالدفاع عن حدود الدولة الأموية "ولولا ما أحاول من سد الثغر الذي أنا به؛ لخفت أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين أن استخلف رجلاً على غير أمره" (٥٧٥).

برغم بروز فاعلية في فعل الشرط من محاولة سد الثغر وحراسته إلا أن الجواب ينطوي على قلة الاقتدار المتمثل في الخوف من الفشل في اختيار من ينوب عنه. ويدعم ما نذهب إليه دلالة بعض المفردات كـ (أحاول) التي تنفي التمكن التام من سد الثغر، (لخفت) المؤكدة للخوف من الفشل في الاختيار، (يحملني) التي لا تتضمن من المتكلم فعلاً حقيقياً، بل محمولاً بفعل قوى أخرى، وكل ذلك عزز من دور (لولا) في إضفاء السلبية وقلة الاقتدار على الدلالة.

(571) السابق، ص ١٩٨.

(572) السابق، ص ٢٥٨.

(573) السابق، ص ٢٥٦.

(574) السابق، ص ٢٩٩.

(575) السابق، ص ٣٠٠.

أما (متى) فلها دلالة على الزمن المبهم، فهي تصبغ الشرط بلحظة مبهمة يحددها فعل الشرط، وتخلع على الجواب ضرورة الحدوث في هذه اللحظة كما في قوله "ومتى يكون رحيلك مختلفاً؛ تعظم المؤونة عليك وعلى جندك" (٥٧٦). عظم المؤونة على المتلقي ارتبط بحين محدد لا تتحقق إلا لحظة حدوثه ألا وهو اختلاف وقت الرحيل.

• طول جملة الشرط

لأداة الشرط القدرة على تحقيق التلازم والترابط بين طرفي الشرط، وتزداد أهمية هذه القدرة على الربط عندما يتحقق لطرفي الشرط أو أحد الأطراف فيه طولاً كمياً ملحوظاً، وهذا الطول لا يأتي اعتباطاً، بل بقصد الكاتب لتوجيه المتلقي إلى الدلالة ومعالمها.

فقد يلجأ الكاتب إلى مد جملة فعل الشرط في مقابل انحصار الجواب نسيباً لتأكيد عدم قيام الجواب إلا في حال التأكد من حدوث فعل الشرط كما في قوله لولي العهد "إذا كنت من عدوك على مسافة دانية، وسنن لقاء مختصر وكان من معسكرك مقترباً، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة، وحماة فتنته؛ فتأهب أهبة المناجزة وأعدّ إعداد الحذر" (٥٧٧).

فكل ما ذكره الكاتب بعد جملة فعل الشرط (كنت... على مسافة دانية) لا يزيد في المعنى عنه شيئاً، فالمطلوب في حال اقتراب العدو من معسكره أن يكون مستعداً له، ولكن هذا التكرار في المعنى يمثل إلحاحاً في التأكد أولاً من اقتراب العدو منه، ومن ثم السرعة في الاستعداد للقتال.

وهو ما نجده أيضاً في قوله مقتعاً ولي العهد بضرورة العمل بالنصيحة "ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، أو لقتوه إلهاماً من تلقائهم، ولم نصبهم تعلموا شيئاً من غيرهم؛ لنحلناهم علم الغيب" (٥٧٨).

امتداد جملة الشرط لا ينطوي إلا على معنى واحد وهو عدم استحواذ المؤدبين على العلم بشتى الوسائل وتكرار المعنى يؤكد عدم الاستحواذ، وترتب على ذلك تأكيد انتفاء حدوث الجواب من علمهم للغيب. وقد ساعدت (لو) في إضفاء السلبية على المؤدبين وافتقارهم للعلم مهما زادت حصيلتهم منه، وفي هذا الافتقار إرهاب لولي العهد في تقبل النصيحة حتى لو كان ذا علم وربما يلفتنا هذا الأسلوب غير المباشر في إقناع ولي العهد بحاجته للنصيحة عن طريق حاجة صفوة الناس إليها إلى ذكاء الكاتب في تحقيق هدفه بشتى الوسائل التي تضمن له تجاوب المتلقي مع نصائحه مهما كانت مكانة المتلقي في الدولة.

وفي قوله ناصحاً ولي العهد "ومتى تغتر بترقيق المرققين، وتأخذ بالهويناء في أمر عدوك لتصغير المصغرين؛ ينتشر عليك رأيك" (٥٧٩).

(576) السابق، ص ٢٥٥.

(577) السابق، ص ٢٥٢.

(578) السابق، ص ٢١٦.

(579) السابق، ص ٢٤٠.

حققت جملة الشرط طولاً ملحوظاً في مقابل انحصار الجواب، وهذا الطول مثل تكراراً للمعنى دون الألفاظ فالمطلوب عدم الاستهانة بالعدو، وإنما تكرر المعنى لتأكيد انتشار الرأي حين الاستهانة بالعدو، وهو ما يوجه به الكاتب المتلقي إلى وضع العدو في قدره الحقيقي ولا ينخدع بكلام من حوله.

● طول جملة الجواب:

تقوم أداة الشرط بربط الجواب بفعل الشرط، وتنتج عن ذلك حركة تراجعية إلى الخلف حتى تتمركز عند أداة الشرط وفعل الشرط معاً، وعندما تطول جملة الجواب عن الشرط لسبب ما تطول المدة الزمنية للحركة التراجعية فتوفر للمتلقي فسحة زمنية لاستيعاب الدالة، وتعطي الكاتب فسحة مكانية تكفي لإخراج الشحنات الانفعالية ففي قوله موجهاً الناس إلى مناهضة الخارجين على الدولة مظهراً نتائج الإقرار للخارجين "إن أقررتهم لهم؛ أقمتهم في ذلة الدار، قد أوطئتم الخسف، ومنعتم النصف، واستأسرتم للبلى" (٥٨٠).

أخرج الكاتب شحنة انفعالية في جواب الشرط تمثلت في الإلحاح على سرد مظاهر الإقرار للخارجين من الذل والفقر والظلم، وهذا الإلحاح يعكس مهمة الكاتب في حث المتلقين على مناهضة الخارجين. وتوفر للمتلقي الفسحة الزمنية المطلوبة للتأمل في نتائج الإقرار والاعتراف بالخارجين ومن شأن هذا البطء أن يوقع المتلقين بمناهضة الخارجين.

ويظهر الانفعال أكثر في قوله خلال هروبه من العباسيين "فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها؛ يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم؛ نرجع إليكم بذل الأسار والصغار، والذل شر دار وألم جار، يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء" (٥٨١).

سيطرت على الكاتب نزعة تشاؤمية فتوضحت من خلال طول جواب الشرط انفعالاته الدالة على هذه النزعة، وبالنظر في جملة الجواب (نرجع إليكم...) والجملة الاسمية (الذل شر دار وألم جار) الدالة على ثبات الذل عند الرجوع وتحقق حدوثه، وهي ذات الخبر بصيغة أفعل، وألح عليه بالعطف (شر وألم) ليضفي الإطلاق على لوم وشروعية الذل مما يغذي تلك النزعة التشاؤمية.

ثم الحال الموحية بدوام اليأس (يائسين) من بلوغ السلامة، وألح على ذلك أيضاً عن طريق العطف (روح وفسحة)، فطول الجواب إذن لم يقصد لذاته بل ليعطي الكاتب فسحة مكانية لبث الانفعال المتمثل في الشعور باليأس الدائم، ويفرد للمتلقي الفسحة الزمنية المطلوبة لتأمل الجواب، ومن ثم مشاركة الكاتب في انفعاله خاصة وأن المتلقي من أهل الكاتب.

● تتابع الشرط:

المتأمل في نثر عبد الحميد يستطيع أن يستشف بسهولة طريقة استخدامه للشرط، وهذه الطريقة تجعل لأسلوبه ميزة تسميه عن غيره من الكتاب، فقد أكثر

(580) السابق، ص ٢٠٠.

(581) السابق، ص ٢٧٩.

من إتباع أسلوب الشرط بأسلوب شرط آخر، وهذا التتابع المزدوج له أشكال دلالية متعددة، فقد يوجه به المتلقي إلى الاستعداد بجواب لكل الاحتمالات الوارد حدوثها كما في قوله مجهزاً ولي العهد لكل الاحتمالات "فإن بسط يده بقتلهم، وأولغ سيفه في دمائهم، وأسرع الوثوب بهم؛ أشعرهم جميعاً الخوف، وشملهم الرعب، ودعاهم إليك الهرب فتهافتوا نحوك بالنصيحة، وأموك بالطلب. وإن كان متأنياً محتملاً؛ رجوت أن تستميل إليك بعضهم" (٥٨٢).

يفصل الكاتب للمتلقى - ولي العهد - حاليين من تعامل قائد الخارجين مع جنوده بعد دس رسائل من ولي العهد لهم تثبت خيانتهم لقائدهم وولاءهم لولي العهد، فالحال الأولى أعمال القتل في جنوده، والثانية التأني والتمهل معهم وأعطى الكاتب للمتلقى الجواب الواجب القيام به لكل احتمال من الاحتمالين السابقين، كالاستعداد لاستقبالهم بعد الهرب السريع من قائدهم نتيجة لقتله لبعضهم عند حدوث الاحتمال الأول، والاستعداد لإعادة الكرة عند حدوث الاحتمال الثاني، وبهذا يكون المتلقي جاهزاً بالجواب لأي احتمال منهما. أو يضيف تكرار الشرط في عمومته تجهيز المتلقي لحدوث أي احتمال.

أو بمعنى آخر فإن تكرار الشرط بمثابة تلقين المتلقي الفعل مسبقاً لزيادة خبرته العسكرية لأي احتمال سوف يقع، وهذا التلقين يظهر جانب من شخصية عبد الحميد وتأثره بعمله الأول كمعلم للصبيان، ويعكس أيضاً مكانته في الدولة علاوة على خبرته الواسعة في أمور الدنيا.

أو يقوم بتجهيز الكاتب إلى الاستعداد لمعاونة بعضهم في كل الاحتمالات كما في قوله "وإن نبا الزمان برجل منكم؛ فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه؛ فزوروه وعظّموه وشاوروه" (٥٨٣).

تتابع الشرط يمثل إلحاحاً على التعاون فيما بينهم سواء مع المريض منهم أو من أصابه الكبر، وهو ما أضفى شمولية التعاون في كل الأحوال.

وأكد الكاتب هذا التعاون ليس بتتابع الشرط فقط بل بأداة الشرط (إن) ذات الدلالة التأكيدية أولاً ثم عطف (واسوه) على الجواب (فاعطفوا). و(عظّموه وشاوروه) على الجواب (فزوروه) ثانياً ثم اقتران الجوابين بالفاء المشعرة بسرعة تنفيذ الجواب، وهو ما يمثل في مجموعه إلحاحاً على التعاون في الأحوال والاحتمالات المختلفة، أو التي من الممكن أن تحدث.

• وقد ينطوي الشرط المتتابع على بنية تقابلية، فيقع الشرط الثاني مقابلاً للشرط الأول، ويضيف التقابل لمحة تأكيدية على الدلالة.

كتأكيد الراحة في الوطن عموماً مع تقابل الاحتمالات في قوله في سياق الغربة مغبطاً أخيه على التنعم في الوطن "إن صح بدنك؛ طاب لك رغد عيشك بمعينة الزوج السار لك قربها، والولد المضموم إليك شخصه، والمقام منك في

(582) السابق، ص ٢٦٣.

(583) السابق، ص ٢٨٣.

منشأك ومنبتك. وإن عرض لك عارض من سقم؛ تكنفك الكفاة، وأحدق بك الحفدة" (٥٨٤).

وقع الشرط الثاني المعبر عن المرض (إن عرض لك عارض...) في موقع متقابل مع الشرط الأول المعبر عن الصحة (إن صح بدنك؛ طاب...) مع اتحاد أداة الشرط (إن)، وينم تقابل أسلوب الشرط عن مظهرين دلاليين، أولهما شمول الراحة للمتلقى في الوطن سواء مع الصحة أو المرض وذلك من وجود من يحب حوله في الصحة من (زوج وولد)، (الكفاة والحفدة) في حال المرض.

وثانيهما تأكيد راحة المتلقى في الوطن مع اختلاف الظروف، وقد تحركت خطوط الصياغة عبر هذين المظهرين باستعمال (إن) ذات الدلالة التأكيدية والإلحاح على الفصل بين العوامل ومعمولاتها بحرف جر و(ك) العائدة على المتلقى - أخيه مثل (طاب لك رغد، السار لك قربها، المضموم إليك شخصه، عرض لك عارض، أحدق بك الحفدة)، وكأن الكاتب يضع أخاه في موضع إحاطة دائمة بمن يحب، وكل ما في الوطن من حوله يعمل على راحته، وهو ما يوحي بشمول الراحة وإحاطتها به من كل جانب. ومن اللافت للنظر طول جملة الجواب في مقابل انحصار جملة الشرط نسبياً، مما يحقق سرعة في الوصول للجواب فيضفي السهولة في تنفيذ الجواب.

أو تأكيد التفاني في العمل كما في قوله "فإن عرضت في العمل محمداً؛ فليضفها إلى صاحبه وإن عرضت مذمة؛ فليحملها من دونه" (٥٨٥).

تأكيد تفاني الكاتب في عملهم له عدة مظاهر منها البنية التقابلية لأسلوب الشرط المتتابعين، ودلالة (إن) ذات الطابع التأكيدي، وسرعة الجواب من الفاء والإلحاح عليه باللام ذات البعد التأكيدي في الجواب (فليضفها)، علاوة على الشمول المستنبط من التقابل، وهذا الإلحاح على التأكيد مناسب لصعوبة تنفيذ الكتاب للمطلوب منهم، فنسبة الإحسان لصاحب العمل، ونسبة خطأ صاحب العمل لهم من الصعب تقبله بـمكان إلا بتكثيف المؤكيدات، واستعمال الشرط بالطريقة السابقة.

ومنه تأكيد النتيجة المحتومة للتسليم للخارجين على الدولة في قوله "من أقر لهم؛ استذلوه ومن أنكر عليهم؛ قتلوه" (٥٨٦).

فلا يسع المتلقى إلا الإقرار للخارجين، أو الإنكار عليهم وفي الحالين فالمصير متشابه إما الذل أو القتل، فلا يتعامل الخارجون مع الناس إلا بإذلالهم أو قتلهم، وهو ما يوجه المتلقى إلى سبيل واحدة تتمثل في قتالهم. فالشرط هنا يتضمن القول دون الفعل سواء إقرار بالقول أو إنكار بالقول وقد تأكدت نتيجة القول بالمصير المحتوم من الموت أو الذل، وتأكيد المصير يحدد بالمتلقى إلى القيام بالفعل الحقيقي المتمثل في القتال حتى لا يقع في المصير السابق.

(584) السابق، ص ٢٠٣.

(585) السابق، ص ٢٨٤.

(586) السابق، ص ١٨٨.

• أو تأكيد صورتين متقابلتين للدنيا في قوله "فمن درّت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها؛ سكن إليها ورضى بها وأقام عليها.

ومن قرصته بأظفارها، وعضّته بأنيابها، وتوطّأته بثقلها؛ قلاها نافرًا عنها وذمّها ساخطًا عليها وشكاها مستزيرًا منها"^(٥٨٧).

فالشرط الأول تضمن صورة ترسم الدنيا الجميلة التي تعطي كل حلو للإنسان، والشرط الثاني تضمن صورة للدنيا مناقضة للأولى تمامًا فهي كائن بشع يلاحق الإنسان بكل شر.

والبنية التقابلية المصاغة في قالب الشرط تؤكد للمتلقي أن الدنيا تقوم على المتناقضات ولا تدوم على حال، ويقابل الإنسان كل فعل منها بجواب مناسب. وبالرغم من تقابل أسلوب الشرط المتتابعين إلى أن الشرط الثاني قد تميز بطول نسبي عن الأول، ساعد هذا الطول في خلق فسحة مكانية أفرغ فيها الكاتب دفقة وجدانية ملموسة عبر خطوط الصياغة تمثلت في عدّة منبهات منها إسناد فعل واحد للدنيا وآخر للحظ (درّت، ساعده الحظ) في الشرط الأول، في مقابل ثلاثة أفعال للدنيا في الشرط الثاني (قرصته، عضّته، توطّأته)، وهو تكثيف للدنيا الفاعلة المسببة للشقاء، مع غياب فاعلية الحظ تمامًا.

ومنها تضمن جواب الشرط الثاني ثلاث أحوال موحية بدوام ذم الدنيا المسببة للشقاء، وهذا الدوام يعكس طول حال الشقاء في مقابل انحصار حال السعادة في الدنيا لخلو الشرط الأول من الحال.

ومن اللافت للنظر أن تأكيد البنية التقابلية عن طريق قوالب الشرط كان وسيلة تبرز طول شقاء عبد الحميد في الدنيا وقلة حظه منها بالرغم مما وصل إليه من سلطة وسيادة، ويبدو أن هذه المكانة والسلطة كانت من أسباب شقائه وليس سعادته.

• الشرط في خدمة الصورة:

يوظف الشرط في خدمة الصورة في نثر عبد الحميد توظيفًا يزيد من وضوحها وتجليتها في ذهن المتلقي فأداة الشرط بقدرتها على الربط تلملم أطراف الصورة في بوتقة واحدة، علاوة على حث المتلقي على تأمل الصورة نتيجة لرجعة جواب الشرط على الأداة وفعل الشرط.

وأول ما يصادفنا صورة للفتنة يرسمها عبد الحميد في قوله "فإذا لزمهم عضاضها، ونفر بهم شماسها؛ تخلّت عنهم خاذلة، وتبرأت منهم معرضة عنهم"^(٥٨٨).

رُسمت صورة الفتنة في قالب الشرط الذي وهبها ترابطًا زاد من تأكيد دخول الفتنة المعنوية في عالم الناقة المحسوسة. وهذا التأكيد يزيد من اقتناع المتلقي بقدرة الفتنة على القيام بالتفرقة بين المسلمين، ثم التنصل والإعراض عن أصحابها بعد فوات الأوان.

(587) السابق، ص ٢٧٨.

(588) السابق، ص ٢١٣.

إن رجعة جملتي جواب على جملتي شرط أفرد فسحة مكانية لاستيفاء جوانب الصورة، وفسحة زمنية تمكن المتلقي من تأمل هذه الجوانب من حركات العض والإعراض (عضاضها، معرضة) وانفعالات ناتجة عن التخلي عنهم والتبرأ منهم.

ويأتي الشرط لتأكيد صورة الغضب في قوله معتذراً عن تمهله في التوسط لأحد الولاة عند الخليفة "فإن لغضب السلطان سورة ثائرة، لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه، من تعرض له أو دنا منه؛ دمره" (٥٨٩).

صورة الغضب المتجسدة في نار تحرق كل من يقترب منها أتبع بالشرط الدال على تدمير كل من يتعرض للنار أو يدنو منها، وهو ما دلّت عليه جملة النعت قبلها (يحرق وميضه وسناه) أي بمثابة تكرار للمعنى يهدف إلى تأكيد صورة الغضب الذي يحرق ويدمر ما حوله وتقوى من دخول الغضب في عالم المحسوسات. وقد ساهم الشرط في وضع غضب السلطان في صورة استعلائية نفهمها من الشمول والعموم المستوحى من عطف جملة (دنا منه) على فعل الشرط (تعرض له) فهذا الغضب لا يستثنى أحداً، بل يدمر كل من يتعامل معه بأي شكل من الأشكال، علاوة على سرعة التدمير الذي نفهمه من انحصار جملة الجواب (دمره)، وقوة غضب الخليفة من شأنه التماس العذر لعبد الحميد في تمهله في التوسط للمتلقي عند الخليفة ليعفو عنه.

وفي قوله مهدداً ولي العهد على لسان الخليفة بالعقاب إذا أهمل زوجه مرة ثانية "فإن أنت غفلت وأملت غفلتي عنها وعنك، لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك يسلب منك جميع ما في يديك بقولها" (٥٩٠).

أفرد عبد الحميد مساحة لا بأس بها في جواب الشرط مكنته من استيفاء الصورة التي شخّصت الغضب النازل على ولي العهد ليسلب ما في يديه من سلطة وجاه من ناحية، ومنحت المتلقي فسحة زمنية ليستكنه معالم الصورة، ومن ثم يستوعبها تماماً من ناحية أخرى.

وقد تضمنت جملتا الشرط والجواب باتساعهما المنبهات الأسلوبية التي ساهمت في تأكيد فاعلية الغضب في السلب، تبدأ بالضمير البارز (أنت) المؤكد لتاء الفاعل العائد على ولي العهد في جملة فعل الشرط المحذوفة (غفلت)، ثم الاستثناء المنفي (لم يأتك إلا) المؤكد لنزول الغضب عليه دون غيره.

ويستخدم الكاتب أساليب الشرط المتتابعة في رسم صورة كلية ممتدة تعكس طرق تعامل كل كاتب مع رب عمله في قوله "إذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلأقه، كما يستشف الثوب يشتره لنفسه، فإذا عرف حسنها وقبيحها؛ أعانه على ما يوافق من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالأطف حيلة وأحسن مداراة ورفقة، فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها؛ التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً؛ اتقاها من قبل رجلها، وإن كانت جموحاً؛ لم

(589) السابق، ص ٢٠٨.

(590) السابق، ص ١٩٤.

يهجها إذا ركبها وإذا كانت شموساً؛ توقاها من ناحية يدها، وإن خاف منها عضاضاً؛ توقاها من ناحية رأسها وإن كانت حروناً، لم يلاحها وتتبع هواها في طريقها وإن استمرت؛ عطفها فيسلس له قيادها⁽⁵⁹¹⁾.

فصل الكاتب عن طريق أساليب الشرط المتتابعة الطرق المختلفة التي يتعامل بها كل كاتب مع رب عمله في صورة بهيمة يتعامل معها الكاتب بشتى الوسائل حتى يصل إلى نتيجة واحدة ألا وهي (فيسلس له قيادها)، ومثل كل أسلوب احتمال يتأكد وقوعه بوقوع الجواب، وبتكثيف أساليب الشرط تكثر الاحتمالات فتشمل كل أحوال البهيمة مع راكبها فيكفي عبد الحميد الكتاب كل الأجوبة التي يحتاجونها لكل احتمال يقع، وقد خلق الشرط المتتابع حركات تراجمية كثيرة زادت من حيوية المتلقي في تعامله مع النص، علاوة على استيقافه في محطات متتابعة أثرت في درجة استحضار الصور المتتابعة في ذهنه.

وحقق عبد الحميد أكبر نسبة ترابط للصورة الممتدة بوسيلتين الأولى ربط أطراف كل صورة عن طريق أداة الشرط، والثانية ربط الصورة بعضها البعض بالعطف فكانت نسيجاً واحداً يعكس ميل عبد الحميد إلى النظام والميل إلى استيفاء الأفكار.

● تشابك الشرط مع الحركات التركيبية

للشرط قدرة على الاتساع تسمح بتخلل بعض الحركات التركيبية الأخرى له فتتشابك دلالة الشرط مع دلالة الحركات، وتمثل في مجموعها تكثيفاً للحركات التركيبية عموماً في نثر عبد الحميد.

وأول ما يصادفنا شمول الشرط للتقديم والتأخير المحدث للحركة الأفقية في قوله عن سوء الاعتماد على الجوّاري "فإن أدين ما استودعن؛ نزع بهن سوء مشابه الخؤولة وفسولة الأصول، وإن تخسرت نعمة راجعة؛ لم تنزع بهن عروق في صالح وراثة يسكن إليه ولد، وينزل به أحد"⁽⁵⁹²⁾.

تضمنت جملة الجواب للشرط الأول تأخير للفاعل عن فعله وكان المقدم على الفاعل شبه جملة (بهن)، وتميز الفاعل بطول أفقي ملحوظ (سوء مشابه الخؤولة) وعطف عليه مضاف ومضاف إليه (فسولة الأصول) وفي جملة الجواب للشرط الثاني تأخير للفاعل عن فعله وكان المقدم على الفاعل شبه الجملة (بهن) وهو ما وضع شبه الجملة (بهن) في الجوابين في دائرة اهتمام المتلقي، فانصبت الدلالة على الجوّاري وتوضيح أثرهن السيئ في بيت الخلافة، والإلحاح على تأكيد هذا الأثر السيئ بعدة مظاهر، أولها الشرط بـ (إن) بدالاتها على التأكيد، وثانيها طول فاعل الجواب أو ما تعلق به وأكد طوله أيضاً أثرهن السيئ المنعكس عن سوء أصولهن.

وقد تتشابك الحركة الرأسية للشرط بحركة رأسية أخرى ناتجة عن العطف، فتتكثف الحركات الرأسية وتلتقي في عدة بؤر تتمحور فيها الدلالة وتوفر للنص

(591) السابق، ص ٢٨٥.

(592) السابق، ص ١٩٣.

أعلى قدر من التماسك والترابط بين الكلمات كما في قوله لولي العهد "ومن يكن في البأس والثقة والجلد والطاعة والقوة والنصيحة والعدة والنجدة حيث وصفت لك وأمرت بك به؛ يضع عنك مؤونة الهم، ويرخ من خناقك روع الخوف" (٥٩٣).

تكثيف الحركة الرأسية أنتج تأكيد تحري المعطوفات في قواد وأمرء الجيش حتى يصل إلى النتيجة المضمونة للجواب من أمن وسلامة.

وقام العطف بكثرة معطوفاته بإفراد مساحة واسعة للشرط ساعدته في ضمان تحقق الجواب ما يحدو بالمتلقي إلى تنفيذ الشرط المتمثل في الدقة في تحري الصفات المطلوبة في قواد وأمرء الجيش.

كما ساهم الشرط في تماسك وربط المعطوفات بما بعدها الذي تمثل في جواب الشرط ورجعته إلى الأداة وفعل الشرط، وقد تضمن الجواب حركة أفقية تمثلت في تأخير المفعول عن فعله والفصل بجار ومجرور (يضع عنك مؤونة...)، وحركة أخرى تمثلت في تأخير المفعول عن فعله والفصل بجار ومجرور ومضاف إليه (يرخ من خناقك روع...)، فوضع المجرور والمضاف إليه (ك) العائدة على المتلقي في دائرة الاهتمام، وكأن الكاتب يوجه رسالة خفية للمتلقي عن طريق تشابك الحركات التركيبية الرأسية والأفقية مفادها أن تنفيذ الشرط من دقة الاختيار وشمول الصفات في القواد – الناتجة عن العطف – يجعل كل شيء في خدمته دون غيره، ويحقق لنفسه الأمن والسلامة وهو ما نتج عن تقديم الضمير (ك) العائد عليه.

● التركيب الوصفي

يساهم التركيب الوصفي في إنتاج حركة تلفت انتباه المتلقي إلى الدلالة لما يتضمنه من رجعة النعت على المنعوت والتلاقي في بؤرة رأسية، تلك الرجعة التي تهب المتلقي حيوية خلال تلقي النص "وتبدو مزية التركيب الوصفي في أن الارتباط الوثيق بين الصفة والموصوف لا يتوقف على رابط يجمع بين الطرفين، بل إن كل طرف – في تصورنا – ينطوي على قوة جاذبة تضمه إلى الطرف الآخر وهذه القوة تكون أشد اتضاحاً في الصفة عن الموصوف فالصفة لا تكاد تبقى في النص منفردة إذ سرعان ما تتجذب إلى الموصوف في اتجاه تراجعي، لتكون في مخيلة المتلقي حركة رأسية متوهمة" (٥٩٤).

وبتعدد النعوت لمنعوت واحد تزداد تلك الرجعة بزيادة الطول الكمي للنعوت وتهب المتلقي أكبر قدر من الحيوية تجعله مستعداً لاستيعاب الدلالة وتعطيه فسحة زمنية للتأمل في جوانبها.

ومن المحقق أن تعدد النعوت تعد وسيلة من وسائل تماسك وترابط كلمات النص، فيكون نسيجاً متلاحماً ينعكس أثره على المتلقي من خلال عملية التجاوب مع النص.

(593) السابق، ص ٢٤٩.

(594) شعر عبيد بن الأبرص، دراسة أسلوبية، ص ٣٨٤، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة عين شمس، د/ طارق سعد شلبي، سنة ١٩٩٤م.

والم تأمل في نثر عبد الحميد يخرج ببعض الملحوظات منها ميل الكاتب إلى الإفراط في استخدام أكثر من نعت لمنعوت واحد، وقد تختلف النعوت في أنواعها، ولا نرى في هذا الإفراط إلا وسيلة لتوجيه المتلقي إلى منحى معين من الدلالة، وتحقيق أكبر قدر من التماسك والترابط بين أجزاء النص.

ومن مظاهر التركيب الوصفي الذي تميز به عبد الحميد تعدد النعوت المفردة وتتابعها محدثة طولاً كمياً ملفتاً للنظر يفرد للكاتب فسحة مكانية تمكنه من تفصيل صفات المنعوت لتأكيد وجود هذه الصفات ولصوقها به، ويخرج المتلقي بصفة جامعة للموصوف كشدة العداوة في قوله واصفاً أحد الخارجين "فإن أمير المؤمنين - عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة" (٥٩٥).

تتابعت النعوت (الجلف الجافي الأعرابي المتسكع...) لأحد الخارجين الذي ذكر بصفته (عدو الله)، وهذا التتابع فيه تفصيل لصفاته التي جعلت منه عدواً لله، وتأكيد هذه الصفات ولصوقها بالمنعوت تضيف تأكيد مواجته، وإلحاحاً على المتلقي في القضاء عليه، ويضمن به الكاتب تأمل المتلقي في النعوت بطول الرجعة والتمحور عند (عدو الله) التي تعطي بعداً دينياً يحرك غريزة الجهاد في قلب المتلقي، وتمهله الوقت الكافي في التخطيط لوسائل النصر المماثل للفسحة الزمنية النابعة من طول الارتداد إلى المنعوت.

وقد تكون الصفة الجامعة للنعوت شدة الاقتران بالباطل كما في قوله موضعاً أهمية أهل الشام في الدفاع عن الدولة الأموية "وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة، وأذبه عن حرمة، وأوفاه بعهد، وأشدّه نكاية في مأزق مخالف ناكث ناكب عن الحق" (٥٩٦).

تعددت النعوت (مخالف ناكث ناكب عن الحق) للمنعوت (مأزق)، وأضفت بتتابعها تفصيلاً يؤكد شدة اقتران المأزق بالباطل، ويضيف على السياق تأكيداً يعزز من أفضلية أهل الشام وقدرتهم على دحر الباطل مهما كانت شدته.

ويوحي التشابه الصوتي والصرفي للنعوتين (ناكث ناكب) بتشابه وسائل الباطل في مواجهة الحق مما يضعف من قدرة الباطل لانهصار وسائله أمام قوة أهل الشام في وقوفهم بجانب الحق.

وقد تتعدد النعوت المفردة للتعبير عن شدة الحنان على الولد كما في قوله "وقد تقدم أمير المؤمنين ... وما ينظر به الوالد المعني الشفيق لولده .." (٥٩٧).

نعت (الوالد) المقصود به الخليفة بنعتين متتابعين (المعني الشفيق)، وقد أكد النعت الثاني حنان واهتمام الوالد بولده، وقد صبغت الدلالة بالاستمرار والديمومة المستوحاة من صيغة (الشفيق)، وهذا التأكيد على الحنان الدائم يهب المتلقي (الولد) طمأنينة دائمة على رضا الوالد عنه وتحرك بداخله نزعة وجدانية

(595) عبد الحميد بن يحيى الكاتب ... ص ٢١٥.

(596) السابق، ص ٣٠١.

(597) السابق، ص ٢١٧.

تؤهله أن يكون عند حسن ظن والده، أو بمعنى آخر يولد لديه رد فعل ملائم لفعل الوالد به، ويتمثل رد الفعل في محاربة الخارجين على الوالد. وبهذا الفهم تكون النعوت المتعددة محرّكاً لوجدان المتلقي نحو عالم الكاتب. وهو ما نجده أيضاً في قوله "ومكانك الذي أصبحت به من دين الله، والأمل المرجو المنتظر فيك" (٥٩٨).

تتابع النعتين (المرجو المنتظر فيك) للمنعوت (الأمل) يحرك في داخل المتلقي الشعور بالمسئولية تجاه الخليفة (والده)، والعامّة من الناس، مع ديمومة هذا الشعور المستوحى من صيغة النعت الثاني (المنتظر) المعبر عن ديمومة انتظار الناس له لنجدتهم من الأعداء وعقد الأمل عليه باستمرار في حمايتهم ودحر الأعداء عن ثغورهم.

إن خطوط الصياغة تتحرك نحو التأثير في المتلقي (ولي العهد) ليفعل ما في وسعه لدحر الخارجين على الدولة، ومنها جعل القضية متشعبة لها ملمح ديني (مكانك من دين الله)، وملمح عاطفي متمثل في أمل الوالد فيه، وآخر اجتماعي متمثل في أمل العامة فيه، وهذه الملامح تمثل إلحاحاً على المتلقي ليكون عند حسن الظن، والقيام بمسئوليته تجاه الله ثم الخليفة والمسلمين، وساهم المنعوت ونعته في تأكيد هذا الإلحاح.

• وقد يلجأ الكاتب إلى الفصل بين النعوت المفردة المتتابعة كوسيلة للاسترسال وتفصيل جوانب الدلالة لتوضيح المعنى في ذهن المتلقي، وضمان أكبر قدر من التجاوب مع النص.

وعندما يعتاد المتلقي على النعوت المتتابعة وما بينها من فواصل لغوية تنشأ بداخله حيوية خلال تلقي النص، مصدرها حركتان متعاكستان، الأولى حركة إلى الخلف تتمحور عند المنعوت لردة النعوت المتتابعة عليه والثانية حركة إلى الأمام تتبع من شوق المتلقي وتطلعه إلى معرفة النعت التالي مروراً بالفواصل اللغوي بين كل نعتين.

كالشوق إلى معرفة باقي صفات الرجل العالم في قوله موجهاً ولي العهد إلى أعمال العقل في أسباب توجيه الخليفة له لمحاربة الضحاك بن قيس "ولكن العالم الموفق للخير، المخصوص بالفضل المحبوب بمزية العلم وصفوته؛ أدركه معانا عليه باطيف بحثه وإذلال كنفه" (٥٩٩).

نعت (العالم) بثلاثة نعوت (الموفق، المخصوص، المحبوب) وفصل بين كل نعتين بشبه جملة متعلقة بالنعت (للخير، بالفضل) مع الفصل بين النعت الأخير وخبر (لكن)، (أدركه) بشبه جملة ومضاف إليه ومعطوف ومضاف إليه (بمزية العلم وصفوته) وتلك الفواصل اللغوية مع النعوت تنتج الحركتين المتعاكستين الخلفية والأمامية اللتين تهبان المتلقي حيوية خلال عملية تلقي النص، تلك الحيوية التي تؤهله إلى استيعاب دلالة النص من ضرورة التمسك بالحكمة وأعمال العقل.

(598) السابق، ص ٢٢٢.

(599) السابق، ص ٢١٧.

وقد يطول الفاصل بين كل نعتين فيحقق للتركيب الوصفي امتداداً عبر النص يوفر للمتلقى فسحة زمنية لاستيعاب الدلالة والإلمام بالصفات، وتوفر للكاتب فسحة مكانية تمكنه من إخراج شحنات لغوية تؤثر في درجة تجاوب المتلقى مع النص، ومشاركته للكاتب في الانفعالات الوجدانية، كموقف الكاتب من الخارجين على الدولة في قوله لولي العهد "ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين مستحلاً لدماء أوليائه"⁽⁶⁰⁰⁾.

امتد التركيب الوصفي المؤكد بفعل الأمر (اصمد) عبر النص حتى شمل عدّة فواصل أخرج الكاتب خلاله النعوت (المتسمى، الخارج، المنتحل) التي تعبر عن موقفه السلبي من الخارج على الدولة المنعكس عن سلبية صفاته. ويعد هذا الامتداد وسيلة لإقناع المتلقى بالصمود أمام عدوه عن طريق تفصيل الصفات التي مثلت عدّة أعمال فعلية من الخروج على جماعة المسلمين وانتحال الدين وأوليائه.

• ومن اللافت للنظر – سبقت الإشارة إليه(*) – أن الكاتب يستخدم صيغ صرفية بعينها للنعوت، وبالأحرى صيغ اسم الفاعل واسم المفعول، وهي في رأينا وسيلة يعتمد عليها الكاتب في تكرار الصيغ الصرفية السالف ذكرها كقوالب شكلية يختلف معها المعنى، وهي قدرة لغوية تميز بها عبد الحميد.

ولقدرة هذه الصيغ على صبغ الدلالة بالديمومة والاستمرار، فإن وقوعها نعتاً يزيد من قوة لصوق النعت بمنعوتة، علاوة على أن انطواء الصيغ المتشابهة شكلاً على دلالات مختلفة تدفع المتلقى إلى أعمال الذهن للتمييز بين هذه الدلالات.

ففي قوله موجّهاً ولي العهد إلى التمسك بالأخلاق الحميدة "أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصّرة بأهل العقل، الشائنة لذوي الحجي في المنطق، المنسوبة إليهم بالعي، المردية لهم في الذكر"⁽⁶⁰¹⁾.

نتأمل النعوت (المقصّرة، الشائنة، المردية) على صيغة اسم الفاعل، (المنسوبة) على صيغة اسم المفعول وفصل بين النعوت بشبه جملة ومضاف إليه أو بزواج من شبه الجمل.

وقد صبغت الدلالة بديمومة لصوق الصفات بالمنعوت (الفضول القبيحة) واستمرار ملازمتها له مع الحركة المستمرة للحدث من تقصير وشين ونسب إلى العي وإرداء الذكر.

وقد اكتفى كل نعت بما بعده مما أضفى تفصيلاً لآثار التمسك بالعادات السيئة للتأثير على المتلقى حتى يخلع تلك العادات عن نفسه.

وقد يستخدم الكاتب النعوت المتتابعة والفصل بينها لتفصيل صورة مرئية كما في قوله عن أرض الصيد "ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته

(600) السابق، ص ٢٣٦.

(*) عند تناولنا للعطف.

(601) السابق، ص ٢٣٢.

التجارب، وخبر أعلام المذائب إلى غدير أفيح، وروضة خضرة مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف الخمر، مملوءة من أنواع الطير"^(٦٠٢).

نعت الروضة بعدة نعوت (خضرة، مستأجمة، ملتفة، مملوءة) وشمل كل نعت جزءاً من الصورة المرئية للروضة فهي خضرة الأرض، كثيفة بالأشجار المتنوعة، محاطة بالفواكه، مليئة بالطيور، وقد ساهم امتداد النعوت في إظهار الصورة وكأن المتلقي يعيش بداخلها، فهي تتضمن الألوان (خضرة)، وحركة الطيور، وطعم ورائحة الفواكه (الخمر)، فتنقل المتلقي من عالمه إلى عالم الكاتب في أرض الصيد.

ومن وسائل الاسترسال التي يستخدمها الكاتب وضع النعوت المتتابعة في مركب إضافي يزيد من امتداد التركيب الوصفي عبر النص.

إن الفصل بين النعوت المفردة بمضاف إليه يتكرر مع كل نعت يجعل من التركيب الوصفي شاملاً لعدة تراكييب إضافية يكون النعت أحد أطرافها، وتنشأ عن هذه التراكييب روابط داخلية بين كل نعت مضاف والمضاف إليه تنضاف تلك الروابط الداخلية إلى روابط خارجية متمثلة في عودة كل النعوت المضافة ومعها المضاف إليه إلى المنعوت وارتباطها به، وهذه الروابط الداخلية والخارجية تجعل من التركيب الوصفي متماسكاً متيناً، وبالتالي يساهم في تماسك النص عمومًا خاصة مع تتابع النعوت المضافة وامتدادها عبر النص.

ولأن النعت المضاف في حاجة ملحة إلى المضاف إليه لكشف غموضه أو تخصيصه دلاليًا، فإن التركيب الإضافي يعد وسيلة لتوضيح وتقريب النعوت المتتابعة في ذهن المتلقي.

وأول ما يصادفنا وصف عبد الحميد للقاضي الذي يجب اختياره "ممن لا يتصنع للولاية، ويستعد للنهزة، ويجترئ على المحاباة في الحكم والمداهنة في القضاء، عدل الأمانة، عفيف الطعمة، حسن الإنصات، فهم القلب، ورع الضمير، متخشع السميت، بادي الوقار"^(٦٠٣).

امتدت النعوت المضافة (عدل الأمانة، عفيف الطعمة، حسن الإنصات، فهم القلب، ورع الضمير، متخشع السميت، بادي الوقار)، للمنعوت (القاضي)، ووقع كل نعت في تركيب إضافي، وبكثرة الروابط الداخلية ورجعتها إلى المنعوت في رابطة خارجية تميز التركيب بالتماسك والترابط القوي، وينعكس هذا التماسك على تلقي النص. وقد ساهم التركيب الإضافي في توضيح صفات القاضي التي ترجح اختياره لعملية القضاء بين الجند توضيحاً شمل الصفات المختلفة من العدالة والعفة وحسن الإنصات والرحمة وغيرها من الصفات.

(602) السابق، ص ٢٧٠.

(603) السابق، ص ٢٤٥.

وفي وصف أرض الصيد يرسم الكاتب صورة مرئية لها يمثل كل نعت مضاف جزءاً من الصورة في قوله "تغشانا تارة وتكشف أخرى، ونحن بأرض دمة التراب، أشبه الأطراف، مغدقة الفجاج" (٦٠٤).

توالت نعوت الأرض (دمة التراب، أشبه الأطراف، مغدقة الفجاج)، وما يلفتنا أن امتداد التركيب الوصفي أوحى بامتداد أرض الصيد ومن ثم الشعور بانفعال الكاتب المتمثل في سعادته باتساع أرض الصيد وما بها من طرائد لأنها "مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب" (٦٠٥).

• وقد يزاوج الكاتب في استخدامه للنعوت المتعددة المفردة بين النعوت المضافة وغير المضافة فيكون هذا التنوع وسيلة للتأثير في سرعة انتقال المتلقي عبر النعوت، فالمرور على النعوت غير المضافة أسرع منه على النعوت المضافة وهذا البطء قد يوجه اهتمام المتلقي نحو نعت بعينه، ففي قوله "لا يقوم لها في بهمة الليل وحنده إلا البطل المحارب ذو البصيرة المحامي والمستमित المقاتل" (٦٠٦).

تنوعت نعوت البطل بين غير المضاف (المحارب المحامي)، وبين نعت واحد مضاف (ذو البصيرة)، وهو ما يلفت انتباه المتلقي إلى أهم صفات البطل، وكأن كل صفاته لا تستقيم إلا بأن يكون صاحب بصيرة.

• والمزاوجة بين النعت المفرد المضاف وغير المضاف تساعد الكاتب في الامتداد بالتركيب الوصفي بنسبة أكبر تمكّنه من تفصيل النعوت خاصة التي قد تغيب عن وعي المتلقي، كصفات أحد القواد في قوله "اجعل خلف ساقك رجلاً من وجوه قوادك جليداً ماضياً عفيفاً صارماً، شهم الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة" (٦٠٧).

وقوله أيضاً "ومره فليولّ عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جريء الإقدام، ذاك الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بموضع أحراسه، غير مصانع ولا مشفع للناس في التثني إلى الرفاهية والسعة" (٦٠٨).

أورد الكاتب مجموعتين من النعوت المفردة للمنعوت (رجلاً)، المجموعة الأولى نعوت غير مضافة تتابعت في سرعة ملحوظة وتميزت بالشيوع (جليداً ماضياً عفيفاً صارماً) جعلت من المنعوت النكرة (رجلاً) محدداً بتلك الصفات علاوة على الشرط الأساسي أن يكون (من وجوه قواده).

وفي الشاهد الثاني نجد المجموعة الأولى لنفس المنعوت النكرة (رجلاً) محدداً بالنعوت غير المضافة (ركينا مجرباً) وتميزت بالشيوع أيضاً.

(604) السابق، ص ٢٦٩.

(605) السابق، ص ٢٦٩.

(606) السابق، ص ٢٦٠.

(607) السابق، ص ٢٥٤.

(608) السابق، ص ٢٤٤.

أما المجموعة الثانية من النعوت في الشاهدين (شهم الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة)، (جريء الإقدام، ذكي الصرامة، جلد الجوارح) وكلها مضافة أزيل شيوعها بالمضاف إليه.

وقد عزا أحد الأساتذة هذا التنويع - ليس في النعت فقط - إلى التلوين الموسيقي النابع من الازدواج بمعنى الانتقال من "مجموعة من المزدوجات إلى مجموعة ثانية، إلى مجموعة ثالثة، ولكل مجموعة محور موسيقي مختلف عن محور الأخرى في تناسق تصاعدي أو تنازلي كما وكيفاً" (١٠٩).

وكان السبب الرئيس لذلك اختيار الكاتب "لمواجهة تلك النزعة التنظيمية بما يناسبها الأسلوب القائم على الازدواج" (١١٠).

فالازدواج هنا يقصد به تنويع الأسلوب بين مجموعة من الكلمات تتابع بسمات معينة يعقبها مجموعة أخرى تتابع فيها الكلمات بسمات مختلفة عن المجموعة الأولى.

وما نراه أن هذا التنويع الذي تميز به عبد الحميد يعد وسيلة لبقاء المتلقي في حيوية ونشاط دائمين بعيداً عن الاستئصال والملل وبالتالي ضمان أكبر قدر من اليقظة التي تنتج تجاوباً مع النص.

وفيما نحن بصدد، فلأن النعت المضاف في حاجة ملحة للمضاف إليه لكشف غموضه أو تخصيصه دلاليًا، فإن التركيب الإضافي يعد وسيلة لتوضيح الدلالة وتقريب النعوت المتتابعة من ذهن المتلقي، فبالعودة إلى الشاهدين وجدنا هذا التوضيح في النعوت المضافة (شهم الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة، جريء الإقدام، ذكي الصرامة، جلد الجوارح) فالشهادة في الرأي وليست عامة قد توجه للعدو والجرأة في الإقدام فقط على العدو حتى لا يكون جريئاً في تعامله مع ولي العهد وهكذا.

وقد يضع عبد الحميد النعوت المفردة المتتابعة المتنوعة في قالب شكلي منظم الكم والكيف كما في قوله في سياق الإخاء "فتلق ما وصفت لك بقلب فهم عقول ذي مرة يقظان، وذهن جامع حافظ ذي ثقافة واع" (١١١).

تمثل الكم في إيراد أربعة من النعوت المفردة لمنعوتين (قلب، ذهن)، والكيف في نعتين مفردتين ثم نعت مضاف ثم نعت مفرد، تحددت بقالب شكلي متوازي.

فهم عقول ذي مرة يقظان
جامع حافظ ذي ثقافة واع

ولورود تلك النعوت في خاتمة رسالة لأحد أصدقاء عبد الحميد ليلتمس بها الأعذار من عدم الإطالة في تفصيل صفات الإخاء للانشغال بالحرب. فقد تركزت الحركات الرأسية التي شملت عدة رجعات تتمحور في عدة بؤر رأسية محققة بطنًا

(609) السابق، ص ١٦٥.

(610) السابق، ص ١٦٤.

(611) السابق، ص ٢٧٨.

ملحوظا يزيد من تأمل المتلقي في الدلالة من انشغال الكاتب بالحرب، ومن ثم التجاوب مع الكاتب وقبول عذره.

وقد تمثلت هذه الحركات في النعوت المتعددة التي ترتد إلى القلب والذهن والتي تخللها ردّة أخرى للمضاف إليه على المضاف، وردّة المعطوف (ذهن) بنعوته المتعددة على المعطوف عليه (قلب)، وأهم البؤر الرأسية تمثلت في القلب الذي تلاقت فيه كل الحركات الرأسية المرتدة.

وهو ربما يجعل عبد الحميد معولاً على مكانته في قلب صاحبه لقبول العذر في عدم الإطالة في تفصيل صفات الإخاء الذي كانت الرسالة غرضاً له.

وقد يتميز النعت بكثرة متعلقاته فيحقق لنفسه امتداداً طويلاً إلى الأمام تؤثر في حيوية المتلقي لطول الردّة إلى المنعوت من ناحية، وتحقيق للنص تماسكاً وترابطاً لانجذاب متعلقات النعت به، ثم انجذاب النعت بمتعلقاته إلى المنعوت من ناحية أخرى، ويكون مركز الثقل ومفتاح الدلالة في المنعوت نفسه ففي قوله "فشد به أزرى، وحملني من شكره فيه ما قد أدنى بثقل حمل النعم المساقاة إليّ به، المقرونة سراؤها في العجب بتارات ما يدركني طيه من رقة الشفقة مخافة مجاذب المنايا إياه"^(٦١٢).

يعبر الكاتب عن لحظتين انفعاليتين، الأولى تتمثل في فرحته بمولود له فيشكر الله تعالى على النعم المنقادة إليه دون جهد من عبد الحميد، والثانية تتمثل في الخوف على المولود من المنايا، وقد اختلطت اللحظتان في النعت (المقرونة) التي جمعت بين الفرحة بالنعم والخوف من زوالها في آن واحد.

وقد أوحى امتداد النعت الثاني (المقرونة) للمنعوت (النعم) بامتداد ما اعتمل في نفس الكاتب من انفعالات متضادة من فرحة بالمولود جسدت في الماضي (شد به أزرى)، وحزن على ما قد يصيبه من موت في المستقبل (يدركني طيه)، ولكن نتيجة للانفعالات المتضادة ظهرت نزعة إيمانية سبقت هذه الانفعالات تمثلت في شكر الله على نعمه الكثيرة التي تحركت نحوها خطوط الصياغة (بثقل حمل النعم المساقاة) فهي كثيرة ومنقادة إليه دون جهد منه، ومعروفة وظاهرة للعيان في مقابل خفاء المنايا الذي نفهمه من (طيه)، علاوة على وقوع (النعم) مركزاً للثقل الدلالي من ردّة النعتين (المساقاة، المقرونة) عليها، وهو غلوب للفرحة على الحزن، أو بمعنى آخر غلوب الفرحة بالنعم الكثيرة على الحزن من زوال بعضها.

● النعت بجملة

يعد النعت بجملة وسيلة من وسائل التماسك والترابط في النص لوجود أكثر من رابطة نحوية تتمثل إحداها في ارتباط المسند بالمسند إليه، والثانية ارتباط الجملة كلها – بروابطها الداخلية – بالمنعوت محدثة حركة رأسية مع اقتران دلالة جملة النعت بدلالة التركيب الوصفي.

(612) السابق، ص ٢٠١.

وما من شك أن ترابط وتماسك النص يلقي بظلاله على المتلقي من خلال زيادة نسبة التجاوب مع النص فتتحقق للكاتب مقاصده من وراء استخدامه للشحنات اللغوية.

ففي قوله في ختام مجموعة كبيرة من الأخلاق الكريمة التي يجب على المتلقي التحلي بها في مقابل التخلي عن الأخلاق الذميمة "هذه جوامع خلال دخال النقص منها واصل إلى العقل بطائف أبته" (١١٣).

نعتت خلال بجملة اسمية (دخل النقص عنها واصل...) التي صبغت النص بدلالة الثبات المتمثل في وصول النقص إلى العقل بإطلاق، وهو ما يتطلب مداومة على معالجة عيوب العقل بالتخلي عن الأخلاق الذميمة ومناهضة الشهوات.

وزاد من قوة الترابط الداخلي في جملة النعت الاسمية تأخير الخبر مع عودة جملة النعت بروابطها إلى المنعوت (خلال) محدثة رابطة أخرى أكبر من الأولى، وتلك الروابط ساهمت في تماسك النص وقوته الذي ينعكس على المتلقي بالتجاوب مع نصائح الكاتب في التحلي بالأخلاق الكريمة والسيطرة على الأمراض الخلقية التي قد تصيب العقل.

• وقد يلجأ الكاتب إلى تأكيد المنعوت لضمان تجاوب المتلقي مع النص كما في قوله "... وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها بريء الساحة" (١١٤).

ختم الشاهد بعض النصائح الموجهة إلى (ولي العهد) وتمثلت في ترك كاتبه أو حاجبه يغلظ على من يكره دخوله عليه، حتى لا يلقي الناس باللوم على ولي العهد، ولهذا تطلب الأمر من عبد الحميد تأكيد نجاح تلك الوسيلة بتأكيد توجيه الناس للوم لكاتبه وهذا التأكيد ينبع من الجملة الاسمية (أنت منها بريء ..) الواقع نعتاً لـ (لائمة).

وتأكيد عداوة الأهواء للمتلقي - ولي العهد - في قوله "واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك" (١١٥).

نعت (عدو) بجملة فعلية (يحاول هلكتك) التي عبرت باستمرارها الدلالي على الشروع بالفعل الحقيقي للعداوة المتمثل في إهلاك ولي العهد، فالنعت أكد عداوة الأهواء للمتلقي، لأن العداوة قد تكون نظرية بالقول لا تتأكد إلا عن طريق التطبيق العملي لها وقد مثله النعت.

وبهذا التأكيد لا يسع المتلقي إلا مجاهدة الأهواء بشتى الوسائل. وتأكيد الفعل الحقيقي للضبابية في إخفاء الطرق وحجب النظر خلال عملية الصيد في قوله "ثم لم نلبث أن علتنا ضبابية تقصر طرف الناظر، وتخفي سبل السلام" (١١٦).

(613) السابق، ص ٢٢٢.

(614) السابق، ص ٢٢٧.

(615) السابق، ص ٢١٩.

(616) السابق، ص ٢٦٩.

من المعلوم أن الضبابية تحجب النظر، فلا حاجة للنعت الجملة (تقصر طرف الناظر) إلا لتأكيد ظهور الضبابية وأثرها المادي المحسوس من حجب وإخفاء.

• وقد يوظف الكاتب النعت الجملة في توضيح المنعوت وإزالة غموضه ومن ثم ينعكس ذلك على وضوح الدلالة وإزالة إبهامها في ذهن المتلقي.

ففي قوله عن إحكام حركة الجنود "ثم حذره أن يكون له إذن لجنوده في

الانتشار والاضطراب والتقدم لطلائعك؛ فتصاب لهم غيرة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداماً إليك" (٦١٧).

يحذر الكاتب ولي العهد من انتشار الجنود الذي قد يؤدي إلى الغرة، وجاء النعت الجملة يجترئ بها عدوك عليك، لتوضيح المنعوت (غرة) وأثاره من استهانة العدو به والجرأة على مهاجمته، وهذا التوضيح من شأنه توجيه المتلقي إلى إحكام حركة الجنود.

وفي قوله عن العقوبة التي يجب على المتلقي تنفيذها بنفسه دون وكيل عنه "فأما عقوبة تبلغ تلف المهجة وإقامة الحد في قطع ... فلا يلين ذلك من جندك أحد غيرك" (٦١٨).

يوجه عبد الحميد المتلقي إلى تنفيذ بعض العقوبات بنفسه فتطلب الأمر توضيحاً لهذه العقوبات وهو الدور الذي قامت به جملة النعت (تبلغ تلف المهجة) للمنعوت (عقوبة)، فحددت نوع العقوبة وهي عقوبة الموت أو قطع عضو من أعضاء المعاقب، وما خلا ذلك من عقوبات أبسط فمن الممكن توكيل من ينوب عنه في تنفيذها.

• وقد يستخدم الكاتب النعت الجملة لتحقيق امتداد للتركيب الوصفي فتطول الحركة المرتدة إلى المنعوت محدثة فسحة مكانية تمكن الكاتب من توفير بعض الوسائل المؤثرة في المتلقي، وفسحة زمنية توفر للمتلقي مهلة لاستيعاب الدلالة، كدلالة التعظيم من أمر المنعوت في قوله "فإن الله أنزلك من خليفته ومن جميع أمته بمكان يحق عليك صونه والإتماء إلى الزيادة فيما أنعم الله به عليك، فإنه ليس وراء ولاية عهد المسلمين منزلة يرجوها طامع في فضل ولاية عهد الله في بلاده" (٦١٩).

نعت الكاتب (مكان)، (منزلة) بنعتين جملة (يحق...، يرجوها...) تميزا بطول كمي ملفت للنظر، ولأن المكان والمنزلة شيء واحد فهو إلحاح على ولي العهد ليستوعب أهمية المنزلة التي وضع فيها، التي أفرد لها نعتاً طويلاً يعظم من أهميتها، وبالتالي الحفاظ عليها بما يليق بعظمتها.

(617) السابق، ص ٢٤٣.

(618) السابق، ص ٢٥١.

(619) السابق، ص ١٩٣.

والتهويل من قدرة المنعوت في قوله "فإن أنت غفلت أو أملت غفلتي عنها وعنك لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك يسلب منك جميع ما في يديك بقولها" (٦٢٠).

فنازل الغضب ذو قدرة كبيرة على سلب كل شيء من ولي العهد بطلب صغير من زوجه (عائشة ابنة هشام) ونبتت تلك القدرة من طول جملة النعت (يسلب) للمنعوت (نازل)، التي وفرت للمتلقى مهلة ليتخيل ما سيحدث له في حال استمرار غضب زوجه عليه الذي حرك غضب الخليفة نحوه. وقد وفر امتداد النعت فرصة للإحياء بطول الغضب واستمراره النابع من دلالة النعت (يسلب).

ويعطي الطول الكمي للنعت الجملة إحياءً بالامتداد الزمني كما في قوله "ثم اجعل الله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه، ويظهر منك السلامة في إشراقه من نفسك نصيباً تجعله لله شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح، وعافية بدن، وسبوغ نعم، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله عز وجل جزءاً تردّد رأيك في أدبه" (٦٢١).

لنتأمل النعت (ينعم) ذا الطول الكمي الملحوظ للمنعوت (صباح)، والنعت (تجعله ...) للمنعوت (نصيباً) ذا الطول الكمي أيضاً، وعبر النعتان عن وجوب تخصيص جزء من اليوم لشكر الله والتدبر في كتابه العزيز وأوحى امتداد التركيبين الوصفيين بطول هذا الجزء المخصص من اليوم لذكر الله.

• إن تكرار النعت الجملة في قوالب شكلية يزيد من درجة توقع المتلقي للألفاظ أو التراكيب، وهذا التوقع يضيف إلى الحركة المرتدة حركة أمامية تتبع من شوق المتلقي إلى التحقق من حدسه وتوقعاته.

ولأن تشابه التراكيب الوصفية المتتابعة في النص ينطوي على اختلاف دلالي، فإن التشابه الشكلي والاختلاف الدلالي يفجران في المتلقي طاقات تحفزه على تقبل النص والاستمرار في عملية التلقي. إضافة إلى الموسيقى النابعة من التشابه التركيبي التي تبقى المتلقي في حال انجذاب دائم للنص.

وأول ما يصادفنا من أمثلة ما كتبه عبد الحميد في الحكمة "القلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤة الحكمة، والبلاغة منهل فيه ري العقول الظامنة، والخط حديقة زهرتها الفوائد البالغة" (٦٢٢).

تتابعت أربع جمل اسمية نعت كل خبر منها بجملة اسمية وهو ما يولد حركة أمامية بجانب الخلفية – للتحقق من وجود نفس القلب الشكلي للتركيب الوصفي ومن شأن تلك الحركات أن تحفز المتلقي لاستيعاب الحكمة التي وقر لها الكاتب عدة وسائل للتأثير في المتلقي ومن ثم يتجاوب مع رؤية الكاتب تجاه الحياة والموجودات، ومن هذه الوسائل التشابه التركيبي للفواصل علاوة على تعقيدها

(620) السابق، ص ١٩٤.

(621) السابق، ص ٢١٩.

(622) السابق، ص ٢٩٠.

تركيبياً فيبدأ كل تركيب بمبتدأ (القلم، الفكر، البلاغة، الخط) يليه خبر (شجرة، بحر، منهل، حديقة) يليه نعت جملة اسمية تتكون من مبتدأ ومضاف إليه وخبر (ثمرها الألفاظ، لؤلؤة الحكمة، فيه ري العقول، زهرتها الفوائد) ويناسب تعقيدها التركيبي سياق الحكمة التي ربما تتطلب ذهنًا نشطًا لاستيعابها، ومن هذه الوسائل أيضًا التشابه الصوتي النابع من تكرار الأصوات في مفردات ترتبط نحويًا كتكرار صوت الراء (شجرة ثمرها) وصوت الميم (القلم ثمرها) واللام (القلم، الألفاظ) وكل ذلك في الجملة الأولى، وتكرار صوت الراء (الفكر بحر)، الكاف (الفكر، الحكمة) والحاء (بحر، الحكمة) في الجملة الثانية، وتكرار صوت اللام (البلاغة، منهل، العقول) والميم (منهل، الظامنة) في الجملة الثالثة، وتكرار صوت الدال (حديقة، الفوائد) في الجملة الأخيرة، وبين التشابه التركيبي والصوتي والتخالف الدلالي تتولد لدى المتلقي طاقة تحفزه على استيعاب الحكمة والتجاوب مع رؤية الكاتب تجاه (القلم، والبلاغة والفكر، الخط) ومدى تأثيرها في حياته. أو بمعنى آخر مدى احترامه لها.

وقوله في الدعاء "وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوِّغك إياها، وعافية يحلك أكنافها ونعمة يلهمك شكرها"^(٢٣).

تتابعت ثلاث مجرورات مثلت اسم مجرور وزوجين من المعطوفات نعتت كلها بجملة فعلية تميز فعلها بالتعدي لمفعولين، ونبتعت عنها موسيقى ملائمة للدعاء. وقوله أيضًا في دعاء آخر "وأمر المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خلق"^(٢٤).

تتابعت ثلاث جمل فعلية تضمنت دعاءً لولي العهد نعت كل مضاف إليه بعد (كل) بجملة فعلية توضح كالاتي

يرجو	أن ينزهك الله	عن كل قبيح يهش ... + جار و مجرور (له)
	أن يعصمك -	من كل مكروه حاق ... + ... (بأحد)
	أن يحصنك -	من كل آفة استولت ... + ... (على امرئ)

وهو كإشارة للمتلقي أن يتوقع تكرار نفس القالب بعد أن يرى (أن)، وهو ما يولد حركة أمامية تنبع من شوق المتلقي إلى التحقق مما توقعه من قالب بجانب الحركة المرتدة النابعة من رجوع المتلقي بالنعت على المنعوت، ولا نعدم تأثير التشابه التركيبي في تحفيز طاقات المتلقي لاستيعاب محبة الكاتب له وصدق الدعاء.

● النعت بشبه الجملة

يساهم النعت شبه الجملة في كشف الغموض الذي قد يغلف المنعوت، ومن ثم يتميز التركيب الوصفي في هذه الحال بوضوح ينسحب على الدلالة، مع إحكامها النابع من تحديد النعت شبه الجملة للمنعوت العام.

(623) السابق، ص ٢٣٤.

(624) السابق، ص ٢١٧.

ففي قوله "فاحذر أن يُشهر رجلٌ من جواسيسك في عسكريك فيبلغ ذلك عدوك، ويعرف موضعه فيعدّ له المراسد، ويحتال له بالمكايد" (٦٢٥).

يوجه الكاتب بعض النصائح العسكرية المهمة إلى ولي العهد لذا لزم عليه توضيح المعنى حتى يستوعب المتلقي الدلالة، فالمنعوت (رجل) نعت بشبه جملة (من جواسيسك) حدد الفئة التي ينتمي إليها المنعوت وهي فئة الجواسيس التي تعمل لحساب ولي العهد، وهذا التحديد من شأنه توضيح المعنى بدقة تتناسب مع أهمية التحذير من كشف جاسوسه حتى أمام جنده.

وفي قوله "واياك أن يغمز فيك أحدٌ من حامّتك وبطانة خدمك بضعة يجد بها مساعاً إلى النطق عندك بما لا يعتر لك عيبه" (٦٢٦).

يحذر الكاتب ولي العهد من استغلال أحد الأفراد لمعرفة به أو لقربه منه ليغمز بشيء يشين إلى ولي العهد، وأخطر الأفراد من الحامّة وبطانة الخدم لقربهم المتواصل من ولي العهد، ولهذا خصّهم الكاتب بالتحذير فنعت (أحد) بشبه جملة (من حامّتك) التي حدّدت المحذر منهم، ومن ثم تتوضح الدلالة في ذهن المتلقي.

• تتابع أنواع النعت

إن تتوّع النعت بين مفرد – مضاف وغير مضاف – وجملة – اسمية وفعلية – لمنعوت واحد يضيف على النص تنويعاً دلاليّاً يخدم مقاصد الكاتب في توصيل الدلالة للمتلقي عن طريق التركيب الوصفي، وهذا التنويع يبعد الملل عن المتلقي للتركيب الوصفية، ويوفر له حقلاً متنوعاً من دلالات النعوت ذاتها يللمها في دلالة جامعة تتمحور في بؤرة رأسية عند المنعوت.

كالدلالة على القوة والخبرة العسكرية المطلقة لجنود الدولة في قوله في سياق التهديد "يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاكٍ محتّك، في الحرب مجرّب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل" (٦٢٧).

نعت الجندي بصفته (شاك) بعدة نعوت تنوعت بين المفردة (محتّك، مجرّب) والمفردة المضافة (ذو شقشقة)، والجملة الفعلية (قد شرب...) وقد تنوعت دلالة كل نعت كاستمرار وديمومة التجربة والخبرة من صيغة اسم الفاعل للنعوت (محتّك، مجرّب) وتعطيه قدرة على الفاعلية في الحرب، وتأكيد الخبرة الحربية وتحقق وقوعها من دلالة النعت الجملة بصيغة الماضي (قد شرب على ناجذ الحرب وأكل) ذي البعد التصويري، ودخوله عالم أقوى الحيوانات الحربية (الفرس) من النعت المفرد المضاف (ذو شقشقة وكلكل) وتتمحور النعوت كلها على اختلاف دلالاتها عند بؤرة رأسية عند المنعوت (شاك) ذي الغموض الذي يهبه قوة مجهولة لا يقدر عليها متلقي الرسالة وهو أحد الخارجين على الدولة.

(625) السابق، ص ٢٤٢.

(626) السابق، ص ٢٢٣.

(627) السابق، ص ٢١٤.

وتجتمع هذه الدلالات في ذهن المتلقي بدلالة جامعة تتمثل في قوة وخبرة جنود الدولة العسكرية المطلقة في الزمان – الماضي (قد شرب)، والمستقبل (محتك، مجرب)، والمكان (في الحرب).

والدلالة على الهلاك وانتفاء الأمل في النجاة في قوله عن مصير أحد الخارجين المهزومين "إلى أن أصبح بفلاة قفر، وتيه صفر، بعيدة المناط، يُقطع دونها النياط"^(٦٢٨).

نُعتت (فلاة) بنعت مفرد (قفر)، ونعت مفرد مضاف (بعيدة المناط)، وجملة فعلية (يُقطع دونها النياط) وقد تنوّعت دلالة كل نعت، كانتفاء وجود أي وسيلة من وسائل الحياة من طعام وماء والذي نفهمه من الدلالة المعجمية للنعت المفرد غير المضاف (قفر)، وانتفاء الخروج من الفلاة لبعد المكان من النعت المفرد المضاف (بعيدة المناط)، وانتفاء وصول أي شخص لنجدة من فيها للمشقة البالغة من النعت الجملة (يُقطع دونها النياط) المبني فعلها للمجهول بفاعلها الخفي الملائم للمجهول في (الفلاة).

تتمحور النعوت كلها على اختلاف دلالاتها عند بؤرة رأسية عند المنعوت (فلاة) منتجة دلالة جامعة للهلاك وعدم النجاة بشتى الوسائل سواء بالخروج بنفسه أو دخول شخص مجهول لنجدة منها، وهو عند الكاتب بمثابة المصير المحتوم لكل خارج على الدولة.

• من المؤكد أن تعدد النعوت وتنوعها في التركيب الوصفي تمثل تكثيفاً للحركات التركيبية لوقوع تلك الحركات في النعت غير المفرد بين المسند إليه والمسند ومن ثم تكثيف للحركات المرتدة التي تتمحور في الغالب عند بؤر معينة تعتبر مركزاً للثقل الدلالي وتختلف تلك الحركات في الطول، فمن رجعة المسند على المسند إليه في النعت غير المفرد إلى حركة أطول تتمثل في رجعة كل النعوت بحركاتها المرتدة الداخلية إلى المنعوت، وهذا التكثيف للحركات المرتدة المختلفة كمّاً وكيفاً إنما يبقى المتلقى في حال تيقظ تام لاستيعاب الشحنات الدلالية في النص خلال عملية التلقي ففي قول عبد الحميد عن غضب السلطان "فإن لغضب السلطان سورة ثائرة لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه، من تعرض له أو دنا منه؛ دمره"^(٦٢٩).

نعت الكاتب (سورة) الغضب الواقعة في أسلوب مؤكد وموقع أفقي جعلها في بؤرة اهتمام المتلقي، بنعت مفرد ذي تأثير فاعل ودائم مستوحى من صيغة اسم الفاعل (ثائرة)، وجملة اسمية محققة الوقوع (لها متلهب شرر) مطلقة الزمن شملت حركة أفقية تمثلت في تأخير الخبر (متلهب شرر) لتخصيص المنعوت (سورة) بسمة فريدة قد لا تظهر إلا بغضب السلطان ونعت (الشرر) بجملة فعلية طويلة (يحرق وميضه ...) أكدت الفاعلية المحسوسة للشرر في التدمير. وقد وقعت في التركيب الوصفي عدّة مراكز للثقل الدلالي تمثلت في (وميضه، وشرر، وسورة)

(628) السابق، ص ٢٨٠.

(629) السابق، ص ٢٠٨.

تصب كلها في دلالة واحدة تتمحور عند (سورة) التي ترتد كل النعوت بحركاتها التركيبية بمراكز ثقلها إليها لترسم صورة مرئية للغضب وتضفي دلالة القوة المطلقة المعجزة للتصدي له.

ويرتد التركيب الوصفي بدوره إلى الخلف في حركة رأسية أخرى تتمركز عند الأداة (إن) ذات البعد التأكيدي والقدرة على جذب اسمها وخبرها إليها. وفي قوله في الحنين للوطن "نسأل الذي يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الأديان والأبدان"^(٦٣٠).

نعت الكاتب (ألفه) النكرة ذات البعد الغامض الذي يهبها سموًا وعلوًا يعكس حال الوحدة الموحشة التي سيطرت على عبد الحميد، بنعت مفرد (جامعة) ذي فاعلية دائمة مستوحاة من صيغة اسم الفاعل أتبعث بشبه جملة (في دار) ذات بعد مكاني عام، نعت فيها المجرور (دار) بنعت مفرد (آمنة) ذي فاعلية دائمة مستوحاة من صيغة اسم الفاعل، ونعت جملة فعلية طويلة (تجمع سلامة الأديان والأبدان) يوحي فعلها بالتجدد والاستمرار، وبدلالة معجمية قادرة على المزج بين الأشياء، وتؤكد النعت الأول (جامعة) بتكرار المادة اللغوية للجمع ويعكس هذا التأكيد حال الوحدة الموحشة التي وقع فيها عبد الحميد أيضًا.

تعددت الحركات الرأسية الناتجة عن التركيب الوصفي مستوعبة لحركات أخرى داخلية تمثلت في الجملة الفعلية (تجمع سلامة)، وتعلق شبه الجملة (في دار) بالنعت (جامعة)، وتحددت في حركتين رأسيّتين، الأولى بعودة النعوت (آمنة، تجمع) على المنعوت (دار) فجعلت منه مركزًا للثقل الدلالي يعكس حنين عبد الحميد لوطن آمن يطمئن فيه على نفسه ودينه، والثانية بعودة النعت (جامعة) على المنعوت (ألفه) مع ما تعلق بالنعت من الحركة الرأسية الأولى، جعلت من (ألفه) مركزًا آخر للثقل الدلالي يعكس حنين عبد الحميد لألفه الأهل والأصحاب، وكأن طلب الكاتب يتمحور في دار وألفه.

ونتجت عن الحركات التركيبية دلالة عامة تعكس عمق الحزن الذي أصاب عبد الحميد لبعده عن الأهل والوطن خلال هروبه مع مروان، وتوضح للمتلقى أخطر اللحظات التي عاشها الكاتب في حياته، ومن شأن تكثيف الحركات التركيبية أن تجذب ذهن وقلب المتلقي ليعيش مع الكاتب لحظاته الوجدانية الحرجة متجاوزًا الفواصل الزمنية والمكانية.

• إن تعدد النعوت على اختلاف أنواعها يعد وسيلة من وسائل تماسك أجزاء النص وترباط مفرداته لكثرة الروابط النحوية بين المفردات في تركيب جامع وشامل يمثل التركيب الوصفي، وهذا التماسك ينعكس على الدلالة فيضفي عليها إحكامًا يؤثر في درجة تجاوب المتلقي مع النص:

ففي قول الكاتب موجهًا ولي العهد إلى اتخاذ أعلى درجات الأمان "تلتجئ إلى أمر متين، وظهر قوي، ورأي حازم تأمن به فجأت عدوك، وغرّات بغتاتهم، وطوارق أحداثهم"^(٦٣١).

(630) السابق، ص ٢٧٩.

جاء الشاهد في ختام تلقين الكاتب للمتلقى عدّة وسائل عملية لتحقيق الأمان من حفر الخنادق وإقامة الحصون وغير ذلك. ولأهمية تأمين المتلقى عند الكاتب فقد أثر التركيب الوصفي التماسك بكثرة الروابط الداخلية المتخللة لنعوته المختلفة النوع، فنعت (رأي) بنعت مفرد (حازم) ذي القدرة الفاعلة ودلالته المعجمية على القوة، ونعت جملة فعلية (تأمن به فجأت ...) ذي الاستمرار والديمومة، وقد شملت عدّة روابط نحوية تمثلت في ارتباط المفعول به (فجأت) بزواج من المضاف إليه (عدوك)، وارتباطه بعامله المستتر الفاعل (تأمن) وارتباط شبه الجملة (به) ذات الضمير العائد على المنعوت (رأي) بعامله (تأمن)، وارتبط الفعل العامل بمعمولاته كلها مع النعت (حازم) بالمنعوت (رأي)، علاوة على ارتباط المفعول به (فجأت) بالمعطوفات بعده.

وكثرة هذه الروابط النحوية في التركيب الوصفي تحقق للنص تماسكاً وتربطاً يحكم الدلالة فتكون بمثابة المقنع لولي العهد بالأخذ بنصائح الكاتب. إن هذا التماسك قد يوحي بضرورة تماسك وتربط وسائل الأمان من خنادق وحصون حتى تؤتي الغرض الذي أنشئت من أجله وهو تحقيق أعلى درجات الأمان من هجمات الأعداء.

وفي قوله عن الجواري "غالبية عليك أو ذاهبة بك من عالج إماء غير مأمولات ولا مأمونات، قد ولدتهن أمهات غير منجبات ولا مسلمات"⁽⁶³¹⁾. يوجه الكاتب ولي العهد إلى عدم اتخاذ الجواري خليات دون ابنة عمه (عائشة) لعدم الجدوى من الاعتماد عليهن، فكان الكاتب في حاجة ملحة إلى فضح صفاتهن الذميمة في تركيب وصفي متماسك يقطع المتلقي بفضل عائشة وحدها عليهن جميعاً، لذا نعت (إماء) بـ (غير) التي تضفي سلبية على ما أضيف إليها (مأمولات) عمق تلك السلبية بمعطوف منفي (ولا مأمونات) وارتبط النعت نحويًا بمضاف إليه ارتبط بدوره بمعطوف فأضفت الروابط تماسكاً يعمق من سلبية الإماء، ثم يليه نعت جملة فعلية مؤكدة الحدوث (قد ولدتهن ...) ذات طول نسبي ارتبطت مفرداتها نحويًا بالعامل (ولدت) من مفعول به (هن) عائد على الإماء، وفاعل (أمهات) ارتبط أيضاً بزواج من المضاف إليه (غير منجبات) تضفي سلبية أخرى على الإماء تتأكد بمعطوف منفي (ولا مسلمات) فأضفت تماسكاً يؤكد سلبية الإماء.

ويرجع النعتان، المفرد بمتعلقاته (غير مأمولات ولا مأمونات)، والجملة بمتعلقاتها (قد ولدتهن أمهات غير منجبات ولا مسلمات) إلى المنعوت (إماء) في رابطة أكبر تخللتها روابط داخلية كثيرة جعلت من التركيب الوصفي المتنوع النعوت تركيباً جامعاً وشاملاً يميزه التماسك والترابط الذي ينسحب على الدلالة بإحكام يزيد من اقتناع المتلقي بلصوق النعوت بمنعوتها ومن ثم الاقتناع بسلبية

(631) السابق، ص ٢٤٩.

(632) السابق، ص ١٩٣.

الاعتماد على الإماء كبديلات لزوجهن (عائشة) لسلبية صفاتهن وفاعليتهن المطلقة في السلبية.

• مما لا شك فيه أن تعدد النعوت المتنوعة في التركيب الوصفي يعتبر وسيلة يستخدمها الكاتب في الاسترسال وامتداد الكلمات والتراكيب عبر النص إلى الأمام امتداداً يمكنه من تفصيل الدلالة، كتفصيل صفات ولي العسكر في قوله "ثم انتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبه الذكر له في العدو وقعات معروفات وأيام طوال، وصولات متقدّمات، قد عرفت نكايته، وحذرت شوكتة، وهيب صوته، وتكّبت لقاءه، أمين السريرة، ناصح الجيب، قد بلوت منه ما يسكتك إلى ناحيته" (٦٣٣).

شملت العبارة تسعة نعوت متتابعة لمنعوت واحد (رجلاً) محققة للتركيب الوصفي طويلاً كمياً كبيراً، وتنوّعت النعوت بين المفردة المضافة (بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبه الذكر، أمين السريرة، ناصح الجيب)، والنعوت الجملة الاسمية ذات الطول والحركات الأفقية والرأسية (له في العدو وقعات معروفات وأيام ...). وتخللها ثلاثة تراكيب وصفية عطف بالواو، والنعوت بجمليتين فعليتين الأولى (قد عرفت نكايته) ذات الطول الناتج عن كثرة معطوفاتها وكل الأفعال بُنيت للمجهول لتعظيم المنعوت، والثانية (قد بلوت منه ...) ذات الطول النسبي أيضاً وكثرة متعلقاتها.

وبهذا الامتداد عبر الفواصل تمكّن الكاتب من تفصيل صفات والي العسكر تفصيلاً شاملاً متمحّصاً يزيل للمتلقى أي حجة في التقصير في اختيار والي العسكر ويلوح لنا ملمح من الملامح الأسلوبية لعبد الحميد ليس فقط في تعدد النعوت المتنوعة في التركيب الوصفي فحسب، بل في تنويع تتابعها أيضاً، فبدأ بأربعة نعوت مفردة مضافة تلاها نعت جملة اسمية، ثم نعت جملة فعلية، ثم عودة للنعوت المفردة المضافة بنعتين متتابعين، ثم عودة للنعت الجملة يختتم بها التركيب الوصفي بنعت جملة فعلية، تمثلت عددياً كالتالي (٤ - ٢ - ٢ - ١) أي عودة النعوت المفردة بنصف العدد الأول (٤ - ٢)، وعودة النعت الجملة بنصف العدد الأول أيضاً (٢ - ١)، علاوة على احتلال النعت الجملة نصف عدد النعوت المفردة (٣ - ٦)، وهذه الأعداد ربما تشير إلى الخضوع لنظام محسوب معدّ من أجل تتابع المفردات، قد يعدّه الكاتب مسبقاً ويظهر ذلك من نصائحه للكتاب في الأعداد المسبق للقوالب ثم وضعها في مواضع مناسبة من رسائل أخرى في قوله "فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي في منطقته، وليقصد في كلامه، وليوجز في ابتدائه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لعقله، ومجّمة لذهنه، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره، وإن لم يكن الإكثار عادةً، ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس" (٦٣٤).

(633) السابق، ص ٢٤٨.

(634) السابق، ص ٢٨٧.

وفي تفصيل صفات قائد الدراجة يقول عبد الحميد "ولّ دراجة عسكري وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجالاً من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروف النجدة، ذا سن وتجربة، لين الطاعة، قديم النصيحة، مأمون السريرة، له بصيرة بالحق نافذة تقدّمه، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه"^(٦٣٥).

شملت العبارة ثمانية نعوت لمنعوت واحد (رجلاً) محققة للتركيب الوصفي طولاً كمياً ملحوظاً، وتنوعت هذه النعوت بين شبه الجملة (من أهل ...)، والمفردة المضافة (محمود الخبرة، معروف النجدة، ذا سن، لين الطاعة، قديم النصيحة، مأمون السريرة)، والجملة الاسمية (له بصيرة...) تخللها نعتان متنوعان، نعت مفرد (نافذة)، ونعت جملة فعلية (تقدّمه)، وعطف على جملة النعت جملة مشابهة لها في التركيب من منعوت (نية) ونعت مفرد (صادقة) ونعت جملة فعلية (تحجزه)، والفصل بين النعوت المتنوعة في الجملتين المتعاطفتين بشبه جملة (بالحق، عن الإدهان).

وهذا الامتداد في التركيب الوصفي نابع من تعدد النعوت من اختلاف أنواعها، وقد ساعد الكاتب في تفصيل صفات قائد الدراجة تفصيلاً يسهّل على المتلقي اختيار هذا القائد. وقد نوّع الكاتب في طريقة تتابع النعوت، فبدأ بنعت شبه جملة تلاه بستة نعوت مفردة مضافة ثم ختم بنعت جملة اسمية تلتها جملة معطوفة تشابهت تركيبياً مع جملة المعطوف عليه الواقعة نعتاً، ومثلت كل جملة تركيبياً وصفيّاً آخر تعددت نعوته المتنوعة بين المفرد والجملة الفعلية.

وهذا التنوع في الكم والكيف من شأنه إبعاد الملل عن المتلقي خلال عملية تلقي النص.

(635) السابق، ص ٢٥٠.

الفصل الثاني العدول التركيبي

● من ظواهر العدول التركيبي

– التقديم والتأخير

إن العدول التركيبي شغل النحاة والبلاغيين على حد سواء، وقد تناولته القدماء والمحدثون لما له من أهمية فمثل "محورًا من محاور الخلق اللغوي يعمل بشكل أساسي على تحطيم الإطار الثابت للأسلوب، ولقوانين اللغة وقواعد الكلام" (١٣٦).

وقد أولى القدماء والمحدثون التقديم والتأخير اهتمامًا كبيرًا باعتباره محدثًا للحركة الأفقية للتركيب ويعتبره النحاة انتهاكًا للرتب النحوية المحفوظة، وقد فطن بعض القدماء إلى الأثر الدلالي لانتهاك الرتب النحوية ومنهم سيبويه خلال تناوله لباب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعوله فيقول "فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدمًا وهو عربي جيد كثير كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى وإن كانا جميعًا يهملانهم ويعنيانهم" (١٣٧).

أما القدماء من البلاغيين والنقاد فنجد عبد القاهر لا يحفل بانتهاك الرتب النحوية، بل إن كل ما يهمله هو حال الكلمات مع بعضها البعض وطريقة نظمها "أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" (١٣٨).

أما ابن الأثير فقد فطن بجانب الأثر الدلالي للتقديم والتأخير إلى الأثر الموسيقي له عند تناول فاتحة الكتاب وتقديم (إياك) على (نعبد، ونستعين) فيوضح أن "ذاك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن" (١٣٩).

ويخضع التقديم والتأخير لمقاصد المبدع إذ يمثل التحريك الأفقي للكلمات تحريكًا للمعنى أو توجيهًا للدلالة إلى منحى بعينه "والمعنى بدلالة النص عليه أن يخضع التقديم والتأخير لدراسته، فلا شك أن ثمة ارتباطًا وثيقًا بين التقديم والتأخير من ناحية، والمعنى من ناحية أخرى، ويتجلى هذا الارتباط الوثيق في رحاب جماليات التلقي" (١٤٠).

وقد رصدنا التقديم والتأخير في الجملة الفعلية ثم الجملة الاسمية ثم التركيب الوصفي فالشرط

١ - في نطاق الجملة الفعلية

* تقديم شبه الجملة على مفردات الجملة الفعلية:

(636) جدلية الأفراد والتركيب، ص ١٦٠.

(637) الكتاب، سيبويه، ص ٣٠ ضمن CD مكتبة المعارف الإسلامية الإصدار الأول.

(638) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٨٢ ضمن CD الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث.

(639) المثل السائر، ج ٢، ص ٣٦.

(640) في النص الشعري، ص ١٠١.

لتقديم شبه الجملة - سواء أكانت ظرفاً أو جاراً مجروراً - عدة مظاهر تتمثل في نوع الظرف مع ما أضيف إليه، أو في نوع الاسم المجرور الذي يتنوع في نثر عبد الحميد بين الضمير والاسم الظاهر. وقد لاحظنا انتشار الضمير الواقع اسماً مجروراً بحرف أو مضاف للظرف مشكلاً ظاهرة أسلوبية لها دلالاتها المختلفة.

فوقوع شبه الجملة كفاصل متقدم على مفردات الجملة الفعلية أو أحدها على هيئة (حرف جر + ضمير) أو (ظرف + ضمير) يعد وسيلة من وسائل تقوية الروابط بين المفردات لعودة الضمير على متقدم، وتضفي تماسكاً على النص ينعكس بالطبع على الدلالة فيميزها بالإحكام، إلى جانب إفادة بعض الدلالات من اهتمام بصاحب الضمير واحتلاله لعناصر أكثر في السياق، فيوظف السياق له، علاوة على الإشارة إلى بعد مكاني أو زمني، أو قصر الدلالة على صاحب الضمير ودوران الدلالة في فلكه.

وقد يفوت الكاتب الاسم المجرور الظاهر فيورد الضمير العائد على متقدم مضافاً إليه وهو إثبات على هذه الظاهرة.

وأول ما يصادفنا من أمثلة لتقديم شبه الجملة على مفردات الجملة الفعلية قوله في عتاب أحد الولاة "فأوصل إلى أمير المؤمنين علم حالك في هذا الأمر الذي امتعض منه أمير المؤمنين، وأنكره لك ومنك، فإن الحال التي يعاتبك عليها أمير المؤمنين حال يخاف أن يكون ذلك منك عاملاً لغيره من نظراء شباب قريش فتعظم به المصيبة في طول الغفلة منك" (٦٤١).

شملت العبارة عدة مظاهر من تقديم شبه الجملة قدمت (إلى أمير المؤمنين) على المفعول به (علم) و(منه) على الفاعل (أمير المؤمنين)، (عليها) على الفاعل (أمير المؤمنين)، (به) على الفاعل (المصيبة) وتميزت أشباه الجمل الثلاث الأخيرة (منه، عليها، به) بتكون شبه الجملة من (حرف جر + ضمير) يعود الضمير الأول في (منه) على متقدم (الأمر)، والثاني في (عليها) على متقدم (الحال)، والثالث في (به) على متقدم (ذلك) العائد بدوره على (الأمر) وهو ما قصدناه من اعتبار ذلك وسيلة لتماسك النص لعودة الضمائر على متقدم، بجانب وقوع (الأمر) المعبر عن استقباله السيئ لأحد أقارب الخليفة، في دائرة اهتمام المتلقي فهو ما تسبب في عتاب الخليفة للوالي وانصبت عليه الرسالة وخير دليل على ذلك تقديم شبه الجملة (إلى أمير المؤمنين) على المفعول به (علم) الذي وهب المجرور أهمية توجب تقديمه، ولكن أمر الاستهانة على ما يبدو من الأهمية بحيث قدم على أمير المؤمنين في جملتين بعدها.

وفي سياق الحديث عن طغيان الفرات يقول عبد الحميد "وقد أصبح أمير المؤمنين مرتاعاً وجلاً لما أصبح بأهل حجرات الفرات من الإشفاء على الغرق، على الذي أحدثت بهم أوديته المخوفة، وتزايد عليهم هو له الرابع" (٦٤٢).

(641) عبد الحميد بن يحيى الكاتب ... ص ١٩١.

(642) السابق، ص ١٩٧.

قدمت شبه الجملة (بهم) على الفاعل (أوديته) و(عليهم) على الفاعل (هوله)، ويعود الضميران على متقدم (أهل حجرات الفرات) فأضفى التقديم تماسكاً على النص ووضع أهل الفرات في دائرة الاهتمام لتأكيد ارتياع الخليفة ووجهه عليهم لما ألمّ بهم من دمار وخراب.

• وبجانب التماسك الذي يحققه تقديم الضمير الواقع بعد حرف الجر لعودته على متقدم، قد يضع تقديم شبه الجملة صاحب الضمير في دائرة اهتمام المتلقي ويوظف السياق كله من أجله خاصة عندما يصادفنا فيه أكثر من شبه جملة مقدمة مع عودة الضمير فيها على شخص واحد، فعن حال الراحة في الوطن يصف عبد الحميد حال المخاطب في قوله "قد أظلك السرور، وحالفك الأمل، وطاب لك المقام، وأمنت ترقيع الرحل، متصبّحاً بأحبابك، يتعطف عليك روح الرخاء" (٦٤٣).

ويقول أيضاً "إن صح بدنك طاب لك رغد عيشك بمعينة الزوج السار لك قريبها، والولد المضموم إليك شخصه، وإن عرض لك عارض من سقم تكنفك الكفاة، وأحرق بك الحفدة" (٦٤٤).

تقدمت شبه الجملة المكونة من (حرف جر + ك) على الفاعل (المقام، روح، رغد، قريبها، شخصه، عارض، الحفدة)، وهذا الضمير يعود على المخاطب الذي احتل به السياق وكان منصّباً عليه، مما وضع المخاطب (المتلقي) في دائرة الاهتمام جعل كل شيء مسيراً له في الوطن دون تعب البحث عن الراحة، ومثل تكرار الفصل بشبه الجملة التي يعود فيها الضمير على المتلقي تعداداً لما يتنعم به في وطنه مما حرم منه عبد الحميد في غربته.

• وعندما يكون الضمير المتقدم ضمن شبه الجملة عائداً على المتلقي يكشف لنا اهتمام الكاتب بمتلقيه ووضعه في دائرة الاهتمام، الأمر الذي يظهر تأدّباً واحتراماً من الكاتب لمتلقيه خاصة عندما يتضمن الخطاب نصائح في ثوب الأمر غاية الكاتب أن يعمل بها المتلقي لمنفعته أو لمنفعة العامة يقول عبد الحميد موجّهاً خطابه لولي العهد "فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزّة، ويقدمك في الفضل ويبقى لك لسان صدق في العاقبة ويحرز لك ثواب الآخرة، ويردّ عليك عواطفهم المستنفرة" (٦٤٥). وقوله أيضاً "فإن ذلك مما يقبح ذكره، ويسوء موقع القول فيه، وتحمّل عليك معاييه، وينالك شينه، وينتشر عنك سوء نبيه" (٦٤٦).

تقدمت أشباه الجمل (لك، لك، عليك، عليك، عنك) على المفعول به (لسان، ثواب، عواطفهم) وعلى نائب الفاعل (معاييه)، والفاعل (سوء)، وفي تكرار ضمير

(643) السابق، ص ٢٠٤.

(644) السابق، ص ٢٠٣.

(645) السابق، ص ٢٣٣.

(646) السابق، ص ٢٣٣.

ولي العهد اهتمام من الكاتب يظهر احترامه لمحدثه، فإظهار الاحترام للمتلقى من أقوى الوسائل المؤثرة في درجة تجاوب المتلقى مع نصائح الكاتب و توجيهاته. وعندما يعود الضمير المتقدم ضمن شبه الجملة على غائب يلفت به انتباه المتلقى إلى ضرورة الاهتمام بصاحب الضمير، فعن المقعد من الكتاب يقول عبد الحميد "وإن نبا الزمان برجل منكم؛ فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره" (٦٤٧).

قدمت شبه الجملة (إليه) على الفاعل (حاله، أمره) ليبقى بذلك صاحب الضمير (المقعد من الكتاب) في دائرة اهتمام المتلقى من عطف عليه ومواساة وغير ذلك من الرعاية، وربما كان هذا الاهتمام دافعاً لاحترام المقعد من الكتاب بطريقة فعلية يدعو بها الكتاب إلى تنفيذ المطلوب منهم من زيارة المقعدين منهم ورعايتهم.

• وقد يحرك الكاتب شبه الجملة أفقياً ليحتل المتأخر من مفردات الجملة الفعلية مكاناً متأخراً يساهم من خلاله في موسيقى الفواصل للتأثير على أذن المتلقى وتكون آخر ما يبقى في ذهنه من الفاصلة، علاوة على ارتباط الفواصل ببعضها البعض، يقول عبد الحميد "وأنا أقول في آخر كتابي ما سبق به المثل، من يلزم النصيحة يلزمه العمل" (٦٤٨).

قدمت شبه الجملة (به) على الفاعل (المثل) لتكون آخر ما يقع من الفاصلة في أذن المتلقى محدثة أثراً موسيقياً مع كلمة (العمل) ليكون العمل هو آخر ما يبقى في أذان المتلقين وأذهانهم فيكون مفتاح الرسالة وأساسها فالعمل هو المطلوب من الكتاب حتى يكونوا على قدر منزلتهم التي وضعهم فيها عبد الحميد. وقد يهدف من احتلال المتأخر آخر الفاصلة وضعه في دائرة اهتمام المتلقى دون إحداث أثر موسيقي في قوله عن إنزال العقوبة بالمتخلفين عن العسكر من الجند "شاداً لهم أسراً، وموقرهم حديداً" (٦٤٩).

قدم الكاتب شبه الجملة (لهم) على المفعول به (أسراً) لتحل آخر الفاصلة لتناظر في موقعها كلمة (حديداً) التي تقع معها في علاقة التواؤم الدلالي التي تزيد من تأكيد إنزال العقوبة على من فرّ من الجنود من معسكر الحرب.

• أو يكون تقديمها لاتصال الكلمات مع بعضها فتحقق للكاتب استرسالاً أو تكراراً للمفردات النحوية كتعداد الصفات في قوله "ومره قليول عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جريء الإقدام ذاك الصرامة..." (٦٥٠).

قدمت شبه الجملة (عليهم) على المفعول به المنعوت (رجلاً) الذي تعددت بعده النعوت لتأكيد احتواء قائد الجند على هذه الصفات من ناحية، ومن ناحية أخرى مكن تأخير المفعول الكاتب من الاسترسال في صفات قائد الجند بشيء من

(647) السابق، ص ٢٨٣.

(648) السابق، ص ٢٨٨.

(649) السابق، ص ٢٥٣.

(650) السابق، ص ٢٤٤.

التفصيل الذي يزيد دلالة وجوب تحري وجود تلك الصفات مجتمعة في قائد الجند. أو تعداد المعطوفات في قوله "فازدد منه تزدد به وحافظ عليه تحفظ به، وارغب فيه، يهد إليك مزيد الخير، ونفائس المواهب، وبقاء النعم..."^(٦٥١).

قدمت شبه الجملة (إليك) على المفعول به (مزيد الخير) الذي تعددت بعده المعطوفات لتفصيل فوائد ذكر الله ليكون هذا التفصيل عاكساً لوضوح دلالة النص من التمسك بذكر الله وضمان المتلقي لفوائد هذا التمسك.

• ومن اللافت للنظر أن الكاتب عندما يحرك شبه الجملة أفقياً إلى الأمام وتكون (حرف جر + اسم مجرور) يورد الضمير كمضاف إليه للاسم المجرور حتى يعود على متقدم يحقق به تماسك النص الذي ينعكس على إحكام الدلالة، وبجانب التماسك يضع بالتقديم الاسم المجرور وصاحب الضمير في دائرة اهتمام المتلقي، يقول عبد الحميد ناصحاً ولي العهد "... فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة"^(٦٥٢).

قدمت شبه الجملة (إلى مشافهتك) على الفاعل (ساع)، فوضع المشافهة في دائرة الاهتمام، فالمشافهة مظهر عملي لمشاركة ولي العهد للوفد عليه فيتطلب منه ذلك القرب معرفة الوافد ومصدره وكل التفاصيل عنه حتى يأمن على نفسه أولاً، ثم ضمان الرد عليه رداً صحيحاً لا تسرع فيه.

وعن الخلافة يقول الكاتب "يقوم بحقها ناهض بعد ناهض"^(٦٥٣).

قدم الكاتب شبه الجملة ومعها الضمير المضاف (بحقها) على الفاعل (ناهض)، فعودة الضمير على متقدم في السياق يجعل السياق منصفاً على الخلافة وليس الخلفاء، ويضع تحريك شبه الجملة (بحق الخلافة) في اهتمام المتلقي فلم يجور الخلفاء على أحد، بل حكموا الناس بحق وعدل.

• وعندما يقدم الكاتب شبه الجملة على شكل (حرف جر + اسم مجرور ظاهر) على مفردات الجملة الفعلية يوظف هذا التقديم لإلقاء بعض الضوء على المتقدم، أو لوضع المتأخر في مكان يسلط عليه فيه الضوء. كإظهار الاحترام للخليفة بتقديم لقبه في قوله "وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالي أغناني عن استزادته"^(٦٥٤).

فالكاتب في حاجة ماسة إلى المال ومصدره الخليفة فوجب احترامه بالتقديم (إلى أمير المؤمنين) على الفاعل (علم) لينال الكاتب ما يريد من الخليفة، فالتقديم لإظهار الاحترام ربما يؤثر في درجة تجاوب الخليفة لطلب عبد الحميد وهو غاية ما يريده منه من ناحية ومن ناحية أخرى ربما يكون التقديم كتهيئة لما سيأتي بعده من مطالب.

(651) السابق، ص ٢٧٥.

(652) السابق، ص ٢٢٥.

(653) السابق، ص ٣٠١.

(654) السابق، ص ٢٧٦.

• وقد يقدم شبه الجملة ليضع المتأخر في أقرب نقطة لتناظر كلمة أخرى ترتبط معها بعلاقة دلالية، علاوة على العلاقة المكانية النابعة من التناظر لتنصب الدلالة الكلية عليهما، ففي قول عبد الحميد عن ضرورة تفاني الكاتب في خدمة صاحب العمل "وإن عرضت في العمل محمداً فليضفها إلى صاحبه وإن عرضت مذمة؛ فليحملها من دونه" (٦٥٥).

قدم الكاتب شبه الجملة (في العمل) ليحتل الفاعل (محمداً) آخر جملة فعل الشرط لينظر مكانيًا الفاعل (مذمة) في جملة فعل الشرط في الفاصلة الثانية، ويربط (محمداً، مذمة) رباط التقابل الدلالي، ويظهر لنا ضرورة التفاني من شمول نسبة الفضل لصاحب العمل والإساءة لنفسه، وبهذا التناظر المكاني الذي يظهر علاقة التقابل بين الفاعلين يؤكد عبد الحميد حمل الكاتب للإساءة دون صاحبه، ونسبة الفضل لصاحبه.

• وبتقديم شبه الجملة واحتلال المتأخر مكاناً مهماً مناظراً فيه لغيره، وبالجمع بين المتناظرات يكتشف المتلقي شعور الكاتب العميق تجاه قضية ما، أو بالأحرى نزعة وجدانية تطغى على النص.

كتب عبد الحميد في غربته وهو يعاني خطر العباسيين عن أحوال الدنيا "وتباعدت مثلما تقربت، وأعقبت بالراحة نصباً، وبالجدل همّاً، وبالأمن خوفاً، وبالعزّ ذلاً، وبالجدة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتاً" (٦٥٦).

قدم الكاتب شبه الجملة (بالراحة) على المفعول به (نصباً) واستدعى ذلك تقديم أشباه الجمل بعدها (بالجدل، بالأمن، بالعز، بالجدة، بالسراء، بالحياة) على (همّاً، خوفاً، ذلاً، حاجة، ضراء، موتاً) على الترتيب وإذا تأملنا المتأخرات التي احتلت أواخر الفواصل لتبقى في أذن وذهن المتلقي وتكون آخر ما يتلقاه من كل فاصلة وجدناها تشيع جواً من الحزن الذي يعكس اليأس من الدنيا ويجعلنا نشعر بمدى فعل الدنيا بعبد الحميد.

إن التقديم والتأخير في كل فاصلة يكشف لنا علاقة التقابل بين الكلمات التي توحى بميل الدنيا كل الميل بالكاتب، فبدلت كل ما كان مألوقاً معروفاً له من النعيم قبل هزيمته مع مروان إلى كل ما كان مجهولاً من الشقاء بعد الهزيمة والهروب، وهو ما نفهمه من التقابل في التعيين في كل فاصلة (بالراحة نصباً).

فانتقال عبد الحميد من النعيم إلى الشقاء، ومن الوطن إلى الغربة، ومن المعلوم إلى المجهول كان آخر عهد له بالدنيا نتيجة لوفائه لرب عمله وعدم التخلي عنه.

• إن دلالة الظرف على بعد زماني أو مكاني يغري الكاتب أن يقدمه على مفردات الجملة الفعلية ليضع دلالة الظرف في دائرة اهتمام المتلقي، يقول عبد الحميد

(655) السابق، ص ٢٨٤.

(656) السابق، ص ٢٧٩.

عن الحراسة "ثم مره أن يُخرج كلَّ ليلة قائداً من أصحابه، أو عدّة منهم إن كانوا كثيراً" (٦٥٧).

قدم الكاتب ظرف الزمان (كل ليلة) على المفعول به (قائداً) ليضع الزمن أمام المتلقي ليتحرى إخراج الحراس على دوام الليالي، فحراسة ولي العهد من الأهمية للمحافظة على سلامته ولهذا فإن أوقات تشديد الحراسة وجب التنبيه عليها بتقديم شبه الجملة على صاحب الحراسة نفسه.

• تقديم شبه الجملة على الفعل المتعلقة به:

وقد تميزت شبه الجملة في هذا النوع من التقديم بتكوينها من (حرف جر + ضمير عائد على متقدم)، وهو اهتمام مطلق بشبه الجملة يضع صاحب الضمير الواقع مجروراً بحرف في دائرة اهتمام المتلقي ليبرز به الدلالة أو يؤكد بها. إن عودة الضمير على متقدم يزيد النص تماسكاً وترابطاً ينسحب على الدلالة بالإحكام الذي يستغله عبد الحميد لتأكيد بعض الدلالات، كدلالة القصر في قوله عن طلب شراء جارية "وأن يكون ما صار إليه منهن برأيك اشترين وعن مشورتك قبلن" (٦٥٨).

قدم الكاتب شبه الجملة (برأيك) ذات الضمير العائد على المتلقي على (اشترين)، وشبه الجملة (عن مشورتك) ذات الضمير العائد أيضاً على المتلقي على (قبلن)، وهذا التقديم يقصر الشراء وقبول الجواري على رأي المتلقي و مشورته فقط دون غيره، وأكد الكاتب هذا المفهوم باستبدال الفعلين المستقبلين (سيشترين، سيقبلن) بالماضي ذي الدلالة على تحقق الحدث المتمثل في قبول الجواري اللاتي تم اختيارهن من قبل المتلقي لإبراز الثقة في اختياره، تلك الثقة التي توجه المتلقي إلى أن يكون عند حسن الظن فيحسن اختيار الجواري.

إن تقديم شبه الجملة المتضمنة لضمير عائد على المتلقي يظهر لنا مدى تأدب عبد الحميد مع المتلقي هذا التأدب الذي يعكس لنا جزءاً من السمات الأخلاقية لعبد الحميد.

وفي قوله عن أهمية فئة الكُتاب في الدولة "بكم ينتظم الملك، وتستقيم للملوك أمورهم، ويتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم، ويجتمع فيئهم، وتعمر بلادهم، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه" (٦٥٩).

قدم الكاتب شبه الجملة (بكم) على الجملة الفعلية (ينتظم الملك)، وشبه الجملة (يتدبيركم)، والمعطوف (سياستكم) على الجملة الفعلية (يصلح الله) ليقرر انتظام واستقامة أمور الملوك، وإصلاح السلطة على فئة الكُتاب دون غيرهم، فأهمية الكتاب جعلت عبد الحميد متأدباً في توجيه الخطاب إليهم، ومُقدماً لهم حتى على (الملك) بشبه الجملة (إليكم).

(657) السابق، ص ٢٥٠.

(658) السابق، ص ١٩٧.

(659) السابق، ص ٢٨١.

• ويقدم الكاتب شبه الجملة للتبرك بصاحب الضمير كالتبرك بلفظ الجلالة الذي يعكس نزعة الكاتب الإيمانية في قوله "والله المستعان عليهم ... عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله ولياً وناصرًا" (٦٦٠).

قدم شبه الجملة (عليه) ذات الضمير العائد على لفظ الجلالة على الجملة الفعلية (يتوكل أمير المؤمنين) وشبه الجملة (إليه) على الجملة الفعلية (يفوض أمره..). وهذا التقديم يقصد به الكاتب توكل الخليفة على الله وحده، وتفويض أمره لله وحده من ناحية ويعكس التبرك بلفظ الجلالة وما يعود عليه من ضمائر من ناحية أخرى.

وفي قوله "وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك وإليه يرغب" (٦٦١). قدم الكاتب شبه الجملة (بالله) على الجملة الفعلية (يستعين أمير المؤمنين..)، وشبه الجملة ذات الضمير العائد على لفظ الجلالة (إليه) على الجملة الفعلية (يرغب) ليقتصر بهذا التقديم الاستعانة على الله وحده، ويبرز تبرك الكاتب بذكر لفظ الجلالة أولاً ليكشف عن نزعة إيمانية محرقة للمفردات أفقياً.

• وقد ينم التقديم عن اهتمام بصاحب الضمير الواقع مجروراً ليلفت بالتقديم انتباه المتلقي إلى أهمية صاحب الضمير، يقول عبد الحميد "وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا ... " (٦٦٢).

ويقول أيضاً "وما الهدى والدين... إلا ذلهم وقهورهم وردهم إلى مواضعهم التي منها طلغوا، وبها كانوا أقاموا" (٦٦٣).

قدم الكاتب في الشاهد الأول شبه الجملة (عليه) على الجملة الفعلية (أقدموا) ليلفت انتباه المتلقي إلى أهمية الرأي أو الخطة التي يقدم عليها العدو. كإحياء بمحاولة العلم بخطط العدو حتى يكون مستعداً لإفسادها ودحر العدو.

وقدم في الثاني شبه الجملة (منها) على الجملة الفعلية (طلغوا)، و(بها) على الجملة الفعلية (كانوا أقاموا)، ويرجع الضميران على (مواضعهم)، ليلفت انتباه المتلقي إلى أهمية تلك المواضع التي خرجت منها الفتنة المسلحة إلى أنحاء الدولة، وترجع أهمية تلك المواضع إلى رد الخارجين إليها مدحورين للحفاظ على أنحاء الدولة ثم تركيز الحرب على تلك المواضع للقضاء على الخارجين نهائياً واستئصال شأفتهم.

• وقد يهدف الكاتب بتقديم شبه الجملة احتلال الجملة الفعلية آخر الفاصلة لتناظر مكانياً جملاً ترتبط معها بعلاقة دلالية، علاوة على تشكيلها لموسيقى الفواصل التي تمثل آخر ما يبقى في أذن المتلقي وذهنه من كل فاصلة فعن أهمية فئة الكتاب في الدولة يقول عبد الحميد "فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها

(660) السابق، ص ٢٣٥.

(661) السابق، ص ٢٧٤.

(662) السابق، ص ٢٤١.

(663) السابق، ص ٢٠٠.

يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون" (٦٦٤).

قدم الكاتب شبه الجملة (بها) على الجمل الفعلية (يسمعون، يبصرون، ينطقون، يبطشون) لتحل هذه الجمل آخر الفواصل مشكّلة جرساً موسيقياً نابغاً من التشابه في الصيغة الصرفية.

إن بقاء الجمل الفعلية في أذن المتلقي و ذهنه لجرسها الموسيقي يلتفت المتلقي إليها ويكشف عن اشتغالها لمنطقة الحواس من سمع وبصر ونطق و بطش باليد التي توحى بسيطرة فئة الكتاب على كل حواس الملوك والأمراء والولاة وهي ميزة تؤكد أهمية فئة الكتاب في الدولة الأموية.

• وقد يوظف الكاتب تقديم شبه الجملة على الجملة الفعلية المتعلقة بها ليؤكد علاقة منطقية تجمع شبه الجملة بجملتها الفعلية كتأكيد علاقة سببية بينهما في قوله "وبحسد إبليس خرج آدم من الجنة" (٦٦٥).

جاء الشاهد في سياق التهديد لبعض أفراد البيت الأموي للاختلاف على تولي الخلافة واستتبع ذلك حسدهم للخليفة، فأراد الكاتب أن يبين لهم عاقبة الحسد الذي قد ينزع الخلافة عن كل الأمويين عن طريق المثل القديم من خروج آدم من الجنة بسبب حسد إبليس له لما اختص به الله آدم.

فقدم شبه الجملة (بحسد) على الجملة الفعلية (خرج آدم من الجنة) وتربطهما علاقة سببية ليؤكد بتقديمها تلك العلاقة، علاوة على وضع الحسد في دائرة الاهتمام لخطر ما يحدثه من عواقب، لعل الحاسدين يرجعون عن موقفهم من الخليفة لأن أضرار الحسد ستعم كل الأمويين كما عمّ حسد إبليس لآدم كل البشر.

(664) السابق، ص ٢٨٢.

(665) السابق، ص ٣٠٠.

● تقديم المفعول به على الفاعل

إن تقديم المفعول به على الفاعل يمثل انتهاكاً للرتب النحوية في الجملة الفعلية أو عدولاً عن الرتب النحوية يعمد إليه الكاتب لخدمة النص، مع توظيف هذا العدول دلاليًا لإضفاء دلالة على المتقدم أو المتأخر كالتعظيم أو التحقير، وقد يلفت به الكاتب انتباه المتلقي إلى أهمية المفعول به أو تأكيد الدلالة عمومًا.

ويخدم التحريك الأفقي - في بعض مواضعه - للمفعول به والفاعل ما عُرف به الكاتب من استرسال بتقريب الفاعل المتأخر مما يليه من مفردات يتصل بها نحويًا. وتظهر دلالة التعظيم على المفعول به المتقدم في قوله "أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك فيما ذكرت" (٦٦٦).

قدم الكاتب المفعول به (أمير المؤمنين) على الفاعل (كتابك) ليحتل لقب الخليفة موقعًا متقدمًا يعظم به من شأن الخليفة.

وفي قوله معبراً عن الأدوات المطلوبة لتدعيم علاقة الإخاء بين الناس يقدم الكاتب المفعول به ليحتل الفاعل موقعًا متأخرًا يناظر فيه باقي تلك الأدوات "وتواصل عليه أهل المودات ما رعى أسبابه صدق التقوى، وبُنيت دعائمه على أساس البر، ثم أُنهد البناء حريز التواصل، وشيّدته مستعذب العشرة" (٦٦٧).

قدم الكاتب المفعول به (أسبابه) على الفاعل (صدق التقوى) والمفعول به (البناء) على الفاعل (حريز التواصل) ليحتلّ الفاعل آخر الفاصلة ويناظر في مكانه (صدق التقوى، أساس البر، حريز التواصل، مستعذب العشرة) لتمثل الأدوات المطلوبة لتدعيم الإخاء بين المتأخرين. ولتبقى آخر ما يتلقاه المتلقي مجموعة كأنها في بوتقة واحدة.

● وقد يلفت الكاتب انتباه المتلقي عن طريق التحريك الأفقي للمفعول به واحتلال موقع الفاعل المكاني كما في قوله عن مواصفات الأسلحة وأدوات القتال "صافية الصفائح، لم يدخلها وهن الطبع، ولا عابها أمت الصوغ، ولا شاتها خفة الوزن، ولا فطح حاملها بهور الثقل" (٦٦٨).

فغاية الكاتب من الأسلحة القوة والمتانة، ولكن مع خفة الوزن لأن كل ما يهتم به هو الجندي الحامل لها، ويلفت بتقديمه (حاملها) على الفاعل (بهور الثقل) انتباه المتلقي لتحري راحة حامل السلاح حتى يتفرغ لقتال العدو ولا ينشغل بثقل الأدوات.

وبجانب الاهتمام بحامل السلاح نجد أن الكاتب قد أّخر الفاعل ليتناظر مكانيًا مع (وهن الطبع، أمت الصوغ، خفة الوزن، بهور الثقل) ليضع الكاتب آخر كل فاصلة متناظرات يجمعها رابط واحد ألا وهو عيوب أدوات القتال لتبقى تلك العيوب آخر ما يصادف أذن المتلقي وذهنه ليتحرى الدقة في خلو أدوات القتال والأسلحة منها تمامًا.

(666) السابق، ص ٢٠٦.

(667) السابق، ص ٢٧٦.

(668) السابق، ص ٢٤٧.

وهو ما نجده أيضاً في قوله "أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها" (٦٦٩).

ليحافظ الكاتب على موقع الدنيا متناظراً في الفاصلتين قدم (الدنيا) الواقعة مفعولاً به على الفاعل (من) في الفاصلة الأولى، وبهذا التقديم تشابهت التراكيب في الفاصلتين من تكرار الفعل (أصاب، أصابت) ثم (الدنيا) ثم (من) وجملة الصلة (فعل + ضمير عائد على الدنيا) (حذر، أمن + ها)، وبهذا التشابه التركيبي يلائم سياق الحكمة التي وردت فيه الفاصلتان، فالحكمة تستوجب انتباه المتلقي ليستوعب دلالتها من ضرورة الحذر من الدنيا.

وقد يقدم الكاتب المفعول به ليؤكد الدلالة، كتأكيد كثرة الصيد في قوله "وصُفر بنفِيرِ الحُتْف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها" (٦٧٠).

قدم المفعول به (الأفق) على الفاعل (كثرتها) ليؤكد كثرة الطيور التي رام عبد الحميد صيدها، وقدم المفعول به (الجوارح) على الفاعل (خفقات أجنحتها) ليؤكد نشاط الجوارح في طلب الطيور.

● تقديم المفعول به على عامله

وجاء هذا النوع من التقديم في سياق واحد وبلغظ واحد هو سياق الدعاء واختص المتقدم بكونه لفظ الجلالة ليضفي تبركاً بتقديم لفظ الجلالة، ويعكس هذا التبرك نزعة الكاتب الإيمانية المحركة للمفردات أفقياً كما في قوله "والله يسأل أمير المؤمنين أن يعدل بك إلى مرشد الأمور" (٦٧١).

وقوله في الدعاء لولي العهد "والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأله..." (٦٧٢).

وقوله "والله يستودع أمير المؤمنين نفسك..." (٦٧٣).

وقوله أيضاً "والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد" (٦٧٤).

وفي الشواهد السابقة قدم الكاتب لفظ الجلالة (الله) الواقع مفعولاً به على الفعل والفاعل (يسأل أمير المؤمنين، يستخلف عليك أمير المؤمنين، يستودع أمير المؤمنين، يسأل لك أمير المؤمنين) ليضع لفظ الجلالة أول الدعاء ليتبرك به.

ب. التقديم والتأخير في الجملة الاسمية

● تقديم شبه الجملة على مفردات الجملة الاسمية:

(669) السابق، ص ٢٩١.

(670) السابق، ص ٢٧٠.

(671) السابق، ص ١٩٢.

(672) السابق، ص ٢١٧.

(673) السابق، ص ٢٥١.

(674) السابق، ص ٢٣٤.

إن وقوع شبه الجملة كفاصل متقدم على أحد مكونات الجملة الاسمية يتشابه في توظيفه الدلالي مع تلك المتقدمة على مفردات الجملة الفعلية.

فهية شبه الجملة (حرف جر + ضمير) أو (ظرف + ضمير) يعد وسيلة من وسائل تقوية الروابط بين المفردات لعودة الضمير على متقدم، وتحقيق للنص تماسكاً ينسحب بالطبع على الدلالة فيميزها بالإحكام. يقول عبد الحميد عن صفات أدوات القتال التي يجب على المتلقي تجهيزها "... دقاق الأطراف، ليس فيها التواء أود، ولا أمت وصم، ولا بها مسقط عيب، ولا عنها وقوع أمنية" (٦٧٥).

قدمت شبه الجملة الواقعة خبراً لليس (فيها) على اسم ليس (التواء)، وشبه الجملة الواقعة خبراً (بها) على المبتدأ (مسقط)، وشبه الجملة الواقعة خبراً (عنها) على المبتدأ (وقوع)، ويرجع الضمير في أشباه الجمل المتقدمة على الأسلحة مما جعلها تحتل مساحات أكبر من السياق، فضلاً عن التماسك الذي انعكس من رجوع الضمائر على متقدم ليوحي بتماسك أسلحة القتال.

وفي قوله لطمأة المتلقي وإظهار المساندة له في محاولة الكاتب للتشفع له عند الخليفة في خطأ ارتكبه "فأرخ حبال الثقة طارحاً لها، ومدّ من أملك فينا، فإن العناية لنا بأمرك مقلقة، والزيادة لاحقة، والبر بك واصل إليك" (٦٧٦).

قدم الكاتب شبه الجملة (بأمرك، لنا) على خبر إن (مقلقة)، وشبه الجملة (بك) على الخبر (واصل)، وترجع الضمائر كالاتي: يرجع ضمير على الكاتب، وضميران على المتلقي ليحتل مساحة من السياق، يظهر به الكاتب اهتمامه بأمره بالمساندة في التشفع لدى الخليفة تجاه أمر يخص المتلقي، وربما يوحي هذا التكثيف لضمائر المتلقي أنه في بال الكاتب دائماً، أو بمعنى آخر عبّر به الكاتب عن انشغاله بحل قضيته.

وبجانب التماسك واحتلال المتقدم مساحة أكبر من السياق يضع الكاتب بتقديم شبه الجملة صاحب الضمير في دائرة اهتمام المتلقي، فعن ولاية العهد يقول عبد الحميد "فإنه ليس وراء ولاية عهد المسلمين منزلة يرجوها طامع ... وأنت منها بمراى ومسمع" (٦٧٧).

قدم الكاتب شبه الجملة (منها) ذات الضمير العائد على ولاية عهد الخلافة على الخبر شبه الجملة (بمراى)، ليضع ولاية العهد في دائرة الاهتمام ويذكر المتلقي بأهمية ما وصل إليه من منصب حتى يكون على قدر من المسؤولية وقد أفاد تأخير الخبر اتصاله بالمعطوف دون عائق لتظهر العلاقة الجامعة بين المعطوف عليه (الخبر) والمعطوف (مسمع) بالاندراج تحت أهم الحواس ليؤكد لولي العهد معرفته بالطامعين في ولاية العهد بكل حواسه لأن هذا الطمع ظاهر للجميع فيعمل على صيانة منصبه من الطامعين فيه.

(675) السابق، ص ٢٤٧.

(676) السابق، ص ٢٠٨.

(677) السابق، ص ١٩٣.

وعن الصفات المعيبة التي يجب أن يتخلى عنها المتلقي يقول عبد الحميد "وخصال من معائب الملوك، والسوقة عنها غيبة النظر إلا من عرفها من أهل الأدب" (١٧٨).

قدم الكاتب شبه الجملة (عنها) ذات الضمير العائد على (خصال الملوك المعيبة) على الخبر (غبية النظر) ليضع الخصال المعيبة في دائرة اهتمام المتلقي ليتخلى عنها ويحسن له الذكر عند العامة بهذا التخلي.

وفي نصائحه لولي العهد يقول عبد الحميد ناصحاً له من الاحتراز من أهواء النفس "واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك" (١٧٩).

قدمت شبه الجملة (لك) ذات الضمير العائد على المتلقي على خبر إن (عدو) ليظهر لنا اهتمامه بالمتلقي ومدى ما يشعر به من مسئولية في تلقينه ما يفعله وما لا يفعله لأنه يحرص على سلامته، وعلى صنع شعبية له تؤهله لمنصب الخلافة.

ومن جانب آخر فإن تضمن المتقدم على ضمير عائد على المتلقي يكشف عن تأدب عبد الحميد واحترامه لمتلقيه حتى تؤتي النصائح ثمارها ويستقبلها المتلقي بطيب نفس دون الشعور بأنها أوامر موجهة من عبد الحميد قد تقلل من شأن المتلقي أمام عبد الحميد.

• وقد يعمد الكاتب إلى تقديم شبه الجملة لقصر الدلالة على صاحب الضمير المتقدم ليغذي بهذا القصر مقاصد الكاتب، كارتفاع نبرة التهديد في قوله على لسان الخليفة معاتباً ولي العهد فيما شكته زوجته "... بخمول الهمة وضعة المنزلة لدى الجميع الذين هم لك أهل لوم على التقصير بعائشة ابنة هشام" (١٨٠).

قدم الكاتب شبه الجملة (لك) ذات الضمير العائد على المتلقي (ولي العهد) على الخبر (أهل لوم) ليقتصر لوم الناس على ولي العهد وحده مما يدفع التهديد بزيادة اللوم أو الدخول في مراحل العقاب إذا استمر في إغضاب زوجته (عائشة) أو التقصير في حقوقها، ومن شأن قصر اللوم على ولي العهد أن يحمله المسئولية كاملة فيما نشب بينه وبينها من خلاف.

أو لقصر الدلالة على الاسم المجرور الظاهر في قوله "فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يهراق بغير حقه" (١٨١).

قدم الكاتب شبه الجملة (بالمعصية، منهم) والمعطوف (الاختلاف) على اسم لا يزال (دم) ليقتصر إراقة الدماء على المعصية والاختلاف المختصة بالخارجين (منهم) لأن معصية الخليفة الممثل للدولة كانت السبب الرئيس للخروج المسلح وإراقة دماء المسلمين.

(678) السابق، ص ٢٣٢.

(679) السابق، ص ٢١٩.

(680) السابق، ص ١٩٤.

(681) السابق، ص ٢٠٩.

• وقد يوظف الكاتب تقديم شبه الجملة ليؤكد الدلالة كتأكيد تفرد فئة الكتاب في قوله "ليس أحدٌ من أهل الصناعات كلها أحوج إلى استخراج خيّر المحمودّة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيّها الكتاب" (٦٨٢).

قطع الكاتب اتصال الخبر (أحوج) باسم ليس (أحدٌ) بتقديم (من أهل الصناعات كلها) ليؤكد بذكر جميع أهل الصناعات واستثناء الكتاب منهم على احتياجهم الشديد لصفات الخير لما لهم من أهمية في الدولة بكل طوائفها، واستثناء الكتاب من أهل الصناعة بمثابة تأكيد على أهميتهم في الدولة وحاجتهم الضرورية للصفات الحميدة حتى يكونوا أهلاً لأهميتهم في الدولة.

وتأكيد رجاحة عقل صنف من فئة الكتاب في قوله "فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب القائل: إن صاحبه أعقل منه" (٦٨٣).

(إن) ذات الدلالة التأكيدية تكفي لصدق الكاتب، ولكنه ألحّ على صدقه بإظهار الدليل بأن هذا ليس في رأيه فقط بل رأي (ذوي الألباب) عمومًا فقدم شبه الجملة (عند) وما أضيف إليها (ذوي الألباب) ليؤكد رجاحة عقل من يعتبر غيره أعقل منه والعكس صحيح.

أو تأكيد الاقتناع الشخصي بسعادة المتلقي في قوله خلال غربته "وقد أصبحت عندي ذا غبطة باقتنارك على القليل ورضاك به" (٦٨٤).

الكاتب في غربته يعاني من شقاء بدني ونفسي يجعله مقتنعًا بسعادة كل من في وطنه بما فيهم المتلقي لأنه رضي بالقليل ولم يوجهه الطمع في الدنيا إلى الاغتراب مثل عبد الحميد فقدم شبه الجملة (عندي) على خبر أصبح (ذا غبطة) ليؤكد أن الاقتناع بغبطة التلقي اقتناع شخصي محله داخل عبد الحميد ولو لم يكن عبد الحميد في غربته لما شعر بهذا الاقتناع بسعادة المتلقي، لأنه لم يجرب الحرمان من الوطن.

• وقد يعمد الكاتب إلى تقديم شبه الجملة لإزالة العائق الذي يمنع اتصال المفردات ليغذي شغفه بالاسترسال الذي اشتهر به، يقول عبد الحميد محرّضًا الناس على مناهضة الخارجين على الدولة "فقد ادعوا الإسلام جاهلين به...، فأنتم بمعرفتكم به أولى بالذنب عنه والغضب له" (٦٨٥).

قدم الكاتب شبه الجملة (بمعرفتكم، به) على الخبر (أولى) ليزيل العائق بين (أولى) وما تعلق به بعدها (بالذنب عنه) وما عطف عليه (الغضب له)، ولولا التقديم لكانت الجملة (فأنتم أولى بمعرفتكم به بالذنب عنه والغضب له) أو (فأنتم أولى بالذنب عنه والغضب له بمعرفتكم به)، ومع تحقيق الاتصال للمفردات أفاد التقديم أيضًا الحث على الدفاع عن الإسلام لأنهم يعرفونه جيدًا في مقابل جهل الخارجين

(682) السابق، ص ٢٨٢.

(683) السابق، ص ٢٨٧.

(684) السابق، ص ٢٠٣.

(685) السابق، ص ٢٠٠.

على الدولة به، وربما يلفتنا اتصال المفردات إلى حاجة الكاتب إلى حشد تأييد شعبي للدولة في حروبها ضد الخارجين، فيوحي الاتصال بضرورة اتصال الشعب بالدولة.

وقوله أيضاً "هذه جوامع خلال دخال النقص منها واصل إلى العقل بلطائف أبنة وتصاريف حوله" (٦٨٦).

قدم الكاتب شبه الجملة (منها) على الخبر (واصل) ليتصل الخبر بما بعده، ويصل إلى العقل دون عائق يمنعه كوصول العيب إلى عقل المتلقي دون مانع له فوجب عليه التحرز من ذلك.

وفي قوله "ثم لا يبرح وجهك إلى بعض قوادك وحرسك متوجهاً بنظر ركين وتفقد محض" (٦٨٧).

قدم الكاتب شبه الجملة وما أضيف إليها وما عطف عليها (إلى بعض قوادك وحرسك) على خبر (لا يبرح)، (متوجهاً) لطول ما تعلق بالخبر من مفردات فصلت كيفية التوجه إلى القواد بالنظر، فكان التقديم لتقريب الخبر من المتعلقات به ليتصل بها و بالمعطوف، وربما يلفتنا هذا الاتصال بين المفردات إلى حاجة الكاتب إلى وضوح النصيحة ليستوعبها المتلقي جيداً ويقوم بالمطلوب منه عن اقتناع وفهم.

• وقد يحتل المتأخر موقعاً مهماً تظهر من خلال مكانه الجديد علاقته بمفردات أخرى يناظرها في مكانه من الفاصلة كاحتلال آخر الفاصلة ليحدث أثراً موسيقياً يبقى في أذن المتلقي و ذهنه، كما في قوله في سياق وصف جنود الدولة ليعجز المتلقي أمام قوتهم القتالية "يسكن إليها، ويأس بقربها، فهو بطلبها أرب، وعلى أهلها حرب" (٦٨٨).

قدم شبه الجملة (بطلبها) على الخبر (أرب)، وشبه الجملة (على أهلها) على (حرب) لتبقى (أرب، حرب) آخر كل فاصلة لتحدثاً أثراً موسيقياً من التشابه الصوتي والصرفي للتأثير على المتلقي ورفع نبرة التهديد بقوة جنود الدولة وألفتهم للحرب وكأنها من الضروريات في حياتهم لا يستغنون عنها ولا يطيقون البعد عنها.

وفي قوله في سياق مشابه يحدث فيه الناس على مواجهة الخارجين على الدولة "والحق بكم أولى، وأنتم إليه أقرب، والله عليهم أغضب" (٦٨٩).

لنتأمل آخر كل فاصلة (أولى، أقرب، أغضب) وتنطوي على صيغة صرفية واحدة (أفعل)، فضلاً عن السجع بين (أقرب، أغضب) وما أحدثه التشابه الصرفي مع السجع من أثر على المتلقي قد يزيد من حماسهم للقتال وقد قدم الكاتب أشباه الجمل (بكم، إليه، عليهم) على الأخبار (أولى، أقرب، أغضب) لتبقى المتأخرات آخر الفواصل محدثة الأثر الموسيقي السابق.

(686) السابق، ص ٢٢٢.

(687) السابق، ص ٢٣٠.

(688) السابق، ص ٢١٤.

(689) السابق، ص ١٩٩.

• وقد يزاوج الكاتب بين الاسترسال والأثر الموسيقي في أكثر من تقديم لشبه الجملة كما في قوله واصفاً الصيد "فأدانا المسير إلى غابة دونها مألّف الصيد ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب، قد جاوزناها، ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكل حرة جونة متفرقون" (٦٩٠).

قدم الكاتب شبه الجملة وما أضيف إليها (دونها) على المبتدأ (مألّف الصيد) لتتصل بما بعدها من معطوفات (مجتمع الوحش، نهاية الطلب)، وقدم أيضاً شبه الجملة والمضاف إليه (على سبيل الطلب) على الخبر (ممعنون) والخبر شبه الجملة والمضاف إليه والنعت (بكل حرة جونة) على المبتدأ (متفرقون) ليحتل المتأخران (ممعنون، متفرقون) أواخر الفواصل لتؤثر في أذن المتلقي و ذهنه بما تحدثانه من أثر موسيقي قد يرفع من درجة تجاوب المتلقي مع الكاتب.

• وقد يبرز الكاتب بعداً مكانياً أو زمانياً بتقديم شبه الجملة ليلفت انتباه المتلقي إلى أهمية المكان أو الزمان فعن الحراسة يقول عبد الحميد مبرزاً المكان "وليكن ذباب جندك بعسكرك أهل جلد وقوة" (٦٩١).

قدم الكاتب شبه الجملة والمضاف إليه (بعسكرك) على خبر يكن (أهل جلد) ليلفت انتباه المتلقي إلى أهمية قوة الحراس وصبرهم أثناء حراستهم داخل المعسكر وليس خارجه، لأن الحراسة من الداخل تمنع إمكانية اصطيات العدو للحراس، أما من الخارج فإذا تم اصطيادهم انكشف المعسكر كله للعدو.

وعن استمرار الخروج المسلح على الدولة من حين إلى آخر يقول عبد الحميد "فإن الشيطان لم يبتعث أهل فتنة قط هم أحب إليه أن يستنهض إليها من أهل المشرق والمغرب. إفريقية والأندلس وما داناها من الشام وأرضه، فله في كل حين نعة بأهل جماعة يستخفهم بالأمانى" (٦٩٢).

يبرز الكاتب الزمان الذي يستمرّ معه الخروج على الدولة ليلفت المتلقين إلى ضرورة الاستعداد للخارجين في كل زمان فقدم شبه الجملة والمضاف إليه (في كل حين) على المبتدأ (نعة) الذي تقدم عليه خبره أيضاً لوجوب نحوى (له).

إن تنكير المبتدأ أو تأخيرها بأشباه الجمل يلفت انتباه المتلقي ليستعد للمجهول، أكان شخصاً الذي نفهمه من تنكير (جماعة)، أو مكاناً من تعدد الأماكن (إفريقية والأندلس) أو زماناً من إطلاق الزمن من (كل حين) ذات الزمن المبهم.

• وآخر ما نتوقف عنده من توظيف لتقديم شبه الجملة على مفردات الجملة الاسمية التفصيل الذي يضعه الكاتب في دائرة الاهتمام بتقديمه ضمن شبه الجملة كما في قوله مفصلاً الصفات التي تؤدي إلى سعادة المتلقي "وأنت بالحق والصدق والطاعة أسعد" (٦٩٣).

(690) السابق، ص ٢٦٩.

(691) السابق، ص ٢٥٦.

(692) السابق، ص ١٩٨.

(693) السابق، ص ١٩٢.

قدم الكاتب شبه الجملة (بالحق) وما عطف عليها (الصدق والطاعة) على الخبر (أسعد) ليفصل للمتلقى المقومات التي جعلته سعيداً.

● تقديم شبه الجملة الواقعة خبراً على المبتدأ:

ونعني بالتقديم هنا ما ليس بضرورة نحوية، ولكن للكاتب حرية الاختيار بين الالتزام بالرتب النحوية أو العدول عنها لحاجة ما تخدم مقاصده.

وقد وظف الكاتب تقديم الخبر (شبه الجملة) على المبتدأ للفت انتباه المتلقى إلى المتقدم ليظهر أهميته فعن توجيه المتلقى إلى البحث عن طرق إنزال الطاعة بالناس واستمالة الخارجين إليه، يقول عبد الحميد "ثم أذك عيونك على عدوك متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، وأي الأمور أدعى لهم إلى الصلح وأقودها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لاستئصال طاعتهم، ومن أي الوجوه مأتاهم" (١٩٤).

قدم الكاتب شبه الجملة الواقعة خبراً مع المضاف إليه (من أي الوجوه) على المبتدأ (مأتاهم) ليلفت انتباه المتلقى إلى أهمية البحث عن طرق استئصال طاعة الخارجين قبل القتال عسى أن يغنيه ذلك عن قتالهم.

وعن أهمية عيون الجيش يقول عبد الحميد "فإنهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك، وعليهم مدار حرك" (١٩٥).

قدم الكاتب شبه الجملة الواقعة خبراً (عليهم) على المبتدأ وما أضيف إليه (مدار حرك)، ليضع الضمير العائد على المتقدم (العيون) في دائرة اهتمام المتلقى ليرعاهم ويختارهم من أفضل جنوده ويعمل على تدريبهم أحسن تدريب لأنهم مدار حربه على العدو، وليضمن الكاتب أكبر قدر من اهتمام المتلقى بالعيون فقد قصر مدار الحرب عليهم وكأثم أسباب النصر له.

وبجانب وضع الخبر المتقدم في دائرة اهتمام المتلقى قد يكون في تأخير المبتدأ اتصالاً للمفردات كإتباعه بمعطوف يفصل به الكاتب الدلالة ويغذي به دلالة السياق، ففي قول الكاتب ناصحاً فئة الكتاب "ونزّهوا صناعتكم عن السعاية والنميمة، وما فيه أهل الدناءة والجهالة" (١٩٦).

تأخير المبتدأ (أهل الدناءة) مكن الكاتب من التفصيل بمعطوف (الجهالة) لصفات أهل الدناءة، وبهذا التفصيل والتأخير يحقر الكاتب من أهل الدناءة حتى لا يكون الكتاب من هؤلاء الفئة المحقرة.

● وقد يعمد الكاتب إلى تقديم شبه الجملة الواقعة خبراً على المبتدأ لتناظر شبه جملة أخرى في فاصلة متقدمة عليها أو لاحقة لها يبرز من خلال التقديم والتناظر المكاني العلاقة بينهما، كعلاقة التقابل بين الطاعة والمعصية أو الخلاف في قوله "ففي طاعة الأئمة في الإسلام ومناصحتهم على أمورهم، والتسليم لما أمروا به مهم كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية متخللة، وسلامة ظاهرة وباطنة، وقوة بإذن الله مائعة.

(694) السابق، ص ٢٣٩.

(695) السابق، ص ٢٤٣.

(696) السابق، ص ٢٨٣.

وفي الخلاف عليهم والمعصية لهم ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة، ومحق كل غنية، وهلاك كل سلامة وألفة، وموت كل عزّ وقوة، والدعاء لكل بلية، ومقارفة كل ضلالة، واتباع كل جهالة^(٦٩٧).

قدّم الكاتب شبه الجملة الواقعة خبراً مع المضاف إليه وشبه الجملة وما عطف عليها (ففي طاعة الأئمة في الإسلام ومناصحتهم على أمورهم والتسليم لما أمروا به) على المبتدأ (مهم كل نعمة).

ثم قدم شبه الجملة الواقعة خبراً وما تعلق بها وعطف عليها (وفي الخلاف عليهم والمعصية لهم) على المبتدأ (ذهاب كل نعمة) ليضع (في طاعة)، (وفي الخلاف) أول كل فاصلة في مكان متناظر يظهر العلاقة التقابلية بينهما ليؤكد هذه العلاقة، فلا طاعة مع معصية وخلاف.

وبتأخير المبتدأ تمكّن الكاتب من الاسترسال في سرد المعطوفات التي فصل بها منافع الطاعة بعد المبتدأ الأول من تحقيق الكرامة والعافية والسلامة والقوة المانعة، وأضرار المعصية بعد المبتدأ الثاني من تفرق الناس والهلاك والذل والضلالة وكان ذلك في العبارتين المتقابلتين في تراكيب متشابهة استخدمها الكاتب كقوالب تضيف بتكرارها إلى السياق معان ودلالات جديدة.

إن الامتداد في الفصل بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر ينشط ذهن المتلقي ويجعله في حال انتظار لاستكمال المعنى الذي بدأه الكاتب بتشويق المتلقي ليعرف منافع الطاعة، وأضرار المعصية.

إن أهمية إنزال طاعة الناس للخليفة جعلت الكاتب يكثف من أدواته ووسائله اللغوية من، تقديم، وتناظر مكاني، وتقابل بين المفردات والجمال، وتفصيل مع بعض الفواصل ذات الأثر الموسيقي ليضمن أعلى درجة من التأثير على المتلقين للدخول في طاعة الخليفة، ويعكس لنا هذا التكثيف مدى حاجة الكاتب إلى طاعة الناس للخليفة ويبرز مدى تحمّله لمسئوليته في الدولة، والميل إلى الوحدة تحت لواء رجل الدولة الأول بصرف النظر عن استحقاق الخليفة لذلك أم لا.

وبجانب الاهتمام بالخبر شبه الجملة المتقدم يحتل المبتدأ المتأخر آخر الفاصلة ليحدث أثراً موسيقياً مع مناظر له في فاصلة أخرى كما في قوله "فإنه الموفق للخير والمعين على الإرشاد، منه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتيح الخير، وبيده الملك"^(٦٩٨).

قدّم الكاتب أشباه الجمل الواقعة خبراً (منه، عنده، بيده) على المبتدآت (تمام الصالحات، مفاتيح الخير، الملك) للتبرك بصاحب الضمير (الله) – سبحانه وتعالى – الذي ترجع إليه الضمائر في أشباه الجمل المتقدمة، وكذلك ليغذي الكاتب دلالة القصر على الله – سبحانه وتعالى – في كل شيء، فتمام الصالحات ومفاتيح الخير والملك مقتصرة عليه وحده دون شريك وتأخير المبتدأ الأول ومعه المضاف إليه

(697) السابق، ص ٢٠٩.

(698) السابق، ص ٢٣٤.

(تمام الصالحات) احتل آخر الفاصلة لينظر مكانيًا (مؤتي الحسنات) في الفاصلة اللاحقة لتحديث أثرًا موسيقيًا يبقى في أذن المتلقي وذهنه.

* تقديم الخبر شبه الجملة على اسم الناسخ في الجملة الاسمية المنسوخة:

وقد وظف الكاتب هذا التقديم توظيفًا دلاليًا يشترك مع دلالة الناسخ، ولا ينفصل عن تلك الدلالة في شيء، كالتأكيد المستفاد من إن الناسخة في قوله "ثم ليشهرُوا السلاح، وينتضوا السيوف، فإن لها هيبة رائعة وبديهة مخوفة" (٦٩٩).

قدم الكاتب شبه الجملة الواقعة خبرًا لأن (لها) على اسم إن (هيبة) ليؤكد هيبة السيوف في يد الجنود، التي تخيف العدو قبل القتال، وقصر الهيبة على السيوف دون غيرها بتقديم الخبر (لها) من شأنه تأكيد تلك الهيبة التي تؤكد بالضرورة فاعلية إشهار السيوف في السير للمعركة وصاغ ذلك في قالب مؤكد بـ (إن) ليمثل إلحاحًا على تأكيد نتيجة إشهار السيوف لما لها من تأثير في العدو قبل الواقعة، وأثر في الجنود من إشعال حماسهم للقتال.

وقوله "وليكن في عسكري المكبرون بالليل والنهار قبل الواقعة" (٧٠٠).

قدم الكاتب شبه الجملة الواقعة خبرًا ليكن (في عسكري) على اسم يكن (المكبرون) ليؤكد ضرورة وجود المكبرين في المعسكر قبل القتال بصفة متواصلة لا تنقطع، إن تقديم شبه الجملة (في عسكري) تضيف على المكان أهمية يضعها المتلقي في اعتباره، ويخصه بالتكبير عن غيره من الأماكن، ولا نعدم دور لام الأمر ذات البعد التأكيدي وتحويل المضارع (يكن) إلى دلالة الأمر الذي يوجب على المتلقي الاهتمام بالنصيحة الموجهة إليه واتباعها قدر المستطاع.

وقد يضع الكاتب شبه الجملة الواقعة خبرًا لناسخ في دائرة اهتمام المتلقي، كما في قوله عن الحكمة "اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أمها سالكا" (٧٠١).

فغاية الكاتب توجيه المتلقي إلى احتساب الحكمة في حياته حتى يكون مؤهلًا للخلافة، فقدم شبه الجملة الواقعة خبرًا لأن (للحكمة) على اسم إن (مسالك) ليلقي الضوء عليها، ويلفت انتباه المتلقي إلى أهميتها في حياته وتسيير أموره.

• وقد يكون في تقديم الخبر شبه الجملة فرصة للكاتب للاسترسال باتباع اسم الناسخ المتأخر بمتعلقات توضحه وتقربه من متعلقاته ليتصل بها دون عائق، فعن فوائد تلاوة القرآن الكريم يقول عبد الحميد "... وتتفهمه متفكرًا في متشابها، فإن فيه شفاء القلوب من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه" (٧٠٢).

(699) السابق، ص ٢٦٠.

(700) السابق، ص ٢٦٤.

(701) السابق، ص ٢١٧.

(702) السابق، ص ٢١٩.

لنتأمل اتصال اسم إن المتأخر (شفاء) بما بعده بشبه جملة تعلقت به (من أمراضها)، والمعطوف وما أضيف إليه (جلاء وساوس الشيطان) ثم المعطوف على المضاف إليه (سفاسفه). فمثل بالتقديم إزالة العائق (فيه) بالتحريك الأفقي، علاوة على الاهتمام بصاحب الضمير المتقدم (القرآن الكريم). فقد أفاد الكاتب من تأخير اسم إن، ومن تقديم خبر إن باتصال (شفاء القلوب) بما تعلق به وما عطف عليه ليجمع الكاتب فوائد تلاوة القرآن في بوتقة واحدة دون دخیل – نعني به الخبر المقدم – وفي هذا الجمع تكثيف لتلك الفوائد من شأنه اقتناع ولي العهد بكثرة فوائد القرآن لينهل منها كما يحب.

وقريب من ذلك في قوله عن غضب الخليفة "فإن لغضب السلطان سورة نائرة لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه من تعرض له أو دنا منه دمره" (٧٠٣). أفاد الكاتب من تأخير اسم إن (سورة) من الاتصال بما تعلق به بعده ليمتد بالصورة حتى يهول من أمر غضب الخليفة، وأفاد من تقديم الخبر شبه الجملة (الغضب) بوضعه في دائرة اهتمام المتلقي، ليكون أول ما يصادفه بعد الناسخ ويصطدم به ويتلهف إلى استكمال التلقي ليستكشف صورة الغضب وأسبابه، وكيفية النجاة منه، ويدرك مدى ما ارتكبه من خطأ في حق الخليفة. وفي قوله عن ولاية العهد "فإنه ليس وراء ولاية عهد المسلمين منزلة يرجوها طامع في فضل ولاية عهد الله في بلاده" (٧٠٤).

- مكن تقديم شبه الجملة الواقعة خبراً لليس الكاتب من إثارة المتلقي بمصادفته (وراء ولاية عهد المسلمين) بعد الناسخ ليس ليتلهف إلى ما وراء ولاية العهد، وقد أفاد تأخير اسم ليس (منزلة) في الاسترسال الذي مكن الكاتب من وضع ولاية العهد في مطمح من الكثيرين حتى يحمّد المتلقي كونه ولي العهد ويعمل على المحافظة على ولاية العهد التي يطمح فيها الآخرون.
- . تقديم شبه الجملة الواقعة خبراً على الناسخ

وجاء هذا التقديم في مثال واحد في سياق النصائح الحربية الموجهة من الكاتب إلى ولي العهد، ووضع الكاتب شبه الجملة الواقعة خبراً في الصدارة ليقوي المواجهة بين المتلقي والعدو مستخدماً للاستفهام الذي يشدّ ذهن المتلقي ليفكر في النصر، يقول عبد الحميد "على أنك لا تدري لأي الفريقين يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب في الدولة" (٧٠٥).

قدم الكاتب الخبر شبه الجملة (لأي الفريقين) على الفعل الناسخ واسمه (يكون الظفر)، ليضع الخبر في دائرة الاهتمام ليشغل به فكر المتلقي ليبحث عن الأسباب التي تضمن له النصر وليس أدل على هذا البحث من الاستفهام (لأي) الذي يحفز المتلقي على البحث عن إجابة.

(703) السابق، ص ٢٠٨.

(704) السابق، ص ١٩٣.

(705) السابق، ص ٢٣٧.

● تقديم الخبر على المبتدأ

إن تقديم الكاتب للخبر على المبتدأ دون وجوب نحوي يخضع لاختيار الكاتب الذي تحكمه مقاصده في النص فمن هذه المقاصد احتلال المتأخر موقع من الفاصلة ليعطي أثراً موسيقياً مع غيره من المفردات ويثري الدلالة. يقول عبد الحميد عن نعمة الله له بمولود "وأعطى من فضله، وذلك أملنا منه في بلوغ متاوق الأنفس من طول المدة، مقرون تواليها بمواضي خواليها"^(٧٠٦).

لنتأمل ختام دعاء الكاتب بالاعتراف بنعم الله عليه وقد قدم الخبر (مقرون) على المبتدأ (تواليها) ليحتل المبتدأ موقعاً يحدث به أثراً موسيقياً بالجناس مع (خواليها) بعدها، وهذا الجناس ربما يلائم حال الفرح والطرب النفسي بالمولود. ولولا تأخير المبتدأ لقل أثر الجناس لابتعاد المتجانسين (تواليها مقرون بمواضي خواليها) من ناحية، ولما تشابهت الجملة ببيت الشعر المصرع الذي يحتل المتجانسان مصراعيه من ناحية أخرى.

وبتأخير المبتدأ لاحتلال آخر الفاصلة يحدث بتأخير أثر موسيقياً من مشابهته لنظير له في فاصلة سابقة أو لاحقة في الصيغة الصرفية، وهذا الأثر الموسيقي يستوقف المتلقي ليتأمل أواخر الفواصل، يقول عبد الحميد في جنود الدولة بعد انتصار "قد بذلوا في طاعة الله دماءهم، وقبلوا المعروض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنة، محمود صبرهم، مسهل بهم عزمهم"^(٧٠٧).

لنتأمل المبتدئين المتأخرين (صبرهم، عزمهم) وقد اتحدا في صيغة المصدر مع إضافة ضمير الغائبين (هم) ليحدث بالتأخير أثراً موسيقياً بالموازنة بين المتأخرين يستوقف به المتلقي بإزاء الصبر والعزم ليوحي للمتلقي بأن سلاح النصر غير المرئي يتمثل في الصبر والعزم معاً، ويقوي الأثر الموسيقي هذا الإيحاء.

● ولاحتلال المبتدأ موقعاً متأخراً من الفاصلة يناظر متأخراً آخر تربطهما علاقة دلالية يستثمرها الكاتب. أثر في ثراء الدلالة، فعن طلب جارية بصفات محددة يقول عبد الحميد "أطرافها سباط، فرعها جنل أصله متدل فرعها"^(٧٠٨).

احتل المبتدأ المتأخر (أصله) آخر الفاصلة لينظر المبتدأ المتأخر الآخر في الفاصلة بعده (فرعها)، وتجمعهما علاقة المقابلة التي تضيف شمولاً على حسن صفات الجارية التي تقترب بها من الكمال ليلفت انتباه المتلقي إلى ضرورة تحري الدقة في وجود الصفات الجسدية المطلوبة في الجارية التي سيتم شراؤها.

إن وقوع المبتدأ المتأخر مع خبره المتقدم عليه خبراً جملة اسمية للمبتدأ الأول (فرعها) يمثل تعقيداً في تركيب الجملة يوحي بتداخل الصفات الجسدية

(706) السابق، ص ٢٠٢.

(707) السابق، ص ٢٧٣.

(708) السابق، ص ١٩٧.

المطلوبة مع بعضها البعض تداخلاً يصعب معه انفصال صفة عن أخرى مما يلزم المتلقي بتحري الدقة في وجود هذه الصفات وعدم سقوط صفة منها.

وقد يضع تقديم الخبر المبتدأ آخر الفاصلة ليبقى في دائرة اهتمام المتلقي خاصة عندما يعكس حال الكاتب النفسي مما ألم به من حزن وشقاء يظهر على بدنه بأكثر من صورة خلال المعاناة من آثار الغربة عليه ولكن بصورة معكوسة يرسم من خلالها حال الراحة النفسية والبدنية التي يتنعم بها المتلقي في أرض الوطن وحرَم منها عبد الحميد يقول عبد الحميد "وأنت مقيم بدار أمنك قد أظلك السرور... رقة وجهك ناضراً لونها، وأوصالك مستريحة أطرافها"^(٧٠٩).

احتل المبتدأ المتأخر (لونها) آخر الفاصلة، والمبتدأ المتأخر (أطرافها) آخر فاصلته أيضاً، ويعكس بقاء (لون رقة الوجه)، (أطراف الأوصال) في أذن المتلقي وذهنه المظاهر المادية للراحة من نضارة الوجه وراحة الأطراف من أيدي وأرجل استراحت من التنقل والسفر، وتستحضر هذه المظاهر المادية المظاهر المادية المضادة لها من شحوب الوجه وهلاك الأطراف لمن اغترب عن وطنه وهو عبد الحميد كاتب الرسالة الذي صرح بذلك بقوله "ونحن في تعب الدنيا: توجف بنا مطايا الشقاء، نياكر دلجها بغم النصب ومبهظ التعب، واحتمال الجفوة، وذل التجهم، فالأبدان خاشعة لطول الدأب"^(٧١٠).

● تقديم خبر الناسخ على اسم الناسخ:

وجاء هذا التقديم ليضفي على خبر الناسخ المتقدم أهمية تلفت انتباه المتلقي، وجاء في موضع واحد في سياق تعزية أحد الأمراء يقول فيه عبد الحميد "ولكل ذي هلع أرمضه حادثها، وأبهظه ما جرت به القضايا المكروهة عند حلولها فتنة يحق فيها أجره، ويذهب في ضياعها ذخره، ويصير خساراً أمره"^(٧١١).

قدم الكاتب خبر يصير (خساراً) على اسمها (أمره) ليضع الخسار في دائرة الاهتمام كمظهر مادي لحال من يسلم نفسه للحزن ومصائب الدنيا وبإضافة دلالة الناسخ (يصير) على التحول من حال إلى حال، يضع أمام المتلقي الخسار الدائم إذا سلم لمصائب الدنيا وهو خير معين على تعزيته ليخرج به من الحزن إلى طبيعته قبل وفاة من يخصه ويقتعه بالتسليم لقضاء الله وحكمته.

(709) السابق، ص ٢٠٤.

(710) السابق، ص ٢٠٣.

(711) السابق، ص ١٩٥.

ج- التقديم والتأخير في التركيب الوصفي:

إن ارتباط الصفة بالموصوف وحاجة كل منهما للآخر من اتباع الصفة للموصوف من ناحية، وحاجة الموصوف إلى الصفة لتخصيصه أو إزالة الإبهام عنه من ناحية أخرى، يخلع على التقديم والتأخير المحدث للحركة الأفقية في التركيب الوصفي أهمية لما يحدثه من أثر دلالي في النص خلال عملية التلقي. وقد تمثل هذا النوع في تقديم شبه الجملة على الصفة كفاصل بينها وبين الموصوف، أو الفصل بينهما بمضاف إليه وفي الحالتين تؤخر الصفة عن موصوفها وينقطع الارتباط بينهما مؤقتاً قطعاً وهمياً حتى يجتاز المتلقي الفاصل ويعيد الارتباط بين الصفة والموصوف عند الوصول للصفة.

● تقديم شبه الجملة على الصفة

وقد وظف الكاتب هذا التقديم لقصر الدلالة على المتقدم أو لتفصيل الدلالة والامتداد بالتركيب الوصفي أو الامتداد بالنص عموماً بتكرار التراكيب الوصفية وما بها من تقديم. ويظهر لنا القصر في قوله في التعزية "فإن كلوم الدنيا ... عزمة إلى منتهى أمر موقوت، وحاتم علم من الله نافذ غير منقوص" (٧١٢).
قدم الكاتب شبه الجملة (من الله) على الصفة (نافذ) ليقرر العلم ونفاذه على الله وحده جل جلاله دون البشر الذين لا يعلمون الغيب إلا ما يكشفه الله لهم. وفي قوله "ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم، والتسليم لما أمروا به، مهم كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية ... وقوة بإذن الله مانعة" (٧١٣).

تقدمت شبه الجملة والمضاف إليه (بإذن الله) على الصفة (مانعة) ليقرر القوة المانعة على الله وبإذنه وحده.

وفي قوله عن صفات فرسان الدولة المعجزة للمتلقي في التصدي لهم "يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شك محتك في الحرب مجرب" (٧١٤).

فخبرة الفارس تقتصر على الحرب دون غيرها (في الحرب مجرب) لتركيز الخبرة في جانب واحد هو كل ما يهم الكاتب ليرفع من نبرة التهديد للمتلقي لأن فرسان الدولة لا شاغل لهم غير الحرب وفيها كل خبرتهم السابقة.

● ويظهر التفصيل الذي يحقق امتداداً للتركيب الوصفي في قوله عن أدوات القتال "... متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجواهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس" (٧١٥).

(712) السابق، ص ١٩٥.

(713) السابق، ص ٢٠٩.

(714) السابق، ص ٢١٤.

(715) السابق، ص ٢٦١.

قدم الكاتب شبه الجملة والمعطوف عليها وما أضيف إلى المجرور والمعطوف (من جيد الجواهر وصافي الحديد) على الصفة (المتخيرة) لتفصيل استخلاص السيوف من المعادن الجيدة القوية (من جيد الجواهر) ونوع المعدن كالحديد ودرجة قوته من (صافي الحديد)، وقد امتدّ بالتفصيل التركيب الوصفي موحياً بامتداد صفات الأسلحة التي تعطي ميزة لمن يحارب بها.

وقوله "ومعك رجال من ثقات فرساتك، ذوو سن وتجربة ونجدة" (٧١٦).

قدم الكاتب شبه الجملة ومضافين إلى المجرور (من ثقات فرساتك) على الصفة (ذوو سن) ليفصل الرجال معاونين لولي العهد في تعبئة الجند من الفرسان دون باقي الجنود، ومن الثقات عنده من الفرسان دون باقي الفرسان.

• أما الامتداد في النص النابع من تكرار التراكيب الوصفية التي قدمت فيها شبه الجملة على الصفة تظهر في قوله في سياق النصح بإدراك الحكمة والعمل بما ينصح به "ولكن العالم الموفق للخير، المخصوص بالفضل المحبو بمزية العلم وصفوته أدركه معاناً" (٧١٧).

قدمت شبه الجملة (للخير) على الصفة (المخصوص) وقدمت شبه الجملة (بالفضل) على الصفة (المحبو) فحقق بذلك التقديم امتداداً لكل تركيب وصفي من ناحية وامتداد في النص عموماً عمق الفاصل بين اسم لكن (العالم) وخبره (أدركه) ليفصل صفات العالم الذي يستطيع أن يدرك أهمية العمل بالنصيحة ليكون هذا التفصيل عاملاً في توضيح دلالة العبارة من ضرورة إدراك النصيحة.

وفي قوله في السياق ذاته "أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصورة بأهل العقل، الشائنة لذوي الحجى في المنطق، المنسوبة إليهم بالعى، المردية لهم في الذكر" (٧١٨).

قدمت أشباه الجمل (بأهل العقل، لذوي الحجى في المنطق، إليهم بالعى) على الصفات (الشائنة، المنسوبة، المردية) ليحقق للنص امتداداً يفصل فيه الصفات التي يجب التخلي أو الابتعاد عنها، وفي هذا التفصيل توضيح لآثار الأخلاق الذميمة على المتلقي من عدة جوانب منها حجب الحقيقة عن العقل وضعف المنطق والحجة، وفي هذا التوضيح لآثار الأخلاق الذميمة على المتلقي ضمان لاستجابته للنصيحة واعتماد الأخلاق الحميدة.

وفي قوله معبراً عن امتداد أرض الصيد المنعكس عن امتداد التركيب الوصفي في قوله "ثم ملنا ... إلى غدير أفيح وروضة خضرة مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف الخمر، مملوءة من أنواع الطير" (٧١٩).

قدمت أشباه الجمل والمضافات إليها (بتلاوين الشجر، بصنوف الخمر) على الصفات (ملتفة، مملوءة) ليمتد بالنص مفصلاً أرض الصيد من أشجار وثمار

(716) السابق، ص ٢٦٥.

(717) السابق، ص ٢١٧.

(718) السابق، ص ٢٣٢.

(719) السابق، ص ٢٧٠.

وطيور ويعكس امتداد الأرض أمام الصائدين، ويضع المتلقي داخل أرض الصيد يميز بين مكوناتها وكأته مشارك في عملية الصيد.

• الفصل بين الصفة والموصوف بمضاف إليه:

وقد وظف الكاتب هذا الفصل ليفصل الدلالة ويمتد بالنص كما في قوله عن صفات قائد المشاة "ولّ دراجة عسكري رجلاً... محمود الخبرة، معروف النجدة، ذا سن وتجربة، لين الطاعة، قديم النصيحة، مأمون السريرة"^(٧٢٠).

إتباع كل موصوف بمضاف إليه يفصل بينه وبين صفته قد حدد بالمضاف إليه الموصوف وحقق امتداداً في النص مكن الكاتب من تفصيل صفات قائد المشاة ليسهل على ولي العهد اختياره من فرسان عسكريه.

د- التقديم والتأخير في جملة الشرط:

وجاء التقديم في أسلوب الشرط بتقديم الجواب على أداة الشرط وفعل الشرط، ويأتي للاهتمام بالجواب ووضعه في دائرة اهتمام المتلقي، أو لتأكيد الدلالة. فالاهتمام بالجواب في قوله "ثم مره أن يخرج كلّ ليلة قائداً من أصحابه أو عدة منهم إن كانوا كثيراً"^(٧٢١).

فإن إخراج قائد للحراسة كل ليلة من الأهمية بحيث يقدمها الكاتب على أداة وفعل الشرط (إن كانوا كثيراً) ولأهمية الزمن فإن الكاتب قدم (كل ليلة) على المفعول به (قائداً) حتى يكون الزمن هو من يحكم الحراسة وليس قائد أو عدة قواد وإنما المهم هو خروج الحراسة كل ليلة بأي عدد كان.

وللشمول وعدم القيد بالشرط في قوله عن مغالبة شهوات النفس "وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق"^(٧٢٢).

جهاد النفس مطلوب إذا تناصرت عليه أو لم تتناصر وجب على المتلقي مجاهدة نفسه سواء تحقق الشرط أو لم يتحقق، وهو ما يعطي شمولاً على جهاد النفس.

وفي قوله أيضاً "وردك نفسك عن جماحها إذا نازعتك متطلعة إلى شيء من الدنيا"^(٧٢٣).

تقديم الجواب (ردك نفسك ...) يوحي بشمول رد النفس لما تشتهيه في كل الحالات سواء نازعته أو لم تنازعه.

أما تأكيد الدلالة ففي قوله "وأنا معاجلهم بالعقوبة إن عادوا لتصغير شيء مما عظم الله"^(٧٢٤).

(720) السابق، ص ٢٤٩.

(721) السابق، ص ٢٥٠.

(722) السابق، ص ٢١٩.

(723) السابق، ص ٢٠٣.

(724) السابق، ص ٢٠٧.

قدم الكاتب جواب الشرط (أنا معاجلهم بالعقوبة) على أداة وفعل الشرط (إن عادوا ...) ليؤكد تصميمه واستعداده لإنزال العقوبة الفورية على كل من حاول من الجنود تصغير ما عظمه الله.

وقوله "وأياك ومعاقبة أحد منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه" (٧٢٥). جاء تقديم الجواب المتضمن التحذير ليؤكد على المتلقي عدم معاقبة جواسيسه حتى ولو كانت أخبارهم عن العدو كاذبة.

ثانياً: التقديم والتأخير المؤدي إلى تداخل التراكيب

ونعني به التقديم والتأخير المؤدي إلى تداخل التراكيب في النص أو ما كان التحريك الأفقي فيه على مدى واسع وليس محدوداً كما مرّ بنا من أمثلة.

وقد حصرنا هذا النوع من الحركات الأفقية في

أ- التباعد الشديد بين المفردات

اشتهر عبد الحميد بالاسترسال ولما كان الاسترسال هدفاً أساسياً في مخيلة الكاتب فكان لزاماً عليه تحقيق هذا الهدف بشتى الوسائل الممكنة دون الإضرار بالنص وكان من هذه الوسائل وضع الكلمات بين المفردات المترابطة نحويًا ودلاليًا ليضمن لهذه الكلمات ظهوراً حقيقياً في النص يلفت به انتباه المتلقي ويقطع اتصال المفردات المترابطة قطعاً وهمياً يوصله المتلقي بعد اجتياز الفاصل الطويل، وهذه العملية تنشط ذهن المتلقي وتزيد من انتباهه للدلالة في النص سواء دلالة الجملة الأصلية التي جعلها الكاتب قالباً يضع بين أطرافه قوالب أخرى ويتسع باتساع الكلمات فيه، أو دلالة الكلمات أو القوالب الصغرى – إن جاز التعبير – المشكّلة للفاصل. ومن الغايات التي يرمي إليها الكاتب من التباعد بين المفردات المرتبطة نحويًا تحقيق أكبر قدر من التأكيد عن طريق تفصيل وإبراز الأسباب التي من أجلها نشأت العلاقة النحوية بين المتباعدين.

يقول عبد الحميد عن فئة الكتاب "والكاتب بفضل رأيه وشرف صناعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره وينظره ويفهم عنه ويخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه" (٧٢٦).

فصل الكاتب بين المبتدأ (الكاتب) وخبره (أولى) بفاصل طويل (بفضل رأيه وشرف صناعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره وينظره، ويفهم عنه، ويخاف سطوته) ليبرز الأسباب التي تجعل الكاتب أولى بالرفق بصاحب العمل من فضل الرأي وشرف الصناعة ولطف الحيلة والمحاورة الجيدة لكل من يتعامل معه، فعلى كل كاتب أن يأخذ بتلك الأسباب حتى يكون مؤهلاً للرفق بصاحب العمل. فأهمية الخبر (أولى) جعلت الكاتب ممحّصاً للأولوية حتى يصل المتلقي للخبر وهو مقتنع تمام الاقتناع بأنه أولى بالرفق بصاحبه من دون كل من حوله حتى قرابته وبطانته. وفي تعزية الخليفة في جارية ماتت يقول عبد الحميد "ثم أعطي أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها أنفس منها في المنقلب" (٧٢٧).

(725) السابق، ص ٢٤٠.

(726) السابق، ص ٢٨٥.

فصل الكاتب بين مفعولي أعطى (أمير المؤمنين، أنفس) بـ (من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها) ليعبر أسباب عطاء الله لأمير المؤمنين أنفس الأشياء، ومن هذه الأسباب الشكر على بقاء النعم، والصبر على زوالها وهي دعوة ذكية لمن أراد عطاء الله، فعليه بالشكر والصبر.

وفي سياق الاسترضاء يحمل الكاتب ولي العهد وزوجه مسؤولية انتشار خبر مشاحنتهم على الملأ في قوله مبدئياً أسباب الانتشار "حتى انتشر عنك وعنهما بسوء الإدارة من كل واحد منكما لصاحبه أمركما" (٧٢٨).

فصل الكاتب بين الفعل (انتشر) وفاعلها (أمركما) بفواصل طويلة يتضمن مصدر الانتشار (عنك وعنهما) فهما شركاء في المسؤولية، وبسبب الانتشار (بسوء الإدارة) فعدم تحمل كل منهما لخطأ الآخر كان سبباً في انتشار المشاحنة على الملأ، وإظهار عدم قيام أي منهما بعمل يسترضي به الآخر (من كل واحد منكما لصاحبه).

وفي تحديد مهام ولي العهد لردع الخارجين يبرز أسباب توجيه الخليفة له لردعهم، ويبالغ في تفصيل خطرهم على الدولة حتى يقتنع بأهمية النصائح الموجهة له كمعين على النصر عليهم، يقول عبد الحميد في مفتتح رسالته لولي العهد "فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة، ورعاه الذين عاثوا في الأرض فساداً وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً، وبدلوا نعم الله كفرًا واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً - أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك" (٧٢٩).

فصل الكاتب بين اسم إن (أمير المؤمنين) وخبرها (أحب) بفواصل طويلة جداً ليعبر أسباب التوجيه للقتال التي تتضمن صفات وأعمال زعيم الخارجين (عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة)، وأعمال أتباعه (ورعاه الذين عاثوا في الأرض فساداً وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً وبدلوا نعم الله كفرًا، واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً) وأوضحت هذه الصفات العدوانية والأعمال التي تخرجهم إلى الكفر خطرهم الداهم للمسلمين والإلحاح على الخطر بتفصيل الأعمال يوجب على ولي العهد استقبال النصائح الحربية باهتمام شديد لتعينه على خطرهم وتكون المحقق للنصر عليهم.

إن تفصيل أعمال الخارجين المضرّة بالإسلام وأهله تزيل أي شك قد يتوارد في ذهن المتلقي بالتقليل من خطرهم أو كونهم من طوائف المسلمين ليضمن الكاتب تصميم المتلقي على قتالهم لاقتناعه بخطرهم وخروجهم من الإسلام إلى الكفر به فالإيمان بالقضية هو المحرك إلى الصمود والمسبب للنصر.

(727) السابق، ص ٢٨٠.

(728) السابق، ص ١٩٣.

(729) السابق، ص ٢١٥.

• وقد يكون الفاصل الطويل لإبراز المهام التي يقوم بها الأشخاص قبل اختيار الأشخاص ليكون الاختيار ملائماً للمهام التي سيقومون بها، فعن مهام قائد المشاة يقول عبد الحميد "ولّ دراجة عسكري، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجلاً من أهل بيوتات الشرف محمود الخبرة" (٧٤٠).

فصل الكاتب بين المفعولين (رجلاً، دراجة) مع تقديم المفعول الثاني (دراجة) وتأخير المفعول الأول (رجلاً) ليبرز مهام الرجل أولاً التي سيقوم بها من كونه قائداً للدراجة، وموكل بتنظيمهم وتوزيعهم على مراكز المعسكر، فالمهام التي ستوكل إليه هي التي تحكم اختيار القائد حتى يكون قادراً على تنفيذ تلك المهام، ولو كان العكس من اختيار قائد للدراجة أولاً ثم إسناد المهام إليه قد يعجز عن القيام بكل المهام المطلوب منه القيام بها.

• وقد يلجأ عبد الحميد إلى المبادعة بين المفردات لتأكيد الدلالة عن طريق إبراز بعض الأبعاد في الفاصل المتقدم يتأملها المتلقي قبل استكمال الرابطة بين المتباعدين في ذهنه.

في سياق حج الخليفة يقول عبد الحميد "فألفى هنالك من حجيج الآفاق والأمصار جماعات لم ير مثلاً في الكثرة والعدد" (٧٣١).

ليؤكد الكاتب كثرة الجماعات في أعمال الحج فصل بين الفعل وفاعله (ألفى) من ناحية والمفعول به (جماعات) من ناحية أخرى، وتضمن الفاصل المتقدم البعد المكاني (هنالك) الذي يشير إلى الأماكن المقدسة ويعبر عن السمو والقدسية بالإشارة إلى البعيد مما يبرز كثرة الزائرين، نوع الزائرين (من حجيج) التي تضيف هالة دينية على زيارة المكان، أماكن صدور الحجيج وشمولها (الآفاق والأمصار) وتوحي بصيغة الجمع والتعريف شمول الأماكن التي يغادرها أصحابها من أجل زيارة مكان واحد لتضيف على المكان المقصود قدسية خاصة.

وفي توجيه ولي العهد إلى تخصيص وقت كل يوم لتلاوة القرآن وتدبره يقول عبد الحميد "وأن تقرأ فيه من كتاب الله - عز وجل - جزءاً تردد رأيك في أدبه" (٧٣٢).

ليؤكد تلاوة القرآن يومياً وتدبره مع التلاوة فصل الكاتب بين الفعل وفاعله (تقرأ) وبين المفعول به (جزءاً)، وتضمن الفاصل المتقدم شبه جملة (فيه) ذات ضمير عائد على الزمن (يوم) ليحدد به زمن القراءة والمداومة عليه، شبه جملة + مضاف إليه (من كتاب الله) لتحديد المقروء وقصر القراءة على القرآن الذي ذكر بلقبه الذي يظهر مصدره الشريف الموجب لمداومة قراءته والتدبر فيه.

ولتأكيد إصدار ولي العهد الأوامر للحراس بالقتال بالرمح يبرز البعد الزمني والمكاني ونوع المقاتل ليؤكد استخدام هذا النوع من الأسلحة دون غيره لكفاءته

(730) السابق، ص ٢٤٩.

(731) السابق، ص ٢٠٥.

(732) السابق، ص ٢١٩.

في زمان ومكان محددين، يقول عبد الحميد "وتقدم إليهم أن لا يكون قتالهم بالليل في تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرمح" (٧٣٣).

فصل الكاتب بين اسم يكون (قتالهم) وخبره (بالرمح) بفواصل طويلة يبرز زمن القتال بالرمح (بالليل)، ومكان القتال بالرمح (في تلك المواضع) التي تشير إلى أطراف المعسكر، وشمول قتال كل من فاجأهم (لمن طرقهم)، وإبراز هذه الأبعاد تزيد من اقتناع ولي العهد باستخدام الحراس للرمح دون غيرها من أسلحة القتال عند وجود الأبعاد السابقة.

• وقد يكون منبع التوكيد حشد المترادفات داخل الفاصل المتقدم يلح بها على المتلقي للقيام بالمطلوب منه كإطلاق الإنفاق والمشقة في توفير سبل الأمان للمعسكر في قوله "لأن كل كلفة ونصب ومؤونة إنفاق ومشقة عمل مع السلامة غنم وغير خطر بالعافية" (٧٣٤).

فصل الكاتب بين اسم إن (كل) وخبرها (غنم) بفواصل طويلة من المتعاطفات المترادفة (كلفة، مؤونة إنفاق)، (نصب، مشقة عمل) واقتنائها بـ (مع السلامة) ليكون الفاصل مع دلالة (إن) على التوكيد بمثابة الإلحاح على المتلقي لتوفير الأمان مهما كانت الكلفة والمشقة.

ويفصل الكاتب بين فعل الشرط وجوابه بفواصل طويلة يؤخر وصول المتلقي إلى الجواب ليتأمل الفاصل الذي ينطوي على دلالات مترادفة يلح بها على المتلقي للإسراع في القيام بالجواب عند وقوع الشرط يقول عبد الحميد "إذا كنت من عدوك على مسافة دانية، وسنن لقاء مختصر وكان من عسرك مقترباً، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة وحماة فتنته؛ فتأهب أهبة المناجزة وأعد إعداد الحذر" (٧٣٥).

لنتأمل الفاصل الطويل الذي يتضمن زمن اللقاء (سنن لقاء مختصر)، والاقتراب من المعسكر (كان من عسرك مقترباً) وهي نفس دلالة فعل الشرط (على مسافة دانية)، وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة وحماة فتنته) وكلها تعبر عن دلالة واحدة ألا وهي الاقتراب من العدو في المكان أو الزمان ليؤكد بها سرعة التأهب والاستعداد عند الاقتراب من العدو.

ب- التقديم والتأخير الواقع بين نوعين من الجمل:

يأتي الاهتمام بهذا النوع المحدث للحركة الأفقية المركبة لتضمنه لغير نوع من الجمل تختلف دلالة كل منها عن الأخرى كاختلاف دلالة الجملة الاسمية عن الفعلية، وتصيغ هذه الدلالة دلالة التقديم والتأخير المتضمنة له كل جملة.

ولأن التقديم والتأخير يرد في جملتين إحداهما اسمية والأخرى فعلية في سياق واحد سلمنا باختلاط دلالة التقديم والتأخير مع دلالة كل جملة لتحقيق ثراء دلالي في النص يفتح أمام المتلقي آفاقاً لم يطأها ذهنه من قبل. وفي بعض الأحيان تتداخل الجمل وتشتبك أطرافها مع بعضها البعض فتتسم التراكيب بالتعقيد، علاوة

(733) السابق، ص ٢٥٨.

(734) السابق، ص ٢٥٧.

(735) السابق، ص ٢٥٢.

على ما تتضمنه هذه الجمل من تقديم وتأخير يكتف من الحركات الأفقية في النص، ويمثل التعقيد وتداخل التراكيب مع تكثيف الحركات الأفقية ثراءً دلاليًا يزيد من أعمال ذهن المتلقي في النص ويزيد من انتباهه لخطوط الصياغة وتظهر إفادة الكاتب من دلالة الجملة الاسمية والفعلية من قوله عن عيوب النساء "ثم هن بعد ذلك معوجات يميل بهن بعض نقص الآراء وسوء المداراة ودهى العقول" (٧٣٦).

ثمة تقديم لشبه الجملة ومضاف إليه (بعد ذلك) على الخبر (معوجات)، وتقديم شبه الجملة (بهن) على الفاعل (بعض)، وتدل الجملة الاسمية على ثبات العوج في النساء كطبيعة فطرن عليها مع إطلاق الزمن، وتدل الفعلية على استمرار فاعلية نقص الرأي في الميل بعقول النساء وجاء تأخير الخبر ليلتحم بالفعل (معوجات يميل) كوصف دائم للعوج يحقق له استمراراً عبر الزمن، ويأتي المزج بين دلالتى الجملتين بأن الجملة الفعلية جاءت كواقع عملي ملموس يثبت المقولة النظرية للجملة الاسمية من حقيقة عوج النساء منذ خلقهن ودليل ذلك سيطرة نقص الآراء على عقولهن.

وقوله في التعزية "فهي لأهل الصبر عبرة في فناء الدنيا وذكر يبلغون به الكرامة العليا" (٧٣٧).

لنتأمل تقديم شبه الجملة والمضاف إليه (لأهل الصبر) على الخبر (عبرة)، وتقديم شبه الجملة (به) على المفعول به (الكرامة)، وأفاد التقديم الأول قصر الاعتبار على أهل الصبر وتصبغه دلالة الجملة الاسمية بثبات الاعتبار لأهل الصبر عمومًا على إطلاق الزمن، وأفاد تقديم شبه الجملة (به) ذات الضمير العائد على المعطوف على الخبر (ذكر) لوضع ضمير المتقدم في دائرة اهتمام المتلقي وتأخير (الكرامة) للإيحاء بالجهد المبذول للوصول إليها، وقد ربط الكاتب بين (عبرة وذكر) وبين الجملة الفعلية بوقوعها نعتاً لـ (ذكر) ويأتي هذا الربط إذنا في كون الجملة الفعلية (يبلغون) واقعاً عملياً يثبت نتيجة الصبر ودليله الوصول إلى الكرامة، أو بمعنى آخر جعل الصبر المحرك للوصول بالإنسان إلى الكرامة.

• ويستثمر الكاتب التقديم والتأخير في الربط بين دلالتى الجملة الاسمية والفعلية ليؤكد للمتلقي النتيجة المضمونة لما يستقبله من نصائح في قوله "وذلك من فعلك رادٌ عدوك بغيظه، لم يستغل منك ظفراً، ولم يبلغ من نكايتك سروراً" (٧٣٨).

قدم الكاتب شبه الجملة والمضاف إليه ضمير عائد على المتلقي (من فعلك) على الخبر (راد)، وشبه الجملة ذات ضمير عائد على المتلقي (منك) على المفعول به (ظفراً)، وشبه الجملة والمضاف إليه ذات ضمير عائد على المتلقي أيضاً (من نكايتك) على المفعول به (سروراً)، ليكون القاسم المشترك في الحركات الأفقية الثلاثة ضمير المتلقي الذي يضعه الكاتب في دائرة الاهتمام وانصباب السياق عليه وليكون رابطاً بين دلالات الجمل من التحقق من رد العدو باتباع التعليمات ونستقيه

(736) السابق، ص ١٩٣.

(737) السابق، ص ١٩٥.

(738) السابق، ص ٢٥٩.

من الجملة الاسمية، ويأتي النفي (لم يستغل) بقلب الفعل المضارع إلى الماضي ليؤكد الجملة الأولى من رد العدو بغيظه فعلاً لعدم نيّله شيء من المتلقي، والجملة الفعلية بعدها كإلحاح على المتلقي للاقتناع بالنتيجة المضمونة من رد العدو بغيظه دون النيل منه إذا اتبع إجراءات الأمن والسلامة.

ونستقي من تداخل الجملة الاسمية والفعلية وحدث التقديم والتأخير فيهما ثراءً دلاليًا نفهمه من قوله "وما الهدى والدين الذي أتاكم به نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا ذلهم وقهرهم وردّهم إلى مواضعهم التي منها طلّعوا وبها كانوا أقاموا" (٧٣٩).

لنتأمل تأخير خبر ما (ذلهم) بفصل طويل تضمن مصدر الهدى وتشريفه بذكر الرسول الكريم كمصدر للهدى والدين، وقد قصر إتيان الرسول بهذا الهدى على المتلقين دون غيرهم بتقديم شبه الجملة (به) على (نبيكم) لتلتحم بالمفعول به (كم) من (أتاكم). فشرف مصدر الهدى وقصره عليهم لأنهم من تمسك به دون غيرهم من النعم التي وهبها الله للمتلقين وجب عليهم الحفاظ عليه والزود عنه بمناهضة كل من خرج على الدين والدولة.

وبتأخير خبر ما (ذلهم) تمكّن الكاتب من تفصيل الذل بالمعطوفات بعده التي أعطت واقعاً عملياً له من القهر ورد الخارجين على أعقابهم ليكون هذا الواقع دليلاً ملموساً يؤكد به شرف مصدر الهدى والدين لشرف نبيه وتنزه خالقه الذي أنزل الذل بالخارجين لتمسكك لتمسك المتلقين بهذا الهدى ومصدره. ويأتي تقديم شبه الجملة ذات الضمير العائد على مواضع الخارجين التي خرجوا منها لمحاربة الدولة (منها) على الفعل (طلّعوا)، (بها) على الفعل (كانوا) ليضع هذه المواضع في دائرة الاهتمام وقصر رد الخارجين عليها دون غيرها ليوضح للمتلقين أن ردهم كان في المكان نفسه الذي أقاموا فيه وخرجوا منه ليؤكد اندحارهم وفشلهم في النيل من الدولة ورجالها بفضل تمسك الدولة بالهدى والدين الذي نشره الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم .

• وقد يأتي التقديم والتأخير في الجملة الاسمية والفعلية في سياق واحد ليضفي بتنوعه في الجمل تنوعاً في المظاهر الحسية في النص، فعن صفات جارية مطلوب شراؤها يقول عبد الحميد "فرعها جثل أصله، متدل فرعها، قد جلل ظهرها كثرت، حتى ستر بسواده مشتمل القلب" (٧٤٠).

قدم الكاتب الخبر (جثل) على المبتدأ (أصله)، والخبر (متدل) على المبتدأ (فرعها) ليضع الصفات الجسدية للجارية في دائرة اهتمام المتلقي (جثل، متدل) ويضمن ثبات هذه الصفات عبر الزمن قدر المستطاع من دلالة الجملة الاسمية على الثبات والخلو من الزمن.

وقدم المفعول به والمضاف إليه ضمير عائد على الجارية (ظهرها) على الفاعل والمضاف إليه ضمير عائد على شعر الجارية (كثرت) ليؤكد كثافة الشعر

(739) السابق، ص ٢٠٠.

(740) السابق، ص ١٩٧.

بتغطيته الظهر كله، وساعد هذا التأكيد دلالة الفعل الماضي (جل)، وقدم شبه الجملة والمضاف إليه العائد على شعر الجارية أيضا (بسواده) على المفعول به (مشمّل القلب) ليبرز لون شعر الجارية. ولنتأمل المتقدّمات (جثّل، متدلّ، ظهرها، بسواده) نجد طول الشعر وكثافته ولونه وبالإضافة إلى (جثّل) نجد اهتمامًا بالمظاهر الحسية للجارية وشمول صفات الجمال الجسدية فيها حتى تكون مؤهّلة لأن تكون جارية الخليفة.

• إنّ تداخل الجملة الاسمية والفعلية ووجود التقديم والتأخير فيهما قد يحدث تعقيدًا في التراكيب يوحى بقيام علاقة مركبة أو معقدة بين طرفين يمثل المتلقي أحدهما يقول عبد الحميد "أو أن تريه أو أحدًا من أهل مجلسك أن بك إليه حاجة موحشة، وأن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضي دونه رأيًا" (٧٤١).

لنتأمل التقديم في الجملة الفعلية (أحدًا من أهل مجلسك) على المفعول به (أن بك إليه حاجة) التي تقدم فيها زوج من أشباه الجمل أحدهما خبر لأن (بك إليه) على اسم أن (حاجة)، وقدم زوج من أشباه الجمل (بك عنه) وأحدهما خبر للـ ليس على اسم ليس (غنى).

وقدم شبه الجملة والمضاف إليه (دونه) على المفعول به (رأيًا)، والجملة الفعلية واقعة خبرًا لأن، وتميّزت المتقدّمات بوجود ضمير عائد على المتلقي (مجلسك، بك، بك)، والضمير الآخر عائد على مقدم النصيحة للمتلقي (إليه، عنه، دونه) ليقيم علاقة جدلية طرفاها المتلقي ومقدم النصيحة يتنازع كل منهما على احتلال موقع الخبر شبه الجملة المقدم ليشتي بتركيب وتعقيد العلاقة بينهما، فهي علاقة حميمية تظهر من تجاورهما وتقدميهما معًا و يجب أن يكون لها طابع خاص.

ويوحى التنازع على الخبر على جانب آخر إذ يجب على مقدم النصيحة ألا يشعر بأهميته عند المتلقي، ولا يظهر له المتلقي ذلك ولا لغيره حتى لا يبدو مقدم النصيحة كالمحرك للمتلقي في كل أعماله.

فغاية الكاتب أن يأخذ المتلقي ما يحتاجه من مقدم النصيحة في السر دون إظهار الحاجة إلى النصيحة لمقدمها أو لغيره من الرعية.

• الحذف والذكر (*)

إن الحذف من مظاهر العدول التركيبي في النص إذ يتحول الكاتب عن الأصل في المواضع الممثل في الذكر إلى الحذف و"هذا الحذف عملية افتراضية خالصة لم تحدث على وجه من الوجوه" (٧٤٢).

(741) السابق، ص ٢٣٠.

(*) انظر تعريفات الحذف و الذكر: جدلية الأفراد والتركيب، البلاغة والأسلوبية.

(742) بناء الأسلوب في شعر الحداثة، د. محمد عبد المطلب، ص ٥٦، دار المعارف، القاهرة

وهذا العدول عن الأصل تحكمه مقاصد الكاتب، فله حرية الاختيار من أدوات اللغة بما يخدم تلك المقاصد وهو ما نفهمه من قول عبد القاهر "أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم" (٧٤٣).

ومما لا شك فيه أن النص يعتبر الجسر الذي يصل الكاتب بالمتلقي، فإن لجوء الكاتب إلى حذف لبنة من لبنات هذا الجسر يضطر المتلقي إلى البحث عنها، أو بالأحرى عن دليل عليها لإتمام عملية اتصاله بالكاتب، وعملية البحث هذه تصاحبها عملية ذهنية تثير "في نفس المتلقي طائفة من التساؤلات: أين الحذف؟ وما المحذوف؟ ولماذا حذف؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي تجعل عملية التلقي متسمة بالحيوية والفعالية" (٧٤٤).

ويحاول المتلقي الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال عملية البحث التي تحتك بالسياق لتستخرج منه دليلاً على المحذوف ثم يحاول بعد معرفة الدليل تقديم الإجابات وتتولد من خلال ذلك حيوية وتفاعل مع النص يصاحبهما انتباه كامل يضمن به الكاتب تمام تواصل المتلقي مع مقاصده.

وبجانب التساؤلات التي يثيرها الحذف في نفس المتلقي فإن الحذف "ينطوي على قدرة ذاتية جاذبة لانتباه المتلقي إزاء نقطة بعينها تتجلى فيها الحركة الموضوعية، وهي النقطة التي يقدر فيها المتلقي العنصر المحذوف" (٧٤٥).

ويزيد من احتكاك المتلقي بالنص "إذ يشرع الحذف في تكوين حوار طرفاه النص الأدبي والمتلقي، وهو حوار يتجلى فيه تواصل المتلقي مع النص" (٧٤٦).

وتتجلى في الحذف مشاركة المتلقي للمبدع في عملية إبداع النص، وقد فطن عبد القاهر في دلائله إلى ذلك ونفهمه من قوله "ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد" (٧٤٧).

لمجرد إثبات وجود ظاهرة الحذف في رسائل عبد الحميد وإضافة أهمية عمله في الدولة الأموية ككاتبها الأول ووزيرها، وتزداد هذه الأهمية بما شهده العصر الذي عاش فيه من أحداث تاريخية غيرت حياة المسلمين ودوره في تسجيل تلك الأحداث أو المشاركة فيها. مما سبق نخرج بمقولة أن الكاتب محكوم باستعمال كم معين من الأدوات اللغوية (الألفاظ) لإفادة المعنى المطلوب وتوصيل الدلالة إلى المتلقي، ولا يستطيع الخروج على ذلك نظراً لحساسية الرسائل الصادرة عن ديوان الخلافة وما شابهه، فكل رسالة خطها عبد الحميد لها هدف معين يجب أن يصل إليه بكم مناسب من الألفاظ التي تخدم هذا الهدف، ولا يسعه الزيادة أو التطويل.

(743) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤٢١، م المدني، القاهرة، ١٩٩١م.

(744) شعر الدعوة عند حسان بن ثابت، د. طارق شلبي، ص ١٦٤، زهرة المدائن، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(745) في النص الشعري، ص ١٩٠.

(746) الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات، د/ طارق شلبي، ص ١٢٨، زهرة المدائن، القاهرة،

٢٠٠٣م.

(747) دلائل الإعجاز: ص ٢١٦ ضمن CD الموسوعة الشعرية.

وبهذه المقولة نستطيع أن ننفي عن الكاتب تهمة التطويل المتعمد أو الإسهاب في استخدام الألفاظ دون زيادة في المعنى، وخير دليل على ذلك كثرة المحذوفات وتنوعها في رسائله.

وفيما يلي توزيع المحذوفات:

المحذوف	العدد	النسبة
الفاعل (الفعل المبني للمجهول)	١١٦	% ٣٦,٧
شبه الجملة	٩٢	% ٢٨,٧
المفعول به	٥٤	% ١٧,١
فعل وفاعله	١٨	% ٥,٨
حرف النداء (يا)	٨	% ٢,٦
جملة الشرط	٧	% ٢,٣
المضاف إليه	٥	% ١,٦
المبتدأ	٤	% ١,٣
فعل ناسخ واسمه	٣	% ٠,٩
الفعل وفاعله ومفعوله	٣	% ٠,٩
الحال	٢	% ٠,٦
جملة بعد المشيئة	٢	% ٠,٦
فعل ناسخ	١	% ٠,٣
حرف جر	١	% ٠,٣
اسم موصول	١	% ٠,٣
الإجمالي	٣١٧	% ١٠٠

● حذف الفاعل (الفعل المبني للمجهول)

وقب أن نشرع في الحديث عن حذف الفاعل في صيغة المبني للمجهول نود أن نوضح أن الكاتب قد لجأ إلى الحذف بطريقة كمية بمعنى أن الكاتب لا يكتفي بحذف فاعل واحد في جملة واحدة، ولكنه يتعدى ذلك بحذف أكثر من فاعل في أكثر من جملة ترتبط ببعضها في سياق واحد، أو بالأحرى جمل متتابعة يوضحها الجدول التالي

الفواعل المحذوفة	عدد المواضع	عدد الفواعل	النسبة
حذف فاعل واحد في جملة واحدة	٣١	٣١	% ٢٧
حذف فاعلين في جملتين متتاليتين	١٨	٣٦	% ٣٢
ثلاث فواعل في ثلاث جمل متتالية	٤	١٢	% ١٠
أربعة فواعل في أربع جمل متتالية	٢	٨	% ٧
خمسة فواعل في خمس جمل متتالية	١	٥	% ٤
ستة فواعل في ست جمل متتالية	١	٦	% ٥
فاعل واحد في جملة واحدة مع الفصل بين الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل	١٢	١٢	% ١٠
	٣	٦	% ٥

فاعلين في جملتين متتاليتين مع الفصل بين الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل			
الإجمالي	٧٢	١١٦	١٠٠%

من الجدول السابق يتبين لنا أن حذف الفاعل في جمل متتابعة في سياق واحد قد احتل أكثر من ثلاثة أخماس الفواعل المحذوفة في صيغة المبني للمجهول، وهو يمثل إلحاحًا على إخفاء الفاعل يقابله بالطبع إلحاح مماثل على الدلالة المستقاة من وراء حذفه.

إن تتابع حذف الفاعل في جمل متتالية يمثل تشابهاً تركيبياً من شأنه أن يضفي على تلك الجمل تناغمًا وتلاؤماً ينسحب على السياق بنوع من السلاسة النابعة من تتابع تلك الجمل.

إن إخفاء الفاعل في بعض حالاته يضفي غموضًا عليه يعتمد إليه الكاتب ليوظف هذا الغموض في خدمة الدلالة كالغموض الذي يضفي تعظيمًا على الفاعل وينسحب بالطبع على نائبه المذكور الذي يستقي تعظيمه من عظمة الفاعل الغامض، ففي قوله عن فرسان الدولة في رسالة إلى أحد الخارجين على الدولة "... ليس فيهم إلا شكّ محتك في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء" (٧٤٨).

وجه المقاتل وسم باللون الأحمر - لون الدم - وحذف الفاعل من (أشرب وجهه) لإخفاء الذي وسم وجه المقاتل بلون الدم إخفاء يعظم منه كأنه قوة غامضة وهبت الفارس كرامة الخبرة الحربية والقدرة على النيل من الأعداء في مظهر حسي موحش، لكن بالنسبة للمقاتل كأنه زينة يتباهى بها.

إن غموض الفاعل يثير في المتلقي شوقًا ورغبة لتحديد الفاعل بين عدّة فواعل، أهو قوة غيبية غامضة وهبته القدرة على النيل من الأعداء بوحشية تظهر من لون الدم على وجهه، أم هو العدو المقتول نفسه الذي منح الفارس دمه بغير إرادة منه حين شرع في مقاتلته، أم غير هذا وذاك، تلك الإثارة التي تنتهي بالمتلقي إلى نائب الفاعل الذي لا يعرف مصدر قوته ومدى هذه القوة الأمر الذي يضع في قلبه المهابة منه.

إن غموض الفاعل يلائم لهجة التهديد التي رفعها عبد الحميد للنيل من عزم المتلقي (زعيم الخارجين) وتفتيت قدرته على القتال لغموض ما يواجهه من جنود الدولة.

وفي سياق التهديد أيضًا يخفي الكاتب الفاعل ويحيطه بشيء من الغموض الذي يشنت المتلقي بين أكثر من فاعل فتزداد مهابته منه، كما في سياق تهديد بعض أصحاب الفتنة من البيت الأموي في قوله "... استفتحوا بابًا لن يغلقه الله عنهم حتى تسفك دماء كثيرة منهم" (٧٤٩).

(748) عبد الحميد بن يحيى ... ص ٢١٤.

(749) السابق، ص ٣٠٠.

تشتيت المتلقي بين من سيسفك دماءهم أهو موجه الخطاب نفسه، أم جنوده، أم جنود أخرى له لا يعلمهم المتلقي، أم أطراف أخرى خارجية غير المتكلم لا يعلم المتلقي عنهم شيئاً، يزيد من مهابة الفاعل المختص لعدم علم المتلقي به، فالخوف من المجهول أقوى من الخوف من المعلوم للخائف.

وعندما تتتابع صيغ المبني للمجهول يتجلى لنا إلحاح الكاتب على غموض الفاعل لزيادة التأثير على المتلقي كما في قوله في سياق تهديد أصحاب الفتنة "فإذا لزمهم عضاضها، ونفر بهم شماسها؛ تخلت عنهم خاذلة، وتبرأت منهم معرضة عنهم قد سلبوا أجمل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحصن معقل دنياهم" (٧٥٠).

فهو تهديد غير مباشر يشتم الكاتب فيه المتلقين بين عدة فواعل لا يعلمون أيهم من سيسلبهم دينهم (سلبوا) أو يستنزلهم من معقلهم (استنزلوا) أي الفتنة التي سيطرت عليهم، أم جنود الدولة الذين يخرجونهم من معقلهم، أم الشيطان الذي زرع الفتنة فيهم. وعدم تقدير الفاعل المحذوف بدقة يضيف عليه غموضاً يتكرر بتكرار الجمل المبنية للمجهول ويزيد من مهابة الفاعل في قلوبهم.

وفي قوله أيضاً في سياق التهديد بتتابع ثلاث جمل "إن أقررتهم لهم؛ أقمتهم في ذلة الدار، قد أوطنتم الخسف ومنعتم النصف، واستأسرتم للبلى" (٧٥١).

فالإلحاح على غموض الفاعل وكثرة ما أسند إليه من أفعال رغم اختفائه يزيد من مهابته في قلوب المتلقين ويرفع من نبرة التهديد الذكي الذي يظهره الكاتب في ثوب النصيحة والتبصير بأخطاء التسليم للخارجين على الدولة.

وفي سياقات أخرى غير التهديد يمثل غموض الفاعل تعظيماً له كتعظيم ضواري الصيد و جوارحه في قوله "وإني أخبر أمير المؤمنين: أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح وأثقف الضواري... قد ثققت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم، مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت" (٧٥٢).

إن غموض مدرب الخيول الذي لا يستطيع المتلقي تحديده من متعدد قد يكون الكاتب نفسه أو مجموعة فرسان أو مدرب خاص، أو تم اشتراء الخيول مدربة لا يعلم أحد مدربيها. يمثل تعظيماً للمدرب الذي استطاع الوصول بخيل الصيد إلى درجة عالية من الكفاءة وحسن الخلق في آن واحد، وتستقي الخيول بالطبع عظمتها وكفاءتها من عظمة وكفاءة مدربيها أي كان.

إن اختفاء الفاعل وعدم قدرة المتلقي على تحديد فاعل بعينه قد يهدف به الكاتب التحقير من شأن هذا الفاعل كأن لم يكن موجوداً، وعندما تتتابع صيغ المبني للمجهول نجد إلحاحاً على تحقير الفاعل غير القادر على الظهور على سطح النص رغم كثرة ما أسند إليه من أفعال، ففي قوله "فلا يزال بالمعصية منهم

(750) السابق، ص ٢١٣.

(751) السابق، ص ٢٠٠.

(752) السابق، ص ٢٦٩.

والاختلاف دمٌ يُهراق بغير حقه، وطفل من أبناء المسلمين قد يُثم من أبيه، ومذلة قد دخلت عليه ونعمة قد زالت عنه، ووحشة حدثت وضغائن في القلوب قد نشبت، وشحناء قد ظهرت وأوتار قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت، وخوف قد ظهر، وسبيل قد قطعت، وامرأة قد أرملت وصبيّة قد يئمت، وبلاد عامرة قد خربت" (٧٥٣).

قاتل الرجل ومريق دمه تسبب في وجود طفل يتيم وصبيّة يتيمة وأرملة، وقاطع الطريق ومخرب البلاد لا يستطيع المتلقي حصره في شخص بعينه وتدل أفعاله المشينة على دناءته التي يستمدّها من دناءة المعصية.

ومن الدلالات التي وظف الكاتب حذف الفاعل لإضفائها دلالة العموم التي ينحصر فيها الفاعل في شخص بعينه ولكن ينتمي إلى فئة محددة يعلمها المتلقي جيّداً، كقناة الجنود في قوله "... واحذر أن يُعرف جواسيسك في عسكريك، أو يُشار إليهم بالأصابع" (٧٥٤).

الحفاظ على سرية الجواسيس يتطلب عموماً وشمولاً على الجنود كلهم فلا يستثنى أحد منهم لكشف سرية الجاسوس، لذا حذف الفاعل من (يعرف).

وبتتابع صيغ المبني للمجهول يظهر لنا الإلحاح على دلالة العموم التي تغذي شهرة بعض قادة الجيش، كما في قوله "ثم انتخب للولاية عليهم رجالاً بعيد الصوت ... قد عُرفت نكايته، وحذرت شوكتة، وهيب صوتة، وتكّّب لقاؤه" (٧٥٥).

عموم العارفين بقدرته (عرفت نكايته) والخائفين من سطوته (حذرت شوكتة) تؤهله إلى قيادة الجنود، أما انحصار معرفته فتكون سبباً في استبعاده من القيادة.

ومنها الانشغال عنه للاهتمام بمكان وجوده دون الاهتمام به هو، كاهتمام الكاتب بآماكن الجنود في قوله "فإن صدّ العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى، كبر أهل تلك الناحية التي يقع فيها كفعل الناحية الأولى، وبقيّة العسكر سكوت، والناحية التي صدّ عنها العدو لازمة لمراكزها" (٧٥٦).

فإن ذكر من صدّ العدو (صدّ العدو) لا يهم الكاتب وإنما ينصب اهتمامه على مكانه حتى يستطيع المتلقي إمداده بالجنود أو إمداد غيره حتى يأمن عدم اختراق العدو للمعسكر والوصول إليه.

وقد يستثمر الكاتب تتابع صيغ المبني للمجهول وتغيب الفاعل فيها لصرف اهتمام المتلقي إلى ما بعدها مع تأكيد الدلالة، كتأكيد عدم الانشغال بأي عمل قبل تقسيم أرض المعسكر على القادة لحفر الخنادق وتوفير سبل الأمان أولاً في قوله

(753) السابق، ص ٢٠٩.

(754) السابق، ص ٢٤٢.

(755) السابق، ص ٢٤٨.

(756) السابق، ص ٢٥٩.

"إِذَا وُضِعَتِ الْأَثْقَالُ، وَخُطَّتْ أُبْنِيَّةُ أَهْلِ الْعَسْكَرِ، لَمْ يُمَدَّدْ طَنْبٌ، وَلَمْ يُرْفَعْ خَبَاءٌ، وَلَمْ يَنْصَبْ بِنَاءٌ، حَتَّى تَقْطَعَ لِكُلِّ قَائِدٍ ذُرْعًا مَعْلُومًا مِنَ الْأَرْضِ.." (٧٥٧).

تتابع صيغ المبني للمجهول (وضعت، خطت، لم يمدد، لم يرفع، لم ينصب)، وهي تدل على شيء واحد وهو الانشغال بأي عمل خاص بالمعسكر، وهذا التكرار للمعنى علاوة على تغييب الفاعل من شأنه توكيد الدلالة من عدم الانشغال بشيء حتى يقسم أرض المعسكر على قواده ليحفروا الخنادق ويوفروا له سبل الأمان.

إن تشابك الحركة الموضعية التي تنتج من حذف الفاعل في صيغة المبني للمجهول مع الحركة الأفقية التي تنتج عن التقديم والتأخير يمثل تكثيفاً للحركات التركيبية يقابلها تكثيف دلالي مماثل يزيد من انتباه المتلقي لخطوط الصياغة، فلنتأمل قول الكاتب "وإن كرهت قضاء حاجته...؛ أمرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها، فخفت عليك في ذلك المؤونة وحسن لك الذكر، وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها بريء الساحة" (٧٥٨).

إن غاية الكاتب صنع شعبية للمتلقى (ولي العهد) تقتضي عدم جريان أي أمر يكرهه منه الشعب على يديه، فلزم عليه أن يعمل بنصيحة عبد الحميد في توكيل كاتبه بمنع دخول غير المرغوب فيه على ولي العهد وضمن له نتائج العمل بهذه النصيحة عن طريق حذف الفاعل (حمل) الموحى بغياب اللام عنه ويتأكد هذا الغياب الذي يغيب معه اللوم تماماً عن ولي العهد بتقديم شبه الجملة (على كاتبك) على نائب الفاعل (لائمة) الذي يفيد إلصاق اللوم بآخر وانتفاء حتى الشبهة باللوم عن ولي العهد.

إن تكثيف الحركات التركيبية وتشابكها يعكس الحاجة الملحة للكاتب في توجيه المتلقي إلى الاهتمام بالنص والعمل على تنفيذ ما يطلبه الكاتب منه في ثوب النصائح تلك الحاجة الملحة تكشف لنا مدى تحمل عبد الحميد لمسئوليته في الدولة، ومدى ما وصل إليه من مكانة أهله لتوجيه النصائح حتى لولي عهد الخلافة والإلحاح عليه للعمل بها، ففي قوله "... بتسويغهم مقارفة الفسوق بمحضرك أو في دارك وفنائك، فإن ذلك مما يقبح ذكره، ويسوء موقع القول فيه، وتحمّل عليك معاييه" (٧٥٩).

تتشابك الحركات الناتجة عن حذف الفاعل، مع تأخير نائب الفاعل عن فعله بشبه جملة (عليك) تتضمن (ك) العائدة على ولي العهد، وأضفى التقديم اختصاص ولي العهد بحمل المعاييب دون غيره وكأنه قصد بعينه، ذلك الاختصاص يقويه اختفاء من يحمله تلك المعاييب فيمثل بغموضه الاستمرار المستقى من صيغة المضارع (تحمل)، دوام تربص من يعيب على ولي العهد واستحالة كشفه والعلم به لاختفائه عن السياق.

(757) السابق، ص ٢٥٧.

(758) السابق، ص ٢٢٧.

(759) السابق، ص ٢٣٣.

● حذف شبه الجملة:

قبل الشروع في الحديث عن حذف شبه الجملة نود أن نوضح أن الكاتب قد التزم بالطريقة الكمية في حذف شبه الجملة أيضاً، فلم يكتف بحذف واحدة في جملة واحدة، لكن تعدى ذلك إلى عدد من أشباه الجمل في جمل متتابعة ترتبط معاً في سياق واحد، واقتصرت كلها على الجار والمجرور فقط دون غيرها من أشباه الجمل يوضحها الجدول التالي.

المحذوف	عدد المواضع	عدد أشباه الجمل	النسبة
حذف شبه جملة واحدة	١٩	١٩	٢٠,٥ %
زوج من أشباه الجمل في جمل متتابعة	١١	٢٢	%
ثلاث من أشباه الجمل في جمل متتابعة	٣	٩	% ٢٤
أربع من أشباه الجمل في جمل متتابعة	٣	١٢	% ١٠
خمس من أشباه الجمل في جمل متتابعة	١	٥	% ١٣
ست من أشباه الجمل في جمل متتابعة	١	٦	% ٥,٥
تسع عشرة من أشباه الجمل في جمل متتابعة	١	١٩	% ٦,٥
			٢٠,٥ %
الإجمالي	٣٩	٩٢	% ١٠٠

ومن الجدول نتبين أن الكاتب يعتمد إلى حذف أشباه الجمل في جمل متتابعة في سياق واحد بنسبة تقارب أربع الأخماس، وهذا الكم من المحذوفات إنما يعكس إرادة الكاتب في تحقيق سرعة مطلوبة في سيل الكلمات بحذف ما قد يعيق هذه السرعة أو يفصل بين الكلمات.

فعلم المتلقي بالمحذوف، أو الوصول إليه بعد تأمل القرائن الدالة عليه في السياق، أو بعد إعمال نشاط ذهني لمعرفته وتقديره يشجع الكاتب على حذفه دون إخلال ذلك في المعنى، بل إثراء الدلالة في كثير من المواضع.

إن استرسال الكاتب في كتابته يدفعه إلى الموازنة بين الاسترسال وبين حال المتلقي خلال عملية تلقي النص، فقد يصيبه الملل أو الاستئثار، فيلجأ الكاتب إلى الحذف دون الإخلال بالمعنى المراد توصيله، ويمثل الحذف في هذه الحال الموازن بين استرسال الكاتب وانتباه المتلقي للنص وما يستتبع الانتباه من استخلاص الدلالات.

فلنتأمل قول الكاتب في وصف الإخاء "... قياماً لهم بالنصرة وحياطاً للمودة، وترغيباً في العشرة، فكان أكهف لجأ وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنعة، وأنق منظر، وأينع

زهرة، أكثر الأشياء ريعاً، وأنماها وصلأ وأمدّها سيباً، وأقواها أيذاً، وأحلاها ذوقاً، وأدعمها ثباتاً، وأرساها ركناً، لا يدخل مستحقها سامة ملال..^(٧٦٠).

عول الكاتب على وصول المتلقي لأشباه الجمل المحذوفة وعددها تسع عشرة على ذكر واحدة أول السياق (قياماً لهم بالنصرة)، وقد ساعد حذف أشباه الجمل الكاتب في الموازنة بين الاستطراد في ذكر فوائد الإخاء وبين المتلقي الذي قد يصيبه الملل من الاستطراد.

وقد حقق الحذف المتتابع سرعة في التنقل بين الفواصل التي تميزت بتكرار صيغ أفعل التفضيل والتمييز، فينتقل المتلقي بين الصيغ دون وجود عائق يفصل بينها.

إن طلب الكاتب للسرعة يؤكد للمتلقي انشغال الكاتب بشئون أخرى دفعته إلى صراحة الاعتذار للمتلقي في عدم قدرته على الاستفاضة في تفصيل الإخاء في قوله بعدها "وأفاني كتابك بما سألت من ذلك وعقلي محصور ورأيي منقسم، وذهنني فيما يتأهب به الأمير لقتال عدو الله..."^(٧٦١).

وفي سياق آخر من سياقات الوصف يحذف الكاتب عدداً من أشباه الجمل لتحقيق سرعة ملائمة للسياق كما في وصف الصيد الذي يعكس سرعة الطرائد، وسرعة الصيد في طلبها، في قوله "... وأعجزنا البهر عن اللحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب"^(٧٦٢).

يُعمل المتلقي ذهنه للوصول إلى أشباه الجمل المحذوفة ليملأ فضاء النص (سبقها لنا، هربها منا، سبلها عنا، الظفر بها، الأرب منها)، الأمر الذي يجعل من المتلقي مشاركاً للكاتب في إبداع النص من ناحية، ومشاركاً له في الشعور بسرعة الطرائد ليتخيل رد فعل الكاتب تجاه سرعتها خلال عملية الصيد من ناحية أخرى.

وقد يعمد الكاتب إلى حذف شبه الجملة لتحقيق السرعة المطلوبة للوصول إلى السجع الذي يصبغ الفواصل بموسيقى تبقى في أذن المتلقي، كما في قوله "فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعوراً وجدوباً وفقراً حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصيب"^(٧٦٣).

طلب الكاتب للسجع دفعه إلى حذف شبه الجملة (لها) من (الطلب لها) ليضع (الطلب) آخر الفاصلة وحذف شبه الجملة أخرى (الطمع فيها) في الفاصلة بعدها ليسرع الكاتب من إيراد (النصب) حتى ينشأ السجع آخر الفاصلتين (الطلب، النصيب)، ولولا الحذف لكانت "قصر بنا اليأس عن الطلب لها، وقطع بنا عن الطمع فيها النصيب"، وهذا التأثير الموسيقي للسجع يزيد من تجاوب المتلقي وانتباهه للنص.

(760) السابق، ص ٢٧٧.

(761) السابق، ص ٢٧٨.

(762) السابق، ص ٢٦٨.

(763) السابق، ص ٢٧١.

وفي قوله أيضًا "حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات، وهربن مسييات" (٧٦٤).

حذف الكاتب شبه الجملة (عنا) بعد انجذبن، (منا) بعد هربن ليصل المتلقي إلى السجع آخر الفاصلتين بسرعة دون عائق، ويؤثر في أذنه ليتجاوب مع الكاتب في وصفه للصيد.

وقد يعمد الكاتب إلى حذف شبه الجملة ليضع ما قبلها أو ما تتعلق به في موضع ينشأ عنه موسيقى تبقى في أذن المتلقي، كالموسيقى النابعة من السجع أو الموازنة أو الجناس، ومن أمثلة الموازنة والجناس قوله "... فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه" (٧٦٥).

حذف الكاتب شبه الجملة (لها) بعد (ناعر)، وأخرى بعد (ناعق) لتحتل الكلمتان آخر الفاصلة ويؤثر ما بينهما من موازنة وجناس في أذن المتلقي وذهنه. والسجع والجناس في قوله "يا هذا لو جعلت ما تحمله القراطيس من الكلام مالا، حويت جمالا، وحزت كمالا" (٧٦٦).

حذفت شبه الجملة (به) بعد (جمالا، كمالا) لتحتل الكلمتان آخر كل فاصلة ويؤثر ما بينهما - بإضافة (مالا) من الفاصلة قبلهما من سجع وجناس في أذن المتلقي وذهنه.

وقد يزاوج الكاتب بين طلب موسيقى الفواصل، وبين تقريب الكلمات من بعضها البعض عن طريق حذف العائق من أشباه الجمل لزيادة تأثير العلاقة بين الكلمات في المتلقي، كالتقريب بين المتقابلات تقريبا يضيفي حدة على الصراع بينهما، كما في قوله "... فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت وتباعدت مثلما تقربت" (٧٦٧).

لنتأمل المحذوفات من أصل الجملة (أخذت منا كل ما أعطته لنا، وتباعدت عنا مثلما تقربت منا).

وقد أسفر الحذف عن احتلال ما تعلقت به أشباه الجمل لكلمات القافية للتأثير في أذن المتلقي ليشارك الكاتب شعوره باليأس من ناحية، وأسفر عن تقريب المتقابلات من بعضها (أخذت، أعطت)، (تباعدت، تقربت) ليضيفي على الصراع حدة واشتدادا يقوى من الأثر الوجداني العميق من أفعال الدنيا بالكاتب من ناحية أخرى، فالتكثيف الدلالي الذي أنتجه حذف أشباه الجمل يوحي باختلاط الأشياء في نفس الكاتب وتضادها ويكشف لنا مدى الحزن والضيق واليأس المشوب بالأمل الضعيف خلال هروبه مع مروان.

وقد يحذف شبه الجملة للتقريب بين الكلمات ووضعها بإزاء بعضها البعض ليضيفي على العلاقة بينها قوة تؤكد الدلالة، كما في قوله لولي العهد "وانك في

(764) السابق، ص ٢٧١.

(765) السابق، ص ٢٧٠.

(766) السابق، ص ٢٩٣.

(767) السابق، ص ٢٧٩.

شعبة من سخط أمير المؤمنين ما سخطت عليك، مقروناً رضاها عنك برضاي إذا رضيت" (٧٦٨).

حذفت شبه الجملة (عنك) بعد (برضاي، رضيت) لتوضح للمتلقى قوة العلاقة بين (رضاي) الخاصة برضا الخليفة عن ولي العهد (المتلقي)، وبين (رضيت) الخاصة برضا زوجه عائشة عنه، ذلك التقريب الذي يؤكد للمتلقى عدم نيل رضا الخليفة إلا برضا زوجه عنه أولاً.

وقد يعمد الكاتب إلى حذف شبه الجملة ليحتل ما يتعلق به مكاناً يلفت انتباه المتلقي كآخر الفاصلة في قوله "فإن احتجت إلى مادة من عقلك... كان انحيازك إلى ظهريك مزداداً مما أحببت الامتياح منه والامتياز" (٧٦٩).

حذفت شبه الجملة (منه) بعد (الامتياز) لتحتل بذلك كلمة (الامتياز) آخر الفاصلة فتبقى في ذهن المتلقي لتكشف له أهمية الامتياز ذاته دون مصدره الذي حذف ويعضد تلك الأهمية بالجناس بينها وبين (الامتياح) لتكون آخر ما يبقى في أذن المتلقي أيضاً ليلفته إلى التنبيه لأهمية السرية في أخذ النصح ممن أراد.

وفي قوله "... ويعطب من يدعوه، ويفزع إليه، ويكثر بمكانه ويحرسه في غفلته عن الأعداء إذا غفل" (٧٧٠).

حذف الكاتب شبه الجملة (عنهم) بعد (غفل)، ليضع الغفلة في دائرة اهتمام المتلقي باحتلالها آخر الفاصلة من ناحية، وتكرار مادتها اللغوية من ناحية أخرى. فانتهاء الفاصلة باحتمال الغفلة تنبيه المتلقي إلى التيقظ دائماً للأعداء تيقظاً يستدعي الترابط بين أفراد الدولة وليس التفرق بالخروج على الدولة.

إن الحذف قد يضطر المتلقي إلى البحث عن المحذوف لإكمال فضاء النص، وعملية إكمال الناقص من سطح النص تجعل المتلقي مشاركاً الكاتب في عملية الإبداع وهذه المشاركة يضمن بها الكاتب تفاعل المتلقي التام معه، لتأمل قول الكاتب في غربته "أما بعد، فإن من صغرت رغبته، وقصرت حاجته؛ أراح بدنه، ولازم أحبابه وصان وجهه، وسلم له دينه، وأكرم عن الدنيا نفسه" (٧٧١).

إن المتلقي الذي قد يكون تعود على أسلوب الكاتب ويضطر إلى إكمال سطح النص ويكون بعد الإكمال في شبه تأكيد أن الكاتب لو ذكر ولم يحذف سيكون كما أكمله المتلقي وتوصل إليه بقدرته على مشاركة الكاتب في عملية الإبداع فيقدر المحذوف بقوله "فإن من صغرت رغبته في الأشياء أو غيرها وقصرت حاجته في الدنيا؛ أراح بدنه من التعب، ولازم أحبابه في الوطن أو الدار، وصان وجهه عن المسألة أو الذل أو غيرهما، وسلم له دينه من الباطل، وأكرم عن الدنيا نفسه" وبعملية المشاركة يتفاعل المتلقي مع النص وكأنه مبدعه ويضع نفسه مكان الكاتب

(768) السابق، ص ١٩٤.

(769) السابق، ص ٢٢٨.

(770) السابق، ص ٢٠٩.

(771) السابق، ص ٢٠٣.

يشعر بنفس شعوره ويختلجه ما يختلج الكاتب من انفعال، وهو غاية ما يطلبه كل مبدع من جذب المتلقي ليعيش معه لحظات إنتاج النص.

وقد يهدف الكاتب من وراء إشراك المتلقي معه لإكمال الناقص، من سطح النص إلى شدّ انتباهه وضمان تيقظه، كما في قوله "إن الشيطان إنما استدعاهم بصغار الأمور ليرفعهم إلى كبارها، وإنما رغبهم ليوقع بهم، ثم يقع بهم، ويتخلى عنهم" (٧٧٢).

حذفت أشباه الجمل (في صغار الأمور، في الدنيا، في النار، في الآخرة) بعد (رغبهم، ليوقع بهم، يقع بهم، يتخلى عنهم) وعملية الإكمال تشد من انتباه المتلقي للنص ومن ثم تزيد من تأثير النص فيه.

إن تكرار مادة (الوقوع) وإسنادها إلى الشيطان مع تقريب الكاتب بينها على سطح النص بعد حذف أشباه الجمل بعدها تؤكد للمتلقي الارتباط الوثيق بين الوقوع والشيطان، فلا يسعه الهروب من الوقوع في الدنيا أو الآخرة إلا بمجاهدة الشيطان الذي مثله الكاتب في الفتنة ومعصية حكام الدولة.

وقد يعمد الكاتب إلى حذف شبه الجملة لتضفي على الدلالة تفاؤلاً يقوي به نفسه عند سيطرة اليأس عليه، كما في قوله أثناء الهروب "وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداً... وإن يلحقنا ظفر جرح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الأسار والصغار" (٧٧٣).

حذف الكاتب شبه الجملة (لنا) بعد (جرح) لينأى بنفسه عن الظفر الجرح، الأمر الذي يعطيه بعض الأمل في النجاة من الموت أو الهروب من سيطرة اليأس عليه. وهو ما جعله ينأى عن إسناد الرجوع إلى من يلاحقه، ولكن أسنده إلى نفسه (نرجع) لإظهار بعض الفاعلية ضد من يلاحقه.

وآخر ما نتوقف عنده من دلالات نستقيها من حذف الكاتب لشبه الجملة دلالة العموم التي تطفو على سطح النص باختفاء شبه الجملة التي تحصره في شيء محدد لعموم اتباع خطوات السلامة لعموم المكان في قوله "فإن أردت نزولاً أمرت صاحب الخيل... فوقفت خيله منتحية من معسكرك" (٧٧٤).

فإن حذف شبه الجملة (به) التي ترجع على المكان، أضفى على المكان عموماً يتوجب اتباع خطوات السلامة ومعرفة أحواله لأي مكان ينوي النزول به، وليس مكاناً محدداً يتبع فيه تلك الخطوات دون اتباعها في أماكن أخرى.

أو عموم الأشخاص الذين ينزل بهم غضب الخليفة للتهويل من أمر الغضب في قوله "ولو ناهضناه بالطلب إليه في سورة موجدته تخوفنا عليك من سطواته نازل عقوبة ينفذ بها أمره الذي تقصر أيدينا عن رده" (٧٧٥).

(772) السابق، ص ٢٠٧.

(773) السابق، ص ٢٧٩.

(774) السابق، ص ٢٥٦.

(775) السابق، ص ٢٠٨.

حذفت شبه الجملة (بك) بعد (نازل عقوبة)، و(عنك) بعد (ردّه) لعدم حصر محل العقوبة أوردها في شخص واحد ليضفي على الغضب صفة عامة تستتبع نزول العقوبات على كل من حرك هذا الغضب وليس المتلقي وحده. وبهذه الصورة يضيف الكاتب على الغضب تهويلاً يزيد من تحرّي الأفراد الدقة في التعامل مع الخليفة حتى لا يحرك غضبه.

أو عموم نعمة الإسلام وشرائعه على جميع الناس في قوله "أما بعد فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام ديناً: رضى شرائعه، وبين أحكامه ونور هداه" (٧٧٦).

حذفت شبه الجملة (لنا، أو للناس) بعد (اصطفى، رضى، بين، نور) ليشمل جميع من على الأرض حتى غير المتبع له، لأن نعمته تظهر على عموم الناس مما يطول ذكره.

● حذف المفعول به:

نوع الكاتب في المفعول به المحذوف كمّاً وكيفاً نستكشفه من الجدول التالي:

نوع المفعول به المحذوف	عدد المواضع	العدد	النسبة
ضمير الهاء في جملة واحدة	١٨	١٨	٣٤ %
ضمير الهاء في جملتين متتاليتين	٧	١٤	٢٦ %
ضمير الهاء في ثلاث جمل متتالية	٣	٩	١٧ %
ضمير (نا)		٢	٣,٧ %
ضمير المتكلم (ي)		١	١,٨ %
ضمير المخاطب (ك)		١	١,٨ %
مجموع الضمير		٤٥	٨٣,٣ %
اسم ظاهر وحده		٦	١١ %
ضمن جملة		٣	٥,٧ %
مجموع الاسم الظاهر		٩	١٦,٧ %
الإجمالي		٥٤	١٠٠ %

ومن الجدول يتبين لنا أن حذف المفعول به كضمير يقارب تسعة الأعشار، احتلت الهاء وحدها ما يقارب أربعة الأخماس.

إن حذف الضمير الواقع مفعولاً به تدل عليه قرائن السياق، فلا بد من عودة الضمير عمومًا على متقدم، ولهذه الخاصية، فإن حذفه يدفع المتلقي إلى أعمال الذهن للوصول إلى قرينة تمكنه من تقدير أو معرفة المحذوف، وهذا النشاط الذي يعمل به المتلقي يبقيه دائماً قريباً من الدلالة.

(776) السابق، ص ٢٧٣.

ويوظف الكاتب حذف المفعول به ليدل على العموم وعدم حصره في محدد، كما في قوله معبراً عن تنعم أخيه في ظل الوطن "... تحاول قليل ما أنت فيه وكثيره بقصير خطوة إن مشيت" (٧٧٧).

حذف الضمير من (مشيتها) ويرجع إلى الخطوة التي تحدد مسافة المشي بخطوة قصيرة، ولكن حذفه يضيف عموم الوصول إلى ما يريد بأقصر الخطوات. وفي قوله في سياق الدعاء "والله يقي المخوف الهائل والمفزع النازل" (٧٧٨).

حذف الضمير الواقع مفعولاً به من (يقينا) الذي يحصر الوقاية في جماعة القائمين بالدعاء، ولكن حذفه أضفى عموماً على وقاية الله للناس من المصائب. • وعندما يكون ذكر المفعول به يستدعي الفصل بين الفعل وفاعله يحذفه الكاتب لاختصار الوصول إلى الفاعل خاصة إذا كان الفاعل معظماً، كلفظ الجلالة في قوله "... وأنا معاجلهم بالعقوبة إن عادوا لتصغير شيء مما عظم الله" (٧٧٩). حذف الضمير الواقع مفعولاً به من (عظمه) الذي يفصل بين فعل التعظيم ولفظ الجلالة لاختصار الوصول إلى لفظ الجلالة للتبرك به، أو إضفاء تأكيد على الدلالة بذكره.

وفي قوله أيضاً "... إلى نزل من حميم، وتصلية جحيم سوى ما ألقحت الحفيظة في نفسه من عوائد الحسك" (٧٨٠).

إن وصف الكاتب لحال أحد الخارجين على الدولة المهزومين يستدعي الاختصار للوصول إلى الفاعل - الذي كان أساساً في خروجه على الدولة ونتج عنه المصير السابق في الشاهد، وهو (الحفيظة) فحذف الضمير الواقع مفعولاً به من (ألقحته) ليضع الفاعل في دائرة اهتمام المتلقي ليعرف ما سيصل إليه كل من خرج على الدولة واتحاد مصيره مع مصير المذكور في الشاهد.

• وقد يحذفه الكاتب لوقوعه فاصلاً لمادة لغوية متكررة، كما في قوله "... فيشق ذلك على أصحاب الأحراس ويكون فيه النهضة للعدو، والبعد عن المادة، إن طرق طارق في فجأت الليل وبغتاته" (٧٨١).

حذف الضمير الواقع مفعولاً به من (طرقهم طارق) لإظهار المادة اللغوية المتكررة التي تحدث أثراً موسيقياً ينبه المتلقي إلى خطر التفاجؤ بالعدو.

• وقد يعكس حذف المفعول به احتذاءً بأسلوب القرآن الكريم، كما في قوله في سياق تهديد أحد الخارجين على الدولة "فتأهب لذلك أهبتك، واخطب له خطبتك من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون" (٧٨٢).

(777) السابق، ص ٢٠٤.

(778) السابق، ص ١٩٧.

(779) السابق، ص ٢٠٧.

(780) السابق، ص ٢٨٠.

(781) السابق، ص ٢٤٤.

حذف الضمير الواقع مفعولاً به من (فلا تنتظرون) متأثراً بألفاظ وتراكيب القرآن الكريم بقول الله تعالى (قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ)^(٧٨٣).
وقول الله تعالى: (... فُكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ)^(٧٨٤) ليضفي على النص هالة دينية تصبغ التهديد الذي يُشعر المتلقي بأنه خرج من الدين بخروجه على الخليفة.

وعندما يحذف عبد الحميد الاسم الواقع مفعولاً به يهدف من وراءه إلى وضع مذكور في دائرة اهتمام المتلقي فيأتي حذف المفعول به لتسريع الوصول إلى هذا المذكور، كالاهتمام بالنعته في قوله "وابعث بها وخذ إليها أميئاً في دينه، مأموناً على ما استودع"^(٧٨٥).

حذف الكاتب المنعوت الواقع مفعولاً به من قول (خذ شخصاً أميئاً) لعدم الاهتمام بالشخص ذاته، لكن بصفته فقط التي يحتاجها الخليفة فيه لضمان وصول الجارية المطلوب شراؤها في سلامة.

فحذف المفعول به أظهر نعته (أميئاً) ليبقى أمام المتلقي مهتماً به، ويكون الأساس الذي يختار به من يرافق الجارية إلى الخليفة.

أو الاهتمام بالحال في قوله "فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك... فأصدرت رأيك في حوائجه وأجلت فكرك في أمره، واخترت معتزماً على إرادتك في جوابه"^(٧٨٦).

حذف المفعول به من قوله (واخترت الرأي معتزماً) لوضع الحال بعده في دائرة الاهتمام، فإن حال العزم من الأهمية بحيث يسرع في الوصول إليها بعد (اخترت) ليوضح للمتلقي أن العزم في الإجابة أهم من اختيار الرأي نفسه.
وفي قوله "فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو في نعمة الله عليه وبلائه عنده"^(٧٨٧).

وقوله "وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً"^(٧٨٨).

لنتأمل التشابه التركيبي في الشاهدين من حذف المفعول به (الكتاب أو كتابي) بعد الفعل (كتب) في الشاهد الأول، والفعل (كتبت) في الشاهد الثاني، ثم يتبعه بجملة الحال التي تبدأ بالواو وبعدها جملة اسمية (وهو في نعمة الله عليه)، (والأيام تزيدنا منكم بعداً)، ويؤكد لنا هذا التشابه لجوء الكاتب إلى حذف المفعول

(782) السابق، ص ٢١٤.

(783) الأعراف آية ١٩٥.

(784) هود، الآية ٥٥.

(785) عبد الحميد بن يحيى ...، ص ١٩٨.

(786) السابق، ص ٢٢٧.

(787) السابق، ص ٢٧٥.

(788) السابق، ص ٢٧٩.

به للعبور بالمتلقي إلى الحال ليضعها في دائرة اهتمامه لتمثل أمام المتلقي حال الكاتب لحظة الكتابة.
حذف فعل وفاعله

بلغت مواضع حذفهما معاً ثمانية عشر موضعاً كلها في قطعة واحدة، تصدر كل جملة المفعول به ليطالع المتلقي أول كل فاصلة في قوله ناصحاً ولي العهد "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد وتصون سرك بالكتمان...، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردي، وأنتك فوقها الملال وفوت العمل، ومضاعتك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فائف عنه عي اللفظ وخف فيه سوء القالة، واستماعك فأرعه حسن التفهم وقوه بإشهاد الفكر، وعطاءك فامهد له بيوتات الشرف وذوي الحسب وتحرز فيه من السرف وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصد، وحلمك فزعه عن التهاون، وأحضره قوة الشكيمة، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط وتعمد به أهل الاستحقاق، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق... واستئناسك فامنعه منه البذاءة وسوء المنافثة، وتعهدك أمورك فحدّه أوقاً...، وعزماتك فائف عنها عجلة الرأي ولجاجة الإقدام وفرحاتك فاشكمها عن البطر وقيدها عن الزهو وروعائك فحطها من دهش الرأي واستسلام الخضوع وحذارتك فامنعه عن الجبن واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيدته بخوف الفائق وامنعه من أمن الطلب. هذه جوامع خلال" (٧٨٩).

إن أعمال المتلقي ذهنه في استعادة المحذوف أو تقديره يكون عن طريق قرائن السياق وعندما يتم معرفة المحذوف نجد تكراراً للجمل مرة في النص بعد المفعول به (وأنتك فوقها) ومرة في ذهن المتلقي (فوق أنتك)، وهذا التكرار يمثل إلحاحاً على ولي العهد (المتلقي) في تقبل النصائح التي وجهها إليه الكاتب. إن تصدر المفعول به للجملة يعطيه من الأهمية بحيث تقوم كل المفردات بعده على خدمته، ويكون لدى المتلقي بمثابة مفتاح كل فاصلة لا يمكن الاستغناء عنه أو تجاهله ويمثل عودة الضمير بعده عليه حضوراً دائماً له في النص ليبقى في ذهن المتلقين ويؤكد الكاتب هذا البقاء بفعل الأمر ذي الدلالة التأكيدية (فوقها، فدرعها، اكنفها، فاحرسها...) إن التشابه التركيبي وامتداده في النص يثريه موسيقياً ليكون معادلاً ومعوّضاً عن الاسترسال في سرد النصائح بإلحاح على المتلقي حتى لا يصيبه الملل من طول سياق النصائح. ويحسب فيه للكاتب قدرة على صب المعاني المختلفة في قالب تركيبي واحد يستخلص منه المتلقي هذه المعاني المختلفة، ولكن تشابه التراكيب أو تكرارها يضيف تأكيداً لهذه المعاني وإلحاحاً على المتلقي في تحري الدقة في استقبالها.

● حذف أداة النداء (يا)

(789) السابق، ص ٢٢١.

وقد حذف الكاتب أداة النداء ليضفي على المنادى من القرب ما يؤثر في المتلقي بالشعور بمحبة الكاتب، ويناجي فيه رد الفعل بمحبة مماثلة كما في قوله للخليفة "وأنت أمير المؤمنين من الله بمكان من حق عليه النكير عليهم" (٧٩٠). ورد النداء (أنت أمير المؤمنين) في سياق طلب معاقبة الخليفة لبعض المغالين في الدين من جنود قد أرسلهم للحرب، فتوجب على الكاتب إظهار قربيه ومحبه وتعظيمه للخليفة الأمر الذي قد يحفز على قبول ما يطلب. وفي توظيف مماثل يقول عبد الحميد في تعزية الخليفة وبني أمية في أحد أفرادها "فعلمنا أهل البيت من أداء الحق إلى الله وطاعته" (٧٩١). حذف الكاتب أداة النداء (يا) من (فعلمنا أهل البيت) ليزيل الحاجز الذي قد يباعد بينه وبين أهل البيت، ليحقق بهذا الحذف قرباً من الأمويين يظهر به حبه لهم.

● الحذف في جملة الشرط

نوع الكاتب في حذف أركان أسلوب الشرط ولم يلتزم بحذف ركن بعينه؛ ليضفي بهذا التنوع تنوعاً دلاليّاً نستقيه من إخفاء الركن المحذوف. فقد يحذف الجواب لاختصار الوصول إلى ما بعده لتأكيد القيام برد فعل مناسب تجاه الشرط في قوله على لسان مروان مهدداً بالأخذ بثأر الخليفة المقتول من قاتليه من بني أمية "وإن كانت القلوب عنه نافرة والمطلوبون بدم الخليفة ولاية من بني أمية، فإن دمه غير ضائع" (٧٩٢). فإن الوصول إلى (إن) ذات الدلالة التأكيدية التي تظهر تصميمًا على الأخذ بالثأر مهما كان القاتل قريباً أو قوياً أو حتى من أفراد البيت الأموي - كان غاية الكاتب من حذف الجواب. أو حذف أداة الشرط ليقوم المتلقي بملء فضاء النص ليزداد احتكاكه بدلالة الشرط في قوله "عدة لأمر إن فاجأك، أو طارق بيتك" (٧٩٣). حذف الكاتب أداة الشرط (إن) من طارق إن بيتك وفي هذا مشاركة من المتلقي للكاتب في ملء فضاء النص ليتجاوب مع الكاتب فيما يوجهه إليه من تشديد الحراسة.

● حذف المضاف إليه

وظف الكاتب حذف المضاف إليه لإضفاء دلالة التحقير على المحذوف، كتحقير من يقيم على لعب الشطرنج بتغييبه عن سطح النص في قوله "...

(790) السابق، ص ٢٠٧.

(791) السابق، ص ١٩٤.

(792) السابق، ص ٣٠١.

(793) السابق، ص ٢٦١.

واحتبالهم بالشبه والمراد الخفية المشكلة، وكلّ مقيم على معصية الله، صغرت أو كبرت^(٧٩٤).

فافتتران لعب الشطرنج بالإقامة المتواصلة على معصية الله دفعت الكاتب إلى احتقار اللاعب بتغييبه بعد (كل) ويصل المتلقي إلى دوافع الكاتب في حذفه بسرعة الوصول إلى (مقيم) التي توضح سبب احتقار الكاتب للاعب الشطرنج. أو يهدف إلى تحقيق سرعة مطلوبة تدعو المتلقي إلى تلقي النصائح واعتماد السرعة في تنفيذها في قوله عن دخول الجنود أو الوفود عليه بمسألة "ثم إياك وأن يصل إليك أحدٌ من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك أو حاجة ييدهك بطلبها حتى يرفعها قبلُ إلى كاتبك"^(٧٩٥).

فحذف المضاف إليه بعد (قبل) ليوحي إلى المتلقي (ولي العهد) اعتماد السرعة في رفع المسألة للكاتب قبل الدخول عليه، تلك السرعة التي يشدد عليها بالتحذير من التقاعس (إياك)، ودفعته إلى حذف مضاف إليه آخر بعد (أحد).

● حذف المبتدأ

يأتي حذف المبتدأ لبداية علم المتلقي به ويوظف الكاتب هذه الخاصية لوضع الخبر في موقع الصدارة لما له من أهمية، كتصدير كلمة (خصال) التي توضع في دائرة اهتمام المتلقي في قوله "وخصال من معائب الملوك والسوقة عنها غيبة النظر"^(٧٩٦).

حذف الكاتب المبتدأ (هذه) ليتصدر الخبر (خصال) جملة ومن السهل على المتلقي استحضار المبتدأ في ذهنه، ومن شأن هذا الحذف بجانب الاهتمام بالخبر المذكور أن يجذب انتباه المتلقي، وكان الكاتب في حاجة إلى هذا الانتباه خاصة وأن الشاهد جاء في ختام نصائح أخلاقية شغلت مساحة، كبيرة من رسالته لولي العهد وجاءت قبل هذا الشاهد مباشرة.

وتصدير كلمة (رجال) المقصود بها جنود الدولة، ليعظم من شأنهم ويبرز حالهم من الرجولة أمام المتلقي في قوله في سياق تهديد أحد الخارجين "ويرد عليك من ذلك حزبه المنصور... رجالٌ هم الرجال"^(٧٩٧).

● حذف فعل ناسخ واسمه

ويأتي حذف الفعل الناسخ واسمه لعلم المتلقي بالمحذوف بعد البحث في قرائن السياق ويهدف الكاتب من حذفهما وإثبات الخبر لوضعه في الصدارة ليستحوذ على اهتمام المتلقي.

(794) السابق، ص ٢٦٧.

(795) السابق، ص ٢٢٧.

(796) السابق، ص ٢٣٢.

(797) السابق، ص ٢١٤.

وتكرر حذفهما في قطعة واحدة جاءت في سياق صفات أدوات القتال الذي يظهر فيه الكاتب تلك الصفات ويسترسل فيها وأنواعها، فكان الحذف ليعادل الاسترسال حتى لا يصيب المتلقي بالملل، مع وضع أداة القتال في الصدارة لوقوعها خبراً للفعل الناسخ المحذوف مع اسمه في قوله "ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيول وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجواهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس ... هندية الحديد، يمانية الطبع.. ملبدن بالترسة الفارسية: صينية التعقيب... وقسي الشريان والنبع: أعرابية الصنعة مختلفة الأجناس... ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض، منبسطة السية"^(٧٩٨).

حُذفت الأفعال الناسخة وأسمائها من (لتكن السيوف هندية الحديد، لتكن الترسنة صينية التعقيب، ولتكن القسي أعرابية الصنعة)، وقد دلت قرائن السياق على المحذوفات في أول السياق (لتكن دوابهم) وآخر السياق (ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض).

ومن الملاحظ استرسال الكاتب في سرد صفات وأنواع أدوات القتال بشيء من التفصيل، فلجأ إلى الحذف ليعادل هذا الاسترسال ويضمن انتباه المتلقي لأدوات القتال المطلوبة.

● حذف فعل وفاعل ومفعول

تشابه سياق حذف جملة مكونة من فعل وفاعل ومفعول مع سياق حذف الفعل الناسخ واسمه، فكلاهما سياق تفصيل صفات وأنواع أدوات القتال مع نفس التوظيف الدلالي أيضاً ولكن مع اختلاف نوع المحذوف في قوله "وخذهم من السلاح بأبدان الدروع ماذية الحديد، شاكة النسج، متقاربة الحلق، متلاحمة المسامير، وأسوق الحديد مموهة الركب، محكمة الطبع..."^(٧٩٩).

وكان المحذوف (اختر الدروع ماذية الحديد، وأسوق الحديد اخترها مموهة الركب)، وربما كان هذا الحذف معادلاً لاسترسال الكاتب في سرد صفات أدوات القتال ليضمن بهذا الحذف انتباه المتلقي لصفات تلك الأدوات دون الإطالة عليه، خاصة وأن المحذوف تدل عليه قرائن السياق.

الالتفات:

إن لجوء الكاتب للالتفات من ضمير إلى آخر أو من أسلوب إلى آخر يفاجئ المتلقي ويقطع سيل الكلمات في نقطة موضوعية تمثل المكان الذي تفاجأ فيه المتلقي. تلك النقطة التي يعمد إليها الكاتب لتكون المثير لدهشة المتلقي حتى ينتبه إلى خطوط الصياغة وما تضمهره من دلالة تستوجب على المتلقي استكشافها. وقد فطن بعض القدماء من النقاد والبلاغيين إلى تأثير المبدع في المتلقي عن طريق الالتفات "وقال الزمخشري - رحمه الله - إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما

(798) السابق، ص ٢٦١.

(799) السابق، ص ٢٤٦.

يستعمل للتفنن في الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب، تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه^(٨٠٠).

ومنهم من فطن إلى حاجة المبدع إلى الالتفات لضرورة اقتضت ذلك فالانتقال "من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته"^(٨٠١).

وقد توزعت أنواع(*) الالتفات في نثر عبد الحميد كالتالي:

نوع الالتفات	العدد	النسبة
التفات كمي	٤٥	٦٥ %
التفات كفي	١٧	٢٤ %
التفات كمي كفي	٨	١١ %
الإجمالي	٧٠	١٠٠ %

ومن الجدول نلاحظ كثرة الالتفات الكمي بالمقارنة بالكيفي أو الكيفي الكمي، وهذا النوع يظهر مدى مسئوليات عبد الحميد في الدولة من توجيه رسائله إلى الأفراد والجماعات دون الاقتصار على أحدهما، أو لاتصبا بموضوعات الرسائل على أفراد وجماعات، أو لتوجيه الخطاب من نفسه كفرد أو مجتمعاً مع غيره من الموجهين للخطاب.

التغيير	العدد	النسبة
أ- من المفرد إلى الجمع	١٢	٢٧ %
١. من الغائب إلى الغائبين	٧	١٦ %
٢. من المتكلم إلى المتكلمين	١	٢ %
٣. من الغائبة إلى الغائبات	١	٢ %
٤. من الغائبة إلى الغائبين	١	٢ %
٥. من المخاطب إلى المخاطبين		
المجموع	٢٢	٤٩ %
ب. من الجمع إلى المفرد	٥	١٢ %
١. من الغائبين إلى الغائب	١	٢ %
٢. من الغائبات إلى الغائبة	١	٢ %
٣. من الغائبين إلى الغائبة	١	٢ %
٤. من المتكلمين إلى المتكلم		
المجموع	٨	١٨ %
ج. التعبير من المفرد بالجمع	١٠	٢٣ %
د. التعبير من الجمع بالمفرد	٤	٨ %

(800) المثل السائر، ج ٢ ، ص ٣.

(801) السابق، ج ٢ ، ص ٤.

(*) عولنا كثيراً في دراسة الالتفات علي (في النص الشعري)، ص ٢٢٧ وما بعدها.

٢ %	١	هـ. من المثنى إلى الجمع والعكس
٣٣ %	١٥	المجموع
١٠٠ %	٤٥	الإجمالي

أ. الالتفات من المفرد إلى الجمع:

إن التحول من المفرد إلى الجمع من الظواهر التي تضيف على النص اتساعاً يجعل منه شاملاً لأكثر من مفرد، وتصهر الأفراد جميعاً في بوتقة واحدة تعكس مدى اهتمام عبد الحميد بوحدة الجماعة التي تعد من المشاغل الرئيسية في رسائل عبد الحميد وسنعرض لها في الصفحات التالية.

١. الالتفات من الغائب إلى الغائبين.

وقد تمثلت وحدة الجماعة في أكثر من موضوع أهمها انصباب الحديث على الفارس المفرد وكيفية إعداده للحرب ثم يمثل الالتفات إلى جمع الغائبين انصهار كل فارس فرد في جماعة الفرسان التي تنسحب على عموم الجنود في قوله "ليكن أول ما تتقدم في التهيؤ لعدوك والاستعداد للقاءه انتخائبك من فرسان عسكري، وحماة جنك ذوي البأس والحنكة والجلد والصرامة، ممن قد اعتاد طراد الكماة وكشّر عن ناجذة في الحرب ... خائضاً غمرات المهالك برأي يؤيده الحزم، ونية لا يخالجها الشك، وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة، عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرفها... ثم اعرضهم رأي عين على كراعهم"^(٨٠٢).

إن الاستعداد باختيار الفرسان (ذوي البأس) ثم تفصيل صفات الفارس الواحد (ممن قد اعتاد الكماة ...)، الأمر الذي يوحي بتشابه الصفات التي تحكم اختيارهم، أو بالأحرى تشابه الفرسان في كل الصفات كأنهم صور لأصل واحد، ثم الالتفات إلى الجمع (عارفين) كبدائية إلى الحديث عن جماعة الفرسان يؤكد وحدة الفرسان التي يرمي إليها عبد الحميد التي مثلناها بتطابق كل الصور لأصل واحد يضمن به عدم خروج فرد منهم عن الجماعة مع شمول الصفات المطلوبة عليهم بلا استثناء لتحقيق المنفعة العامة من نصر للدولة لن يتم إلا بوحدة الجنود.

ومن خارج وطنه يكتب عبد الحميد عن حاله في الغربة التي يصور فيها وحدة كل المضيفين له على موقف واحد منه وهو التجبر الذي يتكرر من مضيف لآخر، كتطابق كل الصور على أصل واحد، يقول عبد الحميد "... ووحشة من نصير إليه، مع تجبر من تعامل باستطالته علينا فإن لنا منهم خطأ وأصبنا من دنياهم حظاً؛ نكره طول السفر الممل لنا من عقد الرحال وحلها"^(٨٠٣).

نتأمل الالتفات من الغائب (إليه، باستطالته) إلى الغائبين (منهم، دنياهم) الذي يوحي بتكرار التجبر من مضيف لآخر أو تكرار ضياع ما يناله منهم رغم قلته الذي نفهمه من تنكير (حظاً، حظاً) ويغذي هذه القلة دلالة الشرط على احتمال الحصول على القليل أو عدم الحصول عليه، واتحاد الموقف المستقوى من تطابق كل

(802) عبد الحميد بن يحيى ...، ص ٢٦٠.

(803) السابق، ص ٢٠٤.

المضيفين إنما يظهر مدى شقاء الكاتب في غربته وكأن الدنيا تكالبت عليه بشتى الوسائل مما يعكس حب الكاتب وشوقه إلى الوطن.

وفي حديثه عن أصحاب الفتنة يجعل منهم فئة تجتمع على الضلالة في قوله "... ثم جعل من عاندهم وابتغى غير سبيلهم مُسَلِّمًا، قد استهوته ذلة الكفر بظلمها، وحيرة الجهالة بجوارها، وتيه الشقاء بمغاويه وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباءً، ازداد الحق إليهم ازدلاقاً" (٨٠٤).

لنتأمل الالتفات من الغائب (استهوته) إلى الغائبين (ازدادوا، إليهم) الذي يغذي فكرة اتحاد كل المفتونين في صفات وأفعال واحدة، لأن المصدر المحرك لهم واحد هو الفتنة التي توجههم، وهذا الاتحاد على الفتنة إنما يكشف للمتلقين ضرورة مناهضة المفتونين لأن خطرهم يزيد بالاجتماع، ويظهر لنا مدى مسئولية عبد الحميد في حشد عموم الناس لينصهروا في الدولة ومساندة الخليفة في حربه ضد الخارجين على الدولة.

● من المتكلم إلى المتكلمين:

إن الالتفات من المتكلم (الكاتب) إلى جمع المتكلمين يقوي لدينا فكرة ذوبان الكاتب في الجماعة، وإضفاء العموم والشمول في توجيه الخطاب، فرأي الكاتب لا ينفصل عن رأي الجماعة ولا يخرج عنه لأنه في مكانه نائباً عنهم في الخطاب ففي قوله مخاطباً زعيم الخارجين "فتأهب لذلك أهبتك واخطب له خطبتك من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون. فما أسرتنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول..." (٨٠٥).

بدأ الكاتب توجيه الخطاب بصيغة المتكلم (كيدوني، لا تنظرون)، ثم عدل إلى المتكلمين (أسرتنا)، ليذوب في الجماعة ويلفت نظر المتلقين إلى أن موقف الكاتب منه كموقف عموم الناس في الدولة ليدرك كثرة من يواجهونه ومدى خروجه عن جماعة المسلمين، الأمر الذي يجعلنا نفهم تنوع وسائل الكاتب في الوصول لهدفه من الرسالة من القضاء على الخارجين سواء بالتهديد أو بالاستمالة والدخول في الجماعة التي يمثلها في الدولة.

وفي وصف مشهد من مشاهد الصيد يلتفت الكاتب من المتكلم إلى المتكلمين ثم إلى المتكلم ويرجع ثانية إلى المتكلمين ليتضح لنا تذبذب الكاتب بين أنا ونحن، أو بالأحرى العدول إلى المتكلمين كلما تذكر أنه فرد في جماعة الصائدين يقول عبد الحميد "وإني أخير أمير المؤمنين: أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح وأثقف الضواري... فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها... وطامح يمنعه وسائح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة" (٨٠٦).

عدل الكاتب من المتكلم (إني أخبر) إلى المتكلمين (أنا خرجنا) ثم المتكلم (أمرت) إلى المتكلمين (حيرتنا، ألهجتنا) ليصهر نفسه في جماعة الصيد ويعكس

(804) السابق، ص ٢٧٣.

(805) السابق، ص ٢١٤.

(806) السابق، ص ٢٧٠.

مشاركته لهم في أعمال الصيد فيجعل من رسالته للخليفة ذات مصداقية عالية في وصف الصيد لأنه مشارك فيه وليس راصداً لهم، ويعكس مع ذلك إدراك عبد الحميد أنه فرد في جماعة لا ينفصل عنهم يشاركونهم أعمالهم، ويصيبه ما يصيبهم حتى في هروبه في قوله "وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداً" (٨٠٧).

فبعد الحميد كتب وحده، ولكن حاله لا ينفصل عن حال من يشاركونهم الهروب من البعد عن الأهل والوطن (تزيدنا)، وكأنه يصور بقلمه حال الجماعة كلها، وما يتمسك به من مبدأ بعدم الخروج عليهم حتى في أصعب المواقف.

● من الغائبة إلى الغائبات

وظف الكاتب هذا الالتفات ليكشف للمتلقى قاعدة عامة تشارك المرأة فيها كل النساء، وعموم القاعدة عليهن تحمّل المتلقى المسؤولية تجاه ما يصدر عنهن عموماً وعن زوجه خصوصاً في قوله لولى العهد فيما شكته زوجه للخليفة "حتى انتشر عنك وعنهما بسوء الإدارة من كل واحدة منكما لصاحبه أمركما، وهن النساء ورقتهن وضعف نحائزهن، وقلة صبرهن، وشدة غلبة الشيطان عليهن، ثم هن بعد ذلك معوجّات يميل بهن بعض نقص الآراء وسوء الإدارة ودهى العقول فلم تعتزم على الصبر مدارياً لها، ولم تعمل بالحزم آخذاً به وكانت ابنة عمك أنجب ولدًا.." (٨٠٨).

فزوج المتلقى لا تخرج عن جماعة النساء في شيء وما تفعله نابع من فطرة النساء التي فطرن عليها، وبهذا يكون المتلقى متحملاً المسؤولية الكاملة تجاه ما فعلته زوجه تجاهه من إساءة.

فالالتفات من الغائبة (عنها) إلى الغائبات (هن، رقتهن ... إلخ)، ثم العودة ثانية إلى الغائبة (مدارياً لها) ساعد عبد الحميد في التماس العذر لها لدى المتلقى بجعل القضية عامة النساء جميعاً ثم يأتي الالتفات الأخير بمثابة توجيه المتلقى إلى الاختصاص بالمدارة بواحدة منهن فقط هي زوجه.

● من الغائبة إلى الغائبين..

وقد وظف الكاتب هذا الالتفات أيضاً في لفت انتباه المتلقى إلى ضرورة الاجتماع في واحد يشمل الجميع ويؤكد فكرة انصهار الفرد في الجماعة، يقول عبد الحميد "ثم مره أن يخرج كل ليلة قائداً من أصحابه... ذاكية أحراسه، قلقة التردد، مفرطة الحذر، معدة للروع، متأهبة للقتال، آخذة على أطراف العسكر ونواحيه، متفرقين في اختلافهم كردوساً كردوساً... واجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكرك نوباً معروفة وحصصاً مفروضة، لا تعر منها مزدلقاً بمودة منك، ولا تتحامل فيه على أحد بموجدة" (٨٠٩).

(807) السابق، ص ٢٧٩.

(808) السابق، ص ١٩٣.

(809) السابق، ص ٢٥٠.

عبر الكاتب عن جماعة الحراس بالغائبة (معدة، متأهبة، آخذة) ثم عدل إلى الغائبين (متفرقين في اختلافهم) ثم عودة ثانية للغائبة (لا تعر منها) ليغذي فكرة الواحد في جماعة والجماعة في واحد، وينتهي الالتفات إلى الغائبة ليوحي لولي العهد بضرورة عمل الجنود ككتلة واحدة يصعب اختراقها أو تفرقها حتى يحقق النصر بوحدهم.

• من المخاطب إلى المخاطبين والعكس:

وقد وظف الكاتب هذا الالتفات ليشمل فئة يمثل المخاطب فرد منها لا يختلف عنهم ويستتبع ذلك شمول الخطاب عليهم، ثم يأتي الخطاب إلى الفرد وحده ليرفع من حدة الخطاب الموجه من الكاتب إليه، كالتهديد والوعيد في قوله لزعيم الخارجين "فتأهب لذلك أهبتك، واخطب له خطبتك من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون. فما أسرنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول، فإنك لا تكثف جمعاً، ولا تشرب خيلاً إلا وثقتا أن سيمدنا الله من ملائكته، ويؤيدنا من نصره بما قد جرت به سنته، وسلفت به عادته، ونحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة فرأيتم ذلك في المنازل، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل، فأبشر منا بما ساءك ضجرًا، ومشاك ثقاد كما يقاد الجمل المخشوش"^(٨١٠).

بدأ توجيه الخطاب إلى زعيم الخارجين (تأهب، أهبتك، اخطب، خطبتك) ثم عدل إلى المخاطبين (كيدوني، تنظرون)، ثم عودة للمخاطب (إكثارك، حشدك، إنك تكثف، تشرب) ويلتفت عنه إلى المخاطبين (فرأيتم، عرفتموه)، ثم عودة ثالثة للمخاطب (أبشر، ساءك، مشاك، ثقاد)، لينتهي الخطاب إليه وحده ليشعر بالتهديد وتركيزه عليه وحده بعد شمول التهديد لفئة الخارجين ليؤكد الكاتب التهديد بالمصير المحتوم عليه وحده دون فئته مع اختفاء مصير فئته الأمر الذي يشعر المتلقي بمدى فداحة تزعمه لهم، ومن زاوية أخرى يحصر الكاتب فئة الخارجين في شخص زعيمهم الذي يمثل القضاء عليه قضاءً على كل الخارجين مما يعكس سهولة هذا القضاء أمام حشد رجال وجنود الدولة.

ب. الالتفات من الجمع إلى المفرد:

إن العدول عن الجمع إلى المفرد يمثل عدولاً عن الأشمل إلى الأخص أو من الأوسع إلى الأضيق، وحصر النص في المفرد بعد الجمع إنما يوظفه الكاتب توظيفاً دلاليًا يظهر من خلاله أهمية الأفراد وتميزهم.

• من الغائبين إلى الغائب

عندما يلتفت الكاتب عن الغائبين إلى فرد منهم يضع كل فرد في دائرة الاهتمام التي تتسحب على تميز الجماعة كلها لتمييز أفرادها. كالاتفات عن الفرسان إلى الفارس الذي يوهم به الكاتب المتلقي أنه سيصب حديثه على كل فارس منهم على حدا مظهرًا تميزه وانفراده الذي يعمم انفراد الفرسان بصفات

(810) السابق، ص ٢١٤.

وميزات يعجز أمامها المتلقي في قوله "يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شك محتك، في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل" (٨١١).

بدأ الكاتب حديثه عن الجنود بصيغة الغائبين (يزأرون، يثبون) ثم التفت إلى كل فارس بصيغة الغائب (شاك محتك، مجرب، شرب، أكل) ليوهم المتلقي أنه سيذكر صفات كل فارس وفي هذا الالتفات إظهار لتمييز كل جندي لينسحب هذا التمييز على كل الجنود ويعم الجيش كله، فهو جيش مثالي لكل جندي فيه مميزات يعجز أمامها المتلقي فما باله بجيش كامل من المتميزين وهو ما يغذي التهديد الذي قد ينال به الكاتب من المتلقي قبل النيل منه بالقتال.

وقد يهدف به الكاتب تنبيه المتلقي إلى ضرورة الانفراد بكل واحد من فئة معينة، كتنبية ولي العهد إلى ضرورة اختيار من يجالسه من المقربين إليه واحداً واحداً ليكون كل المجالسين له مميزين عمّن لا يجالسه، وانفراد فئة الجلساء بصفات كريمة يزيد من خبرة ولي العهد وإدراكه للأمور ويأمن بهذا الانفراد صدق النصيحة وفاعليتها مما يحتاجه في حربه ضد الخارجين في قوله "ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في شرك أهل الفقه والورع من خاصّة أهل بيتك وعامة قوادك ممّن قد حنكته السن بتصاريف الأمور وخبطته فصالها بين فراسن البذل" (٨١٢).

● من الغائبات إلى الغائبة:

وجاء هذا الالتفات في سياق الحديث عن طلب جارية ذات صفات محددة وإنما عدل الكاتب من الغائبات الأعم الأشمل (الجواري) إلى الأخص الذي انحصر في (جارية) ليضع الجارية في دائرة اهتمام المتلقي، وليتحرى الدقة في احتوائها على الصفات المطلوبة، أو بمعنى آخر يفهم المتلقي من الالتفات إلى الجارية أهميتها عند الخليفة ويجعله هذا الاهتمام مقدماً للبحث عن الجارية بصفاتها على كل مشاغله الأخرى يقول عبد الحميد "... فيما أراد اشتراؤه من الجواري لنفسه وأن يكون ما صار إليه منهن برأيك اشترين، وعن مشورتك قبلن، فابتع لأمير المؤمنين جارية منبتها في أهل بيت صدق من العرب" (٨١٣).

انصب حديث الكاتب على الجواري (منهن، اشترين، قبلن) ثم التفت إلى طلب شراء جارية واحدة ليلفت انتباه المتلقي إلى أهمية تلك الجارية عند الخليفة، فتخصيص واحدة منهن يكشف عن تلك الأهمية.

● من المتكلمين إلى المتكلم:

وقد ورد هذا الالتفات في سياق الإخاء مثل فيه المتكلمين عبد الحميد مشاركاً للمخاطب الذي تجمعه معه رابطة الإخاء الذي صهرهم في ضمير واحد

(811) السابق، ص ٢١٤.

(812) السابق، ص ٢٢٢.

(813) السابق، ص ١٩٧.

(نحن) يعكس قوة هذه الرابطة ثم يعدل عن المتكلمين إلى المتكلم (الكاتب) لينفرد بتوجيه الخطاب ويبرز دوره في هذه الرابطة ورأيه الشخصي في الإخاء، يقول عبد الحميد "جمعنا الله وإياك على طاعته وألفنا بمحابه، وجعل أخوتنا في ذاته، وقد حددت لك - أي أخي - الإخاء متشعباً ووصفته لك مخلصاً" (٨١٤).

التفت الكاتب عن جمع المتكلمين (جمعنا، ألفنا، أخوتنا) إلى (المتكلم (حددت)، ليحقق بجمع المتكلمين قرباً بينه وبين المخاطب يجمعهم في بوتقة واحدة تحت مظلة (نا) جمع المتكلمين ثم يمثل الالتفات (حددت) إيذاناً بانفصال الكاتب عن المخاطب ليقدّم له اعتذاراً عن استكمال تحديد صفات الإخاء لانشغاله بالحرب مع مروان.

ج. التعبير عن المفرد بالجمع:

استخدم الكاتب طريقتين للتعبير عن كلمة (العدو)، يعبر بها مرةً باعتبارها دالة على مفرد، وأخرى باعتبارها دالة على جمع، وما نفهمه من ذلك حصر كل الأعداء في شخص واحد أو هيئة واحدة تجعل من النص بما يحوي من خطاب موجه للمتلقى شاملاً لأعداء الدولة على اختلاف المكان والزمان أو درجة العداوة وفاعليتها.

وتقوى لدينا من زاوية أخرى فكرة الشخص الأوحد الذي بيده أمور الجماعة في نثر عبد الحميد، فكما الحال من انفراد الخليفة الحاكم بسلطة توجيه المحكومين يتعامل الكاتب مع الخارجيين على أساس انفراد زعيمهم بسلطة و سيطرة علي باقي أفراد الخارجيين، وربما يمكن من خلال فصل سلطته وسيطرته عليهم بقتله أو القضاء على خروجه على الدولة بأي شكل من الأشكال أن ينتهي الخروج على الدولة.

وبالفهم السابق يمكن أن يوحي الكاتب للمتلقى من خلال استعمال كلمة (العدو) للتعبير عن جمع الخارجيين تركيز القضاء على زعيم الخارجيين دون غيره، وحصر جميع من معه في شخصه هو، وقد تركزت كل الشواهد في رسالة واحدة هي رسالة الجند التي وجهت لولي العهد للاستعانة بما تحويه من نصائح حربية في مواجهة الخارجيين، وجاء فيها التعبير بكلمة (العدو) عن الزعيم وحده في بعض المواضع، وعن جمع الخارجيين في البعض الآخر وبهما معاً كالتفات من المفرد إلى الجمع أو العكس في مواضع أخرى، وفيما يلي رصد المواضع لإثبات ما ذهبنا إليه. فمن المواضع التي عبّر بها الكاتب عن المفرد قوله "إذا ابتليت ببيات عدوك، أو طرقك رائعاً في ليالك فليلفك حذراً مشمراً عن ساقك" (٨١٥).

وقوله أيضاً "قد سدّ ما بينه وبين صاحبه بالرماح شائعة، والتراس موضونة، والرجال راصدة، ذاكية الأحراس، وجلة الروع، خائفة طوارق العدو وبياته" (٨١٦).

(814) السابق، ص ٢٧٧.

(815) السابق، ص ٢٥٨.

(816) السابق، ص ٢٥٠.

وعبر بها عن الجمع في قوله "وابداً بالإعذار إلى عدوك والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة" (٨١٧). وقوله "وادسس إلى عدوك، وكاتب رؤساءهم وقادتهم، وعدهم المنالآت، ومثمهم الولايات" (٨١٨).

وقوله أيضاً "أو خرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك مكيدة... ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك؛ فتنقض عليهم بتدبيرك ورأيك ما أبرموا" (٨١٩).

وعبر بها عن المفرد والجمع معاً بالالتفات عن المفرد إلى الجمع في قوله "... وهل لك إن أردت مقاماً به أو مطاولة عدوك أو مكيدته فيه قوة تحملك ومدد يأتيه؟ فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يزعجك منه ضيق مكانه وقلة مياهه وانقطاع موائده، إن أردت بعدوك مكيدة، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة" (٨٢٠).

عبر بكلمة العدو عن المفرد (مكيدته، يأتيه) ثم التفت إلى الجمع في (أمرهم).

وفي قوله أيضاً "...معلنًا بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدو طارقاً؛ وليشرعوا رماحهم مادين لها في وجوههم، ويرشقونهم بالنبل" (٨٢١).

عبر بكلمة العدو عن المفرد (طارقاً) ثم التفت إلى الجمع (وجوههم، يرشقونهم).

أو الالتفات من الجمع إلى المفرد في قوله "فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم، فأجعل دعامتك... تقوى الله... من قتال عدو المسلمين أكلبهم عليه، وأظهره عداوة لهم" (٨٢٢).

عبر الكاتب بكلمة (عدوك) عن الجمع (لقائهم، قتالهم) ثم التفت إلى المفرد (عليه، أظهره).

وقوله أيضاً "ثم أذك عيونك على عدوك متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها ومطامعهم التي قد مدوا أعناقهم نحوها...، محترساً من الغرة كأنك في مسيرك كله ومنازلك أجمع مواقف لعدوك رأي عين، تنتظر حملاتهم وتتخوف غاراتهم معداً أقوى مكيدتك، وأجد تشميرك، وأرهب عتادك، معظماً أمر عدوك لأكثر مما بلغك لتعد له من الاحتراس عظيماً... مصغراً له بعد استشعار الحذر" (٨٢٣).

(817) السابق، ص ٢٣٨.

(818) السابق، ص ٢٦٣.

(819) السابق، ص ٢٤٠.

(820) السابق، ص ٢٥٦.

(821) السابق، ص ٢٥٨.

(822) السابق، ص ٢٣٥.

(823) السابق، ص ٢٣٩.

عبر بكلمة (عدوك) عن الجمع (أحوالهم، يتقلبون، منازلهم، هم، مدوا، أعناقهم، مطامعهم، حملاتهم، غاراتهم)، ثم التفت إلى المفرد (لتعد له، مصغراً له).
د- التعبير عن الجمع بالمفرد:

إن صهر الجمع وإعادة تشكيلهم في فرد واحد يمثل تكثيفاً للكم يستعمله الكاتب في إحياء أهمية الوحدة كحزمة في بوتقة واحدة يصعب تفريقها أو فض نظامها واختراق اجتماعها. وقد ورد التعبير عن الجمع بالمفرد في عدة مواضع منها في سياق تحرك الجنود من مكان إلى مكان يحكمهم نظام واجتماع صرح به الكاتب في قوله "وعرف جنودك مراكزهم... غير مخلصين بما استجدتكم له ولا متهاونين بما أهبت بهم إليه حتى تكون عساكر في كل منهل تصل إليه ومسافة تجتازها، كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو وأخذها بالحزم..."^(٨٢٤).
عدل الكاتب عن التعبير عن الجنود بالجمع (مراكزهم، مخلصين، استجدتكم، متهاونين، بهم) إلى التعبير عنهم بالمفرد (كأنها، اجتماعها، أخذها).
وأوحى هذا العدول بأهمية النظام والاجتماع خلال التحرك بالجنود حتى يصعب على العدو اختراق صفوف الجند أو النيل منهم، وبالتالي ضمان أعلى درجة من السلامة والأمان خلال التحرك.

وفي مشهد من مشاهد الصيد ينوع عبد الحميد في التعبير عن طرائد الصيد بالجمع مرة والمفرد مرة أخرى ليوحي للمتلقى بتشابه الطرائد واجتماعها في الجري والفرار من الصائدين، يقول عبد الحميد "فأجهدنا الركض في طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وخناذيد، حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل بجنبتيه غابة أشبه قد سبقن إليها واستخفين فيها..."^(٨٢٥).
عبر الكاتب عن الطرائد بالجمع (طلبهن، آثارهن) ثم عدل عنه إلى المفرد (الطلب لها)، ثم يعود إلى الجمع (سبقن، استخفين)، ليغذي فكرة اجتماع الطرائد وتشابهها من وجهة نظره.

هـ- الالتفات من المثنى إلى الجمع والعكس..

وجاء هذا الالتفات في موضع واحد في سياق الحديث عن توجيه ولي العهد إلى إنابة قائدين من قواده لحفر خندق ثم حراسته وبالطبع لكل قائد مجموعة من الجنود تقوم بالحفر والحراسة ويأتي الالتفات من المثنى (القائدان) إلى الجمع ليعرف المتلقي اختصاص كل الجنود بعمل يقتصر فيه إصدار الأوامر والتخطيط للقائدين، والأعمال اليدوية على من معهما من جنود يقول عبد الحميد "فإذا فرغ من الخندق، كان ذاك الرجلان القائدان أهلاً لذلك المركز وموضع تلك الخيل، وكانوا هم البوابين والأحراس لذينك الموضعين، قد كفوهما وضبطوهما، وأعفوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرهما..."^(٨٢٦).

(824) السابق، ص ٢٥٢.

(825) السابق، ص ٢٧١.

(826) السابق، ص ٢٥٧.

لنتأمل الالتفات من المثني (ذالك الرجلان القائدان) إلى الجمع (كانوا هم البوابين) ثم عودة إلى المثني (أعفوا، غيرهما)، وتمثل العودة الأخيرة إلى المثني انسحاب الجنود وبقاء القائدين أمام المتلقي لأنهما من تلقى الأوامر من ولي العهد، وهما في دائرة عقاب وثواب ولي العهد في حفر وحراسة الخندقين دون الجنود.

● الالتفات الكيفي:

ويختص هذا النوع من الالتفات بالتنقل بين التكلم والخطاب والغيبة من واحد منهم إلى آخر باتحاد المعبر عنه وهذا النوع من الالتفات يفاجئ المتلقي لقطع سيل الكلمات في نقطة موضوعية تمثل مكان تفاجؤ المتلقي وبهذا التفاجؤ ينتبه المتلقي إلى خطوط الصياغة ويبحث عن أسباب الالتفات التي تكشف الدلالة له وقد توزع الالتفات الكيفي في نثر عبد الحميد حسب الجدول التالي:

النسبة	العدد	كيفية الالتفات
	٥	أ- بين الضمائر
٢٨ %	٢	١. من الغيبة إلى الخطاب
١٢ %	٢	٢. من الخطاب إلى الغيبة
١٢ %	١	٣. من الغيبة إلى التكلم
٦ %	١	٤. من التكلم إلى الغيبة
٦ %	١	٥. من الخطاب إلى التكلم
٦ %	١	٦. من الخطاب إلى التكلم إلى الغيبة
٦ %	١	٧. من الغائبين إلى المخاطبين
٦ %	٣	٨. من الغائبين إلى المتكلمين
١٨ %		ب- الإخبار عن الماضي بالمضارع
١٠٠ %	١٧	الإجمالي

● الالتفات من الغيبة إلى الخطاب

يمثل هذا الالتفات انتقال توجيه الكلام بطريقة غير مباشرة إلى التوجيه المباشر للكلام، وهذا الانتقال تحكمه حاجة الكاتب الملحة. اعتاد الكاتب أن يوجه خطابه إلى الخليفة بصيغة الغائب ليتوافق مع ذكر لقبه (أمير المؤمنين)، وعندما يعدل عن الغائب إلى الخطاب تظهر لنا حاجة ملحة يفصح عنها بالالتفات السابق.

ففي سياق الترحيب بولاية الخليفة ينتقل إلى الخطاب المباشر ليؤكد مبايعته في قوله "أخبر أمير المؤمنين - أكرمه الله - ... وقالوا: لم تأتينا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها أعظم، ولا هي لنا أسر من ولاية أمير المؤمنين، وقد بسطت يدي لبيعك فجددتها ووكدتها"^(٨٢٧).

عدل الكاتب عن توجيه الخطاب للغائب (أكرمه الله) إلى توجيه الخطاب للمخاطب فظهر على طبيعته دون اختفاء وراء الغائب المتمثل في لقب أمير

(827) السابق، ص ٢٩٨.

المؤمنين في (لبيعتك)، وهذا التحول إلى الخطاب المباشر ليبرهن المتكلم للمخاطب صدق البيعة له، والتأكيد عليها، ويوحى بقربه من الخليفة خلال المبايعة.

وفي سياق آخر يطلب فيه المتكلم من الخليفة معاقبة بعض من تطرف في فكره الديني من الجنود، يمثل العدول عن الغائب إلى المخاطب وكلاهما للخليفة استعطافاً لتلبية طلبه في قوله "أما بعد، فإن أمير المؤمنين كان وجهه معي بنفر من القدرية... وكرهت القدوم عليهم بالمطالبة دون إعلام أمير المؤمنين حالهم... وأنت - أمير المؤمنين - من الله بمكان من حق عليه النكير عليهم والعقوبة لهم" (٨٢٨).

التفت الكاتب من توجيه الخطاب للخليفة بصيغة الغائب (كان وجهه) إلى صيغة المخاطب (أنت) للحاجة الملحة في استعطاف الخليفة مباشرة وقطع سيل الكلمات عند (أنت) ليلفت انتباه الخليفة إلى حاجته الملحة في استئصال المتطرفين دينياً من الجنود لخطرهم الشديد على باقي الجيش.

● الالتفات من الخطاب إلى الغيبة

ويعد هذا الالتفات تحولاً من الكلام المباشر إلى غير المباشر، وهذا التحول إنما يضيف على المخاطب تعظيماً وهيبَةً توجب على المتكلم إظهارها، كالاتفات عن صيغة الخطاب إلى الغيبة في توجيه الخطاب للخليفة في قوله "... وزدهم زيادة تفضل بها من كان قبلك حتى يظهر بذلك فضلك عليهم، على رعيّتك، ولولا ما أحاول من سد الثغر الذي أنا به لخفت أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين أن استخلف رجلاً على غير أمره" (٨٢٩).

لجأ الكاتب إلى توجيه الخطاب بصيغة المخاطب التي تمثل التوجيه المباشر للخطاب للاستعطاف في تلبية مطالبه في (قبلك، فضلك، رعيّتك)، ثم عدل عنه إلى توجيه الخطاب بصيغة الغائب (على غير أمره) التي تمثل التوجيه غير المباشر للخطاب كمؤشر لانتهاء الاستعطاف حتى لا يلح على الخليفة بما يكره، وليظهر بهذا الالتفات الاحترام وتعظيم الخليفة في (أمير المؤمنين، أمره).

● الالتفات من الغيبة إلى التكلم

وجاء هذا الالتفات في رسالة موجهة إلى ولي العهد تبدأ بتوجيه الخطاب لولي العهد من الخليفة الذي يختفي وراء صيغة الغائب ثم يظهر فجأة في جزء منها بصيغة المتكلم كمؤشر على احتداد غضبه على ولي العهد فيما شكت زوجته غضباً - يجعله - يخلع عنه عباءة الغائب، يقول عبد الحميد "وأنت في شعبة من سخط أمير المؤمنين ما سخطت عليك، مقروناً رضاها عنك برضاي إذا رضيت، فاحتل لنفسك من مودة أمير المؤمنين، فإن أنت غفلت أو أملت غفلتي عنها وعنك لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك..." (٨٣٠).

التفت الكاتب من صيغة الغائب للخليفة (سخط أمير المؤمنين) إلى صيغة التكلم للخليفة (برضاي)، ثم عودة إلى الغائب (مودة أمير المؤمنين) ثم التفت

(828) السابق، ص ٢٠٧.

(829) السابق، ص ٢٩٩.

(830) السابق، ص ١٩٤.

إلى المتكلم (غفاتي، غضبي). ليضفي بالالتفات من الغائب إلى المتكلم وتكراره ظهوراً للخليفة يعبر عن احتداد غضبه الذي جعله يخلع عباءة الغائب – الصيغة المعتادة لتوجيه الخطاب من الخليفة في رسائل عبد الحميد – ذلك الغضب الذي يرفع من نبرة التهديد لولي العهد بالعقاب أو إصلاح ما أفسده مع زوجته.

● الالتفات من التكلم إلى الغيبة

وجاء هذا الالتفات في رسالة عبد الحميد إلى الكتاب التفت من التكلم إلى الغائب، ومثل هذا الالتفات تواضعاً من الكاتب جعله يدخل في زمرة الملتزمين بالعمل مثلما كان ملزماً لهم بالعمل في قوله "وأنا أقول في آخر كتابي ما سبق به المثل: من يلزم النصيحة يلزمه العمل" (٨٣١).

فبعد الحميد هو من يلزم النصيحة للكتاب من بداية رسالته لهم فكان هذا الالتفات من التكلم (أنا، كتابي) إلى الغيبة (يلزم، يلزمه) بمثابة التواضع ليكون ضمن الكتاب الملزمين بالعمل وليس توجيه النصيحة فقط.

● الالتفات من الخطاب إلى التكلم

وجاء هذا الالتفات في سياق النصيحة بعدم التلفظ ببعض الكلمات، فتطلب الأمر من الكاتب إثباتها على لسان ولي العهد ليوضح له نص اللفظ المقول، يقول عبد الحميد "وعليك بثبوت المنطق... والترديد للفظك من نحو: اسمع وافهم عني، ويا هناء أولاً ترى" (٨٣٢).

التفت الكاتب من الخطاب (لفظك) إلى التكلم (اسمع، افهم عني) ليثبت على سطح العبارة نص القول الذي يتلفظ به المخاطب حتى لا يثبت على لسان ولي العهد من ناحية، ومن ناحية أخرى يمثل نقل القول بنصه كما يتلفظه المخاطب – بصيغة التكلم – توضيحاً للقول نفسه حتى يتوضح في ذهن المتلقي فلا يذكره على لسانه حتى لا تتأثر شعبيته لدى الناس.

● الالتفات من الخطاب إلى التكلم إلى الغيبة

وجاء هذا الالتفات ضمن توجيه النصائح لولي العهد ويمثل الالتفات الأول إلى التكلم إثبات القول بنصه أيضاً كما يستخرج من فم ولي العهد، ثم يأتي بالالتفات الثاني إلى الغياب ليتجنب توبيخ ولي العهد بأسلوب مباشر إذا لم يلتزم بالنصيحة، يقول عبد الحميد "وتعلم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه ستورك وأغلقت عليه أبوابك فذلك لا محالة مكشوفاً للعامة ظاهر عنك، وإن استترت بربما، ولعل، وما أراني وما أعلم، بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن. فتقدم في إحكام ذلك من نفسك" (٨٣٣).

(831) السابق، ص ٢٨٨.

(832) السابق، ص ٢٣٢.

(833) السابق، ص ٢٢٣.

بدأ الكاتب بالخطاب (تعلم، أنك، خلوت، ألقيت ستورك، أغلقت أبوابك، عنك، استتريت) ثم التفت عنه إلى التكلم (ما أراني، ما أعلم) ثم التفت عنه إلى الغائب (ينقطع، به).

ويمثل هذا الالتفات مدى تأدب عبد الحميد في مخاطبة المتلقي بعدم إثباته نص القول بصيغة التكلم على لسان ولي العهد.

● الالتفات من الغائبين إلى المخاطبين

وجاء هذا الالتفات في سياق الحديث عن المشاركين لل خليفة في أعمال الحج فبدأ بالحديث عن الحجيج بصيغة الغائبين ثم انتقل إلى المخاطبين ليتشرف الحجيج بتوجيه الخليفة إليهم الخطاب بطريقة مباشرة ترفع من شأنهم لديه، يقول عبد الحميد "وأكثر حمد الله عليه وعلى ما ألهم رعيته من أشخاص أبدانهم، وإنفاق أموالهم في طاعة الله، وحج بيته، واتباع سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - كما نهج لهم، ثم خرج أمير المؤمنين إلى عرفات فلم يأل نفسه وإياكم اجتهداً وخيراً في التضرع إلى الله" (٨٣٤).

جاء الحديث عن الحجيج بصيغة الغائبين في (أبدانهم، أموالهم، لهم)، ثم التفت إلى الحديث المباشر بصيغة المخاطبين في (وإياكم)، ليضفي دلالة التشريف على توجيه الخليفة الخطاب للحجيج بطريقة مباشرة.

● الالتفات من الغائبين إلى المتكلمين

وجاء هذا الالتفات في سياق نقلبيعة بعض الرعية لل خليفة فتحول بهم من الغائبين إلى المتكلمين ليرصد ما قالوه كما خرج من ألسنتهم ليؤكد بذلك بيعتهم لل خليفة، يقول عبد الحميد "وقالوا: لم تأتينا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها أعظم، ولا هي لنا أسر من ولاية أمير المؤمنين" (٨٣٥).

التفت الكاتب من الغائبين (قالوا) إلى المخاطبين (تأتينا، آمالنا، لنا) ليؤكد ببيعتهم لل خليفة عن طريق نقل المقول بنصه كما نطقت به ألسنتهم، وهو يمثل أمانة في نقل القول من ناحية، ومن ناحية أخرى تأكيد بيعتهم لل خليفة بنقل قول الناس كما قالوه تماماً.

ب. الإخبار عن المضارع بالماضي

إن اختلاف دلالة المضارع عن الماضي تجعل من التحول عن أحدهما إلى الآخر مَوْظَفاً بالدرجة الأولى في استعارة دلالة المتحول إليه، ويأتي الإخبار عن المضارع بالماضي ليضفي على الحدث تأكيداً يحقق وقوع الحدث.

في رسالة تصف طغيان نهر الفرات وما أحدثه من دمار يعبر عن أحداث الدمار بالفعل الماضي ليؤكد حدوث الدمار في قوله "فهم كثرة جفاء في أودية كل تستن أمواجه متداركة، وتعتلج زوائده هائلة، لا يمر بقائم إلا هدمه لجبه، ولا يحلّ

(834) السابق، ص ٢٠٥.

(835) السابق، ص ٢٩٨.

واديًا إلا أخرقه مسيله، ولا يتحذر منصبًا إلا أبقى به أخافيق ومستن رقرق، فسكوره واهية وبثوقه متداعية" (٨٣٦).

لنتأمل الأفعال الماضية (هدمه، أخرقه، أبقى) التي تأتي بدلاً عن المضارع (يهدمه، يخرقه، يبقى) ليؤكد للمتلقى حدوث الدمار، ويهرب من إمكانية استمراره حتى لا يزيد الدمار، وكأنه يأمل ذلك من عدم انسحاب الدمار إلى المستقبل. وعن طلب جارية بصفات محددة يقول الكاتب "... وخلقها وثيق، تخلط الجد بالخنث في الكلام، معروفة الأبوين طويلة الخدين، قد كتبت ما يُقرأ، وقرأت ما يُكتب تنشد من الشعر بعضه، وتقوم من خدمة أمير المؤمنين" (٨٣٧). لنتأمل الأفعال الماضية (قد كتبت، وقرأت) والمراد تكتب وتقرأ، لأن الجارية لم ترسل بعد ولكن الإخبار عن المضارع بالماضي المسبوق بقد ليؤكد به الكاتب على المتلقى ضرورة التحقق من ثقافة الجارية.

● الالتفات الكيفي الكمي:

وقد مثل هذا النوع من الالتفات نسبة تقارب جزء من العشرة من النسبة الكلية للالتفات، وهذه القلة إنما تسمو بهذا النوع الذي يجمع بين النوعين السابقين، وتمثل قلة أهميته في إثراء الدلالة وقد توزع حسب الجدول التالي.

النسبة	العدد	نوع الالتفات
٣٧,٥ %	٣	١. من الغائب إلى المتكلمين
٣٧,٥ %	٣	٢. من الغائب إلى المخاطبين
٢٥ %	٢	٣. من المخاطبين إلى الغائب
١٠٠ %	٨	الإجمالي

● الالتفات من الغائب إلى المتكلمين

تصادف هذا النوع من الالتفات في رسالتين تشابه فيهما حال عبد الحميد، فكان في كل منهما مغترباً عن وطنه يعاني من شقاء بدني من طول التنقل، وشقاء نفسي من البعد عن الأهل والأصحاب، فيبدأ بالحديث عن المغترب بصيغة الغائب، ثم يتحوّل بعده إلى المتكلمين (المغتربين) في قوله "إذ الضيعة لمن اغترب، والغربة لمن اشتملت عليه الهموم، وتشعبته الرغبة، ففارق الأحبة، واستخلف منهم الغربة وكادح الأسفار، وأتعب البدن وأقلق الشخص، ونايذ الدعة، واعتاض النصب، وإنك بحيث انعطف عليك أنسة القريب وراحة السكون إلى الطمأنينة في دار الخفض ومنزل القرار، ونحن في تعب الدنيا: توجف بنا مطايا الشقاء، نباكر دلجها بغم النصب ومبهظ التعب" (٨٣٨).

(836) السابق، ص ١٩٦.

(837) السابق، ص ١٩٨.

(838) السابق، ص ٢٠٣.

لجأ عبد الحميد إلى التعبير عن نفسه كمغترب بصيغة الغائب إذ لا مغترب في الرسالة غيره ليمثل هروباً من واقع الغربة الأليم الذي ينأى بنفسه عن الذكر الصريح ويضعه بصيغة الغياب كنوع من تسلية النفس وكأنه يتمنى أنه لم يكن مغترباً، ثم يضطر إلى التحول إلى المتكلمين لمناسبة ذكر حال المخاطب في الوطن (إنك) ويدل عليه (نحن، بنا، نباكر) كتحول عن الهروب إلى المواجهة، وكان يقتضي التحول إلى (أنا) وليس (نحن) الذي استدعى فيه الكاتب مشاركين له في الغربة يتحدث نيابة عنهم ويصهر نفسه في جماعة، الأمر الذي يقوي من مواجهة الغربة ويشجعه على الظهور كمتكلم في النص، أو الأمر الذي قد يكون فيه تسلية له بوجوده مع الآخرين من وطنه يشاركونهم شقاء الغربة والحنين إلى الأهل والأصحاب في الوطن.

وفي الرسالة الأخرى يعبر عبد الحميد عن نفسه بصيغة الغائب الذي يطلب ما أخذته الدنيا منه ويسترحمها ثم يتحول إلى صيغة المتكلمين في قوله "قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقربت ... لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحباء" (٨٣٩).

يهرب عبد الحميد من استرحام الدنيا التي ينتهي برفضها رحمة عن طريق صيغة الغائب (استرحمها)، كأنه يتمنى أنه لم يغادر وطنه أو ينتهي به الحال إلى هذه الدرجة من الخطر لملاحقة العباسيين له، ثم يتحول إلى صيغة المتكلمين (بنا، منفيين، مقطوعين) ليمثل بهذا التحول تحولاً من الهروب إلى المواجهة التي استدعى لها مشاركين له في الخطر يعينوه على إزالة الخطر عنه أو للتخفيف من حدته.

● الالتفات من الغائب إلى المخاطبين

وقد وردت شواهد هذا الالتفات في رسالة عبد الحميد إلى الكتاب موجهاً لهم النصائح المختلفة، وفي عدة مواضع منها يوجه الخطاب إليهم بصيغة الغائب المفرد الأمر الذي يوهم كل كاتب أن الخطاب موجه له هو خصوصاً، ويأتي الالتفات عن المفرد الغائب إلى جمع المخاطبين كتحول عن توجيه الخطاب غير المباشر إلى المباشر مع توسيع الخطاب ليشمل كل فئة الكتاب عمومًا، فالخصوص والعموم في توجيه سيل من النصائح العملية يضمن لعبد الحميد استقبال تلك النصائح والعمل بها من شريحة أوسع من الكتاب.

يقول عبد الحميد "وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه وليحذر السقطة والذلة والملال عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى المرأة وهو لكم أشد منه لها، فقد علمتم أن..." (٨٤٠).

عدل عبد الحميد عن توجيه الخطاب للكتاب بصيغة الغائب في (فليحملها، ليحذر) إلى صيغة المخاطبين (إيكم، لكم، علمتم)، وعضد هذا الالتفات (معشر

(839) السابق، ص ٢٧٩.

(840) السابق، ص ٢٨٤.

الكتاب) الذي يتطلب توجيهًا مباشرًا للخطاب يتلاءم مع النداء. وبهذا الالتفات يخرج الكاتب بحديثه إلى نطاق أوسع يشمل كل الكتاب. ويقول في موضع آخر منها "فيعد لكل أمر عدته، ويهيئ لكل أمر أهيته، فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا ..."(٨٤١).

عدل عبد الحميد عن توجيه الخطاب للكتاب بصيغة الغائب في (يعد، يهيئ) إلى المخاطبين (فنافسوا، تفقهوا)، ليكون الالتفات إيذانًا بتوسيع الخطاب ليشمل أكبر عدد من الكتاب، ويتحول من الأسلوب غير المباشر إلى المباشر ليوحي بقرب عبد الحميد من الكتاب.

● الالتفات من المخاطبين إلى الغائب

وقد ورد هذا الالتفات أيضًا في رسالته للكتاب ليؤكد فكرة توجيه الخطاب للخصوص والعموم معًا من فئة الكتاب.

يقول عبد الحميد "إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ..."(٨٤٢).

وفي هذا الالتفات إشعار لكل كاتب بأن الحديث منصب عليه وحده وكأنه يتمتع بالقرب من الكاتب، وبالجمع بين هذا الإشعار لكل كاتب نجد توجيه الخطاب للكتاب كلهم ولكن بتميز التوجيه بالقرب منهم جميعهم.

(841) السابق، ص ٢٨٣.

(842) السابق، ص ٢٨٢.

الباب الثالث المستوى التصويري

الفصل الأول

- التشبيه
- الاستعارة
- الكناية

تنصب الدراسة في هذا الفصل على الصورة الجزئية في نثر عبد الحميد لنكشف عن بعض الجوانب التي تكسب أسلوبه خصائصه المميزة له عن غيره من الكتاب.

ونستخلص كذلك إسهامات الصورة في إنتاج الدلالة من ناحية، وخدمة السياق الواردة فيه من ناحية أخرى.

ونتناول بالدرس الأساليب البيانية المنتجة للصورة كالتشبيه والاستعارة والكناية فننتاول التشبيه من حيث الأداة – المرسل والمؤكد – ومن حيث وجه الشبه – المفصل والمجمل – ومن حيث تداخلهما معاً ونعني التشبيه البليغ.

كما يتم دراسته من حيث دلالة ركنية واستنادهما إلى الحس أو التجريد وما ينتج عنهما من ثنائيات ترتبط ارتباطاً مباشراً بالدلالة من حيث وضوحها والسرعة في إدراكها.

أما الاستعارة فتدرس من حيث الطرف المطوي – المكنية والتصريحية – ودراستهما من حيث الإطلاق والتجريد والترشيح، وتدرس المكنية من حيث التشخيص والتجسيد والإحياء، وتدرس التصريحية من حيث انتماء العنصر الدلالي المذكور مع رصد الدلالات المنعكسة عن كل أسلوب أما الكناية فتدرس من حيث نوع المكنى عنه سواء أكان صفة، أو كان موصوفاً مع رصد السياقات الواردة فيها ومدى ارتباطها به في نثر عبد الحميد.

● التشبيه

ربط اللغويون التشبيه في معناه اللغوي بالمماثلة إذ "أشبه الشيء الشيء: ماثله" (٨٤٣).

وفي الاصطلاح "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى" (٨٤٤) ومن يتأمل كتب البلاغيين يجد من الوهلة الأولى أن التشبيه يقتضي طرفين تجمع بينهما علاقة الموافقة والمفارقة في آن واحد "ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة وإن شابه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس ومثل البدر وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما، وإنما شبهه بها لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن" (٨٤٥).

والموافقة بين طرفي التشبيه ليست على الحقيقة ولكن "إذا تأملنا متصرف تركيبه وجدناه يقتضي أن يكون الشئان من الاتفاق والاشتراك في الوصف بحيث يجوز أن يتوهم أن أحدهما الآخر" (٨٤٦).

أما المفارقة فمن الضرورة إذ لا يصح أن يوصف الشيء بنفسه. وتنشأ عن علاقتي الموافقة والمفارقة جدلية تتجلى في "وجود علاقات سلب وإيجاب في آن واحد تتحرك من أحد الطرفين للآخر" (٨٤٧).

(843) لسان العرب، المحكم والمحيط الأعظم، مادة شبه.

(844) بغية الإيضاح، ص ٧.

(845) الصناعتين، ص ٤٥٥.

(846) أسرار البلاغة، ص ٩٩.

وللتشبيه أثر كبير في إثراء الدلالة وتنشأ بعض تأثيراته في المتلقي من طرفي التشبيه نفسه، فقدرة التشبيه على تمثيل المعنى المعقول في محسوس يتصوره المتلقي "يؤدي بالضرورة إلى نقل النفس من المعنى الغريب إلى القريب، وحتى عندما يكون المعنى معلوماً يقيناً، فإن التمثيل بالمحسوس يفيد زيادة قوة" (٨٤٨). ولوجود هذه الخاصية في التشبيه فإنه "يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً" (٨٤٩).

وقد فطن ابن الأثير إلى تأثير التشبيه في المتلقي فـ "فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه" (٨٥٠).

ولا ينفصل تأثير التشبيه في المتلقي عن السياق "فالتشبيه يقيم حواراً بين هذا المتلقي والنص أو لنقل والسياق الجزئي الوارد فيه هذا التشبيه" (٨٥١).

وللتشبيه أقسام متنوعة استفاض البلاغيون فيها منها أقسام من حيث الأداة، أو من حيث وجه الشبه بين طرفي التشبيه، أو من حيث انتماء طرفي التشبيه إلى منطقة الحس أو العقل وفيما يلي التشبيه من حيث الأداة.

● التشبيه من حيث الأداة

وقد قسّم البلاغيون التشبيه من حيث الأداة إلى التشبيه المرسل: المذكورة فيه أداة التشبيه وأسماء البعض المظهر الأداة والتشبيه المؤكد: المحذوفة منه أداة التشبيه وأسماء البعض المضمّر الأداة.

وقد توزع في نثر عبد الحميد حسب الجدول التالي:

التشبيه من حيث الأداة	العدد	النسبة
المؤكد	٩٠	٨٤ %
المرسل	١٧	١٦ %
الإجمالي	١٠٧	١٠٠ %

ومن الجدول السابق نتبين أن التشبيه المضمّر الأداة (المؤكد) قد استأثر بما يزيد على أربع أخماس التشبيه في نثر عبد الحميد، وتكمن مزية التشبيه المؤكد في إزالة العائق المادي بين المشبه والمشبه به "ويرتفع بعلاقة التشبيه إلى قمته بحيث يكاد المشبه والمشبه به يكونان كالشيء الواحد" (٨٥٢).

(847) الصوت والصورة، ص ١٧٧.

(848) التكوين البيدي، ص ٢٩.

(849) الصناعتين، ص ٤٦٣.

(850) المثل السائر، ص ٣٧٨.

(851) الصوت والصورة، ص ١٧٧.

(852) الصوت والصورة، ص ١٨١.

إن إزالة العائق الذي يحول بين التحام المشبه بالمشبه به يؤثر في بعض مظاهره في سرعة الفواصل المتضمنة للتشبيه المضمرة الأداة، فتمكن الكاتب من الاسترسال في التشبيهات وتكون السرعة كمعادل لهذا الاسترسال حتى لا يمل منه المتلقي فلنتأمل قول الكاتب عن فوائد الإخاء "... وترغباً في العشرة فكان أكهف لجأ، وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة، وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنعة، وأنق منظر، وأينع زهرة، أكثر الأشياء ريعاً" (٨٥٣).

استرسل الكاتب في التشبيهات لمشبه واحد هو الصديق الذي يكلف المتلقي عناء البحث عنه الذي نفهمه من طي المشبه الذي وظف به الكاتب جدلية الحذف والذكر التي لم تتجل في طي المشبه (هو) فحسب، بل في طي أداة التشبيه في التشبيهات المتتابعة وتكتمل تلك الجدلية بذكر وجه الشبه الذي صاغه الكاتب في قالب التفضيل (أفعل)، وبالرغم من ذكر وجه الشبه إلا أن الكاتب قد اختزله في صيغة التفضيل.

ومن اللافت للنظر أن حذف أداة التشبيه وحذف المشبه مع بعض أشباه الجمل كان معادلاً لاسترسال الكاتب في التشبيهات ليعوّض بالحذف هذا الاسترسال حتى لا يمل المتلقي.

وبالتسليم بأن الكاتب وظف الحذف ليكون معادلاً للاسترسال فإن ذكر وجه الشبه (أكهف، أحرز، أحصف، أعون، أبقى، أعظم، أشرف، أفخر، أنق، أينع) يلفتنا إلى أهميته ورغبة الكاتب في توضيح الدلالة في ذهن المتلقي، وبالرغم من ذلك فإننا نرى أن اختزال وجه الشبه في صيغة أفعل دون الاستفاضة فيه يعد أيضاً معادلاً للاسترسال ويعكس أهمية وجه الشبه في السياق.

إن السرعة التي يحدثها الكاتب بحذف أداة التشبيه في التشبيه المؤكد تؤثر في سرعة الصورة التي يحدثها التشبيه في ذهن المتلقين فتكون كالمنبه الخاطف أو بمعنى آخر صورة خاطفة تنبه المتلقي في لحظة آنية هي اللحظة التي يتلقى فيها التشبيه.

وهذه الصورة الخاطفة تلائم بعض السياقات كسياق الحرب والاستعداد للقتال ورد العدو إلى مواقعه أو حتى استقبال الوفود الطارئة مما لا يسع المتلقي الوقت فيها بل تتطلب سرعة استجابة لما يطرأ عليه من أحداث، ومنها سياق المصائب والأحداث المؤلمة التي لا يرغب الكاتب في شغل المتلقي بها مدة من الزمن حتى لا تؤثر فيه بالسلب بل تكون الصورة الخاطفة أنسب لتسلية نفس المتلقي، فلنتأمل قول الكاتب في السياق الأول وهو سياق الحرب "اعلم أن الظفر ظفران أحدهما ... ما نيل بسلامة الجنود... بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ومنازلة الفرسان في معترك الموت" (٨٥٤).

شبه الكاتب الحرب بالجمرة والجامع بينهما (وقدة) الاشتعال وخطر كل منهما على المتلقي.

(853) عبد الحميد بن يحيى ...، ص ٢٧٧.

(854) السابق، ص ٢٣٧.

إن تمثيل الحرب في ذهن المتلقي في صورة حسية خاطفة تتجلى في الجمرة المشتعلة يعكس سرعة وصول الموت إلى المتلقي في الحرب مما يدعو إلى اغتنام فرصة الظفر الأول الذي يجنبه القتال ويحقن الدماء، وهذا الظفر يتمثل في إخضاع العدو له بشتى الوسائل من الوعود بالمال أو المناصب أو غيرهما مما فصله الكاتب للمتلقى.

ومن ناحية أخرى فإن سرعة مرور الصورة – التي يحدثها التشبيه المؤكد – على ذهن المتلقي تلمح له إلى ضرورة السرعة في اغتنام فرصة هذا النوع من الظفر إذا أمكن ذلك.

وفي سياق التأهب والاستعداد للقتال يأتي حذف أداة التشبيه ملائماً لسرعة الاستعداد كما في قوله "وإن ألفيته متوقد الجمر، مستكثف الجمع، قوي التبع ... كنت لأخذك بالحزم... غير مهين الجند"^(٨٥٥).

شبه الكاتب قوة العدو بالجمر المتوقد، وتعكس سرعة مرور الصورة الحسية للجمر في قوة اتقاده وتجمعه سرعة الاستعداد له.

وفي حادثة طغيان الفرات وما ألمّ بالناس على جانبيه من موت ودمار يقول عبد الحميد "فهم كثرة جفاء في أودية كل تستنّ أمواجه متداركة"^(٨٥٦).

شبه الكاتب الناس في كثرتهم بالجفاء وحذف أداة التشبيه حتى يكسب الصورة المتمثلة في ذهن المتلقي سرعة حتى لا يصيبه الحزن على ما حدث ولا يطيل عليه تلك الصورة القاتمة مدة من الزمن التي قد تتفرده من تلقي باقي الرسالة، وتكون بمثابة لمحة خاطفة تقع المتلقي بأن الحدث المؤلم قد مرّ بسرعة وأوشك على الانتهاء.

وتناسب السرعة التي تحدثها حذف أداة التشبيه في بعض مظاهرها المعنى، ففي قول الكاتب عن استمالة المتلقي للعدو بشتى الوسائل ليتجنب ويلات الحرب "ويدعو إلى الاعتلاق بحبل النجاة"^(٨٥٧).

لنتأمل تمثيل الكاتب للنجاة من القتال بالحبل الذي يتعلق فيه الغريق وملاءمة السرعة لموقف الغريق الذي يتلهف إلى حبل يخرجه من الماء الذي يوشك على إهلاكه، أو ملاءمة الإسراع في إلقاء ذلك الحبل لإنقاذ الغريق.

إن إخفاء أداة التشبيه يزيد من انتباه المتلقي للنص ويجعله مشاركاً للكاتب في عملية الإبداع، وتتجلى تلك المشاركة في محاولة المتلقي معرفة ما يحويه فضاء النص وإخراجه إلى سطح النص، وهي عملية ذهنية تتم خلال عملية التلقي، علاوة على ما يحدثه حذف أداة التشبيه من حوار بين المتلقي والنص يجعله سائلاً نفسه عن الدواعي التي دفعت الكاتب إلى طي أداة التشبيه.

إن ميزة التشبيه في نقل المشبه من عالمه ليدخل في عالم المشبه به كعملية وهمية تتمثل في خيال المتلقي تتجلى في التشبيه المضمّر الأداة بصورة أوضح من

(855) السابق، ص ٢٤٠.

(856) السابق، ص ١٩٦.

(857) السابق، ص ٢٣٨.

تلك الناتجة عن المظهر الأداة، فإزالة العائق المادي المتمثل في أداة التشبيه يجعل من المشبه والمشبه به ككيان واحد ملتحم الطرفين ويعبر عن صدق المنشئ للتشبيه في ادعائه بدخول المشبه في عالم المشبه به ليخلع عليه صفاته أو هيئته التي تؤثر في درجة اقتناع المتلقي بالرغبة في المشبه أو بالعزوف عنه حسب ما توجهه إليه إرادة الكاتب.

كالتنكير من الإقامة مع الخارجين على الدولة في مكان واحد تحت سيطرتهم دون المواجهة في قوله " ... إن أقررت لهم أقمت في ذلة الدار، قد أوطئتم الخسف ومنعتم النصف"^(٨٥٨).

شبه الكاتب الإقامة مع الخارجين في دار واحدة بالإقامة على الذل، وجاء حذف أداة التشبيه ليجعل من المشبه والمشبه به كياناً واحداً ملتحم الطرفين حتى ينقل الدار إلى عالم الذل تمام النقل بصورة أوضح في أذهان المتلقين. ويعبر عن صدق ادعائه بأن الإقامة في دار الخارجين كالإقامة على الذل لينفر المتلقين من الإقامة معهم وتستدعي تلك الصورة بالطبع صورة مضادة لها تتمثل في الإقامة على الكرامة التي تتجلى بالطبع في مواجهة الخارجين بالقتال كبديل عملي للرضا بالذل.

● التشبيه المرسل:

ارتبط التشبيه المظهر الأداة – رغم قلته في نثر عبد الحميد – ببعض السياقات دون غيرها من أهمها سياق التهديد وسياق الوحدة. وجاء ارتباط هذا النوع من التشبيه بسياق التهديد لما يحتاجه الكاتب في هذا السياق من وضوح وتأثير مباشر في المتلقي.

فظهر أداة التشبيه واحتلالها موقعاً في التشبيه المرتبط بالطبع بالسياق يؤكد نية الكاتب في وضوح التشبيه، ذلك الوضوح الذي ينعكس بالطبع على الصورة المتخيلة في ذهن المتلقي.

إن وضوح الصورة له أثر بالغ على المتلقي – خاصة المرتبطة بالتهديد – فقد تنال من عزيمته أو تشعره بالخوف من موجّه التهديد، وفي هذه الحال لا يسعه إلا نبذ أسباب التهديد بالاعتذار في بعض المواقف أو النأي بنفسه عن مواجهة موجّه التهديد من ناحية، أو المضي في المواجهة، ولكن بذهن مشتت يسيطر عليه الخوف لا يستطيع معه التفكير بصورة سليمة أو التخطيط الجيد للحرب خاصة إذا كان التهديد موجه من خصم سياسي بينه وبين المتلقي نزاع مسلح من ناحية أخرى.

لنتأمل قول الكاتب مهدياً لزعيم بعض الخارجين على الدولة مستخدماً التشبيه المرسل في رسم صورة واضحة لجنود الدولة لتدعيم وتأكيد التهديد "...ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول على الفحول كأنها الوعول، تخوض الوحول"^(٨٥٩).

(858) السابق، ص ٢٠٠.

(859) السابق، ص ٢١٤.

شبه الكاتب الجنود بصفاتهم كهولاً ليعكس خبرتهم الحربية بالوعول ذات القوة الجسمانية والقدرة العالية على المناورة، وجاء إثبات أداة التشبيه (كأن) على سطح النص لتزيد صورة الجنود وضوحاً وهي داخلة عالم الحيوان القوي ذي القدرة على مناورة أعدائه في أرض الصيد لتؤثر هذه الصورة في المتلقي تأثيراً مباشراً من تمثل تلك الصورة المرعبة للجنود التي تزيدها الحركة السريعة للوعول هولاً يعجز المتلقي على رده أو مواجهته.

إن قدرة (كأن) على نقل السياق الجزئي من عالم الحرب إلى عالم الصيد والجامع بين العالمين اتساع الأرض، ووجود طرفين يتربص أحدهما بالآخر أو كل منهما بالآخر، وما يشهده العالمان من مطاردات ومناورات وتخطيط يؤكد صدق الكاتب في ادعائه أن جنود الدولة هم و الوعول شيء واحد وكلما صدق الادعاء كلما زادت صورتهم تأثيراً في المتلقي.

وقد عضد الكاتب هذا الادعاء بمشابهة الجنود للوعول عن طريق الاتحاد في الصيغة الصرفية (الكهول، الوعول) وتكرار صوت اللام ليزيد من علاقات المشابهة القائمة بين طرفي التشبيه لتوحي كثرة هذه العلاقات باكتمال دخول المشبه عالم المشبه به.

وفي السياق ذاته يقول عبد الحميد "فأبشر منا بما ساءك ضجراً، ومشاك تقاد كما يقاد الجمل المخشوش"^(٨٦٠).

مثل الكاتب صورة زعيم الخارجين وهو يقاد أما جنود الدولة في صورة بشعة بالجمل الأجرب الذي يأنف الناس وباقي الجمال من حتى لمسه حتى لا يصيبهم بالمرض. وتنطوي هذه الصورة التمثيلية على أبعاد تتمثل في ذهن المتلقي من تصوير الفتنة التي سيطرت على الخارجين بالمرض المعدي الذي يتجنبه أفراد الجماعة، ويتسم المرض بسرعة الانتشار.

وبعد آخر يتمثل في إيهام المتلقي بكره الناس له وشماتتهم فيه خلال سوق جنود الدولة له ونقهمه من (تقاد) التي تستحضر في ذهن المتلقي هيئة القيادة من ناحية، وغموض من يقوده من ناحية أخرى.

وقد ساهم إبراز أداة التشبيه (كما) ذات القدرة على التمثيل في إكساب الصورة وضوحاً لتلائم سياق التهديد كما بينا.

ومن اللافت للنظر أن الكاتب قد عقد هذا التشبيه والتشبيه في الشاهد السابق عليه في رسالة واحدة لنفس الشخص بدخول المشبه عالم الحيوان، ولكن بصورة مضادة، فالتشبيه الأول أكسب المشبه قوة وقدرة على المناورة استقاها من صفات الوعول، والثاني أكسب المشبه بشاعة وذلاً وانقياداً استقاها من هيئة الجمل الأجرب الذي ينفر منه المشاهد.

وعلى هذا النحو فإن هاتين الصورتين المتضادتين تثمان عن قدرة الكاتب في استخدام أدوات اللغة وتوجيهها حسب إرادته ومقاصده للتأثير في المتلقي بأشكال مختلفة.

(860) السابق، ص ٢١٥.

أما الوحدة فكانت مشغلة من المشاغل الأساسية التي سيطرت على فكر الكاتب وطغت هذه السيطرة بالطبع على نشره – سبقت الإشارة إليها – وهي انعكاس للعصر الذي عاشه الكاتب وهو عصر امتاز بالفتن والتفرق والخروج المسلح على الجماعة الممثلة في الدولة في شخص الخليفة الأموي.

ولمّا كانت وحدة الجماعة في حاجة ماسّة إلى الوضوح والشفافية من أفرادها كانت حاجة الكاتب إلى الوضوح في الصورة المتخيلة في أذهان المتلقين تلك الصورة التي يرسمها أسلوب التشبيه بوضوح، وساعده في هذا الوضوح إظهار أداة التشبيه واكتمال مكوناته.

يقول عبد الحميد ناصحاً ولي العهد بوحدة الجنود في الكرّ والفرّ "فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الإجابة، فإنك عسيت أن لا تجد عند جماعة جنّدك في مثل تلك الروعة والمباغلة" (٨٦١).

شبه الكاتب الجنود بالرجل الواحد في الاتحاد على العدو وقد دعم هذا التشبيه النظام الذي يجب أن يكون عليه الجنود في تدريبهم وحركتهم القتالية. إن اختزال جماعة الجنود في رجل واحد يلفت نظر المتلقي إلى قاعدة حربية مهمة اشتهر بها المسلمون منذ غزوات الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو أن النصر لا تكمن أسبابه في كثرة الجنود، ولكن بالنظام وقوة الإيمان ولو بقلّة من الجنود، وهو ما يؤكد لدينا ثقافة عبد الحميد الدينية والعربية.

وفي صورة مشابهة يقول عبد الحميد " ... حتى تكون عساكرك في كل منهل تصل إليه ومسافة تجتازها كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو" (٨٦٢).

شبه الكاتب جماعة الجنود بالعسكر الواحد في الاجتماع على قتال العدو، وقد اكتملت أركان التشبيه لتتضح الصورة المتخيلة في ذهن المتلقي لتلائم سياق الوحدة الذي يتطلب وضوحاً في الاتحاد وعدم التفرق والتشتت مع وضوح موقف الأفراد واقتناعهم بالوحدة.

هذا وقد استعمل الكاتب أدوات تشبيه بعينها دون بعض الأدوات في التشبيه المظهر الأداة، وقد توزعت هذه الأدوات حسب الجدول التالي:

أداة التشبيه	العدد	النسبة
الكاف	٨	٤٧ %
كأن	٥	٢٩ %
كما	٢	١٢ %
مثل	٢	١٢ %
الإجمالي	١٧	١٠٠ %

وقد أوضحنا ارتباط التشبيه المرسل بسياقي التهديد والوحدة في نشر عبد الحميد، وبجانب هذين السياقين فإن كل أداة لها من الخصائص ما يميزها عن غيرها.

(861) السابق، ص ٢٦٢.

(862) السابق، ص ٢٥٢.

● الكاف:

للكاف دلالة على التوكيد استعمالها الكاتب في الحاجات الملحة، كما في طلبه من المتلقي القيام على خدمة أحد الأشخاص في قوله "حق موصل كتابي إليك كحقه علي" (٨٦٣).

وضع الكاتب نفسه موضع الوسيط بين الطالب لحاجة والمتلقي، وأكد على المتلقي القيام بحاجة الطالب كأنه يقوم بها للكاتب نفسه ويظهر ذلك من قدرة الكاف على التأكيد في تشبيهه حق الطالب على المتلقي كحق عبد الحميد عليه، والجامع بينهما بذل أقصى جهد لتحقيق حاجة الطالب الذي يحمل الرسالة من عبد الحميد إلى المتلقي.

إن تكرار المادة اللغوية في المشبه والمشبه به (حق كحقه) ترفع المشابهة بينهما إلى أعلى درجة وكأن المشبه هو ذاته المشبه به ليزيد على المتلقي تأكيداً بالقيام على خدمة موصل الكتاب.

واستعملها الكاتب أيضاً مستغلاً دلالتها على التأكيد في التوجيه غير المباشر للمتلقي، كما في قوله عن ضرورة نقط وإعجام الخط للوصول به إلى الوضوح وجمال الشكل "الأرض الملساء وحشة، والروضة الزهراء بهجة، فإذا نورت فقد انتهى حسنهما، وكذلك الخط بلا نقط ولا إعجام كالأرض الملساء، والمنقوط المعجم كالروضة المنورة" (٨٦٤).

مهّد الكاتب للتشبيه بالمقارنة بين المشبه به في الأسلوب الأول والمشبه به في الأسلوب الثاني (الأرض الملساء، الروضة المنورة) ورسم بهذه المقارنة صورة بصرية لكل مشبه به تؤثر بالطبع في درجة تجاوب المتلقي مع أحدهما، وهي الروضة المنورة، ثم عقد التشبيه بين الخط المعجم المنقوط والخط غير المعجم غير المنقوط بالروضة المنورة والأرض الملساء ليقم بهذا التشبيه صورة بصرية أخرى للخط المعجم تؤثر في درجة تجاوب المتلقي معه وتنفره من الخط غير المعجم.

وهو تجهيز مسبق للمتلقي يجعله مستعداً لتقبل النصيحة التي صاغها الكاتب بطريق غير مباشر بالتشبيه الذي أكسبته الكاف تأكيداً على دخول المشبه عالم المشبه به لتزداد الصورة المتخيلة في ذهن المتلقي وضوحاً وتأثيراً يريغه في نقط وإعجام الخط من ناحية، وينفره من الخط غير المعجم ولا المنقوط من ناحية أخرى.

* كأن :

لأداة التشبيه كأن بجانب ربط المشبه بالمشبه به نحويًا قدرة على نقل السياق الجزئي للتشبيه إلى سياق آخر يكتسب فيه المشبه والمشبه به أبعاداً تؤثر في المتلقي.

(863) السابق، ص ٢٨٨.

(864) السابق، ص ٢٨٨.

لنتأمل قول الكاتب عن الصيد " ... حتى سئمنا من الذبح وامتأنا من النضيج، كأننا كتيبة ظفرت ببغيثها وسرية نصرت على عدوها"^(٨٦٥).

خرج الكاتب من سياق الصيد إلى سياق الحرب عن طريق التشبيه بكأن، الذي نقل المشبه (جماعة الصائدين) من ممارسة هواية الصيد واللهو إلى احتراف القتال والحرب، واستتبع هذا النقل نقلاً آخر للصيد من مجرد الملاحقة للحيوانات الآمنة في مراتعها إلى ملاحقة عدائية للعدو في المعركة.

ويعكس هذا النقل من الصيد إلى الحرب صورة العصر الذي عاش فيه عبد الحميد من كثرة الحروب والخروج المسلح مما جعل فكرة الحرب وصورتها مسيطرة على فكر الكاتب لدرجة جعلته محوياً لرياضة ترفيهية ورحلة خلوية يتأمل فيها جمال الطبيعة من ألوان بهية وأصوات رخيمة وحركات هادئة إلى القتال والحرب التي تدمر فيها الطبيعة ولا يظهر فيها إلا ألوان الدم المنفرة وأصوات السلاح المزعجة والحركات الخاطفة.

إن نقل السياق إلى الحرب لا يعكس لنا سيطرة فكرة الحرب على الكاتب فحسب، بل على المتلقي ذاته، فعبد الحميد وجّه رسالته إلى الخليفة مروان الذي اشتهر بالخبرة الحربية واشترك في كثير من الحروب قبل توليه الخلافة وبعدها.

فعقد التشبيه مراعاة لخلفية المتلقي الثقافية إن دلّ على شيء إنما يدل على ذكاء الكاتب في إقامة الصورة المناسبة للمتلقي ليضمن تأثيرها فيه وهو ما ذهبنا إليه من الحديث عن ميزة مهمة من ميزات الرسائل الديوانية ألا وهي معرفة الكاتب الجيدة بالمتلقي و ثقافته مما يستدعي استخدام الكاتب للأساليب التي تؤثر فيه ليضمن تجاوبه مع الرسالة.

وقد يعكس هذا النقل من الصيد إلى الحرب رغبة الكاتب في تحقيق انتصار ولو على حيوانات الصيد الآمنة في مراتعها مما لا تستطيع الدولة تحقيقه في بعض المواقع الحربية ضد الخارجين على الدولة.

ويؤكد هذا النقل لدينا انتماء هذه الرسالة تاريخياً إلى المرحلة الثالثة التي تبدأ مع خلافة مروان لانتشار الفتن والحروب في عهده عن سابقه.

● كما:

لقدرة كما على تمثيل المعنى فقد استعملها الكاتب في رسم صورة متخيلة تتسم بالوضوح في ذهن المتلقي تجعله مؤهلاً لاستقبال نصيحة الكاتب والقيام بها في وضوح وشفافية، يقول عبد الحميد ناصحاً الكتاب بضرورة معرفة صفات وأخلاق صاحب العمل "إذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلأقه كما يستشف الثوب يشتره لنفسه"^(٨٦٦).

مثل عبد الحميد معرفة كل كاتب لصفات صاحب العمل و أخلاقه بمعرفة الثوب الذي يشتره لنفسه وانتقائه جيداً والجامع بينهما دقة البحث عن العيوب والمميزات ومعرفتها جيداً حتى يستطيع المتلقي انتهاز فرصة معرفته بالميزات

(865) السابق، ص ٢٧٠.

(866) السابق، ص ٢٨٥.

وتفادي المشاكل التي قد تثيرها العيوب، وفي الحاليين يضمن المتلقي الاستمرار في عمله والمحافظة عليه.

إن تمثيل المعنى المعقول في صورة حسية يقرب هذا المعنى في ذهن المتلقي ويسمه بالوضوح حتى يستطيع المتلقي القيام بمهامه في سهولة، وقد أدت أداة التشبيه كما هذا الدور بقدرتها على تمثيل المعنى.

إن رغبة الكاتب في وضوح دلالة الصورة قد حدت به إلى تمثيل المعنى في أسلوب لا يستقيم من بعض جوانبه، فاختيار المتلقي للثوب نابع عن إرادته إذ يمكنه شراء غيره، أما صاحب العمل فمفروض على المتلقي لا يمكنه اختياره.

● مثل:

استخدم الكاتب هذه الأداة في سياق التهديد الهادئ أو بمعنى آخر لتبصرة المتلقي إلى ضرورة تنفيذ نصائح الكاتب الموجهة له حتى لا يصيبه الندم. ويتضح ما نقول في توجيه الكاتب ولي العهد إلى ضرورة المحافظة على أسرارته حتى لا تضار هيئته ومكانته كولي عهد للخلافة، يقول الكاتب "فإنه ليس أحد أسرع إليه سوء القالة ولغط العامة بخير أو شر ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت به من دين الله" (٨٦٧).

● التشبيه بالنظر إلى وجه الشبه:

ونعني به التشبيه المذكور فيه وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أو غير المذكور فيه وجه الشبه بينهما وقد توزع حسب الجدول التالي:

التشبيه من حيث ذكر أو طى وجه الشبه	العدد	النسبة
مجمل	٧٠	٦٥ %
مفصل	٣٧	٣٥ %
الإجمالي	١٠٧	١٠٠ %

ومن الجدول نتبين أن التشبيه المجمل – غير المذكور فيه وجه الشبه بين المشبه والمشبه به يقارب ثلثي التشبيه في نثر عبد الحميد.

وبصرف النظر عن أفضلية التشبيه المجمل عند البلاغيين على التشبيه المفصل، فإن الكاتب يستعمل أدواته اللغوية حسب مقاصده فيصيغ المعنى في القلب الذي يراه مناسباً للإفصاح عن تلك المقاصد ومؤثراً في المتلقي بالدرجة التي يريدها.

● التشبيه المجمل:

إن طى وجه الشبه يحدث عملية بحث من قبل المتلقي تجعله مشاركاً للكاتب في الإبداع، وتثري الدلالة بتقديره أكثر من وجه شبه بين المشبه والمشبه به، ويتخلل هذه العملية حوار مع النص يثير فيه المتلقي عدّة تساؤلات، أولاً عن الأسباب التي دفعت الكاتب لطي وجه الشبه، وثانياً كيفية الوصول إلى وجه الشبه، وهذا الحوار يزيد من تجاوب المتلقي مع النص، ويسم عملية التلقي بالحركة وكان

(867) السابق، ص ٢٢٣.

الكاتب جالس مع المتلقي رأي عين يشافهه ويشير إليه ويشرح له ما عمى عليه، ويستطيع المتلقي توجيه التساؤلات للكاتب ويتلقى الإجابة عليها. فلنتأمل قول الكاتب ناصحاً ولي العهد بالبحث عن الطرق التي يستميل بها جنود العدو أو جعل قائدهم يشك في ولائهم له عن طريق دس الخطابات المصنوعة "... ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جوابات كتب لهم إليك" (٨٦٨).

إن طي وجه الشبه بين الرسائل والرد عليها يوجه المتلقي إلى البحث عن وجه الشبه ويعمل ذهنه فيه وهو ما يوحى للمتلقي بالبحث عن طرق أخرى كالتى بينها في الشاهد وتحقق نفس الغرض المطلوب من إما استمالة جنود العدو إليه أو زعزعة الثقة بين زعيم الخارجين وجنوده.

وقد يوحى الكاتب عن طريق طي وجه الشبه للمتلقي بطي شعوره الحقيقي عن الأشخاص خاصة إذا كان لا يرغب فيهم أو في قضاء حاجتهم، يقول عبد الحميد "والأ كنت عند انقضاء كلامه كالمتعطل من حديثه بالتبسم والإغضاء" (٨٦٩).

شبه الكاتب المتلقي بالمتعطل بالتبسم والإغضاء وهو على غير الظاهر إذ يستدعي السياق ملل المتلقي من محدثه أو عدم الرغبة في استكمال الحديث، ولكن الكاتب يوجهه بهذا التشبيه إلى طي شعوره الحقيقي تجاه من يحدثه حتى لا تتأثر شعبيته لدى الناس، أو يضر أحد الأشخاص له الكره والضغينة.

وجاء طي وجه الشبه ملائماً لما يوجه الكاتب المتلقي إليه من ضرورة طي الشعور الحقيقي عن الناس كطي الكاتب لوجه الشبه بين المشبه والمشبه به.

● التشبيه المفصل:

استغل الكاتب ظهور وجه الشبه بين المشبه والمشبه به ليحكم دلالة التشبيه ويضمن وضوح صورته في ذهن المتلقي حتى يفهم جيداً قصد الكاتب من ورائه، ولهذه الميزة فإن التشبيه المفصل يلائم التوجيه المباشر للنصائح حتى تظهر واضحة جلية يستطيع المتلقي القيام بها وهو في تمام التأكد أن ما سيقوم به هو مراد الكاتب وما ينتظره منه.

ويظهر ما نذهب إليه من خلال توجيه عبد الحميد النصائح لفئة الكُتاب في قوله "... فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدماً لا تحتملون في خدمتكم على التقصير" (٨٧٠).

شبه عبد الحميد الكُتاب بالخدم وذكر وجه الشبه (في خدمتكم) المشتق في مادته اللغوية من نفس المشبه به ليوضح لهم أن عملهم لدى صاحب العمل كخدام حتى يعرف كل كاتب قدر نفسه بالنسبة لصاحب العمل فمن المعلوم أن الكُتاب في الدولة الأموية كانوا يقومون مقام الوزراء، فأراد عبد الحميد بذكر وجه الشبه توضيح وضع الكاتب الحقيقي بالنسبة لصاحب العمل حتى يضمن بهذا الوضوح

(868) السابق، ص ٢٦٣.

(869) السابق، ص ٢٣١.

(870) السابق، ص ٢٨٦.

تواضع الكتاب عمومًا ولا يصيبهم البطر بالنعمة لما وصلوا إليه من منزلة لدى أصحاب العمل من الخلفاء والأمراء.

أو بمعنى آخر أراد الكاتب بهذا الوضوح أن يكسر كبر بعض الكتاب الذي أصابهم من منزلتهم وقربهم من الخلفاء والأمراء وما يعرفونه من أسرار الدولة، حتى لا تكون آفة الكبر سببًا في إلحاق الضرر بصاحبها.

وفي تشبيه قريب من السابق يدعو عبد الحميد الكتاب إلى القصد في الوسائل الترفيحية في مجالسهم كنوع من التواضع أيضًا في قوله ناصحًا الكتاب باقتناء ما يكفي العمل فقط دون الزيادة "فليقصد الرجل منكم في مجالس تدبيره قصد الكافي في منطقة وليقصد في كلامه" (٨٧١).

شبه عبد الحميد القصد في المجلس بالقصد في المنطق وقد جاء وجه الشبه (الكافي) ليوضح الدلالة، فالقصد هنا ليس مطلقًا، ولكن بقدر الحاجة المطلوبة فقط دون الزيادة، فلا يدعو عبد الحميد الكتاب إلى القصد الذي قد يصل بهم إلى طلب الحاجة، بل ما يكفيهم فقط في مجالسهم دون الزيادة مما لا حاجة لهم به، وقد ألح عبد الحميد على هذا المعنى بتكرار المادة اللغوية للقصد، وأيضًا بالفعل المضارع (فليقصد) الذي أكسبته لام الأمر تأكيدًا يوضح للمتلقين ضرورة الاستجابة لنصائح عبد الحميد.

وخلال توجيه عبد الحميد النصائح لجماعة الناس بالتوحد ونبذ الخلافات فيما بينهم وإصلاح آثار الفتنة والافتتال الداخلي يستعمل التشبيه المفصل المذكور فيه وجه الشبه لتدعيم التشبيه وتأكيد.

ويتضح ذلك من قوله "ويحرسه في غفلته عن الأعداء إذا غفل، ويكون عيًّا له من خلفه" (٨٧٢).

شبه الكاتب الشخص الذي بينه وبين المتلقين خلاف وعداء بالعين، وحدد الكاتب وجه الشبه (يحرسه)، وجاء هذا التحديد للتأكيد على المتلقي بأهمية المشبه له في ظل الصراعات التي شهدتها العصر.

إن تحديد وجه الشبه (الحراسة مع احتمال غفلة المتلقي) لمشبه به (عيًّا) ذي الجوانب المتعددة ملائم لما يحتاجه المتلقي من اتحاد لمواجهة الأخطار الخارجية التي تحيط بالدولة الإسلامية في هذا العصر، وتتجلى هذه الحاجة في أهم مظاهرها في المساندة الفعلية المتمثلة في الحراسة من الأعداء.

● التشبيه البليغ:

وعده (٦٥) خمسة وستون أسلوبًا، وكان سببًا في زيادة عدد التشبيه المؤكد مقابل المرسل والتشبيه المجمل مقابل المفصل، أي احتل وحده ما يزيد على ثلاثة أخماس أساليب التشبيه في نثر عبد الحميد.

(871) السابق، ص ٢٨٧.

(872) السابق، ص ٢٠٩.

وتكمن أهمية التشبيه البليغ في جمعه لنوعين من أساليب التشبيه هما التشبيه المؤكد والتشبيه المجمل، فيكتفي في هذا النوع من التشبيه بالمشبه والمشبه به فحسب دون ذكر وجه الشبه بينهما أو أداة التشبيه. وقد عدّه البلاغيون في أعلى مراتب التشبيه لـ "مزية التحام الركنين إلى درجة التوحد" (٨٧٣).

وللتشبيه البليغ خاصية تميزه عن بعض أساليب التشبيه الأخرى إذ تزداد الروابط فيه بين المشبه والمشبه به كالرابطه النحوية التي تقوم بين طرفيه كالإسناد أو الإضافة، أو ارتباطهما بعامل واحد يعمل فيهما معاً، وغير ذلك من الروابط النحوية التي تزيد من التحام المشبه بالمشبه به، وتؤكد صدق ادعاء الكاتب في نقله المشبه من عالمه إلى عالم المشبه به كلية. وقد ارتبط التشبيه البليغ في نثر عبد الحميد بسياقات بعينها كسياق الحكمة، لما يحتاجه هذا السياق من حجة قوية تؤكد صدق ادعاء الكاتب في دخول المشبه عالم المشبه به، وتؤثر في المتلقي وليس أنسب لتلك الحجة من التحام طرفي التشبيه.

فلنتأمل قول الكاتب "القلم شجرة ثمرها الألفاظ والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، والبلاغة منهل فيه ري العقول الظامنة، والخط حديقة زهرتها الفوائد البالغة" (٨٧٤).

أقام الكاتب حجته عن طريق التشبيه البليغ بين القلم والشجرة، والفكر والبحر، البلاغة والمنهل، الخط والحديقة، ليوحى بالتحام كل طرفين وارتباطهما نحويًا برابطة الإسناد تمام دخول المشبهات عوالم المشبهات بها، ويزداد بذلك التأثير في المتلقي.

وقد امتد الكاتب بكل تشبيه بتشبيه آخر شبه فيه الألفاظ بالثمر، الحكمة باللؤلؤ، الفوائد بالزهرة، وتنشيط العقول بالري.

وهو تكثيف للتشبيه البليغ يقابله تكثيف في الصور المتخيلة في ذهن المتلقي تزيد من تأثيرها في المتلقي وتتم تتابع الصور عن قدرة إبداعية يستطيع الكاتب بها التأثير في المتلقي أيما تأثير.

وفي سياق مشابه يقول عبد الحميد "طالب الدنيا عليل ليس يروى له غليل" (٨٧٥).

أقام الكاتب حجته على صدق ادعائه بكون الطامع في الدنيا كالعليل الذي لا تشفى له علة عن طريق التحام المشبه بالمشبه به وقيام علاقة الإسناد بينهما، فكان المشبه به خبراً للمشبه لتقوى علاقة الإسناد الترابط بينهما، وصدق الادعاء على تحول المشبه إلى عالم المشبه به يزيد من اقتناع المتلقي بالامتثال للحكمة بترك الدنيا والرضا بما اكتسبه فيها.

(873) الصوت والصورة، ص ٢٠٤.

(874) عبد الحميد بن يحيى، ص ٢٩٠.

(875) السابق، ص ٢٩١.

إن قيام علاقة نحوية قوية بين المشبه والمشبه به وحذف أداة التشبيه ووجه الشبه مع بقاء ركني التشبيه على سطح النص يؤكد تلازم المشبه والمشبه به تلازماً يزيد من اقتناع المتلقي بدلالة التشبيه.

يقول عبد الحميد عن تلازم المعصية والشقاء والخسار "...وجعل المعصية شقاءً وخساراً وتباراً" (٨٧٦).

فاقتناع المتلقي بأن المعصية هي الشقاء نفسه نبع من تلازم المعصية والشقاء ووقوعهما مفعولين لـ (جعل) بنفس الحكم الإعرابي والموقع النحوي.

ومن اللافت للنظر أن تأكيد التلازم بين ركني التشبيه قد ورد في ختام سياق بعينه هو سياق العتاب يقول عبد الحميد في ختام عتاب أحد الولاة "وأنت عين أمير المؤمنين وجفنه والناظر له، والجار إليه" (٨٧٧).

التحام ركني التشبيه و تلازمهما (أنت) ويعود إلى المتلقي و(عين أمير المؤمنين) يؤكد أهمية الوالي للخليفة ومحبة له فلاءم ختام العتاب ببيان المحبة حتى يكون الوالي مؤهلاً لخدمة الخليفة دون ضغينة من ناحية، وعدم تكرار ما تسبب في عتاب الخليفة له من ناحية أخرى.

وفي ختام سياق مشابه يعاتب فيه الكاتب على لسان الخليفة ولي العهد على سوء معاملته لزوجته "... على التقصير بعائشة ابنة هشام التي محتدها شريف فرعها فرعك، وأصلها أصلك" (٨٧٨).

أكد الكاتب تلازم (فرعها، فرعك)، (أصلها، أصلك) بأكثر من مظهر، الأول بقيام علاقة الإسناد بينهما، والثاني بتكرار المادة اللغوية للفرع بين ركني التشبيه في الأسلوب الأول، والأصل بين ركني التشبيه في الأسلوب الثاني، والمظهر الثالث قيام التشبيهين على جدلية الأصل والفرع التي توحى بشمول تلازم ولي العهد وزوجه.

وتأكيد الكاتب للتلازم بين ولي العهد وزوجه بالمظاهر السابقة في ختام سياق العتاب جدير بأن يوجه ولي العهد إلى إحسان معاملة زوجته والميل إليها دون الجواني اللاتي لا أصل لهن ولا تربطهن بالمتلقي أي صلة قرابة أصلية أو فرعية. وفي سياق آخر أقام عبد الحميد تلازماً بين الغربة وما ينشأ عنها من كربة أثرت في نفسه مؤكداً التلازم بينهما عن طريق التشابه الصوتي في قوله "حتى تخيم بنا الأسفار على حلول كل دار بكربة الغربة، وخشونة الجفوة" (٨٧٩).

وتلوح لنا دلالة تأكيدية من التحام ركني التشبيه وقد وردت هذه الدلالة مرتبطة بسياق النصائح الموجهة من الكاتب إلى المتلقي، ويأتي التأكيد لضمان قيام المتلقي بالمطلوب منه خاصة في النصائح الحربية، فعن توفير الأمن والسلامة للجنود في المعسكر يوجه الكاتب ولي العهد لإصدار الأوامر لقائدين يحفر كل منهما

(876) السابق، ص ٢١٢.

(877) السابق، ص ١٩١.

(878) السابق، ص ١٩٤.

(879) السابق، ص ٢٠٤.

خندقًا، ثم يقوم بحراسته "... وكانوا هم البوابين والأحراس لذينك
الموضعين" (٨٨٠).

ظهور الضمير (هم) العائد على المشبه (القائدين) على سطح النص ملتحمًا
مع خبر كان المشبه به (البوابين) لتأكيد إسناد حراسة كل خندق لمن حفره بنفسه
من القواد ومن معه من جنود لأنهم أولى بمعرفته عن غيرهم.
ويعاود الكاتب التأكيد في النصائح الموجهة أيضًا لولي العهد مما قد يستهين
به، يقول الكاتب "... وليكن ضحكك تبسمًا أو كشرًا في أحيان ذلك وأوقاته وعند
كل أي مله مستخف مطرب، وقطوبك إطراقًا في مواضع ذلك" (٨٨١).
وفي موضع آخر مشابه يقول "وليكن مطعمك مئدعًا، وشربك أنفاسًا،
وجرعك مصًا" (٨٨٢).

إن تحول الضحك إلى التبسم أو الكشر، وتحول القطوب إلى الإطراق الكامل،
من الأمور التي يستهين بها بعض الناس فلزم التأكيد لضمان استجابة ولي العهد
لما يوجهه إليه الكاتب من نصائح تقوى من هيئته ومكانته لدى الناس.
وفي الشاهد الثاني نجد أن الأمور المذكورة من الضروريات التي يجب
التأكيد عليها لأنها تعكس الهدوء والنظام في تناول الطعام والشراب مما يعكس قوة
الشخصية حتى في أبسط الأمور.

وقد صاغ الكاتب التشبيهات في الشاهدين في قالب متشابه من اقتران الفعل
الناسخ العامل في ركني التشبيه بلام الأمر (ليكن) ذات الدلالة التأكيدية، وارتباط
المشبه والمشبه به بالناسخ (اسم وخبر يكن)، وإضافة (ك) الخطاب إلى المشبه في
كل أساليب التشبيه السابقة لاختصاص المتلقي وحده بالالتزام بهذه النصائح
العملية المتكررة يوميًا.

وهذا التشابه بين تراكيب أساليب التشبيه يدل على أن هناك جامعًا لهذه
الأمور ألا وهو أنها من الأمور التي قد يستهين بها البعض.

• إن اعتماد التشبيه البليغ على ركني التشبيه دون أداة التشبيه ووجه الشبه،
وقدرته على إقامة علاقة بين أطراف قد تكون متباعدة في الواقع، ويقوم فيها
بنقل المشبه إلى عالم المشبه به كلية دون وسيط أو بيان الجامع بينهما؛ يمكن
الكاتب من التعبير عن رؤيته تجاه بعض المشغلات دون قيد يمنع من إقامة
علاقة تشبيهية بين طرفين متباعدين في الواقع.

فقد استطاع الكاتب إقامة علاقة بين الطباع السيئة وقوة تمكئها من الإنسان
وبين الحجر الصلد الذي يحوي النار داخله ولا تخرج إلا بقدر الحجر، وكان ذلك
عن طريق التشبيه البليغ، يقول عبد الحميد "... وقوة طباع السوء الكامنة في بني
آدم كمون النار في الحجر الصلد فإذا قدح لاح شرره" (٨٨٣).

(880) السابق، ص ٢٥٧.

(881) السابق، ص ٢٢٩.

(882) السابق، ص ٢٣٢.

(883) السابق، ص ٢٢٣.

إن الصورة التمثيلية التي رسمها الكاتب تستحضر في الذهن أطراف متعددة للتشبيه كاستحضار علاقة المشابهة بين الحاوي للطباع السيئة والحجر الصلد والجامع بينهما الشدة والغلظة، والطباع السيئة والنار الحارقة والجامع بينهما ضرر كل منهما على الإنسان، وقوة كمون الطباع السيئة في الإنسان وكمون النار في الحجر دون أن يشعر بها أو يراها أحد لخفائها، وطريقة استخراج وكشف الطباع السيئة في الإنسان وطريقة استخراج النار من الحجر بالقدح. وهذا الاستحضار يؤثر في درجة تجاوب المتلقي مع الكاتب باتحاد الرؤية تجاه المشكلات المختلفة.

ويحوّل الكاتب التعب والشقاء إلى غنم ودعة وفائدة في قوله عن الإخاء "ولا برم بالتعب، يرى تعب غنماً، ونصبه دعة، وكلفه فائدة" (٨٨٤).
فالتشبيه بالبلغ بقدرته حول المشبهات (تعبه، نصبه، كلفه) إلى المشبهات بها (غنماً، دعة، فائدة).

وقد يضاعف الكاتب التأثير في المتلقي بإيراد التشبيه البليغ نهاية كل فاصلة ويحدث أثراً موسيقياً بلون بديعي كالجناس في قوله معبراً عن فرحته بمولود "... وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوجد" (٨٨٥).
والسجع في قوله "... نرجع إليكم بذل الإسار والصغار والذل شر دار وأأم جار" (٨٨٦).

وقد يتابع الكاتب في التشبيهات ويرسم صورة كلية يمثل كل تشبيه جزءاً منها محدثاً صورة جزئية، وتجتمع الصور الجزئية مكونة الصورة الكلية السابقة. كرسم صورة لأخيه وهو يتنعم في ظل الوطن "وقد أصبحت عندي ذا غبطة باقتصارك على القليل، وتمددت في فسح ساحات منازل الراحة، واستقرعت أبواب السلامة، وتمهدت وثارة الأمن، وتوسطت رباع العز، واستخففت بذلك معاشك، ... لا تدخلك مشقة البعد، ولا ذلة السفر، ولا كآبة الغربة، ... ولا تعب شره النفس" (٨٨٧).

ورسم صورة كلية لأحوال العرب من الكفر قبل الإسلام في قوله "وسطع رهج الفتن، واعتلى قتام الظلم، ... واقمطر سلهب الفتنة، ... وطبقت الأرض ظلمة كفر وغياية فساد" (٨٨٨).

(884) السابق، ص ٢٧٧.

(885) السابق، ص ٢٠١.

(886) السابق، ص ٢٧٩.

(887) السابق، ص ٢٠٣.

(888) السابق، ص ٢٦٥.

● التشبيه من حيث الحسية والتجريد:

ونعني به كيفية إدراك المتلقي للمشبه والمشبه به ولا يخرج ركن التشبيه عن كونهما إما حسيان أي مدركان بأحد الحواس أو أكثر من حاسة، وإما مجردان مدركان بالعقل، أو أحدهما حسي والآخر مجرد.

وقد توزع التشبيه من حيث حسية وتجريد ركنيه كالتالي:

التشبيه من حيث الحسية والتجريد	العدد	النسبة
حسي / حسي	٤٤	٤١ %
مجرد / حسي	٣٠	٢٨ %
مجرد / مجرد	٢٥	٢٣,٥ %
حسي / مجرد	٨	٧,٥ %
الإجمالي	١٠٧	١٠٠ %

● حسي / حسي

وقد استأثر بما يزيد على ثلث التشبيه من حيث حسية ركنيه و تجريدهما. إن اندراج نثر عبد الحميد في معظمه تحت الرسائل الديوانية التي يقتصر فيها الكاتب على توصيل المعنى المطلوب بوضوح حتى يكون المتلقي متجاوباً مع الكاتب تمام التجاوب وعالمًا تمام العلم بمراده، ويحتاج الكاتب في بعض المواقف إلى تأكيد المعنى لضمان استجابة متلقي الرسالة لمراده ومقاصده؛ فإن وقوع ركني التشبيه في دائرة المحسوسات التي يعظمها المتلقي جيداً لأنها تنتمي إلى الواقع المعيش المدرك بالحواس بصورة أسرع وأوضح من المدركات بالعقل، يخدم مقاصد الكاتب من وضوح المعنى أو تأكيده، ويضمن به الكاتب سرعة استيعاب المتلقي للصورة الناتجة عن التشبيه من ناحية، واستيعاب العلاقات القائمة بين ركني التشبيه بشكل أوضح وأسرع من ناحية أخرى.

وقد توزع التشبيه ذو الركنين الحسيين حسب الحاسة المدرك بها كل منهما حسب الجدول التالي:

الحاسة المدرك بها طرفي التشبيه	العدد	النسبة
مرئي / مرئي ٢٨ % من الإجمالي	٣١	٧٠ %
مرئي / مرئي ملموس	٣	٧ %
مسموع / مسموع	٣	٧ %
مذوق / مسموع	٣	٧ %
مرئي ملموس / مرئي ملموس	٢	٤,٥ %
مرئي مسموع / مرئي	٢	٤,٥ %
الإجمالي	٤٤	١٠٠ %

● مرني / مرني

احتلّ وحده ما يقارب ثلثي التشبيه المدرك طرفاه بالحواس، ويزيد على الربع من حيث إجمالي أساليب التشبيه في نثر عبد الحميد.

إن إقامة علاقة تشبيهية بين طرفين يدرك كل منهما بالبصر يمثل في ذاته أعلى درجة من درجات الوضوح، إذ لا تخطئ العين ما تراه في حين تتذبذب باقي الحواس في درجات الوضوح ولا تصل إلى هذه الحاسة التي انبنى عليها أصل من أصول الاعتقاد ألا وهو التأمل في الكون والمخلوقات.

إن حاجة الكاتب إلى وضوح الدلالة – كما مر بنا – أو تأكيدها تتجلى بشكل أكبر في إقامة التشبيه بين طرفين مرئيين يستطيع المتلقي تخيل كل منهما في ذهنه بصورة سليمة لمعرفته بهما جيداً ورؤيته لهما في الواقع المعيش، ومن ثم يستطيع الكاتب أن يضمن استجابة المتلقي لمراده منه خاصة إذا كان السياق الوارد فيه التشبيه سياق النص، وربما ترتفع فيه النصائح في ضرورة العمل بها إلى الأوامر الموجهة من الكاتب إلى المتلقي.

يقول عبد الحميد ناصحاً ولي العهد بوحدة الجيش في الكرّ والفرّ "فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الاستجابة"^(٨٨٩).

إن تمثّل هيئة الجيش في نظامه ووحدته بهيئة الرجل الواحد ككل لا يتجزأ من الوضوح بحيث يستوعب ولي العهد ضرورة العمل على تنظيم الجيش ككل لا يتجزأ.

ومؤكّداً على أهمية الطلائع للجيش في قوله "واعلم أن الطلائع عيونٌ وحصون للمسلمين"^(٨٩٠).

تمثّل هيئة طلائع الجيش في رصدّها للعدو ومراقبته بهيئة العيون ذاتها للإنسان في أهميتها له. وقد صاغ الكاتب التشبيه في قالب التأكيد ليضمن به الكاتب مع وضوح الصورة المتمثلة للطلائع استيعاب المتلقي لها تماماً واستجابته للنصيحة من ضرورة الاهتمام بالطلائع لأنه لا يستطيع أن يستغني عنهم كما لا يستطيع الإنسان أن يستغني عن عينه.

وقد يستقي الكاتب الوضوح من دلالة المشبه به على الضوء الذي يرفع درجة الإنذار كما في قوله "وإن ألفتته متوقد الجمر... كنت لأخذك بالحزم، واستعدادك بالقوة غير مهين الجند، ولا مفرط في الرأي"^(٨٩١).

ويلانم وضوح طرفي التشبيه بصرياً بتمثّل الهيئة أو الحركة نقل المشاهد إلى المتلقي كما يراها الكاتب تماماً، كمشاهد الصيد التي ينقلها عبد الحميد إلى الخليفة، فيقول مصوراً إحاطة الصائدين لحيوانات الصيد "فنظمنها بالخيّل نظم الخرز، ثم أوغلت عدّة فرسان في نفضها"^(٨٩٢).

(889) السابق، ص ٢٦٢.

(890) السابق، ص ٢٤٨.

(891) السابق، ص ٢٤٠.

(892) السابق، ص ٢٧١.

ولأهمية عضو الإبصار عند الكاتب فقد وقع مشبهًا به في عدة تشبيهات منها "وأنت عين أمير المؤمنين وجفته" (٨٩٣) وقوله "ويكون عينًا له من خلفه" (٨٩٤).

● مرئي / مرئي ملموس

إن إدراك المتلقي للمشبه به بأكثر من حاسة يمثل في ذاته إلحاحًا من الكاتب على وضوح الصورة المتخيلة في ذهن المتلقي. وقد استعمل الكاتب هذا الأسلوب في التوجيه غير المباشر للمتلقي بتحسين الخط عند الكتابة مع نقط وإعجام الحروف حتى تتضح الكتابة وتؤدي ما وجدت من أجله، مع استحسان القارئ لها، وفي ذلك يقول عبد الحميد "الخط بلا نقط ولا إعجام كالأرض الملساء، والمنقوط المعجم كالروضة المنورة" (٨٩٥). إن الإصرار الكاتب على وضوح الصورة جعله يشبه الخط غير المعجم أو المنقوط المدرك بصريًا بالأرض الملساء التي تكتسب بجانب البعد المرئي بعدًا آخر وهو إمكانية تميزها لملاستها باللمس أو حتى بالسير فوقها. وهذا الإصرار على وضوح الصورة وجه الكاتب إلى التشبيه الثاني، ولكن بزيادة أبعاد المشبه به، فشبه الخط المنقوط المعجم في جماله وفوائده بالروضة المنورة المدركة بجانب البصر واللمس بالششم الذي كان سببه النقط والإعجام الذي استحضره الكاتب في ذهن المتلقي بالنور المتفتح الذي يكسب الروضة جمالاً فوق جمالها. وقد اضطر الكاتب إلى زيادة هذا البعد في التشبيه الثاني لأن أقام التشبيهين على المقارنة بين الخط الجيد والرديء، الواضح وغير الواضح، المستحسن وغير المستحسن. فلزمه إكساب صورة الخط الجيد بعدًا يميزه ويستميل به المتلقي نحوه، وهو ما دفعنا إلى القول بأنه توجيه للمتلقي ولكن غير مباشر.

● مسموع / مسموع

وقد استعمل الكاتب هذا الأسلوب في سياق الصيد استعمالاً مزدوجاً لخدمة السياق من إظهار جوارح وبوازي الصيد في صورة تبرز تدريبها على مستوى عالٍ، وتؤكد أفضليتها وذكاءها بما يميزها عن غيرها من الجوارح. فتارة يمثل الصوت الصادر عن سرعتها وحركتها لاقتناص الصيد بصوت الريح الخافت الملائم لمفاجأة الصيد حتى لا يشعر بها لإظهار ذكائها، وتارة يمثل الصوت الصادر عن تمكنها من الصيد بعد إمساكها به بأصوات الريح القوية ذات الصوت العالي المزعج الذي يمزق الجراد لإظهار شرستها، يقول عبد الحميد

(893) السابق، ص ١٩١.

(894) السابق، ص ٢٠٩.

(895) السابق، ص ٢٩٢.

"فمرت تحفّ حفيف الريح عند هبوبها، تسفّ الأرض سقاً، كاشفة عن أثارها، طالبة لخيارها، حارشة بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد" (٨٩٦).

إن اختيار الكاتب لمشبه به يتميز بالتفاوت في الإدراك السمعي، ويضعه في تشبيهين مستغلاً في الأول صوته الخافت، وفي الثاني صوته العالي المزعج ينم عن ذكاء وقدرة لغوية مكنته من توجيه الصورة حسبما يقتضي السياق من ناحية، والسيطرة على حواس المتلقي بتوجيهها إلى تمثل الصورة المسموعة بطرق متفاوتة من ناحية أخرى.

● مذوق / مسموع:

وقد استعمل الكاتب هذا الأسلوب في توجيه ولي العهد إلى هدوء الطباع عامة وعند تناول الطعام والشراب خاصة كأمانة عليها. يقول عبد الحميد "... وليكن مطعمك متدعاً، وشربك أنفاساً، وجرعك مصاً" (٨٩٧).

استغل الكاتب صوت الأنفاس والمص الخافت في السمع نسبياً وذا التأثير الهادئ على المتلقي، ليكون الهدوء هو الطابع الذي يتسم به التشبيه، ويعكس هذا الهدوء ضرورة سيطرة المتلقي على هدوئه حتى في أقل الأمور. إن اختيار الكاتب لمشبه مدرك بالتذوق الذي قد يسيطر على أفعال الإنسان بالانسياق وراء غرائزه لإشباع حاجتها أو الإفراط في التلذذ وتحويله إلى عالم المسموعات الهادئة يوحى للمتلقي بضرورة السيطرة على غرائزه واتخاذ الهدوء سمة أساسية حتى لا تضيع شعبيته وهيبته وسط الرعية، وهو ما أكده الكاتب بلام الأمر ذات الدلالة التأكيدية المقترنة بالفعل الناسخ (ليكن) لضمان استجابة ولي العهد للنصيحة وعدم الاستهانة بتلك الأمور خلال الطعام أو الشراب.

● مرئي ملموس / مرئي ملموس

وقد استعمله الكاتب لعقد المشابهة بين ركني التشبيه الحسينيين اللذين يشتركان في إدراك كل منهما بأكثر من حاسة ليوحي بتمام كون المشبه مشبهاً به عن طريق كثرة علاقات المشابهة بينهما. يقول عبد الحميد "ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جوابات كتب لهم إليك وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم، وتحمل بها صاحبهم عليهم" (٨٩٨).

يدعو الكاتب ولي العهد إلى حيلة قد يوقع بها بين زعيم الخارجين وقواده، وتتمثل في صنع كتب على لسان القواد كأنها وجهت إلى ولي العهد، ويرسل ولي العهد بدوره كتباً يرد عليهم بها ويعتمد وقوعها في يد زعيم الخارجين. إن احتياج ولي العهد في سبك هذه الحيلة جيداً لتكون الرسائل المصنوعة كالحقيقية تماماً حتى تؤدي الهدف منها؛ إلى الدقة في كتابتها لترتفع في مشابقتها بالحقيقية فهذا الاحتياج قد وجه الكاتب إلى عقد التشبيه على ركنين يشتركان في الإدراك بأكثر من

(896) السابق، ص ٢٧٠.

(897) السابق، ص ٢٣٢.

(898) السابق، ص ٢٦٣.

حاسة لترتفع المشابهة بينهما، ليوحي لولي العهد بتحري الدقة في كتابتها حتى تكون كالحقيقية.

● مرئي مسموع / مرئي

وقد استعمل الكاتب هذا الأسلوب في سياق النصائح الموجهة لولي العهد، يقول عبد الحميد "واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق... وليكن ضحكك تبسمًا أو كشرًا في أحيان ذلك وأوقاته"^(٨٩٩).

شبه الكاتب الضحك بالتبسم والكشر، والضحك مدرك بالبصر والسمع معًا، فرسم القم وقسمات الوجه تدل بصريًا عليه، وبجانب ذلك فله صوت مسموع يستطيع الإنسان تمييزه به عن غيره.

أما التبسم أو الكشر فيدرك بصريًا دون السمع لأن الإنسان لا يصدر فيهما أصواتًا.

فالفارق بين المشبه والمشبه به هو إمكانية سماعه أو عدمه ونحن لا نرى في تحويل الضحك المسموع إلى غير مسموع تحويلًا في هيئة الضحك فقط، بل نرى فيه تحويلًا لأحوال المتلقي من الظهور الواضح أمام العامة إلى الغموض وإخفاء الشعور الحقيقي عنهم تجاه الأشياء عمومًا، وما يسمعه خصوصًا. فإخفاء الشعور الحقيقي سمة من سمات القادة تضمن لهم الهيبة والوقار بالترفع عن العادات التي تسيطر على العامة أو تظهر شعورهم الحقيقي.

● مجرد / حسي

من المعلوم أن المجردات أو المدركات بالعقل أبطأ في إدراكها عن المحسوسات، ولهذا فإن نقل الكاتب المشبه المجرد إلى مشبه به محسوس يُمثل نقلاً للأبطأ في الإدراك إلى الأسرع إدراكًا في الذهن ولأننا نسلم بأن الكاتب له حرية الاختيار من متعدد حسبما تقتضي مقاصده وأهدافه من خط الرسالة، فلا بد أن يكون هناك هدف من تحويل الأبطأ إدراكًا إلى الأسرع وهو ما نعزوه إلى ظروف العصر الذي عاش فيه عبد الحميد الذي اتسم بسرعة التحولات والأحداث والتقلب المستمر على الدولة من ناحية، ومسئولية عبد الحميد تجاه الدولة كوزيرها الأول والمسئول عن ديوان الرسائل التي تُحفظ فيه أسرار الدولة من ناحية أخرى.

وبهذا الفهم لا يسع الكاتب الوقت الكافي في بعض السياقات إلى توجيه دلالات تستغرق مدة من الزمن ليدركها المتلقي، فالبطء في الإدراك يستتبع بطئًا في الاستجابة وتنفيذ المطلوب، وسرعة الإدراك تستتبع سرعة مماثلة في الاستجابة وتنفيذ المطلوب. ففي قول الكاتب موجهاً جماعة المتلقين إلى مناهضة الخارجين على الدولة "إن أقررتم لهم؛ أقمتم في ذلة الدار، قد أوطئتم الخسف ومنعتم النصف"^(٩٠٠).

(899) السابق، ص ٢٢٩.

(900) السابق، ص ٢٠٠.

إن تمثيل الكاتب للذلة في صورة حسية للدار تتسم بسرعة الإدراك في ذهن المتلقي لمعرفته بالمشبه به جيداً وسهولة استيعاب الذهن له بالمقارنة بالمشبه المجرد الذي يصعب تخيله في الذهن.

وسرعة إدراك الذلة بنقلها إلى الدار يقتضي سرعة في الاستجابة للكاتب في حثه المتلقين على اتخاذ موقف من الخارجين وعدم الإقرار لهم فيما يفعلونه. وفي قوله موجهاً ولي العهد إلى العمل على النصر عن طريق استمالة الخارجين على الدولة أولاً للحفاظ على جنوده "... بغير إخطار الجيوش في وقعة جمرة الحرب ومنازلة الفرسان في معترك الموت"^(٩٠١).

فالجمرة المتوقدة أسرع إدراكاً في ذهن المتلقي من الحرب وتقتضي سرعة استجابة مماثلة لمن تناول الجمرة المتوقدة في يده أو على جسده فيلقوها بسرعة أو يسرع في الابتعاد عنها، وهو توجيه للمتلقي ليسرع في إنزال طاعة الخارجين قبل الدخول في مرحلة الاقتتال التي عبر عنها الكاتب بـ (معترك الموت).

وهذا النوع من النصر الذي قدمه الكاتب على نصر القتال يعد نوعاً من النجاة من الموت، تلك النجاة التي يعتبر عامل الوقت فيها مهماً وهو ما جعل الكاتب ناقلاً الحرب المجردة إلى الجمرة الأسرع إدراكاً في الذهن ليضمن سرعة استجابة ولي العهد، والعمل على القيام بالنصيحة الموجهة إليه.

إن سرعة إدراك المتلقي للصورة تعد معادلاً لاسترسال الكاتب المتمثل في تكرار الصور التي تنتج بالطبع من تكرار أساليب التشبيه، وجاء هذا النوع من خلع صفات المحسوسات على المجردات بإقامة علاقة الشبه بينهما في السياقات التي تتضمن أساليب تشبيهية متتابعة ليدركها المتلقي بسرعة ويستكمل باقي الرسالة، يقول عبد الحميد عن راحة أخيه في ظل الوطن "وقد أصبحت عندي ذا غبطة باقتصارك على القليل بقطعك حبال الأمل... وتمددت في فسح ساحات منازل الراحة، واستقرت أبواب السلامة، وتمهدت وثارة الأمن، وتوسطت رباع العز"^(٩٠٢).

وقوله "وانك بحيث انعطف عليك أنسة القريب وراحة السكون إلى الطمأنينة في دار الخفض ومنزل القرار"^(٩٠٣).

فلنتأمل التشبيهات المتتابعة للمجردات في ثوب المحسوسات في الشاهدين (حبال الأمل، ساحات منازل الراحة، أبواب السلامة، وثارة الأمن، رباع العز أنسة القريب، راحة السكون، دار الخفض، منزل القرار). إن هذا الكم من التشبيهات المتتابعة يتطلب من الكاتب سرعة في الإدراك لتكون معادلاً للاسترسال في رسم الصور، وتحقيق هذه السرعة بمظهرين، الأول حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، والثاني بتشبيه المجردات بمحسوسات تتميز بسرعة إدراك المتلقي لها عن المجردات.

(٩٠١) السابق، ص ٢٣٧.

(٩٠٢) السابق، ص ٢٠٣.

(٩٠٣) السابق، ص ٢٠٣.

وعن حال الكفار قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم- يقول عبد الحميد مصوراً حالهم بتشبيهات متتابعة "وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهج الفتن، واعتلى ققام الظلم، ... ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق...، واقمطر سلهب الفتنة... وطبقت الأرض ظلمة كفر وغياية فساد" (٩٠٤).

لنتأمل التشبيهات المتتابعة للمجردات في ثوب المحسوسات (آثار الدين، رهج الفتن، ققام الظلم، زعيم الباطل، سكتة الحق، سلهب الفتنة، ظلمة كفر) واتسمت بالسرعة في إدراك المتلقي لها لتكون معادلاً في استرسال الكاتب في التشبيهات.

وقد استعمل الكاتب هذا الأسلوب في سياقات بعينها كسياق الوصف - كما مر بنا من وصف سعادة أخيه في الوطن ووصف حال الكفار قبل بعث الرسول - فحاجة الكاتب إلى توضيح الدلالة حتى يستوعبها المتلقي تماماً حدث به إلى تمثيل المجردات التي يحكمه السياق في تناولها وانصباب موضوع الرسالة عليها - في صورة مادية ملموسة يستطيع المتلقي أن يتخيلها في ذهنه لأنه يعرفها جيداً في واقعه المعيش.

كوصف حال أصحاب الفتنة ومصيرهم المحتوم في قوله "حتى ترمي بهم في حومات أمواجهما مسلمة لهم... قد سلّبوها أجمل لباس دينهم واستنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم" (٩٠٥).

فالدين من السهل على المتلقي تخيله واستيعابه في اللباس الذي يعرفه جيداً ولن يكلف نفسه البحث عنه لاستعادته في الذهن.

وعن حال فئة أخرى من المفتونين يقول عبد الحميد "حتى أعنقوا في حنادس ظلم جهالته، ومهاوي سبل ضلالته" (٩٠٦).

فالجهالة والضلالة من السهل على المتلقي تخيلهما واستيعابهما في صورة الظلام والسبل اللذين يعرفهما جيداً.

وفي وصف حال القائمين على الأخلاق الذميمة وعدم التخلي عنها يقول عبد الحميد "فدخلت عليهم الآفات من جهات أمنوها، فنسبوا إلى التفريط، ورضوا بذل المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل عمهين عن درج الشرف ساقطين دون منزلة أهل الحجى" (٩٠٧).

الذل والفضل والشرف من السهل على المتلقي تخيل كل منها واستيعابه في صورة المنزل والمكان والدرج، والمتلقي يعرف تلك الأماكن تمام المعرفة لأنها من واقعه المعيش ويسهل عليه استعادة صورها في مخيلته.

(٩٠٤) السابق، ص ٢٦٥.

(٩٠٥) السابق، ص ٢١٣.

(٩٠٦) السابق، ص ٢٨٠.

(٩٠٧) السابق، ص ٢٢٠.

● مجرد / مجرد

من ينعم النظر في نثر عبد الحميد يكتشف لأول وهلة ارتباط هذا الأسلوب من التشبيه بالسلبيات المؤثرة في الكاتب نفسه، أو في الناس من حوله. فالمجردات التي تناولها في تشبيهاته ذات تأثير سلبي عميق على الإنسان عموماً وترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجودان الكاتب وحالته النفسية باعتباره فرد في جماعة يعيش معهم ويشعر بما يشعرون به، ولكنه قادر على تصوير هذا الشعور وإظهاره على سطح النص في رسائله. ومن هذه المجردات (الغربة) ذات التأثير السلبي العميق على الكاتب، تلك الفتنة التي يستشف المتلقي من خلال تشبيه الكاتب لها بمجرد آخر هو (الكربة) حالة الكاتب النفسية من ضيق وحزن وشوق وندم على ترك الوطن والاعتراب من أجل مطامعه الدنيوية، يقول عبد الحميد "حتى تخيم بنا الأسفار على طول كل دار بكربة الغربة، وخشونة الجفوة"^(٩٠٨).

وتناول الكاتب مجموعة من المجردات ترتبط كلها بالدنيا، ويضعها في علاقة تشبيهية مع مجرد آخر، وترتبط المجردات كلها بسياق عام من الحزن وقلة الحيلة وتظهر سلبية الإنسان تجاه ما هو أكبر منه من القوى الغيبية الغامضة، يقول عبد الحميد في التعزية "فإن كلوم الدنيا وآفاتا ومصائبها وفجائعها تجري في قضايا جمّة... فهي لأهل الصبر عبرة في فناء الدنيا"^(٩٠٩).

لنتأمل المجردات (كلوم، آفات، مصائب، فجائع) التي اختزلها الكاتب في (هي) ليكتف من اجتماعها وتأثيرها على الإنسان. ووضعها في تشبيه مع (عبرة) المجردة بدورها، والمشبه من القوى المؤثرة في الإنسان ولا يستطيع مجابهته إلا بمجرد مثله هو الاعتبار واتخاذ العظة منه.

إن الغموض الذي يكتنف بعض المجردات، ولو كان غموضاً مؤقتاً ينبع بالطبع من طول المدة الزمنية في إدراك المتلقي لها يعكس رفض الكاتب لهذا الغموض والتأثير في المتلقي ليستجيب للكاتب في رفضه لما له من آثار سلبية على الإنسان.

ففي سياق حديثه عن الطاعة والمعصية، يضع الكاتب المعصية في علاقة تشبيهية مع مجرد آخر متعدد الأطراف تعطن عن رفض الكاتب لهذه المجردات برمتها حتى يستجيب له المتلقي في رفضها ويلتف حول النقيض أو البديل الذي حدده الكاتب في الطاعة لولا الأمر يقول عبد الحميد "... وجعل المعصية شقاء وخساراً وتباراً وسيباً لكل نقص وأزل وهوان وحسرة"^(٩١٠).

فصعوبة تخيل المتلقي للمعصية في تحولها إلى الشقاء والخسار والتبار والمسبب للنقص والأزل والهوان والحسرة يجعله رافضاً تكوين الصورة في ذهنه من ناحية ورفض المعصية التي من أجلها جاءت الصورة من ناحية أخرى.

(908) السابق، ص ٢٠٤.

(909) السابق، ص ١٩٥.

(910) السابق، ص ٢١٢.

ومن اللافت للنظر أن الكاتب استعمل هذا الأسلوب في الدلالات التي يحتاج بقاءها في ذهن المتلقي مدة من الزمن ليتأملها جيداً حتى يستوعبها ويفهم آثارها عليه وعلى المجتمع حوله ليحدو به بعد هذا التأمل إلى استنكارها ورفضها، وتكوين فكرة مناهضة لها، أو بمعنى آخر إن الاستغراق الزمني في تخيل صورة المجردات في ذهن المتلقي تهيئ له الفرصة في فهم الصورة والعمل المناهض لها ومن هذه الدلالات إدراك أضرار العجب بالنفس في قوله لولي العهد "... محصناً أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأول الغواية ومقاد الهلكة" (٩١١).

فالتأمل في صورة العجب المتمثل في مجرد آخر هو رأس الهوى يستغرق مدة من الزمن حتى يستوعبها المتلقي ويفهم آثار العجب وأضراره على الإنسان ليحدو به إلى رفضه كما رفضه الكاتب.

ورفض العجب يستحضر في الذهن التواضع كصورة مضادة للعجب يتقبلها الإنسان ويعمل على أن يكون متواضعاً حتى لا تضيع أعماله هباءً.

أو رفض الطباع السيئة التي وقعت في علاقة تشبيهية في كمونها داخل الإنسان بكمون النار في الحجر كما في قوله "... وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد" (٩١٢).

أو رفض المحاباة والمداهنة في قوله "واحذر أن تكل مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانك وكتائبك فإنك إن وكلته... دخل عملك ضياع الوهن، وخلص إليك عيب المحاباة وناله فساد المداهنة" (٩١٣).

أو رفض المطامع لأنها تذلل الرقاب في نصائحه للكتاب في قوله "وارغبوا بأنفسكم عن المطامع... فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب" (٩١٤).

● حسي / مجرد

وهو أقل أساليب التشبيه وروداً في نثر عبد الحميد، وقد استعمله الكاتب في وصف فرحته الشديدة بمولود له، نقل فيه الولد الحسي إلى الأنسة المجردة ليكسب الفرحة بالمولود سموً وعلوً يخلعه عليها من غموض المجرد الذي يهبه هذا السمو يقول عبد الحميد "وتعطفت عليه مني أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوجد، فأنا به جذل في مغربي ومشهدي" (٩١٥).

(٩١١) السابق، ص ٢٢٠.

(٩١٢) السابق، ص ٢٢٣.

(٩١٣) السابق، ص ٢٤٧.

(٩١٤) السابق، ص ٢٨٣.

(٩١٥) السابق، ص ٢٠١.

● الاستعارة

ربط البلاغيون بين الاستعارة والتشبيه، فجعل الكثير منهم الاستعارة كفرع للتشبيه إذ اعتبروا التشبيه أسلوباً مكتملاً ويأتي طي أحد طرفيه بمثابة الدخول في الاستعارة، فنرى عبد القاهر يعتبرها بجانب كونها فرع عن التشبيه صورة من صورة "والتشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيه بالفرع له أو صورة مقتضبة من صورته" (٩١٦).

وخلال تناول ابن الأثير للمجاز نجده يقسمه إلى "توسع في الكلام وتشبيه، والتشبيه ضربان، تشبيه تام، وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام: أن يذكر المشبه والمشبّه به، والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه به ويسمى استعارة، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام" (٩١٧).

ولا يختلفان عنده إلا في الحد والحقيقة فحد التشبيه عنده نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما و"حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول إليه" (٩١٨).

وقد خلف لنا قدماء البلاغيين تطبيقات قيمة على الاستعارة مع رصد تأثيرها في المتلقي لها "فإنك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبيّنة، والمعاني الخفية بادية جلية" (٩١٩).

فهي ذات تأثير واضح تستطيع به أن تقلب الأشياء في ذهن المتلقي، وقد فطن عبد القاهر إلى قدرة الاستعارة على صنع صورة تؤثر في مخيلة المتلقي فيقول "وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها جسّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفّت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون" (٩٢٠).

ولم يربط البلاغيون بين التشبيه والاستعارة فحسب بل اعتمدوا على شرح الكثير من الاستعارات على التشبيه "ونحسب أن فهم الاستعارة من خلال التشبيه لا يصلح إلا في تلبية الحاجات الدنيا للمتلقى ذلك الحد الذي يقتع فيه بالدلالة السطحية الظاهرة والمعنى النثري المباشر للنص دونما تعمق لباطن النص إذا إن إدراك الاستعارة بشكل حرفي مباشر إنما يكون بشرحها نثرياً ومن خلال التشبيه. أما المستوى العميق من دلالة الاستعارة فلا بد أن تنشده من خلال فهم الاستعارة من حيث هي عالم دلالي مكتف بذاته مستقل بنفسه" (٩٢١).

(٩١٦) أسرار البلاغة، ص ٢٩.

(٩١٧) المثل السائر، ص ٣٤٣.

(٩١٨) السابق، ص ٣٥١.

(٩١٩) أسرار البلاغة، ص ٤٣.

(٩٢٠) السابق، ص ٤٣.

(٩٢١) الصوت والصورة، ص ٢٤١.

وقد استفاد البلاغيون ليس فقط في رصد تأثير الاستعارة على المتلقي، لكن في تصنيفاتها، فمن حيث الطرف المطوي "فهي تنقسم إلى مصرح بها ومكنى عنها، والمراد بالأول هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به، والمراد بالثاني: أن يكون الطرف المذكور هو المشبه" (٩٢٢).

ومن حيث وجود صفات تالية لها أو تفرعات تتعلق بأحد طرفيها تنقسم الاستعارة إلى مجردة ومرشحة ومطلقة، فالمجردة ما عقت بصفات أو تفرع كلام ملائم للمستعار له أو المشبه، والمرشحة ما عقت بصفات أو تفرع كلام ملائم للمستعار منه أي المشبه به، والمطلقة ما لم تعقب بما يخص هذه أو تلك. وتطول تلك التصنيفات مما يطول ذكره.

● الاستعارة من حيث الطرف المطوي ذكره:

وقد توزعت حسب الجدول التالي:

النسبة	العدد	الاستعارة من حيث الطرف المطوي ذكره
% ٨٦,٥	٣٥٨	مكنية
% ١٣,٥	٥٦	تصريحية
% ١٠٠	٤١٤	الإجمالي

وتأتي زيادة نسبة ورود الاستعارة المكنية في مقابل التصريحية في نثر عبد الحميد لحاجته إلى ذكر المشبه. إذ يندرج نثر عبد الحميد - في غالبه - تحت الرسائل الديوانية التي تتطلب مُرسل ورسالة ومرسل إليه، وتتصب الرسالة بالطبع على موضوع ما ينساق الكاتب في توصيله إلى المرسل إليه، وخلال الحديث عنه وتناوله يحتاج الكاتب للتأثير على المرسل إليه لإقناعه بالرسالة إلى وضع الموضوع المتناول أو ما يخصه أو ينتج عنه أو تفرع للكلام خاص به في مركب استعاري، ومن ثم يكون ظاهراً واضحاً وهو المشبه مع طي المشبه به الذي يستعير منه الكاتب، فدور المستعار منه هو نقل صفة ما أو مجموعة صفات للمستعار له ولهذا اختاره الكاتب، ومن ثم فإن الأساس في السياق هو المستعار له، لأن السياق أو موضوع الرسالة ينصب عليه، وظهور المستعار له وطي المستعار منه هو ذاته الاستعارة المكنية.

● الاستعارة المكنية:

وأول ما ندرسه في الاستعارة المكنية الواردة في نثر عبد الحميد من حيث الإطلاق والتجريد والترشيح الذي توزع حسب الجدول التالي:

النسبة	العدد	الاستعارة من حيث تفرع الكلام الخاص بأحد طرفيها
% ٧٦,٢٥	٢٧٣	مطلقة
% ١٤,٧٥	٥٣	مرشحة
% ٩	٣٢	مجردة
% ١٠٠	٣٥٨	الإجمالي

(922) بناء الأسلوب، ص ٣٧.

● الاستعارة المكنية المطلقة:

إن تميز الاستعارة المكنية المطلقة بعدم إتباعها بصفات أو تفريع كلام متعلق بأحد طرفيها يمثل في ذاته سرعة في المرور على الاستعارة، إذ لا يسع الكاتب الوقت الكافي ليسرد تفريعات كلام خاص بطرفيها، ويعكس ذلك رغبة الكاتب في مرور الاستعارة المكنية على المتلقي بسرعة.

ففي سياق العتاب نجد الاستعارة المكنية المطلقة تتحقق لها سرعة في المرور على المتلقي حتى لا يطيل الكاتب عليه العتاب ويزيل آثاره بسرعة، فيقول عبد الحميد "أما بعد فقد عاقتي الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني باللطف عن غير خبرة ثم أعقبه منك جفاء بغير ذنب، فأطمعني أولك في إخائك، وأياسني آخرك من وفائك" (٩٢٣).

لنتأمل الاستعارات (عاقتي الشك، أعقبه جفاء، فأطمعني أولك، وأياسني آخرك) وقد تميزت بسرعة في المرور ليزيل آثار العتاب بسرعة من ذهن المتلقي. ومن اللافت للنظر أن السرعة جاءت ملائمة لترتيب مراحل الصداقة بين الكاتب والمتلقي لتصبغ هذه المراحل بشيء من السرعة توضح عدم تعمق علاقة الصداقة بينهما، وتظهر مدى حفاظ الكاتب على الصداقة ولو كانت حديثة وغير متعمقة.

وفي سياق الحديث عن طغيان الفرات وتدميره للأماكن التي على جانبيه تصبغ الاستعارة المطلقة السياق بالسرعة ليلانم سرعة مراحل وصول النهر للأماكن وتدميرها فيقول "وأفى كتابك أمير المؤمنين، وموار الفرات يجيش بأرجائه... وعلوه متوال يساور الجبال، ويدك عقتل التلاع، قد أبار أبيات بني سعد... وصبح آل فلاق بذى الرمث، فطخطخ منازلهم، وأسأل عراصهم... ولقد أتى على أموالهم السابحة" (٩٢٤).

لنتأمل النهر وصورته وهو قد جاش بأرجائه، وساور الجبال ودك القلاع الحصينة، وأبار الديار، وصبح الناس ودمر وأسأل منازلهم وأموالهم. نجد أن هذه الاستعارات تمثل مراحل متعددة للنهر كل مرحلة تنبئ عن وصول النهر لمكان معين ليدمره في سرعة نستقيها من سرعة الاستعارات المطلقة في السياق.

وفي سياق الحديث عن زعيم إحدى الجماعات الخارجة على الدولة الذي تفاجأ الجميع بظهور قوته تأتي الاستعارات المطلقة لتعكس مراحل دخوله في القوة أو جمع القوة ليناهض الدولة فيقول "حتى إذا غلظ أمره، واستحفل شأنه، واستجمعت له مكايده، وقويت مناشطه، وتمددت في القبيح أطرافه؛ بهت الكتاب بالقرية عليه... ويحرف ولاية الدين جارحاً له" (٩٢٥).

لنتأمل الاستعارات وتعبّر كل منها عن مرحلة توصله إلى إمكانية مناهضة الدولة (غلظ أمره، استحفل شأنه، استجمعت له مكايده، قويت مناشطه تمددت

(923) عبد الحميد بن يحيى ...، ص ١٩٢.

(924) السابق، ص ١٩٦.

(925) السابق، ص ١٩٩.

أطرافه، بهت الكاتب، يحرف الدين جارحاً له). وبجانب سرعة هذه المراحل نجد سرعة جمعه للقوة في زمن قصير جعله يفاجئ الدولة، وتوجب على الدولة سرعة التخلص منه وقمع خروجه عليها.

ويستخدم الكاتب نفس الأسلوب ليوضح سرعة المصير المحتوم الذي ينتظر الخارجين وزعيمهم بعد الشاهد السابق فيقول "فإن ذنوبهم ستسلمهم إلى مصارع الخزي، وإن كان الله ابتعثهم لتمام البلية وقتل الحرية، وضياع الذرية؛ فستهوى عليهم مشدات البلايا بتتابع المنايا"^(٩٢٦).

وفي سياق الحديث عن الاستعداد لأي مفاجأة من العدو يعكس إطلاق الاستعارة المكنية في سرعتها سرعة المفاجأة مما يتوجب على المتلقي الاستعداد الكامل لكل المفاجآت في قوله "أو مفاجأة من طليعة العدو رأت منكم نهزة، أو لمحت عندكم غرة"^(٩٢٧).

لنتأمل الاستعارات (رأت نهزة، لمحت غرة) فقد جعل الكاتب الغرة والنهزة شيئاً محسوساً يشعر به العدو فيفاجئ المتلقي، وهي دعوة للاستعداد الدائم.

وفي سياق الدعاء يستعمل الكاتب الاستعارة المطلقة التي تتسم بالسرعة لتعكس سرعة استجابة الله - سبحانه - لدعاء الكاتب، يقول عبد الحميد "وقانا الله وإياك فتنة الخلّة وعصمنا وإياك بوفاء أهل الدين"^(٩٢٨).

وقوله "أن يحسن لكم وإليكم، ولا يرى أمير المؤمنين إلا العز لكم، والعفو عنكم"^(٩٢٩).

أو في مقدمة الدعاء في قوله "الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه"^(٩٣٠).

وقد استعمل الكاتب الاستعارة المطلقة للتأثير في المتلقي بسرعة لأنه في حاجة إلى ضمان سرعة استجابته والقيام بالأعمال المطلوبة في أسرع وقت ممكن لأن العمل المطلوب القيام به لا يحتمل التأخير ففي سياق طلب معاقبة بعض الجنود المغالين في الدين من الخليفة نجد إطلاق الاستعارة لضمان سرعة استجابة الخليفة لطلب الكاتب - على لسان مروان - حتى لا ينتشر أمر هؤلاء الجنود ويتضرر الجيش فيقول عبد الحميد موضحاً مغالاتهم "وإنما رأيهم الذي ارتأوه طائفة من رأي النصاري؛ فيتشعب لهم فيه فنون الكلام إلى توهين سلطان الرب، وتضعيف قدرته، ونقضهم من دين الإسلام وثائق عراه"^(٩٣١).

فكثرة فنون الكلام التي تتشعب كالطرق، ونقض الجنود للدين من الأمور التي لا يمكن السكوت عنها أو التأخير في معالجتها حتى لا يزيد عدد المغالين

(926) السابق، ص ١٩٩.

(927) السابق، ص ٢٥٥.

(928) السابق، ص ١٩٣.

(929) السابق، ص ٢٠١.

(930) السابق، ص ٢٧٢.

(931) السابق، ص ٢٠٧.

فيتضرر الجيش وينحصر الإسلام فيه وهو المحرك الرئيس للثبات ضد العدو ومحقق النصر.

وفي سياق الفتنة يوجه الكاتب جماعة الناس إلى سرعة مناهضة الخارجين على الدولة واستئصال شأفتهم، فيتابع الاستعارات المطلقة التي ترسم وتوضح أعمال الخارجين المضرة بالأمة ليدركها المتلقون بسرعة ويضمن الكاتب بسرعة إدراكهم لها سرعة استجابتهم له ومناهضة الخارجين، فيقول "... وفي الخلاف عليهم والمعصية لهم ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة، ومحق كل غنية، وهلاك كل سلامة وألفة وموت كل عزّ وقوة، والدعاء لكل بليّة، ومقارفة كل ضلالة واتباع كل جهالة، وإحياء كل بدعة، وإماتة كل سنة، واجتلاب كل ضرر على الأمة، وإدبار كل منفعة، والعمل بكل جور وباطل، وفناء كل حق" (٩٣٢).

فمعصية الخارجين لولاية الأمر المتمثلين في الخليفة وولاية عهده نتج عنه ذهاب النعم وتفرق الكرامة وغيرها من الاستعارات المطلقة التي تتسم بالسرعة لعدم إتباع الكاتب لكل استعارة بتفريع كلام خاص بأحد طرفيها ليدركها المتلقون بسرعة ويضمن الكاتب سرعة استجابتهم بالدخول في طاعة الخليفة ومناهضة أصحاب المعصية.

وفي السياق ذاته تؤثر سرعة إدراك آثار المعصية والعقوبة التي قد تنزل بمن اتخذها هدفاً له في سرعة نبذها والدخول في الطاعة، يقول عبد الحميد "وجعل المعصية شقاءً وخساراً وتباراً وسبباً لكل نقص وأزل وهوان وحسرة، فمن اعتصم بها، وأقام عليها ودعا إليها كان من إخوانها والغواة فيها مع ما يريهم الله في أمرهم: من إحاض حجتهم، وسوء مصارعهم وقطع مددهم، وتفريق نظامهم، وإزهاق باطلهم" (٩٣٣).

لنتأمل الاستعارات (اعتصم بها، أقام عليها، دعا إليها) وتعكس تمسك الخارجين بالمعصية، ثم الاستعارات (قطع مددهم، تفريق نظامهم، إزهاق باطلهم) وتعكس المصير المحتوم لمن تمسك بالمعصية، وتأتي سرعة إدراك المتلقين للاستعارات كضمان للكاتب في سرعة استجابتهم لنبذ المعصية والدخول في الطاعة.

وفي سياق توجيه النصح للكتاب يستعمل عبد الحميد الأسلوب ذاته ليضمن سرعة استجابة الكتاب للنصيحة، يقول عبد الحميد ناصحاً فئة الكتاب بالاستعانة بالقصد وصيانة الدين "واستعينوا علي عفافكم بالقصد في كل ما عدت عليكم، فنعم العون عونكم على صيانة دينكم" (٩٣٤).

ومحذراً من السرف والترف في قوله "واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب ولاسيما الكتاب" (٩٣٥).

(٩٣٢) السابق، ص ٢٠٩.

(٩٣٣) السابق، ص ٢١٢.

(٩٣٤) السابق، ص ٢٨٦.

(٩٣٥) السابق، ص ٢٨٦.

• إن تميز الاستعارة المطلقة بالبساطة وعدم التعقيد وعدم شغل المتلقي بكلام تال خاص بأحد طرفيها يؤثر في درجة وضوح الدلالة، إذ يزيد تركيز المتلقي في دلالتها وتتضح في ذهنه، وينعكس هذا الوضوح على القيام بالمطلوب منه. ففي سياق توجيه المتلقي إلى الاهتمام بطلائع الجيش يوضح الكاتب أهميتهم في قوله "واعلم أن الطلائع عيون وحصون للمسلمين، وهم أول مكيدتك، وعروة أمرك، وزمام حربك" (٩٣٦).

وفي سياق طلب جارية تأتي الاستعارات المطلقة المتسمة بالبساطة والوضوح لتوضيح صفات الجارية حتى يستطيع المتلقي اختيارها بسهولة في قوله "تقدها الرزانة ويسكتها الحلم، إن نهضت أثقلتها أردافها، وإن تكلمت تآقت إليها قلوب السامعين" (٩٣٧).

• وتؤثر هذه البساطة في بعض مظاهرها في قرب الاستعارة من الحقيقة مما يزيد من اقتناع المتلقي بدهية ما يوجهه إليه الكاتب، أو بمعنى آخر يوهم الكاتب المتلقي بأن المطلوب منه القيام به يعد أمراً بدهياً يجب عليه القيام به دون توجيه.

ففي سياق الرد على طلب أحد الأشخاص يستغل الكاتب بساطة الاستعارة المطلقة في إيهام المتلقي بأن الثقة فيه يجب أن تكون أمراً بدهياً حتى يطمئن إلى عمل الكاتب على تنفيذ ما يطلبه منه، يقول عبد الحميد "ولم نغب عن حياتك، ولم تغفل عنايتنا عنك، ولم نحتج إلى تقديرنا بكتبك، فأرخ حبال الثقة طارحاً لها، ومدّ من أملك فينا" (٩٣٨).

فبساطة الاستعارة (تغفل عنايتنا، مدّ من أملك) صبغت الدلالة بهذه البدهية. وفي توجيه ولي العهد إلى محاربة الخارجين يظهر عبد الحميد عن طريق الاستعارات المطلقة أعمال الخارجين المضرة بالدولة التي كانت من أسباب توجيهه إلى محاربتهم وتأتي البساطة لتصبغ الدلالة ببداهة محاربة ولي العهد لهم حتى دون توجيه من الكاتب أو الخليفة، يقول عبد الحميد "فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوي الهلكة، ورعاعه الذين عاثوا في الأرض فساداً، وانتهكوا رحمة الإسلام استخفافاً، وبدّلوا نعم الله كفرة" (٩٣٩).

لنتأمل الاستعارات (المتسكع في حيرة الجهالة، انتهكوا حرمة الإسلام، بدّلوا نعم الله كفرة) وتميزت بالبساطة التي صبغت السياق ببداهة التوجيه للقتال.

وفي سياق التوجيه أيضاً يعدد الكاتب للمتلقي عن طريق الاستعارات المطلقة بعض الأمور التي يجب عليه مراعاتها كأهواء النفس وبداهة الحذر منها في صورة تقترب من الكمال تجعل الأهواء عدواً يحاربه ولي العهد مستخدماً أدوات

(936) السابق، ص ٢٤٨.

(937) السابق، ص ١٩٧.

(938) السابق، ص ٢٠٨.

(939) السابق، ص ٢١٦.

القتال من العزم والحزم والصدق والمضاعة والنية الصالحة ليحقق النصر على الأهواء.

يقول عبد الحميد في ذلك "واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك، لأنها خدع إبليس وخواتل مكره، ... فاحذرها مجانباً لها، وتوقها محترساً منها، واستعذ بالله - عز وجل - من شرها وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه وحزم نافذ لا مثوية لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاعة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها" وهذه الأدوات مضمونة في تحقيق النصر "فإن ذلك ظهري صدق لك على ردها، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك، وهي واقية لك سخطة ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، ساترة عليك عيب من دونك فازدن به متحلياً" (٩٤٠).

ويتابع الكاتب موسعاً نطاق الحرب بمجاهدة أعداء آخرين من العجب والأخلاق السيئة والغفلة والضياع والوهن "فحاول بلوغ غاياتها محرراً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصناً أعمالك من العجب فإنه رأس الهوى وأول الغواية، ومقاد الهلكة حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب، وذميم تنابزها من حيث أتت الغفلة وانتشر الضياع، ودخل الوهن، فتوق الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستظهر بأماراتها تصديق رأيك عند ذوي النهى" (٩٤١).

ثم يتابع الكاتب الاستعارات المطلقة ذات البساطة التي تقربها من الحقيقة لتتقنع المتلقي ببداهة مواجهة هذه الأمور في قوله "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرّك بالكتمان، وتداري جندك بالإحسان، وتداوي حقدك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردي، وأناك فوقها الملل وفوت العمل، ومضاعتك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم" (٩٤٢).

وفي سياق مشابه يوجه الكاتب ولي العهد إلى اختيار من يتلقى عنهم النصح والمشورة مستخدماً الأسلوب ذاته في تعديد صفاتهم ليقرب بها من الحقيقة التي تعكس بدهية وجود هذه الصفات فيهم، يقول عبد الحميد "مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السن، وخبطتهم التجربة ونجذتهم الحروب، متشزناً في حربك، أخذاً بالحزم في سوء الظن، معداً للحذر، محترساً من الغرة" (٩٤٣).

فلنتأمل الاستعارات المطلقة (حنكتهم السن، خبطتهم التجربة، نجذتهم الحروب) وتقرب من الحقيقة لتصبح الدلالة بالبدئية في وجود تلك الصفات في من يستشيرهم ولي العهد حتى تكون المشورة صادقة والنصيحة مضمونة النتائج.

ومن اللافت للنظر أن الكاتب كان يسترسل في الاستعارات المكنية المطلقة في سياق واحد - كما مر بنا من شواهد - لتكون في ذهن المتلقي صوراً خاطفة

(٩٤٠) السابق، ص ٢١٩.

(٩٤١) السابق، ص ٢٢٠.

(٩٤٢) السابق، ص ٢٢١.

(٩٤٣) السابق، ص ٢٣٩.

تعوده على أعمال ذهنه وتنشيطه ليستوعب دلالاتها بسرعة إذ لا يحتمل السياق التلبث في الزمن، هذا وتعد الاستعارة بهذا الفهم في بعض صورها معادلاً لاسترسال الكاتب في الاستعارات في سياق واحد.

ففي قوله في التعزية "فهي لأهل الصبر عبرة في فناء الدنيا وذكر يبلغون به الكرامة العليا، ولكل ذي هلع أرمضه حادثها وأبهظه ما جرت به القضايا المكروهة عند حلولها فتنة يحق فيها أجره، ويذهب في ضياعها ذخره ويصير خساراً أمره غير رادّ الجزع عليه فانت أمر مما مضى، ولا موجب له ذخيرة فضل تقتني"^(٩٤٤).

لنتأمل الاستعارات (يبلغون الكرامة، جرت به القضايا، يحق أجره، يذهب ذخره، رادّ الجزع، ذخيرة تقتني)، ومثلت كل استعارة صورة خاطفة تعود المتلقي على أعمال ذهنه ليستوعب دلالة كل استعارة في سرعة ملائمة لسياق العزاء، فالكاتب يمرر تلك الصور بسرعة على ذهن المتلقي حتى لا يطيل الحزن عليه. ومن ناحية أخرى كانت السرعة النابعة من إطلاق الاستعارة معادلاً لاسترسال الكاتب في الاستعارات حتى لا يمل منها المتلقي، بل يتجاوز السياق إلى آخر.

وفي توظيف مشابه ينشط الكاتب ذهن المتلقي ليستوعب دلالة الاستعارة بسرعة لتكون مع مثيلاتها صوراً خاطفة تظهر أعمال الخارجين على الدولة، وما يجب على المتلقي عمله تجاه هذه الأعمال، فيقول "فاتهم لولا اجترارهم الناس وتسكينهم إليه، وطمعهم فيه لأظهروا من صنوف الكفر وعظيم الفراء، وسوء الأثرة، وتناول الفواحش ما يتمنى الأحياء أنهم كانوا أمواتاً، فاستعينوا بالصبر مستوجبين له بصحة نياتكم، وتذكروا ما هم به حديثو عهد من عبادة النيران والأوثان، فإن ذكر الله مما يقوي به عزمكم، وتصح به نياتكم وتحرك به ضغائنكم عليهم، وتشدد به بصائرهم فيهم"^(٩٤٥).

لنتأمل الاستعارات (أظهروا من صنوف الكفر، تناول الفواحش فاستعينوا بالصبر، يقوى به عزمكم، تصح به نياتكم، تحرك به ضغائنكم، تشدد به بصائرهم)، ويدرك المتلقي دلالة هذه الاستعارات المطلقة في سرعة ملائمة لها ويضمن بها الكاتب سرعة الاستجابة. وقد كانت السرعة معادلاً لاسترسال الكاتب في الاستعارات المتتابعة.

وفي سياق آخر يوضح الكاتب آثار المعصية على الدولة وأفرادها ويمثل الاسترسال في الاستعارات تنشيطاً لذهن المتلقي ليدرك تلك الآثار، يقول عبد الحميد "فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يهراق بغير حقه، وطفل من أبناء المسلمين قد يتم من أبيه، ومذلة قد دخلت عليه، ونعمة قد زالت عنه، ووحشة

(٩٤٤) السابق، ص ١٩٥.

(٩٤٥) السابق، ص ١٩٩.

حدثت وضغائن في القلوب قد نشبت، وشحناء قد ظهرت وأوتار قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت، وخوف قد ظهر^(٩٤٦).

وكانت السرعة النابعة من إطلاق الاستعارة وعدم شغل المتلقي بتفريعات تالية لها معادلاً لاسترسال الكاتب في الاستعارات حتى لا يمل المتلقي من تتبعها هذا ومن ناحية أخرى فإن عدم شغل المتلقي بكلام تال يستدعي بالطبع تركيزه في الاستعارات الواردة ليدرك مدى فظاعة المعصية وما ينتج عنها من أضرار.

وتأتي الاستعارات المطلقة المتتابعة في سياق يصور فيه الكاتب سيطرة الشيطان على من يلعب الشطرنج دعوة للمتلقي لإعمال ذهنه ليدرك هذه السيطرة ويعمل على الإفلات منها بالإقلاع عن لعب الشطرنج، يقول عبد الحميد "وعلم أن الشيطان.. أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزين لهم ورطة موبقة، وغرهم بمكيدة حيله إرادة لاستهوائهم بالخدع واحتبالهم بالشبه والمرصد الخفية المشكلة، وكل مقيم على معصية الله ... حتى تلحقه المنية، فتختلجه وهو مصرّ عليها غير تائب إلى الله منها ولا مستغفر من ارتكابه إياها، فكم قد أقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب حتى صده مخترم أيامه"^(٩٤٧).

لنتأمل الاستعارات (زين ورطة موبقة، استهوائهم بالخدع، احتبالهم بالشبه، تلحقه المنية، تختلجه، أقام على موبقات الآثام، صده مخترم أيامه) وكلها استعارات مكنية مطلقة ساعدت الكاتب للتأثير في المتلقي لإعمال ذهنه في الآثار المترتبة على اللعب بالشطرنج ليدركها ويفلت منها حتى يفلت من العذاب إذا لحقته المنية.

ويستخدم الكاتب الاستعارات المتتابعة المتميزة بتكوين صور خاطفة تمر بسرعة على ذهن المتلقي أيضاً في رسم صورة كلية يسترسل الكاتب في سرد جزئياتها بسرعة حتى يلم المتلقي بها ككل يتمثله في ذهنه، وهذا التمثل له من التأثير ما يزيد به الكاتب اقتناع المتلقي بالدلالة الكلية للصورة، ومن ناحية أخرى فإن مرور الصور الجزئية كلقطات خاطفة تجتمع لتكون صورة كلية يستطيع الكاتب الامتداد بهذه الصورة وتكون السرعة كمعادل لهذا الامتداد حتى لا يصاب المتلقي بالملل ويظل ذهنه مستعداً دائماً ونشيطاً لتمثل الصور في ذهنه.

ففي صورة كلية لعبد الحميد تظهر سعادته المطلقة بمولود له يقول "فإذا نظرت إلى شخصه تحرك لي وجدي، وظهر به سروري، وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوجد"^(٩٤٨).

لنتأمل اللقطات التي تتمثل في الوجد المتحرك والسرور الظاهر والأنسة التي تتعطف على الكاتب والوحشة التي تتولى عنه، وتمر كلقطات خاطفة لتجتمع في صورة كلية تعكس فرحة عبد الحميد بمولود له.

(٩٤٦) السابق، ص ٢٠٩.

(٩٤٧) السابق، ص ٢٦٧.

(٩٤٨) السابق، ص ٢٠١.

ويرسم عبد الحميد صورتين كليتين تقوم عليهما رسالته – وهو مغترب – إلى أخيه يرسم في الأولى صورة أخيه متنعمًا في ظل الوطن، ويفصل هذا النعيم بصور جزئية متتابعة تمر كلمحات خاطفة مكنى عبد الحميد من الامتداد بالصورة الكلية، يقول فيها "فإن من صغرت رغبته، وقصرت حاجته، أراح بدنه، ولازم أحبابه وصان وجهه وسلم له دينه... حتى اعتلقت خفض الدعة والوداعة وتمددت في فصح ساحات منازل الراحة واستقرعت أبواب السلامة، وتمهدت وثارة الأمن وتوسطت رباع العز، واستخففت بذلك معاشك فصار قليل ما أنت فيه كثيرًا لمساعدة السلامة إياك لا تدخلك مشقة البعد، ولا ذلة السفر، ولا كآبة الغربة، ولا اغتراب الدار، ولا سوء تجهم الأذن، ولا ضجر الطلب، ولا تعب شره النفس... فقد استطلقت عقل الراحة وجلس بك التوكل عن نصب بدنك ... قد أظلك السرور، وحالفك الأمل، وطاب لك المقام، وأمنت ترقيع الرحل، متصيحًا بأحبابك يتعطف عليك روح الرخاء، تحاول قليل ما أنت فيه وكثيره بقصير خطوة إن مشيت، رقة وجهك ناضر لونها وأوصالك مستريحة أطرافها، أفرخ روعك، وأمن سربك، وامتلات ممن تحب عينك" (٩٤٩).

وفي الصورة الثانية يرسم حاله هو في الغربة ويفصل شقائه وضيقه في صور جزئية تجتمع لتكون صورة كلية مكنى من الامتداد بالصورة وكانت سرعة الصور الجزئية بمثابة المعادل لهذا الامتداد، يقول عبد الحميد "إذ الضيعة لمن اغترب، والغربة لمن اشتملت عليه الهموم، وتشعبته الرغبة، ففارق الأحبة واستخلف منهم الغربة، وكادح الأسفار، وأتعب البدن، وأقلق الشخص، ونابذ الدعة، واعتاض النصب" ويقول فيها أيضًا "ثم لعل ذلك القليل أن تستنفده نواب الدهور ويبتلعه قضاء الحقوق بالتقديم قبل التدبير، ثم تستأنفه مفاوز الطلب بتحريك المضطرب فإذا الأسفار قد تجددت بتكاليف المؤونات موجفين إلى نائي المحل في دار الذلة، قد استعجمت علينا أخبار الأحباب وفقدنا الأقارب والأصحاب، فالغوم مشتبكة، والنفوس بأمور شتى معنية" (٩٥٠).

فلنتأمل اللقطات الخاطفة في الصورة الأولى (صغرت رغبته، قصرت حاجته، صان وجهه، سلم دينه، اعتلقت الدعة، استقرعت السلامة، تمهدت الأمن، توسطت العز، استخففت معاشك، مساعدة السلامة إياك لا تدخلك مشقة البعد، أظلك السرور، حالفك الأمل، طاب المقام، يتعطف الرخاء، أفرخ روعك امتلات عينك) وكلها استعارات مكنية مطلقة تجتمع في صورة كلية ممتدة توحى بامتداد الراحة والنعيم في ظل الوطن، وكانت سرعة الاستعارات لتكون معادلاً لهذا الامتداد.

ولنتأمل اللقطات الخاطفة في الصورة الثانية (اشتملت الهموم، تشعبته الرغبة، استخلف الغربة، كادح الأسفار، نابذ الدعة، اعتاض النصب، تستنفده الدهور، يبتلعه قضاء الحقوق، تستأنفه مفاوز الطلب، الأسفار تجددت، موجفين

(٩٤٩) السابق، ص ٢٠٣.

(٩٥٠) السابق، ص ٢٠٤.

إلى نائي المحل، استعجمت الأخبار، فقدنا الأقارب، الغموم مشتبكة وكلها استعارات مكنية مطلقة تجتمع في صورة كلية ممتدة توحى بامتداد الشقاء والضيق في الغربة، وكانت سرعة الاستعارات لتكون معادلاً لهذا الامتداد.

وفي صورة ممتدة للكفر قبل الإسلام يستعمل الكاتب الأسلوب ذاته فيقول "ثم ختم بنبيه - صلى الله عليه - وحيه وبقى به رسله، وابتعثه لإحياء دينه الدارس، مرتضياً له على حين انطمست الأعلام مختفية، وتشتت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهج الفتن، واعتلى قتام الظلم واستشهد الشرك، وأسدف الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكته الحق، واستطرق الجور، واستنكح الصدوف عن الحق واقمطر سلهب الفتنة، واستضرم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغواية فساد، فصعد بالحق مأموراً وبلغ الرسالة معصوماً، ونصح الإسلام وأهله، دالاً لهم على المراشد، وقائداً لهم إلى الهداية، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة، وإعلاق عروة النجاة، موضحاً لهم سبل الغواية ... وأنجز الله له وعده، وأراه صدق أسبابه في إكماله للمسلمين دينه، واستقامة سنته فيهم، وظهور شرائعه عليهم، قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطعات الذنوب ومبهظات الأوزار، وظلم الشبهات، وما يدعو إليه نقصان الأديان، وتستهوهم به الغوايات"^(٩٥١).

فاجتماع الصور الجزئية المظهرة لحال المشركين قبل الإسلام وأعمال الرسول - p - ليغير هذه الحال في صور جزئية أخرى تجتمع في صورة ممتدة ذات لقطات خاطفة سريعة يللمها المتلقي بسرعة ويزداد تأثيرها فيه وفي درجة اقتناعه بها ليكون هذا الاقتناع بمثابة التمهيد لما سيطلبه الكاتب من إلغاء لعب الشطرنج.

إن أركان العمل الإبداعي الذي نتناوله بالدراسة من مرسل ورسالة ومرسل إليه، وتتحقق ميزة لهذا الجنس الأدبي - الرسائل الديوانية - من معرفة المرسل (الكاتب) للمرسل إليه (المتلقي) معرفة جيدة، تجعل من الرسالة كيان يكشف لنا ليس فقط صفات الكاتب و ثقافته، بل صفات المتلقي و ثقافته أيضاً.

فالكاتب يختار من أدواته اللغوية ما يؤثر به في المتلقي وهو يعلم تمام العلم بأن ما يستخدمه من أساليب ستكون قادرة على إحداث هذا التأثير، ومن ثم فإننا نستطيع أن نكون صورة واضحة للمتلقي.

وما نذهب إليه أن بعض الرسائل التي وجهها عبد الحميد إلى الخليفة أو ولي العهد - خاصة دون باقي المتلقين - تكشف عن الخلفية الثقافية لهما من إحاطة بأساليب اللغة العربية وإمكانية تذوقها، وما نحن بصدد من إطلاق الاستعارة يؤكد لنا هذا الفهم، إذ يكون المتلقي قادراً على فهم الاستعارة واستيعابها دون إلحاح الكاتب بذكر تفريعات لها توضحها من ناحية، وتعود المتلقي على إدراك الدلالة بصورة أفضل عن طريق الكلام البليغ دون غيره من ناحية أخرى.

(951) السابق، ص ٢٦٥.

ففي رسالة الصيد الموجهة للخليفة يقول عبد الحميد "حتى قصر بنا اليأس
عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصيب"^(٩٥٢).

فالتأثير في المتلقي هنا بأكثر من أسلوب منها التأثير الموسيقي من السجع
بين الفاصلتين ، و يكشف عن تذوق الخليفة لرنين الكلمات، ومنها صورة اليأس
الذي يقصر بالكاتب عن طلب الصيد، وصورة النصيب الذي يقطع الكاتب عن الطمع
في الصيد، وهي صور لاستعارات مطلقة تكشف عن إدراك الخليفة لها دون كلام
تال لها يرشحا أو يجردها.

وفي توجيه ولي العهد يستخدم الكاتب الأسلوب ذاته ليكشف لنا عن إدراك
ولي العهد للاستعارات المطلقة دون ترشيح أو تجريد، يقول عبد الحميد "احذر
تضييع رأيك، وإهمال أدبك في مسالك الرضى والغضب واعتوارهما إياك، فلا
يزدهينك إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهويك منظره"^(٩٥٣).

(٩٥٢) السابق، ص ٢٧١.

(٩٥٣) السابق، ص ٢٢٨.

● الاستعارة المكنية المرشحة

ونعني بالترشيح كما سبق وأوضحنا – إتباع الاستعارة بكلام تال تابع للمستعار منه.

إن إتباع الاستعارة بكلام تال للمستعار منه يزيد من دخول المستعار له في عالم المستعار منه مما يحقق للصورة المتمثلة في الذهن امتداداً يستوقف المتلقي ويرفع هذا الاستيقاف درجة تأثير الصورة فيه. كتحقيق الامتداد بصورة الغضب في قوله "فإن أنت غفلت أو أملت غفلتي عنها وعنك لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك، يسلب منك جميع ما في يديك بقولها" (٩٥٤).

استعار الكاتب للغضب الإتيان والنزول من الإنسان ثم أتبع الاستعارة بصفة من صفات الإنسان ألا وهي القدرة على السلب، فحقق بذلك امتداداً للغضب يتمثله المتلقي في صورة متحركة تزيد من قدرته على إنزال الضرر بالمتلقي مما يرفع لديه الاقتناع بقدرة الغضب على ذلك من ناحية، وبقاء الصورة في ذهنه مدة من الزمن لتؤثر فيه وترفع درجة الخوف من هذا الغضب من ناحية أخرى.

وقوله أيضاً "فإن لغضب السلطان سورة ثائرة لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه من تعرض له أو دنا منه دمره" (٩٥٥).

استعار الكاتب للغضب الهيب من النار ثم أتبع الاستعارة بصفة من صفات النار وهي الحرق والتدمير والفرق بين صورة الغضب هنا وصورته في الشاهد السابق، أن هذه لها قدرة على التدمير والانتشار السريع والواسع، وحقق هذا الترشيح امتداداً للغضب يتمثله المتلقي في صورة مادية متحركة تزيد من قدرته على التدمير والضرر بمساحات واسعة فما بال المتلقي وحده أمام هذه القدرة. مما يرفع لديه الاقتناع بقدرته من ناحية، وبقاء تلك الصورة المرعبة في ذهنه مدة من الزمن لتؤثر فيه وترفع درجة الخوف من هذا الغضب حتى لكأنه يشعر بحرارة ولهيب تلك النار المحرقة.

إن مناسبة هذا الشاهد من وساطة عبد الحميد للمتلقي عند الخليفة لخطأ ارتكبه تعكس مدى الجهد الذي بذله الكاتب للوساطة لغفران خطأ المتلقي نتيجة لشدة غضب الخليفة من المتلقي، فكلما اشتد الغضب اشتد معه الجهد المبذول لإسكاته، ذلك الجهد الذي يزيد من فضل الكاتب على المتلقي.

● ويمتد الكاتب بصورة الدنيا وملحقاتها في قوله في العزاء "فإن كلوم الدنيا وآفاتا ومصائبها وفجائعها تجري في قضايا جمّة وأقدار محتومة، عزمة إلى منتهى أمر موقوت" (٩٥٦).

استعارة الكاتب لملمات الدنيا الجري من الإنسان ثم أتبع الاستعارة بصفة أخرى من صفاته هي العزم والتصميم مما حقق امتداداً لصورة الدنيا في النص وفي ذهن المتلقي يتمثلها ويتأمل فيها لينتهي إلى العبرة والعظة منها، ويعكس

(954) السابق، ص ١٩٤.

(955) السابق، ص ٢٠٨.

(956) السابق، ص ١٩٥.

العزم والتصميم من الدنيا، وما يجب أن يكون عليه المتلقي ليواجهها بعزم وتصميم مضاد لفناء الدنيا يؤهله إلى تجاوز فجائعها. وهو ملائم لسياق العزاء.

وقد يكون الحاصل من الامتداد بالصورة تنفير المتلقي من المستعار له فيرسم له صورة بشعة تستوقف المتلقي وتؤثر في درجة تقبله لها، ولينتزع الكاتب رفض المتلقي للمستعار له نجده يستعير له من أكثر من مستعار منه كصورة الفتنة في قوله "فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بأنق منظر وأزين ملبس، تجرر لهم أذيالها وتعددهم تتابع لذاتها، حتى ترمي بهم في حومات أمواجه مسلمة لهم، تعددهم الكذب، وتمنيهم الخدع؛ فإذا لزمهم عضاضها، ونفر بهم شماسها؛ تخلت عنهم خاذلة وتبرأت منهم معرضة عنهم، قد سلبوا أجمل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحسن معاقل دنياهم من الغنى البهي منظره، الجميل أثره، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم" (٩٥٧).

استعار الكاتب للفتنة الظهور على الناس من السيدة اللعوب، ورشح الاستعارة بصفة من صفات اللعوب وهي الزينة والوعد بالتلذذ، ثم استعار لها من الناقة العضاض، ومن البحر الأمواج والغرق في حوماتها.

وحقق الترشيح في الاستعارات السابقة امتداداً بصورة الفتنة علاوة على الامتداد الناتج من وقوعها في أكثر من مركب استعاري، وكان هذا الامتداد سبباً في تلبث المتلقي مدة من الزمن ليكشف خداع الفتنة للناس من جانب، ومن جانب آخر إن تعدد صور الفتنة بين اللعوب والناقة والبحر وليس بينهم جامع سوى التقلب على ما نظن والظهور بغير الوجه الحقيقي، فالمرأة اللعوب لا تظهر على حقيقتها، والناقة العضوض كذلك، وتوهمان الإنسان بالطيبة حتى يقترب منهما كاستغلال اللعوب له، والعضاض بالنسبة للناقة، أما البحر فمنظره من الأرض مريح للنفس ولكن الرمي فيه قد يسلب من الإنسان حياته. وكان هذا التعدد في صورة الفتنة سبباً في تمثيل الفتنة في كائن غريب بشع لا يظهر على حقيقته فيؤثر في درجة تقبل المتلقي لها بالرفض والابتعاد والجوء إلى طاعة ولادة الأمر وهذا ما أراده الكاتب من صورة الفتنة.

وقد ارتبط الترشيح في نثر عبد الحميد بالسياقات التي يظهر فيها وجدان الكاتب وانفعالاته، فالامتداد في الصورة النابع عن تكثيف عناصر المستعار منه في السياق يستوقف المتلقي ليتأمل في الصورة ويكشف دلالتها ويشارك الكاتب في انفعاله من ناحية، وتظهر رؤية الكاتب للحياة من حوله من ناحية أخرى.

وفي صورة جميلة للإخاء يتابع الكاتب الاستعارات ويعدد من صفات المستعار منه ليحقق أكبر امتداد بصورته في قوله لصديق له "فإن أولى ما اعتزم عليه ذوو الإخاء ... واستولوا عليه من مزية كرمه، وتعرفوا من ذخيرة عائدته، ومأمون حفاظه، وكشف لهم من نفسه مظهرًا أعلامه، مبدياً دفينته، طارحاً قناع سره، معلناً مكنون ضميره" (٩٥٨).

(٩٥٧) السابق، ص ٢١٣.

(٩٥٨) السابق، ص ٢٧٧.

استعار الكاتب للإخاء من الإنسان الحاوي لكنز ثمين إمكانية الاستيلاء عليه، ورشح هذا الاستيلاء بعدد من الصفات الخاصة بالإنسان ذاته أو الكنز الثمين الذي يحميه، كالكرم والكشف وطرح الأفتعة وإبداء الدفين وأمانة الحفاظ على الكنز والإعلان عما في ضميره. وحقق بالترشيح امتدادًا ملفئًا للنظر نتج عن تكثيف عناصر المستعار منه في السياق الذي يستوقف المتلقي ليتأمل صورة الإخاء، ويشارك الكاتب رؤيته تجاهه فهو كنز آمن سهل الحصول عليه وفي ذات الوقت لا يستخرجه سوى الأصدقاء.

وكما فعل الكاتب في صورة الفتنة فإنه وضع الإخاء في أكثر من مركب استعاري في سياق واحد، فكما مر استعار له من الإنسان والكنز نجده يستعير له أيضًا من الطريق والإنسان في قوله "وقد حددت لك، أي أخي، الإخاء متشعبًا، ووصفته لك مخلصًا، وانتهيت بك إلى غاية أهل العقل منه، وما تواصل أهل الرأي عليه، ودعا إليه الإخاء من نفسه منتطفاً به" (٩٥٩).

استعار الكاتب للإخاء في هذا الشاهد من الطريق التشعب وأتبع ذلك بصفة من صفات الطريق وهو وصفه ووضع خريطة له، واستعار له من الإنسان إرسال الدعوة للمتأخين وأتبع ذلك بصفة من صفات الإنسان وهي الانتطاق. وهذا التعدد في تمثيل صور الإخاء في الذهن يعكس تعدد فوائده ومنافعه للأصدقاء.

ويمكننا أن نحدد رؤية الكاتب للإخاء، فبالجمع بين صورته المتمثلة في الإنسان الكريم والطريق المتشعبة التي يمكن وصفها ووضع خريطة لها، والكنز الثمين الذي يسهل استخراجه نستطيع أن ندرك أن الكاتب يضع لصديقه رحلة تتمثل في الإنسان الذي يرغب في صداقة غيره يقوم بها ومعه خريطة الطريق حتى يصل إلى الكنز الثمين ويستخرجه، وخريطة الطريق هنا هي شروط الصداقة وأخلاقيتها التي تمكن الصديق من مواصلة صداقته مع غيره.

ويرسم صورة للعالم يظهر من خلالها ضيقه وحزنه الشديد من تقلبها به خلال هروبه من العباسيين يقول فيها "وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درّها أفويق استحليناها، ثم شمس منا نافرة وأعرضت عنا متكرة، ورمحتنا جامحة" (٩٦٠).

استعار الكاتب للعالم من الناقة التذوق بلبنها وأتبع ذلك بصفات للناقة (درّها)، ثم استعار لها الرمح والإعراض والشموس، وأتبع كل استعارة بصفات الناقة أيضًا (نافرة، متكرة، جامحة)، وهو تكثيف لعناصر المستعار منه (الناقة) تحقق للصورة امتدادًا يستوقف المتلقي ليتأمل الصورة ويتأثر بها ليشارك الكاتب في انفعالاته من تقلب الدنيا به.

(٩٥٩) السابق، ص ٢٧٧.

(٩٦٠) السابق، ص ٢٧٩.

ونجد الصورة ذاتها في قوله أيضاً "ومن قرصته بأظفارها وعضته بأنيابها، وتوطأته بثقلها؛ قلاها نافرًا عنها وذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزیداً منها"^(٩٦١).

وقد جعل الكاتب الدنيا في هذا الشاهد ليست فقط ناقة تعض بالأنياب وتدوس عليه بثقلها، ولكن بوحش يقرص ورشح صورته بإثبات الأظفار له، وهذا التعدد في المستعار منه من شأنه تشويه الصورة في ذهن المتلقي فلا يستطيع تمثيل كائن بعينه يهاجم الإنسان في غربته وهذا التشويه يعكس قنامة الحياة وتشووها في رؤية عبد الحميد، وتصبغ هذه الرؤية بالطبع رؤية المتلقي. ومن اللافت للنظر أن المستعار منه (الناقة) هو وسيلة الكاتب لموقفين متضادين كتضاد أحوالها وأفعالها به فمن ناحية هي وسيلة الهروب من العباسيين، ومن ناحية أخرى هي وسيلة الرجوع للوطن والأحباب مما يجعلنا نشعر بسيطرة المتناقضات عليه في نهاية حياته بين الذكريات الماضية من وضعه كوزير في الدولة، وبين حاضره من الهروب وما يستتبعه من حزن نفسي وشقاء بدني وذل وانكسار، وبين مستقبله المجهول كصورة الكائن التي تشوهت في النص.

• إن إتباع الاستعارة المكنية بكلام تال أوصفات خاصة بالمستعار منه تبعد الاستعارة عن الحقيقة تماماً وتحلق بها في خيال المتلقي ليتمثل المستعار له وقد انتقل كلية إلى عالم آخر يكتسب فيه خصائص وصفات جديدة ويأتي الترشيح في بعض مظاهره أيضاً ليكتف من وجود المستعار منه في السياق لتأكيد هذا الانتقال وتأكيد اكتساب المستعار له لتلك الخصائص والصفات.

ففي رسالة يهدد بها زعيم أحد الجماعات الخارجة على الدولة يرسم عبد الحميد صورة لجنود الدولة يقول فيها "يخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاك محتك، في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأما أشرب وجهه نقيع الحناء، قد رئم الحرب ورضعها، وغذته وألفها فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها ويأنس بقربها"^(٩٦٢).

لنتأمل صورة الجنود المتأرجحة بين الأسود في الزئير وبين الفهود في وثوبها، وبين الفرس في صلابته، وولد الناقة في ألفته لأمه، واستتبع صورة الجنود صورة جانبية للحرب فاستعار لها من الناقة النواجذ وأتبعها بصفاتها من أكل وشرب ورضاع، وتأتي صورة الحرب لتقوية صورة الجنود. وفي الصورتين تكثيف للمستعار منه يؤكد بدوره انتقال الجنود كلية إلى عالم الحيوانات المفترسة في شراستها والحيوانات الحربية في قوتها وصلابتها ويؤكد أيضاً اكتساب الجنود لهذه الصفات والخصائص مما يخدم سياق تهديد العدو.

ويؤكد التكثيف في الصورة الثانية دخول الحرب عالم الناقة باعتبار الجنود أولاد لها يألفونها ويحبونها ويتغذون منها كتأكيد للصورة الأولى التي تخلع على

(٩٦١) السابق، ص ٢٧٩.

(٩٦٢) السابق، ص ٢١٤.

الجنود شراسة وقوة لا يستطيع المتلقي مجابتهها من ناحية واعتبار الحرب غذاء لهم لا يستطيعون العيش بدونه من ناحية أخرى.

وفي صورة تقترب من السابقة ولا تختلف عنها إلا في انصباب الصورة على الحرب ذاتها يرسم عبد الحميد صورة لجنود الدولة بطريق غير مباشر في قوله "قد صلوا الحرب، وتذاوقوا سجالها، وشربوا من مرارة كؤوسها وتجرعوا غصص درتها، وزينتهم بتكرارها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذللتهم بثقاف أودها"^(٩٦٣).

استعار الكاتب للحرب من النار الاصطلاء، ومن الطعام التذوق ومن الشراب المرارة ومن الناقة اللبن، ومن البحر المراكب، ومن الطريق تشعبه وأتبع الاستعارات بما يخص المستعار منه (كؤوسها، درتها، مراكبها، أودها). وتنعكس هذه الصورة الممتدة بالطبع على الجنود فهم يتعاملون مع الحرب بكل صورها وتلواناتها، وتتأكد قوتهم وخبرتهم الحربية بتأكيد دخول الحرب نفسها في عوالم مختلفة تكتسب من كل عالم خصائصه وصفاته.

● الاستعارة المكنية المجردة

وهي أقل الاستعارات وروداً في نثر عبد الحميد إذ لا تتعدى عشر الاستعارات المكنية، وهي كما أوضحنا من أقوال البلاغيين ما تبعت بكلام تال للمستعار له.

إن ارتباط المستعار له بالسياق وقد يكون السياق منصّباً عليه في الأساس ووضعه في علاقة مع مستعار منه تكسبه خصائص وصفات جديدة، يجعلنا نقول إن تكثيف عناصر المستعار له الناتجة عن إتباع الاستعارة بكلام تال أو صفات للمستعار له يعتبر من الغايات التي يرومها الكاتب في بقاء المستعار له في ذهن المتلقي مدة أطول تتوضح من خلالها الدلالة.

فعن الأسباب التي يوضحها الكاتب لولي العهد تلك الأسباب التي جعلته يعتقه من أجلها تعنيفاً هادئاً، يقول عبد الحميد "وكان قد احتاج إليك المسلمون، وأنت قد ضعفت عن أمر نفسك أن تستصلح منها تقويم امرأتك ومداراتها"^(٩٦٤).

استعار الكاتب لزوج ولي العهد من العود التقويم ثم أتبع هذه الاستعارة بالمدارة الخاصة بالمرأة ليبيدي له الأسباب التي جعلته يذكره بحاجة المسلمين إليه ليقودهم ويستصلح أمورهم، وتلك الأسباب تتمحور في عدم تمكنه من تقويم ومدارة زوجه وهي فرد واحد وهو تعميق للمفارقة بين ما يجب أن يكون عليه وبين ما هو عليه بالفعل.

وإذا نظرنا في المدارة التي كانت سبباً في تجريد الاستعارة نجدها قد ساهمت في توضيح دلالة الاستعارة، فالمطلوب من ولي العهد ليس التقويم فقط الذي قد يصاحبه العنف ولكن بالمدارة التي تتطلب ذكاءً وحيلة دون العنف فهي موازنة في استصلاح زوجه بين الشدة واللين.

(٩٦٣) السابق، ص ٢٤٦.

(٩٦٤) السابق، ص ١٩٣.

وعن توضيح حال المقيمين مع الخارجين على الدولة في مكان واحد دون مناهضتهم يقول عبد الحميد "فقد تقطعت عنكم درّات الغنى وخفض لين المعاش"^(٩٦٥).

استعار الكاتب للغنى في انقطاعه عن المقيمين مع الخارجين على الدولة من الناقة اللبن في انقطاعه عن يحلبها ثم أتبع الاستعارة بـ (خفض لين المعاش) وتلائم المستعار له (الغنى المنقطع) وبهذا التجريد يحتلّ الفقر أكثر من عنصر دال عليه في السياق ليوضح للمتلقين انقطاع الرزق المعتاد ليحيوا حياة عادية وليس فقط انقطاع الغنى. فبقاء الاستعارة دون تجريد تدل على كون المتلقين غير أغنياء، وجاء التجريد ليوضح أنهم لن يكونوا أغنياء فحسب بل صعوبة كسب العيش أيضاً. وفي هذا التوضيح وبقاء الفقر مدة أطول في أذهان المتلقين وسيلة لإقناع الملّقين بمناهضة الخارجين على الدولة لأنهم سيتأثرون أيضاً بخروج هؤلاء والفقر خير ممثل لذلك التأثير.

وعن تشديد عمل الجواسيس لكشف أسرار العدو يلجأ الكاتب إلى التجريد ليوضح لولي العهد الغاية من التشديد، يقول عبد الحميد "ثم أذك عيونك على عدوك متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدّوا أعناقهم نحوها"^(٩٦٦).

استعار الكاتب للجواسيس من النار الإذكاء أي إحماها ثم أتبع الاستعارة بما يلائم عمل الجواسيس من العلم بأحوال العدو ومنازلهم ومطامعهم، وجاء التجريد توضيحاً لكيفية تشديد العيون على العدو من العلم والإحاطة بكل المعلومات عنه. وعن بعض النصائح الموجهة لولي العهد يقول عبد الحميد "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرك بالكتمان، وتدارى جندك بالإحسان"^(٩٦٧).

استعار الكاتب للسر من المكان صونه والحفاظ عليه وأتبع الاستعارة بالكتمان وهو من خصائص السر. وقد أوضح الكاتب بالكتمان كيفية الصون والحفاظ على السر من أن يكشفه أحد وهو بكتمانه عن الناس.

وبجانب توضيح دلالة الاستعارة المكنية قد يوظف الكاتب التجريد لخدمة السياق الكلي للرسالة توظيفاً يضيف حضوراً دائماً لأحد العناصر الأساسية فيها، ففي رسالة الصيد يقول عبد الحميد "وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً؛ فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنايك"^(٩٦٨).

استعار الكاتب للقتام السكون من الإنسان أو صوته ثم أتبع الاستعارة بـ مثار السنايك التي تلائم القتام أو الغبار، إن الكاتب وجماعة الصائدين أحد العناصر الأساسية في عملية الصيد، وعند تمثيل صورة القتام لا نجد حضوراً للكاتب أو تلك الجماعة، ولكن بالتأمل في (مثار السنايك) لا نجد لفظة عن الكاتب وتلك الجماعة

(965) السابق، ص ٢٠٠.

(966) السابق، ص ٢٣٩.

(967) السابق، ص ٢٢١.

(968) السابق، ص ٢٦٩.

فحسب، بل وتحركاتهم فوق الأرض المبتلة بماء المطر أيضاً ليعطي لهم حضوراً دائماً في السياق يجعلهم في حضور دائم في ذهن المتلقي خاصة كون المتلقي هو الخليفة.

ومن زاوية أخرى نجد أن الكاتب قد جعل من هذا التجريد مبيئاً وعاكساً لدور فاعل له ولجماعة الصائدين في مواجهة الطبيعة. فقد كانوا جزءاً من القوى التي قامت بطرد الغبار الذي كان سبباً في حجب الرؤية عنهم وكأنه عدو لهم، وسيلة الطرد هي سنابك خيولهم التي تحركت على الأرض بحركتهم بعد هطول المطر الذي يمثل العامل الرئيس في سكون الغبار أو اختفائه، فالكاتب وتلك الجماعة في تجانس مع قوى الطبيعة يتحدثون مع المطر الذي طرح الغبار إلى الأرض ويأتي دورهم في ذلك هذا الغبار وتسويته بالأرض وكأنهم يأخذون بالثأر منه عندما حجب عنهم الرؤية.

وقد يكون التجريد سبباً في تكثيف حضور المستعار له في السياق يوظفه الكاتب أيضاً في خدمة السياق الكلي للرسالة – كما مر بنا – ولكن التكثيف هنا لإظهار تأثير العنصر الأساسي، فعن طغيان الفرات يقول عبد الحميد "ولقد أتى على أموالهم السابحة، وخيامهم الزاهرة وعقدتهم النفسية"^(٩٦٩).

استعار الكاتب للمال السباحة من عالم الإنسان ثم جرد الاستعارة بذكر أنواع من المال تمثلت في الخيام والعقد النفسية. مما كثف من حضور المال في السياق، وهذا التكثيف يكشف للمتلقي مدى الخراب والدمار الذي حلّ بساكني ضفتي الفرات وهو ما كتبت الرسالة من أجله فتكثيف المال المهدر يعكس شدة طغيان النهر وهو العنصر الرئيس في الرسالة المتضمنة لهذه الاستعارة.

● الاستعارة المكنية بين التشخيص والتجسيد والإحياء:

وندرس فيها الاستعارة من حيث انتماء المستعار منه الذي يعد الإتيان به إكساباً للمستعار له صفاته وخصائصه، وينتمي المستعار منه إلى واحد من ثلاثة عوالم، إما لعالم الإنسان أو عالم الحيوان أو منتزع من المفردات المادية وعالم الطبيعة.

وتنقسم الاستعارة المكنية تبعاً لانتماء المستعار منه على ترتيب العوالم السابقة إلى تشخيصية وإحيائية وتجسيدية، وقد توزعت في نثر عبد الحميد حسب الجدول التالي:

النسبة	العدد	المكنية من حيث انتماء المستعار منه
٤٩ %	١٧٥	تشخيصية
٤١ %	١٤٨	تجسيدية
١٠ %	٣٥	إحيائية
١٠٠ %	٣٥٨	الإجمالي

(٩٦٩) السابق، ص ١٩٦.

ومن الجدول السابق نلاحظ ورود الاستعارة التشخيصية بما يقارب النصف، وتعدّ هذه النسبة الكبيرة للتشخيص في نثر عبد الحميد تقريباً لصورة الاستعارة في ذهن المتلقي إذ أن المتلقي إنسان وأقرب ما يرد إلى ذهنه هو صورته هو أو صورة بني جنسه عموماً ممن يحب أو يكره. إن اتساع عالم الإنسان لمعرفة المتلقي به جيداً أكثر من أي عالم آخر لانتمائه إليه، يغري الكاتب في اتخاذه طرفاً في تركيب استعاري، فالمتلقي يستطيع أن يكشف بسهولة صفات الإنسان وما يميزه عن غيره أكثر من أي كائن آخر لا يستطيع التواصل معه بصورة أفضل من نعمة الكلام التي تجعله يسأل عما لا يعرفه ويتلقى الجواب مما لا يتحقق للإنسان مع عالم آخر. أما المفردات المادية فهي محيطة بالإنسان في البيئة المعيشة يعلمها ويحتك بها ويستكنه صفاتها وخصائصها، ولهذا جاء التجسيد في المرتبة الثانية في الورود في نثر عبد الحميد.

أما عالم الحيوان فلا يعلم الإنسان عنه إلا القليل من الصفات فضلاً عن الجهل بأنواع كثيرة منه ولهذا كان الأقل وروداً في نثر عبد الحميد.

● الاستعارة المكنية التشخيصية:

وتأتي تأكيداً للبعد الإنساني للمستعار له وتخلع عليه القدرة على الحركة و المواجهة والبطش والسيطرة مما يتوفر في عالم البشر.

وتظهر القدرة على المواجهة في قول الكاتب ناصحاً ولي العهد بأهمية مداراة زوجه "فإن في لطفها من محاذي البر... ما يرجع بك الرشد إليه، غالباً لك على الغواية المردية، والشين في الدنيا"^(٩٧٠).

تشخيص الكاتب للرشد منحه قدرة على مواجهة الغواية والشين ومنحه الترشيح (غالباً) قدرة على الانتصار والغلوب، وهذه القدرة على المواجهة من شأنها إقناع ولي العهد بضرورة التحلي بالرشد في أموره عموماً وفي تعامله مع زوجه خصوصاً.

وخلال الحديث عن فوائد الخير وكظم الغيظ يهبهما التشخيص قدرة على المواجهة التي تقنع ولي العهد باعتمادهما لفاعليتهما في قوله "استكثر من فوائد الخير فإنها تنشر المحمدة، وتقل العثرة، واصطبر على كظم الغيظ فإنه يورث الراحة ويؤمن الساحة... فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة، ويقدمك في الفضل"^(٩٧١).

فوائد الخير لها القدرة على مواجهة العثرات وإقالتها، بل ونشر المحامد أيضاً، وأما كظم الغيظ فله القدرة على الحراسة والتأمين.

ومن مظاهر القدرة التي يخلعها الكاتب على المستعار له بالتشخيص القدرة على السلب والبطش، وتلائم هذه القدرة سياق التهديد، الذي يغدو فيه تشخيص المستعار له كنوع من التأثير على المتلقي بالسيطرة على حواسه ودخول الخوف في قلبه.

(970) السابق، ص ١٩٣.

(971) السابق، ص ٢٣٣.

فمن تهديد الخليفة لولي العهد فيما شكته زوجه يقول عبد الحميد "فإن أنت غفلت أو أملت غفلتي عنها وعنك لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك يسلب منك جميع ما في يدك بقولها" (٩٧٢).

تشخيصُ الغضب الذي يأتي وينزل ويسلب وهبه قدرة على البطش والسلب وإلحاق الأذى بولي العهد، وعندما يدخل الخوف في قلبه لا يسعه إلا تجنب إغضاب الخليفة المتمثل في تجنب إغضاب زوجه.

وقد تتجلى في التشخيص قدرة على السيطرة والتحكم يخلعها على المستعار له كما في قوله عن شراء جارية محدداً مواصفاتها "ثقتها الرزانة ويسكتها الحلم، إن نهضت؛ أثقلتها أردافها، وإن تكلمت؛ تافت إليها قلوب السامعين" (٩٧٣).

استعار الكاتب للرزانة والحلم من عالم الإنسان قدرته على الإقعاد والإسكات، أو بمعنى آخر قدرته على التحكم والسيطرة على الجارية، ومن شأن هذا التشخيص للرزانة والحلم أن يتحرى المتلقي الدقة في صفات هذه الجارية المطلوب شراؤها ويعمل على أن تكون الصفات المحددة متصلة فيها.

وفي سياق النصائح يخلع الكاتب على المستعار له عن طريق تشخيصه قدرة وفاعلية تستدعي الاحتراس والحذر، أو مواجهته بقدرة وفاعلية مماثلة.

كالاحتراس من الآفات الأخلاقية والغفلة والضياع والوهن في قوله لولي العهد "... حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ الألقاب وذميمة تنابزها من حيث أتت الغفلة وانتشر الضياع ودخل الوهن فتوق الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستظهر بأماراتها تصديق رأيك عند ذوي النهي" (٩٧٤).

والاحتراس من هوى النفس ومواجهته في قوله "... ولا يغلبن عليك هواك؛ فيصرفك عن الرأي ويقطعك دون الفكر" (٩٧٥).

والحذر من الترف والسرف في قوله لفئة الكتاب "واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ولا سيما الكتاب" (٩٧٦).

إن معرفة المتلقي بعالم البشر جيداً يؤدي إلى تقريب صورة المستعار له من ذهن خاصة كون المستعار له مجرداً لا يستطيع المتلقي إدراكه بسهولة أو تمثيل صورته وهذا التقريب يكسب الصورة وضوحاً يقرب دلالة الأسلوب الاستعاري المشخص للمستعار له من ذهن المتلقي.

ففي سياق الحديث عن المعصية يأتي تشخيص بعض المجردات لتوضيح الدلالة في قوله "... وفي الخلاف عليهم والمعصية لهم ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة ومحق كل غنية، وهلاك كل سلامة وألفة، وموت كل عز وقوة، والدعاء لكل

(972) السابق، ص ١٩٤.

(973) السابق، ص ١٩٧.

(974) السابق، ص ٢٢٠.

(975) السابق، ص ٢٢٢.

(976) السابق، ص ٢٨٦.

بليّة، ومقارفة كل ضلالة واثّباع كل جهالة، وإحياء كل بدعة، وإماتة كل سنة واجتلاب كل ضرر على الأمة وإدبار كل منفعة، والعمل بكل جور وباطل، وفناء كل حق" (٩٧٧).

شخص الكاتب النعمة والكرامة والغنية وسلامة وعز وبليّة وضلالة وجهالة وبدعة وسنة ومنفعة وحق، وكلها من المجردات التي يحتاج الكاتب وضوحها حتى تظهر دلائلها جلية في ذهن المتلقي، وهذا الوضوح يؤثر في درجة استيعاب المتلقي للدلالة ويؤهله إلى تغيير موقفه من الفتنة والمعصية أو الخروج المسلح على الدولة ومن ثم مواجهة الخارجين.

ويضع الكاتب الفتنة في أسلوب استعاري يشخصها فيه لتوضيح صورتها وتقريب دلالتها من ذهن المتلقي في قوله "فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بأنق منظر وأزين ملبس، تجرر لهم أنيالها، وتعدّهم تتابع لذاتها ... تعدّهم الكذب وتمنيهم الخدع" (٩٧٨).

تشخيص الفتنة بامرأة لعوب يقرب صورتها من ذهن المتلقي ويوضح دلالة الصورة لديه حتى يبتعد عن الفتنة ويدخل في طاعة الخليفة. وفي سياق النص يقول عبد الحميد "وتعلم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه ستورك، وأغلقت عليه أبوابك؛ فذلك لا محالة مكشوف للعامة ظاهر عنك" (٩٧٩).

استعار الكاتب للسر من الإنسان الخلوة وهو تشخيص للسر يتمثله المتلقي كإنسان يختلي به، وقد منح التشخيص الصورة قرباً من ذهن المتلقي يزيد من وضوح الدلالة من إشاعة السر مهما حاول كتمانها عن العامة، ويتطلب ذلك حنكة من المتلقي بالظهور أمام العامة بأكثر من وجه حتى لا يعلم أحد ما يبطن من أسرار أو شعور حقيقي.

إن اتساع عالم البشر وخصائصه يمكّن الكاتب من الاسترسال في الاستعارات فيخلع على المستعار له الكثير من صفات الإنسان وكأنه إنسان بالفعل، ويأتي الاسترسال كالحاح على كون المستعار له إنساناً بالفعل، أو بمعنى آخر يؤكد الاسترسال دخوله كلية عالم البشر.

وعندما يقتنع المتلقي بكون المستعار له هو المستعار منه يستتبع ذلك اقتناعه بقدرة المستعار له على القيام بأعمال البشر و أفعالهم.

ففي سياق نصح ولي العهد يقول عبد الحميد "فإن طاعتك إياه فيهم ومراقبتك له، ورجاءك نصره؛ مسهل لك وعوره، وعاصمك من كل كبوة، ودارئ عنك كل شبهة، ومذهب عنك لطفة كل شك ومقويك بكل أيد ومكيدة، ومعزك في كل

(٩٧٧) السابق، ص ٢٠٩.

(٩٧٨) السابق، ص ٢١٣.

(٩٧٩) السابق، ص ٢٢٢.

معترك قتال، ومؤيدك في كل مجمع لقاء، وكالك عند كل فتنة مغشية، وحافظك من كل شبهة مردية" (٩٨٠).

اتساع عالم البشر مكن الكاتب من الاسترسال في الاستعارات لطاعة الله فاستعار لها من الإنسان تسهيل الوعور والعصمة والإنقاذ والنعاش والمساعدة وإذهاب الشك والتقوية والإعزاز والتأييد والكلاءة والحفظ. وينقل هذا الاسترسال في خلق صفات الإنسان الطاعة من عالم المجردات إلى عالم الإنسان كلية، وهذا النقل الكلي يظهر كثرة فوائد طاعة الله ومراقبته في كل الأعمال من ناحية، ومن ناحية أخرى يقتع المتلقي بقدرة الطاعة على القيام بالأعمال السابقة في الشاهد من المساعدة والمحافظة على المتلقي من الأضرار المختلفة. وكلما ازداد اقتناع المتلقي بقدرة الطاعة ازداد تمسكه بها وهو ما أراده الكاتب من تشخيصها والاسترسال في استعارة خصائص بشرية لها.

ويقول أيضاً في سياق الدعاء لولي العهد "وأمر المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خلق، وأن يبلغه فيك أحسن عالم يزل يعود، ويريه من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف، ومتبجحة بك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر معالي الأدب، مورثة لك أنفس ذخائر العز" (٩٨١).

استرسل الكاتب في الاستعارات التي شخص فيها المكروه والآفات ونعمة الله. والشاهد هنا الاسترسال في استعارة خصائص البشر لنعمة الله من السمو والتبجح والظهور والإرث، وتلك الاستعارة حولت تلك المجردات إلى إنسان بالفعل يقتع المتلقي بقدرتها على القيام بتلك الأعمال.

ويسترسل الكاتب في تشخيص الإخاء مظهرًا كثرة فوائده من ناحية، وقدرته على الصدق مع الصديق من ناحية أخرى في قوله "واستولوا عليه من مزية كرمه، وتعرفوا من ذخيرة عائدته، ومأمون حفاظه، وكشف لهم عن نفسه مظهرًا أعلامه، مبدئًا دفينته، طارحًا قناع سره، معلًا مكنون ضميره" (٩٨٢).

ومن اللافت للنظر أن الاستعارة المشخصة للمستعار له جاءت مصاحبة لوجدان الكاتب لتأكيد هذا الوجدان، فعن مولود له يظهر الكاتب فرحته به في قوله "فإذا نظرت إلى شخصه؛ تحرك لي وجدى، وظهر به سروري، وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوجد" (٩٨٣).

جعل الكاتب الوجد إنسانًا يتحرك، والسرور يظهر للعيان، والأنسة تتعطف عليه، والوحدة تتولى عنه، وهو ما أكد فرحة الكاتب و سروره بالمولود.

وجاءت أيضًا لتأكيد شعور الكاتب بالضيق من الغربة واليأس من الحصول على شيء ذي قيمة في قوله "ثم لعل ذلك القليل أن تستنفذه نواب الدهور،

(980) السابق، ص ٢٣٦.

(981) السابق، ص ٢١٧.

(982) السابق، ص ٢٧٧.

(983) السابق، ص ٢٠١.

ويبتلعه قضاء الحقوق بالتقديم قبل التدبير، ثم تستأنفه مفاوز الطلب بتحريك المضطرب"^(٩٨٤).

فالنائب تستنفذ كل ما اكتسبه الكاتب في غربته ولو كان قليلاً، والحقوق تبتلع كل شيء مكتسب، وهو تأكيد لشعور الكاتب بالضيق من الغربة، ويعكس هذا التأكيد رغبته في الرجوع إلى الوطن.

● الاستعارة المكنية التجسيدية:

وفيما سبق أوضحنا أن التجسيد هو انتماء المستعار منه لعالم الطبيعة والماديات وقد بلغت نسبته ما يزيد عن الثلث، وقد استغل الكاتب انتماء المستعار منه للماديات وعالم الطبيعة ومعرفة المتلقي لهذا العالم جيداً؛ في رسم صورة حسية معروفة للمستعار له خاصة عندما ينتمي للمجردات، وهذه الصورة تقربه من ذهن المتلقي. فلنتأمل قول الكاتب في طائفة من الجنود المغالين في الدين "وإنما رأيهم الذي ارتأوه طائفة من رأي النصارى فيتشعب لهم فيه فنون الكلام إلى توهين سلطان الرب"^(٩٨٥).

جسد الكاتب فنون الكلام في كثرتها وتعقيدها وتداخلها في صورة طرق متشعبة، ومن المعلوم أن الإنسان قد يتوه في هذه الطرق وهو ما أراد الكاتب خلعه على ما يستعمله المغالون من الجنود - وأسماهم القدريّة - من فنون الكلام التي تتداخل وتتعدد ليتوه المتلقي معها فيتشتت ذهنه عن حقائق الدين الثابتة. فمن الصعب استيعاب ذهن المتلقي لفنون الكلام المعقدة وتخيلها إلا في صورة حسية تقربها من ذهن المتلقي.

ويقرب الكاتب أعمال الخارجين على الدولة من أذهان المتلقين بتجسيد المستعار له؛ حتى يستوعب المتلقون تلك الأعمال و من ثم تكشف لهم الخارجين على حقيقتهم في قوله "حتى إذا غلظ أمره، واستحفل شأئه، واستجمعت له مكايده وقويت مناشطه... يحرف ولاية الدين جارحاً له...، فالباقون من الأشرار والسفلة ممن لا يخرج معهم تغلي صدورهم حنقاً على ما يليهم...؛ فستهوي عليهم مشددات البلايا بتتابع المنايا"^(٩٨٦).

وقوله "فإن أمير المؤمنين - عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوي الهلكة، ورعاعه الذين عاثوا في الأرض فساداً، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً، وبدّلوا نعم الله كفرًا"^(٩٨٧).

جسد الكاتب في الشاهدين الأمر والشأن وولاية الدين والبلايا وحيرة الجهالة وحرمة الإسلام ونعم الله وكلها مجردات؛ في صور مادية ينتمي كل مستعار

(984) السابق، ص ٢٠٤.

(985) السابق، ص ٢٠٧.

(986) السابق، ص ١٩٩.

(987) السابق، ص ٢١٥.

منه إلى عالم الماديات والطبيعة ليقرب هذه المجردات إلى ذهن المتلقي حتى يفهم دلالة كل صورة ويكشف بنفسه عن أعمال الخارجين على الدولة وأضرارهم عليها ويتخذ منهم موقفاً مضاداً.

وفي سياق النصح يجسد الكاتب لولي العهد خيانة الجواسيس له في صورة بضاعة يتفق التجار على بيعها له في قوله "واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك... وإصفاقهم على خيانتك" (٩٨٨).

إن استحضار عالم السوق والتجارة وما يحدث فيها من غش أو عرض البضاعة لمن يشتري بأعلى الأثمان؛ يوضح لولي العهد ما يخفى عنه من عالم الجواسيس في انتمائهم وخدمتهم وإمدادهم المعلومات لمن يدفع مقابلها أكثر من غيره كالبضاعة تماماً، فلذلك لزم التحذير من معرفة الجواسيس بعضهم البعض حتى لا يتفق الكل في إمداده بمعلومات خاطئة.

وقد يكون المستعار له متعدد الأطراف والأنواع فيأتي التجسيد لتقريبه من ذهن المتلقي، كما في قوله مجسداً الفواحش "فإنهم لولا اجترارهم الناس... لأظهروا من صنوف الكفر وعظيم الفراء وسوء الأثرة وتناول الفواحش" (٩٨٩).

وقد استخدم الكاتب عناصر الطبيعة للتعبير عن وجدانه، فمعرفة الإنسان للأشياء من حوله تمكنه من ربط شعوره بهذه الأشياء خاصة ارتباط هذا الشعور بلون معين.

فلنتأمل قول الكاتب مستوحياً من الماديات والطبيعة ألوانها للتعبير عن شعوره وفلسفته تجاه ما يحيط به "... قد استعجمت علينا أخبار الأحباب، وفقدنا الأقارب والأصحاب، فالغوم مشتبكة، والنفوس بأمور شتى معنية، وأنت مقيم بدار أمك، قد أظلك السرور، وحالفك الأمل، وطاب لك المقام" (٩٩٠).

عبر الكاتب عن شعوره تجاه غربته هو وشعوره تجاه أخيه في الوطن عن طريق الألوان المنعكسة عن المستعار منه المنتمي للطبيعة، كلون السحاب الأبيض من (أظلك السرور)، وألوان الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان الممتزجة بين الأخضر والبنّي من (اشتباك الغوم) فوحدة اللون لحال السعادة والأمان في ظل الوطن يقابل الألوان الممتزجة التي تعكس اختلاط مشاعر الكاتب في الغربة، فنقاء اللون أو وحدته المقابل للون المختلط يعكس تقابل حال عبد الحميد والمتلقي كل في مكانه.

وهذا الاختلاط في الألوان قد أغرى الكاتب في خلعه على صورة الحرب ليعكس اختلاط الأمور فيها، فيقول عبد الحميد "... والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها وقد همع، وإلى عارضها وقد لمع، وإلى الوعيد قد أوري ناراً" (٩٩١).

(988) السابق، ص ٢٤٢.

(989) السابق، ص ١٩٩.

(990) السابق، ص ٢٠٣.

(991) السابق، ص ٢٩٣.

فلنشاهد اللون الأبيض المنعكس عن المطر والسحاب من (همع، لمع) واللون الأحمر المنعكس عن النار (أورى ناراً). ليعبر الكاتب عن رؤيته الخاصة تجاه الحرب في اختلاط كل شيء فيها حتى المتحاربين باللون المختلط الذي يكشف شعور عبد الحميد تجاهها.

وقد يجسد الكاتب المستعار له في صورة مستعار منه من عالم الطبيعة والمفردات المادية و ربما يعكس هذا التجسيد لوئاً يؤثر به على المتلقي من خلال شعور المتلقي تجاه هذا اللون، كلون النار الأحمر الذي يذكره بالدم والقتل، وهو مناسب لسياق التهديد الذي يجهل فيه المتلقي مصيره عندما يغضب الخليفة، كما في قوله "... فإن لغضب السلطان سورة نائرة لها متلهب شرر يحرق وميضه وسناه من تعرض له أو دنا منه دمره" (٩٩٢).

فلم يؤثر الكاتب في المتلقي بخلع صفات النار الحارقة ذات الحرارة العالية على الغضب فحسب، بل بلونها أيضاً الذي يذكره بلون الدم فيدخل الخوف في قلبه من الموت لأنه أغضب الخليفة.

وفي استمالة المتلقين ليقفوا بجانب الدولة ضد الخارجين عن طريق توضيح آثار وأضرار معصية الخليفة؛ يجسد الكاتب الضغائن النابعة عن المعصية في صورة نار ناشبة تذكر المتلقي بما يكره من النار من حرارة حارقة ولون أحمر يذكره بالدم والقتل، يقول عبد الحميد "فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يهراق بغير حقه... وضغائن في القلوب قد نشبت" (٩٩٣).

وعن شدة الاستعداد المتمثلة في تشديد الحراسة يأخذ الكاتب من النار المذكاة لونها الموتر للمتلقي في قوله "وتقدم إليه في ضبط معسكرك، وإذكاء أحراسه في أناء ليله ونهاره" (٩٩٤).

وقد يهدف الكاتب من تجسيد المستعار له إمداده بالقوة التي هي من خصائص بعض الماديات ليصبغه بقوة مماثلة، كقوة الحصول على الأخلاق الحميدة من انتزاع الأشياء في قوله "بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين وسبقك إلى رغائب أخلاقه، وانتزاعك محمود شيمه، واستيلائك على مشابه تدبيره" (٩٩٥).

وما يجب على المتلقي من أعمال القوة مع الطامعين من قوة القطع في قوله "واحجبها عن رؤيتك قاطعاً أطماع أوليائك عن مثلها عندك" (٩٩٦).

وقوة التمسك بتقوى الله من قوة الكهف ومنعته للمتلقي في قوله "فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركنك الذي ترتجى منال الظفر به، وتكتف به لمعاليك الحذر؛ تقوى الله عز وجل" (٩٩٧).

(992) السابق، ص ٢٠٨.

(993) السابق، ص ٢٠٩.

(994) السابق، ص ٢٤٣.

(995) السابق، ص ٢١٦.

(996) السابق، ص ٢٣١.

(997) السابق، ص ٢٣٥.

وقوة التمسك بطاعة الله من قوة الحصن ومنعته للمتلقي في قوله "حصن جندك، واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه، وارج نصره" (٩٩٨).
 وقوة الهجوم على الجنود من قوة كسر الأشياء في قوله "ويسرع إقداماً إليك، ويكسر من أفئدة جنودك ويوهن من قوتهم" (٩٩٩).
 وقوله "قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم وكسر من أماني ضلالتهم" (١٠٠٠).

• إن اتساع عالم المفردات المادية والطبيعة يمكّن الكاتب من الاسترسال في الاستعارات التي تخلع على المستعار له الكثير من خصائص الماديات التي يعلمها المتلقي جيداً ويتعامل معها باستمرار، وبهذا الاسترسال في سياق واحد يجسّد الكاتب المستعار له في أكثر من صورة في ذهن المتلقي بوضعه في أكثر من تركيب استعاري مع اختلاف المستعار منه من ناحية، واتحاد المستعارات منها في الانتماء للمفردات المادية، مما يضيف على المستعار له تنوعاً وكثرة في فوائده ومنافعه – كمثال للمتلقي يجعله متمسكاً به- أو أضراره- لينفر منه- وقد لاءم هذا الأسلوب الاستعاري المجسد للمستعار له سياق النص خاصة النصح الأخلاقي.

فعن إقناع الكاتب للمتلقي بالتمسك والتحلي بالحكمة يقول "اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمّها سالكاً، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها وأمن سرحها، وشرف عزّها، وأنها لا تعار بسخف الخفة ولا تتشأ بتفريط الغفلة، ولا يتعدى فيها بامرئ حدّه، وربما أظهرت بسطة الغي مستور العيب، وقد تلقّتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في إدراكها، ولا متناول لمنال ذروتها، بل تأثّلت منها أكرم معانيها، واستخلصت منها أعتق جواهرها، ثم شمّرت إلى لباب مصاصها، وأحرزت منفس ذخائرّها" (١٠٠١).

فلنتأمل الحكمة وقد استرسل الكاتب في وضعها في تراكيب استعارية ينتمي كل مستعار منه إلى عالم الماديات كالطريق في مسالكها وركوب أخطارها، والأشياء الثمينة التي يصعب الحصول عليها، وباطن الجبل الذي نستخلص منه الجواهر، والطعام الذي يقنيه المتلقي في معدته. وبهذا الاسترسال يجسّد الكاتب الحكمة في أكثر من صورة مادية يضيف عليها تنوعاً وكثرة في الفوائد والمنافع تقتع ولي العهد بالتمسك والتحلي بها.

وعن إظهار أفضال الرسول على الأمة يجسّد الكاتب الدين في أكثر من صورة تضيف كثرة على أفضال الرسول علينا في قوله "وقام بالحق وعدل عمود

(998) السابق، ص ٢٣٦.

(999) السابق، ص ٢٤٣.

(1000) السابق، ص ٢٥٩.

(1001) السابق، ص ٢١٧.

الدين حتى اعتدل ميله وأذل الشرك وأهله، وأنجز الله له وعده، وأراد صدق أسبابه في إكماله للمسلمين دينه واستقامة سنته فيهم وظهور شرائعه عليهم" (١٠٠٢).

• وقد يسترسل الكاتب في الاستعارات، ولكن مع اختلاف المستعارات لها مع اتحادها في كونها منتمية لعالم المجردات من ناحية، واختلاف المستعارات منها مع اتحادها في كونها منتمية لعالم المفردات المادية والبيئة من ناحية أخرى، وهذا التجسيد من شأنه تقريب المجردات إلى ذهن المتلقي من ناحية، ويمثل الاسترسال إلحاحًا على المتلقي في تقبل النص من ناحية أخرى. كما في قوله "ومن ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرّك بالكتمان، وتداري جندك بالإحسان، وتداوي حقدك بالإنصاف، وتذل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردي، وأنتك فوقها الملل وفوت العمل، ومضاءتك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم" (١٠٠٣).

• الاستعارة المكنية الإحيائية:

وهي أقل الاستعارات ورودًا في نثر عبد الحميد من حيث انتماء المستعار منه، إذ لا تتعدى العشر، وهذه القلة إنما تنم عن لجوء الكاتب للإحياء في سياقات بعينها يوظفه فيها توظيفًا ملائمًا لهذه السياقات.

إن اختلاف الحيوان في عالمه بين القوي والضعيف، أو بين الشرس والمستأنس، أو السريع والبطيء، أو الحر والمقيد؛ يجعل من الحيوان رمزًا ذا وجهين متقابلين يستقي الكاتب منهما ما يخدم السياق، فيخلع على المستعار له الصفات والخصائص التي تؤثر في المتلقي، وفي درجة استيعابه للدلالة، أو في درجة اقتناعه للقيام بالمطلوب منه.

فيستعير من الحيوان شراسته ليخلعها على المستعار له في قوله "... قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسر من أماني ضاللتهم، و رد من مستعلي جماحهم" (١٠٠٤).

استعار الكاتب للخارجين في علوهم وقوتهم الشرسة من الناقة جماعها الذي يظهر شراستها، وهذه الشراسة المخلوعة على الخارجين إنما تدعو المتلقي إلى التعامل معها بشراسة مماثلة إما للترويض أو للقضاء عليها، وهما خطان يظهران في رسالة الجند التي يوجه فيها ولي العهد إلى قمع هذا الخروج المسلح على الدولة إما باستمالة الخارجين أو القضاء عليهم.

ويستعير من الحيوان خاصية الاستئناس كمقابل للشراسة كما في قوله واصفًا جنود الدولة "... قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأما

(1002) السابق، ص ٢٦٦.

(1003) السابق، ص ٢٢١.

(1004) السابق، ص ٢٥٩.

أشرب وجهه نقيع الحناء، قد رُم الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها، ويأنس بقربها" (١٠٠٥).

خلع الكاتب على جنود الدولة صفات الحيوان من (شرب على ناجذ الحرب، ذو شقشقة وكلكل)، ثم شرع في استعارة صفات الحيوان المستأنس للحرب فجعلها ترضع الجنود و تغذيهم، هؤلاء الجنود الذين غدوا كأبناء لها يألفونها ويسكنون إليها ويأنسون بقربها.

ومن شأن هذه الصورة التي تظهر الحرب بناقة مستأنسة لفئة بعينها فقط هم جنود الدولة؛ أن تؤثر في المتلقي وتزرع في قلبه الخوف من هؤلاء الجنود خاصة كون المتلقي من الخارجين على الدولة وسيقت هذه الرسالة إليه للنيل من عزمته وقوته، أو لتشتيت ذهنه حتى يسهل القضاء على خروجه المسلح على الدولة.

إن استعارة الكاتب خصائص الحيوان المستأنس للحرب من الاستعارات الغريبة إذا تأملناها للوهلة الأولى، ولكن هذه الصورة جاءت مكملّة لصورة جنود الدولة إذ ينصب السياق عليهم مظهرًا قوتهم المعجزة، وجاءت صورة الحرب بهذا الشكل لتكون جزءًا من قوة الجنود لتخدم السياق الكلي للرسالة من زرع الخوف في قلب المتلقي الخارج على الدولة مما سيواجهه من جنود.

وهناك ثنائية أخرى يتقابل طرفاها، ويستغلها الكاتب في خلع صفات الحيوان على المستعار له، وهي ثنائية الشقاء والراحة فيعبر عن شقائه البدني خلال غربته بكثرة السفر والتنقل مستعيرًا من الناقة توقلها في المسالك الوعرة في قوله "فالأبدان خاشعة لطول الدأب تتوقل في وعور المسالك وتتدرّع هول تلك المخاوف حتى تخيم بنا الأسفار على حلول كل دار بكربة الغربة" (١٠٠٦).

ويعبر عن راحة أخيه في ظل الوطن بالاستقرار والرضا بالقليل مستعيرًا من الناقة راحتها وحريتها باستطلاق عقالها في قوله "... فقد استطلقت عقال الراحة، وجلس بك التوكل عن نصب بدنك" (١٠٠٧).

وقد يخلع على المستعار له بإحيائه صفة السرعة، كما في قوله معبرًا عن سرعة الفتنة في الانتشار بين الناس بالسلب المقمطر "واستنكح الصدوف عن الحق واقمطر سلب الفتنة، واستضرم لقاحها" (١٠٠٨).

وقد يرتبط الحيوان بوجدان الكاتب ارتباطًا مباشرًا فيستغل قيام عالم الحيوان على المتقابلات - كما مر بنا - ليكشف لنا عن رؤيته تجاه الدنيا التي وضعها في صورة ناقة استرسل في استعارة صفاتها وخصائصها المتقابلة ليخلع على الدنيا القيام على المتناقضات، وأثر ذلك على الكاتب خاصة خلال هروبه، يقول عبد الحميد "فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقسامًا

(1005) السابق، ص ٢١٤.

(1006) السابق، ص ٢٠٤.

(1007) السابق، ص ٢٠٤.

(1008) السابق، ص ٢٦٥.

مختلفة بين أهلها، فمن درّت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها؛ سكن إليها ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأثيابها، وتوطأته بثقلها؛ قلاها نافرًا عنها، وذمّها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيرًا منها.

وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درّها أفاويق استحليناها، ثم شمسنا منا نافرة، وأعرضت عنا متكررة، ورمحتنا جامحة⁽¹⁰⁰⁹⁾.

استعار الكاتب للدنيا من عالم الناقة اللبن المستساغ الذي عبّر به عن حال التعيم والسعادة، ثم استعار لها من عالم الناقة أيضًا القرص والعض والتوطؤ والشموس والإعراض والرمح و، عبّر بكل ذلك عن حال الشقاء والتعاسة، وقد أظهر الكاتب بهذا الإحياء للدنيا مرحلتين من عمره تنتهي الأولى بالهروب، وتبدأ الثانية بالهروب، فالهروب إذاً هو الفاصل بين المرحلتين ووسيلته هي الناقة التي أحيا بها الدنيا وخلع عليها صفات الناقة المتقابلة وفي هذا ارتباط وجداني بين الكاتب والناقة فقد لازمته في المرحلتين فرأى فيها نعيم الوزارة في ظل الأمويين قبل الهروب، ورأى فيها الشقاء والحزن من الاغتراب بعد الهروب من العباسيين.

وقد يزاوج الكاتب بين التجسيد والإحياء ليخلع على المستعار له أكبر قدر من خصائص المفردات المادية والحيوان ليجعل المستعار له غير محدد الهوية، ويضفي عليه تلونًا يكسبه بعض الغموض الذي يضعه في أعلى مراتب الاهتمام في ذهن المتلقي من ناحية، مع الانشغال لتحديد هويته من ناحية أخرى.

وجمع الكاتب بين التجسيد والإحياء في صورة الحرب فخلع عليها التجسيد صفات النار من الاصطلاء، والطعام من التذوق، والشراب من المرارة، والطريق من تذليل شعابه، أما الإحياء فخلع عليها صفات الناقة التي تدر اللبن الغص في قوله "قد صلوا الحرب، وتذاوقوا سجالها وشربوا من مرارة كؤوسها، وتجرعوا غصص درّتها، وزبنتهم بتكرارها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذللّتهم بثقاف أودها"⁽¹⁰¹⁰⁾.

فخلع صفات المفردات المادية والحيوان معًا على الحرب يجعلها في أعلى مراتب الاهتمام عند المتلقي بحيث تحكم اختياره للجنود في حربه مع الخارجين، وتكون الأفضلية لذوي الخبرة الحربية.

وقد يجمع الكاتب بين التشخيص والتجسيد والإحياء في سياق واحد لمستعار له واحد ليخلع عليه أكبر قدر من الخصائص التي تضعه في دائرة الخطر على المتلقين، ويعكس ذلك ما يجب أن يكون عليه المتلقون من استعداد وتصميم لمواجهة بشتى الوسائل.

فعن الفتنة يقول عبد الحميد "فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بآلق منظر وأزين ملبس، تجرر لهم أذيالها، وتعدّهم تتابع لذاتها، حتى ترمي بهم في حومات أمواجها مسلمة لهم، تعدّهم الكذب، وتمنيهم الخدع، فإذا لزمهم عضاضها، ونقر بهم شماسها؛ تخلت عنهم خاذلة، وتبرأت منهم معرضة عنهم، قد سلبوا

(1009) السابق، ص ٢٧٨.

(1010) السابق، ص ٢٤٦.

أجمل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم من الغنى البهي منظره،
الجميل أثره حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم"^(١٠١١).
فالفتنة امرأة تتزين وتخدع الناس وتكذب عليهم، وبحر له أمواج تغرقهم،
وناقة تعض وتتفر وتعرض. وهذا التنوع في تحديد هوية الفتنة يمثل خطراً على
الدولة يجب مواجهته بشتى الوسائل، بالأشخاص كمحاربين، والحيوان كوسيلة
حربية تحمل المحاربين، والماديات كسلاح وأدوات قتالية.

(1011) السابق، ص ٢١٣.

● الاستعارة التصريحية:

وقد بلغت نسبتها ما يقارب ثمن الاستعارة في نثر عبد الحميد، ونرى في هذه القلة أن الاستعارة المكنية تقوم بغالبية احتياجات الكاتب لتوصيل الرسالة إلى المتلقي وتأتي الاستعارة التصريحية لتقوم بدور لا يستطيع الكاتب استعمال المكنية فيه، بل تكون التصريحية أنسب له لتوصيل رسالته إلى المتلقي من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تنوع الأساليب البيانية المستعملة تمكن عبد الحميد من حمل الدلالة بأكثر من أسلوب بياني لتوصيله إلى المتلقي.

ولما كانت الاستعارة المكنية تعتمد في الأساس على ظهور المستعار له في السياق فقد يكون منصبا عليه في الأساس أو وجد السياق من أجله كما مر بنا - وجدنا استعمال الكاتب لها بنسبة أكبر من الاستعارة التصريحية التي يغيب فيها المستعار له.

إن إثبات المستعار منه في السياق يحقق له حضوراً مباشراً في ذهن المتلقي دون وسيط يدل عليه، ويخلع هذا الحضور بهذه الكيفية على المستعار له المطوي؛ عموماً في اكتساب صفات المستعار منه وخصائصه، أو بمعنى آخر إن حضور المستعار منه حضوراً مباشراً في النص دون صفة له يؤكد انتقال المستعار له إلى عالم المستعار منه كلية، وقد لاحظنا أن الاستعارة التصريحية في نثر عبد الحميد قد وردت مصاحبة للدلالات التي يحتاج الكاتب تأكيدها لينحى بالمتلقي إلى موقف معين أو يغير موقفه تجاه شيء ما، كتأكيد العمل على ألا يعرف الجواسيس بعضهم البعض في قوله "واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً، فإتك لا تأمن تواطؤهم عليك" (١٠١٢).

فقد صاغ الكاتب الاستعارة التصريحية -التي شبه فيها الجواسيس المطوي ذكرهم في الاستعارة بالعيون لأن العين أهم عضو في الجاسوس- في قالب التحذير الذي يمثل تأكيداً على المتلقي في القيام بالمطلوب كأمر من الأمور الضرورية في حربه مع الخارجين، ويأتي أسلوب التأكيد بعدها (فإتك) المفسر لأسباب التحذير كالحاح في إقناع المتلقي بضرورة العمل على ألا يعرف الجواسيس بعضهم البعض. أو تأكيد ضرر الجوّاري خاصة عندما ينجبن أطفالاً ترجع أصولهم إلى أصول الجوّاري السيئة والبعيدة عن الأصول العربية؛ ليقنع المتلقي بقيمة زوجه المعلوم أصلها جيداً في قوله "فإن أدين ما استودعن؛ نزع بهن سوء مشابه الخؤولة وفسولة الأصول" (١٠١٣).

شبه الكاتب الأطفال بوديعة في (استودعن) وقد صاغ الكاتب هذه الاستعارة في قالب الشرط الذي يجب وقوع جوابه لتحقيق الشرط، فعند وضع الأطفال تنزع فيهم الصفات السيئة لسوء الأصول. وهو تأكيد لسوء الجوّاري وأضرارهن ذلك السوء الذي يمتد من الماضي لسوء أصولهن إلى المستقبل الذي يظهر على

(1012) السابق، ص ٢٤٢.

(1013) السابق، ص ١٩٣.

أطفالهن- في مقابل زوجه ذات الأصل العريق المعروف الذي يمتد في المقابل إلى المستقبل.

وقد ألحّ الكاتب على سوء الجوّاري بجانب الشرط بالعطف (فسولة الأصول) الذي يكتف من تلك الصفات السيئة للجوّاري تلك الصفات التي تمتد إلى أطفالهن.

• وأول ما ندرسه في الاستعارة التصريحية، الاستعارة بحسب ما يليها من صفات أو تفريعات كلام خاصة بأحد طرفيها، وقد توزعت حسب الجدول التالي:

الاستعارة التصريحية بحسب التالي لها	العدد	النسبة
المجردة	٢٢	٣٩,٣ %
المطلقة	٢١	٣٧,٥ %
المرشحة	١٣	٢٣,٢ %
الإجمالي	٥٦	١٠٠ %

ومن الجدول السابق نلاحظ كثرة الاستعارات المجردة أي التي يليها صفات أو تفريعات كلام تابعة للمستعار له المطوي ذكره، وإن دل هذا على شيء فيدل على رغبة الكاتب في وضوح الدلالة، فالوضوح من أهم خصائص الرسائل الديوانية - كما مر بنا - ويأتي هذا الوضوح فيما نحن بصدد عن طريق ذكر صفات توضح المحذوف من الأسلوب الاستعاري ويقوم التجريد بذلك.

ويقارب التجريد في الأسلوب الاستعاري المصرح فيه بالمستعار منه الإطلاق في نسبة وروده في نثر عبد الحميد وقد جاء الإطلاق مصاحباً للسياقات التي أراد الكاتب فيها تنشيط ذهن المتلقي ليصل إلى الدلالة بنفسه.

وأقلّ الاستعارات التصريحية وروداً الاستعارة المرشحة وقد جاءت لتقوية الجانب التخيلي في ذهن المتلقي، و أيضاً لتحقيق للصورة المتخيلة امتداداً يستوقف المتلقي ليتأمل الصورة مما يرفع درجة تأثير الصورة فيه من ناحية، ويكتف من عناصر المستعار منه كتأكيد على دخول المستعار له كلية عالم المستعار منه.

• الاستعارة التصريحية المجردة:

إن إرادة الكاتب في وضوح الدلالة حتى يستوعبها المتلقي بصورة أفضل دفعته إلى استعمال التجريد بصورة أكبر من ناحية، وجاء استعماله في الاستعارة التصريحية كتعويض عن غياب المستعار له من ناحية أخرى.

فلنتأمل قول الكاتب في توجيه ولي العهد إلى إحكام السيطرة على الجنود الفارين "... موعزاً إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم من مكانهم" (١٠١٤).

شبه الكاتب إخراج الجند بالإزعاج، وقد أتبع هذه الاستعارة بـ (إخراجهم) ليحقق للإخراج حضوراً في السياق يعوّض به غيابه في الاستعارة حتى تتضح في ذهن المتلقي دلالة الاستعارة بنزع الأمان من الجنود الفارين كأبسط شيء يفعله إن لم يتمكن من إرجاعهم إلى المعسكر، وقد يكون هذا الإزعاج ونزع الأمان سبباً في رجوعهم من تلقاء أنفسهم ناشدين أمان المعسكر.

(1014) السابق، ص ٢٥٤.

وقوله في توجيه ولي العهد إلى السير بهدوء خلال التنقل بالجنود من مكان إلى آخر "حتى إذا استقلتم من معسكركم وتوجهتم من منزلكم؛ سرتم على تعبئكم بسكون ريح وهدوء حملة، وحسن دعة" (١٠١٥).

شبه الكاتب الهدوء في السير بسكون الريح، وأتبع الاستعارة بـ(هدوء حملة، حسن دعة)، ليحقق للهدوء حضوراً في السياق يعوّض به غيابه عن الاستعارة التي صرّح فيها بالمستعار منه، ومثل هذا التعويض وضوحاً للدلالة يستوعبها المتلقي ويشرع في تنفيذ خطة السير بالجنود، تلك الخطة التي أوضحها له الكاتب.

يأتي التجريد ليعادل الحضور بين المستعار له والمستعار منه، فالمستعار منه حاضر بنفسه على سطح النص، أما المستعار له فحاضر في السياق بقرينة، أو عن طريق التجريد ليبقى الطرفان في ذهن المتلقي، فعن الإعداد الجيد لتوفير سبل الأمان يقول عبد الحميد "وأخذت بالجد فيه، وتقدمت في الإعداد له، ورتقت مخوف الفتق منه، وإن تكن العافية استحقت حمد الله عليها" (١٠١٦).

شبه الكاتب الأمان من الخوف برتق الفتق، وأتبع الاستعارة بما يناسب الأمان (العافية) ليضفي على الأمان حضوراً موازياً لمخوف الفتق في ذهن المتلقي.

وقد يأتي التجريد مؤكداً لدلالة الاستعارة كما في قوله "وتقدم إلى من توجهه في طلبهم، وتتبعه أكساءهم وهم في سكون الريح، وقلة الرفث" (١٠١٧).
فقلة الرفث تعكس الهدوء في السير وتؤكد دلالة الاستعارة من السير في سكون الريح.

وفي تأكيد البيعة للخليفة يستعير الكاتب للموافقة على البيعة بسط اليد ثم يتبعها بجددتها ووكدتها بوثائق العهود في قوله "وقد بسطت يدي لبيعك فجددتها ووكدتها بوثائق العهود وترداد الموائيق" (١٠١٨).

● الاستعارة التصريحية المطلقة:

إن عدم اتباع الاستعارة بصفات أو تفريعات كلام متعلقة بأحد طرفيها يجعل الاستعارة تمر بسرعة على ذهن المتلقي، ويأتي طي المستعار له- لبداهة معرفة المتلقي به أو وجوده في السياق مع التصريح بالمستعار منه- لتتضح دلالته في ذهن المتلقي.

فعن كثرة أعداد الخارجين على الدولة في وقت وجيز يقول عبد الحميد "فإنكم لما بدأتموهم بالتفريط ثروا ونموا، وضعيف أمركم أقوى من عزّة جماعتهم، لأن يد الله على الحق" (١٠١٩).

(1015) السابق، ص ٢٥٥.

(1016) السابق، ص ٢٥٧.

(1017) السابق، ص ٢٦٠.

(1018) السابق، ص ٢٩٨.

(1019) السابق، ص ١٩٩.

استعار الكاتب لزيادة أعداد الخارجين في وقت قصير من النبات سرعته في النمو، ولم يتبع الاستعارة بما يخص طرفيها لتمرّ على ذهن المتلقي في سرعة مماثلة لكثرة أعداد الخارجين في وقت قصير.

وقد يوظف الكاتب هذه السرعة ليضمن التأثير في المتلقي في سرعة مماثلة ويضمن بذلك سرعة الاستجابة للمطلوب منه والقيام به. فعن منع الناس عن لعب الشطرنج يقول عبد الحميد "وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها ... وافطمهم عما لهجوا به من ذلك" (١٠٢٠).

استعار الكاتب لمنع الناس عن لعب الشطرنج فطام الوليد أو منعه من الرضاع، ولم يتبع هذه الاستعارة بما يخص طرفيها لتمرّ بسرعة على ذهن المتلقي لتوحي له بضرورة الإسراع في تنفيذ المطلوب منه من سرعة منع مظاهر اللعب بالشطرنج.

وقد يستغل الكاتب مرور الاستعارة المطلقة بسرعة على ذهن المتلقي ليسرع في التأثير في المتلقي خاصة في سياق التهديد الذي يقول فيه الكاتب مهدداً المتلقي بجنود الدولة المعجزين لقوته "ذو شقشقة وكلكل، كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء" (١٠٢١).

استعار الكاتب لدماء الأعداء التي تظهر على وجوه جنود الدولة في لونها الحناء ليضمن بسرعة مرور الاستعارة على ذهن المتلقي التأثير السريع فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى توحى السرعة للمتلقي بضيق الوقت ليقابل هؤلاء الجنود المعجزين له؛ لينال من عزيمته على القتال، أو سرعة الدخول في طاعة الخليفة حتى لا يواجه هذا المصير الذي سيغدو به لوئاً على وجه أحد جنود الدولة يتزّين به كالحناء.

إن تميّز الاستعارة المطلقة بالبساطة وعدم التعقيد مع إثبات المستعار منه على سطح النص؛ يؤثر في درجة وضوح دلالة الاستعارة، إذ يزيد تركيز المتلقي في دلالتها حتى تتضح في ذهنه وينعكس هذا الوضوح على القيام بالمطلوب منه دون التباس الأمر عليه.

فعن توجيه الكاتب للمتلقي بترك الخليفة حتى ينتهي غضبه ثم يقدم إليه الأعذار عن خطأ ارتكبه يقول "ولم يكن لك حيلة هي أقوى من تركه إلى أوان سكون غضبه ثم محاولة عذرك عنده" (١٠٢٢).

استعار الكاتب للغضب في انتهائه السكون ولم يتبع الاستعارة بما يخص الانتهاء أو السكون لتمرّ الاستعارة في بساطة دون تعقيد وتقترب من الحقيقة لتتضح دلالتها في ذهن المتلقي الذي تملكه الخوف من غضب الخليفة، ويؤهله هذا الوضوح إلى تنفيذ إرشادات الكاتب بالانتظار حتى الوقت الملائم لتقديم الأعذار، ذلك الوقت الذي حدده الكاتب بانتهاء الغضب.

(1020) السابق، ص ٢٦٧.

(1021) السابق، ص ٢١٤.

(1022) السابق، ص ٢٠٨.

هذا وقد تؤثر البساطة في بعض مظاهرها في قرب الاستعارة من الحقيقة كالشاهد السابق مما يزيد اقتناع المتلقي بدهية ما يوجهه إليه الكاتب أو بدهية الوصول إلى النتيجة إذا اتبع توجيهات الكاتب، كبداية طاعة قواد الجيش لولي العهد إذا أحسن معاملتهم في قوله "واستوليت على محصول ضميره في طاعتك، وأجهد نفسه في تزيينك" (١٠٢٣).

استعار الكاتب لدقة الحراسة والطاعة التزيين ليوحي للمتلقي ببداية تلك النتيجة لأن توجيهاته مضمونة النتيجة دون شك في ذلك.

وعن بداية نتيجة التعلل من الحديث بالتبسم دون إجابة لا يريد المتلقي إظهارها يقول عبد الحميد "إلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعطل من حديثه بالتبسم والإغضاء، فأجزى عنك الجواب وقطع عنك ألسن العتب" (١٠٢٤).

وهذه النتيجة تتمثل في سكوت المحدثين للمتلقي عن العتب، ذلك العتب الذي استعار له قطع اللسان.

ومن المعروف عن الكاتب استرساله في الأساليب ومنها الأسلوب الاستعاري المصرح فيه بالمستعار منه، ويحقق الكاتب لهذا الاسترسال تعويضاً بإطلاق الاستعارة لتمرّ بسرعة على ذهن المتلقي، فلنتأمل قوله عن ضرورة الحفاظ على سرية الجواسيس "فإن ظفر به وأظهر عقوبته؛ كسر ذلك ثقات عيونك وخذلهم عن تطلب الأخبار من معانها واستقصائها من عيونها واستعذاب اجتائها من يناييعها" (١٠٢٥).

استعار الكاتب لدحر الجواسيس وكشفهم الكسر، ولمصادر الأخبار من الرجال المعادن، ولاستخراج الأخبار اجتناء الثمار، فضلاً عن استعارة العيون للجواسيس، وقد عوض الكاتب هذا الاسترسال بإطلاق الاستعارات لتكون سرعة مرور الاستعارات معادلاً للبطء الذي قد يستوقف المتلقي من الاسترسال.

● الاستعارة التصريحية المرشحة:

وهي أقل الاستعارات وروداً في نثر عبد الحميد ولا يعني قلة هذا الأسلوب في نثر عبد الحميد – برغم احتلاله أعلى مراتب الاستعارة – أن ننتقص من قدرة عبد الحميد اللغوية، ولكن الرسائل الديوانية – كما سبق أوضحنا – لها خصائص تميزها تجعل الكاتب يستعمل من أساليب اللغة ما يضمن به وصول الرسالة إلى المتلقي جلية ليتسم الاتصال بينه وبين المتلقي بالكمال من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن معرفة الكاتب للمتلقي وخلفيته الثقافية معرفة جيدة تجعله يستعمل من أساليب اللغة ما يراه ملائماً للتأثير فيه، أو لوصول الدلالة إلى ذهنه حسب درجة استيعابه للأساليب المستعملة في الرسالة التي يتلقاها من الكاتب.

إن إتباع الاستعارة بكلام تال للمستعار منه، وإثبات المستعار منه على سطح النص يزيد من دخول المستعار له في عالم المستعار منه مما يحقق للصورة امتداداً

(1023) السابق، ص ٢٤٥.

(1024) السابق، ص ٢٣١.

(1025) السابق، ص ٢٤٢.

يستوقف المتلقي ويرفع من درجة تأثير الصورة فيه خاصة عندما تصاحب هذه الصورة وجدان الكاتب، ففي آخر رسائله إلى أهله خلال الهروب من العباسيين يقول عبد الحميد "وإن يلحقنا ظفر جرح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الأسار" (١٠٢٦).

استعار الكاتب للعباسيين ومن يلاحقه الظفر، وقد رشح هذه الاستعارة بـ(جرح) وتكرار مادة الظفر (من أظفار) ليزيد من خلع صفات الظفر الجرح على من يلاحقه ويكثف منه في السياق ليمتد بصورة الملاحقة حتى يستوقف المتلقي ليتأمل الصورة ويتأثر بما فيها من حزن على ما أصاب عبد الحميد من ضيق وشقاء وما قد يصيبه مستقبلاً.

إن صياغة هذه الاستعارة في قالب الشرط الذي يدل على عدم رجوع عبد الحميد إلى الوطن منتصراً، بل رجوعه بشرط واحد وهو أن يلحقه أحد العباسيين مما يوحي للمتلقي بعدم رجوع عبد الحميد مادام سالماً مما يزيد من التأثير بفراقه وعدم رؤيته ثانية وإن حدث ذلك فمذلولاً لا يدري مصيره.

وقد يأتي الترشيح لتأكيد علاقة المشابهة بين طرفي الاستعارة، ومن ثم ينسحب هذا التأكيد على دلالتها. كتأكيد سرعة الجوارح في البحث والانتقاض على الصيد في قوله "فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسف الأرض سفا... قد مزقتها تمزيق الريح الجراد" (١٠٢٧).

استعار الكاتب للجوارح في سرعتها سف الطعام ورشح هذه الاستعارة بالمصدر (سفا) واستعار لنيل الجوارح للصيد تمزيق القماش، ورشح هذه الاستعارة بالمصدر (تمزيق)، وبهذا لم يكن المصدر في كل استعارة مؤكداً نحوياً فحسب، بل مؤكداً دلالياً على سرعة الجوارح وقوتها.

وفي تأكيد صيانة الخزائن والدواوين ممن يحاول سرقتهما يقول عبد الحميد ناصحاً ولي العهد "فإياك وأن يكون لأحد في خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع، أو يجد سبيلاً إلى اغتيالها ومرزنتها" (١٠٢٨).

استعار الكاتب لسرقة الخزائن الاغتيال ورشح هذه الاستعارة بـ(مرزنتها) ليؤكد بهذا الترشيح الحذر من سرقتهما. وقد ساعد في هذا التأكيد أسلوب التحذير (وإياك) الذي بدأ به السياق.

(1026) السابق، ص ٢٧٩.

(1027) السابق، ص ٢٧٠.

(1028) السابق، ص ٢٦٣.

● الاستعارة التصريحية وفقاً للعنصر المذكور:

وقد توزعت وفقاً لهذا المعيار حسب الجدول التالي:

النسبة	العدد	وفقاً للعنصر المذكور
٢٨,٧ %	١٦	مفردات مادية
٢٥ %	١٤	ما يخص الإنسان أو جزء منه
٢٣,٢ %	١٣	عناصر مجردة
١٤,٢ %	٨	عناصر الطبيعة
٧,١ %	٤	الحيوان
١,٨ %	١	النبات
١٠٠ %	٥٦	الإجمالي

ومن الجدول السابق نلاحظ احتلال الماديات ما يزيد على الربع يليه ما يخص الإنسان بنسبة ربع الاستعارات التصريحية وفقاً لانتفاء العنصر المذكور. إن اتساع عالم الماديات وعالم الإنسان يوفر للكاتب حقلاً خصباً من الأساليب الاستعارية التي يتمكن فيها من توصيل الدلالة للمتلقي دون قيد، مع الوضوح الذي ينشأ عن رسم صورة حسية معلومة جيداً للمتلقي لعلمه بعالم الماديات والإنسان أكثر من أي عوالم أخرى وهذه الصورة الحسية تقرب الدلالة من ذهن المتلقي خاصة عندما ينتمي المستعار له إلى عالم المجردات التي لا يسهل على المتلقي تخيلها أو تحديد كنهها.

ومن الملاحظ أن هذه النسب تقترب من الاستعارة المكنية من حيث انتفاء المستعار منه فوجدنا التشخيص أولاً ثم التجسيد وآخرهما الإحياء الذي جعلنا ندرك قلة الحيوان كعنصر مذكور في الاستعارة التصريحية في نثر الكاتب.

● المفردات المادية:

وقد استغل الكاتب بعض خواص الماديات ليخلعها على المستعار له، كقوة بعض الماديات المعروفة لدى المتلقي.

فعن قوة الاعتماد على رجال البيت الأموي يقول عبد الحميد "إن الله جعل لكل أهل بيت أركاناً يعتمدون عليها، ويتقون بها المخاوف" (١٠٢٩).

استعار الكاتب لقوة الرجال في الاعتماد عليهم قوة أركان البيت، فمن المعلوم أن الأركان أقوى ما يقوم عليه البيت، وقد خلع الكاتب تلك القوة على رجال البيت الأموي.

ويخلع القوة على انتقام العدو من الجواسيس إذا كشف أحدهم من خاصية الكسر في الماديات في قوله "فإن ظفر به، وأظهر عقوبته؛ كسر ذلك ثقات عيونك" (١٠٣٠).

ومن شأن هذه القوة المخلوعة على الانتقام أن يقوم المتلقي بالمحافظة على سرية الجواسيس حتى داخل معسكره كما نصحه الكاتب.

(1029) السابق، ص ٢٩٩.

(1030) السابق، ص ٢٤٢.

ويستمد الكاتب قوة اللون الأحمر المنعكس عن الحناء ليخلع تلك القوة على جنود الدولة في قوله "ذو شقشقة وكلكل، كأثما أشرب وجهه نقيع الحناء" (١٠٣١). وقد يقرب الكاتب المجرد من ذهن المتلقي برسمه في صورة مادية، كصورة الخلافة التي تحولت إلى وسام يتقلده الخليفة في قوله "فإن هذه الخلافة من الله على مناهج نبوة رسله وإقامة شرائع دينه، أكرمهم الله بما قلدهم" (١٠٣٢).

● ما يخص الإنسان أو جزء منه:

وقد استعمل الكاتب هذا الأسلوب لخلق قدرة على المستعار له المطوى يستمدّها من جسم الإنسان، كاليد التي تعتبر آلة البطش ومظهر من مظاهر قدرته كما في قوله "فإن بسط يده بقتلهم، وأولغ سيفه في دمائهم، وأسرع الوثوب بهم؛ أشعرهم جميعاً الخوف" (١٠٣٣).

كما تعتبر اليد مظهر من مظاهر الموافقة وتأكيد الإرادة كما في قوله معبراً عن موافقته بمحض إرادته على بيعة الخليفة "... وقد بسطت يدي لبيعتك فجددتها ووكدتها بوثائق العهود وترداد الموائيق" (١٠٣٤).

وقد يستمد الكاتب من ما يخص الإنسان لتأكيد الدلالة كاستعارة الفطام لمنع اللعب بالشطرنج منعاً لا رجعة فيه مع التشديد على ذلك في قوله لأحد الولاة "وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها... وافطمهم عما لهجوا به من ذلك" (١٠٣٥).

● عناصر مجردة:

من المعلوم أن المجردات لا يسهل تمثيلها في ذهن لأنها بجانب قلة القدرة على تحديد معالمها تحتاج إلى مدة من الزمن من المتلقي لإدراكها مقارنة بالمحسوسات لهذا فقد اقترن هذا الأسلوب في نثر عبد الحميد بالسياقات التي يحتاج فيها من المتلقي نشاطاً ذهنياً كسياق العزاء الذي يلائم توجيه الكاتب للمتلقي بإعمال ذهنه في حكمة الله في خلقه ليعتبر ويتعظ ويسلم بالمكتوب عليه ويخلع من قلبه الغضب لأن الموت أمر حتمي لا ينجو منه بشر.

أو بمعنى آخر يكون إعمال الذهن في العظة والاعتبار لمدة من الزمن كنوع من صرف الذهن عن التفكير في فجيعة.

ففي تعزية الكاتب للخليفة في أحد أقاربه يقول "فإن أحق الناس باستكمال الصبر... من ألهمه الله مثل الذي بصرنا فعلمنا - أهل البيت - من أداء الحق إلى

(1031) السابق، ص ٢١٤.

(1032) السابق، ص ٣٠١.

(1033) السابق، ص ٢٦٣.

(1034) السابق، ص ٢٩٨.

(1035) السابق، ص ٢٦٧.

الله وطاعته، والرضى بقضائه وقدره والتسليم لأمره مما يرضى الله، وقد كان من قضاء الله في الحكم بن مروان...^(١٠٣٦).

استعار الكاتب للموت أداء الحق والقضاء والقدر وهي من المجردات التي يعمل المتلقي فيها ذهنه مدة من الزمن وهو ما أراده الكاتب من تسليمة الخليفة وصرف ذهنه عن التفكير في الموت.

ولتشابه سياق المصائب للغزاة نجد الكاتب يستعمل الأسلوب ذاته في قوله عن طغيان الفرات وما أحدثه من خسائر بشرية ومادية "ولقد أتى على أموالهم السابحة... ثم أخذ نحو الواذ الخزرج؛ فحدرت من رعبه القبائل"^(١٠٣٧).

لنتأمل تدمير النهر لما حوله وقد غدا هذا التدمير رعباً يخلع على النهر صفة الوحوش.

وفي قوله عن مصيبة الفتنة التي أصابت الناس يستعير الكاتب النعرة لوسوسة الشيطان للمفتونين "فإن الشيطان... فله في كل حين نعرة بأهل جماعة يستخفهم بالأماني، ويستدعيهم بالضلالة"^(١٠٣٨).

وبجانب الاستغراق الزمني لإدراك تلك النعرة نجد التنكير قد وهبها غموضاً يستدعي من المتلقي أعمال ذهنه ليتيقن من مصدر الفتنة وهو الشيطان.

● مفردات الطبيعة

ويأتي حضور عنصر من عناصر الطبيعة في الاستعارة التصريحية لتأكيد دلالة الاستعارة، فمعرفة المتلقي لميزات عناصر الطبيعة يؤهله إلى فهم الدلالة ومن ثم تتأكد في ذهنه، كالتأكيد على الهدوء في السير الذي استعار له الكاتب الريح في سكونها في قوله "حتى إذا استقللتم من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم؛ سرتم على تعبنتكم بسكون ريح، وهدو حملة، وحسن دعة"^(١٠٣٩).

وقوله "وتقدم إلى من توجهه في طلبهم، وتتبعه أكساءهم وهم في سكون الريح، وقلة الرفث"^(١٠٤٠).

والتأكيد على تشديد الحراسة من النار المذكاة في شدتها في قوله "وتقدم إليه في ضبط معسكرك وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره"^(١٠٤١).

● الحيوان:

وقد استغل الكاتب ما قرأ في ذهن المتلقي تجاه الحيوان من الاستئناس به أو الخوف منه لشراسته وقوته، ليصبغ دلالة الاستعارة بهذه الصفات ويخلعها على

(1036) السابق، ص ١٩٤.

(1037) السابق، ص ١٩٦.

(1038) السابق، ص ١٩٨.

(1039) السابق، ص ٢٥٥.

(1040) السابق، ص ٢٦٠.

(1041) السابق، ص ٢٤٣.

المستعار له فيستعير الكاتب لتنفيذ العقوبة العض من عالم الحيوان ليخلع على التنفيذ القوة المستمدة من العض في قوله "... ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللوم، وعض العقوبة عليهم مجازًا تصل به إلى تعنيفهم" (١٠٤٢).

ويستعير الظفر من الحيوان ليضفي على من يلاحقه من العباسيين قوة وشراسة تؤكد تصميمهم على ملاحقته وتجسد خوفه خلال الهروب في قوله "وإن يلحقنا ظفر جرح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار" (١٠٤٣).

● النبات

وقد استعمله الكاتب في شاهد واحد ليستمد من النبات سرعته في النمو ليعبر عن سرعة زيادة أعداد الخارجين على الدولة في قوله "فإنكم لما بدأتموهم بالتفريط ثروا ونموا" (١٠٤٤).

(1042) السابق، ص ٢٥١.

(1043) السابق، ص ٢٧٩.

(1044) السابق، ص ١٩٩.

● الكناية:

اعتبر البلاغيون الكناية فرع من الاستعارة التي اعتبرت بدورها فرع عن المجاز، وقد عبر بعض البلاغيين عن ذلك كإبن الأثير باعتبارها خاص الخاص. وكما كانت الثنائية مهيمنة على الدرس البلاغي القديم وجدنا الكناية محددة ببعض الثنائيات تظهر حتى في تعريف البلاغيين لها فهي "كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز" (١٠٤٥).

فالحقيقة في الكناية يمثلها اللفظ الظاهر ويقصد به المجاز غير الظاهر في السياق. وتظهر لنا ثنائية أخرى تنبثق عن الحقيقة والمجاز من حيث الطي والذكر حددها البلاغيون في ثنائية الخفاء والظهور وكانت الحقيقة بالظهور والمجاز بالخفاء لأنه يعلم من اللفظ الظاهر، وقد حدد ابن الأثير هذه الثنائية في السائر والمستور باعتبار الحقيقة سائرًا للمجاز في الكناية.

وتمضي سيطرة الثنائية على الكناية حتى في أنواعها فتتقسم إلى كناية عن صفة وكناية عن موصوف، وقد جعل لها نوع ثالث لا يخرج في حقيقته على الصفة والموصوف إذ يمثل النسبة بينهما، وطبيعة الكناية من دلالتها على الحقيقة والمجاز تفرض إثبات المجاز عن طريق الحقيقة فهي دليل على إثباته "فليس معنى الكناية أننا زدنا في ذات الدلالة، بل إن الزيادة تكون في إثبات المعنى" (١٠٤٦).

بمعنى أن كثرة الرماد كناية عن صفة الكرم تعتبر دليلاً عملياً محسوساً على هذه الصفة ومن ثم إثباتها للموصوف بها، وللكناية خاصية تميزها عن باقي الألوان البيانية إذ أن دلالتها على الحقيقة والمجاز معاً – وإن ظهر أحدهما وكُني عن الآخر بالظاهر على سطح النص – باعتبار أنهما لا يجتمعان "في السياق إلا أنهما يظفران بوجودهما معاً في ذهن المتلقي" (١٠٤٧).

وفي هذا تنشيط لذهن المتلقي إذ تقوم الكناية باستحضار المطوي ذكره في السياق.

وللكناية دلالة تأكيدية نابعة من إثبات المعنى بدليل عملي، وبجانب هذه الدلالة فإننا نجد اللفظ الظاهر على سطح النص – الدال على المعنى العقلي – عندما ينتمي إلى المدركات بالحواس؛ مجسداً لهذا المعنى المعقول، ومقرباً له في ذهن المتلقي. بمعنى أن دلالة المحسوسات على المعاني العقلية تقدم صورة مادية للمعقولات تقرب الدلالة من ذهن المتلقي.

وقد توزعت الكناية في نثر عبد الحميد حسب الجدول التالي:

نوع الكناية	العدد	النسبة
كناية عن صفة	٢٣٨	٨٠ %
كناية عن موصوف	٦٠	٢٠ %
الإجمالي	٢٩٨	١٠٠ %

(1045) المثل السائر: ص ٢٨٢.

(1046) بناء الأسلوب، ص ٤١.

(1047) الصوت والصورة، ص ٢٨٨.

ومن الجدول السابق يتضح لنا أن ورود الكناية عن صفة في نثر عبد الحميد قد بلغ أربع أخماس الكناية وهو ما نرجعه إلى رغبة الكاتب في تأكيد الصفات وإثباتها، وينسحب ذلك التأكيد بالطبع على السياق وعلى درجة اقتناع المتلقي بالدلالة إذ تقدم الكناية المعنى مصحوباً بالدليل عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى فغالبية الكنايات في نثر عبد الحميد تنسم بانتفاء اللفظ الظاهر منها على سطح النص إلى منطقة المحسوسات التي تقرب الصفات المجردة من ذهن المتلقي فتضفي وضوحاً على الدلالة بجانب إثبات تلك الصفة وتأكيداً لها.

● الكناية عن صفة:

وقد ارتبط ورود الكناية عن صفة في نثر عبد الحميد بأربعة سياقات يوضحها الجدول التالي مع نسبة ورودها في كل سياق.

النسبة	العدد	السياقات الواردة فيه الكناية عن صفة
٥٠ %	١١٩	النصح والتوجيه
٣٤ %	٨٠	الوصف
١٤ %	٣٤	التهديد والعقاب
٢ %	٥	الحكمة
١٠٠ %	٢٣٨	الإجمالي

● سياق النص والتوجيه:

ويحتاج الكاتب في سياق النصائح المقدمة للمتلقي إلى الأسلوب المؤكد المصحوب بالدليل ليزيد من اقتناع المتلقي بالنصيحة من ناحية، ويتأكد من صحتها في كونها تحقق مصلحته بالدرجة الأولى من ناحية أخرى، ولم يكن أسلوب أنسب من الكناية لتحقيق هذا الغرض.

إن احتلال سياق النصح الواردة فيه الكناية عن صفة نصف هذا الأسلوب يكشف لنا عن بعض الملامح الخاصة بعبد الحميد، أولها خبرته العملية في الأمور الحياتية التي وفرت له مخزوناً من النصائح والتوجيهات، وملح آخر يؤكد لنا مقولة لبعض القدماء الذين تناولوا سيرة عبد الحميد مفادها أنه قبل احتراف الكتابة كان يعمل معلماً للصبيان، إذ ثمة ارتباط وثيق بين التعليم وتوجيه النصائح التي ترتقي بالمتعلم ثقافياً وأدبياً وأخلاقياً.

وملمح آخر يكشف لنا عن مدى ولاء عبد الحميد لوطنه وعمله كوزير في الدولة، إذ أن معظم النصائح الموجهة ترجع فوائدها في الغالب لخدمة الدولة خاصة النصائح الحربية، وقد اندرجت النصائح والتوجيهات في نثر الكاتب تحت ثلاثة أنواع يوضحها الجدول التالي مع نسبة ورود الكناية عن صفة في كل نوع منها.

نوع النصيحة	العدد	النسبة
نصيحة حربية	٧٦	٦٤ %
نصيحة أخلاقية	٢٤	٢٠ %
نصيحة إدارية	١٩	١٦ %
الإجمالي	١١٩	١٠٠ %

● النصائح الحربية:

وهي من أكثر النصائح حساسية على الإطلاق إذ تشكل خطراً على المتلقي إذا لم يتبعها بدقة من ناحية، أو عدم دقة النصيحة أو التأكد من نتائجها المضمونة من ناحية أخرى، فالنصيحة الحربية ذات وجهين متقابلين فقد تكون سبباً للنجاة أو سبباً للهلاك ولهذا وجدنا احتلال الكناية عن صفة أكبر نسبة ورود في هذا السياق، فالدلالة التأكيدية لها تطمئن المتلقي على الثقة في النصيحة وفي منفعتها له. فعن تشديد التجسس تأتي الكناية مؤكدة على هذا التشديد في قوله "ثم أذك عيونك على عدوك متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها" (١٠٤٨).

فإذكاء النار بمعنى زيادة تجميعها تخفي وراءها ضرورة تشديد التجسس على العدو، وتأتي النار في إذكائها كدليل عملي يؤكد هذا التشديد. ولتأكيد تلك الدلالة فقد صاغ الكاتب نصيحته في أسلوب الأمر (أذك) ذي الدلالة التأكيدية ليعكس بهذا الإلحاح تأكيد أهمية نقل أخبار العدو بدقة لتحقيق الأمان لنفسه ومن معه من جنود الدولة من ناحية، وانتهاز الفرصة للهجوم عليه من ناحية أخرى. وهو ما كرره الكاتب في قوله مشدداً على الحفاظ على سرية الجواسيس "واحذر أن يُعرف جواسيسك في عسكريك أو يُشار إليهم بالأصابع" (١٠٤٩). فكناية (يشار إليهم بالأصابع) عن شهرة الجواسيس داخل معسكره جاءت لتؤكد النصيحة بالحفاظ على سريتهم حتى لا يعرفهم العدو إن كان له جواسيس في معسكر ولي العهد وهذا وارد الحدوث، وقد ألح الكاتب على هذا التأكيد بفعل الأمر (احذر) الذي تصدر الشاهد.

وفي ختام مجموعة من النصائح الحربية تأتي الكناية مؤكدة النتيجة المضمونة لتحقيق الأمان إذا اتبع المتلقي النصائح والتوجيهات بدقة في قوله "حيث وصفت لك وأمرت لك به يضع عنك مؤونة الهم، ويرخ من خناقك روع الخوف" (١٠٥٠).

فالكناية تقدم دليل على الأمان يتحقق بانسحاب مقابله (الخوف) وهذا الدليل يؤكد النتيجة المضمونة للتوجيهات المقدمة له.

وتؤكد الهدوء في السير المعبر عنه بسكون الريح في قوله "حتى إذا استقالتكم من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم؛ سرتكم على تعبئكم بسكون ريح" (١٠٥١).

وخلال الإرشادات والتوجيهات لاختيار قواد الجيش ومن يقوم بالمهام الجسيمة تأتي الكناية مؤكدة لتحري تمتع القواد بصفات محددة تخدم مصلحة الجيش من ناحية، وتوحي بضرورة تحري الدقة في الاختيار من ناحية أخرى.

(1048) عبد الحميد بن يحيى ...، ص ٢٣٩.

(1049) السابق، ص ٢٤٢.

(1050) السابق، ص ٢٤٩.

(1051) السابق، ص ٢٥٥.

كدقة اختيار قائد الشرطة في قوله "... وليكن عالمًا بمراكز الجنود، بصيرًا بتقدم المنازل، مجربًا ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة، له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية معروف البيت، مشهور الحسب" (١٠٥٢).

لنتأمل الكنايات (له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية، معروف البيت، مشهور الحسب) وتعبر عن الخبرة القيادية وعراقة الأصل، وتؤكد تحري وجود هذه الصفات فيه بما يوحي بتحري الدقة في اختياره لقائد الشرطة، والمعيار هو تلك الصفات. فالكاتب يقدم لولي العهد أنموذجًا يسير وفقًا له حتى يحقق المصلحة والمنفعة للجيش.

ودقة اختيار طلائع الجيش وقائدهم لأهمية الطلائع البالغة في رصد أحوال العدو في قوله "واعلم أن الطلائع عيونٌ وحصون للمسلمين، وهم أولٌ مكيدتك، وعروة أمرك، وزمام حرك... ثم انتخب للولاية عليهم رجالاً بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبية الذكر، له في العدو وقعاتٌ معروفات، وأيام طوال، وصولاتٌ متقدمات، قد عرفت نكايته، وحذرت شوكته، وهيب صوته، وتكيب لقاؤه، أمين السريرة، ناصح الجيب" (١٠٥٣).

وقد تعددت الكنايات وأغلبها ترجع إلى أهمية الطلائع والتشديد على صفات القوة والخبرة العسكرية لتتسحب تلك التأكيدات على السياق الكلي من تأكيد الدقة في اختيار الطلائع وقائدهم.

ودقة اختيار قائد المشاة في قوله "ول دراجة عسكري وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجالاً من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروف النجدة، ذا سن وتجربة، لين الطاعة، قديم النصيحة، مأمون السريرة، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه" (١٠٥٤).

ودقة اختيار المستشارين في قوله "... مستشيرًا لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السن، وخبطتهم التجربة" (١٠٥٥).

وقد تقوم الكناية بتقديم الدافع للعمل بالنصيحة، كتقديم دافع للمتلقى للصمود أمام العدو في قوله "ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين" (١٠٥٦).

كناية المتسمى بالإسلام- عن إضمار زعيم الخارجين على الدولة الكفر مع إظهار الإسلام من أقوى الدوافع التي تحدو بالمتلقي إلى الصمود أمامه في الحرب.

وتقديم الدافع للحفاظ على سرية الجواسيس في قوله "إن ظفر به وأظهر عقوبته؛ كسر ذلك ثقات عيونك، وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها" (١٠٥٧).

(1052) السابق، ص ٢٤٣.

(1053) السابق، ص ٢٤٨.

(1054) السابق، ص ٢٤٩.

(1055) السابق، ص ٢٣٩.

(1056) السابق، ص ٢٣٦.

وقوله "وأن يورط بعضهم بعضًا عند عدوك، فأحكم أمرهم، فإنهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك، وعليهم مدار حرك، وهو أول ظفرك" (١٠٥٨).

فكسر العيون كناية عن دحرهم في الشاهد الأول، والشاهد الثاني كناية عن أهميتهم، والدحر والأهمية من الدوافع المهمة للمحافظة على سرية الجواسيس، فأهميتهم للجيش تستدعي ذلك، ودحرهم المؤدي إلى عدم دقة الأخبار النابعة من خوفهم من أن يلاقوا مصير المقبوض عليه منهم؛ يؤدي إلى الخطأ في التخطيط للنيل من العدو.

وتقديم الدافع لضرورة عدم الانتشار أو الاضطراب في قوله "ثم حذره أن يكون له إذن لجنوده بالانتشار والاضطراب والتقدم لطلائعك فُصاب لهم غرة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداماً إليك، ويكسر من أفئدة جنودك، ويوهن من قوتهم" (١٠٥٩).

الخوف الناتج عن كسر أفئدة الجنود وكناية عنه يمثل دافعاً لولي العهد ليشدد على قائد الطلائع محذراً إياه من تبدد الجنود وانتشارهم حتى لا يسهل على العدو اصطيادهم.

وتأتي الكناية عن صفة مساعدة لتجهيز المتلقي لكل الاحتمالات الحربية كما في قوله "فإن ألفيت عدوك قليل الحدّ، وقم الحزم، نضيض الوفّر؛ لم يضررك ما أعددت له من قوة، وأخذت به من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جرأة عليه، وتسرعاً إلى لقائه.

وإن ألفيته متوقد الجمر، مستكثف الجمع، قوي التبع، مستعلي سورة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبع إبليس...؛ كنت لأخذك بالحزم واستعدادك بالقوة غير مهين الجند" (١٠٦٠).

لنتأمل الكنايات التي قدمت الأحوال المتقابلة للعدو مع تقديم دليل ملموس لكل حال في (كليل الحدّ، وقم الحزم، نضيض الوفّر) عن شدة الضعف وقلة العدد، وتعطي تأكيداً على التجرؤ على مهاجمته إذا تأكد من حال ضعف عدوه.

وتقديم دليل ملموس لكل حال في (متوقد الجمر، مستكثف الجمع، قوي التبع، مستعلي سورة الجهل) عن شدة القوة، وكثرة العدد، والتصميم على القتال، وتعطي تأكيداً على أهمية الاستعداد بالقوة كمواجهته إذا هاجمه العدو في معسكره.

(1057) السابق، ص ٢٤٢.

(1058) السابق، ص ٢٤٣.

(1059) السابق، ص ٢٤٣.

(1060) السابق، ص ٢٣٩.

● النصائح الأخلاقية:

تكاد تقتصر هذه النصائح على فرد بعينه هو ولي العهد وتعكس هذه النصائح صورتين، الأولى لولي العهد تظهره كمتعلم في حاجة إلى تلك النصائح ليمارس حياته بموضوعية وتعبّر أيضاً عن حداثة سنّه وقلة خبرته. والثانية لعبد الحميد توضح مدى مسئولياته في الدولة وإحدى هذه المسئوليات تجهيز ولي العهد ليكون مؤهلاً للخلافة وقيادة الدولة بعد أبيه. وتأتي الكناية لتأكيد ضرورة تمسك ولي العهد بالأخلاق عن طريق تقديم الدليل على منفعتها له.

كالتمسك بقراءة القرآن لأنه يحقق الراحة للنفس في قوله "فإن فيه شفاء القلوب من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه، وضياء معالم النور" (١٠٦١).

شفاء القلوب كناية عن الراحة التي يبعثها القرآن في النفس، وكذلك جلاء وساوس الشيطان، وضياء معالم النور. وتقديم هذه الأدلة على الراحة النفسية أدعى لحث ولي العهد على التمسك بقراءة القرآن.

وضرورة إطراق النظر عند الإقبال على المسائر في الطريق في قوله "وليقّل على مسارك إقبالك إلا وأنت مطرق النظر غير ملتفت إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحدثه" (١٠٦٢).

فإطراق النظر كناية عن الانتباه للمسائر وحديثه تؤكد ضرورة هذا الانتباه ليكون مؤهلاً لقيادة الدولة.

وضرورة كظم الغضب في قوله "وعليك بالثبّت عند سورة الغضب وحمية الأنف، وملاّل الصبر في الأمر تستعجل به" (١٠٦٣).

فحمية الأنف كناية عن شدة الغضب تؤكد ضرورة الثبّت وعدم ظهوره على وجهه.

وضرورة التمسك بالحكمة في قوله "اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمّها سالكاً، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها، وأمن سرحها" (١٠٦٤).

فالحكمة يصعب نيلها ووجب على ولي العهد البحث والتمرن لنيلها والتمسك بما سيناله منها.

● النصائح الإدارية:

وقد تركّز معظمها في رسالة عبد الحميد لفئة الكتاب ورسالة الجند لولي العهد، وتكشف لنا في الأولى عن مدى الاهتمام بصناعة الكتابة الديوانية في العصر

(1061) السابق، ص ٢١٩.

(1062) السابق، ص ٢٢٤.

(1063) السابق، ص ٢٣٢.

(1064) السابق، ص ٢١٧.

الأموي حتى ليظهر الكتاب وكأن لهم نقابة ورئيسها عبد الحميد يمدّ الكتاب بالإرشادات والتوجيهات التي تحقق مصلحة العمل، وتبصر الكتاب بما يجب عليهم القيام به من خلال تلك المهنة.

وتأتي الكناية لتأكيد التوجيهات حتى يكون المتلقون مقتنعين تمام الاقتناع بضرورة العمل بها لتحقيق المنفعة الخاصة والعامة.

كضرورة التواضع في العمل بنبذ مظاهر الترف والسرف في قوله "واحذروا متآلف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يُعقبان الفقر، ويذلّان الرقاب، لاسيما الكتاب" (١٠٦٥).

(يذلّان الرقاب) كناية عن قوة تأثير الترف والسرف وتأکید هذه القوة من شأنه الحذر منهما، ذلك الحذر الذي صاغه عبد الحميد في ثوب الأمر (احذروا).

وفي إظهار أهمية الكتاب للدولة وتأكيدها يدفع عبد الحميد الكتاب إلى الإخلاص في العمل ليكونوا على قدر منزلتهم في الدولة في قوله "فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطنون" (١٠٦٦).

أما النصائح في رسالته لولي العهد فجاءت ضمن النصائح عامة، كالنصائح الموجهة لإدارة أعمال القضاء في قوله "وسلّط حكم الله على رعيته، مطلقاً عنانه منفذاً قضاءه في خلقه" (١٠٦٧).

فإطلاق العنان كناية عن إعطاء القاضي صلاحية تنفيذ الحكم على الجنود، وجاءت الكناية لتؤكد ضرورة إعطائه هذه الصلاحية.

● سياق الوصف:

الوصف من السياقات التي تأتي الكناية بدلالاتها التأكيدية لتكون ملائمة له بمعنى أن الكاتب عندما يشرع في الوصف يحتاج إلى تأكيد ما يتناوله ليقنع المتلقي بصدق وصفه لأحوال الأشخاص أو ما يراه في أرض الصيد من ناحية، أو صدق رؤيته للأمور من حوله كرويته للإخاء أو الخراب ليكون هذا الصدق مؤثراً في رؤية المتلقي ذاته للأمور ويقربها من رؤية الكاتب من ناحية أخرى.

وقد توزعت سياقات الوصف حسب الجدول التالي:

نوع الوصف	العدد	النسبة
وصف حال أو هيئة	٣٩	٤٨,٧٥ %
وصف الصيد	٢٠	٢٥ %
وصف جارية	١٣	١٦,٢٥ %
وصف الإخاء	٦	٧,٥ %
وصف الدمار	١	١,٢٥ %

(1065) السابق، ص ٢٨٦.

(1066) السابق، ص ٢٨١.

(1067) السابق، ص ٢٤٦.

وصف الحج	١	١,٢٥ %
الإجمالي	٨٠	١٠٠ %

● وصف أحوال الأشخاص:

الكناية بدلالاتها التأكيدية بتقديم الدليل توهب هذا الأسلوب الوصفي صدقا يقتنع به المتلقي.

وجاءت الكناية في وصف قوة الخارجين على الدولة بغلظة الأمر واستحفال الشأن في قوله "حتى إذا غلظ أمره، واستحفل شأنه، واستجمعت له مكايده وقويت مناشطه، وتمددت في القبيح أطرافه؛ بهت الكتاب بالفرية عليه..."^(١٠٦٨).

وصدق وصف الكاتب النابع من دلالة الكناية التأكيدية على حاله من القوة من شأنه حت المتلقين على مناهضة الخارجين والوقوف بجانب الدولة في كفاحها المسلح ضدهم.

وفي وصف شدة الهول من أعمالهم بتمنى الأحياء الموت في قوله "فإنهم لولا اجترارهم الناس، وتسكينهم إليه وطمعهم فيه؛ لأظهروا من صنوف الكفر، وعظيم الفراء وسوء الأثرة، وتناول الفواحش ما يتمنى الأحياء أنهم كانوا أمواتاً..."^(١٠٦٩).

وفي وصف حال العرب قبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الكفر ترد الكنايات لتؤكد صدق وصف الكاتب لأحوالهم في قوله "وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق، واستطرق الجور، واستنكح الصدوف عن الحق، و اقمطر سلهب الفتنة، واستضرم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغياية فساد..."^(١٠٧٠).

انتشار الباطل وشدة الفتنة وسرعتها، وقوة الكفر وسيطرته على العرب قبل بعث الرسول الكريم فيهم كل ذلك عبّر عنه الكاتب بـ(سكتة الحق، سلهب الفتنة، طبقت الأرض ظلمة كفر...)، وقد أكدت تلك الكنايات صدق الكاتب في وصف أحوال العرب ليبرز بذلك أفضال الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم.

وترد أيضاً في وصف حال الكاتب لنفسه في غربته، ولأخيه في الوطن في قوله "وإنك بحيث انعطف عليك أنسة القريب، وراحة السكون إلى الطمأنينة في دار الخفض، ومنزل القرار، ونحن في تعب الدنيا: توجف بنا مطايا الشقاء..."^(١٠٧١).

عبّر الكاتب عن راحة أخيه وسعادته في الوطن بـ(أنسة القريب) وعن شقائه وضيقه في الغربة بـ(مطايا الشقاء).

(1068) السابق، ص ١٩٩.

(1069) السابق، ص ١٩٩.

(1070) السابق، ص ٢٦٥.

(1071) السابق، ص ٢٠٣.

ويتشابه سياق الغربة مع الهروب فيصف الكاتب حاله بقوله "وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها... فملح عذبتها، وأمر حلوها، وخشن لينها، فمَرَقَتْنَا عن الأوطان، وقطعتنا عن الأخوان، فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة" (١٠٧٢).

فالشاهد كناية عن تبدل وتغير الحال النابع من تقلب الدنيا به، وعن الشؤم واليأس في ختام الشاهد، ولعل صدق الكناية ودلالاتها على تأكيد حال الكاتب من اليأس والضيق تؤثر في المتلقي ليتحد شعوره مع شعور عبد الحميد خاصة كون المتلقي أحالَه.

ويعبر الكاتب عن مبايعته للخليفة ببسط اليد ليوحى بدلالة الكناية على التأكيد بصدق مبايعته للمتلقي في قوله "وقد بسطت يدي لبيعتك فجددتها ووكدتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الإيمان" (١٠٧٣).

● وصف الصيد

وترد الكناية في وصف الصيد لتؤكد اشتغال حيوانات الصيد على صفات تميزها عن غيرها تجعل منها وسيلة قوية للاستمتاع بريضة الصيد من ناحية، ونيل الحيوانات الآمنة والانتفاع بها من ناحية أخرى.

فتأتي الكناية مؤكدة ضخامة الخيول وقوتها في قوله "وإني أخبر أمير المؤمنين: أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح وأثقف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء" (١٠٧٤).

فالشاهد يقدم صورة للخيول تكاد تكون متكاملة بالنسبة لمنفعتها في عملية الصيد للانتفاع بلحوم الصيد فهي تتميز بالقوة والسرعة من (أحدها أطرافاً)، والضخامة من (أطولها أعضاء)، ولتحقيق المتعة من نزهة الصيد فهي تتسم بالجمال من (أحسنها ألواناً)، وعراقة الأصل من (أكرمها أجناساً)، وبهذا الوصف يكون الكاتب قد أكد احتوائها لهذه الصفات لتكون عملة ذات وجهين، جميلة للنزهة، وقوية للصيد، أي تضيء بجانب التأكيد عمومًا على منفعتها.

وتأتي لتؤكد خوف حمار الوحش المعبر عنه بتوالي النهيق وكثرة الشهيق في قوله "فلما تطرقتا مشياً وتقريباً إلى عاناته، توالي نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهلن أمره" (١٠٧٥).

وتأكيد خوف حمار الوحش يستحضر في ذهن المتلقي قوة الضواري وكثرة عدد الصاندين وطلعتهم المهيبة على حمار الوحش.

● وصف جارية:

وجاءت الكناية لحث المتلقي على تحري الدقة في وجود الصفات المؤكدة في الجارية قبل شرائها وقبل إرسالها للخليفة في قوله "فابتع لأمير المؤمنين

(1072) السابق، ص ٢٧٩.

(1073) السابق، ص ٢٩٨.

(1074) السابق، ص ٢٦٨.

(1075) السابق، ص ٢٧١.

جارية منبتها في أهل بيت صدق من العرب، قد نجح فيها أدبهم، ونالها حسن هديهم، تقعدها الرزانة، ويسكتها الحلم، إن نهضت؛ أثقلتها أردافها، وإن تكلمت؛ تآقت إليها قلوب السامعين، منطقتها رخم، واسعة الصدر، دقيقة الخصر، قامتها مديدة، وأطرافها سباط، فرعها جثل أصله، متدل فرعه، قد جلل ظهرها كثرتة، حتى ستر بسواده مشتمل القلب ... بعيدة ما بين المنكبين، مضحكها أنيق، وخلقها وثيق تخلط الجد بالخنث في الكلام، معروفة الأبوين، طويلة الخدين، قد كتبت ما يقرأ، وقرأت ما يكتب" (١٠٧٦).

فالجارية المطلوبة طيبة الأصل (في أهل بيت صدق من العرب، معروفة الأبوين)، حسنة الأدب (نجح فيها أدبهم)، راجحة العقل (تقعدها الرزانة، يسكتها الحلم)، ممتلئة الأرداف (أثقلتها أردافها)، حسنة المنطق (تآقت إليها قلوب السامعين)، طويلة الجسد (قامتها مديدة)، عريضة الصدر (واسعة الصدر، بعيدة ما بين المنكبين) طويلة وكثيفة الشعر المتسم بالسواد (متدل فرعه، جلل ظهرها كثرتة، ستر بسواده)، مرحة ومسلية (مضحكها أنيق، خلقتها وثيق، تخلط الجد بالخنث) مثقفة (كتبت ما يقرأ، وقرأت ما يكتب).

وهذا التأكيد المستوحى من الكنايات السابقة له أساسه فقد ترتقي تلك الجارية لتكون أما لخليفة في المستقبل وقد صرح الكاتب بذلك في قوله "إن طاب ولدها؛ كانت من أمهات أولاد الخلافة" (١٠٧٧).

● وصف الإخاء:

وقد جاء هذا الوصف في رسالة من عبد الحميد إلى أحد أصدقائه طلب منه رسالة عن الإخاء، أو إبداء رؤيته الخاصة تجاه الإخاء واقتربت الكناية بهذا السياق لتؤكد رؤية الكاتب للإخاء في قوله "وأخلصته المقة منعطفة، وسكنت له القلوب أنيسة، وسمت من مواصلته الهمم مستعلية عن كل زائغ معتاق" (١٠٧٨).

فسكن القلوب كناية عن راحة الأصدقاء واطمئنائهم وذلك ليؤكد الكاتب رؤيته تجاه الإخاء.

● وصف الدمار

وجاءت الكناية لتؤكد دور البخل المعبر عنه باللفاء في تدمير نهر الفرات لما حوله، لأن ساكني ضفتيه لم يقوموا بصيانة سدوده في قوله "قد أجفل أهل جنبتيه هرباً، وأمسكوا اللفاء بأيديهم عن معالجة سكوره، والإنفاق في مرمّة بزندات" (١٠٧٩).

(1076) السابق، ص ١٩٧.

(1077) السابق، ص ١٩٨.

(1078) السابق، ص ٢٧٦.

(1079) السابق، ص ١٩٦.

• وصف الحج:

وجاءت الكناية لتؤكد شمول السلامة لكل الحجاج المعبر عنه بسلامة الراكب والراجل في قوله "ولم يسمع أمير المؤمنين بحج قط كان أسلم راكباً وراجلاً، وأحشد وأشدّ اجتهداً منه" (١٠٨٠).

• سياق التهديد

وهو من السياقات التي يحتاج الكاتب فيها إلى تأكيد الدلالة ليوسم التهديد بعزم وتصميم منه على تنفيذ هذا التهديد، ومن ثم يؤثر في المتلقي أو يزرع في قلبه الخوف من صدق الكاتب في تهديده له، وليس أنسب من الكناية لتؤكد صدق الكاتب في عزمه على الإضرار بالمتلقي.

ففي رسالة يهدد فيها عبد الحميد زعيم الخارجين على الدولة يرسم صورة لجنود الدولة معجزة للمتلقي وتأتي الكناية لتأكيد حيازة جنود الدولة للصفات المكنى عنها ليتيقن من صدق الكاتب في تنفيذ ما يهدد به في قوله "بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال، رجال هم الرجال، بين رامح وناشب، ليس معهم إلا كلب محارب، لا يهابون الضراب، ولا ينكلون عن الأصحاب، قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكرّ والإقدام، ليسوا بذوي هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاك محتك، في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل ذو شقشقة وكلكل، كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء قد رئم الحرب ورضعها... لا يروعه ما يروع الهدان، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان" (١٠٨١).

كنى الكاتب عن الكثير من صفات جنود الدولة، فذكر كل صفة، وأكدها بذكر دليل ملموس عليها كالإيمان من (جنود الله المقربون، حزبه المنصور، أولياؤه الغالبون)، والخبرة الحربية من كبر السن من (الكهول)، وقوة المراوغة من (اعتادوا الكرّ والإقدام، يثبون وثوب الفهود)، والتصميم على القتال (تخوض الوحول، لا يهابون الضراب) والشجاعة من (كلب محارب، ليسوا بذوي هينة ولا إحجام، لا يروعه ما يروع الهدان، لا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان، يقضون بالسيوف)، وقوة الأجسام من (طوال السبال، ذو شقشقة وكلكل)، وقوة الصوت من (يزأرون زئير الأسود)، وكثرة من انتصروا عليهم من (نقيع الحناء، رئم الحرب)، والوفاء للأصدقاء من (لا ينكلون عن الأصحاب)، وألفتهم للحرب (شرب على ناجذ الحرب، رئم الحرب ورضعها).

(1080) السابق، ص ٢٠٦.

(1081) السابق، ص ٢١٤.

وكثرة هذه الصفات وتأكيد احتواء جنود الدولة لها ترسم صورة متكاملة لهم يتأملها المتلقي ويشعر بمصيره المحتوم على يد هؤلاء الجنود ذوي الصفات التي تقربهم من الوحوش، وتزرع في قلبه الاقتناع بعدم قدرته على مواجهتهم. وفي رسالة ينذر فيها الكاتب المتلقي بالانتقام من القدرية يكنى فيها عن قوة استعداده وتصميمه على الانتقام بتشميم الإزار في قوله "... وإن لم أشمر للقدرية إزارى، وأضربهم بسيفي جارحاً وطاعناً، يرمي قضاء الله في ذلك حيث أخذ" (١٠٨٢).

ويتبع ذلك بالتهديد بمن معه من جنوده وكنى عن تصميمهم على الانتقام أيضاً بالصدور الممتلئة المترعة من الغيظ في قوله "ولهم نظراء صدورهم مترعة، ممتلئة لو يجدون منزعاً" (١٠٨٣).

وفي سياق التهديد بشدة غضب الخليفة على المتلقي وكنى عنه بالنار الملتهبة؛ يزرع الكاتب الخوف في قلب المتلقي بتهويل أمر الغضب ليتيقن من مدى فظاعة ما ارتكبه في حق الخليفة من ناحية، ويشعر بفضل عبد الحميد عليه لأنه كان الوسيط بينه وبين الخليفة ليتجاوز عن غلظته في حقه من ناحية أخرى، وكلما ازداد تأكيد شدة الغضب كلما زاد فضل عبد الحميد على المتلقي، يقول عبد الحميد "فإن لغضب السلطان سورة ثائرة لها متهب شرر يحرق وميضه وسناه من تعرض له أو دنا منه دمره" (١٠٨٤).

أما في سياق العتاب يستعمل الكاتب الكناية لتأكيد عدم أهمية الأمر سبب العتاب، فيكنى عنه بسواد أنقاس في بياض قرطاس في قوله "نظرت في الأمر الذي أعاتبك فيه عليه، وألتمسه عندك، إذا هو خفيف المحمل، يسير المؤونة، سواد أنقاس في بياض قرطاس" (١٠٨٥).

● سياق الحكمة:

وهي أقل السياقات التي وردت فيها الكناية عن صفة لقلة هذه السياقات في نثر عبد الحميد عموماً، وقد جاءت الكناية مصاحبة لسياق الحكمة لتأكيدده، ويؤكد أيضاً بها الكاتب للمتلقي صدق رؤيته تجاه الأشياء.

كصدق رؤيته للفكر المكنى عن اتساعه بالبحر في اتساعه، ورؤيته للبلاغة المكنى عن ثرائها ونفعها بالمنهل في ثرائه في قوله "القلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، والبلاغة منهل فيه ري العقول الظامنة" (١٠٨٦).

وعن صدق رؤيته تجاه طالب الدنيا وكنى عن عدم نيله شيئاً من الدنيا بعدم إرواء غليل المريض في قوله "طالب الدنيا غليل ليس يروى له غليل" (١٠٨٧).

(1082) السابق، ص ٣٠١.

(1083) السابق، ص ٣٠١.

(1084) السابق، ص ٢٠٨.

(1085) السابق، ص ٢٨٨.

(1086) السابق، ص ٢٩٠.

● الكناية عن موصوف

وقد انحصرت الكناية في بعض الموصوفات دون غيرها يوضحها، الجدول التالي مع نسبة ورود الكناية عن كل موصوف:

النسبة	عدد الكنايات	الموصوف
٤١,٧ %	٢٥	الحرب والجنود
٢٣,٣ %	١٤	الأمويين وأقارب الخليفة
١٥ %	٩	الموت والحياة
١٣,٣ %	٨	الدين
٥ %	٣	الكتابة
١,٧ %	١	الغربة
١٠٠ %	٦٠	الإجمالي

● الحرب والجنود:

وتأتي الكناية لتبرز جانباً من جوانب الحرب، تلقي عليه الضوء وتقدم دليل مادي لهذا الجانب، يؤكد به الكاتب السياق الواردة فيه الكناية.

كما يبرز دور الحرب في إقناء الجنود في قوله "... واستتزال طاعة ذوي الصدوف بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومنازلة الفرسان في معترك الموت" (١٠٨٨).

عبر الكاتب عن الحرب بـ (معترك الموت) ليبرز دورها في الفناء، وهذا الدور جاء مؤكداً للسياق من جعل الأولوية في النصر للوسائل السلمية بمحاولة استتزال طاعة العدو بالمال أو المناصب أو ما شابه، أو تأليب جنود العدو على قائدهم. وهذه الأولوية للوسائل السلمية أدعى للمحافظة على الجنود من الموت. وإبراز دور الحرب في خلق البطولة على الجنود في قوله "وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيول مهلوبة فإنها أسرع طلباً... وأصبر في معترك الأبطال

إقداماً" (١٠٨٩).

لنتأمل كناية الكاتب عن الحرب بـ (معترك الأبطال) واختلافها عن الشاهد السابق، فاختلاف السياق أدى إلى اختلاف الجانب المبرز من الحرب، فهنا يؤكد الكاتب اتصاف الجنود بالقوة والبطولة التي يكتسبونها من الحرب لذلك أبرز هذا الجانب منها.

أما الجنود فتأتي الكناية لتبرز صفاتهم التي تؤكد ضرورة قتالهم لاحتوائهم هذه الصفات، ففي قوله "وإن ألفيته متوقد الجمر، مستكثف الجمع، قوي التبع

(1087) السابق، ص ٢٩١.

(1088) السابق، ص ٢٣٧.

(1089) السابق، ص ٢٤٦.

مستعلي سورة الجهل، معه من أعوان الفتنة، وتبع إبليس من يوقد لهب الفتنة مسعراً^(١٠٩٠).

فأعوان الفتنة وتبع إبليس كناية عن جنود الخارجين وجاءت الكنايتان لتبرز اتصاف هؤلاء الجنود بالجهل والكفر الباطن ليكون هذا الاتصاف دافعاً يؤكد ضرورة قتالهم.

ويكنى عنهم أيضاً بمقدمات الضلالة وحماة الفتنة ليوجب على المتلقي قتالهم في قوله "وكان من عسكريك مقترباً، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة، وحماة فتنته، فتأهب أهبة المناجزة"^(١٠٩١).

● الأمويون وأقارب الخليفة

وقد كنى الكاتب عن الأمويين في أكثر من موضع بأهل البيت ليؤكد بهذه الكناية أحقية الأمويين في خلافة المسلمين من ناحية، ويخلع عليهم مسحة دينية تعادل المسحة الدينية التي خلعها الخارجون على العباسيين العدو الأول للأمويين في تلك الفترة، وتظهر الكناية عن الأمويين بأهل البيت في قوله "فإن أحق الناس باستكمال الصبر... من ألهمه الله مثل الذي بصرنا فعلمنا - أهل البيت - من أداء الحق إلى الله"^(١٠٩٢).

وقوله "ويحسن علينا الخلافة - أهل البيت"^(١٠٩٣).

أما أقارب الخليفة فكنى عنهم عبد الحميد بأهل الحمة وذوي الأرحام ليبرز بهذه الكناية مودة الخليفة ومحبة لأقاربه في قوله "وقد كان أمير المؤمنين باراً بأهل الطاعة، واصلأ لأهل لحمة"^(١٠٩٤).

وقوله "أما بعد، فقد عرفت رأي أمير المؤمنين في ذوي أرحامه وسرعة إليهم"^(١٠٩٥).

● الموت والحياة:

وقد كنى الكاتب عن الموت بالنكبة، وعن الحياة بالنعمة لمولودين للخليفة مات أحدهما ليخفف من وطأة لفظ الموت بما هو أقل منه وطأة على الخليفة في قوله "الشكر على النعمة، والصبر على النكبة، وتأدية الحق في ميسور الأمور ومعسورها"^(١٠٩٦).

(1090) السابق، ص ٢٤٠.

(1091) السابق، ص ٢٥٢.

(1092) السابق، ص ١٩٤.

(1093) السابق، ص ١٩٥.

(1094) السابق، ص ١٩١.

(1095) السابق، ص ١٩١.

(1096) السابق، ص ٢٧٥.

وكنى عن الموت أيضاً بقبض العارية في جارية ماتت للخليفة في قوله "فلما تمت له مواهب الله وعاريته قبض إليه العارية" (١٠٩٧).
وبالبلية في رسالته إلى أهله خلال هروبه ليخفف عنهم من وطأة ذكر الموت في قوله "وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداء، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا" (١٠٩٨).
وفي حديثه عن الخارجين على الدولة يكنى الكاتب عن الموت بمصارع الخزي ليبرز ذلة الخارجين حتى في الموت وينفي عنهم الموت بشرف في قوله "فإن كان ظهورهم استدراجاً من الله لهم حتى يستوقروا من الآثام، فإن ذنوبهم ستسلمهم إلى مصارع الخزي" (١٠٩٩).

● الدين

وقد كنى الكاتب عن الدين الذي نزلت أصوله وشرائعه على خاتم المرسلين – صلى الله عليه وسلم – بأعلام الحق في أكثر من موضع ليخلع على الدين صفات المحسوسات التي يتيقن الإنسان من صدق مشاهدته لها ليؤكد بذلك أحقية الدين الإسلامي في اتباع الناس له، يقول عبد الحميد "وأوضح لهم أعلام الحق، ومنازل المرشد، وطرق الهدى" (١١٠٠).
ويقول أيضاً "ونصح الإسلام وأهله، دالاً لهم على المرشد، وقائداً لهم إلى الهداية، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة وإعلاق عروة النجاة" (١١٠١).
ويكنى عن انسحاب الدين من الحياة قبل بعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالأعلام المنطمسة دون الحق في قوله "وابتعثه لإحياء دينه الدارس، مرتضياً له، على حين انطمست الأعلام مخفية" (١١٠٢).

● الكتابة:

وقد كنى عبد الحميد عنها بسربال النعمة ليذكر الكتاب (المتلقين) بفضل الكتابة عليهم؛ فيحافظوا عليها ويتمسكوا بها في قوله "فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم" (١١٠٣).
وكنى عنها أيضاً بجرياتها على أيدي الكتاب أو بالرزق في توصيته للناس بالكتاب في قوله "أكرموا الكتاب، فإن الله أجرى أرزاق الخلق على أيديهم" (١١٠٤).

(1097) السابق، ص ٢٨٠.

(1098) السابق، ص ٢٧٩.

(1099) السابق، ص ١٩٩.

(1100) السابق، ص ٢٦٦.

(1101) السابق، ص ٢٦٦.

(1102) السابق، ص ٢٦٥.

(1103) السابق، ص ٢٨٢.

● الغربة:

وكنى عنها الكاتب بدار الذلة ليؤكد بهذه الكناية عن ضيقه وحاجته الشديدة في الغربة من ناحية، وعن شوقه وحنينه للوطن من ناحية أخرى، يقول عبد الحميد "فإذا الأسفار قد تجددت بتكاليف المؤونات، موجفين إلى نائي المحل في دار الذلة" (١٠٥).

(1104) السابق، ص ٢٩١.

(1105) السابق، ص ٢٠٤.

الفصل الثاني الصورة الكلية

الدنيا
الإخاء
الطبيعة
الفتنة
الأهواء و الحكمة
المرأة
الحرب

الدنيا

كتب عبد الحميد أثناء هروبه مع مروان بعد هزيمته في فلسطين، وقبل أن يقتل معه بفترة قصيرة رسالة إلى أهله ينعي فيها حاله.

وقد تناول الدنيا بوجهين أولهما يحقق السرور والسعادة للإنسان، وآخرهما مخيف يبعث الضيق والحزن ويدعو إلى الهرب.

وخير صورة يضع فيها الكاتب الدنيا تلك الناقة التي قد تكون وسيلته للهرب من أيدي أعدائه بعد ما كانت وسيلته للراحة والزينة وهو كاتب الخليفة.

"فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها، سكن إليها، ورضى بها، وأقام عليها.

ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، وتوطأت بثقلها، قلاها نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها وشكاها مستزيرًا منها" ١١٠٦.

فكانت ناقة تدرّ اللبن الحلو فأصبحت تقرص وتعض وتتوطأ صاحبها.

- ولعل أبرز ما يواجهنا في النص السابق وجهة نظر الكاتب التي يوضح فيها أن الإنسان لا يشكر الدنيا بنفس القدر الذي يذمها به وخير شاهد على ذلك.

سكن إليها، رضى بها، أقام عليها حال الرضا عنها
فعل + فاعل مستتر + جار ومجرور عائد على الدنيا

- في مقابل أسلوب آخر يعبر عن حال عدم الرضا

قلاها نافرًا عنها، ذمها ساخطًا عليها، شكاها مستزيرًا منها

فعل + فاعل مستتر + مفعول به (الدنيا) + حال (الفاعل) + جار ومجرور (الدنيا)

- ويتضح منه قصر التركيب الأول مقابل طول الثاني مع تساوي عدد الجمل (ثلاثة) ونخرج من ذلك بمدى الضيق والحزن الذي عاشه الكاتب قبل مقتله وقد دعم قولنا هذا (الحال) التي أقحمت في التركيب الثاني الدالة على دوام ذم الدنيا مع تكثيف وجود الإنسان.

- وقد زواج الكاتب بين الناقة والمرأة في رسم صورة الدنيا وعبر فيها عن نفسه كمهزوم سليب الإرادة لا حول له ولا يحمل نفسه ذنب ما وصل إليه حاله. فالدنيا ذات طبيعة فاعلة تتحكم بالكاتب. "وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درّها أفويق استحليناها، ثم شمس منا نافرة وأعرضت عنا متكررة، ورمحتنا جامحة، فملح عذبها، وأمرّ حلوها، وخشن لينها، فمرفتنا عن الأوطان، وقطعتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقربت، وأعقبت بالراحة نصبًا، وبالجذل همًا، وبالأمن خوفًا، وبالعزّ ذلًا، وبالجدة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتًا، لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء" ١١٠٧.

1106 عبد الحميد بن يحيى...ص ٢٧٨.

1107 السابق ص ٢٧٩.

وفيها نجد الدنيا ناقة عطوف تذيبهم من حلاوتها وترضعهم ثم ترمحهم وتبتعد عنهم، ثم امرأة لا ترحم من استرحمها. وعبر الكاتب عن فترة تمتعه بالدنيا التي اختصرها في جملة واحدة (أرضعتنا) وكأنها فترة مساوية لفترة الرضاعة. ويدعم قولنا هذا حرف العطف (ثم) الفاصل بين حالي الدنيا و هو يدل على البطء والتلبث.

- ومن الملاحظ في النص السابق أن الكاتب كثف دور الدنيا الفاعل - وكأنها السبب في سوء أوطيب حاله - ويظهر ذلك من ضمائر الفاعل العائدة على الدنيا التي تكررت ثلاث عشرة مرة كضمير مستتر ومرة واحدة كاسم لفعل ناسخ (كانت الدنيا) في مقابل فاعل واحد ظاهر عائد على الكاتب (استحليناها) وهو ما يدعم قولنا بأن عبد الحميد يظهر كشخص مسلوب الإرادة وهو ما يضيف قوة وأسطورية على صورة الدنيا.

- ومن الثابت أن بعض الروايات قد رجحت أن عبد الحميد قتل مع مروان ولم يهرب دونه ففي قوله:

"وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداً، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها؛ يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم؛ نرجع إليكم بذل الأسار والصغار، والذل شر دار والأم جار يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء"^{١١٠٨}.

فأفراد كلمة (ظفر) وتكثيرها يدل على شدة ضعف عبد الحميد وخوفه من المجهول في أن واحد ومع ذلك فقد اختار الموت مع مروان على تركه أو الرجوع أسيراً وهذا ما نستشفه من قوله (والذل شر دار والأم جار، يائسين...) بعد قوله (نرجع إليكم بذل الأسار...).

- وإذا تأملنا حركة الفواعل فيما سبق نجد أن الكاتب لم يتبق له شيء في مواجهة الدنيا وآثارها من الأيام والبلية والعدو والمتربص سوى فعلين، أولهما إيجابي يتمثل في الكتابة لأهله (كتبت إليكم) والآخر سلبي رفضه عبد الحميد وهو الرجوع مذلولاً (نرجع إليكم). أما "الأيام تزيدنا، تتم البلية، يلحقنا ظفر" فالأيام كائن متحكم في الكاتب يباعد بينه وبين من يحب وهو تدعيم لصورة الدنيا المتمثلة في الأيام والبلية وظفر.

الإخاء

من المعاني العقلية المجردة التي تعامل معها الكاتب واستطرد في وصفها - وكأنه يتحدث عن صديق بعينه - ومن الملاحظ أن الكاتب اتبع أسلوباً معيناً في حديثه عن الإخاء في رسالة بعث بها لصديق طلب منه ذلك فقام أولاً بتجسيد الإخاء في بناء تشترك بعض الصفات في إنشائه وتجميله - وكأنها الشروط التي يجب أن يتبعها الأصدقاء مع بعضهم البعض - وشاهد ذلك قوله:

"فإن أولى ما اعتزم عليه ذوو الإخاء، وتواصل عليه أهل المودات ما رعى أسبابه صدق التقوى، وبنيت دعائمه على أساس البر، ثم أنهد البناء حريز التواصل، وشيده مستعذب العشرة، فادعم قوياً، وصفاً مونقاً وأخلصته المقة

منعطفة، وسكنت له القلوب أنيسة، وسمت من مواصلته الهمم مستعلية عن كل زائغ معتاق ومخوف عارض يخترم مسكة الإخاء، ويحتز مربوب المقة، ضناً بما استعذبوا من محمود وثائقه، وازدياداً فيما تمطقوا به من حلاوة جناه^{١١٠٩}.

- ومن الملاحظ أن الكاتب قد خلع على الإخاء صورة أخرى شخسه فيها - بعد تجسيده - ببعض الاستعارات التي رسمت للإخاء صورة إنسان مثالي غامض لا يستطيع كشفه إلا الأصدقاء.

"فإذا استحكم لهم مذخور الصفاء بثبات أواخيه، وظهور أعلامه، ومحصل مختبره، وثقة مواده، كان سرورهم باعتلاقه، وابتهاجهم بوجودانه، وإنماؤهم صلتهم، وبذلهم رعايته، وحياطتهم محموده، بحيث نالوا من معرفة حظوته، واستولوا عليه من مزية كرمه، وتعرفوا من ذخيرة عائدته، ومأمون حفاظه، وكشف لهم عن نفسه مظهرًا أعلامه، مبدئًا دفينته، طارحًا قناع سره، معلنا مكنون ضميره في نأى الدار"^{١١١٠}.

ومما سبق نلاحظ ما يلي

الإخاء ← مكان ← إنسان

فكان المكان أو البناء هو حلقة الوصل في سلسلة الإخاء الإنسان.

- وتلك الصورة التي رسمها الكاتب للإخاء بين المكان والإنسان تتضح معالمها في فوائد الإخاء التي عددها في رسالته وقد اعتمد فيها على التشبيه البليغ الذي ربط بين الإخاء ومجموعة من الفوائد - في نظر الكاتب.

"فكان أكهف لجأ، وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة، وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنعة، وآثق منظر، وأينع زهرة؛ أكثر الأشياء ريعاً، وأنماها وصلاً، وأمدّها سبباً، وأقواها أيداً، وأحلاها ذوقاً، وأدعمها ثباتاً، وأرساها ركناً، لا يدخل مستحقها سامة ملال، ولا كلال مهنة، ولا تثبيط ونية، ولا ضعف خور"^{١١١١}.

- وإذا كان المكان هو حلقة الوصل في سلسلة (الإخاء - الإنسان) فنجد الطريق يشكل حلقة وصل أخرى لا تقل أهمية عن الحلقة الأولى:

"وقد حددت لك - أي أخي - الإخاء متشعباً، ووصفته لك مخلصاً، وانتهيت بك إلى غاية أهل العقل منه وما تواصل أهل الرأي عليه، ودعا إليه الإخاء من نفسه منتطقاً به، ضامناً له، ما فرط في ذلك تقصير من أهله، وداخله تضييع من حملته، أو حاطه إحكام، وكنفه حفاظ من رعايته"^{١١١٢}.

فقد جسد الإخاء في طريق متشعب ثم إنسان يدعو لنفسه فكانت السلسلة كالتالي:

الإخاء ← طريق ← إنسان

¹¹⁰⁹ السابق ص ٢٧٦.

¹¹¹⁰ السابق ص ٢٧٧.

¹¹¹¹ السابق ص ٢٧٧.

¹¹¹² السابق ص ٢٧٧.

- وإذا تأملنا الجملة المعترض بها في النص السابق (أي أخي) وكأنه يوضح بها سبب كتابته لهذه الرسالة وهو إظهار مدى محبته لصديقه مستلم الرسالة الذي وصل معه لمرتبة الإخاء التي يتحدث عنها. وبالرجوع إلى السلسلتين إذا اعتبرنا أن الإخاء هو صديقه والطرف الآخر هو الكاتب تكون كالتالي:

الصديق ← بناء ← الكاتب

الصديق ← طريق ← الكاتب

وكأنه مرافق له في كل منزل أو مكان ينزل به الكاتب، أو في أي طريق يسير به، ومنهما معاً نستشف ضرورة ملازمة الأصدقاء لبعضهم البعض في كل حال من أحوال الدنيا وهو ما نفذه الكاتب عند هروبه مع مروان بن محمد والموت معه.

- وتتضح هذه الأخوة بين الكاتب وصديقه من قوله:

"عدل الولد في بره، والوالد في شفقتة، والأخ في نصرته، والجار في حفظه، والذخر في ملكه، فأين المعدل عن مثله؟ أو كيف الإصاية لشبيهه؟ أو أنى عوض من فقده؟ جمعنا الله وإياك على طاعته، وألفنا بمحابه، وجعل أخوتنا في ذاته" ^{١١١٣}.

- وقد يكون المكان والطريق واختيارهما لتجسيد الإخاء ناتج عن طبيعة حياة عبد الحميد و عمله وتقلبه الدائم مع مخدمه مروان، فكل ما يحيط به إما طريق مستخدم في الوصول لمكان، أو مكان يقيم به لفترة، ومن العجيب أن الكاتب لم يستطع أن يغفل الواقع من حوله المتمثل في الحرب والغزوات.

- وكأنها جزء من شخصيته - فنجدته يعتذر عن عدم التقنن والاسترسال في الحديث عن الإخاء لانشغاله بالأعداء والتفكير في مكيدتهم، والأعجب أنه لم يذكر خيانة الأصدقاء إلا بعد هذا الجزء من الرسالة.

"وافاني كتابك بما سألت من ذلك وعقلي محصور ورأيي منقسم، وذهنى فيما يتأهب به الأمير لقتال عدو الله من خزر الترك، واختلاف رسله إلى جبال اللان والطبران وما والاها بنوافذ أمره، ومخارج رأيه، فأنا مصيخ السمع للفظه، عقل العقل عن سوى أمره، محتضر الذهن في تدبيرهم، ذهل القلب عن تقنين القول وتشعيب الكلام في تصنيف طبقات الرجال، ومن أين دخل عليهم نقص الإخاء، وكيف خاتهم مونق الصفاء" ^{١١١٤}.

وباعتذار الكاتب عن استكمال الحديث - وكأنه يعطي صورة لنفسه كنموذج للإخاء مع مخدمه مروان - نجد تدعيماً لصورة الإخاء.

الطبيعة

أ- طغيان الفرات (صورة لغضب الطبيعة)

¹¹¹³ السابق ص ٢٧٧.

¹¹¹⁴ السابق ص ٢٧٨.

- بعث عبد الحميد برسالة وصف بها طغيان الفرات وآثاره المدمرة على الإنسان، وقد ساهمت الجملة الاسمية في رسم صورة لطغيان النهر.
- "وافى كتابك أمير المؤمنين، وموار الفرات يجيش بأرجائه، مطلقاً أمواجه، متزايلًا في حجراته، آذيه صخب وغطامطه لجب، وعلوه متوال يساور الجبال، ويدرك عتقل القلاع"¹¹¹⁵.
- وقد اعتمد عبد الحميد على الفعل - خاصة الماضي - الدال على الثبات في رسم الطريق الذي سلكه النهر مدمراً، وكأله وحش مرعب تتحدر كل الناس مبتعدة عنه، تاركة الغالي والرخيص. "قد أبار أبيات بني سعد، وكانوا حلولا بواهر العمرى، وصبح آل فلاق بذى الرمث، فطخطخ منازلهم، وأسأل عراصهم، إلا أنهم بذوا ببني سعد، فاجتاحت السدود أمواجه بهم، ولقد أتى على أموالهم السابحة، وخيامهم الزاهرة، وعقدهم النفيسة، ثم أخذ نحو الواذ الخرزج فحدرت من رعبه القبائل"¹¹¹⁶.
- ومن الواضح أن الكاتب يحمل أهل الفرات السبب فيما حدث من خراب، ولعله السبب في كتابة هذه الرسالة فكان من البدهي أن يبعث بالحلول أو المعدات أو الأفراد لمواجهة غضب الطبيعة ولكنه يبين فقط إشفاق أمير المؤمنين عليهم.
- "فهم كثرة جفاء في أودية كل تستن أمواجه متداركة، وتعتلج زوائده هائلة، لا يمر بقائم إلا هدمه لجبه، ولا يحل وادياً إلا أخرقه مسيله، ولا يتحدر منصباً إلا أبقي به أخافيق ومستن رقرق، فسكوره واهية، وبثوقه متداعية، قد أجفل أهل جنبتيه هرباً، وأمسكوا اللفاء بأيديهم عن معالجة سكوره، والإنفاق في مرمة بزندات لما رأوا من هائل مصبه، وإقبال تياره.
- وقد أصبح أمير المؤمنين مرتاعاً وجلاً لما أصبح بأهل حجرات الفرات"¹¹¹⁷.
- ونجد الكاتب يضع الإنسان في مواجهة غضب الطبيعة ويجعله غير كفاء أو ند للطبيعة المدمرة من حوله وخير مثال لذلك أن الأفعال التي اسندت للإنسان قليلة جداً بالمقارنة بتلك التي اسندت للوحش المرعب الممثل للطبيعة وبالرغم من قلة تلك الأفعال - المسندة للإنسان - إلا أن بعضها بُني للمجهول:
- فحدرت من رعبه القبائل / وأهلها بحيث المرسل عليهم سيل العرم.
- أما الفعل الذي لم يبنى فقد بين به الكاتب أن السبب في الخراب كان الإنسان لعدم مواجهته لغضب الطبيعة بل بخل في ترميم السدود. "قد أجفل أهل جنبتيه هرباً، وأمسكوا اللفاء بأيديهم عن معالجة سكوره، والإنفاق في مرمة بزندات لما رأوا من هائل مصبه، وإقبال تياره"¹¹¹⁸.
- وذلك يعكس تلك الصورة المرعبة لنهر الفرات وتقويتها عن طريق الجانب السلبي من الإنسان أمام طغيان النهر.

¹¹¹⁵ السابق ص ١٩٦.

¹¹¹⁶ السابق ص ١٩٦.

¹¹¹⁷ السابق ص ١٩٦.

¹¹¹⁸ السابق ص ١٩٦.

- وقد استعمل الكاتب الفعل المضارع كمساهم في تصوير حركة النهر وما دمره في طريقه.
- "لا يمر بقائم إلا هدمه لجبه، ولا يحل وادياً إلا أخرقه مسيله، ولا يتحدر منصباً إلا أبقى به أخقيق ومستن رقرق" ^{١١١٩}.
- ب- الحيوان (الصيد)
- قدم الكاتب وصفاً رائعاً لحياة الصيد والطبيعة حوله وتخلل ذلك صورة للحيوان.
- فنجده يرسم صورة جسدية للجوارح والضواري كتمهيد لمشاهد الصيد السريعة وصراع الضواري مع الطريدة.
- "واني أخبر أمير المؤمنين : أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء" ^{١١٢٠}.
- ولا ينسى الكاتب أخلاقها وما تعلمته وتدربت عليه. فهي "قد تُقفت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت، ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة من الشهيرة الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة" ^{١١٢١}.
- ومن الملفت للنظر أن الكاتب عندما ذكر تدريبها بنيت الأفعال للمجهول وكأنه تعظيم للمدربين، أو اعتراف بقدرة الله في تعليم الضواري والجوارح.
- أما الطريدة فلها صورة مغايرة عن الضواري والجوارح فهي تغيب عن النظر، دائمة الخوف والهروب من المجهول وتربص الصائدين وبالرغم من ذلك فهي تنعم بالطبيعة حولها.
- "فإذا نحن برعلة من ظباء، وخلفة آرام يرتعن أنسات، قد أحالتهن الضبابية عن شخصنا، وأذهلن أنيق الرياض عن استماع حسنا" ^{١١٢٢}.
- وفي مشهد الصيد نجد استعداد الضواري ثم المطاردة ولكنه يرسم صورة للضواري وكأنها تستطيع مقاومة الطبيعة نفسها وفض بكارتها، فهي أقوى وأسرع من الريح، وقد ساعد الفعل المضارع والمفعول المطلق في تدعيم ما نقول.
- "ثم مدت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاودها، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها تسف الأرض سقاً، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد" ^{١١٢٣}.

¹¹¹⁹ السابق ص ١٩٦.

¹¹²⁰ السابق ص ٢٦٨.

¹¹²¹ السابق ص ٢٦٩.

¹¹²² السابق ص ٢٦٩.

¹¹²³ السابق ص ٢٦٩.

- ولا يكاد يظهر دور الإنسان في مشاهد الصيد إلا لإعطاء الأوامر وحث الضواري على الصيد.
- "فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكض تحت مفرد، وخافق يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسائح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهاب"^{١١٢٤}.
- أما مشهد الصيد الآخر فقد اشتركت فيه الجوارح وحدها "وراعت الجوارح خفقات أجنحتها، ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفضن الظفر بها، حتى سنمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيج"^{١١٢٥}.
- وقد دعم الكاتب مشاهد الصيد تلك بصورة للطبيعة مظهرًا الألوان والأصوات المختلفة وكأن متعة الصيد لا تكتمل إلا بتلك الألوان البهية والأصوات الرخيمة فنجد لون أبيض شفاف للمطر، وأسود للغبار، وأخضر للرياض، أحمر للزهور والنضيج،
- ويظهر في بداية مقطوعة توضح هدوء الطبيعة.
- "فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرًا متداركًا، فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنايك ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسًا ولا مرموقًا أشبه شكلًا من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض. والخيال تمرح بنا نشاطًا، وتجذبنا أعنتها انبساطًا، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابية تقصر طرف الناظر، وتخفي سبل السلام، تغشانا تارة، وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمتة التراب، أشبه الأطراف مغدقة الفجاج، مملوءة صيدًا من الطباء والثعالب والأرانب"^{١١٢٦}.
- وعندما نتعرض لتلك الصورة نجد أن الكاتب قد أظهر اللون المتمثل في (المطر) والصوت في (متداركًا) مع توضيح سرعة المطر الذي نستشفه من المفعول المطلق ونعته. (وقد أمطرتنا السماء مطرًا متداركًا). وعبر أيضًا عن اللون القاتم وسكون الصوت في جملة بعدها (وسكن القتام من مثار السنايك).
- ومن الجملتين نجد أن الكاتب قد وضع المطر والقتام في صورة تقابلية فالأول يمتاز باللون الأبيض الشفاف، والصوت العالي السريع، والثاني يمتاز بلون يميل للأسود، ذات صوت ساكن. ومما سبق نجد أن المطر المتدارك تشابه في صفاته مع الجوارح والضواري، في مقابل القتام الساكن الذي تشابه مع الطريدة وسكونها

¹¹²⁴ السابق ص ٢٦٩.

¹¹²⁵ السابق ص ٢٧٠.

¹¹²⁶ السابق ص ٢٦٩.

عند الذبح، وكان الكاتب يوضح صورة أخرى سريعة للمطر وهو يطارد الغبار وينتصر عليه وكان الصيد سنة الحياة القائمة على الصراع.

- أما أدوات الصيد فلا يظهر منها شيء سوى (يطلبه الرمح) وكان الكاتب يعظم من دور الضواري والجوارح في الصيد مما يتطلب في الوقت نفسه تقليل من دور الإنسان في الصيد. فمشاهد الصيد تتضمن صيداً ناجحاً للضواري، وآخر للجوارح وختم كل مشهد بـ (الله المنعم الوهاب)، في مقابل مشهد فاشل للإنسان في صيد حمر الوحش انتهى بـ (فكان وكان). وكان الكاتب يؤمن بقاعدة (لا يفل الحديد إلا الحديد)، وهذا كله في النهاية يصب في تلك الصورة التي رسمها لحيوان الصيد الذي فاق الإنسان في ملاحقة الطريدة، وتشابه في صورته مع عناصر الطبيعة.

- من الثابت أن الكاتب نشأ وتولى عمله في ظروف تاريخية صعبة تملؤها الحروب والفتن والفتوحات فكان من الطبيعي أن ينشغل بال الكاتب بالحرب حتى في أسعد لحظات حياته (نعني الصيد) وشاهد ذلك.

"كأنا كتيبة ظفرت ببغيته، وسرية نصرت على عدوها"^{١١٢٧}.

الفتنة

تناول عبد الحميد الفتنة وآثارها على الأمة فوضعها في صورة متحركة ذات جوانب متعددة تشترك فيها امرأة لعوب، وناقاة أو حيوان مفترس ثم بحر له أمواج عاتية. وبالجمع بين ما سبق نجد صورة للفتنة وكأنها تشبه آلهة العالم القديم من امرأة تجمع بين العديد من الكائنات.

- ولما كانت الفتنة بدأت أو خرجت من خراسان وما يحيط بها، وهي التي عاشت حقاً من الأساطير وعبادة الآلهة انتهت بالدخول في الإسلام، نجد الكاتب - في رأينا - قد استثمر ذلك في تكوين صورة للفتنة.

"فإن الفتنة تستشرف بأهلها متشوفة بألق منظر وأزين ملبس، تجرر لهم أذيالها، وتعددهم تتابع لذاتها، حتى ترمي بهم في حومات أمواجه، مسلمة لهم، تعددهم الكذب، وتمنيهم الخدع، فإذا لزمهم عضاضها، ونفر بهم شماسها؛ تخلت عنهم خاذلة، وتبرأت منهم معرضة عنهم"^{١١٢٨}.

- وبالرغم من وجه الفتنة المرعب إلا أن الكاتب قد منعها من الظهور عندما وقعت في دائرة الدين والتمسك به.

- بالرغم من فعالية الفتنة - وكأنه السبيل الوحيد للخروج منها، ونفهم ذلك من بناء الفعل للمجهول في:

"قد سلبوا أجمل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم من الغنى البهي منظره، الجميل أثره"^{١١٢٩}.

- وتعود للظهور ليبين آثارها على أهلها.

¹¹²⁷ السابق ص ٢٦٩.

¹¹²⁸ السابق ص ٢١٣.

¹¹²⁹ السابق ص ٢١٣.

"حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم إلى الإيذاء في التعب وسوء المنقلب" ١١٣٠.

- ثم تقع الفتنة في صراع مع الطاعة
"فمن أثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولاته.
 - وتحرز بالدخول إلى مرضاته في الجماعة، تاركًا لأثقل الأمرين، وأوبل الحاليين" ١١٣١.
 - والمتأمل حركة الأفعال يجد أنها قد ساهمت في رسم صورة الفتنة فقد بدأت بستة ٦ أفعال مضارعة دلت على الاستمرار "تستشرف، تجرر، تعدهم، ترمي، تعدهم، تمنيه" ثم صيغة الماضي الدال على الثبات وعددهم أربعة أفعال "لزمهم، نفر، تخلت، تبرأت" ثم ختم بفعلين مبنيين للمجهول "سلبوا، استنزوا".
 - فالالتفات السابق من صيغة المضارع الدال على استمرار خداع الفتنة لأهلها بوسائل كثيرة نمت عنها كثرة هذه الأفعال المضارعة؛ إلى صيغة الماضي الدال على التحقق والثبات من موقف الفتنة من أهلها ألا وهو التبرؤ والتخلي عنهم دائمًا، أما الالتفات إلى صيغة المبني للمجهول الدال على عدم قدرة الفتنة - بالرغم من قوتها - على الظهور في مواجهة الدين والطاعة.
 - ومن ذلك كله نجد أن الالتفات قد ساهم في رسم الصورة الكلية للفتنة من كائن بشع يخدع ثم يتخلى ثم يختفي عند المواجهة.
- ### الأهواء والحكمة

وضع الكاتب الأهواء في صورة عدو - له طبيعة فاعلة - يتربص بولي العهد في كل أحواله.

"ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات، وخصم العقل. واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك" ١١٣٢.

ولما ذكرت الأهواء في رسالة الجند كانت أول الأعداء الذين تجب محاربتهم وكأنها شخص تصعب هزيمته لما يتلقاه من مساعدات من عدو أكبر هو إبليس.

"لأنها خدع إبليس، وخواتل مكره، ومصايد مكيدته فاحذر لها بجانباتها، وتوقها محترسًا منها، واستعذ بالله عز وجل من شرها، وجاهدها إذا تناصرت عليك" ١١٣٣.

ودليل تلقي المساعدة "خدع إبليس، تناصرت" فالأخيرة توحى بكثرة أنصار الأهواء.

- وعندما كانت نصائح الكاتب لولي العهد بمجاهدة الأهواء فإنه لم ينس أدوات حربه ضد هذا العدو وأنصاره وقد ساهمت تلك الأدوات في تعميق صورة الأهواء. "وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا

1130 السابق ص ٢١٣.

1131 السابق ص ٢١٣.

1132 السابق ص ٢١٩.

1133 السابق ص ٢١٩.

مثنوية لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاعة صارمة لا أناة معها ونية صحيحة لا خلجة شك فيها، فإن ذلك ظهري صدق لك على ردها عنك، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك. وهي واقية لك سخطه ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، ساترة عليك عيب من دونك فازدن بها متحلياً، وأصب بأخلاقك مواضعها" ١١٣٤.

وقوله

"ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقطعك دون الفكر" ١١٣٥.

- وما يعمق هذه الصورة أكثر هو ذكر أدوات العدو في حربه ضد ولي العهد.

"فلا يزدهينك إفراط عجب تستخفك روائعه ويستهويك منظره" ١١٣٦.

فهو حرب بين الأهواء وولي العهد ولكل طرف أدواته التي يحارب بها الطرف الآخر.

وقد دغم الكاتب تلك الحرب ببعض الصيغ الدالة على المفاعلة مثل مجاهدة، جاهدها، تناصرت.

ويتضح الطابع الديني في تلك الحرب وذلك ما نفهمه من معاونة إبليس للأهواء من جانب ولفظ الجهاد المطلوب من ولي العهد من جانب آخر. وكأن مجاهدة الأهواء شيء مقدس.

- ومن الملفت للنظر أن الكاتب قد استخدم ظاهرة بعينها وهي الالتفات في تعميق صورة الأهواء.

فكان الالتفات من صيغة المذكر إلى المؤنث وكأن الداء أعداء الكاتب ما كان مؤنثاً، وقد يكون ذلك لعدم ظهور الإناث بسهولة في أي صراع أو الاستهانة بهم مما يؤدي إلى انتصارهم على ولي العهد.

"تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات ... فاحذرهما مجانباً لهما، وتوقها محترساً منها" ١١٣٧.

- وعندما نخرج من صورة الأهواء المتمثلة في عدو خطير تجب محاربته نجد أن أهم الأدوات التي تجب الاستعانة بها هي الحكمة التي وقعت في صورة لا تنفصل عن الأهواء فيرسم الكاتب طريقاً صعباً للوصول للحكمة المتمثلة في نفيس بذروة جبل عال لا يستطيع أحد الوصول له.

"اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أمها سالكاً، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها، وأمن سرحها، وشرف عزها، وأنها لا تعار بسخف الخفة، ولا تنشأ بتفريط الغفلة، ولا يتعدى فيها بامرئ حدّه، وربما أظهرت بسطة الغي مستور العيب" ١١٣٨.

1134 السابق ص ٢١٩.

1135 السابق ص ٢١٩.

1136 السابق ص ٢١٧.

1137 السابق ص ٢١٩.

1138 السابق ص ٢١٧.

- ومنها نجد الحكمة وقد ساهمت في رسم صورة الأهواء السابقة كجزء مهم من أدوات القتال ضدها.
 - ولعل ما يثبت ذلك سهولة حصول ولي العهد على الحكمة بالرغم من وجودها بذروة جبل يصعب صعوده.
 - "وقد تلقى الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في إدراكها، ولا متناول لمنال ذروتها بل تأملت منها أكرم معانيها، واستخلصت منها أعتق جواهرها، ثم شمرت إلى لباب مصاصها، وأحرزت منفس ذخائرها. فافتعد ما أحرزت، ونافس فيما أصبت" ^{١١٣٩}.
 - ولعل المفاجأة في طريقة حصول ولي العهد على الحكمة وهي الانتقال من أصله الأموي الخالص عبر أمير المؤمنين قد ساهمت في رسم صورة الحكمة كأداة مهمة يجب نيلها أولاً أثناء حربه للأهواء.
- المرأة:**

- تناول عبد الحميد المرأة بوجهين متقابلين، فهي كائن مثالي يتمتع بصفات كثيرة جميلة، وتناول ذلك في شقين أولهما عن امرأة ولي العهد - عائشة ابنة هشام - التي رسم لها صورة مثالية فهي:
- "أنجب ولدًا، وأشد تحنًا وأولى بك... فإن في لطفها من محاذي البر، والزيادة في الصلة، والنماء في العدد، والرضى للرب، والجمال في الدنيا ما يرجع بك الرشاد إليه، غالبًا لك على الغواية المردية، والشين في الدنيا، مع الوتغ في الدين، واجتناء النذالة الموصولة بخمول الهمة، وضعة المنزلة لدى الجميع الذين هم لك أهل لوم على التقصير بعائشة ابنة هشام، التي محتدها شريف، فرعها فرعك، وأصلها أصلك" ^{١١٤٠}.
- ولهذا المخلوق المثالي تقدمه على أمير المؤمنين نفسه فـ "رضاها مما تستجر به رضى أمير المؤمنين عنك" و"مقرونا رضاها عنك برضاها إذا رضيت" ^{١١٤١}.
 - فلرضاها أهمية كبرى تظهر من تقدمه "رضاها" أولاً على رضا أمير المؤمنين نفسه.
 - وقد ساعد ذلك إحاطة "رضاها"، "رضيت" بـ "رضاي"، وكأن الأولى والأخيرة لهذا المخلوق المثالي.
 - ولا يستكف أمير المؤمنين أن يكون أداة في يد هذا المخلوق الحاكم برضاها على ولي العهد.
 - "فإن أنت غفلت أو أملت غفلتي عنها وعنك لم يأتك إلا نازل بك من غضبي عليك يسلب منك جميع ما في يديك بقولها، فتكون هي الحاكمة فيهن ما أحببت على كرهك برغمك أو برضاك" ^{١١٤٢}.

¹¹³⁹ السابق ص ٢١٨.

¹¹⁴⁰ السابق ص ١٩٣.

¹¹⁴¹ السابق ص ١٩٤.

¹¹⁴² السابق ص ١٩٤.

أما الشق الثاني لذلك المخلوق المثالي فلجارية يطلبها أمير المؤمنين من أحد عماله تحوي العديد من الصفات الخلقية التي لا تنطبق على امرأة واحدة إلا نادرًا.

"فابتع لأمر المؤمنين جارية منبتها في أهل بيت صدق من العرب، قد نجع فيها أدبهم، ونالها حسن هديهم، تقعدا الرزانة، ويسكنها الحلم"^{١١٤٣}.

وتظهر عظمة الجارية من التكرير والإفراد.

- ويمتد بعد ذلك إلى الصفات الجسمانية التي لا تنطبق على امرأة واحدة إلا نادرًا أيضًا.

"إن نهضت أثقلتها أردافها، وإن تكلمت تآقت إليها قلوب السامعين، منطقتها رخيم، واسعة الصدر دقيقة الخصر، قامتها مديدة، وأطرافها سباط، فرعها جثل أصله، متدل فرعها، قد جلل ظهرها كثرتة حتى ستر بسواده مشتمل القلب، حسنة الثغر، لمياء الشفة، وطفاء الأشفار، جهمة المستقبل، فعمة المستدبر، تنوء بعجزتها مقبلة ومديرة، خدلة الساق، ضخمة الركبة، بلجاء ما بين العينين، بعيدة ما بين المنكبين، مضحكها أنيق، وخلقها وثيق، تخلط الجد بالخنث في الكلام، معرفة الأبوين، طويلة الخدين"^{١١٤٤}.

- وبعد ذلك نجد أن تلك الجارية بوصفها السابق تكون مؤهلة أن تكون زوج لأمير المؤمنين.

"... قد كتبت ما يقرأ، وقرأت ما يكتب، تشد من الشعر بعضه، وتقوم من خدمة أمير المؤمنين بما يحتاج إليه منها، إن طاب ولدها؛ كانت من أمهات أولاد الخلافة"^{١١٤٥}.

- أما الوجه الآخر للمرأة الذي يقابل ما سلف فهي مخلوق ضعيف يتحكم به الشيطان والأهواء ويجب الاحتراس منه.

"وهن النساء ورقتهن، وضعف نحائزهن، وقلة صبرهن وشدة غلبة الشيطان عليهن، ثم هن بعد ذلك معوجات يميل بهن بعض نقص الآراء، وسوء المداراة، ودهى العقول"^{١١٤٦}.

وقوله:

"وإن تخسرت نعمة راجعة؛ لم تنزع بهن عروق في صالح وراثة يسكن إليه ولد، وينزل به أحد"^{١١٤٧}.

- ويظهر الصراع بين النموذجين

"غالبية عليك أو ذاهبة بك من علج إماء غير مأمولات ولا مأمونات، قد ولدتهن أمهات غير منجبات ولا مسلمات، فإن أدّين ما استودعن؛ نزع بهن سوء مشابهة الخؤولة وفسولة الأصول"^{١١٤٨}.

¹¹⁴³ السابق ص ١٩٧.

¹¹⁴⁴ السابق ص ١٩٧.

¹¹⁴⁵ السابق ص ١٩٨.

¹¹⁴⁶ السابق ص ١٩٣.

¹¹⁴⁷ السابق ص ١٩٣.

فبالرغم من طول ذكر النموذج الثاني للمرأة – الضعيف – إلا أن صيغة الفاعل للنموذج الأول – المثالي – غالبية أو ذاهبية قد رجح هذا النموذج في مقابل صيغة المفعول للنموذج الثاني المرفوض "علج إماء غير مأمولات ولا مأمونات".

– فللمرأة صورتان

– الأولى – وجه مثالي فاعل – غالبية ، ذاهبية

– الثانية – وجه شيطاني مفعول – مأمولات، مأمونات

وما نستشفه من ذلك تعظيم الوجه المثالي للمرأة من خلال بيان ندرته وذلك من أفراد "غالبية" في مقابل جمع مأمولات الذي يدل على قلة من تحمل هذا الوجه المثالي في مقابل كثرة الجواري اللواتي ليس لهن نفع.

الحرب:

نظرًا للظروف التي عاشها عبد الحميد في تلك الفترة الفاصلة بين الحكم الأموي والعباسي للمسلمين، وما شاب تلك الفترة من حروب متمثلة في فتوحات إسلامية لأرض العجم، أو الحروب التي أثارها الفتن بين جمع المسلمين، والطمع في الخلافة. فلذلك نجد الحرب قد استهلكت الجزء الأكبر من أدب عبد الحميد ورسائله.

فللحرب صورة تتكون من عدة أجزاء كلها يمثل وجهًا قبيحًا لا يستطيع الكاتب أو غيره قبوله.

فهي نار مشتعلة ومعترك للموت:

"واستتزال طاعة ذوي الصدوف بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومنازلة الفرسان في معترك الموت"^{١١٤٩}.

أو شراب مرّ، وناقاة تدرّ لبناً غير مستساغ، وتحملهم في طرق وعرة.
"فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالاً ذوي نجدة وبأس وصرامة وخبرة، حماة كفاة، قد صلوا الحرب، وتذاوقوا سجالها، وشربوا من مرارة كووسها، وتجرعوا غصص درّتها، وزبنتهم بتكرارها، وحملتهم على أصعب مراكبها وذلتهم بثقاف أودها"^{١١٥٠}.

أو جانب مدمر من جوانب الطبيعة

"والله لكائي أنظر إلى شؤبوبها وقد همع، وإلى عارضها وقد لمع، وإلى الوعيد قد أورى نارا، فأقلع عن رؤوس بلا غلاصم، ومعاصم بلا براجم"^{١١٥١}.

أو أم تغذي ابنها الجندي وترضعه

"قد رئم الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها، ويأنس بقربها، فهو بطلبها أرب، وعلى أهلها حرب"^{١١٥٢}.

¹¹⁴⁸ السابق ص ١٩٣.

¹¹⁴⁹ السابق ص ٢٣٧.

¹¹⁵⁰ السابق ص ٢٤٦.

¹¹⁵¹ السابق ص ٢٩٣.

¹¹⁵² السابق ص ٢١٤.

- ومن الجوانب المهمة في الحرب الفارس وصورته التي ظهر بها في أدب عبد الحميد

فصورة الفارس متعددة الجوانب لا تليق إلا بجندي من جند أمير المؤمنين وولي عهده، ويكون الفارس الأداة المثلى في هزيمة العدو فهو وحش آدمي يُرهب الكاتب به الأعداء.

"بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال، رجال هم الرجال، بين راح وناشب"^{١١٥٣}.

فلا يترك الكاتب جانباً من الحياة حتى يغذي به صورة ذلك الفارس الذي يهابه الأعداء ويتمثل مرة بالأسد ثم الفهد أو بإنسان متوحش، ولكنه ذات الوقت يحمل صفات كريمة فهم "ليس معهم إلا كلب محارب، لا يهابون الضراب، ولا ينكلون عن الأصحاب"^{١١٥٤}.

- وقد تداخلت صورة الحرب مع الفارس فهي أمه وهو ابنها.

- وقد ساعدت بعض المحسنات والصيغ النحوية في رسم هذه الصورة.

"قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكرّ والإقدام، ليسوا بذوي هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزخوف، في أعنتهم الحتوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاك محتك في الحرب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء"^{١١٥٥}.

- وعندما نتأمل قوله (يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود). نجد أنه

قد جعل الفارس وحش له صوت الأسد ووثبة الفهد والغرض كله وراء ذلك هو نشر الرعب في قلوب الأعداء.

- وفي المقابل نجد استهانة الكاتب بجنود العدو وكأنها حرب كلامية وليست قتالية.

"لا يروعه ما يروع الهدان، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان حين يشتد الوغى، وتخطر الفتا، وتقلص الشفاه، وتسفر الكماة فعند ذلك تسلمك المرد، وتكشف عن الجرد، فتأهب لذلك أهبتك، واخطب له خطبتك، من المساكين والحوكة ثم كيدوني جميعاً فلا تنتظرون"^{١١٥٦}.

- ولعل تلك الاستهانة من الكاتب بجنود العدو من احتكاك بالتاريخ العربي القديم وتحديداً ما قبل الإسلام من أبيات الرجز والشعر التي كان يتناولها الفرسان قبل الاحتراب لتفتيت عضد الضعفاء في الحرب فيكون النصر محالفاً للأقوى شعراً وصياغة.

¹¹⁵³ السابق ص ٢١٤.

¹¹⁵⁴ السابق ص ٢١٤.

¹¹⁵⁵ السابق ص ٢١٤.

¹¹⁵⁶ السابق ص ٢١٤.

- وقد اختلفت مهمة الفارس من جند وقواد وولاة ، فوالى الشرطة "قول شرطتك وأمر عسكري أوثق قوادك عندك، وأمنهم نصيحة، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفاً، وأجزأهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على جماعتهم رأفة، وأحسنهم لهم نظراً وأشدهم في دين الله وحقه صلابة" ١١٥٧.
- ففارس الكاتب يجمع العديد من الصفات المتداخلة، القوة بجانب الرأفة، والصرامة بجانب اللين ولا يكتفي بذلك ولكن الخبرة والذكاء أهم ما يميزه. "وليكن عالماً بمراكز الجنود، بصيراً بتقدم المنازل، مجرباً ذا رأي وتجربة، وحزم في المكيدة، له نباهة في الذكر وصيت في الولاية، معروف البيت، مشهور الحسب" ١١٥٨.
- ولا يختلف قائد الطلائع كثيراً عن والى الشرطة فهو يجمع العديد من الصفات المتداخلة أيضاً، وكأن الكاتب يصور أشخاص تعلو فوق البشر. "ثم انتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبيه الذكر، له في العدو وقعات معروفة، وأيام طوال، وصولات متقدمات، قد عرفت نكايته، وحذرت شوكتة، وهيب صوته، وتكب لقاؤه، أمين السريرة، ناصح الجيب، قد بلوت منه ما يسكنك إلى ناحيته من لين الطاعة، وخالص المودة ونكاية الصرامة، وغلوب الشهامة، واستجماع القوة وحصافة التدبير" ١١٥٩.
- أما قائد الدراجة فلا يختلف كثيراً عن سبقة "ول دراجة عسكري، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجلاً من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروف النجدة، ذا سن وتجربة، لين الطاعة، قديم النصيحة، مأمون السريرة، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه" ١١٦٠.
- أما الفرسان فهم صفوة تحارب في وضح النهار وبهمة الليل ذوي خبرة حربية لا يستهان بها. "ليكن أول ما تتقدم في التهيؤ لعدوك، والاستعداد للقائه انتخابك من فرسان عسكري، وحماة جندك.
- ذوي البأس والحنكة والجلد والصرامة ممن قد اعتاد طراد الكمأة، وكشر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساق في منازلة الأقران، ثقف الفروسية، مستجمع القوة، مستحصد المريرة، صبوراً على أهوال الليل عارفاً بمناهل الفرص، لم تمهنه الحنكة ضعفاً، ولا بلغت به السن كلالاً، ولا أسكرته غرة الحداثة جهلاً ولا أبطرتة نجدة الأغمار صلقاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مقدماً على ادراع الموت، مكابراً لمرهوب الهول، متقهماً مخشي الحتوف، خائضاً غمرات

1157 السابق ص ٢٤٣.

1158 السابق ص ٢٤٣.

1159 السابق ص ٢٤٨.

1160 السابق ص ٢٤٩.

المهالك برأي يؤيده الحزم، ونية لا يخالجها الشك، وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة، عارفين بفضل الطاعة وعزّها وشرفها^{١١٦١}.

- وإن كان فارس عبد الحميد يتعدى حدود البشر ويتمتع بصفات جسمانية وخلقية قلما وجدت في فارس آخر فكان من الطبيعي أن تكون أدوات قتال هذا الفارس مناسبة له ومثالية لأبعد درجة.

"وخذهم من السلاح بأبدان الدروع، ماذية الحديد، شاغة النسيج، متقاربة الحلق، متلاحمة المسامير، وأسوق الحديد مموهة الركب، محكمة الطبع، خفيفة الصوغ وسواعد طبعها هندي، وصوغها فارسي، رقاق المعاطف بأكف واقية وعمل محكم، ويلمق البيض مذهبة ومجردة، فارسية الصوغ، خالصة الجوهر، سابغة الملبس، واقية الجنن، مستديرة الطبع، مبهمة السرد، واقية الوزن، كترك النعام في الصنعة واستدارة التعقيب^{١١٦٢}.

- ولأهمية تلك الأدوات لا يمر ولي العهد على فرسانه لتفقدهم إلا ويتفقد آلاتهم الحربية.

"ثم اعرضهم رأي عين على كراعهم وأسلحتهم، ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيول، وأسلحتهم سوابغ الدروع، وكمال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجواهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس: هندية الحديد، يمانية الطبع، رقاق المضارب، مسمومة الشد، مشطبة الضريبة، ملبدن بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلمة المقابض بحلق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومخارزها بالتجليد مضاعفة ومحملها مستخف، وكنائن النبل وجعاب القسي قد استحقبوها، وقسي الشريان والنبع أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، محكمة العمل، مقومة التثقيف، ونصول النبل مسمومة، وعملها مصيصي وتركيبها عراقي، وترييشها بدوي، مختلفة الصوغ في الطبع، شتى الأعمال في التشطيب...^{١١٦٣} الخ.

¹¹⁶¹ السابق ص ٢٦٠.

¹¹⁶² السابق ص ٢٤٦.

¹¹⁶³ السابق ص ٢٦٠.

ملخص الرسالة

تهدف هذه الدراسة إلى رصد الظواهر الأسلوبية في نثر عبد الحميد الكاتب التي تميز أسلوبه عن غيره من الكتاب، ليس هذا فحسب بل أيضاً الظواهر الأسلوبية للرسائل الديوانية في العصر الأموي و كان عبد الحميد من وقع عليه الاختيار لتحديد هذه الظواهر. وقد تمت الدراسة عن طريق تصور مستويات للأسلوب حددها أساتذتنا وهي المستوى الصوتي و المستوى التركيبي و المستوى التصويري و علاقة هذه المستويات بالمستوى الدلالي. وقد قسّمت الدراسة علي هذه المستويات فكانت الدراسة ثلاثة أبواب يسبقها مقدمة و تمهيد و يعقبها خاتمة وثبتت بالمصادر و المراجع.

ألقت المقدمة الضوء علي موضوع الدراسة و الدافع من وراء اختيار نثر عبد الحميد و بعض ما يميّز الرسائل الديوانية في عصره.

أما التمهيد فألقي الضوء علي الكاتب و ثقافته و عصره ثم المنهج و أدواته و يختم بالدراسات السابقة القديمة و الحديثة لعبد الحميد و نثره التي أفاد منها البحث.

أما أبواب الدراسة فقد بدأت بالمستوى الصوتي الذي قسّم إلي فصلين أولها الصوت المفرد الذي عالج ثلاثة أمور بدأت باتجاهات التشكيل الموسيقي بالأصوات المفردة فضم ظواهر التقابل الصوتي، تنافر الأصوات وتجانسها، الحركات الطويلة ومدى ارتباط هذه الظواهر بالدلالة في نثر عبد الحميد، فجاءت الظاهرة الأولى –التقابل الصوتي- مصاحبة لبعض السياقات مثل الضيق و الحزن النابعين من الغربة أو الهروب و اقترن في غالبه بدلالة التوكيد خاصة في سياق النصح الحربي لولي العهد.

أما الظاهرة الثانية – تنافر الأصوات و تجانسها- فكانت من الظواهر الصوتية التي حقق بها الكاتب خلا في توازن الفواصل ليلفت انتباه المتلقي إلى الدلالة و يحقق بها أكبر قدر من التوكيد فكان التنافر عن طريق حشد المهموسات لتقترن بدلالات الضعف من ناحية، أو الكثرة من ناحية أخرى ،و تعود الكاتب أن يقحم معها بعض الأصوات المجهورة كالضاد و الجيم ليضفي دلالة التهويل و الشدة علي السياق ، كسياقات الرثاء و الحوادث العامة التي أثرت في حياة الناس كالفتنة و طغيان النهر، وقد حشد الأصوات المجهورة لتحقيق الوضوح المؤدي إلى توكيد الدلالة لضمان أعلى درجة استجابة من المتلقي للأوامر الموجهة له من الكاتب و تركّزت تلك الظاهرة أيما تركيز في رسالة الجند الموجهة لولي العهد.

أما أصوات الصفير و الحلق فقد اقترنت بسياقات التحذير و التنبيه أو تصوير شدة المعركة و هولها ، ومن الظواهر المهمة التي رصدناها ما أسميناه بمتناظرات الموقع التي كان لها أيما تأثير في رسائل الكاتب كالربط بين الفواصل وتنظيم الإيقاع مع ارتباطها ببعض الدلالات كالتوكيد خاصة في سياق النص و الإرشاد ليس هذا فحسب ،بل ارتبطت بالمفردات النحوية و الصرفية للربط الصوتي بين المفردات و الفواصل و تحقيق أعلى تأثير علي المتلقي ليتنبه للدلالة.فتميز الكاتب بهذه الظاهرة و بهذا الاستعمال الجيد للأدوات الصوتية المفردة للتحقق من مقولة الأقدمين بأن الكتابة بدأت بعبد الحميد.

وآخر تلك الظواهر –الحركات الطويلة – فكانت بمثابة المنظم لسرعة إيقاع الفواصل أو بطنها علاوة علي ارتباطها ببعض السياقات لإنتاج دلالات يعمد إليها الكاتب ، وقد اختص الكاتب ألف المد من الحركات الطويلة دون غيرها من الحركات فاقترنت بسياقات الفتنة و المصائب و الغربة مضفية دلالات التوكيد و الاتساع، علاوة علي لفت انتباه المتلقي لخطوط الصياغة عن طريق البطء الإيقاعي الذي أحدثته خاصة في رسالة الصيد و رسالة الجند كما انتشرت الحركات الطويلة عموماً في مفتتح رسائله.

و كان للكاتب أسلوبه الخاص في الموازنة بين المتناقضات في رسائله أو المقارنة بين الأشياء و المواقف عن طريق الحركات الطويلة فأوردها في مواقف ولم يوردها في أخرى في سياق واحد لتكون جزءاً من البنية التقابلية للسياق كسياق الضيق من الغربة و الراحة في الوطن، ومن أبرز تلك السياقات تلك التي وضع فيها الدنيا في قالبين متقابلين ساهمت الحركات الطويلة في رسمها، وقد مثلت مع بعض البنى النحوية كالشرط ومع بعض البنى البلاغية كالتشبيه والاستعارة قمة البنية التقابلية في نثر عبد الحميد .

أما الأمر الثاني في الصوت المفرد فعالج تكرار الصوت و تشكيل الدلالة ، وكان له مظهران: الأول تكرار الصوت في مفردات مرتبطة نحويًا ، و الثاني في مفردات غير مرتبطة نحويًا و كان لتكرار الصوت المفرد في نثر عبد الحميد نهجاً كان يهدف إليه بإحداث جرس موسيقي يزين النص من ناحية و يلفت انتباه المتلقي للدلالة من ناحية أخرى ، و ارتبط بدلالة التوكيد في بعض السياقات و كانت العلاقة بين تكرار الصوت في المفردات المرتبطة نحويًا و بين تماسك النص علاقة قوية إذ زاد الترابط بين المفردات عن طريق تكرار الأصوات فجاء تكرار الصوت المفرد في مكونات الجملة الاسمية و الفعلية و تركز بعض الشيء بين المتعاطفات الكثيرة و مكونات جملة الشرط و النعت ذي المنعوتات المتعددة ليقيم بينها أكبر قدر من الترابط -نحوي و صوتي - يصبغ النص بالتماسك و الترابط.

و جاء تكرار الصوت المفرد بين المفردات غير المتصلة نحويًا ليلفت المتلقي بتكراره و جرسه الموسيقي النابع من التكرار إلى الصلات الدلالية بين المفردات كالعلاقة السببية التي تسهل على المتلقي استخراجها عن طريق تكرار الصوت بجانب تقوية تلك العلاقة و تأكيدها.

أما الأمر الثالث في الصوت المفرد فعالج الدلالة الذاتية لبعض الأصوات المفردة و علاقتها بالدلالة في النص ، وقد استخدم الكاتب أصوات بعينها لتصبغ السياق الواردة فيه خاصة بتكرارها فيه بدلالاتها الذاتية فوجدنا الأصوات المطبقة

مرتبطة بدلالات القوة و التهويل و التعظيم ، و الأصوات الحلقية بدلالات القوة و الشدة ، وصوت الجيم الذي ارتبط بدلالة الشدة و الغظة ، أما صوت الشين فجاء مرتبطاً بدلالات الإحاطة بالمتلقي و الاستعلاء و السيطرة و الانتشار ، وجاء صوت الراء مرتبطاً بالخبرة عموماً كالخبرة الحربية و السياسية و الاجتماعية، وأخيراً صوت الزاي الذي ارتبط في نثر عبد الحميد بالإنداز بالخطر.

هذا وقد جمع الكاتب بين هذه الأصوات في سياقات دون غيرها لتضفي بتجمعها في السياق صورة كلية ممتدة يقوم كل صوت بدور جزئي في إنتاجها وتلك السياقات هي الغربة ، والعتاب ، ووصف الصيد.

أما الفصل الثاني في الباب الأول فقد تناول بعض ظواهر البديع الصوتي فدرس من ظواهر البديع الصوتي المشكلة للإيقاع داخل الفواصل الجناس، و المشكلة لإيقاع الفواصل السجع و الترصيع والموازنة و المماثلة، فجمع هذا الفصل بين البديع الصوتي النابع عن الصوت المتكرر كالجناس و السجع و الترصيع ، والبديع الصوتي النابع عن الصيغة الصرفية المتكررة كالموازنة و المماثلة ، أما الجناس فقد درس بأشكال خمس جاء فيها مشكلاً للإيقاع بين الفواصل و داخلها ، كان الشكل الأول بين مفردتين متجاورتين دون فاصل داخل فاصلة واحدة و عمد به الكاتب إلى التكتيف الصوتي الذي يلفت انتباه المتلقي إلى الدلالة . و قد لاحظنا ورود هذا الشكل في عمومه مقوياً للبنية التقابلية بين المتجانسين المتجاورين بهدف إضفاء حيوية علي عملية التلقي ، تلك الحيوية التي نبعت من المفارقة التي نتجت عن التشابه الصوتي للجناس و التقابل الدلالي بين المتجانسين .

أما الشكل الثاني فورد بين مفردتين بينهما فاصل قصير غالباً ما كان الواو العاطفة أو حرف من حروف الجر فأدت الواو دور الجامع بين متشابهين صوتياً و متقابلين دلاليًا فأضفت حيوية في عملية تلقي النص.

أما الأشكال الباقية فكانت بين مفردتين متناظرتين أول كل فاصلة أو وسط كل فاصلة أو آخر كل فاصلة فجاء الجناس- فضلا عن كونه رابطًا صوتيًا بين الفواصل- لتحقيق التماسك في النص في هذه الأشكال مرتبطًا بسياقات بعينها مثل سياق النصائح خاصة الحربية ، وسياق التهديد ليجمع ويربط بين أكبر قدر من النصائح أو أكبر قدر من العبارات المهددة للمتلقي أو بمعنى آخر للتأثير على المتلقي بقبول النصائح مجموعة في السياق ، وتكثيف التهديد في السياق الثاني .

و قد وردت الأشكال الخمس لتكشف عن بعض العلاقات الدلالية مثل السببية بين المتجانسين للفت انتباه المتلقي إليها ، كما حققت الأشكال الثلاث الأخيرة ارتدادًا أفقيًا يجعل المتلقي في حالة يقظة دائمة لخطوط الصياغة.

أما السجع فلم يحفل به الكاتب كثيرًا عكس ما نجده عند غيره من الأدباء من معاصريه ، وكان من أروع ما كتبه عبد الحميد رسالة لأحد الخارجين علي الدولة التزم فيها السجع وكانت بغرض التهديد .و قد درسنا السجع من حيث الشكل ،ومن حيث الصوت الذي انطوي عليه من حيث الجهر و الهمس و الشدة و الرخاوة ، وأخيرًا من حيث الإطلاق والتقييد و ارتباط ذلك كله بالدلالة في نثر عبد الحميد.

كان عدد الفواصل المسجوعة في نثر عبد الحميد تسع وعشرين و سبعمائة كلها من السجع القصير ،شكّل المتوازي منها ما يقارب ثلاثة الأرباع في مقابل الربع للسجع غير المتوازي و هو ما يكشف عن ميل الكاتب إلي النظام و الترتيب فجاء مقترنًا بالتوازن و التناسق الدلالي بين المفردات و الفواصل.

أما الأصوات المنطوي عليها السجع فجاءت المجهورة مقاربةً لثلاثي الأصوات في مقابل الثلث للأصوات المهموسة المنطوي عليها السجع ، وقد ورد صوت الميم وحده بنسبة تقارب الثلث يليه أصوات النون فالباء فاللام فالراء فالدال ،فشكلت ما يقارب تسعة أعشار الأصوات المجهورة ،وقد لاحظنا أنها تنتمي إلي

المخارج الأمامية وقد انطوي عليها سجع الفواصل في الرسالة التي وجهها إلى أحد الخارجين السالف ذكرها، فأضفت وضوحاً سمعياً رفع من نبرة التهديد في هذه الرسالة علاوة على تحقيق الوضوح السمعي في باقي نثر عبد الحميد الذي انطوي السجع فيه على الأصوات المجهورة و كان هذا الوضوح عاكساً لوضوح دلالي ضمن به الكاتب استيعاب المتلقي لفحوى الرسالة، وإن كان الوضوح الدلالي سمة عامة في الرسائل الديوانية، وفي نثر عبد الحميد بصفة خاصة لتحقيق أكبر قدر من استيعاب المتلقي لفحوى الرسالة.

أما الأصوات المهموسة التي انطوي عليها سجع الفواصل و تمثل الثلث المتبقي فقد احتل صوت الكاف وحده نصف تلك الأصوات و ارتبطت هذه الأصوات المنطوي عليها السجع ببعض السياقات دون غيرها مثل وصف الحرب و ضيق الحال و الشدة

و من حيث الشدة و الرخاوة فكانت الأصوات الشديدة المنطوي عليها السجع تقارب الأصوات المتوسطة بين الشدة و الرخاوة بنسبة كلية لهما معاً تزيد على تسعة أعشار الأصوات المنطوي عليها السجع من حيث الشدة و الرخاوة في مقابل الأصوات الرخوة التي تقل عن جزء واحد من عشرة .

وارتبطت الأصوات الشديدة المنطوي عليها سجع الفواصل بدلالات القوة والشدة خاصة في سياقات الحرب ، أما الرخوة على قلتها فارتبطت بدلالات الانكسار و الاندحار و الشؤم.

أما المتوسطة فقد ارتبطت بدلالة الوضوح لانتمائها للأصوات المجهورة السالف ذكرها .

أما السجع من حيث إطلاق أو تقييد الأصوات المنطوي عليها فكان ميل الكاتب إلى الأصوات المقيدة التي قاربت الثلثين في مقابل الثلث للأصوات المطلقة ،

وقد ارتبط السجع المقيد بدلالات الأحكام و النظام و التناسب .أما المطلق فقد ارتبط بالاتساع و الامتداد.

أما الجنس الثالث من ظواهر البديع الصوتي فكان الترصيع الذي لم يأت إلا في موضع واحد في نثر عبد الحميد مغذياً بنية تقابلية أضفت الحيوية علي عملية التلقي تشبه التوظيف ذاته للتقابل الصوتي في الصوت المفرد.

أما الجنس الرابع من ظواهر البديع الصوتي فكان الموازنة و جاءت محققةً للتناسق و النظام بين الفواصل لتحث جرساً موسيقياً لافتاً للانتباه إلي الدلالة عن طريق تكرار الصيغ الصرفية ، وقد استخدم عبد الحميد صيغاً بعينها لتحقيق الموازنة بين فاصلتين أو أكثر و كانت تلك الصيغ فَعْل، فاعل و فاعلة، ومفعول، وفَعُول، ومفاعل .

واقترنت الموازنة في نثر عبد الحميد بالوصف فجاءت في السياقات التي وصفت فرسان الدولة ،وصفات القواد الواجب اختيارهم علي أساس صفاتهم ، ووصف حيوانات الصيد ، ووصف مفردات الطبيعة من خلال الصيد .

وجاء اقتران الموازنة بالصفات لإضفاء التناسق أو الترتيب أو التقسيم علي تلك الصفات،وقد وزن الكاتب أيضا بين الماديات و المعنويات خاصة في رسالته في الغربة .

أما الجنس الخامس من ظواهر البديع الصوتي فكان المماثلة التي اقترنت بالوصف أيضاً لتضفي عليه تناسقا فجاءت في سياقات وصف غير تلك التي جاءت في الموازنة مثل سياقات وصف جارية ليضفي تناسقا علي أعضائها ، ووصف الصيد و حيواناته ليضفي تناسقا علي أعضاء حيوانات الصيد و تناغما بين مفردات الطبيعة ، ووصف النظام مثل نظام الفتنة في خداع الناس أو نظام العمل أو النظام الذي ينتهجه الخارجون لمناهضة الدولة وقد خُتم بالمماثلة الباب الأول.

أما الباب الثاني فكان بعنوان المستوي التركيبي، درس الحركات التركيبية الناشئة عن عدول الكاتب عن استعمال بعض التراكيب إلى تراكيب أخرى ترتبط بالدلالة في نشره ارتباطاً وثيقاً، فتم دراسة العطف، و الشرط، والتركيب الوصفي من قوالب التركيب في فصله الأول، والتقديم والتأخير، والحذف و الذكر، وأخيراً الالتفات من ظواهر العدول في فصله الثاني.

أما العطف فقد درس من زاويتين، الزاوية الأولى العطف المؤدي إلى حركة بسيطة، والثانية العطف المؤدي إلى حركة مركبة، خرجنا في دراسة العطف حسب الزاوية الأولى بعدة نتائج هي اقتران العطف بدلالات بعينها مثل تأكيد المعنى القائم بين المتعاطفين كتأكيد التلازم و الترابط بينهما، وتأكيد علاقة التقابل الدلالي، وتأكيد العلاقة المنطقية القائمة بينهما كالسببية، وكان في مجمله أحد وسائل الكاتب لتحقيق التماسك و الترابط داخل النص .

كما ارتبط العطف ببعض البنى كالتفصيل خاصة في سياقات النص واختيار الفرسان و القادة، كما نوع الكاتب من أدوات العطف في السياق الواحد لتحقيق الامتداد خاصة ببعض الصيغ الصرفية كأفعل التفضيل و إضفاء تنوع دلالي في السياق كما ارتبط هذا النوع من العطف بالتصوير ارتباطاً وثيقاً فقد استخدمه الكاتب للتركيز على أحد جوانب الصورة بغرض لفت انتباه المتلقي إلى الدلالة.

كما اقترن العطف خاصة بالواو ببعض الأدوات التصويرية كالتشبيه، و الاستعارة مع بعض الأدوات الصوتية كالسجع و الجناس لتحقيق أكبر قدر من التأثير على المتلقي عن طريق الصوت و الصورة و التركيب، وقد اجتمع ذلك كله في أحد أهم رسائله في تهديد أحد الخارجين على الدولة قبل القتال للنيل من ثقته في نفسه و في جنوده، وتكرر ذلك في سياقات أخرى مثل العتاب و النصائح – خاصة الموجهة لولي العهد- و كان العطف مساهماً كبيراً في إحكام الصورة.

أما العطف حسب الزاوية الثانية فقد دُرس من حيث كثرة المعطوفات ، و كثرة المعطوفات مع تنوع العاطف ، واتساع مدي المعطوف ، واتساع مدي المعطوف عليه ، وأخيراً وجود كل ما سبق في سياق واحد. ، وقد خرجنا بأن الكاتب يلجأ إلى كثرة المعطوفات لمعطوف واحد لتحقيق الامتداد بالصياغة لإظهار جوانب مختلفة من المعني وإضافتها إلى المعني الأصلي خاصة في الرسائل التي تناولت الفتنة فأوضحت مساوئها وآثارها على الدولة من عدة جوانب اقتصادية و سياسية و اجتماعية و دينية إلى حد جعل الكاتب يستخدم الواو لعطف ثلاث و عشرين جملة في سياق واحد في تشابه تركيبى و تنوع دلالي.

و جاءت كثرة المعطوفات متضمنة أيضاً لتكرار بعض الصيغ و القوالب الصرفية و النحوية كصيغ اسم الفاعل و اسم المفعول وأفعال التفضيل و المصدر ، الفعل الماضي و المضارع و الأمر ، لكن بإضافة العديد من الدلالات وليس تكرارها مع التنظيم الإيقاعي باتحاد الصيغ الصرفية و تنوع مدلولاتها بهدف تحقيق حيوية في عملية تلقي النص .

و قد ساهمت الواو بقدر كبير في وضوح الدلالة عن طريق التفصيل خاصة مع كثرة المعطوفات ، وكان هذا الوضوح مرتبطاً بسياق النصائح لإقناع المتلقي بصحة نصائحه خاصة تلك الموجهة لولي العهد في رسالة الجند. و من النتائج المهمة التي توصلنا إليها أن كثرة المعطوفات و هذا الامتداد في النص ليس اعتباطياً ، بل موظفاً توظيفاً دلاليًا لخدمة النص بجانب التوظيف الصوتي للصيغ الصرفية وخير دليل على ذلك ما رصدناه من محذوفات كثيرة في سياق واحد تضمن ثلاث وعشرين جملة عطف على جملة واحدة ، وقد ساهمت كثرة المعطوفات عن طريق الامتداد في توضيح أدق تفاصيل الصورة خاصة في رسالتيه في الاغتراب و جاءت الصورة الممتدة فيهما تمهيداً لرثاء نفسه لدي أهله، و رسالة الشطرنج التي رسم فيها الحياة الجاهلية قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم- بغرض التمهيد بتلك الصورة الممتدة لتوجيه الأمر بمنع الشطرنج

وتحريمه و هو ما فعله أيضاً في رسم صورة الإخاء للتأثير الايجابي علي المتلقي و كانت الصورة الممتدة في مجملها تمهيداً للاعتذار من المتلقي عن اللقاء لاشتغاله بالحرب مع مروان بن محمد.

أما من حيث اتساع مدي المعطوف أو المعطوف عليه فجاء في نثر عبد الحميد لتسليط الضوء علي الممتد منهما ، أو لتحقيق بطء لضمان التلقي الصحيح للرسالة ، أو لتوضيح الدلالة ، أو الحيوية في عملية التلقي لطول الارتداد من المعطوف علي المعطوف عليه لطول الفاصل بينهما. وقد ضَمِن الكاتب تفسيراً و توضيحاً من خلال الفاصل بين المتعاطفين وقد اقترن هذا النوع من العطف بسياقات النص أو الفتنة و جاءت متضافرة أيضاً مع التقديم و التأخير لإثراء الدلالة من ناحية ووضع الصورة في إطار رحب يلئم السياق كالامتداد بصورة الفتنة لتوضيحها وتنفير المتلقين منها. وجاء تكثيف العطف عن طريق كثرة المعطوفات و اتساع مدي المعطوف عليه ، و تنوع العاطف مع كثرة المعطوفات لتفصيل الدلالة و إظهار جوانب الصورة و اختص ذلك التكثيف في سياق الفتنة خصوصاً مع الاعتماد علي البنية التقابلية بين الطاعة و المعصية .

أما الشرط فقد دُرِس من حيث دلالة أدوات الشرط ، و طول الشرط ، وطول جملة جواب الشرط، و الشرط و الصورة ، وأخيراً تشابك الشرط مع التراكيب الأخرى.

أما أدوات الشرط فقد وجدنا بجانب الربط بين أجزاء الشرط ارتباط (إن) بتأكيد حدوث الجواب ، و(إذا) بالمفاجأة و الاستعداد لها ، و(لو، لولا) بالعجز و الافتقار إلي القدرة.

أما طول جملة الشرط فجاءت لتأكيد عدم قيام الجواب إلا في حال التأكد من حدوث فعل الشرط وقد اقترن ذلك خاصةً بسياق النص لولي العهد.

أما طول جملة الجواب فجاء موفراً فسحة زمنية للمتلقي لاستيعاب دلالة الشرط ، وموفراً فسحة مكانية للكاتب تكفي لإخراج شحناته الانفعالية خاصة في سياق حديثه عن غربته. وقد استفاد الكاتب من تتابع أساليب الشرط لتهيئة المتلقي ورفع درجة استعداده لكل الاحتمالات الوارد حدوثها خاصة في سياق النصح لولي العهد من ناحية، ومن ناحية أخرى صيغت أساليب الشرط في السياق الواحد علي شكل بنية تقابلية وكان الناتج توكيد دلالة الشرط، وقد تضافرت أساليب الشرط المتتابعة المقامة علي بنية تقابلية مع التصوير لتأكيد صورتين متقابلتين لشيء واحد وتحقيق الامتداد مع مشاركة العطف لتتضح الصور المتقابلة أمام المتلقي و خير ما مثل ذلك في نثر عبد الحميد تصوير الدنيا في صورتين متقابلتين اعتمد علي تتابع أساليب الشرط مع التركيز علي جانب واحد منها عن طريق تكثيف بعض البنى النحوية و الصرفية كالحال. وقد وهب الشرط الصورة تماسكاً بجانب الوضوح لقدرة أدوات الشرط علي الربط وللملمة أطراف الصورة و تأكيدها ، و أخيراً درس مع بعض الحركات التي تشابكت معه في سياق واحد وأعطى الشرط إمكانية الاتساع ليسمح بمرور بعض التراكيب الأخرى كالتقديم و التأخير لتسليط الضوء علي المقدم وجعله محورياً للدلالة في السياق. وتشابك أيضاً مع العطف لتحقيق الترابط و التماسك في النص لكثرة الحركات المرتدة علي أدوات الشرط و العطف.

أما التركيب الوصفي فدرست فيه النعوت المتتابعة لمنعوت واحد في سياق واحد، و النعوت بأنواعها من نعوت مفردة غير مضافة ، و نعوت مفردة مضافة ، و نعوت جملة ، و نعوت شبه جملة ، مع الفصل أو الوصل ، وأخيراً تداخل النعت بأنواعه السابقة لمنعوت واحد في سياق واحد. وقد خرجنا بإعطاء صفة جامعة للموصوف مع تأكيدها ، مع التشابه الصوتي و الصرفي النابع عن تكرار شكلي للقوالب النحوية و الصرفية يضيف حيوية علي عملية تلقي النص مع تأكيد بعض الدلالات مثل القوة والخبرة و الهلاك مع النعوت الجملة ، وشدة الحنان أو البداوة أو الإخلاص مع النعوت المفردة. كما جاء الفصل بين النعوت كوسيلة

لآخر في فاصلة أخرى لإحداث أثر موسيقي كالسجع أو لتوضيح علاقة منطقية بينهما كالتقابل أو السببية ، أو لاتصاله بمتعلقاته كالنعوت و المعطوفات .وغير ذلك فقد اختص التقديم في الجملة الفعلية بتقديم المفعول به علي الفاعل للتعظيم أو للتحقير أو لفت الانتباه إلي أهمية المتقدم أو تأكيد الدلالة أما تقديم المفعول به علي عامله فقد جاء في سياق واحد هو الدعاء وكان المتقدم لفظ الجلالة للتبرك به و ليكشف عن نزعة الكاتب الإيمانية.أما الجملة الاسمية فقد اختصت بالعدول بالخبر إلي الحال ليوضح إغرام الكاتب بالحال ليكتسب الخبر بتقديمه ووقوعه موقع الحال صفة الدوام وينقله من مجرد الإخبار إلي تضمن الحدث ذاته.وفي كل فقد كان التقديم و التأخير مقترنًا بالامتداد في النص خاصة بالتراكيب الوصفية والشرط لتفصيل الدلالة وتأكيدھا.

أما الزاوية الأخرى للتقديم والتأخير فدرس فيها التباعد الشديد بين المفردات ، والتقديم و التأخير الواقع بين نوعين من الجمل و قد حقق هذا النوع الامتداد بالتراكيب بزيادة العلاقات النحوية و الصرفية و كثرة الحركات المرتدة لتحقيق الترابط و التماسك في النص مع تفصيل بعض الدلالات و الإشارة إلي الأبعاد الزمنية و المكانية و العلاقات الدلالية القائمة بين المفردات المترابطة نحويًا مع التنويع لإضفاء الحيوية علي عملية تلقي النص .

أما الحذف و الذكر فجاء للتقريب بين المفردات التي تجمعها صلة صوتية كالسجع و الجناس أو صلة دلالية كالتقابل أو صلة منطقية كالسببية ، إن الحذف ينفي عن الكاتب تهمة التطويل فكان معادلا لاسترسال الكاتب و محققًا لسرعة الفواصل وخير ما يمثل ذلك الحذف المتتابع في جمل متتابعة في سياق واحد فجاء حذف تسع عشرة من أشباه الجمل في جمل متتالية، وثمانية عشرة جملة مكونة من فعل و فاعل مع الإبقاء علي المفعول في جمل متتابعة وستة فواعل في ست جمل متتابعة، وثلاثة مفعولات ، وثلاثة من الأفعال الناسخة و أسمائها، وثلاث جمل مكونة من فعل و فاعل و مفعول مع الإبقاء علي الحال في جمل متتابعة و بجانب ما

سبق فقد أعطى هذا الحذف المتتابع للنص تشابهاً تركيبياً يعبر عن النظام الذي يتبعه الكاتب في نشره و يميز أسلوبه بالسلاسة. قُدرت المحذوفات في نشر الكاتب بثلاثمائة و سبعة عشر محذوفاً احتل حذف الفاعل في صيغة المبني للمجهول ما يزيد عن الثلث تليه شبه الجملة – جار و مجرور- بنسبة تقارب ثلاثة الأعشار يليهما المفعول به و جملة مكونة من فعل و فاعله، وحرف النداء(يا) ، وجملة الشرط، المضاف إليه ، المبتدأ، و فعل ناسخ و اسمه، جملة مكونة من فعل و فاعله مفعوله، و الحال ، وجملة بعد المشيئة، فعل ناسخ وحده، حرف جر، اسم موصول و كل ذلك بالنسبة المتبقية.

و جاء توظيف الحذف لإضفاء الغموض للتعظيم أو التحقير أو العموم خاصة في سياقات الوصف و التهديد، و لإبراز بعد مكاني أو زمني، أو لإبراز الحال ، وقد جعل الحذف من المتلقي مشاركاً في إبداع النص وجعل ذهنه نشيطاً في استيعاب الدلالة و التعمُّد علي أسلوب الكاتب.

أما الالتفات فقد دُرِس فيه الالتفات الكمي والالتفات الكيفي و الالتفات الكمي الكيفي. وكان عدد الالتفاتات سبعين التفاتاً احتل الكمي نسبة تقارب الثلثين، و الكيفي نسبة تقارب الربع و النسبة المتبقية للالتفات الكمي الكيفي. كشف الالتفات عن توسيع دائرة الخطاب مما كشف عن مسئولية الكاتب في توجيه الخطاب لأكبر عدد من الأمة ، ولاحت مشغلة الوحدة التي آمن بها الكاتب التي جعلته يصهر الأفراد في الجماعة ويجعل تميز الجماعة و قوتها بتميز أفرادها و قوتهم خاصة فرسان الدولة .

أما الباب الثالث فجاء بعنوان (المستوى التصويري) وقد انصب فصله الأول علي الصورة الجزئية في نشر عبد الحميد و كشف عن بعض الجوانب التي تكسب أسلوبه خصائصه المميزة و كشف عن إسهامات الصورة في خدمة السياق و إنتاج الدلالة وقد دُرِس فيه التشبيه و الاستعارة و الكناية وفي فصله الثاني رصد للصورة الكلية التي تظهر رؤية الكاتب الخاصة تجاه الحياة و الموجودات.

تناول التشبيه من حيث الأداة- المرسل و المؤكد- ومن حيث وجه الشبه-
المفصل و المجمل- و التشبيه البليغ كما درس التشبيه من حيث استناد ركنيه علي
الحس أو التجريد وكان عدد التشبيهات مائة وسبعة تشبيهاً احتل المؤكد وحده
ثماني أعشار و نصف العشر ليكون معادلاً للاسترسال و سرعة الصورة و تنبيه
المتلقي ، أما التشبيه المرسل فقد مثل النسبة الباقية و ارتبط بسياقات التهديد و
الوحدة ليصبغ الصورة بالوضوح . و اختص بالأدوات (ك،كأن،كما،مثل) دون
غيرها ، واحتلت الكاف وحدها ما يقارب نصف الأدوات.

أما التشبيه من حيث وجه الشبه فقد احتل المجمل ما يقارب الثلثين مثل
المعتمد علي البصر وحده الثلثين من المجمل في مقابل الثلث للتشبيه المفصل و
كان هذا النوع في عمومته معادلاً للاسترسال ، و جاء التشبيه المفصل موضحاً
للصورة خاصة في سياق النصائح .

أما التشبيه البليغ فقد احتل وحده ثلاثة أخماس التشبيه ، و قد ورد في
سياقات الحكمة و العتاب و النصيح.

أما التشبيه من حيث الحسية و التجريد فقد جاء بالأشكال (حسي/ حسي
(حسي/مجرد) ، (مجرد/مجرد) ، (مجرد/ حسي) . جاء النوع الأول بنسبة
تزيد علي أربعة الأعشار و الثاني بنسبة تزيد علي الربع و يدل هذا النوع من
التشبيه في مجمله علي حاجة الكاتب في وضوح الصورة و الدلالة، ما عدا (
مجرد/مجرد) فقد اقترن بالسلبيات مثل الفتنة و الغربة و الفرقة .

أما الاستعارة فقد درست من حيث الطرف المطوي – مكنية و تصريحية-
و من حيث الإطلاق و التجريد و الترشيح ، و درست المكنية من حيث التشخيص و
التجسيد و الإحياء ، و درست التصريحية من حيث انتماء العنصر الدلالي المذكور
مع رصد الدلالات المنعكسة عن كل أسلوب و جاء عدد الاستعارات أربع مائة
و أربع عشرة استعارةً احتلت المكنية ما يزيد علي ثمانية الأعشار و نصف العشر ،

أما الاستعارة المكنية المطلقة فقد احتلت ما يقارب ثماني أعشار و المرشحة العشر و نصف العشر و النسبة المتبقية للمجردة ، حقق الكاتب بالمكنية المطلقة سرعة للفواصل و كانت كمعادل للاسترسال و جاءت مقترنة بسياقات العتاب و المصائب ، أما المكنية المرشحة فجاءت محققة الامتداد للمستعار منه و اقترنت بالسياقات التي تظهر انفعالات الكاتب . أما المجردة فجاءت محققة لوضوح الدلالة ، أما الاستعارة المكنية المشخصة فجاءت بنسبة تقارب النصف و التجسيدية تقارب أربعة أعشار و الإحيائية بالعشر المتبقي.

اقترنت التشخيصية برغبة الكاتب في تقريب صورة الاستعارة من ذهن المتلقي و تأكيد البعد الإنساني و خلع القدرة و الحركة علي المستعار له. أما التجسيدية فرسمت صورة حسية واضحة للمجردات كالفتنة و الفواحش ، و الإحيائية رسمت صور متقابلة أو غامضة للتفسير منها خاصة الفتنة .

أما الاستعارات التصريحية فقد حققت للمستعار منه امتدادًا و اقترنت في عمومها بدلالة التوكيد . جاءت المجردة بنسبة أربعة أعشار و المطلقة تقاربها و النسبة المتبقية للاستعارة التصريحية المرشحة ، اقترنت المجردة بوضوح الدلالة و المطلقة ارتبطت بالسياقات التي يرغب الكاتب فيها بتنشيط ذهن المتلقي و تحقيق سرعة الفواصل ، أما المرشحة فجاءت لتقوية الجانب التخيلي لدى المتلقي.

أما من حيث العنصر المذكور فجاءت المفردات المادية بنسبة تقارب ثلاثة أعشار و ارتبطت بوضوح الدلالة ، وما يخص الإنسان بنسبة الربع و ارتبطت بالوضوح أيضًا و خلع القدرة علي المستعار له ، والعناصر المجردة بنسبة تقارب الربع ارتبطت بسياق العزاء ، و عناصر الطبيعة بنسبة تقارب العشر و نصف العشر، وجاء الحيوان بنسبة تزيد علي نصف العشر موحية بالغموض و تقلب الحال.

أما الكناية فقد درست من حيث نوع المكنى عنه سواء أكان صفة أو موصوفاً مع رصد السياقات الواردة فيها ومدى ارتباطها به في نثر عبد الحميد وقد كان عدد الكنايات مائتين وثمانين و تسعين كناية احتلت الكناية عن صفة ثمانية الأعشار في مقابل العشرين للكناية عن موصوف ، وقد ارتبطت الكناية عن صفة بسياقات النصيح و التوجيه ، والوصف ، والتهديد و العتاب ، و الحكمة و جاءت في كل ذلك مؤكدة لدلالة السياق.

أما الكناية عن موصوف فجاءت عن الحرب و الجنود، الأمويين، الموت و الحياة، و الدين ، والكتابة ، والغربة وجاءت لإبراز الموصوفات في السياق.

أما الصورة الكناية فقد درست لوحات الدنيا، الإخاء، الطبيعة، الفتنة، الأهواء و الحكمة، المرأة، وأخيراً الحرب

وقد تليت هذه الأبواب بخاتمة و ملخص للبحث عرض أهم نتائجه وأعقبها ثبت بالمصادر و المراجع التي أفادت منها الدراسة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أدب الكاتب / ابن قتيبة، ت محمد محي الدين، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٨
- أسرار البلاغة/ عبد القاهر الجرجاني، ت محمود محمد شاكر، ط. المدني ١٩٩١
- الأسلوبية الصوتية/ د محمد صالح الضالع، دار غريب ٢٠٠٢
- الأسلوبية مدخل نظري/ د فتح الله سليمان، الفنية للنشر، ١٩٩٠
- الأصوات اللغوية/ د إبراهيم أنيس، الانجلو، ١٩٩٩
- أمراء البيان/ محمد كرد علي، القاهرة ١٩٤٨
- الإيضاح في علوم البلاغة/ الخطيب القزويني، ت عبد القادر حسين، ط الآداب، ١٩٩٦
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ت صلاح الدين محمود السعيد، دار البيان، القاهرة ٢٠٠٦.
- بلاغة العطف في القرآن الكريم/ د عفت الشرقاوي، النهضة العربية، ١٩٨١
- البلاغة و الأسلوبية/ د محمد عبد المطلب، لونجمان، ١٩٩٤
- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، د محمد عبد المطلب، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣.
- البيان والتبيين/ الجاحظ، ت عبد السلام هارون، دار الفكر
- التذكرة الحمدونية/ ابن حمدون، ت إحسان عباس، معهد النماء العربي بيروت ١٩٨٣
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، بيروت
- التطور و التجديد في الشعر الأموي، د شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٨٧.
- جدلية الأفراد والتركيب/ د محمد عبد المطلب، القاهرة، ١٩٩٠
- جمهرة رسائل العرب/ د أحمد زكي صفوت، القاهرة، ١٩٣٢
- دراسة في أدب أحمد يوسف الكاتب/ د محمد يونس، المنيا، دار حراء ١٩٨٦
- الدرس التطبيقي في النقد العربي/ د طارق سعد شلبي، زهرة المدائن، ٢٠٠١
- دلائل الإعجاز/ عبد القاهر الجرجاني، ت محمود محمد شاكر، الخانجي ١٩٨٤
- دلالة الألفاظ/ د إبراهيم أنيس، الانجلو ٢٠٠٤
- رسائل البلغاء/ محمد كرد علي، القاهرة ١٩٥٤
- سرح العيون، ابن نباتة، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ١٩٦٤.

- شعر الدعوة عند حسان ابن ثابت، د طارق سعد شلبي، زهرة المدائن، القاهرة ٢٠٠٣.
- صبح الأعشى/ القلقشندي دار الكتب المصرية ١٩٢٨
- الصناعتين / أبو هلال العسكري، ت، محمد علي البجاوي، ط الحلبي ١٩٥٤
- الصوت و الصورة في الشعر الجاهلي/د طارق سعد شلبي، البراق ٢٠٠٦
- عبد الحميد الكاتب و ما تبقي من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، د احسان عباس، دار الشروق، عمان ١٩٨٨.
- العصر الاسلامي /د شوقي ضيف، دار المعارف ٢٠٠٢
- العلامة و العلامة/ د محمد عبد المطلب، الوطن العربي، بيروت ١٩٨٨
- علم الأسلوب /د صلاح فضل، دار الشروق ١٩٩٨
- العقد الفريد /ابن عبد ربه، دار السيرة، بيروت
- الفن و مذاهبه/د شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٩٥
- الفهرست/ابن النديم، ت محمد عوني، إيمان السعيد، الذخائر ٢٠٠٦
- في النثر العربي/ د محمد يونس، لونجمان ١٩٩٦
- في النص الشعري، د طارق سعد شلبي، القاهرة.
- في النقد العربي/ شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٧١
- قراءة ثانية في شعر امرئ القيس/د محمد عبد المطلب، لونجمان، ١٩٩٦
- قراءة الصور و صور القراءة/د صلاح فضل، دار الشروق ١٩٩٧
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني/ د محمد عبد المطلب، القاهرة ١٩٩٠.
- قضية السجع بين القدماء و المحدثين، د محمد يونس، القاهرة ١٩٨٦.
- الكامل في الأدب المبرد، ت محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر ١٩٩٨
- الكتاب، سيبويه، مكتبة المعارف الاسلامية الإصدار الأول.
- الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية/د حسني ناعسة، بيروت ١٩٧٨
- المثل الثائر/ ابن الأثير، ت محمد محي الدين، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٠.
- محمد و الفتح-قراءة في جماليات البيان القرآني/د طارق سعد شلبي، دار الفردوس ٢٠٠١
- محاضرات في الأدب العربي، د محمد يونس، القاهرة د ت.
- ملامح يونانية في الأدب العربي، د احسان عباس المؤسسة العربية .
- مفتاح العلوم/السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت د ت
- مناهج نقد الشعر، د ابراهيم عبد الرحمن، المصرية العالمية، القاهرة ١٩٩٧.
- من حديث الشعر و النثر، طه حسين، دار المعارف ١٩٦٥.
- منهاج البلغاء/حازم القرطاجني ت محمد الحبيب، تونس ١٩٦٦
- النثر الفني في القرن الثاني الهجري، د سعيد منصور، منشأة المعارف.

- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي/د حسين نصار، النهضة المصرية ١٩٥٤
- الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات، د طارق سعد شلبي، زهرة المدائن، القاهرة ٢٠٠٣.
- الوزراء والكتاب/الجهشياري، ط الحلبي د ت
- وفيات الأعيان/ابن خلكان، ط الميمنة د ت
- الرسائل العلمية
- أساليب النداء في القرآن الكريم، محمد سمير، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة عين شمس ٢٠٠٤.
- تطور النثر العربي حتي القرن الثاني الهجري ، عقلة سليمان العقيل، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة الأسكندرية ١٩٧٥.
- عبد الحميد بن يحيى الكاتب و أثره في الكتابة، د محمد جمعة عبد الصمد رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالأزهر القاهرة ١٩٧٨.
- شعر عبيد بن الأبرص- دراسة أسلوبية، د طارق سعد شلبي، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٩٤.
- النثر الفني و أطواره في القرن الثاني الهجري، د عبد المجيد ابراهيم هندي رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالأزهر القاهرة ١٩٧٢.
- المراجع الالكترونية
- مكتبة المعارف الاسلامية، الإصدار الأول.
- الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث المجمع الثقافي - الإمارات